البيان العربي

عهد الجاهلية :

تنافس العرب أيام الجاهلية في نظم القصيد والرجز وفي الخطب المنثورة ، ورويت عنهم أمثال وأحاديث ؛ وكان ما يفيض من قرائح شعرائها وخطبائها في المفاخرات والمنافرات والحمالات والمهادنات من دواعي الإعجاب والاغتباط .

وما كان لكل عربي أن ينفتق لسانه بقول الجيد من الشعر أو النثر ، فقد يأتي الجيل والجيلان ، والقبيلة العظيمة لا يظهر فيها شاعر أو خطيب يعلي صوتها وصيتها ، ويعدّد من عام إلى عام مآثرها ، ويرفع بما يبتده الضيم عن أهلها ، ويُرهب بسلطان بلاغته عدوّها ؛ وكان الشاعر عندهم يُفَضَّل على الخطيب ، فلما اتخذ الشعراء شعرهم آلة للتكسب ، وابتذلوه في المديح والهجاء ، علت منزلة الخطيب على منزلة الشاعر .

ولقد حفظ من الشعر بعضه لطربهم به ، وعجبهم بالعالي منه ، ولأنه دوّن مفاخرهم وخلد تاريخهم ، وباد النثر على وفرته ، إلا صفحات قليلة لو أنعمنا النظر في بعضها ، لما أحجمنا عن القول بأنها واهية الإسناد ، ظاهرة التصنيع ؛ ومنها أمثلة في أُمهات كتب الأدب لا تروقك ولا تشوقك ؛ والغالب أن ما عُزِي لعهد الجاهلية من المنثور كان مما أخذ بالمعنى كما نُقل معظم الأحاديث النبوية . يقول الرّقاشي ما تكلمت به العرب من جيد المنثور أكثر ما تكلمت به من

جيدالموزون ، فلم يُحفظ من المنثورعشره ، ولا ضاع من الموزون عشره.وقال أبو عمرو بن العلاء : ماانتهى إليكم مما قالته العرب إلا أقله ، ولو جاءكم وافراً لجاءكم علم وشعر كثير .

ضاع تراث الجاهلية في النثر لفقدان التدوين ، ولغلبة الأمية على العرب ، وما رواه الرواة كان من محفوظ الرجال ، والحفظ عرضة للنقص والزيادة .وجاء الإسلام وليس في قريش غيرُ سبعة عشرة رجلا وبضع نساء يكتبون ويقرأون ، وقريش سادة العرب وأنبه قبيلة فيهم ، وأكثرهم حضارة وتمازجا بالشعوب المجاورة . أما سائر بلاد العرب كاليمن فلم يُعرف فيها من يكتب .

شاعت الكتابة في الحيرة أكثر من غيرها من البلاد المتاخمة لجزيرة العرب ، ويعلل المرزباني ذلك بأن أهل القرى ألطف نظراً من أهل البداوة ، وانهم كانوا يكتبون لمجاورتهم أهل الكتاب ، فأخذت قريش الكتابة عن إياد في الحيرة ؛ ولما كان أهل القرى أكثر استعداداً للحضارة ظهر الأنبياء فيهم ، وما جاء رسول من أهل الوبر .

كتب عدة كتاب من أهل الحيرة في ديوان الأكاسرة ، ومنهم عديٌّ ابن زيد وزيد بن عدى ولقيط بن يعمر الإيادي ؛ وكان أكثم بن صيفي حكيم العرب يكاتب الملوك ، ولأبناء جفنة في البلقاء كتاب يكتبون عنهم في خاص أمورهم وعامهم ، وكان المرقّش كاتب الحرث بن شمر الغساني ، وبذلك تبين أن الإياديين سبقوا إلى الكتابة ، وما جاء خبر أكيد عن الغسانيين الذين جاوروا الروم في جنوب الشام وتصرفوا لهم .

ما علا شأن قريش في الكتابة إلا في الإسلام ، ولا يعلم إذا كانت تراسل الملوك ، إذ لم يكن لها نظام دولة ثابت ، وكانوا إذا رأوا كتباً كتبها أهل الكتاب استعظموها ؛ وعثروا في الإسلام على رسالة بخط عبد المطلب بن هاشم في قطعة أَدَم وذلك في إثبات حق له على رجل من العرب .

وإذ كانت الخطب والرسائل في ذاك العهد قاصرة الأغراض ، وصادرة عن

أناس على الفطرة ، ليس لهم من المدينة مادة تدعوهم إلى الفلسفة والتوسع في الفكر ، تجردت كتابتهم من كل صنعة وفن ، ويقول الجاحظ : إنه لم يجد في خطب السلف الطيب ، والأعراب الأقحاح ألفاظاً مسخوطة ، ولا معاني مدخولة ، ولا طبعاً رديئاً ، ولا قولاً مستكرهاً ؛ وأكثر ما وجد من ذلك في خطب المولدين البلديين المتكلفين ، ومن أهل الصنعة المتأدبين ، سواء كان ذلك منهم على جهة الارتجال والاقتضاب ، أو كان من نتائج التخير والتفكير .

عهد الاسلام :

والمعقول أن أسلوب الجاهليين في الكلام المنثور لا يختلف عن الأسلوب المتبع في الرسائل والخطب أول الإسلام ، لأن الرسول عليه الصلاة والسلام خاطب قومه بالطريقة التي يفهمونها ، وتقع من نفوسهم الموقع الحسن . وما قَدَّرَت العرب بلاغته حق قدرها إلا لأن بلاغتهم ضرب من بلاغته ، والبليغ يدرك من هو أبلغ منه . وفي كتب النبي إلى عماله ، وإلى رؤساء القبائل ، وإلى الأمراء والملوك ؛ ومنها ما أملاه بنفسه أوكتبه له كتابه فأقرَّهم عليه ، مثال من بلاغة الأقدمين من العرب ؛ وقد رأيناه « صلوات الله عليه » ينكر على من يسجعون الكلام ، وينهى عن السجع على نحو سجع الكهان ، وكانوا يسجعون للإغراب والتأثير والزينة .

كان الرسول يتوخى إذا كتب لغير العرب ، أن يوجز القول ، ويقلّ من اللفظ الذي لا يتفهمه كل إنسان ، حتى يسهل نقل كلامه إلى ألسن من كتب إليهم من غير العرب ، كما كان اذا خاطب قبائل من غير قريش أو كاتبهم يستعمل ألفاظاً مألوفة لهم لا يعرفهـا القرشيون ، ذلك لأن مقصده الإفهام ، والبليغ من الكلام ما فُهم وأبقى في النفس أثراً .

أوتي الرسول جوامع الكلم واختصر له الكلام اختصاراً ، وكلامه جزل رشيق ، لاتعمّل فيه ولا غموض ، وروي عنه أنه قال : « أبغضكم إليّ الثرثارون

المتشدقون » يريد أهل الإكثار وأصحاب التقعير في الكلام . والتقعير التكلم بأقصى الفم ، والتشدق تكلف البلاغة . نعم كان نزوراً يذم المكثار ، ويترسل في القول ، ويكره الانبعاق في الكلام أي الاندفاع فيه . وقال : نضرَّ الله وجه رجل أوجز في كلامه ، واقتصر على حاجته . فأصْلح الرسول العربي لغة التخاطب والتكاتب ، كما جاء لإصلاح المعاد والمعاش . وكذلك يقال في بلاغة الصحابة ومن أخذوا عن الرسول ، وكذلك يقال فيمن أخذ عن الصحابة من التابعين وتابعيهم والخلفاء والأمراء ، يمتاز أفراد منهم بالبلاغة كما يتمايزون برجحان العقل :

وكتب الناس إلى أواخر القرن الأول على النمط الذي عرفوه عن الرسول ، آخذين بالطبع ، بعيدين عن الإطناب . ومن ذلك أمثلة كثيرة في كتب التاريخ والسير ، ومن أهمها رسالة عمر بن الخطاب إلى أبي موسى الأشعري في القضاء ، وقد كتبت على أسلوب عصرها ، لا تعمل فيها ولا سجع ولا مزاوجة ، لفظها على قدر معناها .

ما عدا أسلوب الكتب ، أسلوب الرسائل والخطب . بيد أن تدوين الكتب تأخر قليلاً ، ومن أول ما دون ما كتبه صاحب الرسالة لعمرو بن حزم وغيره في الصدقات والديات والفرائض والسنن ، وما كان يكتبه عمر من الحديث ، وقد أمره الرسول بتقييد العلم ، وأشار إليه أن يكتب خطبته في عام الفتح إلى أبي شاه ، وكان واثلة بن الأسقع يملي على الناس الأحاديث وهم يكتبونها بين يديه . وألف زيد بن ثابت كتاباً في الفرائض ، وأُلف كتاب في قضاء علي في عهد ابن عباس . وأمر معاوية أن يدون ما يتحدث به إليه عَبيد بن شَرْيَة من أخبار عاد وثمود وجرُهم . وكان عبيد من القدماء في الحكمة والخطابة مثل أسقف نجران وأكيدر صاحب دومة الجندل . كل أولئك كان الأساس الأول الذي قام عليه التأليف في القرن الثاني ، بالرواية وذكر السند ، ولم يصل إلينا من خطب القوم ومحاوراتهم ورسائلهم إلا مالا بال له .

أسلوب القرآن :

أما أسلوب القرآن فهو فوق كل أسلوب ، وأسمى من كل كلام . لم يعهد العرب مثله في نظام القول وترتيبه ، وما استطاعت ، على كثرة فصحائها في دهر نزوله ، أن تحتذى مثاله في أسلوبه وأداء معانيه ، وقد أريدوا على ذلك وتُحدوا عليه . والقرآن حسّن ملكة الكتابة والخطابة ، كما كان كذلك تأثيره في الشعراء ، فجاء الشعر الإسلامي أرقّ من الشعر الجاهلي .

ولقد قال بعض العارفين إن في القرآن المرسل والمسجع والمزدوج . والمرسل ما يطلق فيه الكلام إطلاقاً ولا يقطع أجزاء ، بل يرسل إرسالاً من غير تقيد بقافية ولا غيرها . والمسجع ما أتى قطعاً والتزمت في كل قافيتين منه قافية واحدة. والمزدوج أن يشبه الكلام بعضه بعضاً في السجع أو الوزن . وقالوا إنه لا يحسن منثور الكلام ولا يحلو حتى يكون مزدوجاً ، ولا تكاد تجد لبليغ كلاماً يخلو من الازدواج .

يقول ابن خلدون إن القرآن وإن كان من المنثور ، إلا أنه خارج عن الوصفين ، وليس يسمى مرسلاً مطلقاً ولا مسجعاً ، بل تفصيل آياته ينتهي إلى مقاطع يشهد الذوق بانتهاء الكلام عندها ، ثم يعاد الكلام في الآية الأخرى بعدها ، ويثنى من غير التزام حرف لايكون سجعاً ولا قافية ، ويسمى آخر الآيات فواصل ، إذ ليست أسجاعاً ، ولا التزم فيها ما يلتزم في السجع ولا هي قواف .

وذهب المعتزلة إلى نفي السجع من القرآن . وقال الباقلاني : إن السجع من الكلام يتبع المعنى فيه اللفظ الذي يؤدي السجع ، وليس كذلك ما اتفق مما هو في تقدير السجع من القرآن ، لأن اللفظ يقع فيه تابعاً للمعنى . وفصل بين أن ينتظم الكلام في نفسه بألفاظه التي تؤدي المعنى المقصود فيه ، وبين أن يكون المعنى منتظماً دون اللفظ ؛ ومتى ارتبط المعنى بالسجع كانت إفادة السجع كإفادة غيره ؛ ومتى ارتبط المعنى بنفسه دون السجع ، كان مستجلباً لتجنيس الكلام

دون تصحيح المعنى . وقال أيضاً : ولو كان القرآن سجعاً لكان غير خارج عن أساليب كلامهم ، ولو كان داخلاً فيها لم يقع بذلك إعجاز ، ولوجاز أن يقال هو سجع معجز ، لجاز لهم ان يقولوا شعر معجز ؛ كيف والسجع مما كان يألفه الكهان من العرب ، ونفيه من القرآن أجدر بأن يكون حجة من نفي الشعر ، لأن الكهانة تنافى النبوات وليس كذلك الشعر .

وسواء كان القرآن سجعاً أو ما يشبه السجع فهو من الكلام المنثور الذي لا تبلغ قرائح البلغاءِ مداه ، ما عرف شبيه له بهذه الرَّوعة وهذه العَبْقَة . يقول الجاحظ : لو أراد أنطق الناس أن يؤلف من هذا الضرب سورة واحدة طويلة أو قصيرة على نظم القرآن وطبعه وتأليفه ومخرجه لما قدر عليه ، ولو استعان بجميع قحطان ومعدّ بن عدنان ، وقال أيضاً : ولو أن رجلاً قرأ على رجل من خطبائهم وبلغائهم سورة واحدة لتبيّن له في نظامها ومخرجها من لفظها وطابعها أنه عاجز عن مثلها ، ولو تحدّى به أبلغ العرب لأظهر عجزه عنه لغا ولفظاً .

الأسلوب الأول :

احتفظت الكتابة والخطابة في عصر الصحابة ومن بعدهم بالطريقة التي ما حذقوا غيرها ، وهي تدور على توفية المعنى واللفظ حقهما ، مع البعد عن الإطناب والمبالغة ، والقصد إلى الإيجاز والسهولة ، يرسلون الكلام إرسالاً بلفظ سمح ، ومخرج سهل ، إملاآتهم كأحاديثهم ابنة السليقة وربيبة الغريزة ، خالية من كل ما هو متكلّف مصنّع . « بكلمات مؤلفات ، إن فسرت بغيرها عُطّلت ، وإن بدلت بسواها من الكلام استصعبت ، فسهولة ألفاظهم توهمك أنها ممكنة إذا سُمعت ، وصعوبتها تعلمك أنها مفقودة إذا طُلبت » ، وكانوا يقولون : البلاغة هي التقرب من البعيد ، والتباعد من الكلفة ، والدلالة بقليل على كثير ، وقالوا : البلاغة إيجاز في غير عجز ، وإطناب في غير خطل ، وإن

البلاغة إجاعة اللفظ وإشباع المعنى . وقال علي بن أبي طالب : ما رأيت بليغاً قط إلا وله في القول إيجاز ، وفي المعاني إطالة ، وقيل لعمرو بن العلاء : هل كانت العرب تطيل ؟ قال : نعم ليسمع منها . قيل : فهل كانت توجز ؟ قال : نعم ليحفظ عنها .

لاجرم ان الإيجاز من طبع العرب وطبيعة لغتهم ، وتخير الألفاظ من شأن كل بليغ . والعرب كما قال ابن جني تعنى بألفاظها وتصلحها وتهذبها وتلاحظ أحكامها . قال فإن المعاني أقوى عندها واكرم عليها ، وأفخم قدراً في نفوسها ؛ فأول ذلك عنايتها بألفاظها . فإنها لما كانت عنوان معانيها ، وطريقاً إلى إظهار أغراضها ومراميها . أصلحوها وبالغوا في تجبيدها وتحسينها ، ليكون ذلك أوقع لها في السمع ، وأذهب في الدلالة على القصد . وللمتأخرين آراء كثيرة في هذا الشأن ، ومنها ماقاله الجرجاني : « لا يكون الكلام يستحق اسم البلاغة حتى يسابق معناه لفظه ، ولفظه معناه ، ولا يكون لفظه أسبق الى سمعك من معناه إلى قلبك ، وقولهم يدخل الأذن بلا إذن . فهذا مما لا يشك العاقل في أنـــه يرجع الى دلالة المعنى على المعنى ، وأنه لا يتصور ان يُراد به دلالة اللفظ على معناه الذي وضع له في اللغة » .

كانوا يكتبون الرسالة في المقصد الكبير ، ويضعون الخطاب في أعظم المعضلات . في ايجاز لا فضول فيه ، عار عن المقدمات والتزويق ، يقيمون لكل لفظ معناه ، ولكل معنى لفظه ، وجودة اللفظ تبع لجودة المعنى : « وعلى منوال الخطابة نسجت الكتابة ، وعلى طريق الخطباء مشت الكتاب » . ذلك لأن « الرسائل والخطب متشاكلتان في أنهما كلام لا يلحقه وزن ولا تقفية ، وقد يتشاكلان أيضاً من جهة الألفاظ والفواصل . فألفاظ الخطب تشبه ألفاظ الكتاب في السهولة والعذوبة ، وكذلك فواصل الخطب مثل فواصل الرسائل ، والفرق بينهما أن الخطبة يُشافه بها بخلاف الرسالة ، والرسالة تجعل خطبة ، والخطبة تجعل رسالة ، في أيسر كلفة » . قال ذلك العسكري ، وذكر غيره أن الخطابة نوع من منثور الكلام ، تأخذ من النثر تصوير الحقائق وإبلاغهـــا

النفوس من دون اتعاب ذهن ، ولا تكلف في الأداء ، ومن النظم سلاسته ، وتأثيره في النفس .

تبدل الأسلوب :

عرضت بواعث كثيرة لأولى الأمر من العرب بكثرة الفتوح ، وانتشار الإسلام ، وتمازج الفاتحين بأجناس من الأمم ، فاحتيج الى التعاهد والتعاقد ، والتدريب والترتيب ، والمرادات والمشادات ، ودعت الحال إلى ان يخطب ويكتب في ضروب من الكلام ، وما خرج الكاتبون مع هذا عن معهود طريقتهم ، لا يتعدون إذا أطالوا في رسائلهم الأسلوب القديم بحال ؛ يتوسعون في المعاني للإقناع والتأثير ، واستيفاء الموضوع من عامة أطرافه ، ويبقون الألفاظ والتراكيب على النسج الذي عرفوه ، لا يكثرون من اللفظ إلا بقدر ما يصورون المعاني ، ويجمعون شتيت المقاصد ، ولا يستخدمون من الكلمات إلا الشائعة في الاستعمال ، ولا من المعاني ما يعلو عن أذهان عامة الطبقات ، ولا من السجع إلا ما وافق الطبع .

وزادت مع الزمن أعمال الملك والسلطان ، وحدثتْ للناس مشاكل وعُضل وخيف ضياع العلم ، فدعت الضرورة إلى تدوين أمهات المسائل في الدين واللغة والشعر والأخبار والسير ، والكتابة لم تبرح على ما كانت ، يتبسطون في الفكر والشرح ، ويبعدون عن التزيد والتزيين ، ويراعون الإيجاز ما أمكن ، ويحتفظون أبداً بالطريقة المأثورة عن أهل الصدر الأول ؛ فكان التوسع في الأغراض والمطالب فقط ، وما خرجوا عن الألفاظ والقوالب المشهورة . وفي كلام التابعين ، ومن جاء بعد عصرهم من رواة العلم ، جمل قليلة تقرأوها في كتب التفسير والسنة والتاريخ والرجال ، فتناديك بأن الطريقة القديمة في أداء الكلام لم يدخلها تغيير ولا تبديل .

جاء من الأمويين كتاب بلغاء ، وخطباء أبيناء ، جروا في ترتيب دولتهم

على سنة من تقدمهم في الرسائل والعهود . وفي الموجزات من رسائل عمر بن عبد العزيز مثال من البلاغة ، لولا أن اختلط كلامه بما كتبه له كتابه ، وكان يكتب بيده إلى عماله في الأمصار ويكتب كتابه في المسائل العادية . كان من بلغاء الكتاب ومصاقع الخطباء ، ولما بويع بالخلافة دعا اليه كاتباً فأملى كتاباً واحداً من فيه الى يد الكاتب بغير نسخة ، فأملى أحسن إملاء وأبلغه وأوجزه ، ثم أمر بذلك الكتاب فنسخ إلى كل بلد . وكتب إلى عامله على المدينة ، وقد سأله قراطيس : « دقق القلم وأوجز الكتاب فإنه أسرع للفهم » .

جرى بعض خلفاء الأمويين على نهج عمر بن عبد العزيز في الإيجاز وبعضهم على التطويل ؛ وقيل إن الوليد أول من جود القراطيس ، وجلل الخطوط ، وفخم المكاتبات ، وتبعه من بعده من الخلفاء إلا عمر بن عبد العزيز ويزيد بن الوليد ، فإنهما جريا في المكتبات على طريقة السلف ، ثم جرى الأمر بعدهما على ما سنه الوليد بن عبد الملك ، إلى أن صار الأمر إلى مروان بن محمد فعمدوا إلى الإطناب . ولنا أن نقول بعد هذا إن القرن الأول كان قرن الإيجاز والفطرة ؛ والقرن الثاني قرن التطويل والإيجاز معاً ؛ والناس يتخرجون في البيان تخرجاً ، ويجوّد من أوتي طبعاً سليماً ، ولكل زمان ما يليق به من البيان كما قالوا .

الأعاجم والعربية :

كان أخوف ما يخافه العرب على اللغة سراية اللحن اليها ، وما أهمهم ما دخل من التطويل على الرسائل والخطب ، وما سرى من تغير طفيف إلى نسج الكلام ، كالإكثار من السجع والازدواج . والغالب أن اللحن أخذ يشيع في الناس منذ عهد الرسول . فقد روي أنه سمع رجلاً يلحن في كلامه فقال : « ارشدوا أخاكم فإنه ضل » ، ورووا أيضاً أن أحد ولاة عمر كتب إليه كتاباً لحن فيه ، فكتب إليه عمر أن قنّع كاتبك سوطاً . وعلة الامتناع من الأخذ

عن أهل المدر كما أُخذ عن أهل الوبر ما « شاع في لغة أهل المدر من اضطراب الألسنة وخبالها ، وانتقاض عادة الفصاحة وانتشارها » .

وذكروا أن الوليد بن عبد الملك كان لحاناً ، وكان عبد الملك فصيحاً ، وعرف بلحن ابنه ، فقال له : إنك يابني لا تصلح للولاية على العرب وأنت تلحن . وجعله في بيت وجعل معه من يعلمه الإعراب . وإذا لم يكن للخليفة أو الأمير حظ من العربية ، وقسط جزيل من البلاغة ، فكيف يخطب في أيام الجمع والأعياد ، وفي النوازل الكارثة .

سأل الحجاج ، وهو من ابلغ الخطباء ، يحيى بن يَعْمر هل يلحن عنبسة ابن سعيد ؟ قال : نعم ، كثيراً . قال : فأخبرني عني ، هل ألحن ؟ قال : لا ، أنت أفصح الناس . قال لتخبرني ، قال : إنك تلحن لحناً خفيفاً ، تزيد حرفاً أو تنقص حرفاً ، وتجعل إن في موضع أن . ويقال إن الحجاج قال له : عزمت عليك لتخبرني (عن نفسه) ، وكانو يعظمون عزائم الأمراء . فقال يحيى : نعم في كتاب الله ، قال : ذاك أشنع ، ففي اي شيء في كتاب الله ؟ قال : قرأت : (قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحَبَّ إليكم من الله ورسوله) فترفع أحبّ وهو منصوب . قال : إذاً لا تسمعني ألحن بعدها ، ونفاه إلى خراسان ، وما احتمل له قوله إنه قد يلحن ، وعدّ ذلك سُبّة على مثله .

وطبيعي أن يزيد اللحن بدخول الأعاجم في الدين وتمازجهم بالعرب ، وأن تضعف ملكة البلاغة في القول والكتابة ، بتكاثر كتاب الدولة الأموية وعمالهم من ابناء الروم والفرس والقبط والبربر ، ولا سبيل إلى أن يكون الدخيل كالأصيل حذو القُذّة بالقُذّة ، في منازع التصوير والتفكير والتحبير .

وإذا عرفنا أن اختلاط العرب بالفرس بدأ من عهد الأكاسرة عن طريق الحيرة ، حتى أن بهرام جور بن يزدجرد وضعه أبوه عند النعمان بن المنذر ملك الحيرة ليتأدب بآداب العرب ، ويعرف أيامها وأخبارها ، وأن الحضارة باكرت

الحيرة كما باكرت جنوب الشام ، وأن شعراء الجزيرة كانوا يفدون على المناذرة والغساسنة فيلقون صدوراً رحبة ، ويتقبل أمراء ذينك الإقليمين أماديح شعراء العرب بقبول حسن — إذا عرفنا هذا فلا علينا أن نقول إن صلات العرب والفرس استحكمت قبل البعثة بزمن طويل ، وكثرت في الفتح وفود الشعراء على بعض أمراء العرب من الفاتحين في فارس ، واقتضى نصب كتاب يكتبون لهم في أغراضهم المختلفة .

وَقَرَّ في صدور الشعراء والكتاب من العرب ما رأوه في أرض فارس من مدنية قديمة ، فأخذوا ينقلون ما رأوا أمتهم في حاجة اليه ، وأخذت الدولة العربية عن فارس « قوانين الملك والمملكة ، وترتيب الخاصة والعامة ، وسياسة الرعية » ، وكانت « أكثر المعربات مأخوذة من الفارسية » . ولما نقلت الدواوين على عهد عبد الملك بن مروان من الفارسية والرومية والقبطية إلى اللغة العربية انتقل جمهور كبير من الكتاب والحساب من الأعاجم إلى حجر العرب يكثّرون سوادهم .

ولما كان معظم من دانوا بالإسلام من الفرس لأول الأمر أكثر من الروم والقبط — والفرس مجوس تُقصد كالمشركين هدايتهم أولاً ويتسامح مع أهل الكتاب — كثر عديد الكتاب من الفرس بالضرورة ، وزاد عدد من ينزلون بلادهم من العرب ، لتولي الأحكام وإدارة الملك ، وسرت إليهم بعض عادات الفرس من حيث لا يشعرون ، وأمسو يغرقون في التبجيل والتحميد ، ويستعملون ذلك في الرسائل والخطب ، وظلت كتابة الكتب بمعزل . وبهذا تكوّن الأسلوب الفارسي . وكان عبد الملك بن مروان كثيراً ما يقول : إن رَوْح بن زِنباع ، وهو من المشهورين بالخطابة والعلم والسياسة : « شامي الطاعة ، عراقي الخط ، حجازي الفقه ، فارسي الكتابة » .

وتجلت في القرن الثاني الطريقة الفارسية في العربية ، ووضع عبد الحميد بن يحيى أساس هذا الأسلوب المطوّل ، وكان يحسن الفارسية ، وهو أول من أطال

الرسائل ، ولم يعهد تطويل مثل تطويله في أهل القرن الأول ، اللهم إلا ما كان من رسالة علي بن أبي طالب إلى الأشتر النخعي ، وهي في مطالب إدارية عظيمة ، هذا إذا صحت نسبتها إلى أمير المؤمنين. فأسلوب القرن الثاني لم يخرج والحالة هذه عن أسلوب أهل القرن الذي تقدمه بألفاظه وتراكيبه ، اللهم إلا ما كان من سجع قليل ، وشيء من مبالغة وتهويل ، ولولا الإطالة لأشبهت كتابة أهل القرن الثاني كتابة أهل القرن الأول . دع ما كان من أفكار جديدة سرت بالترجمة والاختلاط ، مما هو طبيعي في اللغات والأمم .

وتعليل هذا الغلو المستفيض في كتابة الفرس ، وكتابة من تأثروا بآثارهم من كتاب العرب ، أن الفرس كانوا قبل حكم العرب يؤلهون ساداتهم وكبراءهم وهؤلاء يسخرونهم كما يسخرون العبيد ، وما على العبد إلا ارضاء سيده ، والادهان له . والإسلام لم ينزع كل ما تأصل في الطباع . وصار إيغال الفرس في التبجيل والتعظيم خلقاً لهم ، وعادة متأصلة على الأيام ، فظهر أثر ذلك في الكتابة — والكتابة مرآة صاحبها — على مالم يعهد مثله للعرب فيما سبق من الآباد . بدا ذلك قليلاً في بعض كتاب القرن الثاني وشعرائه ، وعمّ وطمّ في القرن الرابع .

ومن قارن بين ما كان يصدر من الرسائل عن الصحابة وخلفاء بني أمية وأوائل بني العباس ، وما كان يصدر في مثل موضوعها عن كتاب العباسيين في القرن الرابع يقع على فروق ، يسوغ لك ان تقول معها ان الكتابة انقلبت رأساً على عقب ؛ وإن بعض ما دبجه الكاتبون هذا القرن في السلطانيات خاصة والاخوانيات عامة ليس إلا اسلوباً فارسياً مهذباً : ألفاظ كثيرة ، وجناسات واستعارات ، تشفُّ في الواقع عن حضارة ، وما هي إلا نثر فيه الصنعة وفيه التصنع . والمدنية على جمالها لا تخلو في كل عصر من تعقيد ؛ وقد سبقت الكتابة في هذا الباب فتبدل المطبوع بالمصنوع أو كاد .

جرى بعض الخلفاء الأول من بني العباس في الشرق وبني أمية في الغرب

خلال القرن الثاني على طريقة أهل القرن الأول ، يطيلون تارة ويجيزون أخرى ، وكذلك ساروا في الرسائل والخطب ؛ ويزيد التمسك بالقديم إذا كان الخليفة كاتباً بليغاً وخطيباً مصقعاً في ذاته ، كالمنصور والرشيد والمأمون ، وكانوا يعرفون للبلاغة قدرها ، ويحملون كتّابهم على الإيجاز ، مراعاة لروح اللغة ، واقتداء بسيرة أئمتها ، وحرصاً على أن لا يصدر عن دواوينهم ما تنبوا عنه الأذواق ، ويغني قليله عن كثيره .

الأسلوب المنتشر :

رأى الناس بعد القرن الثاني أن من المصلحة الإسهاب في المكاتبات فأسهبوا ، وبدأ اسهابهم ضئيلاً ثم عظم بعد . وقد أبان ابن قتيبة سبب الإسهاب والاقتضاب بقوله : وليس يجوز لمن قام مقاماً في تحضيض على حرب ، أو حمالة بدم ، أو صلح بين العشائر ، أن يقلل الكلام ويختصره ، ولا لمن كتب إلى عامة كتاباً ، في فتح أو استصلاح أن يوجز ، ولو كتب كاتب إلى أهل بلد في الدعاء الى الطاعة والتحذير من المعصية كتاب يزيد بن الوليد إلى مروان حين بلغه تلكؤه في بيعته : « أما بعد فإني أراك تقدم رجلاً وتؤخر أخرى ، فاعتمد على أيهما شئت والسلام » ، لم يعمل هذا الكلام في أنفسها عمله في نفس مروان ، ولكن الصواب ان يطيل ويكرر ، ويعيد ويبدي ويحذر وينذر .

ومثل هذا رأى صاحب الصناعتين قال : « إن المعاني التي تنشأ الكتب فيها من الأمر والنهي سبيلها أن تؤكد غاية التأكيد ، بجهة كيفية نظم الكلام لا بجهة كثرة اللفظ ؛ ومثل ذلك ما يكتب من السلطان في أمر الأموال وجبايتها واستخراجها ، ومنها الإحماد والإذمام ، والثناء والتقريظ ، والذم والاستصغار ، والعذل والتوبيخ ، فإن سبيل ذلك أن تشبع الكلام فيه ، وكذلك فيما يكتبه العمال إلى الأمراء فمن فوقهم ، وكذلك في الكتب الصادرة عن السلاطين في الأمور الجسيمة ، والفتوح الجليلة ، وتفخيم النعم الحادثة ،

والترغيب في الطاعة ، والنهي عن المعصية ، سبيلها ان تكون مشبعة فتملأ الصدور ، وتأخذ بمجامع القلوب » .

وجملة الأمر أن الكتّاب في القرن الثاني والثالث جروا على سنة القدماء في الرشاقة والجزالة ، وخالفوهم في الأسلوب والوضع ، على مالا يعبث بمذاهب الكلام ؛ فكان فيهم من يطيل ويسهب ، وفيهم من يوجز ويقتضب ، وفيهم من يبالغ في المعنى ويغلوا ، وفيهم من يقتصد في اللفظ ولا يسرف ؛ فأسلوب ابن المقفع ، وسهل بن هرون ، وعمرو بن مسعدة ، والجاحظ ، إيجاز وتطويل بحسب الحال ، والجاحظ إلى البسط أقرب في الأحايين ، لأنه يقرر أنظاراً ، ويضع تعاليم ، ويفسر علماً وأدباً ، ويشرح معارف وحقائق ، ويحاج ويجادل ، فليس له غنىً عن التوسع في فنون الكلام ، وإذا افاض فكلامه كلام أهل القرن الثاني والثالث ؛ أما بلاغته فبلاغة أهل القرن الأول ، لا سجع في كلامه إلا ماجاء عفواً ، ولا تحس الصنعة فيه إلا إذا كان في تجديد المعاني والتراكيب ، واستعمال الجزل من الألفاظ .

ونحن على حق إذا ادعينا ، بعد الذي قدمنا ، أن ملكة التطويل استحكمت أواخر القرن الثاني ، بتكاثر عدد من نشأ من الفرس كتاباً وخطباء ومؤلفين ، أد مجوا فيما أنشأوا اسرافهم في التعظيم والتطويل ، واشتد تمازج من كانوا من أصل عربي من الكتاب والمؤلفين والرواة بأهل فارس ، حتى كادت دولة العباسيين تعد دولة فارسية لولا مكان الخليفة من العرب . وظهر الغلو في القول والإسراف في اللفظ ، وتلوين المعاني وإبرازها في صور كثيرة ؛ وتفنن بعض الكاتبين في إرسال الكلام ؛ وأوغلوا في الصنعة والتثقيف ، حتى أوشك البيان أن يصاب بما يخرجه عن رونقه القديم ، فنصح جعفر بن يحيى ، وهو أمير من أمراء البيان للكتاب قائلاً : إن استطعتم أن تكون كتبكم توقيعات فافعلوا .

قال هذا في العهد الذي أخذ فيه الأعاجم يسطون على الأسلوب العربي على هذا الوجه ، وفي تلك الحقبة كان العارفون يحاذرون ضياع الأسلوب القديم

جملة ، حتى أن المأمون رفع إلى مقام الوزارة كلاً من عمرو بن مسعدة وأحمد بن يوسف الكاتب لما أُعجب به من توخيهما الإيجاز في الرسائل على طريقة القدماء وقال يوماً : ما أعجب الكلام أحد كإعجابي بكتاب القاسم بن عيسى (أبي دُلَف) فإنه يوجز في غير عجز ، ويصيب مفاصل الكلام ، ولا تدعوه المقدرة إلى الإطناب ، ولا تميل به الغزارة إلى الإسهاب ، يجلّي عن مراده في كتبه ، ويصيب المغزى في ألفاظه .

نعم رفع الملوك من بني العباس بلغاء كتابهم إلى الوزارات ، وقلما رفعوا شاعراً لشعره ، لأن الشعر خيال وحس ، والكتابة عقل وحقيقة ، وحاجة الممالك في تدبيرها إلى العقول ، أكثر من احتياجها إلى العواطف ، والعلوم على اختلاف ضروبها تكتب نثراً . ولما نظم المتأخرون متون العلوم كالفرائض والقراءات والفقه والنحو وغيرها شعراً أفسدوا الشعر، وما أفادوا العلوم والمتعلمين كبير أمر ؛ وكان هذا العبث كالعبث بصنع الكلام يوم استخرجوا من نثر ابن المعتز ذاك الفن الذي سموه البديع ، فأفسد نظام الكلام ، وأخرج البيان عن أصوله وطرائقه إلى صنعة يقصد بها المجانسات في الألفاظ ، والاستعارات والتشبيهات في المعاني .

والكتاب كما يقول ابن قتيبة هم ألسنة الملوك ، إنما يتراسلون في جباية خراج ، أو سد ثغر ، أو عمارة بلاد ، وإصلاح فساد ، أو تحريض على جهاد ، أو احتجاج على فئة ، أو دعاء إلى أُلفة ، أو نهي عن فرقة ، أو تهنئة بعطية ، أو تعزية برزية ، أو ماشاكلها من جلائل الخطوب ، ومعاظم الشؤون التي يحتاجون فيها إلى أن يكونوا ذوي آداب كثيرة ومعارف مفننة .

قال : والشعراء إنما أغراضهم التي يرمون نحوها ، وغاياتهم التي يجرون إليها ، وصف الديار والآثار ، وذكر الأوطان ، والحنين إلى الأهواء ، والتشبيب بالنساء ، ثم الطلب والاجتداء ، والمديح والهجاء . ولذلك قال ابن خلدون : إن صاحب خطة الرسائل والكتابة لابد أن يُتخير من أرفع طبقات الناس ، وأهل المروءة

والحشمة منهم ، وزيادة العلم وعارضة البلاغة . وقال ابن سنان : منزلة الشاعر إذا زادت وتسامت لم ينل بها قدراً عالياً ولا ذكراً جميلاً ؛ والكاتب ينال بالكتابة الوزارة فما دونها من رتب الرياسة . قال : « وصناعة تبلغ بها الى الدرجة الرفيعة أشرف من صناعة لا توصل صاحبها إلى ذلك ؛ وإن أكثر النظم إذا كشف لا يعبر عن جد ، ولا يترجم عن حق ، وإنما الحذق فيه الإفراط في الكذب ، والغلو في المبالغة ، وأكثر النثر شرح أمور متيقنة وأحوال مشاهدة ، وما كثر فيه الجد والتحقيق أفضل مما كثر فيه المحال والتغرير » .

هذا غاية ما يقال في كتاب الرسائل أو كتاب الدواوين ، أما شرف الكتابة ، والحاجة الحافزة إلى إتقانها في التأليف ، فهو غني عن البيان بعد أن شاهدنا طبقات من المؤلفين كان من أعظم الدواعي لخلود تآليفهم إجادتهم الكتابة ؛ ولا نذكر منهم إلا من وصلنا شيء مما كتبوه ، كأبي يوسف صاحب أبي حنيفة ، ومسلم صاحب الصحيح ، وصالح بن جناح صاحب كتاب الأدب والمروءة ، وابن حبان البستي وابن المدبر وابن جني وابن سلام وابن قتيبة والثعالبي والطبري والمسعودي والمقدسي والدينوري والبلاذري والمبرد وابن الداية وأبي بكر الصولي والقاضي التنوخي وابن عبد ربه والمرزباني وأبي هلال العسكري وقدامة والباقلاني وأبي الحسن الأشعري وعلى بن هندو ويحيى بن عدي وعبد القاهر الجرجاني وعلي بن عبد العزيز ومسكويه وابن حزم وأبي الفرج الأصبهاني وابن زيدون والبكري وابن طفيل والغزالي والراغب الأصفهاني والماوردي والقالي وأضرابهم .

وما سلم من كتبهم شاهد أبد الدهر على تفوقهم في البيان ، وكان نبوغهم فيما عانوا من الفنون ، مضافاً إلى براعتهم في الإنشاء ، أعظم نعمة على الآداب العربية ؛ وهؤلاء وضرباؤهم هم الذين رسخت بهم ملكة البيان العربي على مرور الأزمان ؛ وفضلهم على الكتابة يوازي فضلهم في علوم أرادوا بثها ، وقد يربو على فضل الشعراء على الأدب .

قال الجاحظ عن نفسه إنه طلب علم الشعر عند الأصمعي فوجده لا يحسن إلا غريبه ، فرجع إلى الأخفش فوجده لا يتقن إلا إعرابه ، فعطف على أبي عبيدة ، فوجده لا ينقل إلا ما اتصل بالأخبار وتعلق بالأيام والأنساب ، وقال إنه لم يظفر بما أراد إلا عند أدباء الكتاب كالحسن بن وهب ومحمد بن عبد الملك الزيات . والكتاب يقدرون الشعر قدره أكثر مما يقدر الشعراء قدر الكتابة ؛ واصطلح الكتاب كما قال ابن رشيق على ألفاظ بأعيانها سموها الكتابة فما تجاوزوها إلى ما سواها ؛ وعرفوا معاني للبلاغة في النثر لم يتوفر للنظم مثلها ؛ ولذلك كانت الإجادة في النثر أصعب من الإجادة في الشعر .

الأسلوب المتكلف :

هذا وإن في منثور الكتّاب من القرن الثاني إلى الخامس بل السادس إحساناً دونه كل إحسان ، والقليل الذي قرأناه لعمارة بن حمزة وإسماعيل بن صبيح وجعفر بن يحيى ويحيى بن جعفر وخالد بن جعفر وعلي بن عيسى وابن الفرات هو غرة في وجوه الكلام على غابر الأيام .

وكان لعلي بن عيسى « مذهب في الترسل ، لا يلحقه فيه أحد ولا ابن الفرات » ، وابن الفرات هو الذي وضع الألقاب في مخاطبة الملوك والأمراء والوزراء والعمال ، وكانوا قبله يكتفون بالاسم والتكنية ، ولا تلحظ في الكتابة من الصغير الى الكبير وبالعكس تعظيماً ولا تصغيراً ، شأن العرب في مخاطبة بعضهم بعضاً ، يتخاطبون بأسمائهم وكناهم ، ويقتصرون في المكاتبات على اللباب دون القشور . ولم يطل عمر هذه المصطلحات في التلقيب ؛ فالمواضعة والاصطلاح في الخطاب يتغير — كما قال ابن سنان — بحسب تغير الأزمنة والدول . قال : إن العادة القديمة قد هجرت ورفضت واستجد الناس عادة بعد عادة ، حتى أن الذي كان يستعمل في عصره في الكتب غير ما كان يستعمل في أيام أبي إسحق

الصابي مع قرب زمانه من زمان ابن سنان .

هذا في بلاد الشرق ، أما في الأندلس فقد ظلت دولتهم عربية في كل مظاهرها ، لا تعرف التلقيب الذي أحدثه من جاوروا الفرس وأخذوا مدنيتهم وأدخلوا رجالهم في جملتهم . قالوا وكان ابن قصيرة من كتاب الأندلس « على طريقة قدماء الكتاب من إتيان جزل الألفاظ وصحيح المعاني من غير التفات إلى الأسجاع التي أخذها متأخروا الكتاب ، اللهم إلا ماجاء في رسائله من ذلك عفواً من غير استدعاء » .

وكذلك يقال في ابن بسام فإنه أحسن تصوير من ترجم لهم من شعراء الجزيرة ؛ كما أحسن في القرن الثامن لسان الدين بن الخطيب في تصوير رجال غرناطة . وظل كتاب الأندلس على اقتفاء خطى العرب في الكتابة حتى راجت في المشرق أساليب جديدة فحاكوها ؛ وظلوا مع هذا أكثر ميلاً إلى الفطرة واقتصاراً على المعاني . وزعم ابن خلدون أن المتأخرين استعملوا أساليب الشعر وموازينه في المنثور ؛ وأنهم هجروا المرسل وتناسوه خصوصاً أهل المشرق. قال : وهو غير صواب من جهة البلاغة لما يلاحظ في تطبيق الكلام على مقتضى الحال ، من أحوال المخاطب والمخاطب ؛ هذا ما قاله . والأندلسيون من المتأخرين لم يكونوا في السجع والتطويل دون المشارقة على ما تقرأ ذلك في نفح الطيب وقلائد العقيان ومطمح الأنفس وغيرها ، حاشا المؤلفين منهم فقد داموا إلى آخر أيام الأندلس يكتبون بلا تعمل في الجملة ،وحييت الكتابة في دولة بني الأحمر آخر ملوك العرب في تلك الديار ، والشعر الذي وصلنا منهم أكثر من النثر .

هجم السجع هجوماً مريعاً على الكلام المرسل فأضعف من قواه ، ونال من قوامه بعد القرن الرابع ؛ وكان أول من غالى في التزام الكتابة المسجوعة أبو إسحق الصابي ، وأبو بكر الخوارزمي ، وبديع الزمان الهمذاني ، والصاحب والعتبي ؛ واقتفى أثرهم كتاب الأندلس ومصر ، وعدم التكلف غالب على البديع فقد يتخلى عن السجع في رسائله ، كما يترك الصابي ذلك في بعض عهوده . وقالوا

إن الصابي كان يكتب ما يراد ، والصاحب يكتب ما يريد ، وكان ابن العميد يعد في جملتهم ، لولا أنه التزم طريقة المرسل وطريقة المسجوع معاً ، ووضع طريقة الشعر المنثور ، وقالو إنه أقل معاصريه احتفالاً بالسجع ، مع أن الذي قرأناه له ينافي هذا القول ، وكأنه اشبه بحلقة اتصال بين دور الكلام المطبوع ، ودور الكلام المصنوع .

قالوا بدئت الكتابة بعبد الحميد وانتهت بابن العميد ؛ وهو قول يحتاج إلى نظر ، والعالم على ما يقول الباقلاني لا يخفى عليه الفضل بين رسائل عبد الحميد وطبقته وبين طبقة من بعده ، حتى إنه لا يشتبه عليه ما بين رسائل ابن العميد وبين رسائل أهل عصره ومن بعده ، ممن برع في صنعة الرسائل وتقدم في شأوها ، حتى جمع فيها بين طريقة المتقدمين وطريقة المتأخرين فخلص لنفسه طريقة ، وأنشأ لنفسه منهاجاً ؛ فسلك تارة طريقة الجاحظ ، وتارة طريقة السجع .

وضع الهمذاني طريقة المقامات ، وقيل إنه اقتبسها من ابن دريد ، وعلى منواله نسج الحريري في القرن التالي على أسلوب مبتكر ، لا يصلح للرسائل ولا للكتب ، وما هو إلا ضرب جديد من النثر ، تقرأ في تضاعيفه الكلفة الظاهرة ، وقد قلدهما فيه الزمخشري والوطواط ، ومن المتأخرين ابن الوردي والسيوطي ، والسيوطي ولع كمعاصره ابن عبد الهادي أن يكتب في كل موضوع ؛ ومعظم أبناء هذه العصور عصور السجع هم أهل تكلف وتصنع ، وأبو العلاء المعري يندمج فيهم وإن تقدمهم في الميلاد ؛ فهو حكيم لغوي غلب الغريب والسجع على ما كتب في رسائله و « رسالة الغفران » لو خلت من السجع لكانت في موضوعها آية ، وابن القارح في رسالته التي رد عليها أبوالعلاء ، أكتب وأبلغ ، وفي منثور المعرى نشوفة ويبوسة لا تخفى على من تذوق البلاغة .

ذكر الثعالبي ، وهو من أئمة الكتابة الذين جوّدوا في المرسل والسجع ، أن من النثر المسجع ومنه المرسل ، قال : والمحمود في هذا الزمان ، أي في القرن الخامس المرسل ، إذا اشتمل على شيء من السجع يجيء عفواً . وقال صاحب نقد النثر :

« إن من أوصاف البلاغة السجع في موضعه ، وعند سماحة القريحة به ، وأن يكون في بعض الكلام لا في جميعه ؛ فإن السجع في الكلام كمثل القافيه في الشعر ، وإن كانت القافية غير مستغنى عنها ، والسجع مستغنى عنه ، فأما أن يلزمه الإنسان في جميع قوله ورسائله ، وخطبه ومناقلاته ، فذلك جهل من فاعله وعِيٌّ من قائله وقد رويت الكراهية فيه عن رسول الله ، ولو كان لزوم السجع في القول والإغراب فيه وفي اللفظ هي البلاغة ، لكان الله عز وجل أولى باستعماله في كلامه الذي هو أفضل الكلام ، ولكان النبي والأئمة المهديون قد استعملوهما ولزموا سبيلهما ، وسلكوا طريقهما ، فأما ولسنا واجدين فيما بين أيدينا من كلامهم استعمال السجع والغريب إلا في المواضع اليسيرة ، فهم أولى بأن يقتدى بهم ويحتذى بمنهاجهم ».

وبأدنى نظر يلمح الناقد البصير أن علماء البيان ، وإن كانوا يجنحون إلى تفضيل المرسل ، جمجموا في حكمهم على السجع ولم يبينوا ، لأن السجع في عصورهم أصبح زياً من أزياء البلاغة وله أنصار غيرُ عليه : فما جوزوا لأنفسهم أن يثلموه ، وراعوا العرف اضطراراً فحادوا بذلك عن الجادة . يقول العسكري : واعلم أن الذي يلزمك في تأليف الرسائل والخطب هو أن تجعلها مزدوجة فقط ولا يلزمك فيها السجع ، فإن جعلتها مسجوعة كان أحسن مالم يكن في سجعك استكراه وتنافر وتعقيد ، وكثير مايقع ذلك في السجع ، وقلما يسلم إذا طال من استكراه وتنافر . وقال ابن سنان : وبعض الناس يذهب إلى كراهة السجع وازدواج في الكلام ، وبعضهم يستحسنه ويقصده كثيراً ، وحجة من يكرهه أنه ربما وقع بتكلف وتعمل واستكراه ، فأذهب طلاوة الكلام ، وأزال ماءه ؛ ووجه من يختاره أنه مناسبة بين الألفاظ يحسنها ، ويظهر آثار الصنعة فيها . وأما الفواصل التي في القرآن ، فإنهم سموها فواصل ولم يسموها أسجاعاً ، وفرقوا فقالوا : إن السجع هو الذي يقصد في نفسه ، ثم يحمل المعنى عليه ؛ والفواصل التي تتبع المعاني ولا تكون مقصورة في أنفسها اهـ. وصرح الرّماني برأيه فقال : إن الفواصل بلاغة ، والسجع عيب .

واعترف ابن الأثير في المثل السائر ، وهو السجاع المنقطع النظير ، بأنه لا يجود

في فن السجع إلا الأفراد القلائل فقال : واعلم أن الأصل في السجع إنما هو الاعتدال في مقاطع الكلام ، والاعتدال مطلوب في جميع الأشياء ، والنفس تميل اليه بالطبع ؛ ومع هذا فليس الوقوف في السجع عند الاعتدال فقط ، ولا عند تواطؤ الفواصل على حرف واحد ، إذ لو كان ذلك هو المراد من السجع ، لكان كل أديب من الأدباء سجاعاً ، وما من أحد منهم ، ولو شد شيئاً يسيراً من الأدب إلا ويمكنه أن يؤلف ألفاظاً مسجوعة ويأتي بها في كلامه ؛ بل ينبغي أن تكون الألفاظ المسجوعة حلوة حادة طنانة رنانة لا غثة ولا باردة ، وأعني بقولي غثة باردة أن صاحبها يصرف نظره إلى السجع نفسه ، من غير نظر إلى مفردات الألفاظ المسجوعة ، وما يشترط لها من الحسن ، ولا إلى تركيبها ، وما يشترط له من الحسن ، وهوفي الذي يأتي به من الألفاظ المسجوعة كمن ينقش أثواباً من الكرسف ، أو ينظم عقداً من الخزف الملون ؛ وهذا مقام تزلّ عنه الأقدام ، ولا يستطيعه إلا الواحد من أرباب الفن بعد الواحد، ومن أجل ذلك كان اربابه قليلاً ؛ فإذا صُفي الكلام المسجوع من الغثاثة والبرودة فإن وراء ذلك مطلوباً آخر ، وهو أن يكون اللفظ فيه تابعاً للمعنى ، لا أن يكون المعنى فيه تابعاً للفظ ، فإنه يجيء عند ذلك كظاهر مموّه على باطن مشوّه ، ويكون مثله كغمد من ذهب على نصل من خشب اه. ويقول عبد القاهر؛ وهو أبلغ من كتب في البيان بعد الجاحظ : العلماء يذمون من يحمله السجع والتجنيس على أن يضم لهما المعنى ، ويدخل الخلل عليه من أجلهما ، وعلى أن يتعسف في الاستعارة بسببهما ، ويركب الوعورة ، ويسلك المسالك المجهولة ؛ ولا بأس بأن يزاد على قوله إن أكثر من سجعوا أطالو وأضاعوا المعاني ، ولو تهيأ لكل ما كتبوا من يُجري عليه قلم الحذف والإثبات لذهب نصف ما سطروه ، ولكان الباقي سليماً من التزيد ، لافضول في تضاعيفه، ولاحشو في حواشيه، أخذ من البلاغة والفصاحة حظاً عظيماً .

والبلاغة كما قال ابن حيدر ليست ألفاظاً ولا معاني ، بل هي ألفاظ يُعبّر بها عن معان ، ولكن ليس كما انفق ولا كيفما وقع ، لأن ذلك لو جرى هذا المجرى

لكان أكثر الناس بليغاً ، إذ كان أكثرهم يؤدي عن المعاني التي يولدها بألفاظ تدل عليها ، لكنهم يخرجون من طريق البلاغة ، ومنهاج الكتابة من وجهين : أحدهما أن تكون الألفاظ مستكرهة مستوخمة ، غير مرصوفة ولا منتظمة . والثاني ان تكون كثيرة يُغني عنها بعضها ؛ ويمكن أن يعبر عن المعنى الدال عليها بأقل منها .

وبعد أن أوصى بالإيجاز قال : وهذا مذهب العرب وعادتهم في العبارة فإنهم يشيرون الى المعاني بأوحى إشارة ، ويستحبون ان تكون الألفاظ أقل من المعاني في المقدار والكثرة . وذكر ابن ابي الإصبع أن المتقدمين كانوا لا يحفلون بالسجع جملة ، ولا يقصدونه بتة إلا ما أتت به الفصاحة في أثناء الكلام ، واتفق على غير قصد ولا اكتساب ، وإن كانت كلماتهم متوازنة ، وألفاظهم متناسبة ، ومعانيهم ناصعة ، وعباراتهم رائقة ، وفصولهم متقابلة ؛ وتلك طريقة الإمام علي ومن اقتفى أثره من فرسان الكلام ، كابن المقفع ، وسهل بن هرون ، وأبي عثمان الجاحظ ، وغير هؤلاء من الفصحاء والبلغاء .

قلنا إن كتابة المسجعين لو خلت من هذا التكلف السمج لنالت قسطاً من البلاغة ، وفي يقيننا أن ابن بُطلان وابن جُبير وعبد اللطيف البغدادي أرقى كعباً في البلاغة ، بما وصفوه من البلدان والسكان ، من القاضي الفاضل والعماد الكاتب وابن الصيرفي ، فإن الثلاثة الأولين أدوا المعاني الجليلة في الألفاظ القليلة ، والآخرين على تمكنهم من نواصي اللغة تكلفوا الأسجاع فأضاعوا من مكانتهم . وكان ابن القِفطي وابن أبي أُصيبعة وابن خلكان وابن العديم وابن الطقطقي والنويري إذا تخلوا عن السجع أجادوا كل الإجادة . وكذلك يقال في كتّاب أهل القرن الثامن والتاسع أمثال ابن فضل الله العمري والصلاح الصفدي وابن منظور والمقريزي ؛ ومن أعظمهم ابن خلدون ولسان الدين بن الخطيب ، وما خطته أناملهما شاهد على وجه الدهر بأنهما غريبة عصرهما ؛ وكتابة ابن تيمية وتلميذه ابن قيم الجوزية من السهل الممتنع ، والتلميذ أجزل من أستاذه بياناً .

وقع هذا الضعف في اللغة باستيلاء الأعاجم على بلاد العرب وغيرها ؛ وكانت دواوين الرسائل في العواصم من قبل ، مدارس لتخريج الكتاب في البلاغة حتى في العهد الذي اشتدت فيه حاجة العرب إلى تعرف لغات الأمم المجاورة لها في الغرب والشرق ، و « تنافس الناس في تصانيف الترجمانات في اللغة الأعجمية وتفاهموا في غير اللغة العربية » كما قال صاحب اللسان ؛ وكان فنّ الكتابة بمصر في زمن الدولة الفاطمية مثلا غضاً طرياً ؛ وديوان المكاتبات لا يخلو « من رأس يرأس مكاناً وبياناً ، ويقيم لسلطانه بقلمه سلطاناً » ؛ وجاء فيهم مثل ابن الخلال صاحب ديوان الإنشاء على عهد الحافظ العبيدي ، وكانت له « قوة على الترسل يكتب كما يشاء » . يقول ابن خلدون إن رافع راية البلاغة في الأندلس ابن حيان المؤرخ وابن عبد ربه والقسطلي . ولا شك أنه تقدمهم وتأخر عنهم كثير من العظماء في البلاغة ، ومنهم ابن بسام والبلوطي والحصري والشاطبي وابن سيده وابن حناط الكفيف وابن خاتمة وعشرات أمثالهم من المؤلفين الكاتبين . ولم يكن البيان في الأندلس مقصوراً على الرجال بل شارك فيه النساء نظماً ونثراً ، كما وقع لمعظم بلاد الإسلام أيام عزها ، فأبدعن وأدهشن ، وكن من المبرزات في رواية السنة منذ قام الرسول يهدي إلى دينه .

وعفّى القلقشندي وابن عربشاه والخفاجي وأضرابهم على محاسنهم ، بما أخذوا أنفسهم به في القرن التاسع والعاشر من مذاهب السجع والجناس والتشبيه . وتناسى الكتاب الكلام المرسل منذ القرن العاشر إلى أواسط القرن الثالث عشر فقلّ المجودون من المترسلين والمؤلفين ، وندر الإبداع ، وتراجع العلم والأدب ، وما فتىء ارباب الأقلام يسترون نقص كلامهم بأسجاعهم وتطويلاتهم ؛ ولا نذكر لمؤلف إبداعها في هذه العصور ، وأكثرهم أدنى إلى أن يُعَدّوا نقلة ومحتذين منهم إلى أن يحسبوا كاتبين ومؤلفين ، ودثر كثير مما كتبوا لاستغناء الناس عنه ، ولأنه غير صالح للبقاء ؛ وما بقي مما روعي فيه الطبع من التآليف والرسائل ، فهو أندر من الكبريت الأحمر ، وفيما طبع من كتب المتأخرين من اليمانيين والعراقيين والشاميين والمصريين والمغاربة من ذاك

العهد مثال ترتجف أعصاب البلغاء من سماعه فضلا عن تناقله .

نعم إن في بيان المتأخرين في عصور التدلي شناعة وهجانة ، جاء ضعيف المادة ، قلق الأسلوب ، مبتذل اللفظ ، مغموساً في التقليد ، محوكاً بالتعقيد ؛ ولا نذكر كاتباً مترسلاً نشأ في القرون الأربعة المنحطة يصح عدّه في فحول الكتاب لأنهم كلهم أهل سجع وبديع ، وكلهم ألفوا اقتباس طريقة من سبقهم ، فتغذى أدبهم من مادة ضعيفة ، تسلسل فيها الوهن والجمود بكرور الأيام . وربما جاء في غضون تلك الأحقاب من لابأس بأدبه ، وكان يمكن أن يُتجوز في ضمه إلى سلك البلغاء ، لو وقع إلى ديوان ملك يفهم منه ما يكتب له في هذا اللسان . ذلك لأن دولة العرب زالت بخروج الأندلس عن حكم المسلمين ، وبقي قليل من الذّماء في البيان في دولة الغرب الأقصى مشوباً بعجمة بربرية ، وبسقوط سائر بلاد العرب في حكم الأتراك العثمانيين ، واستقلال فارس دولة فارسية ، زاد الحال إعضالاً . فاعتمدت هاتان الدولتان على لسانيهما وأغفلتا العربية ، خلافاً للمماليك في مصر فإنهم رفعوا من أقدار المؤلفين والكاتبين في عهدهم ، إلى ما يستغرب من أعاجم مثلهم ، والفضل لمصر في ذلك ، فإنها أدخلتهم في بوتقتها العربية فعرّبتهم أما دولة الترك فإنها قضت ، قصداً أو عن غير قصد ، على كل ما هو عربي في بلادها ، وتآليف أشهر علمائها في العربية تشهد لهم بالعجمة في كل سطر دونوه .

إحياء الأسلوب القديم :

وما زالت الحال في هبوط حتى قام في مصر الإمام محمد عبده ، وفي الشام اللغوي أحمد فارس في أواخر القرن الماضي ، وردّا اللغة إلى سهولتها الأولى بما كتباه وألفاه ، فدبت الحياة في الكتابة في مصر والشام ، يتعمد الكاتبون الأساليب الحديثة ممزوجة بديباجة القدماء ، وساعد على ذلك انتشار اللغات الأجنبية بين بعض المثقفين من أبناء الضاد ، وكثر المترجمون فاطلع من كانوا يعانون الأدب على طرق الأمم في تأدية المعاني . بل كان بعض المبرزين في الإنشاء

هم ممن حذقوا لغة غربية مع العربية . كل ذلك كان من العوامل في خروج الكتابة والتأليف عن أسلوب العهد المغولي ، ومحاولة جميلة لإعادة اللغة إلى عصرها الذهبي . والفضل العظيم أيضاً لانتشار الصحف والمجلات بين الخاصة والعامة ، ولانتظام المدارس بالنظام الغربي ، حتى اضطرت المعاهد الدينية المحافظة كالأزهر والزيتونة أن تسير على الأسلوب الذي جرت عليه المدارس العصرية في التدريس والكتابة والتأليف . وشاع في كل بلد الأسلوب الرشيق الخالي من تلك الحلية البالية التي طالما غالى الكتاب في المباهاة بها ، ونعني بها السجع المتكلف ، واللعب بالألفاظ ، وإهمال المعاني .

ويقلّ اليوم في مجالس المتادبين استعمال البديع والتسجيع ولو على سبيل التسلية . وما زال الإنشاء يقترب من الأسلوب البليغ ، ويتفوق المجددون اليوم بعد اليوم في المخطوب والمكتوب ، ويختفي السجع في ظلمات الليالي ، ولا تكاد تجد له من يجوزه حتى في الخطب الدينية . ولا تمضي خمسون سنة أخرى حتى تعود الكتابة والخطابة إلى الرونق القديم على عهد بلغاء الكتاب .

وآخر من عرفناهم ممن يعطفون على السجع أحياناً ، وإن كان لهم في الكلام المرسل إحسان وإبداع ، صديقنا أمير البيان الأمير شكيب أرسلان ، فإنه محافظ على الطريقة القديمة في مقدمات الكتب وعناوينها ، يترسم خطى ابن خلدون في مقدمة مقدمته واسم تاريخه الخالد . ومع أن ابن خلدون سيد من ترسل في المتأخرين وهو من أنصار التجدد ، مال مع المحافظين في هذه الناحية ، على مالم يعهد شبيه له في مؤلفي قرون المجد العربي ، أهل القدوة والمثال الذي لا يحتذى غيره .

عبد الحميد الكاتب

عصره :

كان عصر عبد الحميد عصر الإقبال والإدبار في الدولة الأموية . بلغ الأمويون قمة مجدهم في عهد الوليد بن عبد الملك ، وتم نقل الدواوين إلى اللسان العربي في الأقطار ، فتجلت الدولة عربية في عامة مظاهرها ، واتسعت الفتوح في الشرق والغرب ، وكانت الأندلس من جملة ما فُتح ؛ فأنشأ بنو أمية في الجنوب الغربي من أوربا مملكة عظيمة ، وبدأوا بنشر العربية بين البربر وشعوب إسبانيا ، وأقام الوليد المصانع العاديّة في الحجاز والشام وما إليهما ، تخلد مجد الدولة العربية ، وتخرج المسلمين في بيوت عبادتهم من سذاجة البداوة إلى نيقة [1] الحضارة ، وكثرت في كل بلد المرافق العامة، وكان ينفق أكثر ما يفضل من جباية الدولة على استحداث المساجد ودور المرضى والترع والجسور والطرق.

وفي هذا العصر استخلف سليمان بن عبد الملك ابن عمه عمر بن عبد العزيز ، فدُعي سليمان مفتاح الخير لرفعه المظالم ، ورده المسيّرين [2] وإخراجه المسجّنين وسار ابن عبد العزيز في الخلافة بسيرة العمرين أبي بكر وعمر ، فأغنى الناس في عهده القصير ، حتى لم يبق في أكثر الولايات من يأخذ الصدقة ، وأبطل الحروب

---

(١) تنيق في مطعمه وملبسه : تجود وبالغ كتنوق ، والاسم النيقة .
(٢) سيره من بلده : أخرجه ونفاه .

والغزوات ، مجتزئاً بما فتحته العرب من البلاد ، وحبب بحسن سيرته الإسلام إلى الشعوب ، فدخل الناس فيــه أفواجاً ، في بلاد الهند والترك والخزر والبربر والقبط ؛ وكانت صلاته بالروم على أحسن ما تكون عليه صلات دولتين متجاورتين .

وجاء هشام بن عبد الملك يحيي سنة أجداده في حسن التدبير والسياسة ، ويضع للأموال نظاماً لا غبن فيه على الراعي ولا على الرعية ، واستخذت (١) الروم في أيامه فأسر ملكها ، وكان موفقاً في اعماله ، عدّ عهده آخر أيام السعادة في بني أمية ، فلم يهنأوا بعده بالملك ، ولا هنئت بهم الرعية ، لانتشار الخلاف على الخلافة بين بني مروان ، واضطراب المملكة بتقاتل أبناء العم ، واشتداد المماراة بين أولياء العهد ؛ إذ كان من العادة أن يولي الخليفة عهده من بعده اثنين غالباً ، وبدت العداوة بين اليمانيين والمضريين ، فكان فساد الجيش ، وتنازع آل البيت المالك ، مؤذنين بذهاب الملك .

وفي هذا العصر كثرت هجرة العرب إلى البلاد التي أظلتها الراية الأموية ، كفارس والعراق والشام ومصر وإفريقية والأندلس ، وعاونتهم الدولة بإقطاعهم الأرضين الشاغرة ، وجعلت في بعض الأقطار جزية أهل الذمة طُعمة (٢) للماهجرين ، ترغيباً لمن وراءهم للالتحاق بهم ، فبدأ النقص في سكان جزيرة العرب ، وذكّرت الغوائل بين قيس ويمن بما كان من الطوائل (٣) في الجاهلية ؛ ورجعت العرب بالعصبيات إلى عادات لهم حظرها الإسلام ، فأدى ذلك بالملة والدولة إلى أسوأ مصير .

وفي هذه الحقبة جرى تدوين العلوم ، ولا سيما الحديث ، دُوّن بأمر أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز ، وقد حاذر ضياع السنة بانقضاء عصر الصحابة

---

(١) استخذى : خضع وذل .
(٢) الطعمة : الرزق .
(٣) الطائلة : العداوة والجمع الطوائل ، وهي الذحول والأوتار .

والتابعين ، وكثر تدوين اللغة والشعر ، وتعلقت همة عالم قريش وحكيم آل عمران خالد بن يزيد الأموي بنقل كتب الطب والكيمياء والنجوم والحرب والآلات إلى العربية ، وأعطى التراجمة والفلاسفة ، وقرّب أهل الحكمة ورؤساء كل صناعة ، وهو أول من أنشأ خزانة كتب في الإسلام . ثم تُرجم كتاب في الطب وبدأ الأفراد بعد ذلك ينقلون من الفارسية والسريانية شيئاً من كتب السياسة والحكمة ، يهدونها للخلفاء والأمراء من بني أُمية .

وفي هذا الدور قوى أمر القَدَرية أو المعتزلة ، وكانوا ظهروا بظهور الخوارج والشيعة ، لما أنكر الخوارج على عليّ التحكيم في الخلافة يوم صِفّين ، وحكموا بكفر الفاسق ، حكمهم بكفر من يسعى في سفك دماء المسلمين لمأرب دنيوي ، وأخذ قوم يدعون المتساهل في دينه فاسقاً ، ويجعلونه من المسلمين ، وصرّح بعضهم بأن الأمور كانت مقدرة عليه ؛ وهبت خلال ذلك فرقة جاهرت بأن الإنسان مختار في أعماله ، وأن الله لو أجبر الإنسان على عمله لم يؤاخذه عليه ، وجعلوا الناس ثلاثة أقسام : مؤمن وكافر وفاسق ، ومنعوا من تسمية الفاسق باسم المؤمن ، واعتزلوا مجلس الحسن البصري فسموا المعتزلة ، وهم الذين أحدثوا علم الكلام ، وتابعهم في التأليف أناس ليسوا على مذهبهم ، وهم الذين وسعوا بعدُ أُصول الفقه ، وأكثر المسائل المذكورة فيه هي من مبتكراتهم .

وأراد عمر بن عبد العزيز أن يستتيب القدرية ، أو يخرجوا من بلاده ، واشتد بعض آله في إرهاقهم ، لكن بعض الخلفاء من أخلافه ذهبوا بعد حين مذهب القدر ، ومنهم مروان بن محمد الذي كتب له عبد الحميد الكاتب وعُرف به .

أصله وخلقه :

هو عبد الحميد بن يحيى مولى العلاء بن وهب العامري من عامر بن لؤي . ولؤي ينتهي اليه شرف قريش ، ومن ولده عامر بن لؤى وولده حسل ومعيص .

وقد قيل في نسبه إنه عبد الحميد بن يحيى بن سعد بن عبد الله بن جابر بن مالك ابن حجر بن معيص بن عامر بن لؤي بن غالب . ومعظم الروايات ترجح أن والده كان من الموالي . وإذا صح ذلك كان من أصل غير عربي ، اللهم إلا إذا ثبتت سلسلة نسبه التي انتهت بابن عامر بن لؤى بن غالب . وفي رواية أن جده من سبي القادسية . وإذا صحت نسبته إلى أصل فارسي فيكون جده انضم إلى عامر بن لؤي ؛ وقد ينضمّ الرجل إلى غير قبيلته بالحلف والموالاة فينتسب إليها . والاصطخري يقول إن عبد الحميد كان ممن يصلح من الفرس للدواوين من الكتاب والعمال والأدباء ، وكان له في بني أُمية ولاء ينسب إليهم ؛ فنسبته إلى عامر نسبة وَلاء إذاً .

والمولى عند العرب ، دون الحر الصريح ، وفوق العبد الرقيق في المرتبة ؛ والمولى كالقريب ينزل منزلة ابن العم ، يجب على صاحبه أن ينصره ويرثه إذا مات ولا وارث له ؛ ومنه حديث الزكاة : « مولى القوم منهم » . والمولى هو الصاحب والقريب والجار والحليف والجمع موالي ، ويكون المولى مولى عَتاقة ومولى تَباعة ؛ فمولى العتاقة هو الذي يكون عبداً أو أسيراً فيعتقه صاحبه فيصبح المعتَق للمعتِق مولًى ؛ ومولى التّباعة هو من يُصطنع أو يُحالف أي يستتبع . ومن الولاء أيضاً مولى الرحم وهو مَن يتزوج في قبيل فينسب إلى قبيلهم . ودية المولى نصف دية الحر ، وكذلك حكمه في العقوبات يناله منها نصف ما ينال الحر ؛ أما في المواريث فمولى العتاقة يورّث مولاه ولا يرث منه ، ومولى التباعة لا يرث ولا يورّث ، وحكم مولى الرحم كحكم الأحرار يرث ويورث .

كان الموالي في الجاهلية من أجناس ونحل مختلفة ، فلما كان الإسلام أصبح غير المسلمين ذمة ؛ وجعلوا في الجاهلية دية المولى ، وهو الحليف ، خمساً من الإبل ، ودية الصريح عشراً . والصريح الخالص النسب ، والحليف عند العرب مولى ؛ والولاء بفتح الواو القرابة ، وبالكسر ميراث يستحقه المرء بسبب عتق شخص في مِلكه ، أو بسبب عقد الموالاة . إذا عرفت هذا فليس أمامك ما يمنع من جعل عبد الحميد من أصل عربي ، وإن كان جده مولى تَباعة لا مولى عتاقة ،

كأن يكون قد تزوج من بني عامر وانضم إليهم بسبب . هذا على شريطة ضعف الرواية القائلة بأن أجداده من سبي القادسية ، وهناك تكون الفارسية أعلق ببيته من شعرات قَصّه[١] .

وكان بنو أُمية كثيراً ما يعتمدون على الموالي في كتابتهم ودواوينهم ، فلم تمنعهم أصولهم من تولي أهم مناصب الدولة ؛ فقد كان من كتاب معاوية مولاه عبد الرحمن بن درّاج ، وكان على ديوان الرسائل لعبد الملك بن مروان أبو الزعيزعة مولاه ، وكتب للوليد على ديوان الخاتم شعيب النعماني مولاه ، وعلى ديوان الرسائل جناح مولاه ، وعلى المستغلات نُفَيع بن ذؤيب مولاه ؛ وكان يكتب لمسلمة سميع مولاه ، وعلى ديوان الرسائل الليث بن أبي رقية مولى أُم الحكم بنت أبي سفيان ، وعلى ديوان الخاتم المولى نُعيم بن سلامة ؛ وكان يكتب لعمر بن عبد العزيز الليث بن أبي فروة مولى أُم الحكم بنت أبي سفيان ، وكتب له إسماعيل بن أبي حكيم مولى الزبير ؛ وكتب للوليد بن يزيد سالم مولى سعيد بن عبد الملك ، وكان عمرو بن الحارث مولى بني جُمَح يتولى ليزيد بن الوليد الناقص ديوان الخاتم ؛ وكان من الموالي على ديوان الرسائل لمروان بن محمد ، عثمان بن قيس مولى خالد القَسري .

ولقد ساد الموالي منذ الصدر الأول فما تولوا الكتابة للخلفاء والأمراء فقط ، بل تعدوا ذلك الى الرواية والعلم ، وصار الفقه في معظم البلدان اليهم ، حتّى إن عبد الملك بن مروان سأل الزهري عمن يسود الناس ، فلما ذكر له طائفة من الموالي في البلاد قال : إن أهل الديانة والرواية لينبغي أن يسودوا ؛ فلما ذكر له النخعي ، وكان من العرب . قال عبد الملك : ويلك يا زهري فرّجت عني ! والله لتسودن الموالي على العرب حتى يخطب لها على المنابر والعرب تحتها . فقال الزهري : يا أمير المؤمنين ، إنما هو أمر الله ودينه ، من حفظه

---

(١) القص والقصص (بفتح قافيهما) : الصدر أو رأسه أو وسطه أو عظمه ، وفي المثل : هو ألزم لك من شعرات قصك .

ساد ، ومن ضيعه سقط .

إن ما اتصل بنا من اخبار عبد الحميد لم يصور لنا منه صورة تامة ، فما عرفنا مولده ، ولا البلد الذي ولد فيه من بلاد الشام ، ولا نوع دراسته وأساتذته ؛ ولكننا عرفنا أنه شامي عاصر بعض الخلفاء من الأمويين ، وقيل إنه من أهل الأنبار وسكن الرَّقة ؛ فإن صحت هذه الرواية كان عراقياً غير شامي . وأطلق عليه ابن عبد ربه اسم عبد الحميد الأكبر ، وعده ممن نَبُل بالكتابة ، وكان قبل خاملاً ؛ وقال إنه كتب لعبد الملك بن مروان وليزيد ، ثم لم يزل كاتباً لخلفاء بني أمية حتى انقضت دولتهم ؛ وفي هذ القول نظر ؛ لأن عبدالملك تولى سنة خمس وستين ، وتوفي سنة ست وثمانين ، فلا تكون سن عبد الحميد يوم مقتله أقلّ من سبعين أو خمس وسبعين ، وهذا يناقض ما سيمر بك من أنه غُمز عليه سنة ١٣٢ وهو عند ابن المقفع ، ولم يعرف الموكلون بالقبض عليه أيهما عبد الحميد ، وابن المقفع إذ ذاك كان في الكهولة ، فلا يعقل إلا أن يكون صاحب الشرطة العباسي عارفاً على الأقل بأن صاحبه شيخ هرم ؛ ونميل إلى أن عبد الحميد كتب أولاً لهشام بن عبد الملك الذي ولي سنة ١٠٥ ومات سنة ١٢٥ ثم لمروان .

والأرجح أن عبد الحميد تخرج في الكتابة بسالم بن عبد الله مولى هشام بن عبد الملك وكاتبه ، ويقال مولى المنذر بن عبد الملك ، وقيل سالم مولى سعيد بن عبد الملك ، وكتب للوليد بن يزيد ، ثم كتب له ابنه عبد الله بن سالم . وكان سالم ختن عبد الحميد ، أي صهره زوج أخته ، وهو أحد الفصحاء البلغاء ، وقد نقل رسائل أرسطاليس إلى الإسكندر ، ونُقل له وأصلح هو ، ولسالم رسائل مجموعة في نحو مائة ورقة ؛ وبهذا يقال إن عبد الحميد أخذ عن رجل بليغ يعرف الاستخراج من أدب اليونان وسياستهم ، ولم يثبت أنه كان يعرف اليونانية كما وهم بعض أساتذة العصر ، وربما شدا شيئاً من الأرمنية مدة مقامه في إرمينية كاتباً لمروان . ويقول ابن هلال العسكري إن عبد الحميد كان يحسن الفارسية ، وبأدب هذه اللغة تأدب ، وعلى منوال حكمائها نسج ، وألِف تطويل

الرسائل واختصارها بحسب الحال . فمن الرومية أخذ بالواسطة ، ومن الفارسية أخذ مباشرة ، والفارسية ما كانت تقلّ حكمة أهلها عن حكمة يونان .

ساعد عبد الحميد أدبه الفارسي على نبوغه في البلاغة العربية ؛ ويقول عبد القاهر : إن من عرف أوضاع لغة من اللغات عربية كانت أو فارسية وعرف المغزى من كل لفظة ، ثم ساعده اللسان على النطق بها ، وعلى تأدية أجراسها وحروفها ، فهو بيّن في تلك اللغة ، كامل الأداة ، بالغ من البيان المبلغ الذي لا مزيد عليه ، منتهٍ إلى الغاية التي لا مذهب بعدها .

كتب عبد الحميد قليلا عن هشام بن عبد الملك كما عرف من رسالة كتبها عن هشام إلى يوسف بن عمر الثقفي وهو باليمن ، وقد كان على اليمن منذ سنة ١٠٧ ، أي أن ديوان هشام كان المدرسة الأولى التي تخرج بأساتذتها عبد الحميد في علوم الإنشاء ؛ ويمكن أن يقال إنه كان من أول نشأته على اتصال مع من يعرف الخلفاء ، وما يقتضي لخدمة الحكومات من الأدوات ؛ وذكروا انه حدث عن سالم بن هشام ، ولعله سالم مولى هشام ، وحدّث عنه خالد بن برمك . وقالوا إن عبد الحميد كان في حداثته معلماً في الكوفة ، ولعله مرن على حفظ مسائل كثيرة من تأديبه الأطفال زمناً ؛ والمؤدبون كانوا طبقة راقية في القرون الأولى للإسلام . وكانت الكوفة لما ألقى بها عصى الترحال لأول أمره محط رحال رجال العلم في الدين واللغة والنحو والتصريف ؛ ولا شك أنه ثافن أهل البلاغة فيها وأخذ عنهم ، وهناك حدث له غرام بتمثل كلام عليّ ابن أبي طالب . فقد سئل ما الذي خرّجك في البلاغة ؟ فقال : حفظ كلام الأصلع يعني علياً ، وكانت الكوفة من البلدان التي أحبها أمير المؤمنين وأحب أهلها وأحبوه .

وفي زمن لم نثبته جيداً اتصل بمروان بن محمد وهو والٍ على إرمينية يحارب الخارج فيها على الخلافة ، فكتب عنه ، وحظى عنده ، وانقطع اليه ؛ ولما عقدت البيعة لمروان في الشام سجد مروان وأصحابه شكراً لله ، إلاّ عبد الحميد ،

فقال له مروان : لم لا سجدت ؟ فقال : ولمَ أسجد على أن كنت معنا فطرت عنّا ، يعني بالخلافة ؟ فقال : إذاً تطير معي ، فقال : الآن طاب السجود وسجد . وكتب لمروان طول خلافته .

تُرى هل يكون الإختلاف في نسب عبد الحميد سبباً يدعونا إلى أن نرجح أن أجداده كانوا من سبي القادسية ؟ وسواء صحت هذه النسبة أم لم تصح فإنه تأثر لا محالة بعادات الفرس وعرف أساليبهم في الكتاب والخطاب . وعلى كل فإن المجال الذي جال فيه عقل عبد الحميد كان فسيحاً بالنسبة لعصره وأهل طبقته ، وكان من اتصل بهم قبل أن يلي الكتابة عن الخليفة جماعة من المنظور إليهم في الأمة ؛ ولهذا ولغيره ، أي لمولده في الشام وتنقله في البلاد ، دخل كبير في اتساع عقله وتجاربه .

* * *

كان مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية يحب عبد الحميد حبّاً جمّاً ، ويرفع منزلته بين الكتاب والعمال « ولا يرى الدنيا إلا به » لعلمه بنبوغه وتفرّده في صناعته ، وذهابه بفضل البلاغة وما ينبغي لها ، حتى عَرض عليه — لما أيقن أن أمره أدبر ، وهزائمه تواترت ، وسلطانه صائر إلى الزوال — أن يكون مع أعدائه لتسلم حياته ، قائلاً : إنا نجد في الكتب أن هذا الأمر زائل عنا لا محالة ، وسيضطر إليك هؤلاء القوم — يعني ولدَ العباس — لأدبك ، وإن إعجابهم بك يدعوهم لى حسن الظن بك ، فاستأمن إليهم ، وأظهر الغدر بي ، فلعلك تنفعني في حياتي أو بعد مماتي ؛ فقال له : وكيف لي بأن يعلم الناس جميعاً أن هذا عن رأيك ، وكلهم يقول : إني غدرت بك ، وصرت الى عدوك ؟ وأنشد :

وذنبي ظاهر لا شك فيه   لمبصره وعذري بالمغيب

وأنشد أيضاً :

أُسِرّ وَفاءً ثم أُظهر غدرةً   فمن لي بعذر يوسع الناس ظاهره

ثم قال : يا أمير المؤمنين ، إن الذي أمرتني به أنفع الأمرين إليك ، وأقبحهما بي ، ولكني اصبر حتى يفتح الله عليك أو أُقتل معك . وهكذا تجلّت في عبد الحميد فضيلة الوفاء ، فآثر أن يُقتل مع صاحبه ، على أن يتخلى عنه يوم الكريهة والشدة ، وتجلّت فيه خلة الشجاعة والاعتقاد بالأقدار ؛ فهو الرجل الذي شارك سيده في سعادته وبلائه .

قيل لما زال امر مروان أتي المنصور بخواص مروان ، وفيهم عبد الحميد والبعلبكي المؤذن وسلام الحادي ، فهمّ بقتلهم جميعاً فقال سلام : استبقني ياأمير المؤمنين فإني أُحسن الحداء ، قال : وما بلغ من حدائك ؟ قال : تعمد إلى إبل فتظمئها ثلاثة أيام ثم توردها الماء ، فإذا بدأت تشرب رفعتُ صوتي بالحداء ، فترفع رؤوسها وتدع الشرب ، ثم لا تشرب حتى أسكت ؛ فأمر المنصور بإبل ففعل بها ذلك ، فكان الأمر كما قال ، فاستبقاه وأجازه وأجرى عليه . وقال له البعلبكي : استبقني يا أمير المؤمنين فإني مؤذن منقطع القرين ، قال : وما بلغ من أذانك ؟ قال : تأمر جارية فتقدم إليك طستاً ، وتأخذ بيدها إبريقاً ، وتصب الماء على يدك ، فأبتديء بالأذان فتدهش ويذهب عقلها إذا سمعت أذاني ، حتى تلقي الإبريق من يدها وهي لا تعلم ؛ فأمر المنصور جارية ففعلت ذلك، وأخذ البعلبكي في الأذان ، فكانت حالها كما وَصف . وقال عبد الحميد : يا أمير المؤمنين ، إني فرد الزمان في الكتابة والبلاغة ، فقال : ما أعرفني بك ! أنت الذي فعلت بنا الأفاعيل ، وعملت لنا الدواهي ؛ وأمر به فقطعت يداه ورجلاه وضربت عنقه . ويروي أنه سلمه إلى عبد الجبار فكان يحمي له طستاً ويضعه على بطنه حتى قتله .

ويقول اليعقوبي إن عبد الحميد تخلف بمصر واستتر حتى دَلّ عليه صالح ابن علي . وزاد غيره : إنه لما انهزم اختبأ في كنيسة في بوصير من أرض مصر . وقال آخرون إنه استخفى بالجزيرة عند عبد الله بن المقفع فغمز عليه — وكان صديقه— وفاجأهما الطلب وهما في بيت . فقال الذين دخلوا : أيكما عبدالحميد ؟ فقال كل واحد منهما : أنا ، خوفاً على صاحبه ، وأوشك الجند أن يقتلوا

ابن المقفع ، لولا أن صاح بهم عبد الحميد قائلاً : ترفقوا بنا ، فإن لكل منا علامات ، فوكلوا بنا بعضكم ، وليمض البعض الآخر إلى من وجّهكم ، فيذكر له تلك العلامات ، ففعلوا وأخذوا عبد الحميد . وفي رواية أن عبد الحميد لم يختبىء في الجزيرة عند ابن المقفع ، بل قبض ساعة قتل مولاه مروان ، وأن عامر بن إسماعيل لما قتل مروان ظفر بعبد الحميد كاتبه ، فعرض عليه رؤوس القتلى ، لأنه قتل في ستة أو سبعة من خواصه ، وكانوا معه ، فعرَّفه رأسه ، وحمل عبد الحميد إلى أبي العباس ، فسلمه إلى عبد الجبار صاحب شرطته فقتله . وهنا أيضاً اضطرب في رأي من ترجموا لعبدالحميد في نهاية أمره ، كما وقع الاختلاف في أصله ؛ ولم يعقل أنه تخلّف عن سيده في الجزيرة ، والأرجح أنه قتل في مصر على رواية المسعودي .

بلاغته وأسلوبه :

كان عبد الحميد على ما قال صاحب العقد أول من فتق أكمام البلاغة ، وسهل طرقها ، وفك رقاب الشعر ، وضربت الأمثال ببلاغته ؛ وقد أشار البحتري إلى ذلك في قصيدته إلى محمد بن عبد الملك قال :

وتفننت في البـــلاغة حتى عطل الناس فن عبد الحميد

وقال ابن الرومي لأبي الصقر :

لو أن عبد الحميد اليوم شاهده لكان بين يديه مذعناً وسناً

وقال ابن اسفنديار الكاتب :

وهو في الحذق والبلاغة في التـ ـطفيل [1] عبد الحميد في الكتاب

---

(١) طفل الكلام تطفيلا : تدبره .

وقال أبو اسحق الصابي :

أنسيتم كتباً شحنت فصولها بفصول درّ عندكم منضود
ورسائلاً نفذت إلى أطرافكم عبد الحميد بهن غير حميد

وقال إبراهيم بن عباس الصّولي وقد ذكر عبد الحميد عنده : كان والله الكلام معاناً له ، ما تمنيت كلام أحد من الكتاب قط أن يكون لي إلا كلامه .

جاء عبد الحميد بطريقة جديدة في الكتابة العربية ، شرعها لكل من يحمل القلم بعده ، فنقل الإنشاء من طور إلى طور لم يكد يتغير حتّى عهد ابن العميد ، وقالوا افتتحت الكتابة بعبد الحميد وختمت بابن العميد . وبلاغة عبد الحميد لا تجنيس فيها ، شأن من كانوا من فصحاء العرب قبله ممن كان « كلامهم محض البلاغة » ، « اللهم إلا أن يقع ذلك اتفاقاً غير مقصود قصده » ، وهو « أول من فك رقاب الشعر وسرح مقيده إلى النثر » .

ومعلوم أنه قلما عهد التطويل في الرسائل على عهد الراشدين والأمويين ، فابتدع عبد الحميد أُسلوبه الجديد الخاص به ، وكان ذلك عقبى تشعب أغراض الخلافة ، وامتداد عمرانها ، وانبساط ظل سلطانها ، فنهج للكتاب سبل الإنشاء ، وأعلى في العالمين ذكرهم ، وشرّف صناعتهم ، وكانت قبله في الغالب لا تعد عملا شريفاً من أعمال الدولة ، ويتولاه على الأغلب الموالي ومن اليهم ؛ فوّقر هذا الفن الصعب في النفوس حتّى كان الإنشاء ينقل صاحبه من دواوينه إلى أرقى دواوين الملك .

كان عبد الحميد أول من أطال الرسائل ، ولا يبتدىء بلولا ، ولا ، وإن رأيت ، واستعمل التحميدات في فصول الكتب ، فتابعه الناس على طريقته ؛ والتحميد حمدك الله عز وجل مرة بعد مرة ، وكثْرة حمد الله سبحانه بالمحامد الحسنة ، وهو أبلغ من الحمد ، وربما سبق عبد الله بن المقفع إلى التحميدات ، ولكنها لم تشتهر كما اشتهرت من ديوان عبد الحميد ، وهو ديوان الخلافة يتناقل الناس عنه أكثر مما يتناقلون عن غيره .

ولم يكن عبد الحميد يطيل كل مرة في رسائله ، بل يطيل مرة ويوجز مرة ، لكنه إلى التطويل أميل ؛ فصاحب هذا الانتقال في الكتابة حافظ على إيجازها ما أمكن ، لكن الزمان اقتضاه أحياناً الإسهاب ، فأسهب وأجاد في الطريقتين ، خصوصاً إذا قضت الحال ذلك ؛ مثل كتابه إلى أبي مسلم الخراساني الذي كتبه على لسان محمد بن مروان لما ظهر أبو مسلم بدعوة بني العباس ؛ كتب كتاباً يستميله ويضمنه ما لو قرىء لأوقع الاختلاف بين أصحاب أبي مسلم وكان من كبر حجمه يحمل على جمل ، ثم قال لمروان : قد كتبت كتاباً متى قرأه بطل تدبيره ، فإن يك ذلك وإلا فالهلاك ؛ فلما ورد الكتاب على أبي مسلم لم يقرأه ، وأمر بنار فأحرقه ، وكتب على جُذاذة منه إلى مروان :

محا السيف أسطارَ البلاغة وانتحى ... عليك ليوث الغاب من كل جانب
فإن يقدموا نُعمل سيوفاً شحيذةً ... يهون عليها العتب من كل عاتب

وقالوا إن من جملة فقرات هذا الكتاب « إذا أراد الله إهلاك نملة أنبت لها جناحين » ؛ ومعنى قول الراوين إن كتابه من كبر حجمه حُمل على جمل ، أنه كان مكتوباً على رَقّ ، وفي الرقوق تكتب الأسطر القليلة على الأغلب ؛ وربما دعت كثرة الرقوق التي تضمنت هذا الكتاب أن لا ينهض رجل بحملها بل حملت لثقلها على جمل . وليس في هذا التطويل المأثور عن عبد الحميد من عيب ، مع ماعرف من تفننه في بلاغته ؛ وهكذا جرى في رسالة أبي مسلم الخراساني ، فأطال وحمدت إطالته ، كما أطال في نصيحته لعبد الله ولى عهد مروان ، فقد كتب كتابه هذا في صفحات كثيرة ، فوضع ببيانه الرائع خططاً حربية ، وطرقاً جديدة في النظام والإدارة والسياسة ، وقواعد مهمة في التربية ، ولا سيما في تربية الملوك والعظماء ، وأصولا كلية في علم النفس والعادات المستحبة ، ومعاملة المرؤوسين وطلاب الحاجات وأرباب السعايات وأصحاب الأخبار . وبالإيجاز لا يتأتى لأحد ان يفيض فيما أفاض فيه من الأغراض العظيمة .

كان عبد الحميد يقول : أكرموا الكتّاب ، فإن الله عز وجل أجرى

أرزاق الخلق على أيديهم ؛ وقال : إن كان الوحي ينزل على أحد بعد الأنبياء فعلى بلغاء الكتاب ؛ ومن غرر كلامه : القلم شجرة ثمرها الألفاظ ، والفكر بحر لؤلؤه الحكمة ، وكان يقول : البيان في اللسان والبنان ، ومن كلامه : خير الكلام ما كان لفظه فحلاً ومعناه بكراً ؛ ويروي أنه مر بإبراهيم بن جبلة وهو يكتب خطّاً رديئاً فقال : أتحب أن يجود خطك ؟ قال نعم . قال : أطل جلفة (١) قلمك وأسمنها ، وحرّف قطتك وأيمنها . قال : ففعلت ذلك فجادخطي ؛وذكر صاحب الصناعتين أن عبد الحميد كان إذا استخبر الكاتب في كتابه ، فكتب خبرك وحالك وسلامتك ، فصل بين هذه الأحرف ويقول قد استكمل كل حرف منها آلته ، ووقع الفصل عليه .

وكان كثيراً ما ينشد :

إذا خرج الكتاب كانت دُويّهم ... قسياً وأقلام الدوى لها نَبــلا

قال زياد الأعجم حضرت جنازة هشام فسمعت عبد الحميد ينشد :

وما سالم عمـــا قليـــل بسالم ... وإن كثُرت أحراسه ومواكبه

يريد سالم بن عبد الله ، ويقال ابن عبد الرحمن أبو العلاء مولى هشام ابن عبد الملك وكاتبه ، وكان على ديوان الرسائل لهشام وللوليد بن يزيد .

وإن كان ذا باب شديد وحاجب ... فعما قليل يهجر الباب حاجبه
ويصبح بعد الحجب للناس مفرداً ... رهينة بيت لم تستّر جوانبه
فنفسك أكسبها السعادة جاهداً ... فكل امرىء رهن بما هو كاسبه

ورويت هذه الأبيات للأصمعي بتغيير البيتين الأخيرين إلى قوله :

وما كان إلا الدفن حتى تفرقت ... إلى غيره أفراسه ومواكبــه
وأصبح مسروراً به كل كاشح ... وأسلمه أحبــابه وحبــائبه

---

(١) القشرة .

ومن شعره :

كفى حزناً أني أرى من أحبه قريباً ولا غير العيــون تترجم
فأقسم لو أبصرتنا حين نلتقي ونحن سكوت خلتنــا نتكلم

نموذجات من مختصراته ومطولاته :

وإذا جئنا نتعرف إلى عبد الحميد في مطالبه وحاجاته ، وشفقته على نفسه وولده ورحمه ، فلدينا مما أبقت الأيام عليه من رسائله نموذجات يتجلى لنا فيها روحه ؛ منها ما كتبه إلى مروان في حاجة : « إن الله بنعمته عليّ لما رزقني المنزلة من أمير المؤمنين ، جعل معها شكرها مقروناً بها ؛ فهي تنمى بالزيادة ، والشكر مصاحب لها ، فليست تدخلني وحشة من أبناء حاجتي ، وأنا أعلم أنه لو وصل إلى أمير المؤمنين علم حالي أغناني عن استزادته ، ولكني تكنفتني مُؤَن استنفضت [1] ما في يدي ، وكنت للخُلف من الله منتظراً ، فإني إنما أتقلب في نعمه ، وأتمرغ في فوائده ، وأعتصم بسالف معروفه كان عندي » .

ومنها ما أنشأه إلى أخٍ له في مولود ولد له وهو أول مولود كان : « أما بعد فإن مما اتعرف من مواهب الله نعمة خصصت بميزتها ، واصطفيت بخصيصتها ، كانت أسرَّ لي من هبة الله لي ولداً أسميته فلاناً ، وأمّلت ببقائه بعدي حياة وذكرى ، وحسن خلافة في حرمي ، وإشراكه إياي في دعائه ، شافعاً لي إلى ربه ، عند خلوته في صلاته وحجه ، وكل موطن من موطن طاعته ، فإذا نظرت إلى شخصه تحرك به وجدي ، وظهر به سروري ، وتعطفت عليه مني أنسة الولد وتولت عني به وحشة الوحدة ، فأنا به جذل في مغيبي ومشهدي ، أُحاول مس جسده بيدي في الظّلَم ، وتارة اعانقه وأرشفه ، ليس يَعْدله عندي عظيمات الفوائد

---

(١) استخرجته .

ولامُنْفَسات (١) الرغائب ؛ سرني به واهبه لي على حين حاجتي ، فشد به أزري ، وحملني من شكره فيه ما قد آدني (٢) بثقل حمل النعم السالفة إليّ به ، المقرونة سراوُها في العجب بما رأت ما يدركني (؟) به من رقة الشفقة عليه ، مخافة مجاذبة المنايا إياه ، ووجلا من عواصف الأيام عليه . فأسأل الله الذي امتن علينا بحسن صنعه في الأرحام ، تأديبه بالزكاة وحَرْسه بالعافية ، وأن يرزقنا شكر ما حملنا فيه وفي غيره ، وأن يجعل ما يهب لنا من سلامته ، والمدة في عمره ، موصولاً بالزيادة ، مقروناً بالعافية ، محوطاً من المكروه ، فإنه المنان بالمواهب ، والواهب للمنى ، لا شريك له . حملني على الكتاب إليك لعلم ما سررت به علمي بحالك فيه (؟) وشركتك إياي في كل نعمة أسداها إليّ ولي النعم ، وأهل الشكر أولى بالمزيد من الله جل ذكره والسلام عليك » .

ومنها ما أنفذه إلى أهله وهو منهزم مع مروان من فلسطين ، وهو آخر حرب ومواقعة كانت له ؛ وكانوا ينزلون بالقرب من الرقة بموضع يعرف بالحمراء ، يعزيهم عن نفسه « أما بعد فإن الله تعالى جعل الدنيا محفوفة بالكره والسرور ، وجعل فيها أقساماً مختلفة بين أهلها ، فمن دَرَّت له بحلاوتها ، وساعده الحظ فيها ، سكن إليها ، ورضي بها ، وأقام عليها ؛ ومن قرصته بأظفارها ، وعضته بأنيابها ، قلاها (٣) نافراً عنها ، وذمها ساخطاً عليها ، وشكاها مستزيداً لها ؛ وقد كانت أذاقتنا أفاويق (٤) استحليناها ، ثم جمحت بنا نافرة ، ورمحتنا (٥) مولية ، فملح عذبها ، وخشن لينها ، فأبعدتنا عن الأوطان ، وفرقتنا عن الإخوان ؛ فالدار

---

(١) مال منفس ومنفس بكسر الفاء وفتحها : كثير .

(٢) آده الأمر : بلغ منه المجهود .

(٣) قليت الرجل أقليه إذا أبغضته ، والقلى بالكسر البغض .

(٤) الفيقة بالكسر اسم اللبن يجتمع في الضرع بين الحلبتين ج فيق بالكسر ، وفيق كعنب ، وفيقات وأفواق جج أفاويق ، والأفاويق ما اجتمع في السحاب من ماء فهو يمطر ساعة بعد ساعة .

(٥) رمحتنا : رفستنا .

نازحة ، والطير بارحة (١) . وقد كتبت والأيام تزيدنا منكم بعداً ، واليكم صبابة ووجداً ؛ فإن تمّ البلية إلى أقصى مدتها يكن آخر العهد بكم وبنا ، وإن يلحقنا ظُفر جارح من أظفار من يليكم ، نرجع اليكم بذل الإسار ، والذل شر جار ، نسأل الله الذي يعز من يشاء ، ويذل من يشاء ، أن يهب لنا ولكم أُلفة جامعة ، في دار آمنة ، تجمع سلامة الأديان والأبدان ، فإنه رب العالمين وأرحم الراحمين ».

وفي رواية أنه ختم هذه الرسالة هكذا : « فدارنا نازحة ، وطيرنا بارحة ، قد أخذت كل ما أعطت ، وتباعدت مثل ما تقربت ، وأعقبت بالراحة نصباً ، وبالجذل همّاً ، وبالأمن خوفاً ، وبالعز ذلاً ، وبالجدة حاجة ، وبالسراء ضراء ، وبالحياة موتاً ، لا ترحم من استرحمها ، سالكة بنا سبيل من لا أوبة له ، منفيين عن الأولياء ، مقطوعين عن الأحباء » .

ومن رسائله المختصرة ما كتبه عن مروان إلى هشام ، يعزيه بامرأة من حظاياه : « إن الله تعالى أمتع أمير المؤمنين من أنيسته وقرينته ، متاعاً مده إلى أجل مسمى ، فلما تمت له مواهب الله وعاريته ، قبض الله العارية ، ثم أعطى الله أمير المؤمنين من الشكر عند بقائها ، والصبر عند ذهابها ، أنفس منها في المنقلب وأرجح في الميزان ، وأسنى في العوض ، فالحمد لله وإنا اليه راجعون » .

وكتب موصياً بشخص وهي من مختصراته : « حقُّ موصل كتابي اليك كحقه عليّ ، إذ جعلك موضعاً لأمله ، ورآني أهلاً لحاجته ، وقد أنجزت حاجته فصدق أمله » . وكتب عن هشام بن عبد الملك إلى يوسف بن عمر وهو باليمن في السلامة : « أما بعد فإن أمير المؤمنين كتب إليك وهو في نعمة الله عليه ، وبلائه عنده في ولده وأهل لُحمته ، والخاص من أموره والعام والجنود ، والقواصي والثغور ، والدهماء من المسلمين ، على ما لم يزل ولي النعم يتولاه من أمير المؤمنين ، حافظاً له فيه ، ومكرماً له بالحياطة لما ألهمه الله فيه من أمر

---

(١) البارح من الصيد ما مر من ميامنك إلى مياسرك .

رعيته ، وعلى أعظم وأكمل ما كان يحوطه فيه ، ويذب له عنه ؛ والله محمود مشكور اليه مرغوب فيه . أحب أمير المؤمنين لعلمه بسرورك به ، أن يكتب إليك بذلك لتحمد الله عليه وتشكره به ، فإن الشكر من الله بأحسن المواضع وأعظم المنازل ؛ فازدد منه تزدد به ، وحافظ عليه تحفظ به ، وارغب فيه يهد اليك مزيد الخير ، ونفائس المواهب ، وبقاء النعم . فاقرأ على من قبلك كتاب أمير المؤمنين اليك ، ليسرّ به جندك ورعيتك ، ومن حمله الله النعم بأمير المؤمنين ليحمدوا ربهم على ما رزق الله عباده من سلامة أمير المؤمنين في بدنه ، ورأفته بهم ، واعتنائه بأمورهم ، فإن زيادة الله تعلو شكر الشاكرين والسلام » .

وهذه نسخة ما كتب به عبد الحميد إلى بعض من خَرَج عن الطاعة وهو : « أما بعد فقد بلغني كتابك تذكر أنك تحمل المُرْدَ على الجُرد ، فسترد عليك جنود الله المقربون ، وأولياء الغالبون ، ويرد عليك مع ذلك حزبه المنصور من الكهول ، على الفحول ، كأنها الوعول ، تخوض الوحول ، طوال السبال ، تختضب بالجريال (١) ، رجال هم الرجال ، بين رامح وناشب ، ليس معهم إلا كلِبٌ محارب ، ولا ينكـُلون عن الأصحاب ، قد ضَرُوا بضرب الهام ، واعتادوا الكر والإقدام ، ليسوا بذي هِينة ولا إحجام ، يقضون بالسيوف ، ويخالطون الزحوف ، في أعنتهم الحتوف ، يزأرون زئير الأسد ، ويثبون وثوب الفهود ، ليس فيهم إلاشاكٍ محتبك ، في الحرب محترب (٢) ، قد شرب على ناجذ (٣) الحرب وأكل ، ذو شقشقة وكلكل (٤) ، كأنما أُشرب وجهه نقيع الحناء ، قد رئم (٥)

---

(١) الجريال بالكسر صبغ أحمر وحمرة الذهب وسلافة العصفر وما خلص من لون أحمر وغيره ؛ والخمر أو لونها كالجريالة فيهما ، والمقصود هنا الصبغ الأحمر .

(٢) حرب كفرح كلب واشتد غضبه .

(٣) الناجذ : الضرس أو الناب .

(٤) الكلكل والكلكال : الصدر أو ما بين الترقوتين ؛ والشقشقة بالكسر شيء كالرئة يخرجه البعير من فيه إذا هاج .

(٥) رئم الحرب : أحبها وألفها .

الحرب ورضعها ، وغذّته وألفها ، فهي أُمه وهو ابنها ، يسكن اليها ويأنس بقربها ، فهو بطلبها أرِب ، وعلى أهلها حرِب ، ولا يروعه ما يروع ، ولا يُزيغه ما يُزيغ الغُمر الجبان ، حين يشتد الوغى ، وتخطر القنا ، وتُقلّص الشفاه ، وتسفر الكماة فعند ذلك تُسلمك المرد ، وتكشف عن الجرد ، فتأهب لذلك أُهبتك ، واخطب له خطبتك ، من المساكين والحوَكة ، ثم كيدوني جميعاً فلا تنظرون ، فما أسرنا إكثارُك الجموع وحشدك الحيول ، فإنك لا تكثّف جمعاً ، ولا تسرب خيلاً ، إلا وثقنا بأن سيمدنا الله من ملائكته ، ويزيدنا من نصره ، بما قد جرت به سنته ، وسلفت به عادته ، ونحن نجري من ذلك على نقمات من الله ونكال وسطوات مهلكة . رأيتم ذلك في المنازل ، وعرفتموه في المواطن التي يجمعها الحق والباطل ؛ فأبشر منا بما ساءك ضجراً ، وعساك تُقاد كما يقاد الجمل المخشوش[1] أما بعد ، فقد بلغ أمير المؤمنين عنك أمر لم يحتمله لك ، إلا ما أحبّ من رب صنيعته قبَلك ، واستتمام معروفه اليك ، وكان أمير المؤمنين أحقّ من أصلح ما فسد منك ، وإنك ان عدت لمثل مقالتك ، وما بلغ أمير المؤمنين عنك ، رأى في معاجلتك رأيه ، فإن النعمة إذا طالت بالعبد ممتدةً أبطرته ، فأساء حمل الكرامة ، واستثقل العافية ، ونسب ما هو فيه إلى حيلته ، وحسن نَبْتِه ورهطه وعشيرته ، وإذا نزلت به الغيَر ، وانكشفت عَماية العشا[2] عنه ، ذلّ منقاداً وندم حسيراً ، وتمكّن منه عدوه ، قادراً عليه وقاهراً له . ولو أراد أمير المؤمنين مكافأتك بلفظك ، ومعاجلة إفسادك ، جمع بينك وبين من فلَتات خطئك وعظيم زلتك ؛ ولعمري لو حاول أمير المؤمنين مكافأتك بلفظك في مجلسك ، وجحودك فضلَه عليك ، لردّك إلى ما كنت عليه ، ولكنت مستحقاً » .

ومن رسالة كتب بها عن مروان لفرق العرب ، حين فاض العجم من

---

(١) خششت البعير : جعلت في أنفه الخشاش ، أي العود .

(٢) العشا مقصورة : سوء البصر بالليل والنهار كالعشاوة أو العمى ، عشي كرضي ، والعماية كالعماءة والعمية (كغنية) ويضم : الغواية واللجاج .

خراسان بشعار السواد ، قائمين بالدولة العباسية : « فلا تمكنوا ناصية الدولة العربية من يد الفئة العجمية ، واثبتوا ريثما تنجلي هذه الغمرة ، ونصحو من هذه السكرة ، فسينضب السيل ، وتمحى آية الليل ، والله مع الصابرين ، والعاقبة للمتقين » .

ومن رسائله المفردات ، رسالته في الشطرنج والتنفير من اللعب به ، وهي : « أما بعد فإن الله شرع دينه بإنهاج سبله ، وإيضاح معالمه بإظهار فرائضه ، وبعث رسله الى خلقه ، دلالة لهم على ربوبيته ، واحتجاجاً عليهم برسالاته ، ومقدماً اليهم بإنذاره ووعيده ، (ليهلك من هلك عن بينة ، ويحيا من حيّ عن بينة) ، ثم ختم بنبيه (صلى الله عليه وسلم) وحيه ، وقفّى به رسله ، وابتعثه لإحياء دينه الدارس مرتضياً له ، على حين انطمست له الأعلام مختفية ، وتشتتت السبل متفرقة ، وعفت آثار الدين دارسة ، وسطع رَهَج الفتن ، واعتلى قتام [١] الظلم ، واستنهد [٢] الشرك ، وأسدف [٣] الكفر ، وظهر أولياء الشيطان لطموس الأعلام ، ونطق زعيم الباطل بسكتة الحق ، واستطرف الجور ، واستنكح [٤] الصدوف عن الحق ، واقمطرّ [٥] تلهب الفتنة ، واستضرم لقاحها ، وطبقت الأرض ظلمة كفر ، وغيابة فساد ، فصدع بالحق مأموراً ، وبلغ الرسالة معصوماً ونصح الإسلام وأهله دالاً لهم على المراشد ، وقائداً إلى الهداية ، ومنيراً لهم أعلام الحق ضاحية [٦] ، مرشداً لهم استفتاح باب الرحمة ، وإعلان عروة النجاة ، موضحاً لهم سبل الغواية ، زاجراً لهم عن طريق الضلالة ، محذراً لهم الهلكة ، موعزاً اليهم في التقدمة ، ضارباً لهم على الحدود ، على ما يتقون من

---

(١) الرهج : الغبار . والقتام كسحاب الغبار أيضاً .
(٢) استنهد : طلب أن ينهض .
(٣) أسدف الليل : أظلم .
(٤) استنكح : غلب ، وصدف عنه : أعرض .
(٥) اقمطر : اشتد .
(٦) ضاحية : علانية .

الأمور ويخشون ، وما إليه يسارعون ويطلبـــون ، صابراً نفسه على الأذى والتكذيب ، داعياً لهم بالترغيب والترهيب ، حريصاً عليهم ، متحنناً على كافتهم ، عزيزاً عليه عَنَتهم[١] رؤوفاً رحيماً ، تَقَدّمه شفقته عليهم ، وعنايته برشدهم ، إلى تجديد الطلب إلى ربه فيما فيه بقاء النعمة عليهم ، وسلامة أديانهم ، وتخفيف أواصر[٢] الأوزار عنهم ، حتى قبضه الله اليه صلى الله عليه ، ناصحاً متنصحاً ، أميناً مأموناً ، قد بلّغ الرسالة ، وأدى النصيحة ، وقام بالحق ، وعدل عمود الدين ، حتى اعتدل ميَله ، وذل الشرك وأهله ، وأنجز الله له وعده ، وأراه صدق أسبابه في اكماله للمسلمين دينه ، واستقامة سنته فيهم ، وظهور شرائعه عليهم ، قد أبان لهم موبقات الأعمال ، ومفظعات الذنوب ، ومهبطات الأوزار ، وظلم الشبهات ، وما يدعو اليه نقصان الأديان ، وتستهويهم به الغوايات وأوضح لهم أعلام الحق ، ومنازل المراشد ، وطرق الهدى ، وأبواب النجاة ، ومعالق[٣] العصمة ، غير مدخر لهم نصحاً ، ولا مبتغ في إرشادهم غنما .

« فكان مما قدّم إليهم فيه نهيه ، وأعلمهم سوء عاقبته ، وحذرهم أمره ، وأوعز إليهم ناهياً وواعظاً وزاجراً ، الاعتكاف على هذه التماثيل من الشطرنج والمواصلة عليها ، لما في ذلك من عظيم الإثم ، وموبق الوزر ، مع مشغلتها عن طلب المعاش ، وإضرارها بالعقول ، ومنعها من حضور الصلوات في مواقيتها مع جميع المسلمين » .

« وقد بلغ أمير المؤمنين أن أناساً ممن قِبَلك من أهل الإسلام ، قد ألهجهم[٤] الشيطان بها ، وجمعهم عليها ، وألف بينهم فيها ، فهم معتكفون

---

(١) يقال : وقع فلان في العنت ، أي فيما شق عليه .

(٢) الأواصر : الأواخي واحدتها آصرة ، والأواخي واحدها الآخية بالمد والتشديد عروة تربط إلى وتد مدقوق وتشد فيها الدابة .

(٣) المعلاق بالكسر : كل ما علق به شيء كالمعلوق بالضم .

(٤) لهج بالشيء : أولع به .

عليها ، من لدن مُصبحهم إلى مُمساهم ، ملهية لهم عن الصلوات ، شاغلة لهم عما أمروا به من القيام بسنن دينهم ، و (ما) افترض عليهم من شرائع أعمالهم ، مع مداعبتهم فيها ، وسوء لفظهم عليها ، وأن ذلك من فعلهم ظاهر في الأندية والمجالس ، غير منكر ولا معيب ، ولا مستفظع عند أهل الفقه ، وذوي الورع والأديان والأسنان منهم ، فأكبر أمير المؤمنين ذلك وأعظمه ، وكرهه واستكبره ، وعلم أن الشيطان عندما يئس من بلوغ ارادته في معاصي الله عزّ وجل ، بمقر المسلمين ومجمعهم صُراحاً وجهاراً ، أقدم بهم على شبهة مهلكة وزين لهم ورطة موبقة ، وغرهم بمكيدة حيّله ، إرادة لاستهوائهم بالخدع ، واجتيالهم بالشبه والمراشد [1] الخفية المشكلة ، وكل مقيم على معصية الله صغرت أو كبرت ، مستحلا لها ، مشيداً بها ، مظهراً لارتكابه إياها ، غير حذر من عقاب الله عزّ وجل عليها ، ولا خائف مكروهاً فيها ، ولا رعيب من حلول سطوته عليها ، حتّى تلحقه المنية فتختلجه [2] وهو مصر عليها ، غير تائب إلى الله منها ، ولا مستغفر من ارتكابه إياها . فكم قد أقام على موبقات الآثام ، وكبائر الذنوب ، حتى مدّ به مخرم[3] أيامه .

« وقد أوجب أمير المؤمنين أن يتقدم اليهم فيما بلغه عنهم ، وأن ينذرهم ويوعز اليهم ، ويعلمهم ما في أعناقهم عليها ، وما لهم في قبول ذلك من الحظ ، وعليهم في تركه من الوزر . فآذن [4] بذلك فيهم ، وأنشده في أسواقهم وجميع أنديتهم ، وأوعز اليهم فيه ، وتقدم الى عامل شرطتك في إنهاك [5] العقوبة لمن رُفع اليه من أهل الاعتكاف عليها والإظهار للعب بها ، وإطالة حبسه في ضيق

---

(١) المراشد : مقاصد الطرق ، واجتالتهم الشياطين : صرفتهم عن هداهم إلى ضلالتها ، وفي الحديث : خلق الله عباده حنفاء فاجتالتهم الشياطين .

(٢) الرعيب كالمرعوب ، وتختلجه : تنزعه .

(٣) المخرم كمجلس : المنقطع .

(٤) آذن : أعلم .

(٥) نهكه : بالغ في عقوبته كأنهكه ؛ والنهك المبالغة في كل شيء .

وضنك ، وطرح اسمه من ديوان أمير المؤمنين ، وافطمهم عما نهجوا بهمن ذلك ، والتمس بشدتك عليهم فيه ، وإنهاكك بالعقوبة عليه ثواب الله وجزاءه ، واتباع أمير المؤمنين ورأيه ، ولا يجدن أحد عندك هوادة [١] في التقصير في حق الله عزّ وجل والتعدي لأحكامه ، فتحلّ بنفسك ما تسوءُك عاقبته ، وتتعرض به لغيرة الله عزّ وجل ونكاله ، واكتب إلى أمير المؤمنين مـــا يكون منك إن شاء الله والسلام » .

وعبد الحميد في سالته هذه أشبه الوعاظ والفقهاء بلهجته ، فقد رأيناه يكسو كلامه حلة من حلل الزهد ، ويدخل مُدخلاً دينياً يورد فيه البراهين على قضيته ، لينزع من النفوس حب التلهي بلعب يقطع صاحبه عن العمل ، وذكر لهم أن اللاعبين بالشطرنج يذكرون خلال لعبهم ألفاظاً لا يليق بالألسن تردادها ، ولا بالأسماع أن تنصت إليها ، وعرفنا من رسالته بعد هذا أن أُناساً من المنظور إليهم من الفقهاء وغيرهم من الأئمة كانوا مولعين بهذا اللعب منذ أوائل القرن الثاني .

ومن رسالة : « فإن الفتنة تتشوف لأهلها بآنق منظر ، وأزين ملبس ، تجرّ لهم أذيالها ، وتَعِدهم تتابع لذاتها ، حتى ترمِيَ بهم في حومات أمواجها مسلمةلهم تعدهم الكذب وتمنيهم الخُدَع ، فإذا لزمهم عِضاضها ، ونفر بهم [٢] شماسها تَخلّت عنهم خاذلة لهم ، وتبرأت منهم معرضة ، قد سُلبوا أجمل لباس دينهم واستُنزلوا عن أحصن معاقل دنياهم ، من الغناء البهيّ منظَره ، الجميل أثره ، حتى تطرحهم في فضائح أعمالهم ، والإيجاف في التعب ، وسوء المنقلب ، فمن آثر دينه على دنياه ، تمسك بطاعة ولاته ، وتحرز بالدخول في الجماعة ، تاركاً لأثقل الأمرين ، وأوبل الحالين » .

---

(١) هوادة : لين ورفق .

(٢) العضاض : الداهيـــة والزمن الشديد الكلب ؛ ومُلك فيه عسف وظلم ؛ وشمس الفرس شموسا وشماسا : منع ظهره فهو شامس وشموس .

ومن رسالة له في وصف الصيد كتب بها إلى مروان فيما يظهر .

« ... خرجنا إلى الصيد بأعدى الجوارح ، وأثقف الضواري ، وأكرمها أجناساً ، وأعظمها أجساماً ، وأحسنها ألواناً ، وأحدّها أطرافاً ، وأطولها أعضاء قد تثقفت بحسن الأدب ، وعودت شدة الطلب ، وسبرت أعلام المواقف ، وخبرت المجاثم ، مجبولة على ما عُوّدت ، ومقصورة على ما أدبت . ومعنا من نفائس الخيل المخبورة الفراهة [١] ، من الشِهرية [٢] الموصوفةبالنجابة ، والجري والصلابة . فلم نزل بأخفض سير وأثقف طلب ، وقدأمطرتنا السماءُ مطراًمتداركاً فرَبَت الأرض منه ، وزهر البقل ، وسكن القتام من مثار السنابك [٣] ، ومتشعبات الأعاصير ، مهلَة أن سرنا غَلَوات ، ثم برزت الشمس طالعة ، وانكشفت السحاب مسفرة ، فتلألأت الأشجار ، وضحك النّوار ، وانجلت الأبصار ، فلم نر منظراً أحسنحسناً ، ولامرموقاً أشبه شكلاً ، من ابتسام نور الشمس عن اخضرار زهرة الرياض ، والخيل تمرح بنا نشاطاً ، وتجذبنا أعنتها انبساطاً ، ثم لم نلبث أن علتنا ضبابة تقصر طرف الناظر ، وتخفى سبيل السلام ، تغشانا تارة ، وتنكشف أُخرى ، ونحن بأرض دمثةالتراب ، أشِبة [٤] الأطراف ، مغدقة الفجاج ، مملوءة صيدا من الظباء والثعالب والأرانب ، فأدانا المسير إلى غابة دونها مألف الصيد ، ومجتمع الوحش ، ونهاية الطلب ، قد جاوزناها ونحن على سبيل الطلب ممعنون ، وبكل حَرّة [٥] جَوْنةمتفرقون ، فرجع بنا العود على البدء ، وقد انجلت الضبابة وامتد النظر ، فاذا نحن برَعلة [٦] منظباء وخلفة آرام يرتعن آنسات ، قد أحالتهن الضبابة عن شخصنا ، وأذهلهن أنيق الرياض عن

---

(١) دابة فارهة : نشيطة حادة قوية .

(٢) بكسر الشين ضرب من البراذين .

(٣) السنبك والجمع السنابك : طرف الحافر وجانباه .

(٤) أشبة : ملتفة ، ودمثة : سهلة لينة .

(٥) الحرة أرض ذات حجارة سوداء ، والجون الأسود والأنثى جونة .

(٦) الرعله : القطعة من الخيل وقد تكون من البقر ، والخلفة اختلاف الوحوش مقبلة مدبرة

استماع حسّنا ، فلم نعج إلا والضواري لائحة لهن من بعد الغاية ، ومنتهى نظر الشاخص ، ثم مدت الجوارح اجنحتها ، واجتذبت الضواري مقاودها ، فأمرت بإرسالها على الثقة بمحضرها ، وسرعة الجوارح في طلبها ، فمرت تحف حفيف الريح عند هبوبها ، تسف الأرض سفاً (١) ، كاشفة عن آثارها ، طالبة لخيارها ، حارشة (٢) بأظفارها ، قد مزقتها تمزيق الريح الجراد ، فمن صائح بها وناعر ، وهاتف بها وناعق ، يدعو الكلب باسمه ، ويفديه بأبيه وأمه ، وراكض تحت مفره وخافق يطلبه الرمح ، وطامح يمنعه ، وسانح قد عارضه بارح ، قد حيرتنا الكثرة ، وألهجتنا القدرة ، حتى امتلأت أيدينا من صنوف الصيد ، والله المنعم الوهاب .

« ثم ملنا ، يا أمير المؤمنين ، بهداية دليل قد أحكمته التجارب ، وخبر أعلام المذانب (٣) إلى غدير أفيح ، وروضة خضرة ، مستأجمة بتلاوين الشجر ، ملتفة بصنوف الخَمَر (٤) مملوءة من أنواع الطير ، لم يذعرهن صائد ، ولا اقتنصهن قانص ، فخفق لها بالطبول ، وصفر بنفير الحتف ، فثار منها ما ملأ الأفق كثرتها ، وراعت الجوارح خفقات أجنحتها ، ثم انبرت البزاة لها صائدة ، والصقور كاسرة ، والشواهين ضارية ، يرفعن الطالب لها ، ويخفضن الظفر بها ، حتى سئمنا من الذبح ، وامتلأنا من النضح (٥) ، كأنا كتيبة ظفرت ببغيتها ، وسريّة نُصِرت على عدوها ، وألحقت ضعيفها بقويها ، وغلبت محسنها بمسيئها ، لا نملك

---

(١) السفيف : المرور على وجه الأرض .
(٢) صائدة .
(٣) مسائل الماء ، والأعلام مفرده علم وهو منصوب في الطريق يهتدى به ، والعلم : الجبل .
(٤) الخمر : للشجر المتكاثف ، والمستأجمة : كثيرة الشجر الملتف ، والتلاوين من لون البسر تلويناً بدا فيه أثر النضج ، والتلوين أيضاً : تقديم الألوان من الطعام للتفكه والتلذذ ، ويطلق على تغيير أسلوب الكلام إلى أسلوب آخر .
(٥) النضح : البلل .

أنفسنا مرحاً ، ولا نستفيق من الجذل بها فرحاً ، بقية يومنا ، والله المنعم الوهاب.

« ثم غدونا ، يا أمير المؤمنين ، إلى أرض وُصف لنا صيدها بالكثرة ، ورياضها بالنزهة ، فزلّ واصفها عن الطريقة ، واعتمد بنا على غير الحقيقة ، فأتيناها فلم نر صيداً ولا عشباً ، ولا نزهة ولا حسنا ، فجعلنا نسلك منها حزوناً ووعوراً ، وجدوباً وقفراً ، حتى قصر بنا اليأس عن الطلب ، وقطع بنا عن الطمع النّصَب . فبينا نحن كذلك ، إذ بدا لنا جأب (١) قد أوفى بنا على حائل (٢) دل على غابة من ورائها حمير وحش كثيرة ، فأممناها فلما تطرفنا مشياً وتقريباً إلى عاناته (٣) . توالى نهيقه وكثر شهيقه ، فالتفتن إليه ، فرمقن بأعينهن منا ما استكثرن شخصه ، واستهولن أمره ، حتى إذا كنا بمرأى ومسمع انجذبن موليات وهربن مسيئات ، فأجهَدَنا الركض في طلبهن ، نتبع آثارهن ، ونستشف بلاءً بين أحفار ودكادك وأخاديد (٤) حتى أشفى بنا الطلب لها على واد هائل سائل ، بجنبتيه غابة أشبة ، قد سبقن إليها ، واستخفين فيها ، فنظمناها بالخيل نظم الخرز ، ثم أوغلت عدة فرسان في نفضها ومعرفة أحوالها ، والطبول خافقة ، والأصوات شاهقة ، فكان وكان ، والحمد لله على كل حال » اه .

وهذه رسالة وقفتنا على مبلغ عنايتهم بالصيد ، ووصفت لنا ما لاقاه الصائدون ، وصفاً رائعاً مستوفياً كأننا كنا معهم ؛ وصف عُدَدَهم التي أعدوها ، والأرض التي وطئوها ، والشدة التي لقوها من سماء أمطرتهم وابلاً ورذاذاً ، وكيف استخدموا الجوارح في صيودهم ، وما احتالوا من الحيل وحصروا من

---

(١) حمار وحشي .

(٢) الحائل : كل شيء تحرك في مكانه ، وقد حال يحول واستحال الشخص نظر اليه هل يتحرك .

(٣) العانة : الإتان والقطيع من حمر الوحش .

(٤) الدكادك جمع دكدك وهي الأرض فيها غلظ ، والأخاديد جمع أخدود وهو حفرة مستطيلة في الأرض .

الوكد حتى تمت لهم أُمنيتهم ، فصادوا ما شاء الله أن يصيدوا ، وعادوا مملوءة عبابهم وجعابهم بأنواع الصيد .

ومن رسالة له في الفتنة : « ففي طاعة الأئمة في الإسلام ، ومناصحتهم على أمورهم والتسليم لما أمروا به ، فهمْ كل نعمة فاضلة ، وكرامة باقية ، وعافية مجللة ، وسلامة ظاهرة وباطنة ، وقوة باذن الله مانعة ، وفي الخلاف لهم والمعصية عليهم ، ذهاب كل نعمة ، وتفرق كل كرامة ، ومحق كل قِنية ، وهلاك كل سلامة وأُلفة ، وموت كل عز وقوة ، والدعاء بكل بلية ، ومقارفة كل ضلالة ، واتباع كل جهالة ، وإحياء كل بدعة ، وإماتة كل سنة ، وإجلاب كل ضرر على الأمة ، وإدبار كل منفعة ، والعمل بكل جــور وباطل ، وفناءُ كل حق ، وبمعصية خليفة الله لا يزال رجل من المسلمين يضرب بسيفه الذي بيديه سيف أخيه الذي كان يعتمد عليه ، ويوهن عضده ، ويهدم حصنه ، ويفلُّ عدده ، ويهلك ثروته ، ويعطب من يدعوه ، ويفزع إليه ، ويكثّر بمكانه ، ويحرسه من غفلته عن الأعداءِ إذا غفل ، ويكون عبئاً له من خلفه ، فلا يزال بالمعصية منهم والاختلاف دم يُهراق بغير حقه ، وطفل من أبناء المسلمين قد يتم من أبيه ، ومذلة قد دخلت عليه ، ونعمة قد زالت عنه ، ووحشة قد أحدثت ضغائن في القلوب قد نشبت ، وشحناء قد ظهرت ، وأوتار[1] قد بقيت ، وعداوة في الأنفس قد استقرت ، وخوف قد ظهر ، وسبل قد قطعت ، وامرأة قد أُرملت ، وصبية قد يتمت ، وبلاد عامرة قد خربت ، وعدد قد نقص ، وبلايا قد عمت وشملت ، وعدو قد شمت ، ومنافق قد رَفع إلى ما كان يؤمل رأسَه ، وعدو من المشركين قد طمع وقوي بعد ضعف ، وعزّ بعد مذلّة ، ورعية قد صاحت ، وناعية قد ولولت ، وحميم قد قتل حميمه ، ومودة قد صارت عداوة ، واجتماع من الأهواء قد عاد إلى فرقة ، وأرحام قد تقطعت .

---

(١) الوتر بالكسر : الذحل أي الثأر .

« فانظروا يا معاشر المسلمين ماذا تفعل الفتنة والمعصية ، وكيف يدب الشيطان لها ، ويسعى فيها ، ويحتال بخديعته ومكره ، ولطف مسالكه حتى يُلهبها ويَشعلها ، ويرفعها من قلتها إلى الكثرة ، ومن صغرها إلى كبرها ، فإنه إنما يبدو الظفر على الولاة (؟) ، ثم يترامى إلى الشكاة والسَّخطة والغضب ، وزين لهم القتال فبلغ الهلاك الأعظم ، والشر الأكبر ، بطرق أمر صغير الخطر في الظاهر ، عظيم البلية في الباطن ، فلا يزال الرجل ينظر منهم إلى قاتل أبيه وأخيه وحميمه وذوي قرابته وأهل مودته والنافع كان ، ثم تحمَّل العداوة في قلبه ، والضغينة العظيمة عليه ، ويستعد للنقمة منه ، وطلب الذَّحْل [1] عنده ، فبثت تلك الضغائن في الأبناء بعد الآباء ، فانظروا يا أهل الإسلام من أين دب الشيطان بلطيف مسالكه ، وعلى أي شيء ورد ، وإلى أي أمر تسامى ، حتى عم بالمعصية أهل الإسلام عامة » اهـ .

واستفدنا أيضاً من هذه الرسالة أن البلاد كانت تموج بالفتن أواخر عهد الخليفة مروان بن محمد الأموي ، وأن عبد الحميد يريد بتأثير قلمه أن ينزع أهل الأقطار عن التردي [2] في مهالكها ؛ ولكم كتب من مثلها منذ نادى أهل خراسان بشعار العباسيين يا ترى ؟. وما نظن إلا أن مجموعة رسائله تبلغ أكثر من ألف ورقة لا كما قال بعضهم ؛ وقد عرفنا بهذا النموذج الضئيل الذي بقي من ذاك التراث العظيم أن صاحبنا كان بعيدَ النظر في السياسة ، شديد الغيرة على سلطان بني أُمية ، عارفاً بما سيحلُّ بالدولة ، وود لو يتحيل لها بمخرج ينجيها ولو بعض الشيء من المأزق الذي صارت إليه ، حتى لقد أراده على أن يعمد إلى الزواج السياسي ويتقرب من بني هاشم بالإصهار إليهم . قال لمروان حين رأى علوَّ أمر بني العباس : أتتهمني يا أمير المؤمنين فيك ؟ قال : لا . فقال له : أرأيت ابراهيم بن محمد بن علي أليس ابن عمك ؟

---

(١) الذحل : الثأر أو طلب مكافأة بجناية .

(٢) تردى في مهواة : سقط فيها ، ورديته تردية .

قال : بلى . قال : فاني أرى أموره تنبع[١] عليك فأنكحه وانكح إليه ، فإن ظهر كنت أعلقت بينك وبينه سبباً ، وإن كفيته لم تُمْنَ بصهره . فقال : ويحك والله لو علمته صاحب الأمر لسبقت إليه ، ولكن ليس هو بصاحبه ، فقال له : وما يضرك من ذلك ، وهو من القوم الذين تعلم أن الأمر منتقل إليهم لا محالة ، وأن الصواب أن تعلق بينك وبينهم سبباً . قال مروان : والله إني لأعلم أن الرأي فيما تقول ، ولكني أكره أن أطلب النصر بأحراح النساء .

* * *

لعبد الحميد الأكبر رسالتان كبيرتان : الأولى رسالته في نصيحة ولي العهد ، والثانية رسالته إلى الكتاب ؛ كتب الأولى على لسان مروان إلى ابنه وولي عهده عبد الله ، لما وجهه إلى قتال الضحاك بن قيس الشيباني الخارجي ، وكان هذا استولى على الموصل وكورها سنة ١٢٧ ؛ وقد انطوت هذه الرسالة المرقصة على أغراض كثيرة يمكن إجمالها في موضوعين مهمين : الأول درس عظيم في تربية أبناء الملوك والعظماء وتلقينهم الأخلاق الفاضلة ؛ والثاني وضع خطط حربية يسير عليها ولي العهد في قتال العدو . وقد أثبت عبد الحميد بهذه الرسالة أنه من علماء التربية والنفس ، وأنه عارف بالسياسة والإدارة والحرب ، يستطيع أن يقود الجيوش بعقله كما يقود الممالك بقلمه .

بدأ رسالته في وصف الخارجي ، وأن الخليفة أراد أن يعهد إلى ولي عهده عهداً يحمله فيه أدبه ، ويشرع له عظته ، وإن كان ولي العهد في الغاية من الدين ، والتحلي بما يَحْسُن بالخلافة ، ولو لم يكن كذلك ما خصه أبوه بالولاية عنه دون بني أبيه ؛ وقال له : إن الخليفة بوعظه ابنه أيضاً ائتمر بأمر الله ، وما تقدمت فيه الحكماء من تقديم العظة والتذكير ، وإن كانوا أهل معرفة

---

(١) تثور وتفشو .

وأولى سابقة في الكمال وفضل في العلم . قال : ولو كان المؤدبون أخذوا العلم من عند أنفسهم ، ولقنوه إلهاماً من تلقائهم ، ولم يتعلموا شيئاً من عند غيرهم لنحلناهم علم الغيب ، ووضعناهم بمنزلة قصرهم بها عنهم خالقهم ، المستأثر بعلم الغيب عنهم بوحدانيته في فردانيته في إلهيته ... قال : وأمير المؤمنين يرجو أن ينزهك الله عن كل قبح يهش له طمـــع ، وأن يعصمك من كل مكروه حاق[1] بأحد ، وأن يحصنك من كل آفة استولت على امرىء في دين أو خُلق ، وأن يبلغه فيك أحسن ما لم يزل يعوّده من آثار نعمة الله عليك ، سامية بك إلى ذروة الشرف ، ومنجحة لك بسطة الكرم ، لائحة بك في أزهر مغاني الأدب ، مورثة لك أنفَس ذخائر العز .

وبعد أن كان الخليفة يخاطب ابنه بصيغة الغائب ، انقلب وخاطبه خطاب الحاضر فقال : « والله أستخلف عليك ، وأسأله حياطتك ، وأن يعصمك من زيغ الهوى ، ويحضرك دواعي التوفيق ، معاناً على الإرشاد فيه ، فإنه لا يعين على الخير ولا يوفق له إلا هو » . وهذا الانقلاب في تنويع الخطاب من أجمل ما بدر على قلمه ؛ ذلك أن الخليفة بعد أن خاطب ابنه خطابه عاملاً من عماله ، عاد فذكر البنوة فدعا له دعاء والد لولده ، ليوفق في مقاصده ويسلم في بدنه . ثم هوّن عليه الأمر ، وأبان له قدر نفسه ، وما تيسر له من أسباب التفوق بأخلاقه فقال : « وقد تلقتك أخلاق الحكمة من كل جهة بفضلها ، من غير تعب البحث في إدراكها ، ولا متطاول المنال لذروتها ، بل تأثلت[2] منها أكرم معانيها ، واستخلصت منها أعتق جواهرها ، ثم شمرت إلى لباب مصاصها ، وأحرزت مَنْفَس[3] ذخائرها ، فاعتقد ما أحرزت ، ونافس فيما أصبت » . ومما قدمه له من العظة في ذلك أن يشكر

---

(١) حاق به شيء : نزل .
(٢) تأثلت : اكتسبت .
(٣) منفس : ما يتنافس فيه .

الله في كل صباح على نعمة السلامة والعافية ، وأن يقرأ فيه من كتاب الله جزءاً يردد فيه رأيه في أدبه ، ويزين لفظه بقراءته . ويحضر عقله ناظراً في محكمه ، ويتفهمه متفكراً في متشابهه ؛ يريد بذلك تقوية عقيدته في الدين ، وتقوية ملكته في البلاغة .

وبعد ذلك التفت فقال : « ثم تعهد نفسك بمجاهدة هواك ، فانه مغلاق [١] الحسنات ، ومفتاح السيئات ، واعلم أن كل أهوائك لك عدو يحاول هلَكَتَك ، ويعترض غفلتك ، لأنها خدع إبليس وحبائل مكره ، ومصايد مكيدته ، فاحذرها مجانباً لها ، وتوقّها محترساً منها ، واستعذ بالله من شرها ، وجاهدها إذا تناصرت[٢] عليك بعزم صادق لا ونية فيه ، وحزم نافذ لا مثنوية[٣] لرأيك بعد إصداره عليك ، وصدق غالب لا مطمع في تكذيبه ، ومضاءة صارمة لا أناة معها ، ونية صحيحة لا خلجة[٤] شك فيها ، فإن ذلك ظُهري[٥] صدق لك على ردها عنك ، وقطعها دون ما تتطلع إليه منك ، وهي واقية لك سخطة ربك ، داعية لك رضا العامة ، ساترة عليك عيب من دونك ... فحاول بلوغ غايتها ، محرزاً لها بسبق الطلب إلى إصابة الموضع ، محصناً أعمالك من العجب ، فإنه رأس الهوى ، وأول الغواية ، ومقاد الهلكة ، حارساً أخلاقك من الآفات المتصلة بمساوى العادات » .

« ومنها أن تملك أمورك بالقصد ، وتصون سرك بالكتمان ، وتداوي جندك بالإنصاف ، وتذلل نفسك بالعدل ، وتحصن عيوبك بتقويم أوَدك ، وأناتَك فوقّها الملال وفوت العمل ، ومضاءتك فدرّعها روية النظر ،

---

(١) المغلاق بكسر الميم ما يغلق به الباب .
(٢) تناصرت الأخبار : صدق بعضها بعضاً .
(٣) مثنوية : إستثناء .
(٤) خلجة : اضطراب .
(٥) ظهري : عدة .

واكنفها بأناة الحلم ، وخلواتك فاحرسها من الغفلة واعتماد الراحة ، وصمتك فانف عنه عِيَّ اللفظ ، وخف فيه سوء القالة[١] ، واستماعك فارْعه[٢] حسن التفهم ، وقوّه بإشهاد الفكر ، وعطاءك فانهد[٣] له بيوتات الشرف وذوي الحسب ، وتحرز فيه من السرف ، واستطالة البَذَخ[٤] وامتنان الصنيعة ، وحياءك فامنعه من الخجل وبلادة الحصَر ، وحلمك فزَعْه عن التهاون ، وأحضره قوة الشكيمة[٥] ، وعقوبتك فقصر بها عن الإفراط ، وتعمد بها أهل الاستحقاق ، وعفوك فلا تدخله تعطيل الحقوق ، وخذ به واجب المفترض وأقم به أوَدَ الدين ، واستئناسك فامنع منه البذاءة وسوء المثافنة[٦] ، وتعهدك أمورك فحدّه أوقاتاً ، وقَدّره ساعات ، لا يستفرغ قوتك ، ويستدعي سآمتك ، وعزماتك فانف عنها عجلة الرأي ، ولجاجة الإقدام ، وفرحاتك فاشكمها[٧] عن البطر ، وقيّدها عن الزهد ، وروعاتك فحطها من دهش الرأي ، واستسلام الخضوع ، وحذراتك فامنعها عن الجبن واعمد بها للحزم ، ورجاءك فقيده بخوف الفائت ، وامنعه من أمن الطلب » .

ثم ذكر له كيف يتخير عشراءه ويعامل مشاوريه ، ويتوقى انتشار أخباره في العامة ، إلا على ما لا يسقط من شأنه ، فقال : « ثم لتكن بطانتك وجلساؤك في خلواتك ، ودخلاؤك في سرك ، أهل الفقه والورع من خاصة أهل بيتك

---

(١) يطلق القول في الخير ، والقال والقيل والقالة في الشر .
(٢) اسمعه .
(٣) نهد الهدية : عظمها وأضخمها .
(٤) البذخ : الكبر .
(٥) الشكيمة : قوة القلب .
(٦) المثافنة : المباطنة ، وفي رواية : المنافثة ومعناها الأذية .
(٧) شكمه يشكمه شكما : وضع الشكيمة في فيه ، والشكيمة في اللجام الحديدة المعترضة في فم الفرس التي فيها الفأس ، وفأس اللجام هي الحديدة القائمة في الشكيمة إذا كان ذا عارضة وحد ج شكائم وشكم .

وعامة قوادك ، ممن قد حنكته السنُّ بتصاريف الأمور ، وخبطته فصالها بين فراسن[١] البزل منها ، وقلبته الأمور في فنونها ، وركب أطوارها عارفاً بمحاسن الأمور ، ومواضع الرأي ، مأمون النصيحة ، مطويَّ الضمير على الطاعة ، ثم أحضرهم من نفسك وقاراً ، تستدعي منهم لك الهيبة ، واستئناساً يعطف إليك منهم بالمودة ، وإنصاتاً يفلُّ إفاضتهم عندك بما تكره أن ينتشر عنك من سخافة الرأي ، وضياع الحزم ، ولا يغلبن عليك هواك فيصرفك عن الرأي ، ويقطعك دون الفكر . وتعلَّم أنك وإن خلوت بسر فألقيت دونه سترك ، وأغلقت عليه أبوابك ، فذلك لا محالة مكشوف للعامة ، ظاهر عنك وإن استترت بربما ولعل ، وما أُرى إذاعة ذلك ، فاعلم بما يرون من حالات من ينقطع به في تلك المواطن ، فتقدم في إحكام ذلك من نفسك وسدَّ خلله عنك ، فإنه ليس أحد أسرع إليه سوءُ القالة ، ولغط العامة بخير أو شر ، ممن كان في مثل حالك ومكانك الذي أصبحت فيه من دين الله ، والأمل المرجو المنتظر فيك » .

ثم حذره من مسائل لها مساس عظيم بمن لهم السلطان على الناس ، فكلمه في أمور عامة تنتظم بسيره وبسيرته فقال له : « وإياك أن يغمز[٢] أحد من حامَّتك وبطانة خدمك ، بضعفة يجد بها مساغاً إلى النطق عندك بما لا يعتزلك عيبه ، ولا تخلو من الأحدوثة لأئمته ، ولا تأمن سوءاً فيه ، ولا يرخُص سوء القالة فيه ، إن نَجَم ظاهراً ، أو أعلن بادياً ، ولن يجترئوا على تلك عندك ، إلا أن يروا منك إصغاءً إليها ، وقبولاً لها ، وترخيصاً لهم في الإفاضة بها ، ثم إياك أن يفاض عندك بشيء من الفكاهات والحكايات ، والمزاح والمضاحك ، التي يستخف بها أهل البطالة ، ويتسرع نحوها ذوو الجهالة ، ويجد فيها أهل

(١) الفرسن والجمع فراسن : رجل الجمل ، والبزل كركع : جمع بازل وهو البعير إذا ظهر نابه ، ومن المجاز : الرجل الكامل في تجربته .
(٢) أغمز في فلان : إذا عابه واستضعفه وصغر شأنه ، والحامة القرابة والأسرة .

الحسد مقالاً لعيب يذيعونه ، ولطعن في حق يجحدونه ، مع ما في ذلك من نقص الرأي ودَرَن العرض ، وهدم الشرف وتأثيل[١] الغفلة ، وقوة طباع السوء الكامنة في بني آدم . كمون النار في الحجر الصلد ، فإذا قدح لاح شرره ، وتلهب وميضه ، ووقد تضرمه ، وليست في أحد أقوى سطوة ، وأظهر توقداً وأعلى كموناً ، وأسرع إليه بالعيب ، وتطرق الشين ، منها إلى من كان في سنك من أغفال[٢] الرجال ، وذوي العنفوان في الحداثة الذين لم يقع عليهم سِمات الأمور ناطقاً عليهم لائحها ، ظاهراً عليهم وسمها ، ولم تمحضهم شهامتها ، مظهرة للعامة فضلهم ، مذيعة حسن الذكر عنهم ، ولم يبلغ بهم الصيت في الحنكة مستمعاً يدفعون به عن أنفسهم نواطق ألسن أهل البغي ، ومواد أبصار أهل الحسد » .

وعاد بعد أن حذره من الخفة في المواكب ، ومداعبة من يسايره بالتضاحك إليه ، يريده على أن يستعمل الجد في حركاته ، بحيث لا تتقلقل جوارحه ، ويحذره من السعاية ، ويدله على الطريقة في معاملة النمامين ، وعلى الترفع عن الجواسيس وصورة معاملتهم لا يأخذ منهم الا ما ينفع الدولة فقط ؛ ونهج له السبيل السوي في معاملة أصحاب الحاجات ، فقال : « واعلم أن قوماً سيسرعون إليك بالسعاية ، ويأتونك من قبيل النصيحة ، ويستميلونك بإظهار الشفقة ، ويستدعونك بالإغراء والشبهة ، ويوطئونك عشوة[٣] الحيرة ، ليجعلوك ذريعة لهم إلى استئكال[٤] العامة ، بموضعهم منك في القبول منهم ، والتصديق لهم على من قرفوه[٥] بتهمة ، أو أسرعوا بك في أمره إلى الظِنَّة ، فلا يصلن إلى مشافهتك ساع بشبهة ، ولا معروف بتهمة ، ولا منسوب إلى

---

(١) التأثيل : التأصيل .
(٢) رجل غفل : لم يجرب الأمور .
(٣) العشوة : الظلمة .
(٤) استأكل الضعفاء : أخذ أموالهم .
(٥) قرف فلاناً : عابه أو اتهمه .

بدعة ، فيعرضك لابتداع [١] في دينك ، ويحملك على رعيتك ما لا حقيقة فيه ، ويلحمك[٢] أعراض قوم لا علم لك بدخلهم ، إلا بما أقدم به عليهم ساعياً ، وأظهر لك منهم متنصحاً .

« وليكن صاحب شُرَطك ، ومن أحببت أن يتولى ذلك من قوادك ، إليه انتهاء ذلك وهو المنصوب لأولئك ، والمستمع لأقاويلهم ، والفاحص عن نصائحك ، ثم ليُنْهِ ذلك إليك على ما يرتفع إليه منه ، لتأمره بأمرك فيه ، وتقفه على رأيك ، من غير أن يظهر ذلك للعامة ، فإن كان صواباً نالتك حظوته ، وإن كان خطأ أقدم به عليك جاهل ، أو فرطة سعى بها كاذب ، فنالت الساعي منها أو المظلوم عقوبة ، أو بدر منك إليه عقوبة ونكال ، لم يعصب[٣] ذلك الخطأ بك ، ولم تنسب إلى تفريط ، وخلوت من موضع الذم فيه ، محضراً إليه ذهنك وصواب رأيك ، وتقدم إلى من تولى ذلك الأمر ، وتعتمد عليه فيه ، أن لا يقدم على شيء ناظراً فيه ، ولا يحاول أخذ أحد طارقاً له ، ولا يعاقب أحداً منكلاً به ، ولا يخلي سبيل أحد صافحاً عنه لإصحار[٤] براءته ، وصحة طريقته ، حتى يرفع إليك أمره ، وينهي إليك قضيته على جهة الصدق ، ومنحى الحق ، ويقين الخبر ، فإن رأيت عليه سبيلاً لمحبس ، أو مجازاً لعقوبة ، أمرته بتولي ذلك من غير إدخاله عليك ، ولا مشافهة لك منه ، فكان المتولي لذلك ، ولم يجر على يديك مكروه رأي ، ولا غلظة عقوبة ، وإن وجدت إلى العفو عنه سبيلاً ، أو كان مما قُرف به خليا ، كنت أنت المتولي للإنعام عليه بتخلية سبيله والصفح عنه بإطلاق أسره ، فتوليت أجر ذلك واستحققت ذخره ، وأنطقت لسانه بشكرك ، وطوقت

---

(١) في رواية لإيتاغ دينك ، يقال : أوتغه أهلكه ، وهذا مما يوتغ الدين والمروءة .
(٢) ألحم الحرب فالتحمت ، أي يعرضك للهلكة بقرض عرض من لا تعرف .
(٣) عصب القوم بفلان : أحاطوا به .
(٤) الإصحار : الوضوح .

قومه حمدك ، وأوجبت عليه حقك ، فقرنت بين خصلتين ، وأحرزت حظوتين ، ثواب الله في الآخرة ، ومحمود الذكر في العاجلة .

« ثم وإياك أن يصل أحد من جندك ، وجلسائك وخاصتك وبطانتك بمسألة يكشفها لك ، أو حاجة يبدهك بطلبها ، حتى يرفعهـا قبل ذلك إلى كاتبك الذي أهدفته لذلك ونصبته له ، فيعرضها عليك منهياً لها على جهة الصدق عنها ، وتكون على معرفة من قدرها ، فإن أردت إسعافه بها ، ونجاح ما سأل منها ، أذنت له في طلبها ، باسطاً له كنفك ، مقبلاً عليه بوجهك ، مع ظهور سرورك بما سألك ، فسحة رأي ، وبسطة ذَرع ، وطيب نفس ؛ وإن كرهت قضاء حاجته ، وأحببت رده عن طلبته ، وثقل عليك إجابته إليها ، وإسعافه بها ، أمرت كاتبك فصفحه[1] عنها ، ومنعه من مواجهتك بها ، فخفّت عليك في ذلك المؤونة ، وحسن لك الذكر ، ولم ينشر عنك تجهم[2] الرد ، وينلك سوء القالة في المنع ، وحمل على كاتبك في ذلك لأئمة أنت منها بريء الساحة .

« وكذلك فليكن رأيك وأمرك فيمن طرأ عليك من الوفود ، وأتاك من الرسل ، فلا يصلن إليك أحد منهم إلا بعد وصول علمه إليك ، وعلم ما قدم له عليك ، وجهة ما هو مكلمك به ، وقدر ما هو سائلك إياه ، إذا وصل إليك فأصدرت رأيك في حوائجه ، وأجلت فكرك في أمره ، واخترت معتزماً على إرادتك في جوابه ، وأنفذت مصدور رويتك في مرجوع مسألته ، قبل دخوله عليك ، وعلمه بوصول حاله إليك ، فرفعت عنك مؤونة البديهة ،

---

(١) يقال : أتاني فلان في حاجة فاصفحته عنها إصفاحاً إذا طلبها فمنعته . قال ابن الأثير صفحته إذا أعطيته ، وأصفحته إذا حرمته ، وصفحه على حاجته ، يصفحه صفحاً ، وأصفحه كلاهما رده .

(٢) جهم : ككرم جهامة وجهومة ، وجهمه كمنعه وسمعه استقبله بوجه كريه كتجهمه وله .

وأرخيت عن نفسك خناق[1] الروية ، وأقدمت على رد جوابه بعد النظر ، وإجالة الفكر فيه ، فإن دخل إليك أحد منهم ، فكلمك بخلاف ما أنهى إلى كاتبك ، وطوى عنه حاجته قِبَلَك ، دفعته عنك دفعاً جميلاً ، ومنعته جوابك منعاً وديعاً ، ثم أمرت حاجبك بإظهار الجفوة له ، والغلظة عليه ، ومنعته من الوصول إليك ، فإن ضبطك لذلك مما يحكم لك تلك الأسباب ، صارفاً عنك مؤونتها ، ومسهلاً عليك مستصعبها » .

هذه هي الخطة التي اختطها عبد الحميد لولي عهد المسلمين ، يريد بها أن يرفع مقامه بين الناس ، على اختلاف مطالبهم ، وأن يظهر بمظهر الكرامة ، بعيداً عن تجبيه قاصديه والتجهم لهم ، وهو ضرب من حسن السياسة ما نخال رجال الدول الراقية اليوم يعملون بغير هذه الطريقة حتى لا يسقطوا من الأنظار ، ويتركوا للمراجعين فسحة من الأمل ، ولا يقطعوا معهم قطعاً بتّاً ، وأن يستهدف صغار العمال للنقد وأفظع من النقد ، والرئيس بمأمن ، على حين هو الكل في الكل ، والصغير عن رأيه صدر ، ولإرادته نفذ ، ولقانونه طبق . وماذا وماذا يضير هذا لو حمل الناس عليه بالطعن ، وقد يفادي بالمئات من العمال لقيام الدولة وحفظ البيضة ، واستبقاء الكرامة والحظوة ، في سبيل الرفع من مكانة الرئيس الأول ، فإن بسقوطه سقوط الدولة ، وسقوط بعض عماله لا شأن له ولا بال . وحقيقة فإن من المسائل ما يوفق لكشفه صاحب الشرطة مثلاً أكثر مما يوفق العظيم في الدولة ، لأنه متمحض لذلك ، ومقام ولاية العهد يصغر في نفوس الأمة إذا عمل صاحبه في جزئيات الأمور عملاً قد يجيده العامل الصغير ، ويوفق فيه ، ويوفر على صاحبه وقته ، ويرفع في العيون شخصيته .

جوّد عبد الحميد الكلام على هذا فأبان عن بعد نظر في سياسة الملك

---

(١) الخناق ككتاب : الحبل يخنق به ، وكغراب : داء يمتنع معه نفوذ النفس إلى الرئة والقلب ، ويقال أيضاً : أخذه بخناقه بالكسر والضم ومخنقه أي بحلقه (القاموس) .

وسياسة الرعية ، ثم أنشأ ينهج للمكتوب إليه طريقاً مهْيعاً [١] ، في سلوكه مع جلسائه وبطانته ، وأهل مشورته وأعوانه ، وفي أحوال نفسه . وتالله لقد لقنه هنا أدباً وحدد له عادات أشبه بقواعد الحياة العامة في الممالك المتحضرة اليوم . والعقل البشري على كثرة ارتقائه جيلاً فجيلاً ، لن يبرح في دائرة نرى فيها ما كان يستحسن قبل ألف سنة يستحسن اليوم ، وتلك القواعد التي يتمسكون بها هي القواعد التي سنها أجدادنا لأنفسهم منذ ثلاثة عشر قرناً . قال عبد الحميد :

« إحذر تضييع رأيك ، وإهمالك أدبك ، في مسالك الرضا والغضب ، واعتوارهما إياك ، فلا يزدَهيَنَّك إفراط عجب تستخفك روائعه ، ويستهويك منظره ، ولا يبدرن منك (في) ذلك خطأ ونزق خفة لمكروه إن حلّ بك ، أو حادث إن طرأ عليك ... وامنع أهل بطانتك وخاصة خدمك من استلحام[٢] أعراض الناس عندك بالغيبة ، والتقرب إليك بالسعاية ، والإغراء من بعض ببعض ، أو النميمة إليك بشيء من أحوالهم المستترة عنك ، أو التحميل لك على أحد منهم بوجه النصيحة ومذهب الشفقة ، فإن ذلك أبلغ بك سموّاً إلى منالة الشرف ، وأعون لك على محمود الذكر ، وأطلق لعنان الفضل في جزالة الرأي وشرف الهمة وقوة التدبير .

« واملك نفسك عن الانبساط في الضحك والانفهاق[٣] ، وعن القطوب بإظهار الغضب وتنحله[٤] ، فإن ذلك ضعف عن ملك سَوْرة الجهل ، وخروج من انتحال اسم الفضل ، وليكن ضحكك تبسماً أو كشراً في أحايين

---

(١) طريق مهيع : واضح واسع بين وجمعه مهايع .

(٢) استلحم : اتبع ، وفي حديث أسامة : فاستلحمنا رجل من العدو أي تبعنا ، يقال : استلحم الطريدة و الطريق أي تبع .

(٣) الاتساع .

(٤) تنحل الشيء وانتحله : ادعاه .

ذلك وأوقاته ، وعند كل رائع مطرب ، وقطوبك إطراقاً في مواضع ذلك وأحواله ، بلا عجلة إلى السطوة ، ولا إسراع إلى الطِيَرة ، دون أن يكنفها روية الحلم ، وتملك عليها بادرة الجهل .

« إذا كنت في مجلس مَلَئِك ، حيث حضور العامـة مجلسك ، فإياك والرمي بنظرك إلى خاص من قوادك ، أو ذي أثرة[1] عندك من حشمك ، وليكن نظرك مقسوماً في الجميع ، وإراعتك سمعك ذا الحديث بدَعَة هادئة ، ووقار حسن ، وحضور فهم مجتمع ، وقلة تضجر بالمحدث ، ثم لا يبرح وجهك إلى بعض حرسك وقوادك متوجهاً بنظرركين ، وتفقد محض ، وإن وجه إليك أحد منهم نظره محدقاً ، أو رماك ببصره ملحاً ، فاخفض عنه إطراقاً جميلاً باتداع وسكون ، وإياك والتسرع في الإطراق ، والخفة في تصريف النظر ، والإلحاح على من قصد إليك في مخاطبته إياك رامقاً بنظره .

« واعلم ان تصفحك وجوه جلسائك ، وتفقدك مجانسة قوادك ، من قوة التدبير ، وشهامة القلب ، وذكاء الفطنة ، وانتباه السنة ، فتفقد ذلك عارفاً بمن حضرك وغاب عنك ، عالماً بمواضعهم من مجلسك ، ثم اغدُ بهم عن ذلك سائلاً لهم عن أشغالهم التي منعتهم من حضور مجسلك ، وعاقتهم بالتخلف عنك .

« إن كان أحد من حشمك وأعوانك تثق منه بغيب ضمير ، وتعرف منه لين طاعة ، وتشرف منه على صحة رأي ، وتأمنه على مشورتك ، فإياك والإقبال عليه في كل حادث يرد عليك ، والتوجه نحوه بنظرك عند طوارق ذلك ، أن تريه أو أحداً من أهل مجسلك أن بك حاجة إليه موحشة ، أو أن

(١) في الحديث قال للأنصار : إنكم ستلقون بعدي أثرة فاصبروا . الأثرة بفتح الهمزة والثاء : الاسم من آثر يؤثر إيثاراً إذا أعطى ، أراد أن يستأثر عليكم فيفضل غيركم في نصيبه من الفيء .

ليس بك عنه غنى في التدبير ، أو أنك لا تقضي دونه رأياً إشراكاً منك له في رويتك ، وإدخالاً منك له في مشورتك ، واضطراراً منك إلى رأيه في الأمر يعروك ، فإن ذلك من دخائل [١] العيوب التي ينتشر بها سوء القالة عن نظرائك ، فانفها عن نفسك ، خائفاً لاعتلاقها ذكرك ، واحجبها عن رويتك قاطعاً أطماع أوليائك عن مثلها عندك ، أو غلوبهم عليها منك ، واعلم أن للمشورة موضع الخلوة وانفراد النظر ، ولكل أمر غاية تحيط بحدوده وتجمع معالمه ، فابغها محرزاً لها ، ورُمْها طالباً لنيلها ، وإياك والقصور عن غايتها ، أو العجز عن دركها ، أو التفريط في طلبها إن شاء الله تعالى .

« إياك والإغرام [٢] عن حديث ما أعجبك ، أو أمر ما ازدهاك بكثرة السؤال ، أو القطع لحديث من أرادك بحديثه ، حتى تنقضه عليه بالخوض في غيره أو المسألة عما ليس منه ، فإن ذلك عند العامة منسوب إلى سوء الفهم ، وقصر الأدب ، عن تناول محاسن الأمور والمعرفة بمساويها ، ولكن أنصت لمحدثك وأرعه سمعك ، حتى يعلم أن قد فهمت حديثه ، وأحطت معرفة بقوله ، فإن أردت إجابته فعن معرفة بحاجته ، وبعد علم بطلبته ، وإلا كنت عند انقضاء كلامه كالمتعجب من حديثه بالتبسم والإغضاء ، فأجزى عنك الجواب ، وقطع عنك ألسن العتب .

« إياك وأن يظهر منك تبرم بطول مجلسك ، أو تضجر ممن حضرك ، وعليك بالتثبت عند سَوْرة الغضب ، وحمية الأنف ، وملال الصبر في الأمر تستعجل به ، والعمل تأمر بإنفاذه ، فإن ذلك سخف شائن ، وخفة مردية ، وجهالة بادية ، وعليك بثبوت المنطق ، ووقار المجلس ، وسكون الريح ، والرفض لحشو الكلام ، والترك لفضوله ، والإغرام بالزيادات في منطقك ، والترديد للفظك من نحو اسمع وافهم عني وياهناه ، وألا ترى ،

---

(١) الدخيلة : باطن الرجل ويقال لها : الداخلة ، والدخلة بضم أوله وفتحه وكسره .

(٢) كذا في الأصل ولعلها الإعراب .

أو ما يلهج به من هذه الفضول المقصرة بأهل العقل ، الشائنة لذوي الحجا في المنطق ، المنسوبة إليهم بالعي ، المردية لهم بالذكر ، وخصال من معايب الملوك ، والسوقة عنها غبية النظر ، إلا من عرفها من أهل الأدب ، وقلما حامل لها ، مضطلع بها ، صابر على ثقلها ، آخذ لنفسه بجوامعها ، فانفها عن نفسك بالتحفظ منها ، واملك عليها اعتيادك إياها معتنياً بها ، منها كثرة التنخم والتبصق والتنخع ، والتثؤباء والتمطي والجشاء ، وتحريك القدم ، وتنقيض الأصابع ، والعبث بالوجه واللحية أو الشارب أو المخصرة أو ذؤابة السيف أو الإيماض بالنظر ، أو الإشارة بالطرف إلى بعض خدمك بأمر إن أردته ، أو السرار في مجسلك ، أو الاستعجال في طعمك أو شربك ، وليكن طعمك متدعاً وشربك أنفاساً ، وجرعك مصا ، وإياك والتسرع في الأيمان فيما صغر أو كبر من الأمور ، والشتيمة بقول يا ابن الهناة ، أو الغميزة[1] لأحد من خاصتك ، بتسويغهم مقارفة الفسوق بحيث محضرك أو دارك وفناؤك ، فإن ذلك كله مما يقبح ذكره ، ويسوءُ موقع القول فيه ، وتحمل عليك معايبه ، وينالك شَيْنه ، وينتشر عليك سوء النبإ به ، فاعرف ذلك متوقياً له ، واحذره مجانباً لسوءٍ عاقبته .

« استكثر من فوائد الخير ، فإنها تنشر المحمدة وتقيل العثرة ، واصبر على كظم الغيظ ، فإنه يورث الراحة ، ويؤمن الساحة . وتعهد العامة بمعرفة دخلهم وتبطن أحوالهم ، واستثارة دفائنهم ، حتى تكون منها على رأي عين ، ويقين خبرة ، فتنعش عديمهم ، وتجبر كسيرهم ، وتقوّم أودهم ، وتعلم جاهلهم ، وتستصلح حاسدهم ؛ فإن ذلك من فعلك بهم يورثك العزة ؛ ويقدمك في الفضل ، ويبقي لك لسان الصدق في العاقبة ، ويحرز لك ثواب الآخرة ؛ ويرد عليك عواطفهم المستنفرة منك ، وقلوبهم المتنحية عنك .

---

(١) الغميزة : المطعن أو المطمع . في القاموس وهن المرأة فرجها . ويقال للرجل أقبل يا هن ، ولها يا هنة أقبلي .

« قس بين منازل أهل الفضل في الدين والحجا والرأي والعقل والتدبير والصيت في العامة ، وبين منازل أهل النقص في طبقات الفضل وأحواله ، والخمول عند مباهاة النسب ، وانظر بصحبة أيهم تنال من مودته الجميل ، وتستجمع لك أقاويل العامة على التفضيل ، وتبلغ درجة الشرف في أحوالك المتصرفة بك ، فاعتمد عليهم من خلالهم في أمرك ، وآثرهم بمجالستك لهم مستحقاً منهم ، وإياك وتضييعهم مفرطاً ، وإهمالهم مضيعاً » .

هنا انتهى الفصل الأول من هذه الرسالة وقد لمحنا فيها ما يهذب النفس ، ويعرفها مصادر الأمور ومواردها ، ويقفها على أحـــوال الناس ومعالجة مسائلهم ، وقد ختمه بقوله : « هذه جوامع خصال قد لخصها لك أمير المؤمنين مفسراً ؛ وجمع لك شواذها مؤلفاً ، وأهداها إليك مرشداً ، فقف عند أوامرها ، وتناه عن زواجرها ، وتثبت في مجامعها ، وخذ بوثائق عراها ، تسلم من معطب الردى ، وتنل أنفس الحظوظ ، ورغيب الشرف ، وأعلى درجات الذكر ، والله يسأل لك أمير المؤمنين حسن الإرشاد ، وتتابع المزيد ، وبلوغ الأمل ، وأن يجعل عاقبة ذلك بك إلى غبطة يسوغك إياها ، وعافية يحلك أكنافها ، ونعمة يلهمك شكرها ، فإنه الموفق للخير ، والمعين على الإرشاد ، وبه تمام الصالحات ، وهو مؤتي الحسنات ، وبيده الملك وهو على كل شيء قدير » .

في الجزء الأول من هذا الكتاب صورة من التربية التي يريد عبد الحميد أن يلقنها ولي العهد ، وما يحاول أن ينزه عنه خلقه وعـــاده ، ومجالسه ومواقفه ، ويلقنه من السيرة الحسنة مع رعيته ، وذوي الحاجات والظلامات منها ، وما يجب أن يكون عليه في إدارته وسياسته مع عماله ونصحائه وأصحاب أخباره ، حتى يظهر للملأ تامّ الأدوات ، جميل المآتي[1] والصفات ، عظيماً يضم في بُرديه ضروب الوقار وحسن السمت ، وجمال العلم والأدب .

---

(١) مأتى الأمر ومأتاته جهته .

أما الجزء الثاني فهو قانون الحرب يلخصه لقائدها ، فيعمل على نفاذه ، لتكتب له الغلبة على خصمه الخارج على دولته . وقد بدأ هذا القسم بالوقوف عند حدود الطاعة لله ، والعمل بمراشده ، واجتناب نواهيه ، ووصف الدواعي إلى جهاد العدو الذي خرج على الجماعة ، فكان أضر على المسلمين من الترك والمشركين ، وأوصاه برعاية من يمرّ بهم الجيش من أهل الذمة وأهل الملة ، لئلا ينال الرعية ما ينالها على الأغلب ، من كل جيش مرابط ومثاغر ومهاجم ومدافع ومتراجع . فقال هذا :

« فإذا أفضيت نحو عدوك ، واعتزمت على لقائهم ، وأخذت أُهبة قتالهم ، فاجعل دعامتك التي تلجأ إليها ، وثقتك التي تأمل النجاة بها ، وركنك الذي ترتجى به منازل الظفر ، وتكتهف[1] به لمغالق الحذر ، تقوى الله عز وجل ، مستشعراً لها بمراقبته ، والاعتصام بطاعته ، متبعاً لأمره ، مجتنباً لسخطه ، محتذياً سنته ، والتوقي لمعاصيه ، في تعطيل حدوده وتعدي شرائعه ، متوكلاً عليه فيما صمدت[2] ، له واثقاً بنصره فيما توجهت نحوه ، متبرئاً من الحَوْل والقوة فيما نالك من ظفر ، وتلقاك من عزّ ، راغباً فيما أهاب[3] بك أمير المؤمنين إليه من فضل الجهاد ، ورمى بك إليه ، محمود الصبر فيه عند الله ، من قتال عدو المسلمين ، أكلبهم عليهم ، وأظهره عداوة لهم ، وأفدحه ثقلاً لعامتهم ، وآخذه بربقهم[4] وأعلاه عليهم بغياً ، وأظهره فيهم فسقاً وفجوراً ، وأشدّه على فيئهم الذي أصار الله لهم مؤونة وكَلاً ، والله المستعان عليهم ، والمستنصر على جماعتهم ، عليه يتوكل أمير المؤمنين وإياه يستصرخ عليهم ، وإليه يفوض أمره ، وكفى بالله وليّاً وناصراً ومغيثاً وهو القوي العزيز .

---

(١) اكتهف وتكهف لزم الكهف ، والكهف : المغارة .

(٢) صمد للأمر قصده معتمداً عليه .

(٣) أهاب بصاحبه دعاه .

(٤) الربقة : حبل يوضع في العنق وجمعه ربق وأكلبهم عليه أحرصهم وأشدهم .

« ثم خذ من معك من أتباعك وجندك ، بكف معرتهم ، ورد مستعلى جورهم[١] وإحكام خللهم ، وضم منتشر قواصيهم ، ولمّ شعث أطرافهم ، وتقييدهم عمن مروا به من أهل ذمتك وملتك ، بحسن السيرة ، وعفاف الطعمة ، ودَعَة الوقار وهدَى الدعة ، وجَمام[٢] المستجم ، محكماً ذلك منهم ، متفقداً لهم فيه تفقدك إياه من نفسك .

« ثم اصمد لعدوك المتسمي بالإسلام ، الخارج عن جماعة أهله ، المنتحل ولاية الدين ، مستحلاً لدماء أوليائه ، طاعناً عليهم ، راغباً عن سنتهم ، مفارقاً لشرائعهم ، يبغيهم الغوائل ، وينصب لهم المكايد ، أضرم حقداً عليهم ، وأرصد عداوة لهم ، من الترك وأُمم الشرك ، وطواغي الملل ؛ يدعو إلى المعصية والفرقة ، والمروق من الدين إلى الفتنة ، مخترعاً بهواه للأديان المنتحلة ، والبدع المتفرقة ، خساراً وتخسيراً ، وضلالاً وتضليلا ، بغير هدى من الله ولا بيان ، ساء ما كسبت يداه ، وما الله بظلام للعبيد ، وبئسما سولت له نفسه الأمَّارة بالسوء ، والله من ورائه بالمرصاد ، وسيعلم الذين ظلموا أيَّ مُنقَلَبٍ ينقلبون » .

وقد رأينا بما نقلنا من جمله أنـــه عاد فأراده على الاعتصام بالمولى ، وأدلى إليه بالوسائل إلى استصلاح عدوه من دون إهراق دم فقال له : « اعلم أن الظفر ظفران أحدهما أعم منفعة ، وأبلغ في حسن الذكر قالة ، وأحوطه سلامة ، وأتمه عافية ، وأعوده عاقبة ، وأحسنه في الأمور مورداً ، وأصحه في الرواية حزماً ، وأسلمه عند العامة مصدراً ، ما نيل ببسالة[٣] الجنود ، وحسن الحيلة ، ولطف المكيدة ، ويمن النقيبة[٤] ، واستنزال طاعة ذوي

(١) في الصبح : ورد مشتعل جهلهم وإحكام ضياع عملهم .
(٢) الجمام كحساب الراحة أي راحة المستريح .
(٣) في رواية بسلامة .
(٤) النقيبة النفس .

الصدوف [١]، بغير إخطار الجيوش في وقدة جمرة الحرب ، ومنازلة الفرسان في معترك الموت ، وإن ساعدتك طلوق[٢] الظفر ، ونالك مزيد السعادة في الشرف ؛ ففي مخاطرة التلف مكروه المصائب ، وعضاض السيوف ، وألم الجراح ، وقصاص الحروب ، وسجالها بمغاورة أبطالها ، على أنك لا تدري لأي الفريقين يكون الظفر في البديهة ، ومن المغلوب في الدولة ؛ ولعلك أن تكون المطلوب بالتمحيص ، فحاول أبلغهما في سلامة جندك ورعيتك ، وأشهرهما صيتاً في بدوّ تدبيرك ورأيك ، وأجمعهما لألفة وليك وعدوك ، وأعونهما على صلاح رعيتك وأهل ملتك ، وأقواهما شكيمة في حزمك ، وأبعدهما من وصم عزمك ، وأعلقهما بزمام النجاة في آخرتك ، وأجزلهما ثواباً عند ربك .

« وابدأ بالإعذار[٣] إلى عدوك ، والدعاء لهم إلى مراجعة الطاعة وأمر الجماعة ، وعزّ الألفة ، آخذاً بالحجة عليهم ، متقدماً بالإنذار لهم ، باسطاً أمانك لمن لجأ إليك منهم ، داعياً لهم إليه بألين لفظك ، وألطف حيلتك ، متعطفاً برأفتك عليهم ، مترفقاً بهم في دعائك ، مشفقاً عليهم من غلبة الغواية لهم ، وإحاطة الهلَكة بهم ، منفذاً رسلك إليهم بعد الإنذار ، تَعِدُهم كل رغبة يَهِش إليها طمعهم في موافقة الحق ، وبسط كل أمان سألوه لأنفسهم ومن معهم ومن تبعهم ، موطناً نفسك فيما تبسط لهم من ذلك على الوفاء بعهدك ، والصبر على ما أعطيتهم من وثائق عقدك ، قابلاً توبة نازعهم عن الضلالة ، ومراجعة مسيئهم إلى الطاعة ، مرصداً للمنحاز إلى فئة المسلمين وجماعتهم ، إجابة إلى ما دعوته إليه ، وبصرته إياه من حقك وطاعتك ، بفضل المنزلة وإكرام المثوى ، وتشريف الجاه ؛ وليظهر من أثرك عليه ،

---

(١) صدف يصدف صدوفاً انصرف ومال .
(٢) الطلوق : الاستبشار وانبساط الوجه .
(٣) أعذر بالغ في العذر أي في كونه معذوراً على ما أتاه .

وإحسانك إليه ، ما يرغب في مثله الصادف عنك ، المصرُّ عـــلى خلافك ومعصيتك ، ويدعو إلى اعتلاق حبل النجاة ، وما هو أملك به في الاعتصام عاجلاً ، وأنجى له من العقاب آجلا ، وأحوطه على دينه ومهجته ، بدأ وعاقبة فإن ذلك مما يستدعى به من الله نصره عليهم ، ويعتضد به في تقديمه الحجة إليهم معذراً أو منذراً إن شاء الله » .

وهنا وصف له الطريقة التي يجب أن يتخذها لإرسال عيونه وجواسيسه لمعرفة حال العدو وإدراك نفسيته ، وما يرغب فيه « مستشيراً لذوي النصيحة الذين قد حنكتهم السنّ ، وخبَّطتهم التجربة ، ونجذّتهم الحروب » ؛ وأن الواجب أن يعظم أمر عدوه لأكثر مما بلغه ، أخذاً بالحزم لئلا يكون مهين الجند ، ولا مفرطاً في الرأي ، ولا متلهفاً على إضاعة تدبير . وحذّره جواسيسه أنفسهم بما يأتونه به من أخبار عدوّه ؛ وأن لا يعاقبهم إذا اتهمهم في خبر حملوه ، ملتمساً لهم الأعذار ؛ ولعلهم أوتوا من تدبير العدو ومكيدته ؛ وقال :

« البسهم[١] جميعاً على الانتصاح ، وأرجح لهم المطامع ، فإنك لم تستعبدهم بمثلها ، وعِدْهم جزالة الثواب في غير ما استنامة منك إلى ترقيقهم[٢] أمر عدوك » . « واعلم أن جواسيسك وعيونك ربما صدقوك ، وربما غشوك وربما كانوا لك وعليك ، فنصحوا لك وغشوا عدوك ، وغشوك ونصحوا عدوك ، وكثيراً ما يصدقونك ويصدقونه ، فلا تبدرن منك فرطة وعقوبة إلى أحد منهم ، ولا تعجل بسوء الظن إلى من اتهمته على ذلك ، وابسط من آمالهم فيك ، من غير أن تُري أحداً منهم أنك أخذت من قوله أخذ العامل به والمتبع له ؛ أو عملت على رأيه عمل الصادر عنه ، أو رددته عليه رد المكذب به ، والمتهم له ، المستخف بما أتاك منه ، فتفسد بذلك نصيحته ، وتستدعي

(١) خالطهم والتنصح التشبه بالنصحاء .
(٢) الترقيق ضد التغليظ .

غشه ، وتجتر عداوته ؛ واحذر أن يُعرف جواسيسك في عسكرك ، أو يشار إليهم بالأصابع ، وليكن منزلهم على كاتب رسائلك وأمين سرك ، ويكون هو الموجه لهم ، والمدخل عليك من أردت مشافهته منهم ؛ واعلم أن لعدوك في عسكرك عيوناً راصدة ، وجواسيس كامنة ؛ وأن رأيه في مكيدتك مثل ما تكايده به ، وسيحتال لك كاحتيالك له ، ويُعِدُّ لك كإعدادك فيما تزاوله منه ؛ فاحذر أن يُشهر رجل من جواسيسك في عسكرك فبلغ ذلك عدوك ، ويعرف موضعه فيعد له المراصد ، ويحتال له ، بالمكايد ؛ فإن ظفر به فأظْهَرَ عقوبته ، كَسَرَ ذلك ثقات عيونك ، وخذلهم عن تطلب الأخبار من معادنها ، واستقصائها من عيونها ، واستعذاب اجتنائها من ينابيعها ، حتى يصيروا إلى أخذها على عُرض[1] من غير الثقة ولا المعاينة ، لقطاً لها بالأخبار الكاذبة ، والأحاديث المرجفة ؛ واحذر أن يعرف بعض عيونك بعضاً ، فإنك لا تأمن تواطؤهم عليك ، وممالأتهم عدوك ، واجتماعهم على غشك ، وتطابقهم على كذبك ، وإصفاقهم[2] على خيانتك ؛ وأن يورط بعضهم بعضاً عند عدوك ؛ فأحكم أمرهم فإنهم رأس مكيدتك ، وقوام تدبيرك ، وعليهم مدار حربك ، وهو أول ظفرك » .

وذكر له بعد هذا صفة من يوليه شرطته ، وأن يكون أوثق قواده عنده ، وآمنهم نصيحة ، وأقدمهم بصيرة في طاعته ، وأصدقهم عفافاً ؛ وأن يبسط من أمله مظهراً عنه الرضا ، حامداً منه الابتلاء . وبين له عمله في الجيش وسلطته على الناس . وقال له أن يولي القضاء في عسكره رجلاً من ذوي الخير في القناعة والعفاف والنزاهة والفهم والوقار والعصمة والورع ممن حنكته السن ، وأيدته التجربة ؛ ويكون ممن لا يداهن في القضاء وممن يعدل ، وأن يُجرى عليه ما يكفيه ويسعه ويصلحه ، ليتفرغ لما حمله ،

---

(١) العرض بضم العين الناحية ومن الكلام فحواه .
(٢) اجتماعهم .

ويعان على ما ولى ؛ وأشار له أن ينتخب لطلائعه ذوي نجدة وبأس وخبرة ممن صلوا بالحروب ، وشربوا مرار كؤوسها ؛ وأن ينتقيهم على عينه ، ويعرض كُراعهم[١] بنفسه ، وبين له ما يصلح من الخيل والسلاح ، ووصف ذلك أبدع وصف ؛ وحذره أن يَكِلَ مباشرة عرضهم وانتخابهم إلى أحد من أعوانه وكتابه ، لئلا يضيع مواضع الحزم ، ويقف دون عزم الروية ، لأنهم حصون المسلمين وعيونهم ، وهم أول مكيدته ، وعروة أمره ، وزمام حربه ؛ وأن ينتخب للولاية عليهم رجلاً بعيد الصوت ، مشهور الاسم ، ظاهر الفضل ، له في العدو وقعات وصولات ، وأن يجري عليهم وعليه أرزاقاً تسعهم ، وتمد من أطماعهم ، سوى أرزاقهم في العامة . وبعد هذا قال له أن يولي درّاجة[٢] عسكره ، وإخراج أهله إلى مصافهم ومراكزهم ، رجلاً من أهل بيوتات الشرف ، محمود الخبرة ، معروفاً بالنجدة ، ذا سن وتجربة ؛ وأن يضم إليه عدة نفر من ثقات جنده ، وذوي أسنانهم يكونون شرطة معه ؛ ثم تتقدم إليه في إخراج المصاف ، وإقامة الأحراس ، وإذكاء العيون ؛ وذكر له عمل هذا الرجل في الأخذ بالنافع لقيام أمر الجيش ، ووقايته من العدو .

وأراده أن يفوض إلى أمراء أجناده وقواد خيله أمور أصحابهم ، رياضة منه لهم على السمع والطاعة لأمرائهم ؛ وحذره أن يعتل أحد من قواده عليه ، بما يحول بينه وبين تأديب جنده ، لأن ذلك مفسدة للجند ؛ وحذره استخفاف الجند بقوادهم ، لأن ذلك يؤدي إلى استخفافهم بأمره ؛ وأن يوعز إلى قواده أن لا يقدموا على عقوبة أحد إلا عقوبة تأديب ؛ أما عقوبة القتل أو إقامة حد في قطع أو إفراط في ضرب أو أخذ مال فلا يلي ذلك إلا هو ، أو صاحب شرطته بأمره ، وعن رأيه وإذنه .

---

(١) كراعهم : خيلهم .
(٢) الدراجة : كجبانة الدبابة تعمل لحرب الحصار تدخل تحتها الرجال .

ثم بسط له القول عند لقاءِ العدو إذا شام طلائعه كيف يكتّب خيوله ويعبي جنده ، ويسير في مقدمة وميمنة وميسرة وساقة ، شاهرين الأسلحة ، ناشرين البنود الأعلام ، عارفين بمواضعهم في مسيرهم ومعسكرهم ، معرفاً كل قائد أصحابه مواقفهم من الميمنة والميسرة والقلب والساقة والطليعة ، ليكون كأنه عسكر واحد في اجتماعه على العدو ؛ فإن ضلت دابة من موضعها عرف أهل العسكر من أي المراكز هي ومَن صاحبها ، وفي أي المحل حلوله منها فردت إليه ؛ وأراده على أن يجعل على ساقته أوثق أهل عسكره صرامة ونفاذا ، ورضىً في العامة ، وإنصافاً من نفسه للرعية ، وأن يجعل خلف ساقته رجلاً من وجوه قواده جليداً ماضياً عفيفاً صارماً ، شهم الرأي ، شديد الحذر ، غير مداهن في عقوبة ، في خمسين فارساً من خيله ، يحشر إليه جنده ، ويلحق به من يتخلف عنه ؛ وأمره أن يعد العقوبة الموجعة ، ويستصفي الأموال ، ويهدم عقار كل من آوى أحداً من الجند ، أو ستر موضعه ، أو أخفى محله ، ثم قال :

« ليكن رحلك إباناً واحداً ، ووقتاً معلوماً ، لتخف المؤونة بذلك على جندك ، ويعلموا أوان رحيلهم فيقدّموا فيما يريدون من معالجة أطعمتهم ، وأعلاف دوابهم ، وتسكن قلوبهم إلى الوقت الذي وقفوا عليه ، ويطمئن ذوو الرأي إلى إبان الرحيل ؛ ومتى يكون رحيلك مختلفاً ، تعظم المؤونة عليك وعلى جندك ؛ ولا يزال ذوو السفه والنزق يترحلون بالإرجاف وينزلون بالتوهم ، حتى لا ينتفع ذو رأي بنوم ولا طُمأنينة .

« إياك أن تظهر استقلالاً ، أو تنادي برحيل من منزل تكون فيه ، حتى تأمر صاحب تعبيتك بالوقوف بأصحابه على معسكرك ، آخذاً بجنبي فُوَّهته بأسلحتهم ، عدة لأمر إن حضر ، أو مفاجأة من طليعة للعدو إن رأت منكم نهزة ، أو لمحت عندكم غِرَّة ، ثم مر الناس بالرحيل ، وخيلك واقفة ،

وأهبتك معدّة ، وجُنَّتك واقية ، حتى إذا استقللتم[١] من معسكركم ، وتوجهتم من منزلكم ، سرتم على تعبيتكم بسكون ريح ، وهدوّ جملة ، وحسن دعة ؛ فإذا انتهيت إلى منهل أردت نزوله ، أو هممت بالمعسكر به ، فإيـــاك ونزوله إلا بعد العلم بأهـــله ، والمعرفة بمرافقه ، ومرْ صاحب طليعتك أن يعرف لك أحواله ، ويستثير لك علم دفينه ، ويستبطن علم أموره ، ثم ينهيها إليك على ما صارت إليه ، لتعلم كيف احتماله لعسكرك ، وكيف ماؤه وأعلافه وموضع معسكرك منه ؛ وهل لك إن أردت مقاماً به ، أو مطاولة عدوك ، أو مكايدته فيه ، قوة تحملك ومدد يأتيه ، فإنك إن لم تفعل ذلك لم تأمن أن تهجم على منزل يعجزك ويزعجك عنه ضيق مكانه ، وقلة مياهه ، وانقطاع مواده ، إن أردت بعدوك مكيدة ، أو احتجت من أمورهم إلى مطاولة ، فإن ارتحلت منه كنت غرَضاً لعدوك ، ولم تجد إلى المحاربة والأخطار سبيلا ، وإن أقمت به أقمت على مشقة وحصر ، وفي أزْل[٢] وضيق ، فاعرف ذلك وتقدم فيه ؛ فإن أردت نزولا أمرت صاحب الخيل التي وكلت بالناس ، فوقفت خيله متنحية من معسكرك ، عدةً لأمر إن غالك ، ومفزعاً لبديهة إن راعتك ، فقد أمنت بحمد الله وقوته فَجأة عدوك ، وعرفت موقعها من حرزك ، حتى يأخذ الناس منازلهم ، وتوضع الأثقال مواضعها ، ويأتيك خبر طلائعك ، وتخرج دبابتك من معسكرك دراجة ودبابات محيطين بعسكرك ، وعدّة إن احتجت إليها ؛ ولتكن دبابات جندك أهل جلد وقوة ، قائداً أو اثنين أو ثلاثة بأصحابهم ، في كل ليلة ويوم نُوَبَاً بينهم ، فإذا غربت الشمس ، ووجب[٣] نورها ، أخرج إليهم صاحب تعبيتك أبدالهم ، عسساً بالليل في أقرب من مواضع دبابي النهار ،

---

(١) استقل القوم : ذهبوا وارتحلوا : والجنة بالضم : كل ما وقى .
(٢) الأزل : ضيق في العيش .
(٣) وجبت الشمس : غابت .

يتعاور ذلك قوادك جميعاً بلا محاباة لأحد فيه ولا إدهان » .

وعلى هذا النحو وضع لولي العهد مخطط الحركات الحربية ، ثم قال له أن يكون منزله في خندق أو حصن ليأمن فيه بيات عدوه ؛ وأن يقطع لكل قائد ذرعاً معلوماً من الأرض بقدر أصحابه ، فيحفروه عليهم خندقاً يطيفونه بعد ذلك بخنادق الحَسَك ، أي الأسلاك الشائكة ؛ واذا طرقهم طارق ، أو فاجأهم عدو أن لا يتكلم أحداً رافعاً صوته بالتكبير ، وليشرعوا رماحهم ناشبين بها في وجوههم ، ويرشقونهم بالنّبل مكتنّين بأترستهم ، لازمين لمراكزهم ، وأن يكبروا ثلاث تكبيرات متواليات وسائر الجند هادون ، ليعرف مواضع عدوه من معسكره ، وأن لا يشهروا سيفاً يتجالدون به ، بل يكون قتالهم بالرماح والنشاب « قد ألبدوا بالأترسة . واستجنّوا بالبَيْض ، وألقوا عليهم سوابغ الدروع وجباب[1] الحشو » ؛ وأراده على ألا يخمد نار رواقه ليسكن نافر قلوب عسكره ، وأن عدوه إدا نكل عن الإصابة في جنده ، فعليه أن يتبعه جريدة خيل ، عليها الثقات من فرسانه . وتقدم إليه فوصف الحالة التي يجب على هؤلاء الثقات أن يكونوا عليها ، وهم يطاردون أعداءهم ، والصفات التي يجب على فرسانه أن يتصفوا بها ليغنوا غَناءهم ؛ ووصف له صورة خيلهم وعددهم وسلاحهم ، وكيف يولي على كل مائة رجل منهم رجلاً من أهل خاصته وثقاته ونصحائه « له صيت في الرياسة ، وقدم في السابقة ، وأولية في المتابعة ؛ ويتعهدهم ودوابهم وسلاحهم ليكونوا كرجل واحد في التشمير وسرعة الإجابة عند الطلب » . وقال له أن يوكل بخزائنه ودواوينه رجلاً ناصحاً أميناً ، ويجعل معه خيلاً يكون مسيرها ومنزلها ومرحلها مع خزانته وحولها ، ويكون عامة الجند والحشو متنحين عنها لئلا تحدث فزعة ، فينتهب الجند أنفسهم الخزانة .

وبعد أن نحا هذا المنحى ختم هذه الرسالة العذراء مُزَيّناً للقائد أن يعمد

---

(١) الجباب الدروع .

إلى الحيل أولاً لا إلى القتال ، وأن يدس على عدوه ، ويكاتب رؤساءهم وقادتهم ، ويعدهم ويمنيهم ، ويقطع أعناقهم بالمطامع . وقال له : ولا عليك أن تطرح إلى بعضهم كتباً كأنها جواب كتب لهم إليك ، وتكتب على ألسنتهم كتباً إليك تدفعها إليهم ، وتحمل بها صاحبهم عليهم ، وتنزلهم عنده بمنزلة التهمة ومحل الظنة ، فلعل مكيدتك في ذلك أن يكون فيها افتراق كلمتهم . وأتم الرسالة بما يجب عليه وعلى جيشه من ذكر الله عند المصاولة ، وأن لا يظهر الجند تكبيراً إلا في الكرات والحملات ، أما وهم وقوف فإن ذلك من الفشل والجبن ، وأن يكون في معسكره المكبرون في الليل والنهار قبل المواقعة يحضون الناس على القتال ، ويصفون لهم منازل الشهداء وثوابهم ، ويذكرونهم الجنة ودرجاتها ، ونعيم أهلها وسكانها .

وكتب هذا الكتاب سنة تسع وعشرين ومائة قبل زوال ملك بني أُمية من الشرق بثلاث سنين . وقد عرفنا به أُموراً كثيرة من شؤون تلك الأيام ، ونمط حروبها وغاراتها ، والأخلاق الغالبة على أهلها ، ما لا نتعرف بعضه بالرجوع إلى الكتب المطولة ، والأحاديث المنشرة ؛ ودل بها عبد الحميد أنه رجل الدولة الأموية ، ممن قد ينبغ مثلهم أواخر الدول ، فيكونون لها سراجاً وهاجاً ، وتطفأ شعلتهم بانطفاء شعلتها .

وعرفنا بهذا القليل من الصفحات من كلام إمام المنشئين نفسيته وعقله ، بما لا تنهض بتعريفه التراجم المطولة التي يكتبها أصحابها ، فيمن لم يعرفوهم ولم يعاشروهم ، فيترجمون لهم كما يترجمون لغيرهم . وبعض التراجم إذا أزلت منها جملاً معينة تليق أن تلبس على جسم أكثر الناس وروحهم ، وترجمة المرء من كلامه أفعل أثراً وأصدق قيلاً .

والرسالة الثانية لعبد الحميد ، هي رسالته إلى الكتاب ، وقد تعدُّ من مطولاته قال الجهشياري : وجدت بخط ميمون بن هرون لعبد الحميد كتاباً إلى الكتاب أطال فيه ، إلا أنه أجاد فلم أستجز إسقاط بعضه ، وكتبته جميعه

على طوله لأن الكاتب لا يستغني عن مثله وهو :

« أما بعد حفظكم الله يا أهل هذه الصناعة ، وحاطكم ووفقكم وأرشدكم ، فإن الله جلّ وعزّ ، جعل الناس من بعد الأنبياء والمرسلين صلوات الله عليهم أجمعين ، ومن بعد الملوك المكرمين سُوَقاً[١] ، وصرّفهم في صنوف الصناعات التي سبب منها معاشهم ، فجعلكم معشر الكتاب في أشرَفِها صناعةً : أهل الأدب والمروءةوالحلم والروية ، وذوي الأخطار والهمم ، وسعة الذّرع في الإفضال والصلة ، بكم ينتظم الملك ، وتستقيم للملوك أُمورهم ، وبتدبير وسياستكم يصلح الله سلطانهم ، ويجتمع فيئهم ، وتعمر بلادهم ؛ يحتاج إليكم الملك في عظيم ملكه ، والوالي في القدر السنيّ والدنيّ من ولايته ، لا يستغني عنكم منهم أحد ، ولا يوجد كافٍ إلا منكم ، فموقعكم منهم موقع أسماعهم التي بها يسمعو ن ، وأبصارهم التي بها يبصرون، وألسنتهم التي بها ينطقون ، وأيديهم التي بها يبطشون ؛ أنتم إذا آلت الأمور إلى موئلها ، وصارت إلى محاصلها ، ثقاتهم دون أهليهم وأولادهم وقراباتهم ونصحائهم ، فأمتعكم الله بما خصكم من فضل صناعتكم ، ولا نزع عنكم سربال النعمة عليكم.

« وليس أحد من أهل الصناعات كلها أحوج إلى استخراج خلال الخير المحمودة ، وخصال الفضل المذكورة المعدودة منكم أيها الكتاب ، إن كنتم على ما سبق به الكتاب من صفتكم ، فإن الكاتب يحتاج من نفسه ويحتاج منه صاحبه الذي يثق به في مهمات أموره ، إلى أن يكون حليماً في موضع الحلم ، فقيهاً في موضع الحكم ، مقداماً في موضع الإقدام ، ومحجماً في موضع الإحجام ، ليناً في موضع اللين ، شديداً في موضع الشدة ، مؤثراً للعفاف والعدل والإنصاف ، كتوماً للأسرار ، وفيّاً عند الشدائد ، عالماً بما يأتي ويذر ، ويضع الأمور في مواضعها ، قد نظر في كل صنف من صنوف العلم فأحكمه ، فإن لم يحكمه شدا[٢] منه شدواً يكتفي به ، يكاد يعرف

---

(١) السوقة خلاف الملك .

(٢) شدا من العلم والأدب أخذ طرفاً منهما .

بغريزة عقله ، وحسن أدبه ، وفضل تجربته ، ما يرد عليه قبل وروده ، وعاقبة ما يصدر عنه قبل صدوره ، فيعد لكل أمر عدته ، ويهيءُ لكل أمر أُهبته ؛ فنافسوا معشر الكتاب في صنوف العلم والأدب ، وتفقهوا في الدين ، وابدأوا بعلم كتاب الله عزَّ وجلَّ والفرائض ، ثم العربية فإنها ثِقافَ ألسنتكم ، وأجيدوا الخط فإنه حلية كتبكم ، وارووا الأشعار واعرفوا غريبها ومعانيها ، وأيام العرب والعجم وأحاديثها وسيرَها ، فإن ذلك معين لكم على ما تسمون إليه بهممكم ، ولا يضعفن نظركم في الحساب ، فإنه قوام كتّاب الخراج منكم ، وارغبوا بأنفسكم عن المطامع سنيّها ودنيّها ، ومساوي الأمور ومحاقرها ، فإنها مذلة للرقاب ، مفسدة للكتّاب ؛ ونزهوا صناعتكم ، واربأوا بأنفسكم عن السعاية والنميمة ، وما فيه أهل الدناءة والجهالة ، وإياكم والكبر والعظمة ، فإنها عداوة مجتلبة بغير إحنة ، وتحابوا في الله عز وجل في صناعتكم ، وتواصلوا عليها ، فإنها شيم أهل الفضل والنبل من سلفكم .

« وإن نبا الزمان برجل منكم فاعطفوا عليه ، وواسوه حتى ترجع إليه حاله ، وإن أقعد الكِبَرُ أحدكم عن مكسبه ولقاء إخوانه ، فزوروه وعظموه وشاوروه ، واستظهروا بفضل رأيه وتجربته ، وقديم معرفته ؛ وليكن الرجل منكم على من اصطنعه واستظهر به ليوم حاجته إليه ، أحدب وأحوط منه على أخيه وولده ، فإن عرضت في العمل محمدة فليضفها إلى صاحبه ، وإن عرضت مذمة فليحملها من دونه ، وليحذر السقطة والزلة ، والملال عند تغير الحال ، فإن العيب إليكم معشر الكتاب أسرع منه إلى المرأة ، وهو لكم أشد منه لها ، فقد علمتم أن الرجل منكم قد يصف الرجل إذا صحبه في بدء أمره من وفائه وشكره ، واحتماله وصبره ونصيحته ، وكتمان سره وعفافه وتدبيره ، بما هو حريّ أن يحققه بفعاله ، في غير حين الحاجة إلى ذلك منه ، فابذلوا وفقكم الله ذلك من أنفسكم في حال الرخاء والشدة ، والحرمان والمواساة ، والإحسان والإساءة والغضب والرضا ، والسراء والضراء ،

فنعمت السمة هذه لمن وسم بها من أهل هذه الصناعة الشريفة ، فإذا وَلِيَ الرجل منكم ، وصُيِّر إليه من أمور خلق الله وعباده أمرٌ ، فليراقب الله تعالى ذكره ، وليؤثر طاعته فيه ، وليكن على الضعيف رفيقاً ، وللمظلوم منصفاً ، فإن الخلق عباد الله ، وأحبهم إليه أرفقهم بعباده ، ثم ليكن بالحق حاكماً ، وللأشراف مكرماً ومدارياً ، وللفيء موفراً ، وللبلاد عامراً ، وللرعية متألفاً ، وليكن في مجلسه متواضعاً حليماً ليناً ، وفي استجلاب خراجه واستقصاء حقوقه رفيقاً .

« وإذا صحب أحدكم الرجل فليستشفّ خلائقه ، كما يستشف الثوب يشتريه لنفسه ، فإذا عرف حسنها وقبيحها ، أعانه على ما يوافقه من الحسن ، واحتال لصرفه عما يهواه من القبيح ، بألطف حيلة ، وأحسن مداراة ورفق ، فقد عرفتم أن سائس البهيمة إذا كان حاذقاً بسياستها التمس معرفة أخلاقها ، فإن كانت رموحاً اتقاها من رجلها ، وإن كانت جموحاً لم يهجها إذا ركبها ، وإذا كانت شموساً توقاها من ناحية يدها ، وإن خاف منها عضاضاً توقاها من ناحية رأسها ، وإن كانت حروناً لم يلاحِها[1] ، وتتبع هواها في طريقها وإن استمرت عطفها فيسلس لها قيادها. ومن هذا الوصف من سائس البهيمة ورفق سياسته ، دليل وأدب لمن ساس الناس وعاملهم ، وخدمهم وصحبهم .

« والكاتب بفضل رأيه ، وشرف صناعته ، ولطيف حيلته ومعاملته لمن يحاوره ويناظره ، ويفهم عنه ويخاف سطوته ، أولى بالرفق بصاحبه ومداراته وتقويم أوده ، من سائس البهيمة التي لا تحير جواباً ، ولا تعرف خطأ ولا صواباً ، إلا بقدر ما يصيرها إليه سائسها ، وصاحبها الراكب لها ؛ فأدقّوا ، يرحمكم الله ، النظر ، واعملوا فيه الروية والفكر ، تأمنوا ممن صحبتموه — بإذن الله — النَّبْوَة ، والاستثقال والجفوة ، ويصيروا منكم

---

(١) لاحيته ملاحاة ولحاء إذا نازعته .

إلى الموافقة ، وتصيروا منهم إلى المواساة والشفقة إن شاء الله .

« ولا يُجوزنّ الرجل منكم في هيئة مجلسه وملبسه ومركبه ، ومطعمه ومشربه ، وبنائه وخدمه ، وغير ذلك من فنون أمره قدر صناعته ؛ فإنكم مع ما فضلكم الله به من شرف صناعتكم خدم لا تحتملون في خدمتكم على التقصير ، وخزان وحفظة لا يُحتمل منكم التضييع والتبذير ؛ واستعينوا على عفافكم بالقصد في كل ما عددت عليكم ، فنعم العون عونكم على صيانة دينكم ، وحفظ أمانتكم ، وصلاح معاشكم ؛ واحذروا متالف السرف ، وسوء عاقبة الترف ، فإنهما يعقبان الفقر ، ويذلان الرقاب ، ويفضحان أهلهما ، ولا سيما الكتاب .

وللأمور أشباه ، وبعضها دليل على بعض ؛ فاستدلوا في مؤتنف أعمالكم ، بما سبقت إليه تجربتكم ، ثم اسلكوا من مسالك التدبير أوضحها محجة ، وأرجحها حجة ، وأحمدها عاقبة . واعلموا أن للتدبير آفة وضدا[1] لا يجتمعان في أحد أبداً ، وهو الوصف الشاغل لصاحبه على إنفاذ عمله ورويته ؛ فليقصد الرجل منكم في مجلس تدبيره ، قصد الكافي في منطقه ، وليقصد في كلامه ، وليوجز في ابتدائه ، وليأخذ بمجامع حججه حجته ، فإن ذلك مصلحة لعقله ، ومَجَمَّة لذهنه ، ومدفعة للتشاغل من إكثاره ، وإن لم يكن الإكثار عادة ، ثم وضع موضعه في ابتداء كتاب أو جواب عند الحاجة فلا بأس ، ولا يدعون الرجلَ منكم صنعُ الله تعالى ذكره له في أمره ، وتأييده إياه بتوفيقه ، إلى العجب المضر بدينه وعقله وأدبه ، فإنه إن ظن منكم ظان ، أو قال قائل ، إن ذلك الصنع لفضل حيلته ، وأصالة رأيه ، وحسن تدبيره ، كان متعرضاً لأن يكله الله إلى نفسه ، فيصير منها إلى غير كاف . ولا يقل أحد منكم أنه آدب وأعقل ، وأحمل لعبء التدبير والعمل من أخيه في صناعته ، فإن أعقل الرجلين عند ذوي الألباب ، القائل أن

---

(١) كذا وفي رواية « واعلموا أن للتدبير آفة متلفة وهو الوصف الشاغل » الخ .

صاحبه أعقل منه ، وأحمقهما الذي يرى أنه أعقل من صاحبه ، لعجب هذا بنفسه ، ونبذ ذاك العجبَ وراء ظهره ، إذ كان الآفة العظمى من آفات عقله ؛ ولكن قد يلزم الرجل أن يعرف فضل نعمة الله عليه ، من غير عجب برأيه ، ولا تزكية لنفسه ، ولا تكاثر على أخيه وكفئه ، ويشكر الله ويحمده بالتواضع لعظمته .

« وأنا أقول في آخر كتابي هذا ما سبق به المثل : « من يلزم الصحة يلزمه العمل » ، وهو جوهر هذا الكتاب وغرة كلامه ، بعد الذي فيه من ذكر الله عز وجل ، فلذلك جعلته آخره وختمته به ؛ تولانا الله وإياكم معشر الكتاب بما يتولى به من سبق علمه في سعادته وإرشاده ، فإن ذلك إليه وبيده ، والسلام عليكم ورحمة الله » .

وبهذا الكتاب أيضاً عرفنا منازع عبد الحميد وأدبه ؛ وأنه يريد أن يجعل من الكتابة صناعة شريفة تفيد الناس، وتفيد الآخذين أنفسهم بأدبها ، وأن الكتابة تحتاج إلى أدوات كثيرة ، ذكرها مفصلة ؛ ولا بد بعد الاضطلاع بأعباء ما يلزم لها من العلوم أن يلم الكاتب بكل موضوع ولو إلماماً خفيفاً ؛ ومن أحلى ما في رسالته أن يسترشد الصغار منهم بالكبار الذين سبقوهم في هذه الصناعة ، ويتعهدوهم ويعملوا بمشورتهم . فلا عجب بعد هذا أن كانت لعبد الحميد من كتابته مدرسة خاصة ، ما زال الناس يأخذون منها في العصور التي تلته ؛ وقلما حادوا عنها لأنها مقبولة صدرت عن عقل عظيم نجـذته التجارب ، وأيده العلم والأدب .

نعم ألبس عبد الحميد في الثلث الأول من القرن الثاني هذا الإنشاء العربي حلة جديدة ، فيها المتانة وفيها الرشاقة ، وأكثر ما بدا في تضاعيفها الإطالة في غير ما إملال من سجع وترصيع ، إنشاء يسير مع الطبع ، ومع الطباع التي توائم أهل الحضارة ، ممن يفصلون ويتوسعون ، ويعيدون ويبدون ،

ومقاصدهم تحوم حول التأثير في أذهان السامعين والقارئين ، وبلوغ الغاية من تأليف الدول وانتظام الجماعة ؛ ولم تكن هذه الطريقة في الكتابة ، فيما بلغنا ، مألوفة في عامة دور الأمويين لأن هؤلاء عرب أقحاح ، وكتّابهم على شاكلتهم ، يحاولون بالإيجاز في مكتوباتهم ، أن يتركوا للقارىء شيئاً من المعاني يفسرها بما يريد ، ويمتعوه بشيء من الحرية ، ينطلق فيها على ما يرى فيه المصلحة .فيكون لديه المختصرات ، والتفاصيل من المطولات تفهم بذاتها .

اقتبس عبد الحميد هذه الطريقة من الأمم المجاورة وخاصة الفرس ، ممن لم تكن حضارتهم حضارة ابتدائية كالعرب ، بل فيها المطول المسهب ، والمتشعب المتعب . ولقد احتاج العرب بعد توسعهم في الملك ، إلى تقرير المسائل على جليتها لا يعتورها لَبس ولا إشكال ، ومن مواجب الحضارة الإسهاب ، ومن دواعي البداوة الاقتضاب ؛ فعبد الحميد إذاً تشبع بروح الدولة وروح حضارتها التي بلغت في أيامه أعلى قممها ، ورسم ببراعته صورة ما أحاط به واقتضاه الحال ، ولو حاول — وقد بلغت الأمة ما بلغته من درجات التقدم في كل شأن من شؤون المجتمع — أن يعود بالكتابة إلى إيجازها القديم ، لما أفاد جديداً ، ولما رَجَّع ذاك الصدى في سلطان دولته ، صورة ما أحاط به واقتضاه الحال ، ولو حاول — وقد بلغت الأمة ما بلغته ولما وصف محيطه حق وصفه . ومن الصعب أن يتعدى المرء حدود البيئة ، ولا عليه فيما أتاه ما دامت حال الدولة تتطلب التوسع في الخطى إلى الأمام ، وأن تجدد أوضاعها على ما توجبه الحال ، وطبيعة الملك والحضارة ، على أن لا يهدم في عمله أصلاً من الأصول القديمة ؛ وفي هذا كان جماع المكانة التي بلغها عبد الحميد بإنشائه ، فهو مخترع طريقة ، وكاتب وصاف على الحقيقة . استجمع شروط البلاغة . فعد أمير المنشئين غيرَ مدافَع ؛ واستطاب الناس إلى يومنا هذا أسلوبه المعجب المطرب ، وأين من يشاكله فيه ، أو تسمو قريحته إلى مستواه في فنون الكتابة ، وحسن التصرف على ما يشاء ؟

عبد الله بن المقفع

عصره :

كان عصر ابن المقفع غريبة العصور ، وقعت في أعوام معدودة منه أحداث خطيرة ، ندر وقوع مثلها في عصور التاريخ . كانت فيه الخلافة الأموية في أعزّ أيامها ، وليس في الأرض دولة إسلامية غيرها ، فتداعت أركانها في شهور قليلة ، على رسوخ قواعدها ، وانبساط عمرانها ، وما استطاع آخر خلفائها مروان بن محمد على بعد غَوْره ، وجلالة قدره ، أن يدفع عن دولته ما كانت الليالي تتمخَّض به .

فتم لبني هاشم ما سعوا إليه منذ سنين للاستيلاء على بلاد الإسلام ، ونجحت جمعياتهم السرية بعد أن أخفقوا في طلب الملك مرات . وقضى بنو هاشم على بني أُمية ، وقد أبادوا في الوصول إلى أغراضهم مئات الألوف من الخلق ، وأهلكوا حتى أبناء المهاجرين والأنصار ، وحتى القراء والعلماء ، وأخذوا الناس بالشبهة ، وما فرقوا بين المجرم والبريء ، ولم يرعوا في الصديق والعدوّ إلاً ولا ذمة .

سفح السفاح أول خلفائهم الدماء ، وظهر الانتقام من الأمويين بأخس صوره في شخصه وشخص إخوته وقواده ، نزعوا الرحمة من قلوبهم ، وما أخذتهم شفقة بإخوانهم في الدين والجنس ، ونسوا كل فضل بينهم ،

وما أهمهم غير قيام أمرهم ، حتى اغتبطوا بإقامة دولة فارسية بروحها ، عربية بمظاهرها ، وقلبوا ظهر المجن لأبناء عمهم من أبناء علي ، وكانوا وإياهم يعملون للوصول إلى الخلافة سنين طويلة في العصر الأموي .

وبينا كان العباسيون يَنْعَمون بما تمّ لهم من الغلبة ، كان أملهم يضعف في احتفاظ دولتهم ببلاد الأندلس وما إليها من أقصى المملكة ، لأن صقر قريش عبد الرحمن بن هشام الأموي استصفى الأندلس بمن ضوى إليه من آل بيته ، وبقايا السيوف وخدّام دولتهم في الشرق ؛ فأقام بهم في المغرب دولة قوية يرهب بأسها وسلطانها . وقطع الخطبة العباسية وأباد جيشاً برمته بعث به العباسيون لمناجزته .

أسقط العباسيون قيادات العرب ، فنشأت الشعوبية أي التفرقة بين العرب والعجم ، فنقض أول حجر من أساس بناء الدولة ، ولما ترسخ قواعدها . قضى العباسيون بأيديهم على سلطانهم منذ أقاموا ملكهم بالجور والجَبَرية ، واستسلموا لأبناء خراسان ، ونظروا بعين الريبة إلى أبناء قحطان وعدنان .

أمعن عمال العباسيين في إرهاق الرعية على ما لم يجوزه دين ساوى بين الصغير والكبير ، وعلى ما لم يجر مثله في الدولة السالفة ، وأصبحت الأموال تجبى بأنواع من الظلم ، وتصرف في ضروب من الإسراف . وفشا الترف حتى تجاوز كثيراً مدى ما بلغته الرفاهية في عهد بني مروان . وكأن دولة بني العباس قامت لتفقر الضعفاء وتغني الأقوياء من السادة والقادة ، كفعل الدول الجبارة في قديم الدهر وحديثه . ثم إن الأخلاق تبدلت تبعاً لتبدلها في الطبقات العليا ، ولم يبق للدين تلك الروعة التي كانت له في عهد الراشدين والأمويين ، فاستحالت بعض معانيه السامية من النفوس ، وإن لم تتبدل مظاهره وأوضاعه .

وبدأ في هذا العصر نقل الكتب العلمية من لغات الفرس واليونان والسريان والهند ، وكان تَقَدَّم بعض رجال بني أُمية فشرعوا بهذه الحركة

المباركة ، وأخذ الخلفاء والأمراء يُفَضِّلون على من تصدوا لنقل علوم القدماء . وحاول بعض من دخلوا في الإسلام ، يحملون أرواح أديانهم ومقالاتهم القديمة ، إلقاء الشَّبه في الدين ؛ فقام رجال كفاة يردون عليهم عن طريق العقل ، ويدافعون عن العقيدة في ذات الله وصفاته ، ليدفعوا عن الإسلام شبه المانوية والديصانية والنصارى واليهود والملاحدة ، وكان الناس منذ عهد التابعين يعالجون موضوعات دينية ما تخيلوا الخوض فيها من قبل ، والمسلمون كانوا أولاً إلى الاكتفاء بالنقل والتسليم في العقائد ، فأصبحوا يحتالون للاحتجاج على صحتها بأدلة عقلية ، ونظر جديد ، ووقع من حاولوا ذلك من العلماء بين نارين : نار شَبَّها عليهم أبناء دينهم ممن لم يرتضوا طريقتهم ، وأخرى أوقدها من كان يراد إرجاعهم إلى الصواب ، وأبو جعفر المنصور يحيط برعايته علماء الكلام ، وكان من المقدمين فيهم .

وأخذت مذاهب الفرق الإسلامية كالشيعة والخوارج تتعيَّن ، وأصبح لكل فريق مذهب على حياله ، وكانت مذاهبهم سياسية ، فغدت سياسية ودينية معاً ، وأخذوا فعل أهل السنة ، يسعون إلى تدوين مذاهبهم ، وما خالفوا فيه الجماعة ، واشتد الأخذ والرد بين أهل الحديث وأهل الرأي[١] اشتداده بين علماء النقل وعلماء العقل ، وما كانت المذاهب المعتمدة هي المعوّل عليها وحدها في القضاء ، بل يجتهد كل عالم بما يعلم ، ويقضي بالكتاب والسنة والإجماع ؛ ومنهم من يضيف إلى ذلك القياس والعرف . وتمت للموالي الذين أسلموا على أيدي رجال من العرب وغيرهم من أبناء الروم وفارس ومصر وإفريقية مشاركة قوية في هذه النهضة الدينية ، على ما كان للنساطرة واليعاقبة والصابئة وغيرهم من أياد بيض في نقل علوم الطب والفلك والرياضيات والفلسفة وغيرها ، وظهر التصوف بظهور أناس من

---

(١) أصحاب الرأي هم أصحاب القياس لأنهم يقولون برأيهم فيما لم يجدوا فيه حديثاً أو أثراً .

النساك في خراسان والعراق ، على مثال زهاد الهنود وغيرهم .

وسرى الفساد إلى اللغة وعَلِقَتْ العجمة تذهب ببهجتها ، واحتفظت البادية حتى آخر المائة الأولى بجمال لهجتها ، فلا تكاد تعرف لها لحناً ، وعرض الفساد خاصة لألسن البلديين والمولدين ، بمن نزل عليهم من صنوف الحمراء أو الأعاجم ، يدخلون في دين الأمة ، ويختلطون بالعرب ؛ فهب العلماء يتلقون اللغة من ألسن أبنائها الأقحاح في جزيرة العرب ، فدونوا ما أمكنهم تدوينه من ألفاظها وتراكيبها ، ومن شعرها وأثرها ؛ وأصبح الشعر الجاهلي خادماً للكتاب والسنة ، وتم وضع علم النحو والعروض وكثر التدوين .

كل هذا التبدل في الأوضاع والمنازع شاهده نابغة العجم في الإسلام عبد الله بن المقفع ، ومرّت ذكراه على خاطره ، ونظر في مرآته بعينه ؛ ومن هذه الأحداث ما كان يوم حدوثه حدثاً فتيّاً ؛ ومنه ما شاهده في إبانه ، وهو رجل تام الرجولية ، يعرف المصدر والمورد ، ويقيس الماضي بالحاضر ، ويسعى لتقوى الحكومة الصالحة في شعب صالح ، موحد المقاصد في شرعه ومدنيته ، آخذاً في طريق سعادته حرّاً أبيّاً ، ومسلماً حنيفاً .

أصله ونشأته :

كان المبارك والد عبد الله بن المقفع من مجوس مدينة جُور في بلاد فارس ، تولى بعض أعمال الخراج للحجاج بن يوسف الثقفي أيام إمارته على العراق وبلاد الشرق ، فمدّ يده فيما قيل إلى أموال السلطان ، فضربه الحجاج ضرباً مُبَرّحاً حتى تقفّعت يده أي تشنّجت فسمي بالمقفع ، وولد عبد الله ، وكان اسمه أولاً رُوزبه ويكنى أبا عمرو ، في مدينة جور على الأغلب ، وهي بلدة نزهة من أجمل المدن وأعمرها ، على عشرين فرسخاً من شيراز ، وإليها ينسب الورد الجوري الأحمر .

وربما كان لأول ما فتحت عينه عليه من مناظر الطبيعة الخلاّبة ، وهو في بيت يسار ونعمة ، أعظم التأثير في غرامه بالحسن والإحسان ، وربما تأثر لما رأى في صباه بيت النار العظيم في بلده ، يدخله أهله وجيرانه للعبادة ، وقد كتب عليه بالفهلوية : إنه أُنفق عليه ثلاثون ألف ألف درهم .

لم تُعلم سنة مولد ابن المقفع بالتحقيق ، ويقول الجهشياري إنه كتب لدواوين عمر بن هبيرة على كِرمان . وعمر بن هبيرة عزله هشام بن عبد الملك عن العراق والشرق سنة خمس ومئة ، وقال : إنه كتب أيضاً للمسبّح بن الحُوّاري في نيسْابور في ولاية عبد الله بن عمر بن عبد العزيز ، قُبَيْل زوال الدولة الأموية . ويحتمل بهذا ان يكون عبد الله بن المقفع ولد في عشر التسعين ظنّاً ، ولا يُعقل أن يكتب لأحد قبل أن يتم له نحو خمس وعشرين سنة . وإذا قدّرنا أن مقتل ابن المقفع كان سنة ثنتين وأربعين أو ثلاث وأربعين ومئة ، فيكون عمره يوم قتل في نحو الستين ، خلافاً لمن قالوا إنه قتل وهو ابن ست وثلاثين . وهذا التقدير منقوض بالبداهة ، إذ لا يعقل أن يخلف ابن المقفع هذه الكنوز العظيمة من كتبه وكتاباته ، وهو في ميْعة الشباب ، وأن تُجمع النفوس على الاعتراف بتقدمه في صناعته ، قبل ان تعلو به السن في الجملة ، وأن تتهيأ له هذه التجارب العظيمة في الحياة وهو لم يتعد العقد الرابع .

وكما نحن في شك قليل من سنة مولد ابن المقفع ، لا نعلم بالتحقيق أين تلقى تعليمه الأولي ، في جُور أم في البصرة . والأرجح أنه كان في جور ، إذ من الصعب أن يثقف الثقافة الفارسية التي تثقفها في البصرة ، وهي المدينة العربية بكل مناحيها ، والأرجح ان والده توطن البصرة بعد أن أصبح ابنه عبد الله يافعاً ، وأخذ الفصاحة عن أبي الجاموس ثور بن يزيد الأعرابي ، وكان يفد البصرة على آل سليمان بن علي . وحرص المبارك على تأديب ولده عبد الله ، فكان يجمع له العلماء . ولنا أن نقول إن البصرة كانت موطن درسه ، ومدينة جور مسقط رأسه .

نشأ ابن المقفع بين ظهراني علماء أجلاء من المسلمين ، وعرف الإسلام منذ عقل ، أكثر من معرفته دين المجوس أتباع زرادشت . وغاية ما كان له من صلة بهذا الدين ، أنه رأى أهل بيته على دين المجوس ، وهو مولود في بيت مجوسي . ودعته البيئة التي عاش فيها إلى أن يلقى نظرة على المجوسية التي انتقلت إليه بالإلف والعادة . ونظر في الإسلام الذي لقنه في الحداثة بالتربية والعشرة ، ومازج أهله وسمع أعلام علمائه ، فمالت نفسه إلى أن يدين به ، فجاء إلى عيسى ابن علي وكان كاتبه ، وقال له : دخل الإسلام في قلبي وأُريد أن أُسلم على يدك ، فقال له عيسى : ليكن ذلك غداً بمحضر من القواد ووجوه الناس ، ثم حضر طعام عيسى عشيةَ ذلك اليوم ، فجلس ابن المقفع يأكل ويزمزم ، على عادة المجوس . فقال له عيسى : أتزمزم وأنت على عزم الإسلام ؟ فقال أكره أن أبيت ليلة على غير دين .

دان ابن المقفع بالإسلام عن عقيدة وعلم ، وغدا في الكهولة نابه الذكر ، وما زاده إعلانه الإسلام إلا ما أوجب عليه القيام به من التكاليف . وما كان له مطمع دنيوي يتطلبه بإسلامه ، وهو الرجل الذي لابسه المسلمون على مجوسيته ، وعهد اليه أُمراء الإسلام بشؤون دواوينهم . وائتمنوه على أسرارهم ، وأُعجبوا به مجوسيّاً ، فلما امتلّ ملة الإسلام زادوا به إعجاباً .

أدبه وأسلوبه :

كان تمكن ابن المقفع من الآداب الفارسية على مقدار ضلاعته من العربية ، جمع بين الأدبين ، وفاق الأقران والنظراء بثقافته العربية إلى ما لم يكد يصل اليه أحد من معاصريه . ساعده تمكنه من الفارسية على الرسوخ في العربية ، وأتى لغة تربيته الحديثة بأساليب جديدة ، وطرق في التفكير قلّ أن عرفت قبله .

يقول صاحب الصناعتين : « إن من عرف ترتيب المعاني ، واستعمال الألفاظ على وجوهها ، في لغة من اللغات ، ثم انتقل الى لغة أخرى ، تهيأ

له من صنعة الكلام مثل ما تهيأ له في الأولى . ألا ترى أن عبد الله الكاتب (ابن المقفع) استخرج أمثلة الكتابة التي رسمها لمن بعده من اللسان الفارسي ، فحولها إلى اللسان العربي ، فلا يكمل لصناعة الكلام إلا من يكمل لإصابة المعنى ، وتصحيح اللفظ ، والمعرفة بوجوه الاستعمال » . ولا شك أنه حفظ القرآن ودرس إعجازه وعرف محكمه ومتشابهه ، وقرأ ما شاء من دواوين شعراء الجاهلية ، وأدرك معانيهم وتدبر ألفاظهم . وقيل إنه تخرج في البلاغة بخطب علي بن أبي طالب ؛ وما نخال ذلك كافياً في بلوغ الغرض لقلة المأثور من تلك الخطب يومئذ .

كان ابن المقفع من أول من ترجم في الملة الإسلامية من اللغة الفارسية إلى العربية ، فنقل كتب أرسطو المنطقية الثلاثة ، وهي كتاب قاطاغورياس ، كتاب بارى أرمنياس ، وكتاب أنالوطيقا ؛ وترجم المدخل الى كتاب المنطق المعروف بالإيساغوجي لفرفوريوس الصوّري ؛ وكتاب كليلة ودمنة ؛ وترجم كتاب « خدا ينامه » في السير ، وكتاب « آيين نامه » ، وكتاب « مزدك » ، وكتاب « التاج » في سيرة أنوشروان . ويقول المسعودي : إن كتاب « آيين نامه » ، أو عادات الفرس وأنظمتهم ، هو كتاب كبير يبلغ آلافاً من الصفحات ؛ وأنه ترجم أيضاً كتاباً اسمه كتاب « الكيكيين » وهو من الكتب المعظمة عند الفرس ، وفيه سير ملوكهم وآبائهم . ترجم كل هذا عن الفهلوية ، لغة الفرس القديمة ، وكان أصل بعضها نقل إليها من اليونانية والهندية .

ولم يبق من كل هذه الأسفار سوى كليلة ودمنة ، مع ما ألفه من الأدب الكبير والأدب الصغير واليتيمة ؛ واليتيمة كتابان على ما يقول الباقلاني ، أحدهما يتضمن حكماً منقولة ، والآخر في شيء من الديانات . ويقول طيفور إنها من الرسائل المفردات اللواتي لا نظير لها ولا أشباه ، وهي أركان البلاغة ، ومنها استقى البلغاء ، لأنها نهاية في المختار من الكلام ، وحسن التألف والنظام ، فإن الناس جميعاً مجمعون أنه لم يعبر أحد عن مثلها ، ولا

تقدمها من الكلام شيء قبلها . ويقول ابن النديم : ان اليتيمة وكليلة ودمنة من الكتب المجمع على جودتها .

واختلفوا في كون ابن المقفع نقل كليلة ودمنة عن الفارسية ، والأرجح أنه كتبه مباشرة ، وقد أقر في المقدمة أنه كتب بعض فصوله ونقل الباقي عن غيره ؛ أتى ذلك لينجو من تبعة ما ورد فيه ، ويسلم من نقمة الملوك إذا عدوا ما فيه تعريضاً باستبدادهم . ويقول الجاحظ : ونحن لا نستطيع أن نعلم أن الرسائل التي في أيدي الناس للفرس أنها صحيحة غير مصنوعة ، وقديمة غير مولدة ، إذا كان مثل ابن المقفع وسهل بن هرون وأبي عبيد الله وعبد الحميد وغيلان وفلان وفلان لا يستطيعون أن يولّدوا مثل تلك الرسائل ويضعوا مثل تلك السير . فالجاحظ كان إذاً في ريب من نسبة هذه الكتب التي زعم أصحابها أنهم ترجموها عن الفارسية ، لأن مثلهم في افتنانهم في البيان لا يتعذر عليهم وضع أشباهها .

وضُرب المثل في البلاغة برسالة اليتيمة في طاعة السلطان ، حتى قال أبو تمام في مدح الحسن بن وهب :

ولقد شهدتك والكلام لآلىءٌ تُوُءم [1] ، فبكر في الكلام وثيّبُ
فكأن قُسّاً في عكاظ يخطب وكأن ليلى الأخيلية تندب
وكُثير عَزّة يوم بين ينسب وابن المقفع في اليتيمة يسهب

ذكروا أن ابن المقفع كان إذا أراد الشعر صنعه ، بيد أنه يشغل به نفسه لانصرافه إلى النثر ؛ والواقع أنه ما كان يستطيع من الشعر إلا ما لا يذكر مثله من مثله . وقال عن نفسه : « الذي أرضاه لا يجيئني ، والذي يجيئني لا أرضاه » وقيل له : « لِمَ لا تطيل القصائد ؟ قال : لو أطلتها عرف صاحبها » . قال صاحب الصناعتين : يريد أن المُحدَث يتشبه بالقديم في القليل من

(١) توائم النجوم واللؤلؤ ما تشابك منها .

الكلام ، فإذا طال اختل ، فعرف أنه كلام مولد . وقد روى له أبو تمام في الحماسة ثلاثة أبيات يرثي بها يحيى بن زياد ، وقيل ابن أبي العوجاء ، وهي:

رُزئنا أبا عمرو ولا حيَّ مثلــه   فللّه رَيْب الحادثات بمن وقع
فإن تكُ قد فارقتنا وتركتنا   ذوي خَلة ما في انسداد لها طمع
لقد جرَّ نفعاً فقــدنا لك أننا   أمِنّا على كل الرزايا من الجزَع

لم يُدان ابن المقفع في الكتابة المرسلة مُدان ، فهو فيها المفرد العلم ؛ اللهم إلا بضعة من الرجال ، ومنهم سهل بن هرون وعمرو بن مسعدة ، أتى الدهر على ما أنشأته أقلامهم إلا قليلاً ؛ وعلى ذلك أجمع العارفون من القدماء . ولقد سمع أبو العيناء بعض كلام ابن المقفع فقال : كلامه صريح ، ولسانه فصيح ، وطبعه صحيح ، كأن بيانه لؤلؤ منثور ، ووشي منشور ، وروض ممطور . وذكره آخر فقال : ألفاظه معان ، ومعانيه حكم .

وشهد له الجاحظ في البيان والتبيين بالبلاغة ، ونقل عنه غير مرة . وقال الأصمعي انه قرأ آداب ابن المقفع فلم ير فيها لحناً إلا في موضع واحد وهو قوله : العلم أكبر من أن يحاط بكله فخذوا البعض . أي أنه أدخل الألف واللام على البعض ، وكان المتقدمون من أهل العلم ينكرون إدخالهما على « كل » و « بعض » .

ولا نطيل بنقل ما قاله أعيان البيان في بلاغة ابن المقفع ، فإن كتابته تدل على نفسها ، ولم يعرف لمتقدم ولا لمتأخر أن نقل إلى اللسان العربي شيئاً في الأدب والعلم ، لا تحسّ فيه أثر اللغة المنقول عنها إلا ابن المقفع . وكانت الترجمة غالبة عليه في أول حياته ، فلما استوت أدواته أنشأ ينشىء رأساً ، فبذّ البلغاء في الناحيتين : في الترجمة والتأليف . واختار ان يترجم لأول نشأته ما ينقص هذه اللغة التي أحبها ، وكان ذلك السبب في خلوده ، والإعجاب به في الطورين ؛ كان يعتقد ان الحضارة العربية لا تتفوق إلا اذا ادمجت فيها ما عملت فيه عقول الأمم قبلها ، ويرى أن الجديد صِنو القديم ، يتكافآن ويتساندان .

سرّ تأثير ابن المقفع في مختلف العصور سلاسته وجزالته ، نصح باتباع طريقته فيما قاله لأحد الكتاب : إياك والتتبع لوحشيّ الكلام ، طمعاً في نيل البلاغته ، فإن ذلك هو العيّ الأكبر . وقال لآخر : عليك بما سهل من الألفاظ مع التجنب لألفاظ السّفلة . وقال : البلاغة اذا سمعها الجاهل ظن أنه يحسن مثلها . وقال : إذا أعطيت كل مقام حقه ، وقمت بالذي يجب من سياسة ذلك المقام ، وأرضيت من يعرف حقوق الكلام ، فلا تهتمّ لما فاتك من رضا الحاسد والعدو ، فإنهما لا يرضيهما شيء ، وأما الجاهل فلست منه وليس منك ، ورضا جميع الناس شيء لا تناله ، وقد كان يقال : « رضاء الناس شيء لا ينال » . وقال : ان خير الأدب ما حصل لك ثمره ، وبان عليك أثره . وسئل ما البلاغة ؟ فقال : اسم لمعان تجري في وجوه كثيرة : فمنها ما يكون في السكوت ، ومنها ما يكون في الاستماع ، ومنها ما يكون في الإشارة ، ومنها ما كاد يكون شعراً ، ومنها ما يكون سجعاً ، ومنها ما يكون ابتداءً ، ومنها ما يكون جواباً ، ومنها ما يكون في الحديث ، ومنها ما يكون في الاحتجاج ، ومنها ما يكون خطباً ، ومنها ما يكون رسائل . فعامة هذه الأبواب الوحي [1] فيها ، والإشارة إلى المعنى والإيجاز هو البلاغة .

وبعد فكأن ألفاظ ابن المقفع منخولة في منخل دقيق نُفي الزوأن مما يحمل ، أما التراكيب فهي موضع العجب في رصف بعضها إلى جانب بعض على غاية الإحكام ، ثم هو ليس في ألفاظه بالبخيل ولا بالمسرف ، يعطي منها بمقدار ما يلبس معانيه حلة قشيبة ، فيجمع بين الجزالة والوضوح والإيجاز . ومعانيه كلها ناصعة ، وألفاظه كلها فصيحة ، على أن اللفظ مهما سلس وبعد عن الوحشية والسوقية لا يعذب الا بضم أجزائه في سلك واحد ، لتصح المعاني ، وهي سر البلاغة والفصاحة والروعة ، وهذا كان ظاهراً في كلام

---

(١) الوحي : الاشارة والكتابة والمكتوب والرسالة والالهام والكلام الخفي وكل ما ألقيته إلى غيرك . وكل هذه المعاني تصلح هنا .

ابن المقفع ، هو يمشي من صفاء الطبع على عرق عريق ، ويحاول ابداً نقل فكره إلى من يتلو كلامه ، واضحاً جليّاً ، فكأنه يتوخى الإفهام أولا ، وبلاغته في كثرة افهامه . وما كان يحفل بالسجع جملة ، اللهم الا ما أتى به بيانه عفواً في بعض ثنايا الكلام ، فكأن السجع ، وهو نادر جدّاً في أدبه ، متطفل على قلمه عارض عليه ، والأصل في انشائه المرسل الرشيق .

كان ابن المقفع كثيراً ما يقف إذا كتب ، فقيل له في ذلك فقال : إن الكلام يزدحم في صدري فأقف لتخيره . فهو يتخير كلامه ويتخير موضوعه أيضاً ، وما خاض الا فيما توسع في علمه ، وما وقع له في رسائله ، وفي كتاب كليلة ودمنة من الحكم والأفكار مما يتأدب به كل إنسان ، ويصلح لكل زمان ومكان ، وينفع أهل كل نحلة ولسان ، وكله شاهد بسعة بصره في كلام العرب ، وبطول تبصره في دراسة أحوال المجتمع ، كان متبحراً في أدب أُمته ، وكشف خوالج نفوسها ، وكان مؤمناً بما يقول ، هاضماً ما تعلم ، يغترف بيانه من صميم القلب ، فجادت لذلك طريقته ، وأسر القلوب أسلوبه ، وما خرج عن قانون الفطرة في كل ما خطه بنانه ، وقذف به جنانه ، ليس في كلامه مقال لعائب ، ولا في اطنابه واقتضابه مطعن لطاعن ، أثر بإبداعه في النفوس بما كتب ، لأن الناس في حاجة إلى مثل كلامه ، لا يستغنون عن الأخذ به ، ولأنه أتاهم بما تدركه عقولهم من أيسر سبيل ؛ والأمور تعظم في النفوس بقدر وقعها فيها ، وشدة حاجتها اليها .

أثرت الثقافة الفارسية فيما كتب ابن المقفع أي تأثير ، وقد أخذ منها ما لا تأباه السليقة العربية وأدمجه فيها ؛ وربما كان حظه من التربية البيتية الأهلية أقلّ من حظه من الثقافة الفرعية ، وفرعه على كل حال أعظم من أصله : فرعه اصطنعه بيده ورباه على أيدي عظماء ، وأصله أورثته إياه بيئته وبيته ؛ أتى من قديمه بالقدر الذي لا يمكن أن يتلخص منه من كان في مثل شأنه ، وحمل إلى جديده أشياء فيها مسحة منقطعة القرين ؛ وراعى في إبراز طريفه حالة من يكتب لهم ، في زمن كانت البلاغة أقصى ما يتطالّ اليه الكاتب

والمفكر والمصنف . وما كان لنقاد كلامه أن يحسّنوه لو لم يجدوا فيه آثار إحسان ، وكان من السهل عليهم أن يزيفوه لو بدا لهم فيه مغمز .

والغالب أن الناحية الضعيفة في ابن المقفع كانت في تخلفه في علم الكلام ، أي التوحيد ؛ قال الجاحظ فيه انه كان يتعاطاه ولا يحسن منه قليلاً ولا كثيراً . واعترف له مع ذلك بأنه كان ضابطاً لحكايات المقالات ؛ قال : « ولا يعرف من أين غُرَّ المغتر ، ولا وثق الواثق ، وإذا أردت ان تعتبر ذلك إن كنت من خُلّص المتكلمين ومن النظارين ، فاعتبر ذلك بأن تنظر في آخر رسالته الهاشمية ، فإنك تجده جيد الحكاية لدعوى القوم ، رديء المدخل في مواطن الطعن عليهم ، وقد يكون الرجل يحسن الصنف والصنفين من العلم ، فيظن بنفسه عند ذلك ، أنه لا يحمل عقله على شيء إلا بَعُدَ به » .

وليس من المستغرب ألا يجيد ابن المقفع علم الكلام ، ولكن المستغرب أن يحمل الجاحظ عليه وعلى الخليل بن أحمد صاحب العروض ، ويرمي هذا بالجهل بهذا العلم ، بعبارة جارحة ، وقال فيه كما قال في ابن المقفع : « إنه من أجل إحسانه في النحو والعروض وضع كتاباً في الإيقاع وتراكيب الأصوات ، وهو لم يعالج وتراً قط ، ولا مسّ بيده قضيباً قط ، ولا كثرت مشاهدته للمغنين ؛ وكتب كتاباً في الكلام ، ولو جهد كل بليغ في الأرض أن يتعمد ذلك الخطأ والتعقيد لما وقع له ذلك ، ولو أن ممروراً استفرغ قوى مِرَّته في الهذيان لما تهيأ له مثل ذلك ، ولا يتأتى ذلك لأحد إلا بخذلان من الله تعالى » .

ونُقل عن ابي بكر الأصَمّ ، وهو من المعتزلة ايضاً ، أنه ذكر ابن المقفع فقال : ما رأيت شيئاً إلا وقليله أخف من كثيره إلا العلم ، فإنه كلما كثر خف محمله ؛ ولقد رأيت عبد الله بن المقفع هذا في غزارة وعلمه وكثرة روايته كما قال الله عز وجل: « كمثل الحمار يحمل أسفاراً »، قد أوهنه علمه، وأذهله حلمه ، وأعمته حكمته ، وحيرته بصيرته . ورأينا نحن بما قال خصوم

ابن المقفع أنهم مع دعواهم عليه الجهل في علم الكلام ، يعترفون له بغزارة العلم وكثرة الرواية ، وأنه يحسن ضبط حكاية المقالات ، ويجيد الحكاية لدعوى أهلها ؛ وتسفيههم لرأيه لا يقدح فيه كثيراً إلا لأنه عانى علماً لا يحسنه . قال محمد بن سلام : سمعت مشايخنا يقولون لم يكن للعرب بعد الصحابة أذكى من الخليل بن أحمد ولا أجمع ، ولا كان في العجم أذكى من ابن المقفع ولا اجمع .

وإذا سلمنا مع الجاحظ أن ابن المقفع لم يكن حجة في الكلام ، فقد رأيناه يشهد له بالفضل ، ويقول إنه كان مقدماً في بلاغة اللسان والقلم والترجمة واختراع المعاني وابتداع السير ؛ أي أنه كان كاتباً خطيباً مترجماً واسع الخيال يخترع ويبتدع . وعدّه من المعلمين ثم من البلغاء المتأدبين . نظمه في سلك المعلمين لأنه سبق له أن أدّب أحد أولاد الأمراء من بني إسماعيل بن علي .

تُرى ، ونحن يَعنينا من ابن المقفع بلاغته ، هل نقل حِكَمه عن غيره ، أو كان أبا عذرتها ، ومفترع طريقتها ؟ والأرجح أنه نقل ، ولكن بأسلوبه المعجب المطرب ، نقل ما ألبسه ثوباً جميلاً من حَوْكه . وقد يقل الإبداع في الأفكار ، وهي تأخذ من نفسك بما أُلْبِسَتْ من حلة شائقة يتعذر على كل أحد محاكاتها ، كالطعام الجيد تتألف مواده من أشياء يعرفها الناس ، وقلّ أن يحسن تحضيرها ، إلا طاه رفيق يركّب فيها كل شيء على مقادير معلومة ، فتأتي طيبة في المذاق .

أعظم ابن المقفع حكمة القدماء ، وذهب إلى أنهم سبقوا إلى كل فضل ، وأن الواجب الأخذ عنهم ، وأن من بعدهم لم يبتعدوا أصولاً جديدة . وإليك رأيه الصريح غير مُجمجم فيه ولا مُتعتع ، قال : « فمنتهى علم عالمنا في هذا الزمان أن يأخذ من علمهم ، وغاية إحسان محسننا أن يقتدي بسيرتهم ، وأحسن ما يصيب من الحديث محدثنا أن ينظر في كتبهم ، فيكون كأنه إياهم يحاور ، ومنهم يستمع ؛ غير ان الذي نجد في كتبهم هو المنتخل من آرائهم ،

والمنتقى من أحاديثهم ، ولم نجدهم غادروا شيئاً يجد واصف بليغ في صفة له مقالاً لم يسبقوه اليه ، لا في تعظيم الله عز وجل وترغيب فيما عنده ، ولا في تصغير للدنيا وتزهيد فيها ، ولا في تحرير صنوف العلم ، وتقسيم أقسامها وتجزئة أجزائها ، وتوضيح سبلها ، وتبيين مآخذها ؛ ولا في وجوه الأدب ، وضروب الأخلاق ؛ فلم يبق في جليل من الأمر لقائل بعدهم مقال ، وقد بقيت أشياء من لطائف الأمور فيها مواضع لصغار الفطن ، مشتقة من جسام حِكَم الأولين وقولهم ، ومن ذلك بعض ما أنا كاتب في كتابي هذا من ابواب الأدب التي يحتاج اليها الناس » .

وقوله إن القدماء لم يغادروا شيئاً لا في تعظيم الله عز وجل وترغيب فيما عنده ، ولا في تصغير للدنيا وتزهيد فيها الخ ، قول فيه نظر ، ولعله مما قاله قبل إسلامه ، ولا يعقل أن تحوي كتب زرادشت وغيرها من الكتب أموراً في تعظيم الخالق وتصغير قدر الدنيا أكثر من القرآن ، فهو المنسوج كما قال ابن رُبّن « بالتوحيد والتهاليل والتحاميد والسنن والشرائع والخبر والأثر والوعد والوعيد والرغبة والرهبة والنبوّات والبشارات بالأمور الجميلة التي تليق بجلال الله وحكمته وطَوْله ، وبسط الأمل في الغفران والرأفة وقبول التوبة والمعاني التي ترتاح اليها النفس وتستريح اليها الآمال . . . . ولذلك استحق أن يقال إن هذا الكتاب آية من آيات النبوة إذ لم يكن له نظير مذ خُلق الخَلق ، وخُطّ في الرق » .

إن دعوى ابن المقفع أنه أخذ من الماضين حكمتهم ، وأنهم لم يتركوا بعدهم مقالاً لقائل ، لا يمنع إذا تدبرنا كلامه أن نجد له كثيراً من الآراء المبتكرة المبتدعة ، استفادها من المجتمع الذي عاش فيه ، وثقفها من الحوادث التي مرت به ، وأوحاها اليه ما عاناه من أبناء دهره ، وشهده من صعاليكه وملوكه ؛ كان عصره كتاباً مفتوحاً ، اقتبس منه كل ما فيه حكمة تنجع في تقويم معوج الأخلاق ، وسنّ سنة الفضائل ؛ وعلمنا منه أنه كان من المحافظين يحتفظ بتراث الأجداد ، ولا يسير إلى التجدد إلا بقدر معلوم .

أما رأي ابن المقفع في العرب ، فهو لا يقل عن رأي أعظم المتعصبين لهم من أبنائهم كالجاحظ . روى ابو العيناء الهاشمي عن القَحْذَمِيّ عن شَبِيب بن شَيْبَةَ قال : كنا وقوفاً بالمِرْبد ، وكان المربد مألف الأشراف ، إذ أقبل ابن المقفع ، فبششنا به وبدأناه بالسلام ، فرد علينا السلام ، ثم قال : لو ملتم إلى دار نيروز وظلها الظليل ، وسورها المديد ، ونسيمها العجيب ، فعودتم أبدانكم تمهيد الأرض ، وأرحتم دوابكم من جهد الثقل ، فإن الذي تطلبونه لم تُفلتوه ، ومهما قضى الله لكم من شيء تنالوه ، فقبلنا وملنا ؛ فلما استقر بنا المكان قال لنا : أي الأمم أعقل ؟ فنظر بعضنا إلى بعض ، فقلنا لعله أراد أصله من فارس ، فقلنا : فارس ! فقال : ليسوا بذاك ، إنهم ملكوا كثيراً من الأرض ، ووجدوا عظيماً من الملك ، وغلبوا على كثير من الخلق ، ولبث فيهم عَقد الأمر ، فما استنبطوا شيئاً بعقولهم ، ولا ابتدعوا باقي حكم في نفوسهم . قلنا : فالروم . قال : أصحاب صنعة . قلنا : فالصين . قال : أصحاب طُرفة . قلنا : الهند . قال : أصحاب فلسفة . قلنا : السودان . قال : شر خلق الله . قلنا : الترك . قال : كلاب مختلسة . قلنا : الخزر . قال : بقر سائمة . قلنا : فقل . قال : العرب . قال فضحكنا فقال : أما أني ما أردت موافقتكم ، ولكن إذ فاتني حظي من النسبة فلا يفوتني حظي من المعرفة ، إن العرب حكمت على غير مثال مُثّل لها ، وآثار أثرت : أصحاب إبل وغنم ، وسكان شعر وأدم ، يجود أحدهم بقوته ، ويتفضل بمجهوده ، ويشارك في ميسوره ومعسوره ، ويصف الشيء بعقله فيكون قدوة ، ويفعله فيصير حجة ، ويحسّن ما شاء فيَحْسُن ، ويقبح ما شاء فيقبح ، أدبتهم أنفسهم ، ورفعتهم هممهم ، وأعلتهم قلوبهم وألسنتهم ؛ فلم يزل حباء الله فيهم ، وحباؤهم في أنفسهم ، حتى رفع لهم الفخر ، وبلغ بهم أشرف الذكر ، وختم لهم بملكهم الدنيا على الدهر ، وافتتح دينه وخلافته بهم إلى الحشر ، على الخير فيهم ولهم . فقال : (ان الأرض لله

يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين) فمن وضع حقهم خسر ، ومن أنكر فضلهم خصم ، ودفع الحق باللسان أكبت للجنان اه .

إنا إذا حكمنا بالقليل الباقي من رسائل ابن المقفع وكتبه ، وهي كافية في إنارة وجوه الحكم عليه ، نجزم بأنه كان فيما يكتب يتروّى لا يتسرع ولا يبتده ، وقد يرتجل وينشيء أفكاره وأفكار غيره إنشاء، يصبها نُقرة واحدة في قالب واحد ، ثم هو في ذاته بعيد عن تزكية النفس ، لا يفاخر ولا يتمجد ، ولا يناقش خصماً ، يقول ما يعلم ، لا يأبه لغير ذلك ؛ ولقد تجلى النّبل والعظمة في قوله وفعله ، وأن الحق طَلِبَته ، لا يبالي عذل عاذل ، ولا صولة متطاول ، لا يصانع من يصانعه ، ولا يماري من ماراه ، يتلطف في الأداء ، ويربأ بنفسه عن مماحكات المماحكين ، ومناقشات المجادلين ، هو جِدّ عارف بأن للعلم سياسة ، كما للناس سياسة ، وأن للأدب حدوداً لا يصح لمن يكتب فيه تعديها ، وهواه محصور في أن يحمل للأمة ما ينفعها ، وتُجمِــع على استحسانه، وإن تخالفت مشاربها ، ولسان حاله هذا ما جهدت فيه فعرفته وصنفته ؛ وأنتم أيها الناس خذوا منه أو دعوه ، فإن له أقواماً يفهمونه ، ويعونه ، أنتم إن لم تريدوه ، فالذين كتب لهم راغبون فيه دونكم .

وسواء كانت رسائل ابن المقفع وكتبه مما نقله عن غيره ، أو ابتدعه من عند نفسه ، فالظاهر أنه ما توخى إلا نقل ما عرفه عن الأمم الأخرى ، ولم يحفل بما دوّنه العرب من أخبارهم وحكمهم ، ذلك لأن لهذا رجالاً لم يقصروا في هذه السبيل ، وإنما أراد ، وهو الفارسي النّابه ، أن ينقل للعرب ما عند فارس والهند والروم من العلوم والحكم ، فأتى ببضاعة جديدة إلى الأسواق العربية ، وافقت هوى أرباب الذوق وعشاق الطرائف ؛ فاقتناها من اقتناها ، وانتفع بها من انتفع . فطريقته إذاً في العربية جديدة زاد بها ثروة الآداب ، ووسع دائرة التفكير ، في أمة تلقفت بأساليبها ما عند غيرها . فكان له المنّة على الأدب من وجهين : الإتيان بجديد رائع ، وابتداع هذا الأسلوب الفتان .

نقل شيئاً في الفلسفة والعلوم القديمة ، وفي الأدب والحكم وسير الملوك وتدبير الممالك ، وترجم ما ينفع العرب ، وزهد كغيره من التراجمة في نقل آداب الأمم الأخرى ، فلم يترجم الإلياذة مثلاً لأنها لا تتفق وأذواق العرب ، وهم أمة تتناغى ببلاغتها ، وتبعد عن الخيال ، وتبالغ في المحسوسات . فكان عمله ملائماً لروح الأمة التي أنشأته ، وعلى ذلك جرى النقلة بعده .

يتراءى لك وأنت تمعن النظر في تقاييد[1] ابن المقفع أنك ماثل أمامه يفيض عليك من حكمته على طريقته . والكلام كما قال العسكري : « يحسن بسلاسته وسهولته ونصاعته ، وتخير ألفاظه ، وإصابة معناه ، وجودة مطالعه ، ولين مقاطعه ، واستواء تقاسيمه ، وتعادل أطرافه ، وتشبه أعجازه بهواديه[2] ، وموافقة مآخره لمباديه ، مع قلة ضروراته بل عدمها أصلاً ، حتى لا يكون لها في الألفاظ أثر ، فتجد المنظوم مثل المنثور في سلاسة مطلعة ، وجودة مقطعه ، وحسن رصفه وتأليفه ؛ وكمال صوغه وتركيبه ، فإذا كان الكلام كذلك كان بالقبول حقيقاً ، وبالتحفظ خليقاً » .

أخلاقه ومصيره :

إن من نشأ في سعة من العيش ، وأخذ عن عظماء في العلوم والآداب ، وعاش زمناً بين كبار في الإمارة والسياسة ، لا بدّ أن تُبقِي بيئته الراقية في نفسه من الصفات ما يسمو به إلى الفضائل والمكارم . وقد قال فيه من ترجموا له : « إنه كان سريّاً سخيّاً ، يطعم الطعام ويتسع على كل من احتاج اليه » وقالوا : إنه لم يبق في الإسلام من أهل فارس « شريف يذكر إلا أن يكون عبد الله بن المقفع والفضل بن سهل » ، وفي هذه النعوت جماع من صفات السراوة .

(١) التقاييد كالتعاليق ما يقيده المرء في دفاتره من الفوائد .

(٢) الهادي : العنق ، والهوادي : الجمع .

قيل إنه قد أفاد مالاً لما كان يكتب لابن هبيرة على كرمان ، فأداه ما جبل عليه من حب الخير أن يُجرى على جماعة من وجوه أهل البصرة والكوفة ما بين خمسمائة درهم إلى ألفين في كل شهر . ولم يقف جوده عند هذا الحد من التوسعة على من يُعرف في البصرة والكوفة ، بل أُثرت له حوادث في السخاء دلت على أنه كان متصفاً بالأخلاق الصالحة التي طالما وصفها للناس في رسائله . وهو القائل : « أُبذُل لصديقك دمك ومالك ، ولمعرفتك رِفدك ومحضرك ، وللعامة بِشرك وتحنّنك ، ولعدوك عدلك ، واضْنَن بدينكَ وعرضكَ عن كل أحد » .

كانت بين عمارة بن حمزة[1] وبين ابن المقفع مودة ، فأنكر أبو جعفر المنصور على عمارة شيئاً ونقله إلى الكوفة . وكان ابن المقفع إذ ذاك بها ، فكان يأتيه ويزوره ، فبينا هو ذات يوم عنده ورد على عمارة كتاب وكيله بالبصرة ، يعلمه أن ضيعة مجاورة لضيعته تباع ، وأن ضيعته لا تصلح إن ملكها غيره ، وأن أهلها قد بذلوا له ثلاثين ألف درهم ، وأنه إن لم يبتعها فالوجه أن يبيع ضيعته ، فقرأ عمارة الكتاب وقال : ما أعجب هذا ، وكيلنا يُشير علينا بالابتياع مع الإضاقة والإملاق ، ونحن إلى البيع أحوج . وكتب إلى وكيله ببيع ضيعته والانصراف إليه . وسمع ابن المقفع الكلام ، وانصرف الى منزله وأخذ سُفْتُجة إلى الوكيل بثلاثين ألف درهم ، وكتب إليه على لسان عمارة إني قد كنت كتبت إليك ببيع ضيعتي ثم حضر لي مال ، وقد أنفذت إليك سفتجة فابتع الضيعة المجاورة لك ولا تبع ضيعتي ، وأقم مكانك ، وأنفذ الكتاب بالابتياع إليّ . ووجّه الكتاب إليه مع رسول قاصد . فورد على الوكيل وقد باع الضيعة ، ففسخ البيع وابتاع الضيعة المجاورة ، وكتب

(١) يعد عمارة بن حمزه الكاتب ، وهو من ولد أبي لبابة الأنصاري مولى عبد الله بن العباس ، في بلغاء الناس مع ابن المقفع وعمرو بن مسعدة وأحمد بن يوسف ، وكـان معدوداً أيضاً في سراة الناس ، وله تصانيف كثيرة مفقودة .

إلى عمارة يذكر الأمر ، وأنه قد صارت له ضيعة نفيسة . فلما قرأ عمـــارة الكتاب أكثر التعجب ، ولم يعرف السبب ، وسأل عمن حضر عند ورود كتاب الوكيل ، فقيل ابن المقفع ، فعلم أنه من فعله ، فلما صار إليه بعد أيام وتحدثا قال عمارة : بعثت بتلك الثلاثين ألف درهم إلى الوكيل وكنا إليها هاهنا أحوج . قال : فإن عندنا فضلاً ، وبعث إليه بثلاثين ألفاً أخرى .

وبلغ ابن المقفع مرة أن جاره يبيع داراً له لدين ركبه ، وكان يجلس في ظلّ داره ، فقال : ما قمت إذاً بحرمة ظل داره إن باعها معدمـــاً ، وبتُّ واجداً . فحمل إليه ثمن الدار وقال : لا تبع . وقال سعيد بن سِلْم : قصدت الكوفة فرأيت ابن المقفع فرحب بي وقال : ما تصنع ههنا ، فقلت : ركبني دين فأُحوجت إلى الانزعاج ، فقال : هل رأيت أحداً ، فقلت : ابن شُبْرُمَةَ ، وعرفته حالي ، فقال : أنا أُكلم الأمين ليضمك إلى أولاده فيكون لك نفع ؛ أُف لذلك ! أيجعلك مؤدباً في آخر عمرك ؟ أين منزلك ؟ فعرفته . فأتاني في اليوم الثاني وأنا مشغول بقوم يقرأُون عَليّ ، ومعه منديل فوضعه بين يدي ، فإذا فيه أسورة مكسورة ودراهم متفرقة ، مقدار أربعة آلاف درهم ، وحينئذ زمان المنصور ، وفي الدراهم ضيق ، فأخذت ذلك ورجعت به إلى البصرة واستعنت به .

روى الحكاية الأولى الجهشياري ، وروى الثانية ابن قُتيبة ، وروى الثالثة الراغب الأصفهاني . أليس لنا أن ندعي بعد ذلك أن ابن المقفع كان يعمل بما يقول ، ويهون عليه أن يبذل لصديقه دمه وماله ، وأنه طبع على مكارم الأخلاق ، يحب الإيثار ويبغض الأثرة ، يفعل الخير ما استطاع ، ويبذل حبَّ البذل ، لا عن رغبة ولا عن رهبة ؟

* * *

ولع ابن المقفع بالجمال والطرب ، فكان يغشى معاهد الصفاء ، ويجتمع إلى القينات ، ويطرب في غير محرَّم ، ويتعاطى قليلاً من الشراب من نبيذ

العراق الذي أفتى بحله فقهاؤهم . ويقول :

سأشرب ما شربت على طعامي ثلاثاً ثم أتركـه صحيحا
فلست بقارف منـه أثاما [١] ولست براكب منه قبيحا

فابن المقفع كان إذاً يأخذ من الحياتين بنصيب على نحو ما قال : « لا عقل لمن أغفله عن آخرته ما يجده من لذة دنياه ؛ وليس من العقل أن يحرِمه حظه من الدنيا بَصَرُه بزوالها ، وعلى العاقل ما لم يكن مغلوباً على نفسه أن لا يشغله شغل عن أربع ساعات : ساعة يرفع بها حاجته إلى ربه ، وساعة يحاسب فيها نفسه ، وساعة يفضي فيها إلى إخوانه وثقاته الذين يصدقونه عن عيوبه ، وينصحونه في أمره ، وساعة يخلي فيها بين نفسه وبين لذتها مما يحِلُّ ويجْمُل فإن هذه الساعات عون على الساعات الأخر ، وإن استجمام القلوب وتودعها [٢] زيادة قوة لها وفضل بلغة . وعلى العاقل أن لا يكون راغباً إلا في إحدى ثلاث خصال : تزود لمعاد ، أو مرمة [٣] لمعاش ، أو لذة في غير محرَّم » .

واتلُ بعد هذا حكايتين دوَّنهما الأصفهاني في الأغاني ، تنمان أيضاً عن كرم وإيثار . قال : إن ابن المقفع حضر يوماً مأدبة فيها معن بن زائدة المشهور بكرمه ، وفيها جوارٍ يغنين ، فغنت واحدة ابن زائدة فأعطاها ألف دينار ، وغنت أخرى ابن المقفع ، فأعطاها مائة ألف درهم ، أي عشرة آلاف دينار ، فقال معن : « لله در الفارسي فقد برَّز علينا » . وروى أيضاً أنه اجتمع عند ابن رامين ، معن بن زائدة ورَوْح بن حاتم وابن المقفع ؛ فلما تغنت الزرقاء وسُعدة بعث معن إليها ببِدْرة [٤] فصُبَّت بين يديها ، وبعث

(١) الأثام : كسحاب العقوبة ويكسر كالمأثم ، وقرف عليهم بغى وفلاناً عابه أو اتهمه ولعياله كسب . وخلط وكذب .
(٢) التودع : الخفض والدعة .
(٣) المرمة : الاصلاح .
(٤) البدرة : كيس فيه ألف أو عشرة آلاف درهم ، أو سبعة آلاف دينار .

روح فجيء ببدرة فصبها بين يديها ، ولم يكن عند ابن المقفع دراهم ، فبعث فجاء بصك ضيعته وقال : هذه عُهدة ضيعتي خذيها ، فأما الدراهم فما عندي منها شيء .

وإذا صحت هاتان القصتان دلتا ، مع ما فيهما من إسراف ومبالغة في مقدار الجائزتين ، على عظم نفس ابن المقفع ، وطيب عنصره في المكرمات والمروءات ، فإنه أبى أن يكون دون معن بكرمه ، وحاول أن يُرْبي عليه أن كان له مال . ولما دعته الدواعي في المرة الثانية أن يجاري رفاقه أيضاً ؛ وقد صَفَرت كفه من الدراهم ، كافأ المغنية بقرية له نزل لها عنها ، ولك أن تقول ، إذا صدقنا هذا ، فإن ابن المقفع يستفزه الطرب ، حتى ليكاد يخرج عن قانون الحكمة ، وللنفس وثَبات ، وللطبع نَزَوات .

كان ابن المقفع ينفر من الحسد نفرته من الحرص فيقول : « الحرص والحسد بكر الذنوب ، وأصل المهالك ؛ أما الحسد فأهلك إبليس ، وأما الحرص فأخرج آدم من الجنة » . وقال : « لا يطمعن ذو الكبر في حسن الثناء ، ولا الخبُّ[1] في كثرة الصديق ، ولا السيء الأدب في الشرف ، ولا الشحيح في المحمدة ، ولا الحريص في الإخوان ، ولا الملك المُعْجَب بثبات الملك » . وقال : « أهل العقل والكرم يبتغون إلى كل معروف وُصلة وسبيلا » .

قيل لابن المقفع الصديق أحب إليك أم القريب ؟ قال : القريب أيضاً يجب أن يكون صديقاً . وقيل له بأي شيء يعرف الأخ ؟ قال : أن ترى وجهه منبسطاً ، ولسانه بمودته ناطقاً ، وقلبه ببشره طافحاً ، ولقربه من المجلس مجيباً ، وعلى مجاورته في الدار حريصاً ، وله فيما بين ذلك مكرماً . وقيل له من أدَّبك ؟ قال : نفسي ، إذا رأيت شيئاً أذمه من غيري اجتنبته .

---

(١) الخب : بفتح الخاء الخداع ويكسر .

وكان يقول أخذت من كل شيء أحسن ما فيه حتى من الخنزير والكلب والهرة ؛ أخذت من الخنزير حرصه على ما يصلحه ، وبكوره في حوائجه ، ومن الكلب نصحه لأهله ، وحسن محافظته على أوامر صاحبه ؛ ومن الهرة لطف نغمتها ، وحسن مسألتها ، وانتهازها الفرصة في صيدها .

ورُوي أن عبد الحميد لقي ابن المقفع فقال له : بلغني عنك شيء أكرهه ؛ فقال : لا أُبالي ، قال : ولِمَ ؟ قال : لأنه إن كان باطلاً لم تقبله ، وإن كان حقّاً عفوت عنه .

وعلى هذا فابن المقفع عملي في حياته ، وعملياته أكثر جِرماً من نظرياته ، يحاول الاستمتاع بماله فيبذله لمن يحتاج إليه ، ويحرص على الصداقة ، ويتجافى عن الحسد والرياء ، ويتمتع بمباهج الحياة ، ويرسل النفس على فطرتها بين إخوانه . قالوا إن والِبَة بن الحُبَاب ، ومطيع بن إياس ، ومنقذ بن عبد الرحمن الهلالي ، وحفص بن أبي وردة ، وابن المقفع ، ويونس بن أبي فروة ، وحماد عَجْرَد ، وعلي بن الخليل ، وحماد بن أبي ليلى الراوية ، وابن الزِّبْرقان ، وعُمارة بن حمزة ، ويزيد بن الفيض ، وجميل بن محفوظ ، وبشّار المرعَّث ، وأبان اللاحقي كانوا ندماء يجتمعون على الشراب وقول الشعر ، ولا يكادون يفترقون ، ويهجو بعضهم بعضاً هزلاً وعمداً ، وكلهم متهم بدينه .

هذه رواية صاحب الأغاني عن الجاحظ في اتهام أهل ذاك المجمع بدينهم ؛ ولعل ذلك كان من ابن المقفع قبل أن ينتحل الإسلام ، ونحن نشك كثيراً في روايات صاحب الأغاني ، ذلك لأنه كان مستهتراً[1] ويحب أن يصف بالاستهتار كل عظيم ، ولو كان ممن ثبتت عفته وطهارته .

---

(٢) المستهتر بالشيء : بفتح التائين المولع به لا يبالي بما فعل فيه وشتم له ، أو الذي كثرت أباطيله .

ولقد قرأنا كلام ابن المقفع وتدبرناه ، فما رأينا له كلمة واحدة تشعر بزندقته ، وكيف تثبت الزندقة إذا لم تقم عليها بينات ظاهرة من أقوال وأفعال ؟ ولو كان في دينه أدنى عهدة لكان المنصور العباسي قتله على الزندقة جهرة يوم أزمع قتله ، ثم إنهم اتهموا ابن المقفع بأنه عارض القرآن وقالوا إنه تاب وأناب ، وهذه التهمة أيضاً كثيراً ما وجهت إلى بعض العظماء بغية إسقاطهم في نظر الملوك والسوقة . وتخرص عليه المتخرصون أنه مر ببيت نار للمجوس بعد أن أسلم فقال متمثلاً :

يا بيت عاتكة الذي أتعـزَّل حذر العدى وبك الفؤاد موكل
إني لأمنحك الصدود وإنني قسماً إليك مع الصدود لأميل

وقالوا إنه كثيراً ما تمثل بهذين البيتين ، ليخلصوا من ذلك إلى أن إسلامه كان صوريّاً ، والدلائل كلها مكذبة لأقوالهم ، فإن ابن المقفع لم يخالف الشرع بل خدمه وأحنى عليه . أليس هو القائل : « فأصل الأمر في الدين أن تعتقد الإيمان على الصواب ، وتجتنب الكبائر ، وتؤدي الفريضة ، فالـزم ذلك لزوم من لا غناء به عنه طرفة عين ، ومن يعلم أنه مَن حُرِمَه هلك ، ثم إن قدرت أن تجاوز ذلك إلى التفقه في الدين والعبادة فهو أفضل وأكمل » ، وكيف يتهم بدينه من قال في حكمه الفاشية بين الناس : « أحق ما صان الرجل أمر دينه – المغبون من طلب الدنيا بعمل الآخرة – المصيبة العظمى الرزية في الدين – طوبى لمن ترك دنياه لآخرته » .

وإذا جئت تعلل اجتماعه بهؤلاء الأدباء الذين ذكروا ، واتهمهم المتهمون بالإلحاد ، سجلت خطأهم وضعف أحكامهم ، وقد كان على الدهر أعظم سلوى للنفس اجتماع المتماثلين . وليس من المحظور في قانون الأرض وقانون السماء أن يَسْمَر الناس ويتنادروا ويتمازحوا ، وهذه الطبقة من الرجال كانت من أرق الناس وأفضلهم ؛ ذكر أبو عبد الله المرزبان بإسناد له عن بعض الرواة قال : أدركت طبقة بالكوفة يقال لهم حلية الأرض ونقش

الزمان ، وهم حماد عَجْرد ووالبة بن الحُبَاب ومطيع بن إياس ويحي بن زياد وشُرَاعة بن الزَّنْدَبُوذ ، ومعظم هؤلاء كانوا عشراء ابن المقفع .

وللصداقة شروط ذكرها ابن المقفع بقوله : « انظر في حال من تريده لإخائك ، فإن كان من إخوان الدين فليكن فقيهاً ليس بمراءٍ ولا حريص ، وإن كان من إخوان الدنيا فليكن حرّاً ليس بجاهل ولا كذّاب ، ولا شرير ولا مشنوع[1] ، فإن الجاهل أهل لأن يهرب منه أبواه ، والكذاب لا يكون أخاً صادقاً ، لأن الكذب الذي يجري على لسانه إنما هو من فضل كذب قلبه ، وإنما سمي الصديق من الصدق ، وقد يُتهم صدق القلب ، وإن صدق اللسان ، فكيف إذا ظهر الكذب على اللسان ، وإن الشرير يكْسِبُكَ العدو ، ولا حاجة لك في صداقة تجلب العداوة ، وإن المشنوع شانع نفسه » .

وما نظن أن من اتهموا ابن المقفع بدينه ، إلا من الفقهاء المرائين ، الذين اشترط هو أن لا يكون منهم الفقيه الذي يركن إليه المصاحب ، وهذه الطبقة من الفقهاء كانت في كل عصر علة توقف العقل ، ونشوب فتن سالت فيها الدماء أنهاراً على غابر الأيام ، وقد تعوذ بالله من شرهم علماء الأمة ، وأبانوا مساويهم ومصانعتهم للملوك ، يحملون إليهم من سلعهم ما يروجونه عليهم بكل حيلة ، ولا يرون الخير إلا فيما هم فيه بسبيل ، ينكرون فضل الله على العالمين بتعدد الخصائص والاستعدادات .

ليس ابن المقفع أول من رُمي بالإلحاد ؛ فتاريخ الفكر الإسلامي يذكر أخبار من وقع اتهامهم بهذه التهمة من نوابغ الأمة ، على حين كانوا أعظم أنصار الدين كالجاحظ ، وفي القرون التالية اتهم بهذه التهمة عشرات من كبار العلماء[2] ، وأن ما كتبوه ليشهد لهم أن أعداءهم ظلموهم في هذه

---

(١) المشنوع المشهور بالشناعة : وهي القبح الذي يستشنع ، يقال شنعه شنعاً ؛ إذا استقبحه وشتمه . ويقال شنعنا فلان وفضحنا »

(٢) راجع مبحث الاضطهاد في سبيل الأفكار والمذاهب في كتاب « الاسلام والحضارة العربية » للمؤلف ج ٢ .

التهم ، وظهر بعد أن عذبوا في حياتهم ، أنهم كانوا من المخلصين في خدمة الدين ، وأن أولئك الثرثارين الذين طوتهم الأرض ولا أثر لهم في دنيا ولا دين ، كانوا يحسدون أولئك المؤمنين ، فانتقموا لأنفسهم بأن ضربوهم في أقدس الأشياء عندهم .

صحة الإيمان وحب الإسلام صفتان ماثلتان في ابن المقفع ، مهما تقوّل عليه المتقولون . وكان إلى هذا رجل نجدة وأنفة وكرم أخلاق ومروءة ووفاء وحسن عشرة . وكان ربَّ جد وعمل ، لا يستند في أموره على الخيال ؛ وجل اعتماده على عقله وتجاربه وتجارب من سلف من حكماء الأمم . كان محافظاً على شعائره ، لا يحرم على نفسه الطيبات المحللة ؛ فليس فيه جمود الفقهاء ، ولا استهتار الأدباء ، فَهِم من الدين ما فهمه منه كل عاقل .

وكان ابن المقفع من أرباب التفاؤل لا التشاؤم ، لطيف الأخلاط ، وادع النفس ، ينظر إلى الأشياء من وجهها الحسن ، ولا يفتأ يجملها بحسن ظنه ، ويغالط نفسه في حقيقة السعادة ، فينبعث إلى العمل مَرِحاً ؛ يحب من الملوك عدلهم ، وأن يعملوا في خشية الله وخشية الناس ، ولا يهوّن عليهم صناعتهم ولا يصعبها ، خصوصاً إذا اقترنت بقرناء الخير من الوزراء والعلماء . ومن كلامه : ثلاثة لا يستخف بهم : عامل السلطان ، والعالم ، والصديق ؛ فإن من استخف بعامل السلطان ذهبت دنياه ، ومن استخف بالعالم ذهبت أخراه ، ومن استخف بالصديق ذهبت مروءته . وقال : خدمة السلطان بلا أدب خروج من السلامة إلى العطب ، وقال : جانب المتظلم المسخوط عليه ، والظنين عند السلطان ؛ ولا يجمعنك وإياه مجلس ولا منزل ، ولا تظهرن له عذراً ، ولا تثنين عليه خيراً ، فإذا رأيته قد بلغ من الإعتاب مما سخط عليه فيه ما ترجو بأنه يلين له قلب الملك ، ورأيت أن الملك قد استيقن بمباعدتك إياه وشدتك عليه ، فاعمل إذاً في رضاه عنه برفق ولين .

وكان يعرف أدب الكبراء لأنه داخلهم ومازجهم ، وكان على حذر

منهم لا يغتر بإقبالهم عليه ، وهم في حاجة إلى علمه وأدبه . استشاره عبد الله ابن علي فيما كان بينه وبين المنصور ، فأجابه : « لست أقود جيشاً ، ولا أتقلد حرباً ، ولا أشير بسفك دم ، وعثرة الحرب لا تُقال ، وغيري أولى بالمشورة في هذا المكان » .

* * *

بقي أن نشرح مصير ابن المقفع ، ونصف ما أدى إلى مقتله : كان مقتله سياسيّاً ، وما كان ولله الحمد في شيء من الغدر ولا الكفر ، وفي السياسة يقتل البريء البر ، ويثلم الفاضل الحر ؛ ولم يسلم ابن المقفع من ظلم الملوك ، على كثرة احتياطه معهم ، وقتل لما قُدّر له القتل ، على كثرة إحسانه ، فباء قاتله بسبة الدهر ، وكان قتل ابن المقفع أيضاً فخراً له لا عاراً عليه .

لما خالف عبد الله بن عليّ على أبي جعفر المنصور ، وادعى الخلافة لنفسه ، أنفذ أبو جعفر أبا مسلم الخراساني لقتاله ، فانهزم عبد الله وقصد أخويه سليمان وعيسى في البصرة ، فدخلها مستتراً ، وكاتب سليمان وعيسى أبا جعفر أن يؤمنه ، وأنفذ سليمان كاتبه عمر بن أبي حليمة في ذلك ، واستقر له الأمر على إعطائه الأمان ، فأنفذ أبو جعفر سفيان بن معاوية بن يزيد بن المهلب ، وأمره بضغطهم والتضييق عليهم ، حتى يشخصوا بعبد الله بن علي إلى حضرته . وكان ابن المقفع يكتب لعيسى بن علي ، فأمره عيسى بعمل نسخة الأمان ، فعملها ووكدها ، واحترس من كل تأويل يقع عليه فيها .

وترددت بين أبي جعفر وبينهم في النسخة كتبٌ ، إلى أن استقرت على ما أرادوا من الاحتياط ، ولم يتيسر لأبي جعفر إيقاع حيلة فيها ، لفرط احتياط ابن المقفع ؛ وكان الذي شق على أبي جعفر أن قال في النسخة : يوقع بخطه في أسفل الأمان « وإن أنا نلت من عبد الله بن علي أو أحد ممن أقدمه معه بصغير من المكروه أو كبير ، أو أوصلت إلى أحد منهم ضرراً له ، سرّاً أو علانية ، على الوجوه والأسباب كلها ، تصريحاً أو كناية ، أو بحيلة من الحيل ،

فأنا نَفْيٌ من محمد بن علي بن عبد الله ومولود لغير رشدة[١] . وقد حل لجميع أمة محمد خلعي وحربي والبراءة مني ، ولا بيعة لي في رقاب المسلمين ، ولا عهد ولا ذمة . وقد وجب عليهم الخروج من طاعتي ، وإعانة من ناوأني من جميع الخلق ، ولا موالاة بيني وبين أحد من المسلمين ، وهو متبرىء من الحول والقوة ، ومدع إن كان أنه كافر بجميع الأديان ، ولقي ربه على غير دين ولا شريعة ، محرم المأكل والمشرب والمناكح والمركب والرِق والملك والملبس على الوجوه والأسباب كلها ، وكتبت بخطي ولا نية لي سواه ، ولا يقبل الله مني إلا إياه والوفاء به » .

فأنكر أبو جعفر هذه الصيغة الشديدة في الأمان ، وقال : من يكتب له هذا ؟ فقيل ابن المقفع كاتب عيسى بن علي . فقال أبو جعفر : فما أحد يكفينيه ؛ وكان سفيان بن معاوية يضطغن على ابن المقفع أشياء ، منها : أنه كان يعبث به فيما قيل ، فتولى قتله . وقيل إن سفيان لما أمر بقتله قال له : والله إنك لتقتلني ، فتقتل بقتلي ألف نفس ، ولو قتل مائة مثلك ما وفوا بواحد ، ثم قال :

إذا ما مات مثلي مات شخص يموت بموته خلق كثير
وأنت تموت وحدك ليس يدري بموتك لا الصغير ولا الكبير

هذه رواية الجهشياري في الأسباب التي دعت المنصور إلى قتل ابن المقفع وفي كتاب المقالات[٢] للنوبختي أن المنصور كتب لعبد الله بن علي عمّه ، فيما

---

(١) ولد لرشدة (بفتح الراء وبكسر) ضد لزنية .

(٢) تفضل صديقي الأستاذ أبو عبد الله الزنجاني من علماء إيران فنقل لي هذه الجملة من كتاب المقالات للنوبختي ، وهي غير مذكورة في كتاب المقالات الفرق المطبوع . وقد رجح الأستاذ أن الكتاب تأليف سعد بن عبد الله بن أبي خلف النميري الأشعري القمي المتوفى سنة ٢٩٩ أو ٣٠١ وهو من رؤساء الإمامية . والنسخة محفوظة في خزانة الأستاذ سلطاني البهبهاني من نبلاء طهران وأدبائها .

رُوي ، سبعين أماناً كلها يردها عبد الله بن المقفّع ، ويقول له : هذا ينتقض عليك ، ويبطل من مكان كذا وكذا . فلما ضجر المنصور ، وطال عليـه أمره ، كتب إلى يزيد بن معاوية المهلّبي ، وهو عامله على البصرة ، بعد ما وقف على أمر ابن المقفع وأنه صاحبه ، وكان متوارياً مخافة المنصور ، وما بلغه عنه : يقسم بالله وبالأيمان المغلظة لئن لم يطلب عبد الله بن المقفع ولم يقتله ليقتلنّه ومن بقي من أهل بيته من آل المهلب ، فطلبه يزيد بن معاويـة فظفر به ، وأراد حمله إلى المنصور فقتل نفسه . قال بعضهم : إنه شرب سمّاً وقال بعضهم : إنه خنق نفسه . فلما قتل ابن المقفَّع قَبِل عبد الله بن عليّ أوّل أمان ورد عليه ، وظهر فحمل إلى المنصور فحبسه في بيت ثم هدَّمـه عليه فقتله ، وقال بعضهم : بل بعث إليه وهو نائم ثم وضع على وجهه شيئاً فأخَذَ بنفسه حتى مات . وقال بعضهم : إنه سمَّه في طعامه فقتله ا هـ .

جوَّز المنصور قتل بريء ، كَتَب ما كتب حرصاً على مصلحة من يكتب له ، والله يقول « ولا يضارَّ كاتب ولا شهيد » وما عدم الساسة حجة يتوكؤون عليها ، أو تأويلاً يأتيهم به المنافقون لقتل من استهدفوا لغضبهم ، والمنصور على ما فيه من عقل ودهاء ، عجز عن إقناع أهله بأن يكتبوا إلا ما أرادوا في أمان أحدهم ، فانتقم من رجل لا قوة له غير قلمه ، ومن رجل شريف ما تجوز في خيانة من يتولى الكتابة عنه ، وأبت ذمته أن يكتب لهم عهد أمان ضعيف القيود ، يدخل المنصور متى أراد من أحد شقوقه ، فينقضه ويهلك من يحاول إهلاكه .

والمنصور يعرف مكانة ابن المقفع من العلم ، يعرفه مما ترجمه له من كتب الحكماء ، ويعرف شهرته المستفيضة في أرجاء مملكته الواسعة ؛ وليس عبد الله بالرجل الذي يجهل موقعه ، والمنصور يعرف أن ابن المقفع ، والدولة في شبابها ، زينة مملكته ، وما كان يحسنه من فنون الحكمة والأدب لا يحسنه سواه ، ولكن هو الاستبداد يعمي البصر ، وحظوظ النفس تعمي البصيرة ، والمستبد أبداً محتقب أوزاراً ، قد تعود عليه بأقبح سمعة وشنعة ؛ ومن أجل

هذا تحامى كثير من العقلاء التقرب من الملوك المستبدين ، لأنهم إذا قالوا فعلوا .

شعبة من كلامه :

يحار من يحاول الاختيار من هذا القليل الذي عفت عنه القرون من كلام ابن المقفع . وبحسبنا أن نقتبس شيئاً من حكمه في الأدب الصغير واليتيمة ، ثم نتبعه بجمل نختارها من كليلة ودمنة ، ثم بطائفة من رسائله يجدر بطالب البلاغة أن يتروواها ويتدبرها ، وكان الأجدى أن لا نتكلف الاختيار من كلام كله در مختار .

١- من ذلك قوله في معنى الانتفاع بالكلام النافع : « ومن أخذ كلاماً حسناً عن غيره فتكلم به في موضوعه على وجهه ، فلا يَرَيَنَّ عليه في ذلك ضُؤلة(١) ، فإن من أعين على حفظ قول المصيبين ، وهُدي للاقتداء بالصالحين ، ووفِّق للأخذ عن الحكماءِ ، فلا عليه ألا يزداد ، فقد بلغ الغاية ، وليس بناقصه في رأيه ، ولا بغائضه من حقه أن لا يكونَ هو استحدث ذلك وسبق إليه ، وإنما حياة العقل الذي يتم به ويستحكم ، خصال ست : الإيثار بالمحبة ، والمبالغة في الطلب ، والتثبت في الاختيار ، والاعتقاد للخير ، وحسن الوعي ، والتعهد لما اختير واعتقد ، ووضع ذلك موضعه قولاً وعملاً » .

٢- ومنها في شدة الحاجة إلى التأدب كشدة حاجة الجسم إلى التغدية : « ولسنا إلى ما يُمسك بأرماقنا من المطعم والمشرب بأحوج منا إلى ما يثبت عقولنا من الأدب الذي به تَفَاوُت العقول . وليس غذاءُ الطعام بأسرع في نبات الجسد من غذاء الأدب في نبات العقل ، ولسنا بالكد في طلب المتاع الذي يُلتمس به دفع الضُّر والعَيْلة(٢) ، بأحَقَّ منا بالكد في طلب العلم الذي يُلتمس به صلاح الدين والدنيا » .

---

(١) الضؤلة : العنف .
(٢) العيلة بفتح العين الفقر .

٣– ومن ذلك حاجة المعلم إلى تعليم نفسه أولاً « من نصب نفسه للناس إماماً في الدين ، فعليه أن يبدأ بتعليم نفسه وتقويمها في السيرة والطِّعمة والرأي واللفظ والأخدان . فيكون تعليمه بسيرته أبلغ من تعليمه بلسانه ، فإنه كما أن كلام الحكمة يؤنّق[1] الأسماع ، فكذلك عمل الحكمة يروق العيوب والقلوب ، ومعلم نفسه ومؤدبها أحق بالإجلال والتفضيل من معلم الناس ومؤدبهم » .

٤– ومن ذلك ذكر الواجب على من يتقرب من الملوك العادلين وحاجة المجتمع إلى الالتفاف عليهم : « إن للسلطان المقسط حقّاً لا يصلح لخاصة ولا عامة أمر إلا بإرادته ، فذو اللب حقيق أن يُخلص لهم النصيحة ويبذل لهم الطاعة ، ويكتم سرهم ويزين سيرتهم ، ويَذُبَّ بلسانه ويده عنهم ، ويتوخى مرضاتهم ، ويكون من أمره المواتاة لهم ، والإيثار لأهوائهم ورأيهم على هواه ، ويقدر الأمور على موافقتهم ، وإن كان ذلك له مخالفاً ، وأن يكون منه الجد في المخالفة لمن جانبهم وجهل حقهم ، ولا يواصل من الناس إلا من لا تُباعد مواصلته إياه منهم ، ولا تحمله عداوة أحد له ، ولا إضرار به على الاضطغان[2] عليهم ، ولا مواتاة أحد على الاستخفاف بشيء من أمورهم ، والانتقاض لشيء من حقهم ، ولا يكتمهم شيئاً من نصيحتهم ، ولا يتثاقل عن شيء من طاعتهم ، ولا يَبْطَر إذا أكرموه ، ولا يجترىء عليهم إذا قرّبوه ، ولا يَطْغَى إذا سلطوه ، ولا يُلحف إذا سألهم ، ولا يُدخل عليهم المؤونة ، ولا يستثقل ما حمَّلوه ، ولا يغتر بهم إذا رضوا عنه ، ولا يتغير لهم إذا سخطوا عليه . وأن يَحمدهم على ما أصاب من خير منهم أو من غيرهم ، فإنه لا يقدر أحد على أن يصيبه بخير إلا بدفاع الله عنه بهم » .

---

(١) الأنق : محركة الفرح والسرور ، وانق كفرح والشيء أحبه وبه أعجب .

(٢) ضغن : كفرح ، وتضاغنوا واضطغنوا ؛ انطووا على الاحقاد .

أخذ هذا المعنى من سيرة الفرس في تقديس ملوكهم وفيه منزع سياسي لطيف ، والعرب لا تعرف مثله ، العرب يَجْبهون ملوكهم ، ويضربون بعيوبهم وجوههم . ومما روي له في هذا المعنى : « لا تكن صحبتك للسلطان إلا بعد رياضة منك لنفسك ، وكن حافظاً إذا ولاّك ، أميناً إذا ائتمنك ، راضياً إذا أسخطك ، ومع هذا فالحذر من صحبته كل الحذر » وقال : « لا تغرنك سعة تكون فيها ، فإن أعظم الناس خطراً من يدير ما في يده ، والملوك إلى حسن التدبير أحوج من السوقة ، فإن السُّوقة قد تعيش بغير مال ، والملوك لا بدَّ لهم من المال ولا قوام لهم إلا به » وقال : « ينبغي للملك أن لا يغضب لأن القدرة من وراء حاجته ، ولا أن يكذب لأنَّه لا يقدر أحد على استكراهه على ما لا يريد ، ولا أن يبخل لأن البخل مذموم ، ولا أن يكون حقوداً لأن خطره يجلُّ عن المجازاة ».

٥ــ ومنها في صورة العالم الحقيقي وما يجب عليه وينبغي له : « ممـــا يدلُّ على علم العالم معرفته بما يدرك من الأمور ، وإمساكه عما لا يُدرك ، وتزيينه نفسه بالمكارم ، وظهور علمه للناس من غير أن يظهر منه فخر ولا عُجْب ، ومعرفته بزمانه الذي هو فيه ، وبصره بالناس ، وأخذه بالقسط ، وإرشاده المسترشد ، وحسن مخالفته خلطاءه ، وتسويته بين قلبه ولسانه ، وتحرّيه العدل في كل أمر ، ورحب ذرعه فيما نابه ، واحتجاجه بالحجج فيما عمل ، وحسن تبصره . من أراد أن يبصر شيئاً من علم الآخرة فبالعلم الذي به يعرف ذلك ، ومن أراد أن يبصر شيئاً من علم الدنيا فبالأشياء التي هي تدل عليه » .

٦ ــ وفي تأصل الكذب في الإنسان قال : « رأس الذنوب الكذب هو يؤسسها وهو يتفقدها ويثبتها ، ويتلون ثلاثة ألوان : بالأمنية والجحود والجدل ، يبدأ صاحبه بالأمنية الكاذبة فيما يزين له من السوآت فيشجعه عليها بأن ذلك سيخفى ، فإذا ظهر عليه قابله بالجحود والمكابرة ؛ فإن أعياه ذلك ختم بالجدل

فخاصم عن الباطل ، ووضع له الحجج والتمس به التثبت ، وكابر الحق حتى يكون مسارعاً للضلالة ، ومكابراً بالفواحش » .

٧– ومن محكم تصريحاته قوله : « لا يثبت دين المرء على حالة واحدة أبداً ، ولكنه لا يزال إما زائداً وإما ناقصاً . السعيد يرغبه الله في الآخرة ، حتى يقول لا شيء غيرها ، فإذا هضم دنياه وزهد فيها لآخرته ، لم يحرمه الله بذلك نصيبه من الدنيا ، ولم ينقصه من سروره فيها ، والشقي يرغبه الشيطان في الدنيا ، حتى يقول لا شيء غيرها ، فيعجل الله له التنغيص في الدنيا التي آثر مع الخزي الذي يلقى بعدها » .

٨ – وفي معرفة صلحاء الوقت والحث على الاستشارة قوله : « إعرف أهل الدين والمروءة في كل كُوُرَة وقرية وقبيلة ، فيكونوا هم إخوانك وأعوانك وبطانتك وثقاتك ، ولا يُقْذَفنَّ في رُوعك أنك إذا استشرت الرجال ظهرت للناس منك الحاجة إلى رأي غيرك ، فإنك لست تريد الرأي للذكر والسمعة ولكنما تريده للانتفاع به ، ولو أنك مع ذلك أردت السمعة والذكر لكان أحسن الذاكرين وأفضلهما عند أهل العقل أن يقال لا يتفرد برأيه دون استشارة أهل الرأي » وقال : « إعلم أن المستشار ليس يكفيك ، وأن الرأي ليس بمضمون ، فإن أشار عليك صاحبك برأي لم تجد عاقبته كما تأمل فلا تجعلن ذلك ذنباً ، ولا تلزم المشير لوماً ، فإنه عليه الاجتهاد فيما يشير به ويراه ، وإن كنت أنت المشير فعمل برأيك فأصاب ، فلا تمنن به ولا تكثر ذكره ، وإن لم يعمل به فأخطأ ، فلا تلمه على تركه » .

٩– وفي التوقيت لكل شيء ووضع كل شيء موضعه قوله : « إعلم أن رأيك لا يتسع لكل شيء ، ففرغه للمهم ، وأن مالك لا يغنى الناس كلهم ، فاختص به ذوي الحقوق ، وأن كرامتك لا تطيق العامة فتوخَّ بها أهل الفضائل ، وأن ليلك ونهارك لا يستوعبان حاجاتك ، وإن دأبت فيهما ، وأنه ليس لك إلى أدائها سبيل مع حاجة جسدك إلى نصيبه من الدَّعَة ، فأحسن قسمتها بين دعتك وعملك .

واعلم أنك ما شَغَلت من رأيك بغير المهم أزرى بالمهم ، وما صرفت من مالك بالباطل فَقَدَته حين تريده للحق ، وما عدلت به من كرامتك إلى أهل النقص أضرَّ بكَ في العجز عن أهل الفضل ، وما شغلت من ليلك ونهارك في غير الحاجة أزرى بكَ في الحاجة » .

١٠ــ ومنها في طبقات الملك : « إعلم أن المُلكَ ثلاثة : مُلك دين ، وملك حزم ، وملك هوى ، أما ملك الدين فانه إذا أُقيم لأهله دينهم ، وكان دينهم هو الذي يُعطيهم مالهم ، ويُلحق بهم الذي عليهم أرضاهم ، ونزل الساخط منهم منزلة الراضي في الإقرار والتسليم ؛ وأما ملك الحزم ، فإنه يقوم به الأمر ، ولا يسلم من الطعن والتسخط ، ولن يضر طعن الذليل مع حزم القوي ؛ وأما ملك الهوى فلعب ساعة ودمار دهر » .

١١ــ وفي المبالغة بالحرص على الإخوان قوله : « إعلم أن إخوان الصدق هم خير مكاسب الدنيا : زينة في الرخاء ، وعُدة في الشدة ، ومعونة في المعاش والمعاد ، فلا تُفَرطَنَّ في اكتسابهم وابتغاء الوصلات والأسباب إليهم » . وقال له رجل : « أنا بالصديق آنس مني بالأخ » ، فقال : « صدقت ، الصديق نسيب الروح ، والأخ نسيب الجسم » وقال : « من سوء المجالسة أن الرجل تثقل عليه النعمة يراها بصاحبه ، فيكون ممن يتشفى به منه تصغير أمره وتكدير النعمة عنده ، بذكر الزوال والانتقال كأنه واعظ أو قاصّ ، ولا يخفى ذلك على من يُعنى به ، ولا ينزله منزلة الوعظ والإبلاغ ، بل الحسد والاستِرواح إلى غير راحته » وقال : « لا تلتمس غَلَبَة صاحبك والظفر به عند كل كلمة ، ولا تستطيلن عليه بظهور حجتك ، فان قوماً قد يحملهم حب الغلبة أن يتعقبوا الكلمة بعد ما تنسى ، يلتمسون بذلك الغلبة والاستطالة على الأصحاب ، وذلك في العقل ضعف ، وفي الأخلاق لؤم » .

١٢ــ ومما قال في اجتناب حديث تتبرم به النفوس : « إعلم أنه تكاد تكون لكل رجل غالبة حديث ، إما عن بلد من البلدان ، أو ضرب من

ضروب العلم ، أو صنف من صنوف الناس ، أو وجه من وجوه الرأي ، وعند ما يُغْتَرَم به الرجل من ذلك يبدو منه السخف ، ويعرف منه الهوى ، فاجتنب ذلك في كل موطن ، ثم عند أولي الأمر خاصة » .

١٣ — وقال في الابتعاد عن انتحال أقوال الأصدقاء : « إن سمعت من صاحبك كلاماً أو رأياً يعجبك ، فلا تنتحله تَزَيُّناً به عند الناس ، واكتف من التزين بأن تجتني الصواب إذا سمعته وتنسبه إلى صاحبه ، واعلم أن انتحالك ذاك سَخطة لصاحبك ، وأن فيه مع ذلك عاراً ، فإن بلغ ذلك بك أن تشير برأي الرجل ، وتتكلم بكلامه وهو يسمع ، جمعت مع الظلم قلة الحياء ، وهذا من سوء الأدب الفاشي في الناس ، ومن تمام حسن الخلق والأدب أن تسخو نفسك لأخيك بما انتحل من كلامك ورأيك ، وتَنْسُب إليه رأيه وكلامه ، وتزينه مع ذلك ما استطعت » . وقال : « إياك أن تبتدىء حديثاً ثم تقطعه كأنك رَوَّيت فيه ، ولكن اجعل ترويتك فيه قبل ابتدائه والتفوّه به ، فإن احتجان الحديث بعد افتتاحه سخف وغم » .

١٤ — ومما قال : « لتعرف العلماء حين تجالسهم أنك على أن تسمع أحرص منك على أن تقول . إن آثرت أن تفاخر أحداً ممن تستأنس إليه في لهو الحديث فاجعل غاية ذلك الجد ، ولا تَعْدُوَنَّ أن تتكلم فيه بما كان هزلاً ، فإذا بلغ الجدَّ أو قاربه فدعه ، ولا تخلطن بالجد هزلاً وبالهزل جدّاً ، فإنك إن خلطت بالجد هزلاً هَجَّنْتَه ، وإن خلطت بالهزل جدّاً كدَّرته ، غير أني علمت موطناً واحداً إن قدرت أن تَسْتَقبل به الجدَّ بالهزل أصبت الرأي ، وظهرت على الأقران ، وذلك أن يتوردكَ[1] متورد بالسفه والغضب ، فتجيبه إجابة الهازل برُحب من الذّرع ، وطلاقة من الوجه ، وثبات من المنطق » .

١٥ — وقال وهو مما يجب على كل عاقل أن يجعله نُصب عينه ، ويتأدب

---

(١) تورد : طلب الورد .

بأدبه . « تحرّز من سكر السلطة، وسكر العلم ، وسكر المنزلة، وسكر الشباب، فإنه ليس من هذا شيء إلا وهو ريح جِنـّة[١] تسلب العقل ، وتُذهب الوقار ، وتصرف القلب والسمع والبصر واللسان عن المنافع » .

١٦ – وقال فيما ينبغي أن يكون عليه المرء من الأخلاق : « ذلل نفسك بالصبر على جار السوء ، وعشير السوء ، وجليس السوء ، فإن ذلك ما لا يكاد يخطئك ، فإن الصبر صبران ، صبر الرجل على ما يكره ، وصبره عما يحب ، فالصبر على المكروه أكثرهما وأشبههما أن يكون صاحبه مضطرّاً ، واعلم أن اللئام أصبر أجساداً ، والكرام أصبر نفوساً ، وليس الصبر الممدوح بأن يكون جلد الرجل وَقَاحا[٢] ، أو رجله قوية على المشي ، أو يده قوية على العمل ، فإنما هذا من صفات الحمير ، ولكن أن يكون للنفس غلوباً ، وللأمور محتملاً ، وفي الضرّ متجملاً ، ولنفسه عند الرأي والحفاظ مرتبطاً ، وللحزم مؤثراً ، وللهوى تاركاً ، وللمشقة التي يرجو عاقبتها مستخفّاً ، وعلى مجاهدة الأهواء والشهوات مواظباً ، ولبصره بعزمه منفذاً » .

ومما قال : « لا تعتذرن إلا إلى من يحب أن يجد لك عذراً ، ولا تستعينن إلا بمن يحب أن يظفرك بحاجتك ، ولا تحدثن إلا من يرى حديثك مغنماً ما لم يغلبك الاضطرار » وقال : « إن كنت لا بد أن تكافيء بالعداوة ، فإياك أن تكافيء عداوة السر بعداوة العلانية ، وعداوة الخاصة بعداوة العامة » وقال : « لا تعجل بالثواب ولا بالعقاب ، فان ذلك أدوم لخوف الخائف ورجاء الراجي » وقال : « إعلم أن من الناس ناساً يبلغ بهم الغضب إذا غضبوا أن يقطب أحدهم في غير وجه من أغضبه ، ويسيء اللفظ والعقوبة لمن لا ذنب له ، ويبلغ منه الرضى إذا رضي أن يتبرع بالأمر ذي الخطر لمن ليس بمنزلة ذلك عنده ، ويعطي من لم يستحق العطاء ، ويكرم من لا يستوجب

---

(١) الجنة الجنون .
(٢) صلباً .

الكرامة ، فاحذر هذا الباب فانه غير لائق بذوي الألباب » .

١٧ ـ وقال في النساء وفي رغبات الرجال الذواقين : « إعلم أن من أوقع الأمور في الدين ، وأنهكها للجسد ، وأتلفها للمال ، وأضرّها بالعقل ، وأسرعها في ذهاب الجلالة والوقار الغرام بالنساء . ومن البلاء على المغرم بهن أنه لا ينفك يأجِم[١] ما عنده ، وتطمح عيناه إلى ما ليس عنده منهن ؛ وإنما النساء أشباه ، وما يُرى في العيون والقلوب من فضل مجهولاتهن على معروفاتهن باطل وخُدعة ، بل ما يرغب عنه الراغب مما عنده أفضل مما تتوق إليه نفسه ، وإنما المترغّب عما في رحله منهن إلى ما في رحال الناس ، كالمترغب عن طعام بيته إلى ما في بيوت الناس ، بل النساء بالنساء أشبه من الطعام بالطعام ، وما في رحال الناس من الأطعمة أشد تفاضلاً وتفاوتاً مما في رحالهم من النساء .

ومن العجب أن الرجل الذي لا بأس في لُبّه ، يرى المرأة من بعيد متلففة في ثيابها ، فيصور لها في قلبه الحسن والجمال ، حتّى تعلق بها نفسه ، من غير رؤية ولا خبر مخبر ، ثم لعله يهجم منها على أقبح القبح وأدمّ الدمامة ، فلا يعظه ذلك عن أمثالها ، ولا يزال مشغوفاً بما لم يذق ، حتّى لو لم يبق في الأرض غير امرأة واحدة لظن أن لها شأناً غير شأن ما ذاق ، وهذا هو الحمق والشقاء . ومن لم يجم نفسه ويَظْلِفْها[٢] ويَحْلأْها[٣] عن الطعام والشراب والنساء في بعض ساعات شهوته وقدرته ، كان أيسر ما يصيبه من وبال أمره انقطاعُ تلك الذات عنه ، بخمود نار شهوته ، وضعف عوامل جسده ؛ وقلّ من تجد إلا مخادعاً لنفسه في أمر جسده عند الطعام والشراب والحِمْية والدواء ، وفي أمر مروءته عند الأهواء والشهوات ، وفي أمر دينه عند الريبة

---

(١) أجم الطعام وغيره يأجمه كرهه ومله .
(٢) ظلف نفسه عنه : منعها من ان تفعله أو تأتيه أو كفها عنه . وأجم نفسه : أراحها .
(٣) يطردها ويمنعها .

والشبهة والطمع . » والحكمة الأخيرة من أجَلّ ما يُتعلم ويتفهم .

١٨ — وقال فيما يجب أن تعامل به المرأة في المجتمع : « إياك ومشاورة النساء فإن رأيهن إلى أفْن(١) ، وعزمهن إلى وَهن ، واكفف عليهن من أبصارهن بحجابك إياهن ، فإن شدة الحجاب خير لك من الارتياب ، وليس خروجهن بأشد من دخول من لا تثق به عليهن ، فإن استطعت أن لا يعرفن غيرك فافعل ، ولا تُمَلِّكَنّ امرأة من الأمر ما جاوز نفسها ، فإن ذلك أنعم لحالها ، وأرخى لبالها ، وأدوم لجمالها ؛ وإنما المرأة ريحانة ، وليست بقهرمانة (٢) ، فلا تعدُ بكرامتها نفسها ، ولا تُعطها أن تشفع عندك لغيرها ، ولا تطل الخلوة مع النساء فيَمْلَلْنَك وتَمَلّهن ، واستبق من نفسك بقية فإن إمساكك عنهن وهن يُردنك باقتدار ، خير من أن يهجمن عليك على انكسار . وإياك والتغاير في غير موضع غيرة ، فإن ذلك يدعو الصحيحة منهن إلى السقم » . وقوله وإنما المرأة ريحانة وليست بقهرمانة من أجمل الحكم والكلام المحقق .

١٩ — وقال في العالم والمتعلم : « لا يعجبنك العالم ما لم يكن عالماً بمواضع ما يعلم » . وقال : « حبب إلى نفسك العلم حتى تألفه وتلزمه ، ويكونَ هو لهوك ولذتك وسلوتك وبُلغتك ، واعلم أن العلم علمان ، علم للمنافع وعلم لتزكية العقل ، وأفشى العلمين وأجداهما أن يَنْشَط له صاحبه من غير أن يُحرَّض عليه علم المنافع ، وللعلم الذي هو ذكاء العقول وصقالها وجلاؤها ، فضيلة منزلة عند أهل الفضل في الألباب » .

٢٠ — وقال في نظام العمل : « إذا تراكمت الأعمال عليك فلا تلتمس الرَّوح(٣) في مدافعتها بالرَّوغان منها ، فإنه لا راحة لك إلا في اصدارها ،

---

(١) الأفن : ضعف الرأي والعقل .
(٢) القهرمان بفتح القاف : الوكيل ، فارسية معربة .
(٣) الروح : الراحة . الروغان : الميل والحيد عن الشيء .

وإن الصبر عليها هو يخففها ، وإن الضجر منها هو يراكمها عليك ، فتعهد من ذلك في نفسك خَصلة قد رأيتها تعتري بعض أصحاب الأعمال ، إن الرجل يكون في أمر من أمره فيرِدُ عليه شغل آخر ، ويأتيه شاغل من الناس يكره تأخيره ، فيكدر ذلك بنفسه تكديراً يفسد ما كان فيه وما ورد عليه ، حتى لا يحكم واحداً منهما ، فإن ورد عليك مثل ذلك فليكن معك رأيك الذي تختار به الأمور ، ثم اختر أوْلى الأمرين بشغلك فاشتغل به حتى تَفْرُغ منه ، ولا يَعْظُمن عليك فوت ما فات وتأخير ما تأخر ، إذا أعملتَ الرأي مَعْمَله ، وجعلت شغلك في حقه » .

٢١ ـ وقال في معنى التوقي من أكاذيب الناس ونقلها : « إياك والأخبار الرائعة وتحفّظ منها ، فإن الإنسان من شأنه الحرص على الإخبار لا سيما ما راع منها ، فأكثر الناس من يحدث بما سمع ولا يبالي ممن سمع ، وذلك مفسدة للصدق ومَرْزِئة[1] بالرأي ، فإن استطعت ألا تُخبر بشيء إلا وأنت بِه مصدق ، وألا يكون تصديقُك إلا ببرهان فافعل . ولا تقل كما يقول السفهاء أخبر بما سمعت ، فإن الكذب أكثر ما أنت سامع ، وإن السفهاء أكثر من هو قائل ، وإنك إن صِرْتَ للأحاديث واعياً وحاملاً ، كان ما تَعي وتحمل عن العامة أكثر مما يخترع المخترع بأضعاف » .

٢٢ ـ وقال فيما يتأدب به السلطان : « إنك إن تلتمس رضا جميع الناس تلتمس ما لا يدرك ، وكيف يتفق لك رضا المتخالفين ، أم ما حاجتك إلى رضا من رضاه الجور ، وإلى موافقة من موافقته الضلالة والجهالة ، فعليك بالتماس رضا الأخيار وذوي العقول ، فإنك متى تصب ذلك تضع عنك مؤونة ما سواه » .

٢٣ ـ « إحرص أن تكون خبيراً بأمور عمالك ، فإن المسيء يَفْرَق من خبرتكَ قبل أن تصيبه عقوبتك ، وإن المحسن يستبشر بعلمكَ فيه ، قبل أن

(١) المرزئة كالرزء والرزيئة : المصيبة .

يأتيه معروفك . ليعرف الناس من أخلاقك أنك لا تعاجـل بالثواب ولا بالعقاب ، فان ذلك أدوم لخوف الخائف ورجاء الراجي » .

٢٤ ـ وقال من نصائحه للملوك : « رأس الحزم للملك معرفته بأصحابه ، وإنزالهم منازلهم ، واتهام بعضهم على بعض ، فإنه إن وجد بعضهم إلى إهلاك بعض سبيلاً ، أو إلى تهجين بلاءِ المبلين ، وإحسان المحسنين ، والتغطية على إساءة المسيئين ، سارعوا إلى ذلك ، واستحالوا محاسن أمور الملك ، وهجنوا مخارج رأيه ، ولم يبرح منهم حاسد قد أفسد ناصحاً ، وكاذباً قد اتهم أميناً ، ومحتال قد أعطب بريئاً ، وليس ينبغي للملك أن يفسد أهل الثقة بغير أمـر يعرفه ، بل ينبغي في فضل حلمه ، وبسطة علمه ، الحيطة على رأيه فيهم ، والمحاماة على حرمتهم وذمامهم ، وألا يسرع إلى إفسادهم ، ولا يغتفر مع ذلك في زلة إن زلها أحد منهم ؛ ولم يزل جهال الناس يحسدون علماءهم ، وجبناؤهم شجعانهم ، ولئامهم كرماءهم ، وفجارهم أبرارهم ، وشرارهم خيارهم » .

٢٥ ـ وقال : « السلطان لا يقرب الرجال على قرب آبائهم ، ولا يباعدهم لبعدهم ، ولكنه ينزلهم على قدر ما عند كل امرىء منهم فيما يُنتفع به ، وقد يكون الجُرْذُ في البيت جاراً مجاوراً ، فيُنفى إذا كان ضاراً مؤذياً ، ولما كانت في البازي منفعة وهو وحش ، اقْتُنِي واتخذ » .

وقال أيضاً فيما يتأدب به السلطان : « عوّد نفسك الصبر على ما خالفك من رأي ذوي النصيحة ، والتجرع لمرارة قولهم وعذلهم ، ولا تسهلن سبيل ذلك إلا لأهل الفضل والمروءة والعقل في ستر ، لئلا ينتشر من ذلك ما يجتريء به سفيه ، أو يستخف به شانيء » .

٢٦ ـ « إن كان سلطانك عند جِدّة دولة فرأيت أمراً استقام بغير رأي ، أو أعواناً أجزوا بغير نَيْل ، وعملاً أنجح بغير حزم ، فلا يغرنك ذلك ، ولا تستنيمن إليه ، فإن الأمر الجديد مما يكون له مهابة في أنفس العوام ،

وحلاوة في قلوب قوم آخرين ، فيعين قوم على أنفسهم ، ويعين قوم بما قبلهم ، ويستتب ذلك الأمر غير طويل ، ثم تصير الشؤون إلى حقائقها وأصولها ، فما كان شيء من الأمر على غير أركان وثيقة ، ولا دعائم محكمة ، أوشك أن يتداعى ويتصدع » .

٢٧ ــ وقال : « إذا حاججت فلا تغضب ، فإن الغضب يدفع عنك الحجة ، ويظهر عليك الخصم ، ومن ذلك تعلموا ثلاث خصال من خمس : التربية من الكراكي ، والبخل وادخار القوت من الفأر والنمل ، والبكور من الغراب والديك » ومن كلامه : « ثلاثة إن أقدموا على ثلاث من غير ثلاث ، فرأوا ما كرهوا ، فلا يلومُنّ إلا أنفسهم : من خاصم من غير حجة فخصم[١] ، أو صارع من غير قوة فصرع ، أو حارب بغير عُدة فهزم » .

٢٨ ــ وقال : « أربعة ، المال إليهم أحب من أنفسهم : راكب البحر للتجارة ، والمحارب بالأجرة ، والناقب في خزانة الملك للسرقة ، والحواء يستزيد الحية طمعاً في الهدية » وعنه أيضاً : « أربعة ضائعة : سراج في الشمس ، ومطر في سبخة[٢] ، وحسناء عند عِنّين ، وطعام عند سكران » وعنه أيضاً : « أربعة يعرفون في أربع أحوال : الشجاع في الحرب ، والفرس في الميدان ، والحراث في الحراثة ، والصديق عند الحاجة إليه » وعنه أيضاً : « العداوة الطبيعية أربع : عداوة الذئب للغنم ، والبازي للقَبَج[٣] ، والهر للفأر ، والغراب للبوم » .

٢٩ ــ ومما نقل من كلمه وجمله : إذا جعل الكلام مثلاً كان أوضح للمنطق ، وآنق للمسمع ، وأوسع لشعوب الحديث . لا تعرضَنّ عقلك على الناس ، فإذا اضطرك أمر فكن كصاحب الشطرنج يبني أمره على القائمة ،

---

(١) خصمه غلبه .
(٢) السبخة محركة ومسكنة : أرض ذات نز وملح .
(٣) القبج : الحجل .

فان وجد ضربة غريبة انتهزها ، وإياك أن تبتدىء في مجلس لم تسبر عقول أصحابه ، فبين العقول بون بعيد. الإفراط في التواضع يوجب المذلة ، والإفراط في المؤانسة يوجب المهانة. كثرة المُنَى تـُخـْلق العقل وتطرد القناعة وتفسد الحس. خمس نفر المال أحب إليهم من أنفسهم : المقاتل بالأجرة ، وراكب البحر للتجارة ، وحافر البئر والأسراب ، والمـــدل بالسباحة ، والمخاطر على السم. وقال : لينفق ذو المال ماله في ثلاثة مواضع : في الصدقة إن أراد الآخرة ، وفي مصانعة السلطان إن أراد الذكر ، وفي النساء إن أراد العيش. وقال : إن صاحب الدنيا يطلب ثلاثة ولا يدركها إلا بأربعة ، فأما الثلاثة التي يطلب ، فالسعة في المعيشة ، والمنزلة في الناس ، والزاد إلى الآخرة ؛ وأما الأربعة التي تدرك بها هذه الثلاثة ، فاكتساب المال من أحسن وجوهه ، وحسن القيام عليه ، ثم التثمير له ، ثم إنفاقهُ فيما يصلح المعيشة ويرضي الأهل والإخوان ، ويعود في الآخرة نفعه ، فإن أضاع شيئاً من هذه الأربعة لم يدرك شيئاً من هذه الثلاثة : إن لم يكتسب لم يكن له مال يعيش به ، وإن كان ذا مال واكتساب ولم يحسن القيام عليه ، يوشك أن يفنى ويبقى بلا مال ، وإن هو وضعه ولم يثمره لم يمنعه قلة الإنفاق من سرعة النفـــاد ، كالكحل الذي إنما يؤخذ منه على الميل مثل الغبار ، ثم هو مع ذلك سريع فناؤه ، وإن اكتسب وأصلح وثـَمـَّر ، ولم ينفق الأموال في أبوابها ، كان بمنزلة الفقير الذي لا مال له ، ثم لا يمنع ذلك ماله من أن يفارقه ، ويذهب حيث لا منفعة فيه ، كحابس الماء في الموضع الذي تنضب فيه المياه ، إن لم يخرج منه بقدر ما يدخل فيه تمصل[1] وسال من نواحيه فيذهب المال ضياعا.

هذه بعض حكم ابن المقفع لقطناها ، وكلامه ليس مما يلتقط منه ويطرح منه ، بل كله سلسلة واحدة ونمط واحد ، وقد ختم كتابه اليتيمة بهذه الجملة المعجبة والوصف الغريب ، قال ، وهي آية الإبداع :

---

(١) مصل قطر .

٣٠ ــ « إني مخبرك عن صاحب كان أعظم الناس في عيني ، وكان رأس ما أعظمه عندي صِغَر الدنيا في عينه ؛ كان خارجاً من سلطان بطنه فلا يشتهي ما لا يجد ، ولا يُكثر إذا وجد ، وكان خارجاً من سلطان فرجه فلا تدعوه إليه مؤونة ، ولا يستخف له رأياً ولا بدناً ، وكان خارجاً من سلطان الجهالة فلا يُقدم إلا على ثقة أو منفعة ، وكان أكثَر دهره صامتاً ، فإذا قال بذَّ القائلين ، وكان يُرى مُتَضَعَّفاً[1] مستضعفاً ، فإذا جَدَّ الجِدُّ فهو الليث عادياً ؛ وكان لا يدخل في دعوى ، ولا يَشْرك في مراء ، ولا يدلي بحجة ، حتى يجد قاضياً فَهِماً وشهوداً عدولا ، وكان لا يلوم أحداً على ما قد يكون العذر في مثله ، حتى يعلم ما اعتذاره ؛ وكان لا يشكو وَجَعاً إلا إلى من يرجو عنده البرء ، ولا يصحب إلا من يرجو عنده النصيحة ، وكان لا يتبرم ولا يتسخط ، ولا يتشهى ولا يتشكى ، ولا ينتقم من العدو ولا يغفل عن الولي ، ولا يخص نفسه دون إخوانه بشيء من اهتمامه وحيلته وقوته ، فعليك بهذه الأخلاق إن أطقت ، ولن تطيق ، ولكن أخذ القليل خير من ترك الجميع ، وبالله التوفيق » .

٣١ ــ من كليلة ودمنة : قال بيدبا إني وجدت الأمور التي اختص بها الإنسان من بين سائر الحيوان أربعة أشياء ، وهي جِماع ما في العالم ، وهي الحكمة والعفة والعقل والعدل ، والعلم والأدب والروية داخلة في باب الحكمة ، والحلم والصبر والوقار داخلة في باب العقل ، والحياء والكرم والصيانة والأنَفة داخلة في باب العفة ، والصدق والإحسان والمراقبة وحسن الخلق داخلة في باب العدل ؛ وهذه هي المحاسن ، وأضدادها هي المساوىء ، فمتى كملت هذه في واحد لم يُخرجه النقص في نعمته إلى سوء الحظ من

---

(١) ضعفه تضعيفاً : عده ضعيفاً كاستضعفه وتضعفه ، وفي الحديث كل ضعيف متضعف.

دنياه ، ولا إلى نقص في عقباه ، ولم يتأسف على ما لم يُعِن التوفيق ببقائه ، ولم يُحزنه ما تجري به المقادير في ملكه ، ولم يُدْهَش عند مكروه ، فالحكمة كنز لا يفنى على الإنفاق ، وذخيرة لا يُضربُ لها بالإملاق[١] ، وحُلة لا تَخلق جِدَّتها ، ولذة لا تصرَم مدتها .

٣٢– « واعلم أيها الملك أنه من لم يقبل من نصائحه ما يثقل عليه مما ينصحون له لم يحمد رأيه ، كالمريض الذي يدع ما يبعث له الطبيب ، ويَعمِد إلى ما يشتهيه ، وحَقّ على مؤازر السلطان أن يبالغ في التحضيض له على ما يزيد سلطانه قوة ويَزينه ، والكفّ عما يضيره ويَشينه ، وخير الإخوان والأعوان أقلهم مداهنة في النصيحة ، وخير الأعمال أحمدها عاقبة ، وخير النساء الموافقة لبعلها ، وخير الثناء ما كان على لسان الأخيار ، وخير السلطان ما لم يخالطه بطر ، وخير الأخلاق أعونها على الورع ، وقد قيل لو أن امرأ توسد النار ، وافترش الحيات كان أحق ألا يَهنِئه النوم ، والرجل إذا أحس من صاحبه بعداوة يريده بها لا يطمئن إليه ، وأعجز الملوك آخذهم بالهوينى ، وأقلهم نظراً في مستقبل الأمور وأشبههم بالفيل الهائج المغتلم[٢] الذي لا يلتفت إلى شيء ، فان حزبه[٣] أمر تهاون به ، وإن أضاع الأمور حمل ذلك على قرنائه . وقال : « إن كان للملوك فضل في مملكتها ، فان للحكماء فضلاً في حكمتها أعظم ، لأن الحكماء أغنياء عن الملوك بالعلم ، وليس الملوك بأغنياء عن الحكماء بالمال » .

٣٣ – وقال : « ومن ذا الذي غالب القدر ، ومن ذا الذي بلغ من الدنيا جسيماً من الأمور فلم يبطر ، ومن ذا الذي طلب من اللئام فلم يحرم ، ومن ذا الذي خالط الأشرار فسلم ، ومن ذا الذي صحب السلطان فدام له منه

---

(١) الاملاق الفقر ، وضرب له بحث عنه تقول ضربت له الأرض كلها فلم أجده .
(٢) المغتلم الذي غلبته الشهوة .
(٣) حزبه الأمر : نابه واشتد عليه .

الأمن والإحسان ، ولقد صدق الذي قال : مثل السلاطين في قلة وفائهم لمن صحبهم ، وسخاء أنفسهم بمن فقدوا من قرنائهم كمثل البَغِيّ كلما فقدت واحداً جاء آخر » .

٣٤ ــ وقال : « فقد علمتم نتيجة رأيي وصحة فكري ، وإني لم آته جهلاً به ، لأني كنت أسمع من الحكماء قبلي تقول إن الملوك لها سكرة كسكرة الشراب ، فالملوك لا تفيق من السكرة إلا بمواعظ العلماء وآداب الحكماء . والواجب على الملوك أن يتعظوا بمواعظ العلماء ، والواجب على العلماء تقويم الملوك بألسنتها ، وتأديبها بحكمتها ، وإظهار الحجة البينة اللازمة لهم ، ليرتدعوا عما هم عليه من الاعوجاج ، والخروج عن العدل ؛ فوجدت ما قالت العلماء فرضاً واجباً على الحكماء لملوكهم ، ليوقظوهم من سِنة سكرتهم ، كالطبيب الذي يجب عليه في صناعته حفظ الأجساد على صحتها ، أو ردّها إلى الصحة ، فكرهت أن يموت أو أن أموت ، وما يبقى على الأرض إلا من يقول : إنه كان بيدبا الفيلسوف في زمان دَبْشَلِيمَ الطاغي فلم يرده عما كان عليه . فإن قال قائل إنه لم يمكنه كلامه خوفاً على نفسه ، قالوا : كان الهرب منه ومن جواره أولى به ، والانزعاج عن الوطن شديد ، فرأيت أن أجود بحياتي فأكون قد أتيت فيما بيني وبين الحكماء بعدي عُذراً ، فحملتها على التغرير أو الظفر بما أريده ؛ وكان من ذلك ما أنتم معاينوه ؛ فإنه يقال في بعض الأمثال إنه لم يبلغ أحد مرتبةً إلا بإحدى ثلاث : إما بمشقة تناله في نفسه ، وإما بوضيعة في ماله ، أو وَكْس[1] في دينه ؛ ومن لم يركب الأهوال لم ينل الرغائبَ .

٣٥ ــ وقد يقال إلزم ذا العقل وذا الكرم ، واسترسل إليهما ، وإياك مفارقتهما ، واصحب الصاحب إذا كان عاقلاً كريماً ، أو عاقلاً غير كريم ، أو كريماً غير عاقل ، فالعاقل الكريم كامل ، والعاقل غير الكريم اصحبه ،

---

(١) الوضيعة : الخسارة ، والوكس : النقصان .

وإن كان غير محمود الخليقة ؛ واحذر من سوء أخلاقه ، وانتفع بعقله ، والكريم غير العاقل الزمه ولا تدع مواصلته ، وإن كنت لا تحمد عقله ، وانتفع بكرمه وانفعه بعقلك ، والفرارَ كل الفرار من اللئيم الأحمق .

٣٦ ــ فقلت في نفسي : ما الإخوان ولا الأعوان ولا الأصدقاء إلا بالمال ، ووجدت من لا مال له إذا أراد أمراً قعد به العُدْم[١] عما يريده ، كالماء الذي يبقى في الأودية من مطر الشتاء ، لا يمر إلى نهر ، ولا يجري إلى مكان ، فتشربه أرضه ؛ ووجدت من لا إخوان له لا أهل له ، ومن لا ولد له لا ذكر له ، ومن لا مال له لا عقل له ولا دنيا ولا آخرة ، لأن الرجل إذا افتقر قطعه أقاربه وإخوانه ؛ فإن الشجرة النابتة في السِّباخ ، المأكولة من كل جانب ، كحال الفقير المحتاج إلى ما في أيدي الناس ؛ ووجدت الفقر رأس كل بلاء ، وجالباً إلى صاحبه كل مقت ، ومعدن النميمة ؛ ووجدت الرجل إذا افتقر اتهمه من كان له مؤتمناً ، وأساء به الظن من كان يظن به حسناً ، فإن أذنب غيره كان هو للتهمة موضعاً ، وليس من خَلّة[٢] هي للغني مدح إلا وهي للفقير ذم ، فإن كان شجاعاً قيل أهوج ، وإن كان جواداً سُمّي مبذراً ، وإن كان حليماً سمي ضعيفاً ، وإن كان وقوراً سمي بليداً ؛ فالموت أهون من الحاجة التي تحوج صاحبها إلى المسألة ، ولا سيما مسألة الأشحاء واللئام ، فإن الكريم لو كلف أن يدخل يده في فم الأفعى فيخرجَ منه سماً فيبتلعه ، كان ذلك أهون عليه وأحب إليه من مسألة البخيل اللئيم .

٣٧ ــ ثم تذكرت فوجدت البلاء في الدنيا إنما يسوقه الحرص والشَرَه ، ولا يزال صاحب الدنيا في بلية وتعب ونصب ، ووجدت تجشم الأسفار البعيدة في طلب الدنيا أهونَ عليَّ من بسط اليد إلى السخي بالمال ، ولم أرَ كالرضى شيئاً ، ووجدت العلماء قد قالوا : لا عقل كالتدبير ، ولا ورَع

---

(١) العدم : الفقر .

(٢) الخلة بفتح الخاء : الخصلة وجمعها خلال .

ككف الأذى ، ولا حسب كحسن الخلق ، ولا غنى كالرضى ، وأحق ما صبّر الإنسان على الشيء نفسه ، وأفضل البر الرحمة ، ورأس المودة الاسترسال(١) ، ورأس العقل معرفة ما يكون مما لا يكون . وقالوا : الخرَس خير من اللسان الكذوب ، والضر والفقر خير من النعمة والسعة من أموال الناس .

٣٨ — واعلم أن حسن الكلام لا يتم إلا بحسن العمل ، وأن المريض الذي قد علم دواء مرضه إن لم يتداوَ به لم يُغن علمه به شيئاً ، ولم يجد لدائه راحة ولا خفة ؛ فاستعمل رأيك ، ولا تحزن لقلة المال ، فإن الرجل ذا المروءة ، قد يكرم على غير مال ، كالأسد الذي يُهاب وإن كان رابضاً ، والغني الذي لا مروءة له يهان وإن كان كثير المال ، كالكلب لا يُحفل به وإن طُوِّق وخُلخل(٢) بالذهب ؛ فلا تَكْبُرَنّ عليك غربتك ، فإن العاقل لا غربة له ، كالأسد الذي لا ينقلب إلا معه قوته ؛ فلتحسن تعهدك لنفسك ، فإنك إذا فعلت ذلك جاء الخير يطلبك ، كما يطلب الماء انحداره . وإنما جعل الفضل للحازم البصير ، وأما الكسلان المتردد فإن الفضل لا يصحبه ، كما أن المرأة الشابة لا تطيب لها صحبة الشيخ الهرم ؛ وقد قيل في أشياء ليس لها ثبات ولا بقاء : ظل الغمامة في الصيف ، وخِلّة الأشرار ، والبناء على غير أساس ، والنبأ الكاذب ، والمال الكثير ؛ فالعاقل لا يحزن لقلته ، ولكن ماله وعقله وما قدم من صالح عمله ، فهو واثق بأنه لا يسلب ما عمل ، ولا يؤاخذ بشيء لم يعمله ؛ وهو خليق أن لا يغفل عن أمر آخرته ، فإن الموت لا يأتي إلا بغتة ليس له وقت معين .

٣٩ — قلما ظفر أحد بغيٍّ ولم يطغَ ، وقلما حرص الرجل على النساء ولم يفتضح ، وقلَّ من وثق بوزراء السوء وسلم من أن يقع في المهالك .

---

(١) استرسل إليه : انبسط واستأنس .

(٢) جعل له طوق وخلخال .

٤٠ ــ ومنه : وقد قيل إن خصالاً ثلاثاً لن يستطيعها أحد إلا بمعونة من علو همة وعظيم خَطر ، منها صحبة السلطان ، وتجارة البحر ، ومناجزة العدو ؛ وقد قالت العلماء في الرجل الفاضل الرشيد : إنه لا ينبغي أن يُرى إلا في مكانين ، ولا يليق به غيرهما : إما مع الملوك مكرَّماً أو مع النساك متعبداً ، كالفيل إنما جماله وبهاؤه في مكانين : إما أن تراه وحشياً أو مركباً للملوك .

٤١ ــ ووجدت صرعة اللين والرفق أسرع وأشد استئصالاً للعدو من صرعة المكابرة ، فإن النار لا تزيد بحدتها وحرّها إذا أصابت الشجرة على أن تحرق ما فوق الأرض منها ، والماء بلينه وبرده يستأصل ما تحت الأرض منها ؛ ويقال أربعة أشياء لا يستقل قليلها : النار والمرض والعدو والدَّيْن . قال الغراب : وكلٌّ ذلك كان من رأي الملك وأدبه وسعادة جَدّه ؛ وأنه كان يقال : إذا طلب اثنان أمراً ظفر به منهما أفضلهما مروءة ، فإن اعتدلا في المروءة فأشدهما عزماً ، فإن استويا في العزم فأسعدهما جَدّاً ؛ وكان يقال : من حارب الملك الحازم الأريب المتضرع (١) الذي لا تبطره السراء ولا تدهشه الضراء ، كان هو داعيَ الحتف إلى نفسه ، ولا سيما إذا كان ذلك أيها الملك العالم بفروض الأعمال ، ومواضع الشدة واللين ، والغضب والرضى ، والمعاجلة والأناة ، الناظر في أمر يومه وغده وعواقب أعماله . قال الملك للغراب : بل برأيك وعقلك ونصيحتك ويُمن طالعك كان ذلك ، فإن رأي الرجل الواحد العاقل الحازم أبلغ في هلاك العدو من الجنود الكثيرة من ذوي البأس والنجدة والعدد والعُدة .

٤٢ ــ ينبغي للعاقل أن لا يغفل عن التماس ما في نفس أهله وولده وإخوانه وصديقه ، عند كل أمر وفي كل لحظة وكلمة ، وعند القيام والقعود وعلى كل

(١) التضريع : التقرب في روغان كالتضرع .

حال ، فإن ذلك كله يشهد على ما في القلوب . وقد قالت العلماء : إذا دخل قلبَ الصديق من صديقه ريبة فليأخذ بالحزم في التحفظ منه ، وليتفقد ذلك في لحظاته وحالاته ، فإن كان ما يظن حقاً ظفر بالسلامة ، وإن كان باطلاً ظفر بالحزم ولم يضرّه ذلك .

٤٣ ــ ومنه : وإنما ضربت لك هذا المثل لتعلم أنك إذا غدرت بصاحبك فأنت لا شك بمن سواه أغدر ، وأنه إذا صاحب أحد صاحباً وغدر بمن سواه ، فقد علم صاحبُه أنه ليس عنده للمودة موضع ، فلا شيء أضيعُ من مودة تُمنَح من لا وفاء له ، وحِباءٍ يُصطنع عند من لا شكر له ، وأدب يُحمل إلى من لا يتأدب به ولا يسمعه ، وسرّ يُستودع عند من لا يحفظه ، فإن صحبة الأخيار تورث الخير ، وصحبة الأشرار تورث الشر ، كالريح إذا مرت بالطّيِّب حملت طيباً ، وإذا مرت بالنتن حملت نَتَناً .

٤٤ ــ قال الملك : لا خير في من لا يستطيع الإعراض عما في نفسه حتى ينساه ويهمله ، فلا يذكرَ منه شيئاً ، ولا يكونَ له في نفسه موقع ؛ قال فَنْزَةُ : إن الرجل الذي في باطن قدمه قَرحة إن هو حرص على المشي ، فلا بد أن تُنْكأ قرحته ، والرجل الأرمدَ العين إذا استقبل بها الريح تعرّض لأن تزداد رَمَداً ، وكذلك الواتر إذا دنا من الموتور[1] فقد عرض نفسه للهلاك . ولا ينبغي لصاحب الدنيا إلا توقي المهالك والمتالف ، وتقدير الأمور وقلة الاتكال على الحَوْل والقوة ، وقلة الاغترار بمن لا يؤمن ، فإنه من اتكل على قوته فحمله ذلك على أن يسلك الطريق المخوف فقد سعى في حَتْف نفسه ، ومن لا يُقدّر لطاقته طعامَه وشرابَه ، وحَمّل نفسه ما لا تطيق ولا تحمل فقد قتل نفسه ، ومن لم يُقَدّر لقمته وعَظّمها فوق ما يسع فُوه فربما غصّ بها فمات . ومن اغترّ بكلام عدوه وانخدع له وضيع الحزم فهو أعدى لنفسه من عدوه . وليس لأحد النظر في القدر الذي لا يدري ما

(١) الموتور : من قتل له قتيل فلم يدرك بدمه .

يأتيه منه ولا يُصرف عنه ، ولكن عليه العملُ بالحزم والأخذُ بالقوة ، ومحاسبة نفسه في ذلك ، والعاقل لا يثق بأحد ما استطاع ، ولا يُقيم على خوف وهو يجد عنه مَذْهباً ؛ وأنا كثير المذاهب ، وأرجو أن لا أذهب وجهاً إلا أصبتُ فيه ما يُغنيني ، فإن خِلالاً خمساً من تزودهن كفَيْنَه في كل وجه ، وآنسنه في كل غربة ، وقرّبن له البعيد ، وأكسبنه المعاش والإخوان : أولاهن كف الأذى ، والثانية حسن الأدب ، والثالثة مجانبة الرِّيَب ، والرابعة كرم الخُلق ، والخامسة النُّبل في العمل . وإذا خاف الإنسان على نفسه شيئاً طابت نفسه عن المال والأهل والولد والوطن ، فإنه يرجو الخَلَف من ذلك كله ، ولا يرجو عن النفس خَلَفاً . وشرُّ المال ما لا إنفاق منه ، وشرّ الأزواج التي لا تُؤاتي بعلها ، وشر الولد العاصي العاقُّ والديه ، وشر الإخوان الخاذل لأخيه عند النكبات والشدائد ، وشر الملوك الذي يخافه البريء ولا يواظب على حفظ أهل مملكته ، وشر البلاد بلادٌ لا خِصبَ فيها ولا أمن .

٤٥ — قال الفيلسوف : أيها الملك إن طبائع الخلق مختلفة ، وليس مما خلقه الله في الدنيا مما يمشي على أربع أو على رجلين أو يطيرُ بجناحين شيء هو أفضل من الإنسان . ولكن من الناس البَرُّ والفاجر ، وقد يكون في بعض البهائم والسباع والطير ما هو أوفى منه ذمة ، وأشد محاماة على حَرَمه ، وأشكر للمعروف وأقوم به ، وحينئذ يجب على ذوي العقول من الملوك وغيرهم أن يضعوا معروفهم مواضعه ، ولا يضيّعوه عند من لا يحتمله ولا يقوم بشكره ، ولا يصطنعون أحداً إلا بعد الخبرة بطرائقه ، والمعرفة بوفائه ومودته وشكره ، ولا ينبغي أن يختصوا بذلك قريباً لقرابته ، إذا كان غير محتمل للصنيعة ، ولا أن يمنعوا معروفهم ورِفدهم للبعيد ، إذا كان يقيهم بنفسه وما يقدر عليه ، لأنه يكون حينئذ عارفاً بحق ما اصطُنع إليه ، مؤدياً لشكر ما أنعم عليه ، محموداً بالنصح ، معروفاً بالخير ، صدوقاً عارفاً ، مؤثراً لحميد الفعال والقول ، وكذلك كل من عرف بالخصال المحمودة ، ووثق منه بها كان للمعروف موضعاً ، ولتقريبه واصطناعه أهلاً ، فإن الطبيب الرفيق العاقل

لا يقدر على مداواة المريض إلا بعد النظر إليه ، والجَسّ لعروقه ، ومعرفة طبيعته ، وسبب علته ، فإذا عرف ذلك كله حق معرفته أقدم على مداواته ، فكذلك العاقل لا ينبغي له أن يصطفي أحداً ولا يستخلصه إلا بعد الخبرة ، فإن من أقدم على مشهور العدالة من غير اختبار كان مخاطراً في ذلك ومشرفاً منه على هلاك وفساد . ومع ذلك ربما صنع الإنسان المعروف مع الضعيف الذي لم يجرب شكره ، ولم يعرف حاله في طبائعه ، فيقوم بشكر ذلك ويكافيء عليه أحسن المكافأة . وربما تحذر العاقل من الناس ولم يأمن على نفسه أحداً منهم . وقد يأخذ ابن عرس فيدخله في كمه ، ويخرجه من الآخر ، كالذي يحمل الطائر على يده ، فإذا صاد شيئاً انتفع به وأطعمه منه . وقد قيل لا ينبغي لذي العقل أن يحتقر صغيراً ولا كبيراً من الناس ، ولا من البهائم ، ولكنه جدير بأن يبلوهم ويكونَ ما يصنع إليهم على قدر ما يرى منهم .

٤٦ ـ لا يخفى فضل ذي العلم وإن أخفاه ، كالمسك يخبى ويستر ، ثم لا يمنع ذلك رائحته أن تفوح . الرجل ذو المروءة يكرم على غير مال كالأسد يهاب وإن كان رابضاً ، والرجل الذي لا مروءة له يهان وإن كان غنياً ، كالكلب يهون على الناس وإن عسّ[1] وطوّف . المودة بين الصالحين سريع اتصالها بطيء انقطاعها ، كآنية الذهب التي هي بطيئة الانكسار ، هينة الإعادة ، والمودة بين الأشرار سريع انقطاعها بطيء اتصالها ، كآنية الفخار يكسرها أدنى شيء ولا وصل لهـا . لا يرد بأس العدو القوي بمثل التذلل له ، كما أن العشب إنما يسلم من الريح العاصف بلينه لهـا وانثنائه معها . لا يجب للمذنب أن يفحص عن أمره لقبح ما ينكشف عنه كالشيء المنتّن كلما أثير ازداد نتناً . من صنع معروفاً لعاجل الجزاء فهو كملقي الحب للطير لا لينفعها بل ليصيدها به . المال إذا كان له مدد يجتمع منه ولم يصرف في الحقوق أسرع إليه الهلاك من كل وجه ، كالماء إذا اجتمع في موضع ولم يكن لـه

---

(١) عس : طاف بالليل .

طريق إلى النفوذ تفجر من جوانبه فضاع . الأدب يُذهب عن العاقل السكر ، ويزيد الأحمق سكراً ، كالنهار يزيد البصير بصراً ، ويزيد الخفاش سوء بصر . الدنيا كدودة القز لا تزداد بالإبريسم على نفسها لفاً ، إلا ازدادت من الخروج بعداً . إذا عثر الكريم لم ينتعش إلا بكريم ، كالفيل إذا تَوحَّل لم يقلعه إلا الفيلة . يبقى الصالح من الرجال صالحاً حتى يصاحب فاسداً ، فإذا صاحبه فسد ، مثل مياه الأنهار تكون عذبة حتى تخالط ماء البحر ، فإذا خالطته ملحت .

* * *

قصدنا بالتوسع في النقل من حكم ابن المقفع لتكون من المستفيد على طرف الثمام (١) ، ويعاور تلاوتها كلما اتسع له وقته ، ويتدبر ما فيها من المعاني والأفكار ، ليتخذ منها عوناً على تفهم الحياة والمجتمع ، ويجعل هذا الكلام المنظم درساً يمعن في تبحره وتدبره ، كما قال هو في غرض كتابه كليلة ودمنة « وينبغي لمن قرأ هذا الكتاب أن يعرف الوجوه التي وضعت له ، وإلى أي غاية جرى مؤلفه فيه عندما نسبه إلى البهائم ، وأضافه إلى غير مُفْصِح ، وغير ذلك من الأوضاع التي جعلها أمثالاً ، فإن قارئه متى لم يفعل ذلك لم يدرِ ما أريد بتلك المعاني ، ولا أيَّ ثمرة يُجتنى منها ، ولا أي نتيجة تحصل له من مقدمات ما تضمنه هذا الكتاب » .

قصدنا أن يجعل طالب البلاغة من كلام ابن المقفع مثالاً صالحاً يحتذيه في الإفصاح عن ذات نفسه ، وأن يتدبره كيف ينتقي ألفاظه ليصوغ بها تراكيبه ويأتي بهذه المعاني وهي وإن لم تكن جديدة بما فيها فجديدة بوضعها وصنعها .

بقي علينا أن نختار قطعاً قليلة من رسائله مطولاتها ومختصراتها ، ومن المطولات نأخذ من رسالته في الصحابة ، صحابة الخليفة وأقرانه ؛ ومن

---

(١) الثمام : نبت ، ويقال لما لا يعسر تناوله على طرف الثمام لأنه لا يطول .

المختصرات نقتبس رسائل مفردة .

فمما قال في الأولى في إصلاح جند الدولة وهو أول ما يسترعي نظر صاحبها « فمن الامور التي يذكر بها أمير المؤمنين ، أمتع الله به أمر هذا الجند ، من أهل خراسان ، فإنهم جند لم يدرك مثلهم في الإسلام ، وفيهم مَنَعَة بها يتم فضلهم إن شاء الله . أما هم فأهل بصر بالطاعة ، وفضل عند الناس ، وعفاف نفوس وفروج ، وكف عن الفساد ، وذل للولاة ، فهذه حال لا نعلمها توجد عند أحد غيرهم . وأما ما يحتاجون فيه إلى المنعة من ذلك تقويم أيديهم ورأيهم وكلامهم ، فإن في ذلك اليوم اختلاطاً من رأس مفرط غال ، وتابع متحير شاك ، ومن كان إنما يصول على الناس بقوم لا يعرف منهم الموافقة في الرأي والقول والسيرة ، فهو كراكب الأسد الذي يوجل من رآه والراكب أشد وجلاً . فلو أن أمير المؤمنين كتب لهم أماناً معروفاً بليغاً وجيزاً محيطاً بكل شيء يجب أن يقول فيه ، ويكفوا عنه ، بالغاً في الحجة ، قاصراً عن الغلو ، يحفظه رؤساؤهم ، حتى يقودَ به دهماءَهم ، ويتعهد به منهم من لا يؤبه له من عُرْض الناس ، لكان ذلك إن شاء الله لرأيهم صلاحاً ، وعلى من سواهم حجة ، وعند الله عذراً » .

يريد أن يضع الخليفة لجيش خراسان قانوناً يعمل به قواده وجنده ، حتى لا تكون في الأمور فيه فوضى ، ويربى تربية عسكرية يكون معها صاحب الأمر على ثقة من بلائه كل حين . ومما قال بعد ذلك : « ومما ينظر فيه لصلاح هذا الجند ألا يولى أحداً منهم شيئاً من الخراج ، فإن ولاية الخراج مفسدة للمقاتلة » .

وهذا رأي ابن المقفع في هذه الرسالة أيضاً في فوضى الأحكام . قال : « ومما ينظر أمير المؤمنين فيه من أمر هذين المصرين وغيرهما من الأمصار والنواحي اختلاف هذه الأحكام المتناقضة التي قد بلغ اختلافها أمراً عظيماً في الدماء والفروج والأموال ، فيستحل الدم والفرج بالحيرة ، وهما يحرمان

بالكوفة ، ويكون مثل ذلك الاختلاف في جوف الكوفة ، فيستحلُّ في ناحية منها ما يحرم في ناحية أُخرى ، غير أنه على كثرة ألوانه نافذ على المسلمين في دمائهم وحرمهم ، يقضي به قضاة جائز أمرهم وحكمهم ، مع أنه ليس مما ينظر في ذلك من أهل العراق وأهل الحجاز فريق إلا قد لجَّ بهم العجب بما في أيديهم ، والاستخفاف ممن سواهم ، فأقحمهم ذلك في الأمور التي يَشْنَع بها من سمعها من ذوي الألباب . أما من يدعي لزوم السنة منهم ، فيجعل ما ليس له سنةٌ سنةً ، حتى يبلغ ذلك به إلى أن يسفك الدم بغير بينة ولا حجة ، على الأمر الذي يزعم أنه سنة . وإذا سئل عن ذلك لم يستطع أن يقول هُرِيق فيه دم على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم أو أئمة الهدى من بعده ، وإذا قيل له أي دم سفك على هذه السنة التي تزعمون قالوا : فَعَل ذلك عبد الملك ابن مروان ، أو أمير من بعض أولئك الأمراء ؛ وأما من يأخذ بالرأي فيبلغ به الاعتزام على رأيه أن يقول في الأمر الجسيم من أمر المسلمين قولاً لا يوافقه عليه أحد من المسلمين ، ثم لا يستوحش لانفراده بذلك وإمضائه الحكم عليه ، وهو مقر أنه رأى منه لا يحتج بكتاب ولا سنة . فلو رأى أمير المؤمنين أن يأمر بهذه الأقضية والسير المختلفة فترفع إليه في كتاب ، ويرفع معها ما يحتج به كل قوم من سنة أو قياس ، ثم نظر أمير المؤمنين في ذلك وأمضى في كل قضية رأيه الذي يلهمه الله ويَعْزُم له عليه ، وينهى عن القضاء بخلافه ، وكتب بذلك كتاباً جامعاً ، لرجونا أن يجعل الله هذه الأحكام المختلطة الصواب بالخطأ حكماً واحداً صواباً ؛ ورجونا أن يكون اجتماع السير قربة لإجماع الأمر برأي أمير المؤمنين وعلى لسانه ، ثم يكون ذلك من إمام آخر ، آخر الدهر إن شاء الله » .

والرسالة كلها على هذا النحو لم يترك فيها ابن المقفع معنى يستفيد منه الخليفة في سلطانه إلا وأشار إليه فيه إشارة كافية شافية ، ومن هذا الكتاب استبان أن ابن المقفع كما يحسن الاختصار أبداً ، يخرج منه إذا كان في خروجه منه فائدة ، وأي فائدة أعظم من وضعه دستوراً تسير عليه مملكة آل العباس .

ومن رسائله المختصرة إلى صديق ولدت له جارية :

بارك الله لكم في الابنة المستفادة ، وجعلها لكم زينا ، وأجرى لكم بها خيراً فلا تكرهها فإنهن الأمهات والأخوات والعمات والخالات ، ومنهن الباقيات الصالحات ، ورب غلام ساء أهله بعد مسرتهم، ورب جارية فرَّحت أهلها بعد مساءتهم .

وله تعزية عن ولد :

أعظم الله على المصيبة أجرك ، وأحسن على جليل الرزء ثوابك ، وعجل لك الخلف فيه ، وذخر لك الثواب عليه .

وله تعزية عن ابنة :

جدد الله لك من هبته ما يكون خلفاً لك بما رزئته ، وعوضاً من المصيبة به ، ورزقك من الثواب عليه أضعاف ما رزأك به منها ، فما أقل كثير الدنيا في قليل الآخرة ، مع فناء هذه ودوام تلك .

وله تعزية عن ابنة :

لا ينقص الله عددك ، ولا ينزع عنك نعمته التي ألبسك ، وأحسن العوض لك ، وجعل الخلف لك خيراً مما رزأك ، وما أعطاك خيراً مما قبض منك .

ولـــه :

أما بعد فإن من قضى الحوائج لإخوانه ، واستوجب بذلك الشكر عليهم ، فلنفسه عَمِلَ لا لهم ، والمعروف إذا وضع عند من لا يشكر فهو زرع لابد لزارعه من حصاده ، أو لعقبه من بعده . وكتبت إليك والحالنا التي نحن بها فيما نذكرك حاجة أول ما فيها معروف تستوجب به الشكر علينا ، وتدخر به الأيادي قبلنا .

وله في السلامة :

أما بعد فإن مما نمق الله به مناقبك الكريمة المحمودة ، الغانية عن القول

والوصف ، أنك مُوضع المؤنات عن إخوانك ، حَمَّال عنهم أثقال الأمور ، مما وضعت عنه المؤنة ارتفاعك عن الأمور التي يطأطأ إليها الكلام على ألسنة الناس إذ أباحوه وبهرجوه ، وضيعوا القول ونسوا القصد فيه ، وأخذوا به في كل فن وأصفوا بصفوته غير أهلها فيما لا ينبغي لهم من التشبيه والتوقير والتفضيل . كان من خبري بعدك أني قدمت بلد كذا فتهيأ لي بعض ما شخصت له ، والمحمود على ذلك الله عز وجل ، وأنا على أن يأتيني خبرك محتاج ؛ فأما جملة خبري في فراقك ، فقلبي مكة كل ما سواك حرام فيها .

وله جواب في السلامة :

أما بعد فقد أتاني كتاب الأمير رجعة كتابي إليك ، فكان فيه تصديق الظن ، وتثبيت الرأي ، ودرك البغية ، والله محمود . فأمتع الله بالأمير وأمتعه بصالح ما آتاه ، وزاده من الخيرات مستعمراً له فيه ، مستعملاً بطاعته التي بها يفوز الفائزون ، والذي رزق الله من الأمير فهو عندي عظيم نفيس ، وكل الذي قِبَلي عن مكافأته فمقصر ، إلا أنه ليس في النية تقصير ، ولا بلوغ لشيء من الأمور إلا بتوفيق الله عز وجل ومعونته والسلام .

وله في السلامة :

أما بعد فقد أتاني كتابك فيما أخبرتنا عنه من صلاحك وصلاح من قِبَلك ، وفي الذي ذكرت من ذلك نعمة مجللة عظيمة ، نحمد عليها وليها المنعم المفضل المحمود ، ونسأله أن يلهمنا وإياك من شكره وذكره ما به مزيدها وتأدية حقها . وسألت أن أكتب إليك بخبرنا ، ونحن من عافيته وكفايته ودفاعه على حال لو أطنبت في ذكرها ، لم يكن في ذلك إحصاء للنعمة ، ولا اعتراف لما بكنه الحق ، فترغب إلى الذي تزداد نعمه علينا في كل يوم وليلة تظاهراً ألا يجعل شكرنا منقوصاً ولا مدخولاً ، وأن يرزقنا من كل نعمة كفاءها[1] من المعرفة بفضله فيها والعمل في أداء حقها ، إنه ولي قدير .

---

(١) جزاءها .

وله في التعزية :

أما بعد فإن أمر الآخرة والدنيا بيد الله ، هو يدبرهما ويقضي منهما ما يشاء ، لا رادَّ لقضائه ولا معقب لحكمه ، فإن الله خلق الخلق بقدرته ، ثم كتب عليهم الموت بعد الحياة ، لئلا يطمع أحد من خلقه في خُلد الدنيا ، ووقّت لكل شيء ميقاتَ أجل ، لا يستأخرون عنه ساعة ولا يستقدمون ، فليس أحد من خلقه إلا وهو مستيقن بالموت ، لا يرجو أن يخلصه من ذلك أحد ، نسأل الله خير المنقلب . وبلغني وفاة فلان فكانت وفاته من المصائب العظام التي يُحتسب ثوابها من ربنا الذي إليه منقلبنا ومعادنا ، وعليه ثوابنا . فعليك بتقوى الله والصبر ، وحسن الظن بالله ، فإنه جعل لاهل الصبر صلواتٍ منه ورحمة ، وجعلهم من المهتدين .

وكتب :

أما بعد أصلحنا الله وإياك صلاحاً دائماً يجمع لنا ولك وبه الفضيلة في العاجلة ، والكرامة في الآجلة ، فإني لا أعرف أمراً أعظم عند أهل منفعة من أمر ترك ذكره لفضله ، ولا أعلم أمراً أحق بأن يستغني أهله بفضله عندهم عن ذكره فيما بينهم من أمر أرسخ الله بيننا وبينك أسبابه ، وثبت حقوقه ، وعظم حرمته ، فأبقى الله لنا ولك ما أحرزه بيننا وبينك في الدنيا حتى نكون إخواناً في الآخرة حين تصير الخلة عداوة بين أهلها إلا صلة المتقين .

سهل بن هارون

منبته ونسبه :

ولد سهل بن هارون(١) في مدينة مَيْسان بين واسط والبصرة ، وفي رواية في دَسْتُميسان كورة بين الأهواز وواسط والبصرة ، في أواخر النصف الأول من القرن الثاني تقديراً ، ولا يعرف من نسبه إلا أنه سهل بن هارون ابن راهبون (راهيون) وكنيته أبو عمرو ، فارسي الجنس ، أهوازي أو خوزي المولد ، عراقي المنشأ ، تحوّل إلى البصرة في سن لم تعرف ، وكانت البصرة إذذاك مدينة العلم في الدولة الإسلامية ، « وقبة الإسلام وخزانة العرب » ، حوت من حصائل(٢) العلم الإنساني أصوله وفروعه ، ومن القائمين على تنميته مصاقعه وفحوله ، فغذى روحه بلبان مجالسها ومجامعها ، واستنار

---

(١) لم يترجم القفطي لسهل بن هارون في أخبار الحكماء ، ولا ابن خلكان في وفيات الأعيان ، ولا البيهقي في حكماء الاسلام ، ولا السمعاني في الأنساب ، ولا الأنباري في طبقات الأدباء ، ولا الخطيب في تاريخ بغداد ؛ وترجم له تراجم موجزة كل من ياقوت في معجم الأدباء ، والصفدي في الوافي بالوفيات ، والصلاح الكتبي في فوات الوفيات وفي عيون التواريخ ، وابن نباتة في شرح رسالة ابن زيدون ، وابن بدرون في شرح قصيدة ابن عبدون ، والثعالبي في المضاف والمنسوب . وترجم له كرامر من علماء المشرقيات في معلمة الاسلام ؛ واقتصر على ما قاله المترجمون فيه ، وفاته أنه كان من رجال الرشيد وقال إنه لم يجتمع بالجاحظ .

(٢) التحصيل : تمييز ما يحصل . والاسم الحصيلة .

عقله بما اقتبسه من نور معارفها ، فتخرج بعلمائها ، وكانوا طبقة عالية في كل مطلب من مطالب الآداب .

وكانت البصرة بل المملكة الإسلامية أخذت في تلك الحقبة ، تتمازج فيها مدنية العرب بمدنية الفرس والروم والهند ، وبدأت المذاهب الفلسفية تتسرب إلى المجتمع الإسلامي ، وعلماء الأمة يتعاورهم الجزر والمد على شاطىء بحر الحكمة القديمة ، شأن مدينة البصرة مع خليجها ، يمُدُّ ماؤها ويَجزْرِ على الدوام ، وما زالوا هذا حالهم يغوصون في بحار الأفكار ، حتى أخرجت عقولهم درراً غريبة ، كما يخرج بحرهم الجواهر واللآلىء الثمينة ؛ اكانت النفوس حريصة على الدين الذي دُوّن وحُرر ، راغبة كل الرغبة في الأخذ مما لا عهد لها به من علوم الأمم السالفة ؛ وفي هذه البيئة انبعث عقل سهل بن هارون لأول أمره ، في أرض صالحة لإنماء العقل وإطلاقه من قيوده . ولم يُعرف إذا كان رحل إلى الروم وفارس والشام ومصر ، والغالب أنه لم تتعد تنقلاته مدناً عربية أربعاً وهي : مدينة الرّقة قصبة ديار مضر ، والرُّصافة رصافة هشام في أوائل تخوم الشام ، واكتفى بالبصرة وبغداد ، وكانت بغداد أجمل مدن الأرض في ذاك العصر ، وفيها كل شيء جديد ، سواء أكان ذلك في خططها ومرافقها ، أو في عقول أهلها ونبوغ علمائها ، يُحمل إليها من الآفاق بدائع ما صنع البشر ونتَجت عقولهم ، والدول سوق يحمل إليها ما يروج فيها .

لا نعلم على التحقيق منشأ والد سهل ، ولا مظهره ومذهبه ، ولا أصل أمه وتربيتها ، ولا معلميه في بلده ، ولا أساتيذه في البصرة ، ولا أترابه ولداته في صباه ، ولا غير ذلك من العوامل التي لها الشأن الأكبر في تربية الملَكات ، وتلقين الأخلاق والعادات . يُنشَّأ عليها الفتى فتطبع حياته بطابع خاص ، تتعذر في عقود العمر الآخرة إحالتها واستحالتها ؛ ومن المعقول أن يكون قانون الوراثة أورثه جراثيم دم الفرس وحكمتها ، ونظامها وأدبها ، وضم إليها الثقافة العربية ، فجاءت منازعه خليطاً نافعاً ، ومداركه متينة رصينة .

أضف إلى هذا أن مملكة بني العباس كانت سيدة الممالك ، على ما كانت البصرة سيدة البلاد ، وربما كان العصر الذي نشأ فيه سهل بن هارون أجمل عصور التاريخ ، والمُلك موحَّد من المغرب في شمالي إفريقية إلى حدود الشرق ، وليس في الأرض حكومة إسلامية غير الأندلس بيد بني مروان : لا غوائل ولا فتن في الداخل والخارج ، يشتمل الناس على السلامة ، ويغتبطون بما أُوتوا في سلطان بني هاشم ، وكلما نجم ناجم من العلويين أو غيرهم كانت جيوش العباسيين تقضي عليه ، فضعف النازعون إلى منازعة الخلفاء حبل السلطة . وغدت ممالك الشرق والغرب تتنافس في رضا خليفة العرب ، والملك من ملوك آسيا وأوربا إذا تيسر لقاصده أو سفيره أن يتشرف بالحضرة حضرة بني العباس يسعد ويعتز في سلطانه ، ويعدّ ذلك نعمة حازها دون أقرانه .

مذهبه وأخلاقه :

قيل إن سهل بن هارون كان شيعياً ، وشيعة العراق في زمنه كانوا على الإطلاق معتزلة ، ولم يؤثر عنه أن تنقص أحداً من الصحابة الكرام ، وعرف بالاعتدال مع الأموات اعتداله مع الأحياء ، وما أُثر عنه أنه خاض غمار مباحث الكلام التي كانت على أشد حرارتها إذ ذاك ، ولا سيما في البصرة وبغداد دار السلام . واتهموه بأنه كان من الشعوبيين الذين يصغرون شأن العرب ، ولا يرون لهم على العجم فضلاً ، والشعوبي منسوب إلى قوله تعالى : « وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم » . ومذهب الشعوبية نشأ على الأرجح بُعَيْدَ عصر الخلفاء باشتداد قوة التجاذب والتدافع بين أرباب العصبيات ، وكان من أثر ذلك التفاخر بالجنس الذي جاء الإسلام بإبطاله . ولو كان للجنس يفضل المرء في الأمة ، ما نزل سلمان الفارسي وصُهَيْب الرومي وبلال الحبشي من الرسول تلك المنزلة العالية . والدين لا يفاضل إلا بالتقوى .

إذا عرفت هذا فادفع عن سهل دعوى الشعوبية غير خائف ولا متلجلج ، فاعتداله يمنعه إلا أن يقدر لكل عنصر خصائصه ، وهو لم يُعَدَّ رجلاً مذكوراً إلا بالإسلام ، والأخذ عن علماء العرب ، ورقي في مظاهر الدنيا حتى وصل إلى أعظم خلفاء العباسيين هارون الرشيد وعبد الله المأمون . وصار أحد أئمة البيان والحكمة في الأمة العربية ، ودُعي لحكمته وعقله « بزُرجمهر الإسلام » وبُزُرْجُمهر وزير أنوشروان العادل ، من ملوك آل ساسان ، اشتهر بالعدل والحكمة .

وصفه الجاحظ فقال : كان سهل سهلاً في نفسه ، عشيق الوجه ، حسن الشارة ، بعيداً عن الفدامة[1] ، معتدل القامة ، مقبول الصورة ، يقضى له بالحكمة قبل الخبرة ، وبرقة الذهن قبل المخاطبة ، وبدقة المذهب قبل الامتحان ، وبالنبل قبل التكشف[2] . وكان الجاحظ مازجه وثافنه . وقيل للحراني ، ولعله إبراهيم بن ذكوان كاتب الهادي ووزيره : بينك وبين سهل ابن هارون صداقة فانعته لنا كي نعرف ، فقال : هو كالخير ، وازن العلم واسع الحلم ، إن حودث لم يكذب ، وإن موزح لم يغضب ، كالغيث أين وقع نفع ، وكالشمس حيث أولت أحيت ، وكالأرض ما حملتها حملت ، وكالماء طهور لملتمسه ، ونافع لغُلة من أحرَّ إليه ، وكالهواء الذي تقطف منه الحياة بالتنسم ، وكالنار التي يعيش بها المقرور ، وكالسماء التي قد حسنت بأصناف النور ا هـ .

صورتان جميلتان في وصف سهل ، صورهما مصوران مبدعان ، عاشا بقربه وفتنهما بخُلقه وخَلقه .

واتهموا سهل بن هارون بالبخل وأوردوا له قصصاً ونوادر ، وعده

---

(١) الفدامة : العي .
(٢) التكشف : الظهور .

الجاحظ من « متعاقلي البخلاء وأشحاء العلماء » قال : ما علمت أن أحداً جرد في البخل كتاباً إلا سهل بن هارون وأبا عبد الرحمن الثوري . والبخل في الفرس غالب في الجملة ، غلبة الكرم على طبائع العرب . فاقتضى ذلك التفريط الذي رآه سهل في تبذير العرب ، أن يدلي لقومه بآرائه المفرطة في الاقتصاد والإمساك . وما شوهد قط تفريط ، إلا وإلى جانبه إفراط . وربما كان اتهامه بالبخل مبالغاً فيه تُراد به النكتة والنادرة .

حكى الجاحظ قال لقي رجل سهل بن هارون فقال : هَبْ لي ما لا ضرر به عليك فقال : وما هو يا أخي ؟ قال : درهم . قال : لقد هونت الدرهم وهو طائع الله في أرضه لا يعصي ، وهو عشر العشرة ، والعشرة عشر المئة ، والمئة عشر الألف ، والألف دية المسلم ، ألا ترى إلى أين انتهى الدرهم الذي هونته . وهل بيوت الأموال إلا درهم على درهم ؟ فانصرف الرجل ، ولولا انصرافه لم يسكت .

وحكى دِعبِل الخُزاعي الشاعر قال : أقمنا يوماً عند سهل بن هارون ، وأطلنا الحديث حتى أضرَّ به الجوع ، فدعا بغدائه ، فأُتي بصحفة فيها مَرَق تحته ديك هَرِم ، فأخذ كسرة وتفقد ما في الصحفة ، فلم يجد رأس الديك ، فبقي مطرقاً ، ثم قال للغلام : أين الرأس ؟ قال : رميتُ به ، قال : ولِمَ ؟ قال : لم أظنك تأكله ، قال : ولِمَ ظننت ذلك ؟ فوالله إني لأمقت من يرمي برجله فكيف برأسه ؟ ولو لم أكره ما صنعت إلا للطِيَرة والفأل لكرهته ، أما علمت أن الرأس رئيس يتفاءل به ، وفيه الحواس الخمس ، ومنه يصيح الديك ، ولولا صوته ما أُريد ، وفيه فَرَقه الذي يتبرك به ، وعينه التي يضرب بصفائها المثل ، فيقال : شراب كعين الديك ؛ ودماغه عَجَب لوجع الكلية . ولم أرَ عظماً قط أهشَّ تحت الأسنان منه ، وإن كان بلغ من نُبلك أنك لا تأكله ، فعندنا من يأكله ، أو ما علمت أنه خير من طرف الجناح ، ومن رأس العنق ؟ أنظر أين رميته ، فقال : والله ما أدري ، قال : أنا والله أدري ، إنك رميت به والله في بطنك ، فالله حسيبك .

ولما صنف سهل كتابه في البخل أهداه للحسن بن سهل واستماحه ، فكتب إليه الحسن : قد مدحت ما ذمه[١] الله ، وحسنت ما قبحه الله ، وما يقوم بفساد معناك صلاح لفظك ، وقد جعلنا ثواب مدحك فيه قبول قولك ، فما نعطيك شيئاً . والحسن بن سهل وزير المأمون كان فارسياً أيضاً ، ولكنه في الجود آية الآيات . وصح من شعر سهل قوله :

ولكنني أبكي بعين سخينة — على جلل تبكي له عين أمثالي
فراق خليل أو شجىً يستشفني — لخلة أمر لا يقوم لها مالي
فيا كبدي حتى متى القلب موجع — بثُكل حبيب أو تَعذّر إفضال
وما العيش إلا أن تطول بنائل — وإلا لقاء الأخ بالخلق العالي

ومن يقول هذا الشعر ، ويقصد هذا المعنى ، لا يكون من البخل على ما وصفوا . قال غولد صهير المجري : إن تمدح ابن هارون بالبخل ، نزعة من نزعات الشعوبية ، أراد بمدحه الحط من قدر العرب الذين جعلوا الكرم من مفاخرهم الوطنية .

طريقته في الكتابة وتآليفه :

إن رجلاً يفضله الجاحظ ، ويصف براعته وحَصافته ، ويحكي عنه في كتبه ، ويظهر إعجابه به إذا ذُكر ، ويروي حديثه ومجالسه ، هو ولا شك المثل الأعلى في صنوف العلم والآداب ، بلغ الذِّروة فيما تفرد به ، واشتهر بمعرفته ، وكان أهل عصره مجمعين على الإقرار بفضله ، قلما يداخلهم الحسد له . كان نسيج وحده في فنه ، نابغة في العلم الذي يمتُّ به ، وناهيك بعالم كبير كالجاحظ ، وهو في البلاغة يجري مع سهل كفرسي رهان ، وفي

(١) في رواية ياقوت : « لقد مدحت ما ذم الله ، وحسنت ما قبح ، وما يقوم صلاح لفظك بفساد معناك ، وقد جعلنا ثواب عملك ، سماع قولك فما نعطيك شيئاً » .

العقل المثل المضروب أنه كان يؤلف الكتاب فينسبه إلى نفسه ، فلا يرى الأسماع تُصغي إليه ، ولا الإردات تُيمم نحوه ، ثم يولف – كما قال عن نفسه – ما هو أنقص منه مرتبة ، وأقل فائدة ، فينحله عبد الله بن المقفع أو سهل بن هارون أو غيرهما من المتقدمين ، ومن طارت أسماؤهم في المصنفين ، فيقبلون على كَتْبها ، ويسارعون إلى نسخها .

وطريقة سهل في كتابته لا تكلف فيها ، ولا يشاهد فيها الناقد أثر التعمل ، فهو وابن المقفع والجاحظ من غِرار واحد . وقيل : إن سهلاً كاتب سلاطين ، والجاحظ مؤلف دواوين . وكأن كلامه نغمة موسيقية ، تعرف انتهاء جملته من رنتها ، بعد أن ملكت عليك مشاعرك ، وأدخلت السرور على نفسك ، لا يحفل بالأسجاع إلا إذا جاءت عفوَ الخاطر ، ولا يتعمد الجزالة إلا إذا اقتضى الموضوع ذلك ، وقلما خلا قوله من نكتة تُحمد له وتحمل عنه . وكأنك في إنشاء سهل تقرأ المعنى قبل اللفظ ، وما تنفع القوالب إذا لم يكن علم الكاتب يُملي ، والمظاهر والدساتير مستملية . ففي أسلوبه تقرأ لتتعلم ، وفي كثير غيره تقرأ ألفاظاً جميلة ، وقوالب محكمة . وفي كلمه الطيب تقع على إشباع المعاني ، وتقطيع الجمل ، والإبلاغ في المزاوجة بين الكلمات ليتأثر السامع ، وتفعل البلاغة فعلها في نفسك من طريق الإقناع والبرهان ، لا من مجرى التقفية والزُّخْرُف ، وتوازن الكلمات ورنّة الفقرات .

كان سهل يقول الشعر ، وأكثر شعره مما أملاه قلبه ، في غرض خاص من أغراض المجتمع ، وعدّه الجاحظ من الخطباء والشعراء ، الذين جمعوا الشعر والخطب والرسائل الطوال والقصار ، والكتب الكبار المجلدة ، والسير الحسان المولدة ، والأخبار المدوّنة . ولقبه مرة بالكاتب ، ولعل لقب الكاتب في شرفه كان أكبر من عالم أو عِدْلاً له . وذكره ابن النديم في البلغاء ، وقال إنه شاعر مقلّ ، وعده في الشعراء الكتاب ، وقال إنه كان ممن يعمل

الأسمار والخرافات على ألسنة الناس والطير والبهائم ، هو وعبد الله بن المقفع وعلي بن داود كاتب زُبَيْدَة . وشعره خمسون ورقة .

أما الدهشة ففي تآليفه ؛ فله ديوان رسائله ، وكتاب النمر والثعلب ، وكتاب أسباسيوس (أسانوس) في اتخاذ (اتحاد) الإخوان ، وكتاب أسد بن أسد ، كتاب سحرة العقل ، كتاب تدبير الملك والسياسة ، كتاب إلى عيسى ابن أبان في القضاء ، كتاب الفرس ، كتاب الغزالين (في رواية الضربين) ، كتاب ندود وودود ولدود ، كتاب الرياض ، كتاب ثعلة وعفراء (وفي رواية ثعلة وعفرة) على مثال كتاب كليلة ودمنة، قلده في أبوابه وأمثاله . قال المسعودي ويزيد عليه ، أي على كليلة ودمنة ، في حسن نظمه ، وقد صنفه للمأمون . ومن تآليفه كتاب الهزلية (الهذلية وفي رواية الهنبلية) والمخزومي ، كتاب الوامق والعذراء (العذار) ، إلى غير ذلك من المصنفات ، ومنها ما عارض به كتب الأوائل .

ولا تعجب إذا رأيت بضعة من تآليف سهل في القصص والأسمار ، فإن من الناس من يتعلم بالاحتيال عليه ، وصعب عليك أن تثقفه وتخلّقه بالأخلاق الفاضلة ، إلا في قالب ظاهره هزل وإحماض ، وباطنه تعليم وإرشاد ؛ ومن أجل هذا كان هذا اللون من الأدب ، مما يلذ المطالع ويفيده ، يلقي عليه حكمة بالغة ، على نحو ما يفعل معظم القصصيين من أهل المدنية الحديثة . وكان حظ ابن المقفع في هذا الباب أجزل ، لأن كتاب كليلة ودمنة اشتهر أكثر من اشتهار ثعلة وعفرة أو غير ذلك من الأوراق التي كسرها سهل على القصص . ولا تدل أسماء كتبه على أنه كتب في موضوع أشبه بديني اللهم إلا كتابه في القضاء ؛ أما كتابه في تدبير الملك والسياسة فدليل على أنه قرن العلم بالعمل في هذا الفن السهل الصعب ؛ وجميع كتبه مما أبادته الليالي .

حياته السياسية :

لم نهتد إلى زمن إنتقال سهل من البصرة إلى بغداد ، وسكت التاريخ عن عهد رحيله من مسقط رأسه ، وعن سنة ولادته ، وغاية ما ذكر في ترجمته أنه كان مختصاً بالفضل بن سهل أخي الحسن بن سهل وزيري المأمون ، وأن الفضل قدمه للمأمون ، ولكن كتب المحاضرات والتاريخ تقول إن سهلاً كان من رجال الرشيد ، وأنه دخل عليه وهو يضاحك المأمون فقال : اللهم زده من الخيرات ، وابسط له من البركات ، حتى يكون في كل يوم من أيامه مُرْبِياً على أمسه ، مقصّراً عن غده . فقال الرشيد : يا سهل مَن روى من الشعر أحسنه وأرصنه ، ومن الحديث أفصحه وأوضحه ، إذا رام أن يقول لا يُعجزه القول . فقال سهل : يا أمير المؤمنين ما ظننت أن أحداً تقدمني إلى هذا المعنى . قال : بل أعشى هَمْدان حيث يقول :

رأيتك أمس خير بني لُؤَيّ وأنت اليوم خيرٌ منك أمسِ
وأنت غداً تزيد الخير ضعفاً كذاك تزيد سادة عبد شمس

وهذا يدل على أن سهلاً اتصل بالرشيد ، والمأمون حدث صغير . وأن سهلاً كان معروفاً برواية الشعر والحديث أيضاً . وقد شهد مقتل البرامكة في سنة ١٨٧ .

وحدث فيما كان عليه يحي وجعفر من البلاغة فقال : « إن سجّاعي الخطب ومحبري القريض عيال على يحي بن خالد بن برمك وجعفر بن يحي ، ولو كان كلام يتصور درّاً ، ويُحيله المنطق السريُّ جوهراً ، لكان كلامهما ، والمنتقى من لفظهما . ولقد كانا مع هذا عند كلام الرشيد في بديهته وتوقيعاته في كتبه ، فَدْمين عَيين[1] ، وجاهلين أميين . ولقد عُمّرت معهم ،

(١) الفدم العي عن الكلام في ثقل ورخاوة وقلة فهم ، والفدم الأحمق الجافي ج فدام ، والعي والعيي الذي لا يستطيع النطق .

وأدركت طبقة المتكلمين في أيامهم ، وهم يرون أن البلاغة لم تستكمل إلا فيهم ، ولم تكن مقصورة إلا عليهم ، ولا انقادت إلا لهم ، وأنهم محض الأنام ، ولُباب الكرام ، ومِلح الأيام : عشق منظر ، وجودة مخبر ، وجزالة منطق ، وسهولة لفظ ، ونزاهة نفس ، واكتمال خصال ، حتى لو فاخرت الدنيا بقليل أيامهم ، والمأثور من خصالهم ، كثيرَ أيام من سواهم ، من لدن آدم أبيهم ، إلى النفخ في الصور ، وانبعاث أهل القبور ، حاشا أنبياء الله المكرمين ، وأهل وحيه المرسلين ، لما باهت إلا بهم ، ولا عوّلت في الفخر إلاّ عليهم ، ولقد كانوا مع تهذيب أخلاقهم ، وكريم أعراقهم ، وسعة آفاقهم ، ورفق ميثاقهم ، ومعسول مذاقهم ، وبهاء إشراقهم ، ونقاوة أعراضهم ، وتهذيب أغراضهم ، واكتمال خلال الخير فيهم ، إلى ملء الأرض مثلهم ، في جنب محاسن المأمون ، كالنفثة في البحر ، والخردلة في المهمه القفر » . وهذا الكلام على ما فيه من حق في وصف البرامكة والرشيد والمأمون لا يخلو من مبالغة لم تكد تعرفها العرب على هذا الوجه ، ومن الصعب أن يتجرد المرءُ عن دمه الذي ورثه .

شهد سهل هذه المأساة مأساة مقتل بني برمك وقال : إن الرشيد لما قتل جعفراً بعث إليه ، وكان معه في الرّقة يحصل أرزاق العامة مع يحيي بن خالد . ولما حُمل نبأ مقتل جعفر كان سهل بين يدي يحيي يكتب توقيعات في أسفل كتبه لطلاب الحوائج إليه ، قد كلفه إكمال معانيها بإقامة الوزن فيها ، فلبس ثياب أحزانه ، لأنه كان على صلة دائمة بالبرامكة قال : فلما دخلت على الرشيد ومثلت بين يديه عرف الذُّعر في تجريض[1] ريقي ، والتمايد في طريقي ، وشخوصي إلى السيف المشهور ببصري فقال : « إيهاً يا سهل ، من غمط نعمتي ، واعتدى وصيتي ، وجانب موافقتي ، أعجلته عقوبتي »

(١) أجرضه بريقه : أغصه به .

قال : فوالله ما وجدت جوابها حتى قال : ليفرَخْ[١] رَوْعك ، وليسكن جأشك ؛ وتطب نفسك ، وتطمئن حواسك . فإن الحاجة إليك ، قرَّبت منك ، وأبقت عليك ، بما يبسط منقبضك ؛ ويطلق معقولك ، فاقتصر على الإشارة دون اللسان ، فإنه الحاكم الفاصل ، والحسام الناصل ، وأشار إلى مصرع جعفر وهو يقول :

من لم يؤدبه الجميـ ـل ففي عقوبته صلاحه

قال سهل : « فوالله ما أعلَـمَـني عَيِيت بجواب أحد قط ، غير جواب الرشيد يومئذ ؛ فما عولت في شكره والثناء عليه إلا على تقبيل يديه وباطن رجليه » ، ثم قال لي : « اذهب فقد أحللتك محل يحي بن خالد ، ووهبتك ما ضُمِّنته أبنيته ، وحوى سُرادقه ، فاقبض الدواوين وأحص حباءه وحباء[٢] جعفر ، لنأمرك بقبضه إن شاء الله . قال سهل : فكنت كمن نُشر عن كفن ، وأخرج من حبس ، فأحصيت حباءهما فوجدت عشرين ألف ألف دينار .

وبذلك تبينت منزلة سهل ، وكيف أصبح بعد يحي البرمكي صاحب دواوين الرشيد ، ومع ما كان له من الإجلال في الصدور ، خاف يوم النازلة بالبرامكة — و « البرامكة من محاسن العالم ، ودولتهم من أعظم الدول ، وهم كانوا نكتة محاسن الملة وعنوان دولتها » — خاف أن تضمه القافيــة لصحبته لهم ، وامتزاجه بهم ؛ وناهيك به يومئذ من موقف صعب ، ولكن عقل الرشيد لا تعبث به الأهواء ، ويضن بعظيم من رجاله لأسباب تافهة ، فأبقى على سهل بن هارون ، لأنه من مفاخر الملة والدولة . لا جرم أن سهل ابن هارون كان في سياسته من حزب الحكومة أو الحزب المعتدل ، تعزب فطرته عن التطرف ، ويرى المصلحة في التآلف ، ويعدُّ الخروج عن سبيل الجماعة خروجاً عن الطاعة .

---

(١) فرخ الروع تفريخاً : ذهب كأفرخ والرجل فزع ورعب والروع الفزع .

(٢) الحباء : بكسر الحاء العطاء بلا جزاء ولا من .

والغالب أن عشرة سهل مع الرشيد دامت حتى مات هذا سنة ١٩٣ ، ولم يجر له ذكر في عهد الأمين مدة أربع سنين وثمانية أشهر وكسر ؛ فالتزم على ما يظهر بيته ، واعتزل الفتنة ، حتى إذا كانت الخلافة للمأمون أصبح سهل بن هارون من خاصته ، كما كان من خاصة أبيه الرشيد من قبل . وروى بعض الرواة أن المأمون كان استقلّ سهل بن هارون ؛ وقد دخل عليه يوماً والناس على مراتبهم ؛ فتكلم المأمون بكلام ذهب فيه كل مذهب . فلما فرغ من كلامه أقبل سهل على الجمع فقال : ما لكم تسمعون ولا تَعُون ، وتشاهدون ولا تَفْقَهون ، وتفهمون ولا تتعجبون ، وتتعجبون ولا تُنصفون ؟ والله إنه ليقول ويفعل في اليوم القصير ، ما فعل بنو مروان في الدهر الطويل ، عربكم كعجمكم ، وعجمكم كعبيدكم ؛ ولكن كيف يعرّف بالدواء ، من لا يشعر بالداء . فرجع المأمون فيه عن الرأي الأول ؛ وفي ذلك أيضاً من حسن المأتي ، ولطف المدخل والمخرج ، ما يعرفه المبتلى بعشرة الملوك والعظماء ، ولا سبيل إلى الدخول على أكثرهم إلا بهذه الطرق من التلطف والتزلف ، وإن لم يصدق ذلك من كل وجه على الرشيد والمأمون ، وهما ما هما في العقل والعلم والعدل . وأُخرى وهي أن سهلاً بكلامه هذا ، ضرب الحاضرين مجلس المأمون في الصميم ، وأنزل من مراتبهم ليستأثر وحده بتلك الرتبة السنية ، فنسبهم إلى السكوت في مواطن القول ، وإلى القصور في ميدان الاستحسان ؛ ومن قعدت به القريحة عن الانبعاث حين الحاجة ، كان حرياً أن لا يعاشر تلك الطبقة من الخلفاء ، وهذا من دهائه الكسروي .

رجع المأمون عن رأيه في سهل ، وعرف أنه الرجل كلُّ الرجل في صورته وعقله ، ومفاكهته وغَنائه وأدبه ، فقرَّبه وأدناه على النحو الذي كان عليه في عهد والده ، وكان سهل قد أسن بالطبع ، ويعرف المأمون مذ كان طفلاً عند الخليفة والده . ولكن المأمون يحترم الكبير وهو جِدّ في جماع أموره . بيد أنه لم يقبل باصطفائه إلا بعد اختباره . وعندما وقع عنده على

أمور تفرد بها ، وقد لا يجدها فيمن كان اختارهم لعشرته من العلماء ، وهم عشرة اختيروا لهم من مئة .

حياته العلمية :

كان المأمون مولعاً بكتب القدماء والفلاسفة ، وعُدّ ذلك من آكد أعماله في إنهاض مستوى العقل العربي ، فأنشأ داراً جمع فيها كل ما طالت يده إليه من كتب العلم باللغات المختلفة . وكانت جزيرة قبرس في ذاك العهد تَشْغَب كثيراً على الخلافة ، وقد سبى عمال الرشيد أهلها مرة ، حتى إذا أفضت الخلافة إلى المأمون هادن صاحب قبرس ، وأرسل إليه يطلب خزائن كتب اليونان ، وكانت مجموعة عندهم في بيت لا يظهر عليه أحد أبداً فيما قيل ، فجمع صاحب هذه الجزيرة بطانته ، وذوي الرأي في بلده ، واستشارهم في حمل الخزانة إلى المأمون ، فكلهم أشاروا بعدم الموافقة إلاّ مطراناً واحداً فانه قال : الرأي أن تعجل بإنفاذها إليه ؛ فما دخلت هذه العلوم العقلية على دولة شرعية إلا أفسدتها وأوقعت بين علمائها ؛ فأرسلها إلى المأمون ، ثم صالح المأمون صاحب الروم ميخائيل الثالث على أن يدفع إليه ما عنده من كتب القدماء ، وأرسل بعوثاً من ثقاته من المسلمين والنصارى لنسخ ما لا يتأتى لملك الروم إخراجه من الكتب ، فاجتمع للمأمون بذلك خزانة عظيمة ، فوق ما حمل إليه من الشرق والغرب ؛ وجعل سهل بن هارون خازناً لها ، وسماها بيت الحكمة ، وجعل معه عالماً اسمه سلمة الحرّاني ، كما جعل شريكاً له سعيد بن هارون .

ولا شك أن سهلاً تهيأت له أسباب البحث والنظر في بيت الحكمة التي أصبح ناظرها ، بما لم يتهيأ لغيره الوصول إليه ؛ خصوصاً وهمة الخليفة منصرفة إلى ترجمة كتب الفلسفة والعلوم والصناعات ؛ لا يهنأ له بال حتى تمسي الخزانة العربية تامة من كل وجه في علوم الدنيا ، على ما هي تامة في علوم الدين .

اتسع الأفق أمام عقل سهل ، ولم تقف به الهمة عند الأخذ من كتب الفرس ، بل تعدتها إلى الأخذ من كل ما طاب له من ضروب المعارف ، خصوصاً وانتقاله إلى بغداد بعد البصرة جاء متمماً له بغيته ، وكان اختلاطه برجال الخلافة وهم من كل صنف ونحلة وجنس ، معواناً له على الكمال . وقد يستفيد المرء بالعشرة والتلقي ، ما لا يستفيد من تصفح دواوين العلم ومصاحف الفضائل .

ذكروا أن سهل بن هارون تولى خزانة المأمون وتولى خزانة الحكمة له . أي أنه كان له منصبان : الإشراف على خزانة المأمون أي خزانة كتبه الخاصة ، والنظر على دار الكتب التي سميت دار الحكمة أو بيت الحكمة . وكلا العملين عظيم في بابه ولكنهما من نمط واحد . وفي ذلك ما يشعر بأن المأمون لم يكن يصبر عليه في قصره ، ولا يقنعه منه انصرافه إلى المصالح العامة فقط .

نثره وشعره :

إن النزر القليل الذي وصل إلينا من كلام سهل بن هارون لا يكفي في الحكم عليه . ومن كلام له في كتابه ثعلة وعفرة : « اجعلوا أداء ما يجب عليكم من الحقوق مقدماً ، قبل الذي تجودون به من تفضلكم ، فان تقديم النافلة مع الإبطاء في أداء الفريضة ، شاهد على وَهْن العقيدة ، وتقصير الروية ، ومضرّ بالتدبير ، ومخلّ بالاختيار ، وليس في نفع تحمد به عوضاً عن فساد المروءة ، ولزوم النقيصة » قال الحصري : « وكتابه هذا مملوء حكماً وعلماً » ، وهذا مأخوذ من قوله في يحيى بن جعفر :

عدو تلاد المال فيما ينوبه ... منوعٌ إذا ما منعه كان أحزما
مذلل نفس قد أبت غير أن ترى ... مكاره ما تأتي من العيش مغنما

وكتب إلى صديق له أبلّ من ضعف : « بلغني خبر الفترة في إلمامها وانحسارها ، والشّكاة في حلولها وارتحالها ؛ فكاد يَشغل القلق بأوله عن السكون لآخره ، وتُذْهل الحَيْرة في ابتدائه عن المسرة في انتهائه ؛ وكان تغيري في الحالين بقدرهما ارتياعاً للأولى وارتياحاً للأخرى » .

وقال لجارية له رومية أعجمية : « إن أقل ما ينطوي عليه ضميري من رسيس[1] حبك ، لأجَلُّ من كل جليل ، وأكثر من كل كثير » .

ومن كلامه يعزّي : التهنئة بآجل الثواب ، أولى من التعزية على عاجل المصيبة . وقال في المعنى : مصيبة في غيرك لك ثوابها ، خير من مصيبة فيك لغيرك ثوابها . وقال : حق كل ذي مقالة أن يبدأ بحمد الله قبل استفتاحها ، كما بدىء بالنعمة قبل استحقاقها . وقال : تعلموا العلم فلأن يذم الزمان لكم ، خير من أن يذم بكم . ومن كلامه : العفو الذي يقوم مقام العتق ، ما سلم من تعداد السقطات ، وخلص من تذكار الزلات . وكتب إلى جعفر بن يحي :

إذا ما أتى يوم يفرق بيننا   بموت فكن أنت الذي يتأخر

وقال : الصديق لا يحاسب ، والعدو لا يحتسب له ، أي لا يعتدُّ به ، وقال : من طلب الآخرة طلبته الدنيا حتى توفيه رزقه فيها ؛ ومن طلب الدنيا طلبه الموت حتى يخرجه منها . ومن كلامه : كانت زورة فلان أخفّ من حسوة طائر ، ولمعة بارق ، وخلسة سارق . وقال : من فضل الجواب على الابتداء ، أن الابتداء يوجد في الجواب ، ولا يوجد جواب في ابتداء . ومن كلامه : مؤنة المتوقف ، أيسر من تكلف المتعسف . وقال : لو عرف الزنجي فضل حاجته إلى ثناياه في إقامة الحروف ، وتكميل جميل البيان ، لما نزع ثناياه .

---

(١) رس الحمى ورسيسها أول مسها .

قال محمد بن زياد الزيادي البصري : وجَدت[1] على سهل بن هارون في بعض الأمر فهجوته فكتب إليَّ : «أما بعد فالسلام على عهدك ، وداعَ ذي ظن بك ، في غير مَقْلية[2] لك ، ولا سلوة عنك ، بل استسلام للبلوى في أمرك ، وإقرار بالمعجزة عن استعطافك ، إلى أوان فيأتك ، أو يجعل الله لنا دولة من رجعتك والسلام» . وكتب في أسفل الكتاب :

إن كنت أخطأت أو أسأت ففي   عفوك مأوى للفضل والمنن
أتيت مـــا أستحق من خطأ   فجد بما تستحق من حسن

وهذا من أعظم مكارم الأخلاق ؛ يُهجى وهو يسترضي هاجيه .

ومن محاسن تعريضات سهل أنه خاطب بعض الأمراء فقال له : كذبت ، فقال : أيها الأمـــير إن وجه الكذاب لا يقابلك – يعني الأمـــير بذلك – لأن وجه الإنسان لا يقابله . ورويت هذه النكتة لغيره .

ومن جميل تأويلاته وذكائه قوله : إن عدد حروف العربية ثمانيـــة وعشرون حرفاً ، على عدد منازل القمر ، وغاية ما تبلغ الكلمة منها مـــع زيادتها سبعة أحرف على عدد النجوم السبعة . قال وحروف الزوائد اثنا عشر حرفاً ، على عدد البروج الاثني عشر ، قال : ومن الحروف ما يدغم مع لام التعريف ، وهي أربعة عشر حرفاً ، مثل منازل القمر المستترة تحت الأرض ، وأربعة عشر حرفاً ظاهرة لا تدغم مثل بقية المنازل الظاهرة ، وجعل الإعراب ثلاث حركات ؛ الرفع والنصب والخفض ، لأن الحركات الطبيعية ثلاث حركات ، حركة من الوسط كحركة النار ، وحركة إلى الوسط كحركة الأرض ، وحركة على الوسط كحركة الفلك .

وحكى الجاحظ أن أبا الهذيل العلاف المتكلم سأله رُقعة يكتب بها إلى

---

(١) وجد عليه بكسر الجيم وضمها : غضب .

(٢) بغض .

الحسن بن سهل يستعينه على ضائقة لحقته ؛ فكتب رقعة وختمها ودفعها إليه ، فأوصلها إلى الحسن ؛ فلما رآها ضحك وأوقف عليها أبا الهذيل وإذا فيها مكتوب :

إن الضمير إذا سألتك حاجة   لأبي الهذيل خلاف ما أبدى
فامنحه رَوْح اليأس ثم امدد له   حبل الرجـاء بمخلف الوعد
وألن له كنفاً ليحسن ظنـه   في غـير منفعة ولا رِفـد
حتى إذا طالت شقاوة جَدّه   وعَنائه ؛ فاجْبَهه بالـرد
وإن استطعت له المضرّة فاجتهد   فيما يضرّ بأبلغ الجهـد

ولما قرأ الحسن رقعته وقّع فيها : « هذه – لك الويل – صفتك لا صفتي » وأمر لأبي الهذيل بألف دينار ؛ فعاد إليه فعاتبه ؛ فقال سهل : تُرى أين عزب عنك الفهم ؟ أما سمعت قولي : إن الضمير خلاف ما أُبدي ؟ فلو لم يكن ضميري الخير ما قلت هذا . قال الجاحظ : هذه من مغالطات سهل وبلاغته .

وروى الثعالبي قال : « حاجة أبي الهذيل » يضرب مثلاً للحاجة ، يسألها الإنسان لغيره ويضمر ضد ما يظهر ، ولا يحب قضاءها ، إما بخلاً بجاهه ، وإما لحاجة أخرى في نفسه . قال : وكان أبو الهذيل سار إلى سهل بن هارون الكاتب ، وكان خاصاً بالحسن بن سهل يسأله الكلام في أمره ، ويستعينه على ضائقة دفع إليها ، فسار سهل إلى الحسن فكلمه وقال له : قد عرفت أيها الأمير حال أبي الهذيل ومحله وقدره في الإسلام ، وأنه متكلم قومه ، والرادّ على أهل الإلحاد ، وقد فزع إليك لإضاقة هو فيها ، فوعده أن ينظر له ما يصلح حاله . وربما كانت أبيات سهل منبعثة من كونه لاحظ – بعد أن كلم الحسن بن سهل بشأن أبي الهذيل – شيئاً من الفتور ، فلما أُريد على الشفاعة بأبي الهذيل مرة ثانية كتب تلك الأبيات ، ومع هذا ما خلت من نكتة جميلة . وكان أبو الهذيل يأخذ من السلطان في كل سنة ستين ألف درهم ويفرقها على أصحابه .

وأنشد الجاحظ لسهل يهجو رجلاً :

من كان يعمر ما شادت أوائله فأنت تهدم ما شادوا وما سمكوا
ما كان في الحق أن تأبى فَعالهم وأنت تحوي من الميراث ما تركوا

وأجملْ بهذا الهجو الذي اقتصر فيه على الموعظة الحسنة وهو القائل :

إذا امرؤ ضاق عني لم يضق خلقي من أن يراني غنيّاً عنه بالياس
فلا يراني إذا لم يَرْعَ آصرتي مستمراً دِرراً منه بإبساس
لا أطلب المال كي أغني بفضلته ما كان مطلبه فقراً إلى الناس

ومن شعره :

أعان طرفي على جسمي وأعضائي بنظرة وقفت جسمي على دائي
وكنت غِرّاً بما تجني عليّ يدي لا علم لي أن بعضي بعض أعدائي

ونسبوا لسهل قوله :

خلٌّ إذا جئته يوماً لتسأله أعطاك ما ملكت كفاه واعتذرا
يخفي صنائعه والله يظهرها إن الجميل إذا أخفيته ظهرا

هذا هو الشعر الذي يسميه الإفرنج بالشعر الوجداني (Lyrique) وهو كثير في شعر العرب تتجلى فيه مرآة شعور صاحبه ، وما يمليه عليه قلبه ، ويزينه له طبعه .

ومن بدائع سهل : القلم لسان الضمير إذا رَعَف أعلَن أسراره ، وأبان آثاره . وكان يقول : اللسان البليغ والشعر الجيد، لا يكادان يجتمعان في واحد، وأعسر من ذلك أن تجتمع بلاغة الشعر وبلاغة القلم . وكان يقول : سياسة البلاغة أشد من البلاغة ؛ كما أن التوقي على الدواء أشد من الدواء . وقال : بلاغة الإنسان رِفق ، والعيُّ خرق ، وكان كثيراً ما ينشد قول شُتَيم بن خُوَيلد :

ولا يَشْعَبون الصدع بعد تفاقم وفي رِفقِ أيديهم لذي الصدع شاعب

وقال : « لا يُقدم على الخطبة إلا اثنان فائق أو مائق ، أما الفائق فثقته بنفسه تنفي عنه كل خاطر يورث الحجل والانقطاع ، وأما المائق فإنه لا يبالي أخطأ أم أصاب » . وقال : لو أن رجلين خطبا أو تحدثا ، أو احتجا أو وصفا ، وكان أحدهما جليلاً بهيّاً ، ولبيباً نبيلاً ، وذا حسب شريفاً ، وكان الآخر قليلاً قميئاً[1] ، وباذّ الهيئة[2] دميماً ، وخامل الذكر مجهولاً ، ثم كان كلاهما في مقدار واحد من البلاغة ، وفي وزن واحد من الصواب ، لتصدّع عنهما الجمع ، وعامتهم تقضي للقليل الدميم ، على النبيل الجسيم ، وللباذ الهيئة على ذي الهيئة ، ولَشغلهم التعجب منه على مساواة صاحبه له ، ولصار التعجب منه سبباً للعجب به ، ولكان الإكثار في شأنه ، علة للإكثار في مدحه ، لأن النفوس كانت له أحقر ، ومن بيانه أيأس ، ومن حده أبعد ، فإذا هجموا منه على ما لم يكونوا يحتسبونه ، وظهر منه خلاف ما قدروه ، تضاعف حسن كلامه في صدورهم ، وكبر في عيونهم ، لأن الشيء من غير معدنه أغرب ، وكلما كان أغرب ، كان أبعد في الوهم ، وكلما كان أبعد في الوهم ، كان أظرف ، وكلما كان أظرف ، كان أعجب ، وكلما كان أعجب ، كان أبدع ؛ وإنما ذلك كنوادر كلام الصبيان وملح المجانين ، فإن ضحك السامعين من ذلك أشد ، وتعجبهم منه أكثر .

« والناس موكلون بتعظيم الغريب ، واستطراف البعيد ، وليس لهم في الموجود الراهن ، وفيما تحت قدرتهم من الرأي والهوى ، مثل الذي معهم في الغريب القليل ، وفي النادر الشاذ ، وكل ما كان في ملك غيرهم . وعلى ذلك زهد الجيران في عالمهم ، والأصحاب في الفائدة من صاحبهم ، وعلى هذا السبيل يستطرفون القادم عليهم ، ويرحلون إلى النازح عنهم ، ويتركون من هو أعظم نفعاً ، وأكثر في وجوه العلم تصرفاً ، وأخف مؤنة ، وأكثر

---

(١) القميء : الصغير الذليل .

(٢) باذ الهيئة : رثها .

فائدة ؛ ولذلك قدم بعض الناس الخارجيّ على العريق ، والطارف على التليد » .

إلى أن قال : فإذا كان الحب يعمي عن المساوي ، فالبغض أيضاً يعمي عن المحاسن ، وليس يعرف حقائق مقادير المعاني ، ومحصول حدود لطائف الأمور ، إلا عالم حكيم ، ومعتدل الأخلاط عليم ، وإلا قوي المنّة ، الوثيق العقدة ، والذي لا يميل مع ما يستميل الجمهور الأعظم ، والسواد الأكثر .

وقال : للسلطان سكرات ، فمنها الرضى عن بعض من يستوجب السخط ؛ ولذلك قيل : قد خاطر من لجّج في البحر ؛ وأشد منه مخاطرة صاحب السلطان . وقال : العقل رائد الروح ، والعلم رائد العقل ، والبيان ترجمان العلم . وأولى من هذا بالحجة قول النبي صلى الله عليه وسلم للعباس وقد سأله فيم الجمال ؟ فقال : في اللسان .

وقال : ليس الرِّيّ عن التشاف ، من عاش غير خامل المنزلة ، وأفضل على نفسه وأصحابه ، فهو وإن قلّ عمره طويل العمر ، ومن كان عيشه في وحدة وضيق ، وقلّ خيره على نفسه وعلى الناس ، فهو وإن طال عمره قصير العمر ؛ قد يبلغ الخضم القضم ، ويركب الصعب من لا ذَلول له — والكلام الأخير من أمثال العرب — المعنى في التشاف أن يشرب الرجل الشفافة كلها ، وهي بقية الماء في الإناء . يقول قد يروي الشارب قبل بلوغ تلك ، ومعنى المثلين الحض على الرضا بيسير الحاجة إذا أعوزه جليلها .

ومن كلامه : المَلِكُ صبيّ الرضا ، كهل الغضب ، يأمر بالقتل وهو يضحك ، ويستأصل شأفة القوم وهو يمزح ، يخلط الجد بالهزل ، ويتجاوز في العقوبة قدر الذنب ، وربما أحفظه الذنب اليسير ، وربما أعرض صفحاً عن الخطب الكبير ، أسباب الموت والحياة متعلقة بطرف لسانه ، لا يعرف ألم العقوبة فيبقي ، ولا يؤنّب على بادرة فينتهي ، يُخطيء فَيُصَوَّبُ ، ويصيب فيفرَّضُ ، مفتون الهوى ، فظّ الخليقة ، أخرق العقوبة ، لا يمنعه من ذي الخاصة به ما يعلم من عنايته ، وطول صحبته ، أن يقتله بخطرة من

خطرات مَوجدته ، ثم لا ينفك أن يُخْطَب إليه موضعه ، فلا الثاني بالأول يعتبر ، ولا المَلِكُ عن مثل ما فرط منه يزدجر .

وقال سهل للفضل بن سهل : إن الحاجب أحد وجهي الملك يعتبر عليه برأفته ، ويلحقه ما كان في غلظته وفظاظته ؛ فاتخذ حاجبك سهل الطبيعة ، معروفاً بالرأفة ، مألوفاً منه البر والرحمة ، وليكن جميل الهيئة ، حسن البسطة ، ذا قصد في نيته وصالح أفعاله ، ومُرْه فليضع الناس على مراتبهم ، وليأذن لهم في تفاضل منازلهم ، وليعط كلا بسطة من وجهه ، وليستعطف قلوب الجميع إليه ، حتى لا يغشى الباب أحد وهو يخاف أن يقصر به عن مرتبته ، ولا أن يمنع في مدخل أو مجلس أو موضع إذن شيئاً يستحقه ، ولا يمنع أحد من مرتبته ، وليضع كلا عند منزلته وتعهده ، فإن قصر مقصر قام بحسن خلافته وبتزيين أمره .

وقال سهل يوماً وهو عند المأمون : من أصناف العلم ما لا ينبغي للمسلمين أن يرغبوا فيه ، وقد يُرغب عن بعض العلم ، كما يُرغب عن بعض الحلال. قال المأمون : قد يسمى بعض الناس الشيء علماً وليس بعلم ، فإن كنت أردت هذا فوجهه الذي ذكرنا ، ولو قلت : إن العلم لا يدرك غوره ، ولا يسبر قعره ، ولا تبلغ غايته ، ولا تستقصى أصنافه ، ولا يضبط آخره ، فالأمر على ما قلت . فإذا كان الأمر كذلك ، فابدأوا بالأهم فالأهم ، وابدأوا بالفرض قبل النفل ، فإذا فعلتم ذلك كان عدلاً وقولاً صدقاً .

ويقال على الجملة إن من الندرة أن يتم لإنسان من المواهب والبيئة ما تم لسهل ، فهو من عنصر قوي ذي مدنية قديمة راسخة ، ثقّفه المحيط العربي في أرقى بيئة عهدت في التاريخ العربي ، وجاء في عصر زاهر ، ودخل في أمة قوية فتية ، فرفعه علمه وفضله إلى أعلى مقامات الفضل والنبل ، وهيئا له من أسباب النبوغ ما لم يكتب لغير بضعة من رجال الأدب العربي ، وساعده على ذلك طول أجله ؛ إذ لو فرضنا أنه يوم دخل على الرشيد كان ابن ثلاثين ،

وقد قبض سهل إلى ربه في سنة أربع وثلاثين ومائتين على رواية الصلاح الكتبي ، وقال ياقوت سنة ٢١٥ ، والرشيد تولى الخلافة سنة إحدى وسبعين ومائة ؛ وإذا فرضنا أنه اتصل بالرشيد في منتصف عهده ، فلا يكون سهل عُمِّرَ أقل من تسعين سنة . ومن بورك له بأيام حياته يجيء منه في العلم ما لم يجيء من المعتبط كهلاً أو شاباً .

أثره الباقي :

من أجمل ما أُثر لسهل بن هارون من الكتب ، بل كتابه الوحيد الذي ما زال أهل الأدب يتناقلونه خلفاً عن سلف ، كتابه إلى بني عمه من آل راهبون حين ذموا مذهبه في البخل ، وتتبعوا كلامه في الكتب ، قال في فاتحته يُحاجّهم « بسم الله الرحمن الرحيم : أصلح الله أمركم ، وجمع شملكم ، وعلمكم الخير ، وجعلكم من أهله . قال الأحنف بن قيس : يا معشر بني تميم لا تسرعوا إلى الفتنة ، فإن أسرع الناس إلى القتال أقلهم حياءً من الفرار ، وقد كانوا يقولون : إذا أردت أن ترى العيوب جمة فتأمل عيّاباً ، فإنه إنما يعيب بفضل ما فيه من عيب ، وأول العيب أن تعيب ما ليس بعيب ، وقبيح أن تنهى مرشداً ، أو تغري بمشفق .

« وما أردنا بما قلنا إلا هدايتكم وتقويمكم ، وصلاح فاسدكم ، وإبقاء النعمة عليكم . ولئن أخطأنا سبيل إرشادكم ، فما أخطأنا سبيل حسن النية فيما بيننا وبينكم . ثم قد تعلمون أنا ما أوصيناكم إلا بما قد اخترناه لأنفسنا قبلكم ، وشهرنا به في الآفاق دونكم ؛ ثم نقول في ذلك ما قال العبد الصالح لقومه : (وما أريد أن أخالفكم إلى ما أنهاكم عنه ، إن أريد إلا الإصلاح ما استطعت وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب) . فما كان أحقكم في كريم حرمتنا بكم أن ترعوا حق قصدنا بذلك إليكم ، على ما رعيناه من واجب حقكم ، فلا العذر المبسوط بلغتم ، ولا بواجب الحرمة قمتم ، ولو

كان ذكر العيوب برّاً وفضلاً ، لرأينا في أنفسنا عن ذلك شغلاً ، وإن من أعظم الشقوة ، وأبعد من السعادة ، ألاّ يزال يُتذكر زلل المعلمين ، ويُتناسى سوءُ استماع المتعلمين ، ويستعظم غلط العاذلين ، ولا يحفل بتعمد المعذولين » .

بدأ بتقريع أهله والناقمين والناقدين عليه منهم ومن غيرهم ، في إيثار كزازة اليدين على بسطهما ، وأنه أراد بإرادتهم على الخير تعليمهم ، وحفظ فضل أموالهم ، وأنهم أخطؤوا في سوء فهم مراميه ، ولم يرعوا له حرمة ولا ذماماً ؛ وذكرهم بحكمة جميلة ، وهو أن الناس يتذكرون خطيئات المعلمين ، ولا يذكرون جهل المتعلمين ، وعبر عنه بسوءِ الاستماع ، وهو من أرق التعابير ، وذكرهم بالآية الكريمة التي جاءت في العبد الصالح . وبعد أن بلغ من قوله هذا الحد ، وبسط المسألة بينه وبين عاذليه على بخله ، ودعوة الناس إلى طريقته ، وأبان أنه اشتهر بها في العالم ، وأنها مما لا يعده ثلمة في الشرف ، بل فضيلة من فضائل النفس ، بعد هذا أخذ يخاطبهم ويورد لهم الأمثال التي وقعت له في هذا الشأن والتي وقعت لغيره فعدها عبرة ، قال :

« عبتموني بقولي الخادمي : أجيدي عجنه خميراً ، كما أجدته فطيراً ، ليكون أطيب لطعمه وأزيد في ريعه ، وقد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه ورحمه لأهله : أملكوا العجين[1] فانه أحد الرّيعين . وعبتم عليّ قولي من لم يعرف مواقع السرف في الموجود الرخيص ، لم يعرف مواقع الاقتصاد في الممتنع الغالي ، فلقد أتيت من ماء الوضوء بكيلة يدل حجمها على مبلغ الكفاية ، وأشف من الكفاية ، فلما صرت إلى تفريق أجزائه على الأعضاء ، وإلى التوفير عليها من وظيفة الماء ، وجدت في الأعضاء فضلاً على الماء ، فعلمت أن لو كنت مكنت الاقتصاد في أوائله ، ورغبت عن التهاون به في ابتدائه ، لخرج

---

(١) شدوا عجنه .

أوله على كفاية آخره ، ولكان نصيب العضو الأول كنصيب الآخر ، فعبتموني بذلك وشنعتموه بجهدكم وقبحتموه ؛ وقد قال الحسن وذكر السرف : إنه ليكون في الماعونين الماء والكلأ فلم يرض بذكر الماء حتى أردفه بالكلأ » .

بسط قاعدته في البخل بسطاً بديعاً ، وبدأها بما وقع له في الماء ، ثم ثنى في الجملة التالية بما يأتيه من الاحتياط في حفظ الفاكهة والمأكولات محاولاً إقناع مخاطبيه بأن الناس طبقات . وليس من الإنصاف أن يأكل السيد كالمولى ، فإن إطعام الموالي والعبيد أطعمة وثماراً لذيذة قد يمكنهم الاستغناء عنها ، ولكن ساداتهم لا يصبرون عليها إذا انقطعت عنهم بسبب إسرافهم ، وأشار إلى نهم الأولاد ، وسوء إدارة النساء ، قال :

« وعبتموني حين ختمت على سلّ عظيم ، وفيه شيء ثمين من فاكهة نفيسة ، ومن رُطبة غريبة على عبد نَهِم . وصبي جشع ، وأمة لكعاء[1] ، وزوجة خرقاء ، وليس من أصل الأدب ، ولا في ترتيب الحكم ، ولا في عادات القادة ، ولا في تدبير السادة ، أن يستوى في نفيس المأكول ، وغريب المشروب وثمين الملبوس ، وخطير المركوب ، والناعم من كل فن ، واللباب من كل شكل التابع والمتبوع ، والسيد المسود ، كما لا تستوي مواضعهم في المجلس ومواقع أسمائهم في العنوانات . وما يستقبلون به من التحيات . وكيف وهم لا يفقدون من ذلك ما يفقد القادر ، ولا يكترثون له اكتراث العارف ومن شاء أطعم كلبه الدجاج المسمن ، وعلف حماره السمسم المقشر ؛ فعبتموني بالختم ، وقد ختم بعض الأئمة على مزود سويق ، وختم على كيس فارغ ، وقال : طينة خير من ظِنّة ، فأمسكتم عمن ختم على لا شيء ، وعبتم من ختم على شيء » .

ثم تحول في كلامه إلى ذكر أمور جوهرية في الحياة ، ذات شأن خطير

---

(١) امرأة لكاع كقطام لئيمة ؛ والأمة الجارية .

في تدبير المنزل ، كالطعام واللباس ، مستشهداً على صحة قضيته بهدي الرسول ، وإيراد أمثلة ممن يقتدى بهم في هذا الباب من الناس ، فقال :

« وعبتموني حين قلت للغلام ، إذا زدت في المرق فزد في الإنضاج ، لتجمع بين التأدم باللحم والمرق ، ولتجمعَ مع الارتفاق بالمرق الطيب . وقد قال صلى الله عليه وسلم : « إذا طبختم لحماً فزيدوا في الماء ، فإن لم يصب أحدكم لحماً أصاب مرقاً » .

« وعبتموني بخصف النعل[١] ، وبتصدير[٢] القميص ، وحين زعمت أن المخصوفة أبقى وأوطأ ، وأوقى وأنفى للكبر ، وأشبه بالنسك ، وأن الترقيع من الحزم ، والتفريق من التضييع ، والاجتماع مع الحفظ . وقد كان النبي عليه الصلاة والسلام يخصف نعله ، ويرقع ثوبه ، ويلطع إصبعه ويقول : لو دُعيت إلى كراع لأجبت ، ولو أُهـدي إليّ كراع أو ذراع لقبلت . ولقد لَفَقَت سُعدى بنت عوف إزار طلحة وهو جواد قريش ، وهو طلحة الفياض . وكان في ثوب عمر رقاع أدم . وقال : من لم يستح من الحِلال خفت مؤنته ، وقلّ كبره . وقالوا : لا جديد لمن لا يلبس الخَلَق .

« وبعث زياد رجلاً يرتاد له محدّثاً ، واشترط على الرائد أن يكون عاقلاً مسدداً ، فأتاه به موافقاً فقال : أكنت ذا معرفة به ؟ قال : لا ولا رأيته قبل ساعته قال : أفناقلته الكلام ، وفاتحته الأمور ، قبل أن توصله إليّ ؟ قال : لا . قال : فَلِمَ اخترته على جميع من رأيته ؟ قال : يومنا يوم قائظ ، ولم أزل أتعرّف عقول الناس بطعامهم ولباسهم في مثل هذا اليوم ، ورأيت ثياب الناس جُدُداً وثيابه لُبُسا ، فظننت به الحزم . وقد علمنا أن الجدد في موضعه دون الخَلَق . وقد جعل الله عز وجل لكل شيء قدراً ، وبوّأ له موضعاً ،

---

(١) خصف النعل خرزها .

(٢) شد البعير بالتصدير : هو حبل يشد في صدره .

كما جعل لكل دهر رجالاً ، ولكل مقام مقالاً ، وقد أحيا بالسم ، وأمات بالغذاء ، وأغص بالماء ، وقتل بالدواء ، فترقيع الثوب يجمع مع الإصلاح التواضع ، وخلاف ذلك يجمع مع الإسراف التكبر ، وقد زعموا أن الإصلاح أحد الكسبين ، كما زعموا أن قلة العيال أحد اليسارين . وقد جبر الأحنف يد عنز ، وأمر بذلك النعمان . وقال عمر : من أكل بيضة فقد أكل دجاجة . وقال رجل لبعض السادة : أهدي إليك دجاجة . قال : إن كان لا بدّ فاجعلها بياضة . وعد أبو الدرداء العُراق جَزَر البهيمة[1] » .

صفحة جميلة من تدبير المعاش والاقتصاد ، أراد بها تعليم المتنقصين له درساً نافعاً في الترتيب والنظام ، وألقى عليهم مثلاً حسناً لا يسع حتى المسرف أن ينقضه ، وقد شفع كلامه بأمثلة ليس في مقدور أحد إنكارها ، ولا تبلغ به الحال مهما بلغ من السرف والترف ، أن يقول إن من ذكرهم ليسوا قدوة صالحة . وبعد ذلك التفت التفاتة أخرى ، وبين لخصومه فضيلة الإمساك في المال والحرص عليه ، لما يجلب الاستهتار من العوز فقال :

« وعبتموني حين قلت : لا يغترن أحد بطول عمره ، وتقوس ظهره ، ورقة عظمه ، ووهن قوته ، أن يرى أكرومته ، ولا يخرجه ذلك إلى إخراج ماله من يديه ، وتحويله إلى ملك غيره ، وإلى تحكيم السرف فيه ، وتسليط الشهوات عليه ، فلعله أن يكون معمّراً وهو لا يدري ، وممدوداً له في السن وهو لا يشعر ، ولعله أن يرزق الولد على اليأس ، ويحدث عليه بعض مخبآت الدهور مما لا يخطر على البال ، ولا تدركه العقول ، فيسترده ممن لا يرده ، ويظهر الشكوى إلى من لا يرحمه ، أضعف ما كان عن الطلب ، وأقبحَ ما يكون به الكسب . فعبتموني بذلك وقد قال عمرو بن العاص : إعمل لدنياك عمل من يعيش أبداً ، واعمل لآخرتك عمل من يموت غداً .

---

(١) العراق : العظم أكل لحمه ، والجزر بالتحريك أرومة تؤكل .

« وعبتموني حين زعمت أن التبذير إلى مال القمار ومال الميراث ، وإلى مال الالتقاط وحباء الملوك أسرع ، وأن الحفظ إلى المال المكتسب ، والغنى المجتلب والى ما يعرض فيه لذهاب الدين ، واهتضام العرض ، ونصب البدن ، واهتمام القلب أسرع ، وأن من لم يحسب ذهاب نفقته لم يحسب دخله ، ومن لم يحسب الدخل فقد أضاع الأصل ، وأن من لم يعرف للغنى قدره ، فقد أذن بالفقر ، وطاب نفساً بالذل .

« وعبتموني بأن زعمت أن كسب الحلال مُضَمّنٌ بالإنفاق في الحلال ، وأن الخبيث ينزع إلى الخبيث ، وأن الطيب يدعو إلى الطيب ، وأن الإنفاق في الهوى حجاب دون الحقوق ، وأن الإنفاق في الحقوق حجاز دون الهوى ، فعبتم عليّ هذا القول وقد قال معاوية : لم أرَ تبذيراً قط إلا وإلى جانبه حق مضيّع . وقد قال الحسن : إذا أردتم أن تعرفوا من أين أصاب الرجل ماله ، فانظروا في أي شيء ينفقه ، فإن الخبيث إنما ينفق في السرف .

« وقلت لكم بالشفقة عليكم ، وبحسن النظر مني لكم ، وبحفظكم لآبائكم ، ولما يجب في جواركم ، وفي ممالحتكم وملابستكم ، وأنتم في دار الآفات ، والجوائح غير مأمونات ، فإن أحاطت بمال أحدكم جائحة ، لم يرجع إلى بقية ، فأحرزوا النعمة باختلاف الأمكنة ، فإن البلية لا تجري في الجميع إلا مع موت الجميع . وقد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه في العبد والأمَة ، وفي ملك الشاة والبعير ، وفي الشيء الحقير اليسير : فَرّقوا بين المنايا ، واجعلوا الرأس رأسين . وقال ابن سيرين لبعض البحريين : كيف تصنعون بأموالكم قال : نفرقها في السفن ، فإن عَطِب بعض سلم بعض ؛ ولولا أن السلامة أكثر لما حملنا أموالنا في البحر . قال ابن سيرين : تحسبها خرقاء وهي صَنَاعٌ[1] »

---

(١) صناع حاذقة .

وبعد هذا الكلام الممتع ، مثّل سهل صورة جديدة في الأخلاق العارضة على من استغنى ، وحذر من الوقوع فيها لئلا تؤدي إلى الفقر ، وهو أبشع ضروب المظاهر ، وبين العلة في قوله إن المال مقدم على العلم ، لأن بالمال يكتسب العلم ، ويعرف قدر العلم فقال :

« وقلت لكم عند إشفاقي عليكم أن للغنى سكرة ، وأن للمال نزوة ، فمن لم يحفظ الغنى من سكره فقد أضاعه ، ومن لم يرتبط المال بخوف الفقر فقد أهمله ، فعبتموني بذلك وقد قال زيد بن جَبَلة ليس أحد أقصر عقلاً من غنيّ أمِنَ الفقر ، وسكر الغنى أشد من سكر الخمر . وقلتم قد لزم الحث على الحقوق ، والتزهيد في الفضول ، حتى صار يستعمل ذلك في أشعاره بعد رسائله ، وفي خطبه بعد سائر كلامه ؛ فمن ذلك قوله في يحيى ابن خالد :

عدو تِلاد المـــال فيما ينوبه ممنوع إذا ما منعه كان أحزما

ومن ذلك قوله في محمد بن زياد :

وخليقتان تُقىً وفضل تحرّم وإهـــانة في حقه للمال

« وعبتموني حين زعمت أني أقدم المال على العلم ، لأن المال به يغاث العالم ، وبه تقوم النفوس قبل أن تعرف فضيلة العلم ، وأن الأصل أحق بالتفضيل من الفرع ، وأني قلت وإن كنا نستبين الأمور بالنفوس ، فإنا بالكفاية نستبين ، وبالخلة نعمى ؛ وقلتم كيف تقول هذا وقد قيل لرئيس الحكماء ، ومقدم الأدباء ، العلماءُ أفضل أم الأغنياء ؟ قال بل العلماء . قيل فما بال العلماء يأتون أبواب الأغنياء ، أكثر مما يأتي الأغنياء أبواب العلماء ؟ قال : لمعرفة العلماء بفضل الغنى ، ولجهل الأغنياء بفضل العلم . فقلت : حالهما هي القاضية بينهما ، وكيف يستوي شيءٌ ترى حاجة الجميع إليه ، وشيءٌ يغني فيه بعضهم عن بعض ؟

« وعبتموني حين قلت إن فضل الغنى على القوت ، إنما هو كفضل

الآلة تكون في الدار ، إن احتيج اليها استعملت ، وإن استغني عنها كانت عدة . وقد قال الحصين بن المنذر : وددت أن لي مثل أُحد ذهباً ، لا أنتفع منه بشيء . قيل فما ينفعك من ذلك ؟ قال : لكثرة من يخدمني عليه . وقال أيضاً : عليك بطلب الغنى ، فلو لم يكن لك فيه إلا أنه عزّ في قلبك ، وشبهة في قلب غيرك ، لكان الحظ فيه جسيماً ، والنفع به عظيماً » .

وختم كتابه في أنه لن يبدل من خلقه في الشح ، وفي الدعوة إلى تزيينه للناس ، وأورد جملاً لجماعة من المشهورين بالعقل ، وذكّر جماعته في ختام حديثه بما يجب عليهم قبل أن يذكروا ما لهم وذلك بقوله :

« ولسنا نَدَعُ سيرة الأنبياء ، وتعليم الخلفاء ، وتأديب الحكماء ، لأصحاب الأهواء . كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمر الأغنياء باتخاذ الغنم ، والفقراء باتخاذ الدجاج . وقال : درهمك لمعاشك ، ودينك لمعادك . فقسموا الأمور كلها على الدين والدنيا ، ثم اجعلوا أحد قسمي الجميع الدرهم . وقال أبو بكر الصديق رحمه الله : إني لا أبغض أهل البيت ينفقون رزق الأيام في اليوم الواحد ، وكانوا يبغضون أهل البيت اللّحِمِين [١] . وكان هشام يقول : ضع الدرهم على الدرهم يكون مالاً . ونهى أبو الأسود الدؤلي ، وكان حكيماً أديباً ، وداهياً أريباً ، عن جودكم هذا المولّد ، وعن كرمكم هذا المستحدث . فقال لابنه : إذا بسط الله لك في الرزق فابسط ، وإذا قبض فاقبض ، ولا تجاود الله ، فإن الله أجود منك . وقال : درهم من حِلٍّ يخرج في حقٍ خير من عشرة آلاف قَبَضاً [٢] . وتلقّط عرُنْدا [٣] من بَريم فقال : تضيعون مثل هذا وهو قوت امرىء مسلم

---

(١) الذين يكثرون أكل اللحم .

(٢) مال الغنيمة قبل أن يقسم .

(٣) الجملة محرفة ولعل العبارة « عرما من ثرتم » العرم : بقية القدر ، والثرتم : كقنفذ ما فضل من الطعام والإدام في الإناء والقصعة .

يوماً إلى الليل . وتلقط أبو الدرداء حبات حنطة ، فنهاه بعض المسرفين فقال : « إيه ابنَ العبسية إن مرفقة المرء رفقه في معيشته » . فلسّم علي تردون ولا رأيي تفندون ؛ فقدموا النظر قبل العزم ، وتذكروا ما عليكم قبل أن تذكروا مالكم والسلام اه » .

خاتمـــة :

وبعد فهذه صفات سهل بن هارون ، وهذا نثره ، بل هذا فكره وعقله ؛ تعرفنا على الجملة بالقليل المأثور عنه ، طريقته وحقيقته ، وعلمنا كيف يبالغ في تنوّق كرائم ألفاظه ، ويسلكها في سلكه ، ويرصعها في عقوده ، فتجيء جزالة من دون تعمل ، وسلاسة من غير ما تبذل ، ونمطاً عالياً من السهل الممتنع ، يتدفق حكمة ، ويسيل بياناً .

سهل بن هارون أحد أفراد قلائل ، زانوا بما صاغوا من الكلام أدب العرب ، واختطوا لمن بعدهم خطط التفكير والتصوير على النمط الفارسي العربي ، وكلامه في بابه لباب البلاغة ، ومثال الفصاحة ، لا تَبلى جِدّته على وجه الأيام ، ولا يحتاج في الحكم عليه إلى محكمة نقض وإبرام .

عمرو بن مَسعدة

عصره :

من أجمل عصور الأمة العربية ، عصر المأمون العباسي ، كان السلطان الأكبر فيه للعقل ؛ وقلّ المتوثبون على الخلافة ، والعابثون بأهواء الناس ، وانصرفت الأمة إلى شؤونها في ظل السلام ، فزادت سعادتها ، وشملتها الرفاهية والهناء ؛ نظر المأمون في ماضي الملة وحاضرها ، فرأى أن أعظم ما يكدر شرعة سياستها ، طموح آل البيت إلى الخلافة منذ أوائل العهد الإموي ، يهتبلون الغرة للاستيلاء على زمام الأمر ، فيضطرب كل بلد نجم فيه ناجم منهم .

وكان آل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب منذ عهد المنصور ومن بعده يتوجسون خيفة من قوة العباسيين ، فيستَخْفُون ويبتعدون عن الناس ، فخفيت بعزلتهم عن العوام حقيقة أمورهم ، وظنوا فيهم ما يظنونه بالأنبياء ، وأنشأوا يتفوهون في صفتهم بما يخرجهم عن الشريعة من التغالي ، فنظر المأمون في هذا الأمر نظراً بليغاً وقال : لو ظهروا للناس ورأوا فسق الفاسق منهم وظلم الظالم ، لسقطوا من أعينهم ، ولانقلب شكرهم لهم ذمّاً . ثم قال : إذا أمرناهم بالظهور خافوا واستتروا وظنوا بنا سوءاً ، وإنما الرأي أن نقدم أحدهم ويظهر لهم إمام ، فاذا رأوا هذا أنسوا وظهروا ، وأظهرو ما عندهم من حركات الآدميين ، فيتحقق للعوام حالهم ، وما هم عليه مما خفي بالاختفاء .

واستشار المأمون خاصته فأشاروا عليه بعلي بن موسى الرضا ، فعقد له ولاية العهد من بعده ، « لما رأى من فضله البارع ، وعلمه الناصع ، وورعه الظاهر ، وزهده الخالص ، وتخليه عن الدنيا » ولقبه الرضا من آل محمد ، وساوى بين آل علي وآل هاشم ، غاضاً الطرف عن شكاية بني العباس . وكانوا قد بلغ عددهم لعهده ثلاثة وثلاثين ألف إنسان . وبذلك استقرت الحال ، وكفيت المملكة شر الغوائل الداخلية .

تجلى عقل المأمون في هذه الطريقة الجديدة ، بيد أن عمله لم يرض عنه الشيعة ولا السنة : الشيعة لا يرضيهم إلا القبض مباشرة على قياد الأمر ، وإزالة كل مُلك إلا لشيعتهم ، والقضاء على كل خليفة وخلافة ؛ والسّنة لأنه عهد بولاية العهد إلى أمثل رجل علوي في عصره ، فحاذروا ان تخرج الخلافة عنهم ، وتهامسوا بشيعية المأمون ، وهو فوق ما تصوروا وقدروا ، اتخذ خصومه من هذا العمل حجة لإفضاء الخلافة إليهم ، فأبدوا نواجذ الشر ولكنهم لم يفلحوا .

أما صلات المأمون مع الدول المجاورة فكانت حسنة في الجملة ، خصوصاً مع صاحب الروم ، ومملكة هذا ظلت في ذاك العصر على شيء من التماسك والقوة أمام سلطان العرب ، بيد أن كلمة المأمون كانت هي العليا في فض كل خلاف يعبث بحقوق الجوار ، ويشوه وجه السلام الجميل . كتب توفيل بن ميخائيل صاحب الروم مع وزيره يطلب من المأمون الصلح وعرض الفدية ، ومما قال في كتابه : وقد كنتُ كتبتُ إليك داعياً إلى المسالمة ، راغباً في فضيلة المهادنة ، لتضع أوزار الحرب عنا ، ونكون كل واحد لكل واحد ولياً وحزباً ، مع اتصال المرافق ، والفسح في المتاجر ، وفك المستأسر ، وأمن الطرق والبيضة » فكتب اليه المأمون يهدده برجاله : « الذين يتقربون إلى الله بدماء الروم ، وهم أظمأ إلى ورود المنايا منهم إلى السلامة » ، جاء في آخره « غير أني رأيت أن تقـدم إليك بالموعظة التي يثبت الله بها عليك الحجة من الدعاء لك ولمن معك ، إلى الوحدانية والشريعة الحنيفة ، فان

أبيت ففدية توجب ذمة » . ومن دعوة المأمون ملك الروم إلى الاسلام تفهم عزة الأمة في عصره ، ثم حدثت أحداث في بعض بلاد الشرق وديار مضر وربيعة واليمن ، فأُطفئت نائرتها ولم تتعد الأرض التي انبعثت شرارتها منها ؛ قال الهمداني : « وقد كانت للخلفاء فتوح ، ولكنه لم يتسق لأحد ما اتسق للمأمون وعبد الملك بن مروان والمعتصم بالله ، إلا ان فتوح المأمون وعبد الملك كانت لمن قصد إلى ملكهما ، فبلغا في ذلك ما لم يبلغه أحد في الإسلام من الملوك » ومن يختار كالخليفة المأمون لحماية البيضة وقيام الدولة أمثال طاهر بن الحسين ، وعبد الله بن طاهر ، وهرثمة ابن أعين ، والفضل بن سهل ، وسهل بن هارون ، وعمر بن مسعدة إلى غيرهم من القواد والوزراء والكتاب والعمال ، لا يلقى عمله غير النجاح ، ولا يعتري سلطانه ضعف ووهن .

أتم المأمون ما بدأ به جده المنصور وأبوه الرشيد من ترجمة كتب الأوائل ، واستجادة مهرة التراجمة لنقل الكتب التي أخذها من الروم ، وندب ابن البطريق إلى الروم ليأتيه بكتاب السياسة لأرسطو الذي ألفه للإسكندر ، وكان مكتوباً بالذهب المحلول ، في رق مصبوغ بالفرفير ، منقوطاً بالفضة البيضاء المحلولة ، فرجع إلى الحضرة ظافراً بالمراد ، وسعى ، كما قال بعون الله وبسَعد أمير المؤمنين وَجَده ، في ترجمته ونقله من اللسان اليوناني إلى اللسان العربي .

وكان الرشيد بدأ بترجمة الكتب الطبية القديمة التي وجدها بأنقرة وَعمّورية وسائر بلاد الروم حين افتتحها ؛ ولما ولي المأمون الخلافة أتم ما كان شرع فيه أبوه ، فأخذ يغدق صلاته على المترجمين والفلاسفة ، وربى المأمون بني شاكر محمداً وأحمد والحسن حتى صاروا علماء، فحققوا طول محيط الأرض ، وكانوا يرزقون النقلة نحو خمسمائة دينار في الشهر ، وكان دَخل محمد وحده أربعمائة ألف دينار .

وجمع المأمون بعض حكماء عصره على صنعة الصورة التي نسبت إليه ، ودُعيت الصورة المأمونية ، صوروا فيها العالم بأفلاكه ونجومه وبره وبحره وعامره وغامره ، ومساكن الأمم والمدن إلى غير ذلك ؛ وقد وضع له علماء رسم الأرض ، وكانوا سبعين رجلاً ، كتاباً في الجغرافية أعان عمال الدولة على التعرف إلى البلاد والأمم التي أظلتها الراية العباسية .

وسأل المأمون ملك الروم صلته بما لديه من كتب الفلاسفة ، فبعث إليه منها بما حضره من كتب أفلاطون وأرسطو وأبقراط وجالينوس وقليدس وبطليموس وغيرهم من الفلاسفة ، فترجمت له وحضّ الناس على قراءتها ، ورغبهم في تعلمها ، فنفقت سوق العلم في زمانه ، وتنافس أولو النباهة في العلوم ، لما كانوا يرون من إحظائه لمنتحليها ، وكان يخلوا بهم ويأنس بمناظرتهم ، وكذلك كانت سيرته مع سائر العلماء والفقهاء والمحدثين والمتكلمين وأهل اللغة والأخبار والمعرفة بالشعر والنسب .

وازدان عصر المأمون بكثير من حملة الشريعة والأدب ، وكان الشعراء والكتاب طبقة عالية كثيرة العدد والحصى ، جيدة المنحى والأسلوب ، تأثروا كلهم بالحضارة الجديدة حتى غدا الشعر الإسلامي ظاهر الاختلاف عن الشعر الجاهلي ، بعيداً عن وصف الأطلال والدمن والركاب ، وطلب الثأر والمفاخرات ، والجمهور يشارك الأدباء في فهم الشعر ، ويقدر الخطب والرسائل قدرها ، ولم يكن الشعراء في وادٍ والأمة في آخر ؛ بل كان الشاعر أو الكاتب إذا قرض شعراً أو حبر خطاباً تتناقله الأيدي في الحال ، وتتعاوره الرواة فيفشو في الأمصار ، وهذا ما كان يزيد في طلاوة أدب الأديب ، وشعر الشاعر ، وخطبة الخطيب .

أعمال الكبير كبيرة ، والمأمون العظيم بأعماله وأقواله كان خليفة المسلمين بكل ما في لفظ الخلافة من معنى شريف ، يجمع مصالح الدين والدنيا ؛

كان رحمه الله يفكر منذ عهد بعيد في خلق القرآن حتى اعتقد أن كل من لم يقل بقوله ضالّ ، فوضع هذا المبحث موضع المناقشة بين العلماء ، فقال السواد الأعظم بقوله ، وأبى بعضهم تورعاً أن يوافقوه على أن القرآن مخلوق ، فطلبهم للبحث ، وكان في مصيفة في الرّقة ، وكتب الى عامله في بغداد أن يمتحن القضاة والمحدثين ويكشفهم عما يعتقدون في خلق الله القرآن وإحداثه ، وقال له : « وأعلمهم أن أمير المؤمنين غير مستعين في عمله ، ولا واثق فيما قلده الله واستحفظه من أمور رعيته ، بمن لا يوثق بدينه ، وخلوص توحيده ويقينه » و « أنه لا توحيد لمن يقر بأن القرآن مخلوق » وأمر أيضاً بأن يكتب إلى الآفاق بذلك ؛ وقد أحدث هذا الرأي ضجة في الأمة شأن كل فكر جديد ينقسم فيه الناس إلى مثبت ونافٍ ، ودل بعض الممتنعين عن التصريح بما لا يعتقدونه على الأخذ بالاحتياط في دينهم ، فأوذي بعضهم وما أراد المأمون أذاهم ، وقبض إلى ربه وبعض الذين توقفوا عن التصريح بما أُريدوا على البيان فيه قيد السجن ، فاتخذ أعداؤه من ذلك سبيلاً إلى النيل منه ، وسموا ذلك المحنة ؛ وفي هـذا العصر الزاهر نشأ عمرو بن مسعدة .

أصله وحياته ونشأته :

هو عمر بن مسعدة بن سعد بن صُول ، وصُول كان رجلاً تركيّاً وكان مُلّك وأخوه فيروز على جرجان ، وتمجسا بعد التركية ، وتشبها بالفرس ، وصول لقب ملوك دهستان ، كان يطلق عليهم كما يطلق شاهنشاه وكسرى على ملوك الفرس الساسانية .

ولما وافى يزيد بن المهلب بن أبي صُفرة في ولاية سليمان بن عبد الملك ابن مروان جرجان أمّن الأخوين ، فأسلم صُول على يده ، وغدا محمد بن صول من رجال الدولة العباسية ودعاتها بعد ذلك . وكان بعض أهليهم

أدعوا أنهم عرب ، وأن العباس بن الأحنف الشاعر خالهم . وقيل إن أبا الفضل عمرو بن مسعدة هو مولى خالد القسري ، وقيل بل كان مسعدة والد عمرو مولى خالد بن عبد الله القسري أمير العراق ، وكان يكتب له ، وكتب لخالد بن برمك ، ثم كتب بعده لأبي أيوب وزير المنصور على ديوان الرسائل .

وكان لمسعدة أربعة بنين : مجاشع ومسعود وعمرو ومحمد ؛ ومجاشع هو الذي يقول فيه أبو العتاهية :

علمت يا مجاشع بن مسعدة　　أن الشباب والفراغ والجدة
مَفسَدة للمرء أي مَفسدة

عمل الكاتب ابن الكاتب عمرو بن مسعدة للدولة ، فظهرت كفايته وبلاغته ، فعدّ أحد أفراد قلائل في رجال الخليفة . قال أحمد بن يوسف الكاتب : دخلت يوماً على المأمون وبيــده كتاب يعاود قراءته تارة بعد أخرى ، ويُصعد فيه ويصوب ، فلما مرت على ذلك مدة من زمانه التفتَ إليّ وقال : يا أحمد أراك مفكراً فيما تراه مني ، قلت : نعم ، فقال : إن في هذا الكتاب كلاماً نظير ما سمعت الرشيد يقول في البلاغة ، زعم أن البلاغة إنما هي التباعد عن الإطالة ، والتقرب من معنى البغية ، والدلالة بالقليل من اللفظ على الكثير من المعنى ، وما كنت أتوهم أن أحداً يقدر على ذلك ، وقال : هذا كتاب عمرو بن مسعدة إلينا ، ففككته فاذا فيه : « كتابي إلى أمير المؤمنين ، ومن قِبَلي من قواده ، ورؤساء أجناده ، في الانقياد والطاعة على أحسن ما تكون طاعة جند تأخرت أرزاقهم ، وانقياد كفاة تراخت أعطياتهم[1] ، فاختلت لذلك أحوالهم ، والتاثت[2] معه أمورهم » . فلما قرأته قال : إن استحساني إياه بعثني أن أمرت للجند قِبَله بأعطياتهم

(١) العطاء ويمد ، ما يعطى كالعطية ج أعطية جج أعطيات ، وتراخت تقاعست وتأخرت
(٢) الالتياث الاختلاط .

لسبعة أشهر ، وأنا على مجازاة الكاتب بما يستحقه مَنْ حلّ محله في صناعته . وفي رواية ان المأمون أمر لعمرو بن مسعدة برزق ثمانية أشهر ، وأنه قال لأحمد بن يوسف : لله در عمرو ما أبلغه ، ألا ترى إلى ادماجه المسألة في الإخبار ، واعفائه سلطانه عن الإكثار .

وكان عمرو بن مسعدة ، وكنيته أبو الفضل ، أبيض أحمر الوجه ، وكان المأمون يسميه الرومي لبياض وجهه ، وكان يخضب ، وتوفي بأذَنَةَ سنة سبع عشرة ومائتين ؛ ولم نعرف منشأه ومولده وأساتيذه ، وغاية ما عرفناه أنه كان أحد إخوة أربعة أحسن أبوهم تربيتهم حتى جاءت من أحدهم هذه البلاغة النادرة ، التي كان من أثرها أن أصبح عشير المأمون ، وكان هو وأبو عباد ثابت بن يحيى يكتبان بين يديه ويخلوان معه ويمازحانه ؛ ولكي يصل الرجل إلى هذا المقام مع مثل هذا الخليفة العظيم في كل شؤونه يجب أن ينطوي على صفات عالية يعزّ مثلها في الأقران والأتراب ؛ وفي تاريخ بغداد أنه روى الحديث عن جماعة ، ووصفوه بأنه الكاتب الرسائلي ، وأنه كان يقول الشعر بفضل أدبه .

قال عمرو بن مسعدة : كنت أُوقع بين يدي جعفر بن يحيى البرمكي فرفع اليه غلمانه ورقة يستزيدونه في رواتبهم فرمى بها إليّ وقال : أجب عنها ، فكتبت : « قليل دائم خير من كثير منقطع » فضرب بيده على ظهري وقال : أي وزير في جلدك . وقد شهد لعمرو بن مسعدة بالبلاغة أعيان البيان في عصره ، ومنهم الفضل بن سهل فقال فيه : إنه أبلغ الناس ، ومن بلاغته أن كل أحد إذا سمع كلامه ظن أنه يكتب مثله ، فإذا رامه بَعُدَ عليه . وهذا كما قيل لأحد البلغاء : ما حدّ البلاغة ؟ فقال : التي إذا سمعها الجاهل ظن أنه يقدر على مثلها ، فإذا رامها استصعبت عليه .

ولم يؤثر عن عمرو أنه ألف في موضوع خاص ، وأفرد مسألة في التأليف ، وإن قالوا ان له رسائل وأقوالا . وعده ابن النديم في الشعراء الكتاب ،

لم يذكر إلا أن له ولأخيه مجاشع خمسين ورقة من الشعر ؛ والغالب أن مهام الدولة لم تترك له وقتاً يصرفه في درس خاص ، أووضع كتاب أو رسالة ، وما تلقطه العلماء والأدباء من كلامه هو مما رواه له المعجبون به ، وما أعظم المفقود منه . والمظنون أن لو كانت جمعت له رسائله على إيجازها لكان منها ديوان كبير ، لأنه صرف أعواماً طويلة وهو قابض على يراعته يعالج بها الموضوعات المهمة في ذاك المجتمع العظيم .

وأفادنا ابن عساكر أن عمرو بن مسعدة زار دمشق مع المأمون ، وأنه من رجال الحديث فأسند حديثاً عن المأمون في سندٍ ذكره عن عمرو بن مسعدة ، قال : سمعت المأمون أمير المؤمنين يقول : حدثني أبي عن أبيه عن عمه عبد الصمد بن علي بن عبد الله بن عباس عن أبيه عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « علقوا السوط حيث يراه أهل البيت فإنه أدب لهم » ؛ وفي الأمثال : « علق سوطك حيث يراه أهلك » ، والمعنى اجعل نفسك بحيث يهابك أهلك ، ولا تغفل عنهم وعن تخويفهم وردعهم .

ولم نعلم نوع الدراسة التي انصرفت اليها همة عمرو بن مسعدة في صباه حتى بلغت به البلاغة ذاك المقام ، بيد أن ظواهر الحال تدل كل الدلالة على أن من كان هذا شأنه من الكتابة في ذاك العصر الزاهي بمن يشار اليهم بالبنان في البيان ، يستحيل أن يبلغ هذا المبلغ إلا بأدوات كثيرة ، بل لا يتأتى له ذلك إلا بجميع أدوات البيان والشريعة ، يجمعها إلى ما خُصت به فطرته من سلامة الطبع وجودة الإبداع ، وفوق ذلك لا بدّ له من التخرج بهذه الصناعة أعواماً طويلة ، وصحف التاريخ لم تعرفنا عمرو بن مسعدة إلا أنه تام الأدوات ، كأن بلاغته مما ارتجل ارتجالاً ، او مما وهبته له الفطرة عرضاً ؛ وصرف عمرو أيام حيـــاته على ما يظهر بالتصرف ، جعل نفسه وقفاً على مهام الخلافة ، فأقبلت عليه الدنيا إقبالاً عظيماً ، فنعم ولذّ

واغتبط ، وقصده القاصدون ، وطابت نفسه باصطناعهم والإحسان إليهم ، وعطف على العفاة والقصاد فاستكثر من الأنصار ، وانبسطت نفسه ويده بالعطاء ، فتعشقته نفوس الناس وأهل الدولة ؛ والخليفة من وراء ذلك يمده ، ويطلق يده في المال والنوال ؛ ومن جعل كده في هذه الأعمال يتعذر عليه أن ينقطع إلى نفسه أياماً يصرفها في عمل يخلد به ذكره ، ويعم القاصي والداني والحاضر والمقبل نفعه ، وما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه .

واختلفوا في كون عمرو بن مسعدة ولي الوزارة أو لم يتولها ، فقال ياقوت : سماه بعض الشعراء وزيراً لعظم منزلته لا لأنه كان وزيراً . وقال المسعودي : إن المأمون استوزر الفضل بن سهل ثم أخاه الحسن بن سهل ، فلما أظهر العجز عن الخدمة لعوارض من العلل ولزم منزله ، عدل المأمون إلى استكتاب كُتّاب لعلمه بكتابتهم وجزالتهم ، وأنه ليس في عصرهم من يوازيهم ولا يدانيهم ، فاستوزرهم واحداً بعد واحد أولهم أحمد بن أبي خالد ، ثم أحمد بن يوسف ، ثم أبو عباد ثابت بن يحيى ، وعمرو بن مسعدة بن صُول ، وكان يجري مجراهم ولا يعده كثير من الناس في الوزراء ، قال : ولم يكن يسمى بين يدي المأمون أحد من كتابه وزيراً ، ولا يكاتب بذلك ، فلأجل هذا ترك كثير من الناس أن يعد من ذكرنا في الوزراء . ومهما كان فالرتبة التي بلغها عمرو بن مسعدة وزارة وزيادة ، وكان إليه ديوان الرسائل وديوان الخاتم والتوقيع والأزِمّة ، وسواء تقلد الوزارة أم لم يتقلدها فإن العظائم التي كان يندب إليها تدل على درجة الثقة به .

شيء من كلامه :

ومن كلام عمرو بن مسعدة : أعظم الناس أجراً ، وأنبههم ذكراً ، من لم يرض بموت العدل في دولته ، و (يتوخّى) ظهور الحجة في سلطانه ، وإيصال المنافع إلى رعيته في حياته . وأسعد الرعاة من دامت سعادة الحق

في أيامه ، وبعد وفاته وانقراضه . وقال : الخط صور الكتب ترد إليها أرواحها . وكان يقول : الخط صورة جميلة لها معان جليلة ، وربما ضاق عن العيون ، وقد ملأ أحظار الفنون .

ونسب إليه : لا تصحب من يكون استمتاعه بمالك وجاهك ، أكثر من إمتاعه لك بشكر لسانه وفوائد علمه ، ومن كانت غايته الاحتيال على مالك وإطراءك في وجهك ، فإن هذا لا يكون إلا رديء الغيب ، سريعاً إلى الذم .

وكتب إلى الحسن بن سهل : أما بعد فإنك ممن إذا غرس سقى ، وإذا أسس بنى ، ليستتم تشييد أسه ، ويجتني ثمار غرسه ، وثناؤك عندي قد شارف الدروس ، وغرسك مشفٍ على اليبوس ، فتدارك بناء ما أسست ، وسقْيَ ما غرست ؛ إن شاء الله .

وكتب إلى بعض أصحابه في شخص يعزّ عليه : أما بعد فموصل كتابي إليك سالم والسلام . أراد قول الشاعر :

يُديرونني عن سالم وأديرهم　　وجلدة بين العين والأنف سالم

أي يحل مني هذا المحل .

وكتب إلى المأمون في رجل من بني ضَبة يستشفع له بالزيادة في منزلته وجعل كتابه تعريضاً : « أما بعد فقد استشفع بي فلان يا أمير المؤمنين لتطوّلك عليَّ ، في إلحاقه بنظرائه من الخاصة فيما يرتزقون به ، وأعلمته أن أمير المؤمنين لم يجعلني في مراتب المستشفعين ، وفي ابتدائه بذلك تعدى طاعته والسلام » ، فكتب إليه المأمون : قد عرفنا توطئتك له ، وتعريضك لنفسك ، وأجبناك إليهما ، ووافقناك عليهما اهـ . وقوله : « إن أمير المؤمنين لم يجعلني في مراتب المستشفعين وفي ابتدائه بذلك تعدى طاعته » من الكلام السّريّ الذي يدل على مبلغ أدب عمرو ، وبعد غوره في السياسة ، ووقوفه على نفسية الخلفاء .

قدم رجل من أبناء دهاقين (١) قريش على المأمون لعِدَة سلفت منه ، فطال على الرجل انتظار خروج أمر المأمون ، فقال لعمرو بن مسعدة : تُوصل مني رقعة إلى أمير المؤمنين تكون أنت الذي تكتبها تكن لك عليَّ نعمتان . فكتب : « إن رأى أمير المؤمنين أن يفك أسر عبده من ربقة المطل بقضاء حاجته ، أو يأذن له بالانصراف إلى بلده فعل إن شاء الله » . فلما قرأ المأمون الرقعة دعا عمراً ، فجعل يعجب من حسن لفظها ، وإيجاز المراد . فقال عمرو : فما نتيجتها يا أمير المؤمنين . قال : الكتاب له في هذا الوقت بما وعدناه ، لئلا يتأخر فضل استحساننا كلامه ، وبجائزة مائة ألف درهم ، صلة عن دناءة المطل ، وسماجة الإغفال .

وكتب عمرو بن مسعدة عن المأمون إلى أحد الخوارج عليه ، نصر بن شبث : أما بعد فانك يا نصر بن شبث قد عرفت الطاعة وعزّها ، وبرد ظلها ، وطيب مرتعها ، وما في خلافها من الندم والخسارة ، وإن طالت مدة الله بك ، فإنه إنما يُملي لمن يلتمس مظاهرة الحجة عليه لتقع عِبَرُه بأهلها على قدر اصرارهم واستحثاثهم ، وقد رأيت إذكارك وتبصيرك لما رجوت بما أكتب به إليك موقعاً منك ، فإن الصدق صدق ، والباطل باطل ؛ وإنما القول بمخارجه وبأهله الذين يُعنون به ، ولم يعاملك من عمال أمير المؤمنين أحد أنفع لك في مالك ودينك ونفسك ، ولا أحرص على استنقاذك والانتياش لك من خطائك مني . فبأي أول أو آخر أو واسطة أو إمرة ، إقدامك يا نصر على أمير المؤمنين تأخذ أمواله ، وتتولى دونه ما ولاه الله ، وتريد أن تبيت آمناً أو مطمئناً أو وادعاً أو ساكناً أو هادئاً ؛ فوعالم السر والجهر ، لئن لم تكن للطاعة مراجعاً ، وبها خانعاً ، لتستوبلن وَخَم العاقبة ، ثم لأبدَأنّ بك قبل كل عمل ، فإن قرون الشيطان إذا لم تُقطع كانت في الأرض فتنة وفساداً كبيراً ، ولأطأن بمن معي من أنصار

---

(١) الدهاقين الزعماء أرباب الأملاك بالسواد واحدهم دهقان بكسر الدال معرب .

الدولة كواهل الرعاع أصحابك ، ومن تأشب إليك من أداني البلدان وأقاصيها ، وطغامها وأوباشها ، ومن انضوى الى حوزتك من خُرّاب الناس ، ومن لفظه بلده ونفته عشيرته ، لسوء موضعه فيهم ، وقد أعذر من أنذر والسلام .

ومن حكم عمرو بن مسعدة : العبودية عبودية الإخاء ، لا عبودية الرق . الود أعطف من الرحم . إن الكريم ليرعى من المعرفة ما رعى الوصل من القرابة . عليكم بالإخوان فإنهم زينة في الرخاء ، وعُدة للبلاء . النفس بالصديق آنس منها بالعشيق ، وغزل المودة أرق من غزل الصبابة . من حقوق المودة عفو الإخوان ، والإغضاء عن تقصير إن كان . ذكر رجل رجلاً فقال : حسبك أنه خُلق كما تشتهي إخوانه . المودة قرابة مستفادة . ما تواصل اثنان فدام تواصلهما إلا لفضلهما أو فضل أحدها . أسرع الأشياء انقطاعاً مودة الأشرار . المحروم من حرم صالحي الإخوان . لقاء الخليل ، شفا الغليل . قلة الزيارة ، أمان من الملالة . إخوان السوء كشجر (في) النار يحرق بعضه بعضاً . علامة الصديق إذا أراد القطيعة أن يؤخر الجواب ولا يبتدىء بالكتاب . لا يفسدنك الظن على صديق قد أصلحك اليقين له . من لم يقدم الامتحان قبل الثقة ، والثقة قبل الأنس أثمرت مودته ندماً . إذا قُدمت الحرمة ، تشبهت بالقرابة . العتاب حياة المودة . ظاهر العتاب خير من باطن الحقد . ما أكثر من يعاتب لطلب علة . ويبقى الود ما بقي العتاب . كمون الحقد في الفؤاد ، ككمون النار في الزناد . القريب بعيد بعداوته ، والبعيد قريب بمودته . لا تأمنن عدوك وإن كان مقهوراً ، واحذره وإن كان مفقوداً ، فإن حد السيف فيه وإن كان مغموداً . لا تتعرض لعدوك في دولته ، فإنها إذا زالت كفتك مؤونته . نصح الصديق تأديب ، ونصح العدو تأنيب .

روى البيهقي قال : أخبرنا بعض أصحابنا قال : شهدت المأمون يوماً وقد خرج من باب البستان ببغداد ، فصاح به رجل بصريّ : يا أمير المؤمنين إني تزوجت بامرأة من آل زياد ، وأن أبا الرازي فرّق بيننا ،

وقال هي امرأة من قريش ، قال : فأمر عمرو بن مسعدة ، فكتب إلى أبي الرازي : إنه قد بلغ أمير المؤمنين ما كان من الزيادية وخلعك إياها إذ كانت من قريش ، فمتى تحاكمت إليك العرب لا أمّ لك في أنسابها ، ومتى وكلتك قريش يا ابن اللخناء [1] بأن تلصق بها من ليس منها ، فخلّ بين الرجل وامرأته ، فلئن كان زياد من قريش إنه لابن سُمَيّة بغيٍ عاهرة ، لا يُفتخر بقرابتها ولا يتطاول بولادتها ، ولئن كان ابن عُبيد لقد باء بأمر عظيم ، إذ أُدعي إلى غير أبيه ، لحظٍّ تعجله ومُلك بهره اه . وأمر المأمون عمرو بن مسعدة أن يكتب لرجل عناية به إلى بعض العمال في قضاء حقه ، وأن يختصر كتابه ما أمكنه حتى يكون ما يكتب به في سطر واحد لا زيادة عليه ، فكتب عمرو : كتابي كتاب واثق بمن كتب إليه ، معنّى بمن كتب له ، ولن يضيع بين الثقة والعناية حامله .

وكتب إلى الحسن بن سهل : أما بعد ، فإن هبة الله لك هبة لأمير المؤمنين ، وزيادته إياك في عدده لمحلك عنده ومكانك من دولته ؛ وقد بلغ أمير المؤمنين أن الله وهب لك غلاماً سريّاً ، فبارك الله لك فيه ، وجعله بارّاً تقياً ، مباركاً سعيداً زكياً .

ومن كتاب : وصل إليّ كتابك ، على ظمإ مني إليه ، وتطلع شديد ، وبعد عهد بعيد ، ولوم مني على ما مسستني به من جفائك ، على كثرة ما تابعت من الكتب ، وعدمت من الجواب ، فكان أول ما سبق إليّ من كتابك السرور بالنظر إليه ، أُنساً بما تجدد لي من رأيك في المواصلة بالمكاتبة ، ثم تضاعف المسرّة ، بخبر السلامة ، وعلم الحال في الهيئة ، ورأيتك بما تظاهرتَ من الاحتجاج ، في ترك الكتاب ، سالكاً سبيل التخلص مما أنا مخلصكَ منه ، بالإغضاء عن إلزامك الحجة ، في ترك الابتداء والإجابة ،

---

(١) اللخناء الأمة المنتنة المغابن .

وذكرت شغلك بوجوه من الأشغال كثـيرة متظاهرة ممكّنة ، لا أجشمك متابعة الكتب ، ولا أحمل عليك المشاكلة بالجواب ، ويقنعني منك في كل شهر كتاب ، ولن تلزم نفسك في البر قليلاً ، إلا ألزمت نفسي عنه كثيراً ، وإن كنت لا أستكثر شيئاً منك ، أدام الله مودتك وثبت إخاءك ، واستماح لي منك ، فرأيك في متابعة الكتب ومحادثتي فيها بخبرك موفقاً إن شاء الله .

وقال عن نفسه أنه كتب إلى عامل دَسْتَبي كتاباً أطاله ، فأخذه المأمون بيده وكتب : « قد كثر شاكوك فإما عدلت ، وإما اعتزلت » ؛ فبالإيجاز فاز ابن مسعدة بجائزة البلاغة ، والإيجاز في اصطلاح علماء البيان هو اندراج المعاني المتكاثرة تحت اللفظ القليل ، فرب لفظ قليل ، يدل على معنى كثير ، وكم من لفظ كثير ، يدل على معنى قليل ، ومثال ذلك الجوهرة الواحدة بالنسبة إلى الدراهم الكثيرة ، فمن ينظر إلى طول الألفاظ يؤثر الدراهم لكثرتها ، ومن ينظر إلى شرف المعاني يؤثر الجوهرة الواحدة لنفاستها ؛ والبلاغة كما قال أرسطاطاليس أن تجعل في المعنى الكثير كلاماً قليلاً ، وفي القليل كلاماً كثيراً ، وهذه البلاغة الموجزة يلمسها المرء في كلام هذا الذي فتن نظراءه بفنه .

لا تجد في كـلام عمرو شيئاً من الوحشيّ ولا السوقيّ ، فألفـاظه تتفهمها عامة طبقات القارئين والسامعين ؛ أما تركيبه ونسجه فهو أيسر تركيب يجري مع الطبع ، كأنه في إيراده يتكلم كلامه المعتاد معرباً ويسطره في الورق ، نعم وهناك صعوبة في تحدّيه في جوامع كلمه . الأحجار الكريمة والمعادن الثمينة قد تنتقل في الأيدي ويعجب بها ناظروها ، ويفاخر بها ما لكوها ، ولكن متى وصلت إلى أيدي الصائغ الحاذق والجهبذ النقاد ، تزيد بهاءً ورُواءً ، ويتجلى فيها فكر الآفق المفنن ، فالسبك الحسن في كلام عمرو هو الذي تفرد فيه ، ولما رأى أنه أبدع فنه زاد في تجويده ، لانقطاعه معظم حياته إلى الخدمة ، والسياسي من جملة خصائصه أن يوجز ويجمجم

أحياناً ، ويعرّض لئلا يؤخذ بإقراره وتؤول له عباراته ، وعمرو نبغ في هـــذه الطريقة .

ذكر المترجمون له أنه كان له فرس أدهم أغر ، لم يكن لأحد مثله فراهةً وحسناً ، فبلغ المأمون خبره وبلغ عمرو بن مسعدة ذلك ، فخاف أن يأمر بقوده إليه فلا يكون له فيه محمدة ، فوجه به إليه هدية وكتب معه :

يا إماماً لا يدانيـــه إذا عدّ إمام
فضل الناس كما يفضل نقصاناً تمـــام
قد بعثنا بجواد مثله ليس يرام
فرس يُزْهَى به للحسن سرج ولجام
دونه الخيل كما دونك في الفضل الأنام
وجهه صبح ولكن سائر الجسم ظلام
والذي يصلح للمولى على العبد حرام

يقول الثعالبي إنه لم يكن في الأكاسرة بعد أزدشير الذي له فضيلة السبق أعدل من أنوشروان ، ولذلك ضرب المثل به في العدل من بينهم ؛ فأما سائر الأكاسرة ، فإنهم كانوا ظلمة فجرة يستعبدون الأحرار ويجرون الرعايا مجرى الأجراء والعبيد والإماء ، فلا يقيمون لهم وزناً ، ويستأثرون عليهم حتى بأطايب الأطعمة والثياب الحسنة والمراكب ، والنساء الحسان ، والدور السرية ، ومحاسن الآداب ، فلا يجترىء أحد من الرعايا أن يطبخ سكباجاً ، ويلبس ديباجاً ، أو يركب هملاجاً ، أو ينكح امرأة حسناء ، أو يبني داراً قوراء ، أو يؤدب ولده ، أو يمد إلى مروءة يده ؛ وكانوا يبنون أمورهم على معنى قول عمرو بن مسعدة للمأمون — ملك ما يصلح للمولى على العبد حرام — إلا أنهم كانوا يحبون العمارة أشد الحب ، ويرونها قوام الدين والملك ، ولا يقارّون أحداً على الإخلال بها والتقصير فيها .

وعمرو هو القائل :

ومستعذب للهجر والوصل أعذب	أُكاتمه حُبي فينأى وأقرب
إذا جدتُ مني بالرضا جاد بالجفا	ويزعم أني مذنب وهو أذنب
تعلمت ألوان(١) الرضا خوف هجره	وعلمه حبي له كيف يغضب
ولي غير وجه قد عرفت طريقه	ولكن بلا قلب إلى أين أذهب

قالوا وهذان البيتان الأخيران متنازعان ؛ على أن محمد بن عمرو بن مسعدة ذكر أن أباه لم يقل من الشعر شيئاً إلا بيتاً واحداً ، فوقّع في ظهر رقعة لرجل :

أعززْ عليَّ بأمر أنت طالبه	لم يمكن النجح فيه وانقضى أمده

عظمة أخلاقه :

ذكروا ان شقيقه مجاشع بن مسعدة كان صديقاً لأبي العتاهية الشاعر ، يقوم بحوائجه كلها ، ويخلص مودته ، فمات ، وعرضت لأبي العتاهية حاجة إلى أخيه عمرو بن مسعدة فتباطأ فيها ، فكتب إليه أبو العتاهية :

غَنيت عن العهد القديم غَنيتا	وضيعت وداً بيننا ونَسيتا
ومن عجب الأيام أن مات مألفي	ومن كنت تغشاني به وبقيتا

فقال عمرو : استطال أبو اسحاق أعمارنا وتوعدنا ، ما بعد هذا خير ، ثم قضى حاجته .

ومرَّ عمرو بن مسعدة مرة بأبي العتاهية وهو جالس على الطريق ، فوقف عليه يسأله عن حاله ، فما قام ولا رفع إليه رأسه وهو يقول :

أقعدني اليأس منك فما	أرفع رأسي إليك من كسلي

وهجا شقيقه مجاشع حمادَ عَجرد وهو صبي حينئذ ، فشبب حماد بأمه ، فبلغ الشعر عمرو بن مسعدة ، فبعث إلى حماد بصلة ، وسأله الصفح

---

(١) في رواية أبواب بدل ألوان .

عن أخيه ، ونال أخاه بكل مكروه ، وقال له : ثكلتك أُمك أتتعرض لحماد ، وهو يثاقف[١] بشاراً ويقاومه ، والله لو قاومته لما كان لك في ذلك فخر ، ولئن تعرضت له لينهكنك وسائر أهلك ، وليفضحنك فضيحة لا يغسلها أبداً عنا .

وبلغ العتّابي الشاعر أن عمرو بن مسعدة ذكره عند المأمون بسوء ، فقال :

قد كنت أرجو أن تكون نصيري　　وعلى الذي يبغي عليَّ ظهيري
وطفقت آمل ما يرجى سَيْبه　　حتى رأيت تعلقي بغـــرور
فحفرت قبرك ثم قلت دفنته　　ونفضت كفي من ثرى المقبور
ورجعت مفترياً على الأمل الذي　　قد كان يشهد لي عليك بزور

فركب عمرو في موكبه واعتذر إليه .

وكان بين عمرو بن مسعدة وإبراهيم بن العباس الصّولي مودة وقرابة ، فحصل لإبراهيم ضائقة بسبب البطالة في بعض الأوقات ، فبعث له عمرو مالاً ، فكتب إليه إبراهيم :

سأشكر عمرواً ما تراخت منيتي　　أيادي لم تُمْنَن وإن هي جلت
فتىً غير محجوب الغنى عن صديقه　　ولا مظهر الشكوى إذا النعل زلت
رأى خلّتي من حيث يخفى مكانها　　فكانت قَذى عينيه حتى تجلت

وذكر دِعبل الشاعر أن عمرو بن مسعدة كان يقوم بأمر عمرو بن أبي بكر يعني المؤملي قاضي دمشق ، وكان محمد بن داود يحمل عليه ، فقال :

لشتان بين المدعين وزارة　　وبين الوزير الحق عمرو بن مسعده
فهمّهم في الناس أن يجبهوهم　　وهمّ أبي الفضل اصطناع ومحمده

---

(١) يثاقف : يخاصم

فأسكن رب الناس عمراً جنانه وأسكنهم داراً من النار موصده

وممن كان عمرو يجري عليهم الحرمازي ، وكان في ناحيته ، فخرج عمرو إلى الشام ، وتخلف الحرمازي ببغداد لنقرص أصابه ، فقال :

أقام بأرض الشام فاختل جانبي ومطلبه بالشـــام غير قريب
ولا سيما في مفلس حلف نقرس أما نقرس من مفلس بعجيب

يقولون فلان منقرس كناية عن المثري ، ويشتق منه تنقرس فلان إذا أثرى قال المبرد وسمعوا أن هذا الداء يكون في أهل النعمة .

ولي عمرو بن مسعدة فارس وكرمان ، فقال له بعض أصحابه : أيها الأمير لوكان الحياء يظهر سؤالاً ، لدعاك حيائي من كرمك ومن جميع أهلك إلى الإقبال عليَّ بما يكثر به حسد عدوّي ، دون أن أسألك ، فقال عمرو لا تبغِ ذلك بابتذالك ماء وجهك ، ونحن نغنيك عن إراقته في عرض السؤال ، فارفع ما تريده في رقعة يصل إليك سرّاً ، ففعل .

ولقد جرى ذكر عمرو بن مسعدة في رسالة الحَيْدة ، وفيها وصف ما جرى من المناظرة بين عبد العزيز بن يحيى المكي ، وبين بشر بن غياث المريسي بحضرة أمير المؤمنين المأمون في مسألة خلق القرآن جاء فيها كلام لعمرو بن مسعدة قاله لعبد العزيز بن يحيى وهو : « أيها الرجل قد حمَلت نفسك على أمر عظيم ، وبلغت الغاية في مكروهها ، وتعرضت لما لا قِوام لك به في مخالفة أمير المؤمنين ، وادعيت بما لا يثبت لك به حجة على مخالفتك ، ولا لأحد غيرك ، وليس وراءك بعد الحجة عليك إلا السيف ، فانظر لنفسك وبادر أمرك ، قبل أن تقع المناظرة وتظهر عليك الحجة ، فلا تنفعك الندامة ، ولا يقبل منك معذرة ، ولا تقال لك عثْرة ، فقد رحمتك وأشفقت عليك مما هو نازل بك ، وأنا أستقيل لك أمير المؤمنين ، وأسأله الصفح عن جرمك ، وعظيم ما كان منك ، إذا أظهرت الرجوع عنه والندم على ما كان ، وآخذ لك الأمان منه والجائزة ، فإن كانت لك ظلامة أزلتها

عنك ، وإن كانت لك حاجة قضيتها لك ، فإنما جلست رحمة لك مما هو نازل بك بعد ساعة إن أقمت على ما أنت عليه ، ورجوت أن يخلصك الله تعالى على يدي من عظيم ما أوقعت نفسك فيه » .

دخل الحسن بن سهل على المأمون فقال له : كيف علمك بالمروءة قال : ما أعلم ما يريد أمير المؤمنين فأجيبه . قال : عليك بعمرو بن مسعدة قال : فوافيت عمراً وفي داره صناع وهو جالس على آجرة ينظر إليهم فقلت : إن أمير المؤمنين يأمرك أن تعلمني المروءة . فدعا بآجرة فأجلسني عليها وتحدثنا مليّاً ، وقد امتلأت غيظاً من تقصيره بي ثم قال : يا غلام عندك شيء يؤكل ؟ قال : فقدم طبقاً لطيفاً عليه رغيفان وثلاث سكرجات [١] في إحداهن خل وفي الأخرى مُرّي [٢] وفي الأخرى ملح فأكلنا ، وجاء الفراش فوضأنا ثم قال : إذا شئت ، فنهضت محفَظاً [٣] ولم أودعه ، فقال لي : إن رأيت أن تعود إلي في يوم مثله . فلم أذكر للمأمون شيئاً مما جرى . فلما كان في اليوم الذي وعدني لقياه ، سرت إليه فاستوذن لي عليه فتلقاني على باب الدار فعانقني ، وقبّل بين عينيّ ، وقدمني أمامه ، ومشى خلفي ، حتى أقعدني في الدست [٤] ، وجلس بين يدي ، وقد فرشت الدار ، وزينت بأنواع الزينة ، وأقبل يحدثني ويتنادر [٥] معي إلى أن حضر وقت الطعام ، فأمر فقدمت أطباق الفاكهة ، فأصبنا منها ، ونُصبت الموائد فقدم عليها أنواع الأطعمة من حارها وقارها وحلوها وحامضها ، ثم قال : أيّ الشراب أعجب إليك ، فاقترحت عليه . وحضر الوصائف للخدمة ، فلما أردت

---

(١) السكرجة : قصاع يؤكل فيها صغار .
(٢) المري : رب مملح ونقول له سلامورة .
(٣) أحفظه : أغضبه فاحتفظ .
(٤) الدست : صدر البيت .
(٥) تنادر علينا : حدثنا بالنوادر .

الانصراف حمل معي جميع ما أحضر من ذهب وفضة وفرش وكسوة ، وقدّم إلى البساط فرس بمركب ثقيل فركبته ، وأمر من بحضرته من الغلمان الروم والوصائف حتّى سعوا بين يدي وقال : عليك بهم فهم لك ، ثم قال : إذا زارك أخوك فلا تتكلف له واقتصر على ما يحضرك ، وإذا دعوته فاحتفل واحتشد ولا تدعن ممكناً ، كفعلنا بك عند زيارتك إيانا ، وفعلنا يوم دعوناك .

وما الحسن بن سهل بالذي يُعَلّم المروءة ، وهو الوزير العظيم العاقل العالم الذي كان مثال المروءة ، زوَّج ابنته بوران من المأمون فعمل « من الولائم والأفراح ما لم يعهد مثله في عصر من الأعصار ، وكان ذلك بفم الصلح ، وانتهى أمره إلى أن نثر على الهاشميين والقواد والكتاب والوجوه ، بنادق مسك فيها رقاع بأسماء ضياع وأسماء جوار وصفات دواب وغير ذلك فكانت البندقة إذا وقعت في يد الرجل فتحها فيقرأ ما في الرقعة ، فإذا علم ما فيها مضى إلى الوكيل المرصد لذلك فيدفعها إليه ويتسلم ما فيها ، سواء كان ضيعة أو ملكاً آخر أو فرساً أو جارية أو مملوكاً ، ثم نثر بعد ذلك على سائر الناس الدنانير والدراهم ونوافج المسك وبيض العنبر » وكان مبلغ النفقة عليهم خمسين ألف ألف درهم . لاجرم أن في أمر المأمون عمه بالذهاب إلى عمرو بن مسعدة يتعلم منه المروءة ما يشعر بمنزلة عمرو من الخليفة ، وأنه عظيم في أخلاقه ، يعرف كيف يربي الناس عليها .

ذكر القاضي التنوخي أن المأمون أمر محمد بن بزوان والوزير أحمد ابن أبي خالد أن يناظرا عمرو بن مسعدة في مال الأهواز ، فناظراه فتحصل عليه ستة عشر ألف ألف درهم ، فأعلم محمد المأمون بذلك فقال له المأمون : اقبل كل حجة له وكل ادعاء وكل تعلق . قال : قد فعلت ، قال : عد لذلك فعاد ، فتعلق عمرو بأشياء لا أصل لها ، فسقطت من المال عشرة آلاف ألف ، وبقي ستة آلاف ألف درهم لا حجة له فيها ، أخـذ خطه بها ،

فأخذ المأمون الرقعــة ، ثم أحضر عمراً بعــد خروج محمد فقال : هذه رقعتك ؟ فقال : نعم ، فقال : وهذا المال واجب عليك ؟ قال : نعم ، قال : فخذ رقعتك فقد وهبناه لك . قال : إذا تفضلت به يا أمير المؤمنين فإنه واجب لو أجزت به أحمد بن عروة عامل الأهواز وهو مقرّ به ، وأشهدك أني قد وهبته له . فاغتاظ المأمون وخرج عمرو وقد عرف غيظ المأمون وخطأه فيما عمله ، فلجأ إلى أحمد بن أبي خالد فأخبره بالخبر وكان يخصه فقال : لا عليك فدخل إلى المأمون فلما رآه قال : ألا تعجب يا أحمد من عمرو ، وهبنا له ستة آلاف ألف درهم بعد ان تجافينا له عن أضعافها ، فوهبها بين يدي أحمد بن عروة ، كأنه أراد ان يباريني ويصغر معروفي قال : أوَ فعل هذا يا أمير المؤمنين ؟ قال : نعم ، قال : لو لم يفعل هذا لوجب أن يسقط حاله قال : وكيف ؟ قال : لأنه لو استأثر به على أحمد بن عروة وآخذ احمد بالمال وأداه إليه ، كان قد أخرجه من معروفك صفراً ولما كانت نعمتك على عمرو نعمة على أحمد وهما خادمان ، وكان الأجمل أن يتضاعف معروفك عندهما ، فقصد عمرو ذلك فصار المال تفضلاً منك على عمرو وعلى أحمد بن عروة ، ومع ذلك فأنت سيد عمرو لا يعرف سيداً غيرك ، وعمرو سيد أحمد ، فاقتدى في أمر أحمد بما فعلته في أمره . وأراد أيضاً أن يسير في ملوك الأمم أن خادماً من خدمك اتسع قلبه لهبة هذا المال من فضل إحسانك إليه ، فيزيد في جلالة المملكة وجلالة قيمتها ، فيكسر ذلك الأعداء الذين يكاثرونك ، فسرى عن المأمون وزال ما بقلبه على عمرو .

وروى التنوخي أيضاً أن المأمون ذكر عمرو بن مسعدة ، واستبطأه في أشياء وكان ذلك بحضرة أحمد بن أبي خالد ، فأخبر به عمراً أحمد ، فدخل عمرو إلى المأمون فرمى بنفسه وقال : أنا عائذ بالله من سخطك يا أمير المؤمنين ، أنا أقل من أن يشكوني أمير المؤمنين إلى أحد ، ويسر عليّ ضغناً يظهر منه لمكانه ما ظهر ، فقال له المأمون : وما ذاك ؟ فأخبره بما بلغه فقال : لم يكن كذلك ، وإنما جرى معنى أوجب ذكر ما ذكرت ،

فقدمته قبل أن أخبرك به ، وكان ذلك عزمي ، ومالك عنـــدي إلا ما تحب ، فليفرخ روعك ، وليحسن ظنك ، وسكن ما به حتى شكره ، وجعل ماء الحياة يدور في وجهه . فلما دخـــل أحمد بن أبي خالد قال له : أشكو إليك من بحضرتي من أهلي وخدمي ، فما للمجلس حرمة حتى تؤدي ما يجري فيه إلى عمرو بن مسعدة ، فقد أبلغ لي شيئاً قلته فيه فاتهمت بعض بني هاشم ممن كان حاضراً ، ذلك أن عمراً دخل عليّ فأعاد ما كان ، واعتذر فجعلت أعتذر إليه بعذر لم يبن الحق نسجه ، ولم يتسق القول فيه ، وإن لسان الباطل ينبيء عن الظاهر بالباطن . فقال له أحمد : لا يتهم أمير المؤمنين أحداً ، أنا أخبرت عمراً ، قال : ما دعاك الى ذلك ؟ قال : الشكر لله وإليه لاصطناعك والنصح بك ، والمحبة لإتمام نعمتك على أوليائك وخدمك ، وقد علمت أن أمير المؤمنين يحب إصلاح الأعداء والبعداء ، فكيف بالأولياء والقرباء ، لا سيما مثـــل عمرو في موضعه من الدولة وموقفه من الخدمة ، ومكانه من أمير المؤمنين، فأخبرته بما أنكره عليه ليقوّم أوَدَ يقينه ، ويتلافى ما فرط منه ، وإنما العيب لو أذعت سرّاً فيه قدح على السلطان أو نقض تدبير له ؛ فقال له المأمون : أحسنت والله يا أحمد ، إذ أخبرتني بخاصة الظن ، وصدقتني عن نفسك .

قال إبراهيم بن الحسن بن سهل : كنا في مجلس المأمون وعمرو بن مسعدة يقرأ عليه الرقاع فجاءته عطسة ، فلوى عنقه فردها ، فرآه المأمون ، فقال : يا عمرو لا تفعل فإن رد العطسة وتحويل الوجه بها يورثان انقطاعاً في العنق ، فقال بعض ولد المهدي : ما أحسنها من مولى لعبده ، وإمام لرعيته ، فقال المأمون : وما في ذلك ؟ هذا هشام اضطربت عمامته ، فأهوى الأبرش الكلبي إلى إصلاحها ، فقال هشام : إنا لا نتخذ الاخوان

خـَوَلا ! فالذي قال هشام أحسن مما قلته ، فقال عمرو : يا أمير المؤمنين إن إن هشاماً يتكلف ما طبعت عليه ، فما تـُعـْدَل[١] به ، ليس له قرابتك من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا قيامك بحق الله وإنك والملوك كما قال النابغة الذبياني :

ألم تر أن الله أعطاك سورة[٢] يـُرى كل مَلْك دونها يتذبذب
لأنك شمس والملوك كواكب إذا طلعت لم يبد منهن كوكب

ثروته ونعمته :

ظهر أن عمرو بن مسعدة ، كان ذا ثروة طائلة ، على كثرة ما بذل للعلماء والشعراء وغيرهم ، وقد كان له قصور في دار السلام ، وله ساباط يعرف به يقال له ساباط[٣] عمرو بن مسعدة ، وهو فوق الجسر ، ومن منازله منزل بحضرة طاق الحراني إبراهيم بن ذكوان . جمع كل هذا من مال دولة خدمها بالإخلاص والعقل ، وربما كان فيها ما أخذ من غير حله ، إن صح ما روى أن المأمون وقـّع في قصة متظلم من عمرو بن مسعدة : « يا عمرو عمـّر نعمتك بالعدل فإن الجور يهدمها » ، ولما مات عمرو رُفع إلى المأمون أنه خلف ثمانين ألف ألف درهم . فوقع على الرقعة : « هذا قليل لمن اتصل بنـا ، وطالت خدمته لنا ، فبارك الله لولده فيه » . أي أن عمراً خلـف ثمانية ملايين دينـار ، وروى المسعودي أنهم عرضوا لمال عمرو ولم يعرض لمال وزير قبله ، والرواية الأولى أصح ،

---

(١) يقال ما يعدلك عندي شيء ، أي ما يشبهك .

(٢) السورة : الشرف والفضل والرفعة .

(٣) الساباط : سقيفة بين دارين أو جدارين ، والطاق عقد البناء حيث كان ، والجمع أطواق وطيقان .

وهي عن الصولي ابن عم عمرو بن مسعدة .

خلف عمرو هذه الثروة بعد هذا البذخ والرفاهية ، في زمن كانت الخلافة العباسية سيدة الدول ، وفي أيام خليفة يعرف أقدار الرجال ، ويرى أنه يقلّ في اصطناعهم كل برّ ومكرمة ، وكان يعتمد على عقلهم في تدبير ملكه ، وللعقل قيمة عظيمة دونها كنوز الأرض وركازها في نظر المأمون ، ولقائل أن يقول ومن أين لفرد أن يجمع مثل هذه الثروة العظيمة ، وهو مقيد بخدمة الدولة ؛ لا يعمل فيما يجهد له الناس في الجمع ليكون عِض مال حسن القومة عليه . فالجواب أن الخلفاء كانوا يُقْطِعون رجال دولتهم الولايات العظيمة ، وربما نزلوا لهم عن خراجها السنة أو السنين ، ويهبون لهم من ضروب العطايا من ناطق وصامت ، وعقار ومتاع ما يتأثلون به ، والدولة التي قدرت مساحة ممالكها بنحو مساحة قارة أوربا اليوم ، وضمت جميع الأقطار العامرة في آسيا وإفريقية ، إذا جمعت جميع دخلها الذي لا تحتاج إليه ، تقف الحركة الاقتصادية في البلاد لا محالة ، فترى من الحكمة أن تنتقل الثروة في الأيدي ، وما كانت الدولة في الحقيقة تحتاج يومئذ إلى نفقات كبيرة لإطعام الجيوش وإعداد الأساطيل وتجهيزها بالمدمرات والمهلكات شأن دول عصرنا .

ولقائل ممن تشبع بروح الديمقراطية في هذا العصر أن يقول : وهل هذا هو المعقول في قيام الملك من الإفراط في الإفضال على أفراد يسوّغون جباية قطر أو أقطار صُبرة واحدة وهي تجمع بالدانق والدرهم .وهل بمثل هذا نجح الخلفاء الأول أو أرباب الدول الغربية لعهدنا . فالجواب ان طبيعة القرن الثاني والثالث غير طبيعة القرن الأول ، وهذان القرنان الأخيران لا يشبهان بحال قرون البشر منذ عشرة قرون ، خصوصاً إذا وضعنا موضع النظر أيضاً اتساع رقعة الملك ، وعمران العراق وحده دع غيره من الأقطار ، فان كل هذا أعظم حامل على البذل ،

ولهذا كان للخلفاء في هذا العطاء بعض مبرر لأعمالهم ، وإن كان لا مبرر من إسراف ، لكن حالة العمران اقتضت ذلك في الدهر السالف ؛ وكان الأولى أن يعمدوا إلى القصد في الأخذ والقصد في العطـاء ، ويقيموا بما يفضل المصانع والمعالم في أرجاء المملكة . والمنصف يقول إن هذا النظام البديع في تنظيم الموازنات هو وليد العصور الجديدة ، وهذا التقدير وهذا التقتير حتى في التافه والقطمير ، هما من خلق دول الغرب . وكان ذلك على حالة ابتدائية في عصر الأمويين والعباسيين ، ولم تكن أسباب الحياة تشعبت هذا التشعب ، ولا الأوضاع هذه الأوضاع ، ولا الإبداع في النظم هذا الإبداع .

عرفنا من سيرة ابن مسعدة ما أطللنا به من نافذة ضيقة على ما خصت به نفسه ، وانطوى عليه من الصفات السامية التي كان بها عظمته ، وربما لم يخل عصره من بلغاء امثاله لو فتح لهم الطريق لأغنوا غناءه ، ولكن الطبائع تختلف ، وهذه الرقة في السياسة يصعب أن يبرز فيها كل إنسان ، فهو كما كتب الحسن ابن سهل إلى محمد بن سماعة القاضي وقد احتاج إلى رجل يوليه بعض الأعمال ، فقال انه يريد رجلاً جامعاً لخصال الخير ، ذا عفة ونزاهة طِعْمة[1] ، قد هذبته الآداب ، وأحكمته التجارب ، ليس بظنين في رأيه ، ولا بمطعون في حسبه ، إن اؤتمن على الأسرار قام بها ، وإن قُلد مهمّاً من الأمور أجزأ[2] فيه ، له سنّ مع أدب ولسان ، تقعده الرزانة ، ويسكنه الحلم ، قد فُرَّ[3] عن ذكاء وفطنة ، وعض على قارحة[4]

(١) في الأساس : ومن المجاز فلان طيب الطعمة وخبيث الطعمة بالكسر ، وهي الجهة التي منها يرتزق بوزن الحرفة .

(٢) أجزأني كذا : كفاني وهذا مجزي .

(٣) أي جرب واختبر فيهما وأصله من فر الدابة كشف عن أسنانها لينظر ما سنها .

(٤) قوله وعض على قارحة الخ كناية عن بلوغه درجة الكمال .

من الكمال ، تكفيه اللحظة ، وترشده السكتة ، قد أبصر خدمة الملوك وأحكمها ، وقام في أمور فحمد فيها ، له أناة الوزراء ، وصولة الأمراء ، وتواضع العلماء ، وفهم الفقهاء ، وجواب الحكماء ، لا يبيع نصيب يومه بحرمان غده ، يكاد يسترق قلوب الرجال بحلاوة لسانه ، وحسن بيانه ، دلائل الفضل عليه لائحة ، وأمارات العلم له شاهدة ، مضطلعاً بما استنهض ، مستقلاً بما حمل اه .

وهذه الصفات هي صفة عمر بن مسعدة ، أنعم به وبسيده ، وسقياً لعصر أخرج عظماء يحق لنا التمجد بهم ، مهما بَعُدَ العهد .

احمد بن يوسف الكاتب

نشأته وظهوره :

هو أحمد بن يوسف بن القاسم بن صبيح مولى بني عجل من قرية من قرى الكوفة تعرف بريا ، يقال إن أبا صبيح منها ، وإنه مولى إسلام . حَدَّث جماعة من الكتاب أن السري بن بشر العجلي اشترى صبيحاً فأعتقه ، وكان صبيح قبطيّاً . ويقول الصولي ان هذا هو الصحيح من نسبه ، فهو من موالي مصر أسلم جد جده ، وكان أحمد وأخوه القاسم شاعرين أديبين ، وأولادهما جميعاً أهل أدب ، يطلبون الشعر والبلاغة . وكان جده القاسم كاتباً أيضاً ، وهو على ديوان الغرب أيام بني العباس وفي آخر أيام بني أمية ، ثم كتب القاسم لعبد الله بن علي عم المنصور ، وكتب يوسف ابنه ، ثم كتب يوسف ليعقوب ابن داود وزير المهدي .

فأحمد إذا معرق في الكتابة ، كان أبوه وجده كاتبين ، ولا شك انهما من المجودين في الإنشاء ، لأنهما كتبا لعظماء في عهد عظمة الأمة ، وكان يعقوب ابن داود خاصة كاتباً ممتازاً بين الكتاب معدوداً في الدرجة الأولى ، ومثله لا يرتضي لكتابته إلا من كان في صناعته آية ، ومن كان له قديم يمتُ اليه في أبواب الآداب يهون عليه تعاطيها ، إذ يكون انس بها في صباه ، ورأى أمامه من يقتدي به ويجري في طريقه .

نشأ أحمد في أرقى بيئة يعيش فيها ناشئ ، ولعله عرف وهو صبي عن هذه الصناعة صناعة الكتابة مالا يتيسر لغيره ممن قضوا السنين يمارسونها . عرف ما يصلح في معاناة أمور الملك والسلطان ، وعرفنا أن أحمد بن يوسف ورث عن أبيه وجده حب الأدب والشعر ، وما عرفنا بمن تخرج لأول أمره ولا سنة مولده .

ولنا أن نقول في أصل أحمد ونشأته إنه عربي النشأة ، بغدادي الدار ، مصري الأصل والنبعة ، نشأ كاتباً شاعراً يستفزه الطرب ، ثم هو يقول الشعر فيجيد ، وقد يمدح وقد يهجو على طريقة أبناء ذاك الزمان ، وعرف بحب المرح ، وبتعاطي الشراب ، والأنس إلى القينات ، والافتتان بالجمال حيث كان . واشتهر باستهتاره في شهواته ، وأنه مُسْتَرقٌ بلذاته .

كان أحمد يبرز في معرفة موقع الاستشهاد بآيات الكتاب العزيز ويقتبس منه للتدليل على قضاياه ، وكان متمكناً من الشرع ، وخاصة فيما كان له صلة بالأحوال والمعاملات ؛ أما درجته في رواياته في الحديث والأدب ، فهذا مما أغفله من ترجموا له ؛ وطريقته في إنشائه الاعتماد على المرسل من الكلام ، في طابع نقي بريء من كل شائبة ، خال من التعمل ، لا يعمد إلى السجع إلا في بعض التحميدات ، وكانت الأسجاع في هذا الضرب من الإنشاء زيّاً سلطانياً لم يسعه إلا تقليده ، يطيل بعض الشيء عن الخلفاء على ما سنعرفه في كتابه الخميس الذي كان يقرؤه أهل خراسان ، وهو على لسان المأمون ، ولكنه على تطويله لا يأتي بجملة إلا إذا طرحتها اختل مكانها ، وهو يسجع وكل سجعة من سجعاته على الأغلب ذات معنى مستقل ، فهو من هذا النظر صاحب طريقة متفرد فيها .

أما إذا كتب أحمد على لسان غيره ، فيلتزم طريقة أخرى ، لأن الكتابة الديوانية أو الرسمية أمست على عهده ذات قواعد ورسوم لا يحمد من كاتب ، ولو كان من عيار أحمد بن يوسف ، أن يتعداها ، فتراه في كتاباته الخاصة

مقلاً من ألفاظه مكثراً من معانيه ، وفي كتابات الدولة يساير العرف والعادة ؛ وفرق بين من يكتب لغيره ومن يكتب لنفسه ، هو يكتب لغيره ما يروقه ويريده عليه ، ويكتب باسمه ما يعبر به عن ذات نفسه وشهوة قلبه .

لم يؤثر عن أحمد بن يوسف أنه أفرد موضوعاً بالتأليف ، على عادة الكتاب والعلماء ، وما خلف غير ديوان رسائله . وقال ابن النديم إن له رسالة الحسن ، وعدها في جملة الكتب المجمع على جودتها ، وحكمنا اليوم عليه برسائل قليلة أبقت عليها الليالي ، وبعضها في شؤون الدولة والخلافة ، بل ما علمنا أيضاً إن كان دخل دواوين الخلافة لأول أمره أم تخرج في الكتابة في بيته ، فاستفاضت شهرته ، وعرف له الخاصة نبوغه ، حتى وصل إلى المأمون .

قالوا ان اول ما ارتفع به أن الأمين لما قُتل أمر طاهر بن الحسين الكتاب أن يكتبوا إلى المأمون فأطالوا فقال طاهر : أُريد أخصر من هذا ؛ فوصف له أحمد بن يوسف وموضعه من البلاغة ؛ فأحضره لذلك ، فكتب : « أما بعد[١] فان المخلوع قسيم أمير المؤمنين في النسب واللحمة ، قد فرق بينهما حكم الكتاب في الولاية والحرمة بمفارقته عصمة الدين ، وخروجه عن إجماع المسلمين ، لقول الله عزوجل فيما اقتص من أنباء نوح وابنه « إنه ليس من أهلك إنه عمل غير صالح » ، ولا طاعة لأحد في معصية الله ولا قطيعة ما كانت في ذات الله ، وكتابي إلى أمير المؤمنين وقد أنجز الله له ما كان ينتظر من سابق وعده ، والحمد لله الراجع إلى أمير المؤمنين معلوم حقه ، الكائد له فيمن خان عهده ، ونقض عقده ، حتى رد به الألفة بعد فرقتها ، وجمع به الأمة بعد شتاتها ، وأضاء به أعلام الدين بعد دروسها ، وقد وجهت إلى أمير المؤمنين بالدنيا وهو رأس المخلوع ، وبالآخرة وهي

---

(١) روى ياقوت في طبقات الأدباء هذا الكتاب برواية أخرى فيها زيادات قليلة .

البردة والقضيب ، والحمد لله الآخذ لأمير المؤمنين بحقه ، الراجع إليه تراث آبائه الراشدين » .

وبعد هذا الكتاب انتشر صيت أحمد لتجويده في موضوع يصعب على كل كاتب أن يجود فيه لدقته ، وقد أبدع في ذكر الغرض ، وأتى بكلام فيه صنعة عجيبة لتخفيف مصيبة المأمون بأخيه الذي نازعه ، فقلل من شأن الخطب بأخصر أسلوب ، أما غيره من زملائه الكتاب فقد أطالوا ، والإطالة في مثل هذا الموقف غير محمودة ، فقدر لأحمد أن يبذّهم لمعرفته بصناعته ، وبما يجب أن يخاطب به الخليفة المأمون وهو بين حسرة وغبطة ؛ وساعده على الظهور أن طاهر بن الحسين الخزاعي أكبر قواد المأمون والذي تولى إطفاء الفتنة وقتل الأمين كان كاتباً من الطراز الأول ، يعرف مقدار كد الأفهام وينثر المليح العالي من الكلام ، ومثله من يحكم لأحمد بن يوسف أو عليه ، فخصه لما رأى من طول باعه بالكرامة . واعتمد عليه من دون الكتاب .

وفي رواية ثانية أن ذا الرياستين الفضل بن سهل لما أدخل رأس الأمين على أخيه المأمون أدخله على ترس بيده ، فلما رآه سجد ثم أمره المأمون أن ينشئ كتاباً عن طاهر بخبره ليقرأه على الناس ، فكتبت عدة كتب لم يرضها واستطالها ، فكتب أحمد بن يوسف هذا الكتاب ، فلما عرض النسخة على ذي الرياستين رجع نظره فيها ، ثم قال لأحمد : ما أنصفناك . وأمر له بصلات وكسى وكراع وغير ذلك . وقال له إذا كان غداً فاقعد في الديوان ، وليقعد جميع الكتاب بين يديك ، واكتب إلى الآفاق .

وسواء صحت الرواية الأولى أو الثانية وسواء كتب أحمد في خراسان أو بغداد عن يد الفضل أو عن يد طاهر ، فقد علا بهذا الكتاب نجمه ، وعرف من بين كتاب عصره فضله ، وفي هذا الدور عرفه الرؤساء فقط . بقي ان نعرف كيف اتصل بالمأمــون ، وصاحب الفضل لا يخفى ،

وربّ العلم لا ينكر محله . فقد ذكروا أن أحمد بن أبي خالد الوزير كثير ما كان يصف أحمد للمأمون ، ويحمله على منادمته ، وكان طاهر بن الحسين يريده ويزين أمره ، وإبراهيم بن المهدي يطريه ويقرظه ، فأمر المأمون أحمد بن أبي خالد بإحضاره فلما وقف بين يديه قال : « الحمد لله يا أمير المؤمنين الذي استخصك فيما استحفظك من دينه ، وقلدك من خلافته ، بسوابغ نعمه ، وفضائل قسمه[1] ، وعرفك من تيسير كل عسير جاولك[2] عليه متمرد حتى ذلّ ، ما جعله تكملة لما حباك به من موارد أموره بنجح مصادرها ، حدّاً نامياً زائداً لا ينقطع أولاه ، ولا ينقضي أخراه . وأنا أسأل الله يا أمير المؤمنين من إتمام بلائه لديك ، ومنّه عليك ، وكفايته ما ولاّك واسترعاك ، وتحصين ما حاز لك ، والتمكين من بلاد عدوك ، ما يمنع به بيضة الإسلام ، ويعزّ بك أهله ، ويبيح بك حمى الشرك ، ويجمع لك متباين الألفة ، وينجز بك في أهل العناد والضلالة وعده ، إنه سميع الدعاء ، فعّال لما يشاء » فقال المأمون : أحسنت وبورك عليك ناطقاً وساكتاً . ثم قال بعد أن بلاه واختبره : يا عجباً لأحمد بن يوسف كيف استطاع أن يكتم نفسه .

وما ندري كم كان عمر أحمد يومئذ، ولا شك أنه كان على أبواب الكهولة ، فنبل بالكتابة ، وكان من قبل خاملاً ، فاستحق اسمها على ما استحقها عبد الحميد ابن يحيى والربيع والفضل بن الربيع ويعقوب بن داود ويحيى ابن أبي خالد وجعفر بن يحيى وعبد الله بن المقفع والفضل بن سهل والحسن ابن سهل ومحمد بن عبد الملك الزيات والحسن بن وهب وإبراهيم بن العباس الصولي ونجاح بن سلمة وأحمد بن محمد المدبّر وأضرابهم .

جاء أحمد يكتب للمأمون بعد الفضل بن سهل والحسن بن سهل وعمرو

---

(١) القسم النصيب .

(٢) في رواية طيفور في كتاب بغداد : وعرفك من تيسير كل عسير جاولك وغلبة كل متمرد صاولك ما جعله الخ .

ابن مسعدة ، وقبل أن يتصل بالمأمون لم يكن معروفاً إلا عند خاصة الكتاب وأهل الأدب ، حتى إذا أعجب به الخليفة بعدت شهرته في العالمين وحان الوقت الذي ظهر فيه ظهوراً لاخفاء بعده . مات كاتب المأمون أحمد بن بي خالد ، فسأل المأمون الحسن بن سهل عن رجل كفوء يخلفه ، فذكر له أبا جعفر أحمد بن يوسف ، وأبا عباد ثابت بن يحيى الرازي ، قائلاً إنهما أعلم الناس بأخلاق أمير المؤمنين وخدمته وما يرضيه ، فقال له : أختر لي احدهما ، فقال الحسن : إن صبر أحمد على الخدمة ، وجفا لذته قليلا فهو أحبهما إليّ ، لأنه أعرق في الكتابة وأحسنهما بلاغة ، وأكثر علماً ، فاستكتبه المأمون .

وكان أحمد يعرض الكتب ويوقّع ويخلفه أبو عباد إذا غاب عن دار المأمون . وكان أحمد بعد دخوله على المأمون يتقلد له ديوان السر ، وبريد خراسان وصدقات البصرة ، وصير له المأمون نصف الصدقات بالبصرة طعمة له سبع سنين ، وكان قبل ولايته البصرة سلّفه الأهواز فصرف عنها . وما برح يزداد كل يوم رفعة ويعظم في عينه لصدقه ونصحه . كتب أحمد ابن يوسف بين يدي المأمون فانستحسن خطه وقال له : لوددت أني أكتب مثل خطك وعلى صدقة ألف ألف درهم . فقال له : لو كان في الخط حظ ما حرمه رسول الله .

وكان المأمون لعلمه بقدم أحمد في صناعته ، إذا حضر أمر يحتاج فيه إلى كتاب يشهر ويذكر ، أمره فكتب مثل كتاب الخميس وغيره . وحدث عن نفسه قال : أمرني المأمون أن أكتب إلى جميع العمال في أخذ الناس بالاستكثار من المصابيح في شهر رمضان وتعريفهم ما في ذلك من الفضل ، فما دريت ما أكتب ولا ما أقول في ذلك . إذ لم يسبقني إليه أحد فأسلك طريقه ومذهبه

فقِلتُ[1] في وقت نصف النهار ، فأتاني آت في منامي فقال : قل فإن في ذلك أنساً للسابلة ، وإضاءة للمتهجدين ، ونفياً لمظان الريب ، وتنزيهاً لبيوت الله عن وحشة الظلم .

أخذت الدنيا تنهال على أحمد في وزارته ، ومن يتعلق بخدمة المأمون ولا يسعد ! حتى أمسى بتليده وطريفه عنوان المجد والعظمة . حدثوا عنه أن عبد الله بن طاهر لما خرج من بغداد إلى خراسان قال لابنه محمد : إن عاشرت أحداً بمدينة السلام فعليك بأحمد بن يوسف الكاتب فإن له مروءة . فما عرّج محمد حين انصرف من توديع أبيه على شيء حتى هجم على أحمد في داره فأطال عنده ، ففطن له أحمد فقال : يا جارية غَدّينا . فأحضرت طبقاً وأرغفة نقية وقدمت ألواناً يسيرة وحلاوة . وأعقب ذلك بأنواع من الأشربة في زجاج فاخر وآلة حسنة ، وقال : ليتناول الأمير أيّها شاء ثم قال له : إن رأى الأمير أن يشرف عبدَه ويجيئه في غد أنعم بذلك .

قالوا فنهض محمد وهو متعجب من وصف أبيه له ، وأراد فضيحته فلم يترك قائداً نبيلاً ، ولا رجلاً مذكوراً من أصحابه إلا عرفهم أنه في دعوة أحمد بن يوسف ، وأمرهم بالغدوّ معه . فلما اصبحوا قصدوا دار أحمد بن يوسف وقد أخذ أهبته ، وأظهر مروءته ، فرأى محمد من النضائد والفرش والستور والغلمان والوصائف ما أدهشه ، فلما رفعت الموائد ؛ وكانت كما ادعى الراوي ثلثمائة مائدة ، وقد حف بثلثمائة وصيفة ، ونقل إلى كل مائدة ثلثمائة لون في صحاف الذهب والفضة . قال ابن طاهر: هل أكل من بالباب فنظروا فإذا جميع من بالباب قد نصبت لهم الموائد فأكلوا ، فقال : شتان بين يوميك يا أبا جعفر . فقال : أيها الأمير ، ذاك قوتي ، وهذه مروءتي .

وإذا استجزنا حذف ما في هذه الحكاية من المبالغة — ومثلها وقع للحسن

---

(١) القائلة نصف النهار قال قيلا وقائلة وقيلولة ومقالا ومقيلا وتقيل نام فيه فهو قائل .

ابن سهل مع عمرو بن مسعدة على ما قرأته في الكلام على حياة عمرو ، والقصتان منقولتان من كتاب « ملح الممالحة » لابن باقيا الكاتب — إذا حذفنا جانب الإغراق في الوصف على ما قد يجاوز قدرة الخليفة دع وزيره ، يبقى من القصة طرف صالح ، يصح أن يحكم به على نعمة أحمد في عهد سيده المأمون . قالوا وكان المأمون يقول لأحمد ، وقد ولى أخاه القاسم خراج السواد فجباه فضلاً مما جباه غيره في سائر أيام المأمون : يا أحمد ، القاسم يجمع ، ونحن نفرق . عن محمد بن عبد الملك قال : وهب لي أحمد بن يوسف الكاتب على ظَهْر يدٍ ألفي ألف درهم تفاريق .

ومن أظهر صفات أحمد بن يوسف ، وهذه هي التي كان يعجب بها المأمون ، شدة عارضته ، وقوة بديهته ، والبديهة يظهر أثرها في تدبير الملك ، وما يعرض للخليفة من شؤون تحتاج إلى أن يبت فيها حالاً من جواب على سؤال ، واعطاء رأي في معضلة ، في ساعة يكون فيها الكاتب قد عاوده السأم والتعب ، واضطراب النفس وموت الخاطر ، وقد تطلب إليه معالجة أصعب الموضوعات ، في أضيق الأوقات وأتعب الساعات .

ذكروا ان احمد جلس يوماً وهو وزير يقرأ الكتب بين يدي المأمون ، فمرت قصة أصحاب الصدقات ، فقال المأمون لأحمد : انظر في أمرهم قد كثر ضجيجهم ، فقال : قد نظرت في أمرهم وفررته [1] ، ولكنهم أهل تعد وظلم ، وبالباب منهم جماعة ، فقال المأمون : أدخلوهم إليَّ ، فدخلوا فناظروه فاتجهت الحجة عليهم فقال أحمد : هؤلاء ظَلَّموا رسول الله كيف يرضون بعده ، قال الله عز وجل (ومنهم من يلمزك [2] في الصدقات فإن أعطوا منها رضوا ، وإن لم يُعطوا منها إذا هم يسخطون) ،

---

(١) من المجاز فررت عن الأمر : بحثت عنه ، وفر عن هذا الأمر وفر فلان عما في نفسه .
(٢) يلمزك : يعيبك .

فعجب المأمون من حسن انتزاعه ، وحضور مراده في وقته وقال : صدقت يا أحمد وأمر بإخراجهم .

وكثر طلاب الصدقات بباب المأمون مرة ، فكتب اليه أحمد : « داعي نداك يا أمير المؤمنين ومنادي جدواك جمعاً الوفود ببابك ، يرجون نوالك المعهود ، فمنهم من يمتّ بحرمة ، ومنهم من يُدلّ بخدمة ، وقد أجحف بهم المقام ، وطالت عليهم الأيام ، فإن رأى أمير المؤمنين أن ينعشهم بسيْبه ، ويحقق حسن ظنهم بطَوْله[1] فعل إن شاء الله » .

فوقّع المأمون : الخير متبع ، وأبواب الملوك مغانٍ لطالبي الحاجات ، ومواطن لهم ، ولذلك قال الشاعر :

يسقط الطير حيث يلتقط الحبّ ويغشى منازل الكرماء

فاكتب اسماء من ببابنا منهم ، واحك مراتبهم ، ليصل إلى كل رجل قدر استحقاقه ، ولا تكدّر معروفنا عندهم بطول الحجاب ، وتأخير الثواب . فقد قال الشاعر :

فإنك لن ترى طرداً لحرّ كإلصاق به طرف الهوان

ومن أخبار أحمد وفيها صورة أخلاقه ، أنه خاصم رجلاً بين يدي المأمون ، وكان صغا المأمون إليه على أحمد . ففطن لذلك فقال : يا أمير المؤمنين إنه يستملي من عينيك ما يلقاني به ، ويستبين بحركتك ما تُجِنّهُ له ، وبلوغ ارادتك أحبّ إليّ من بلوغ أملي ، ولذة إجابتك أمتع عندي من لذة ظفري ، وقد تركت له ما نازعني فيه ، وسلمت له ما طالبني به . فاستحسن ذلك المأمون .

وكان واسع الصدر كأكثر من يلي شيئاً من أمر الأمة من العظماء .

---

(١) الطول : الفضل والسيب العطاء .

قيل إن أبا العتاهية أتى أحمد فحجب عنه فقال :

متى يظفر الغادي إليك بحاجة ونصفك محجوب ونصفك نائم

ولنا أن نستدل على غنى أحمد بن يوسف أنه أهدى إلى المأمون لما استكتبه لوزارته ، واستخصه في يوم مهرجان هدية بألف ألف درهم وكتب إليه :

على العبد حق فهو لا شك فاعله وإن عظم المولى وجلت فضائله
ألم ترنا نُهدي إلى الله ما له وإن كان عنه ذا غنىً فهو قابله
ولو كان يُهدى للمليك بقدره لَقَصّر علّ البحر عنه وناهله[1]
ولكننا نُهدي إلى من نجلّه وإن لم يكن في وسعنا ما يشاكله

وأهدى إليه في عيد وكتب إليه : هذا يوم جرت فيه العادة ، بإهداء العبيد للسادة ، وقد أهديت لأمير المؤمنين قليلاً من كثيره عندي . فقال المأمون : عاقل أهدى حسناً .

كان إعجاب الخليفة بأحمد كثيراً ، وبذلك ندفع ما قاله صاحب غرس النعمة في كتاب الهفوات ، ونقله ياقوت عنه من أن المأمون كان سبب موت وزيره ، والرواية أن المأمون كان إذا تبخر طُرح له العود والعنبر ، فإذا تبخر أمر بإخراج الجمرة ووضعها تحت الرجل من جلسائه إكراماً له ، وحضر أحمد ابن يوسف يوماً ، وتبخر المأمون على عادته ، ثم أمر بوضع الجمرة تحت أحمد ابن يوسف فقال : هاتوا ذا المردود ، فقال المأمون : ألنا يقال هذا ؟ ونحن نصل رجلاً واحداً من خدمنا بستة آلاف ألف دينار ، إنما قصدنا إكرامك ، وأن أكون أنا وأنت قد اقتسمنا بخوراً واحداً ، يُحضر عنبر ، فأحضر منه شيء في الغاية من الجودة ، في كل قطعة ثلاثة

---

(١) النهل : محركة أول الشرب ، والعل الشربة الثانية .

مثاقيل ، وأمر أن تطرح قطعة في المجمر ويبخر بها أحمد ، ويدخل رأسه في زيقه حتى ينفذ بخورها ، وفُعل به ذلك بقطعة ثانية وثالثة وهو يستغيث ويصيح ، وانصرف إلى منزله وقد احترق دماغه واعتل ومات سنة ٢١٣ وقيل ٢١٤ .

وهذه القصة منقوضة بالبداهة ، ذلك أن أحمد بن يوسف يعرف مقام الخليفة ، ولا يجرؤ أن يقول ما نسب إليه في حضرته ولا في غيبته ، والمأمون صاحب النفس العظيمة يعرف قدر الرجل ، فلا يرى مهما كان ذنبه أن يهلكه بالعنبر في مجلسه ، ولكن الرجل مات حتف أنفه . وربما وضع هذه القصة من أراد إسقاط المأمون ، ونسبة ضعف العقل إلى وزيره .

ولا بدَّ من القول أن أحمد بن يوسف كان يحسن سياسة خليفته ويستميت في حبه ودعوة الناس إليه ، وكانت مكانته في الأدب والظرف وفاء مكانته في السياسة : قال بعض القدماء في وصف كلامه : لم أر كلاماً أحسن وصلاً ، ولا أمتن فصلاً ، ولا أمنع إنذاراً ، ولا أقنع إعذاراً ، ولا أرأب لصدع ، ولا أشعب لجمع ، من كلام أحمد بن يوسف . وقال جعفر بن يحيى : عبد الحميد أصل ، وسهل بن هرون فرع ، وابن المقفع ثمر ، وأحمد بن يوسف زهر . وناهيك بها شهادة من كاتب مثلهم .

شيء من كلامه :

من مطولات أحمد بن يوسف كتاب كتبه في الإفاضة بمحامد المأمون ، ولعله كُتب إلى شيعة خراسان ليستميل قلوبهم ، جاء فيه في ولاية المأمون لعلي ابن موسى الرضا : «وأحسن جزاءَ أمير المؤمنين ومَثُوبته ، على صلة رحم رسول الله التي هي رحمه وقرابته ، واختياره لولاية عهده الأمير الرّضى علي بن موسى ، حفظه الله ، حين أحمد سيرته ، ورضي محبته ، وعرف استقلاله ، بما قلده في هَدْيه ودينه ووفائه ، بما أكد

الله به عليه ، من عهد أمير المؤمنين أيده الله في اعتيامه (١) من آزره وآساه بما شَفَع رأيه ، وأنفذ تدبيره ، حين همّ لاستصلاح ما استرعاه الله من أمور عباده ، لما انتقى القائم بدعوته ، ورئيس شريعته الأميرَ ذا الرياستين رحمه الله ، فاتخذه مكاتفاً ظهيراً ووزيراً دون من سواه ، فاتبع منهاج أمير المؤمنين ، أيده الله ، وسار بسيرته ، شرقاً وغرباً ، وغوراً ونجداً ، موفياً بعهده قائماً بدعوته ، مقتفياً لأثره وسنته ، فحسم الله به الأدواء ، وقمع به الأعداء ، من عتاة الأمم وطواغيت الشرك ، وأباد على يده أهل الشقاق والنفاق ، في كل أُفق وطرف ، بِجَدّ أمير المؤمنين ، أعزه الله ، وبركة سياسته ودولته ، ونُجح سعي من قام بنُصرة من قام بحقه ، وأنار برهانه حتى توفاه الله عز وجل ، حين بلغ همته وغايته ، وحُمّ أجله ، وانقطعت مدته ، سعيداً حميداً ، شهيداً فقيداً ، عند إمامه أكرمه الله ، وعند الخاصة والعامة . وكان من إجلال أمير المؤمنين الحادث الذي نزل به ، فأحيا آثاره ، بوصف محاسنه ، في مَشاهده ومَجامعه ، وترحمه عليه عند ذكره ، وحفظه في لُحمته ، وأهل حُرمته ، وفيمن كان يحمد الله على طاعته ونصيحته ، ما أتم به نعمته . عندنا وعندكم معشر الشيعة ، فقد أصبح أمره بكم متصلاً ، وموقعه من جماعتكم متمكناً ، بقبضكم ما قبضه ، وببسطكم ما بسطه ، من لوعة المصيبة وحسن العقبى ... »

وقال : « فأية نعمة أجلّ قدراً ، وأسنى أمراً ، معشر الشيعة من نعمة أمير المؤمنين ، أيده الله ، عند الأمير ذي الرياستين ، ومراتبه التي رتبه بها ، فإنه أعطاه رياسة الحرب ، ورياسة التدبير ، وعقد له على رأسهما عَلماً في دعوته وقلده سيفهما ، وختّمه بخاتم الخلافة وخاتم الدولة ، وجعل صلاته بين صاحب حرَسه وصاحب شرطته ، ومسيره بين أمير

---

(١) الاعتيام : الاختيار .

المؤمنين وبينهما ، أمامه وخلفه ، وصير له الجلوس على الكرسي بحضرته ، في صدر كل مجلس جلس ، إلا أن يوثر به من أحب من أبناء الخلفاء ، وقدمه في دخول دار الأمير راكباً ، إلى أقصى مكان ينتهي إليه أحدٌ من بني هاشم ، لأنه منهم وأعظمهم غناء عنهم ، فسماه صاحب دعوته وسيفه على عدوه ، وبابه الذي يدخل إليه منه ، وولاه خيوله في أقطار الأرض ، ومقدّمته بحضرته ، وقلده من الثغور ما قد علمت ، بما أفرده في عهده ، أي ما أنفذه من أمره ، في جميع سلطانه وملكه ، من مشارق الأرض ومغاربها ، وأين يأتي الوصف على ما فضله به ، وقدمه وشرفه على الناس كافة ولكنا نُخْطِر بذكره ، ثم نَكل السامعين إلى ما يرجعون إليه من المعرفة التي لا تبلغها الصفة ، ثم لم يكن ما أكرمه به في حياته بأعلى مما أكرمه به في وفاته ، تولى غسله وتكفينه ، ومباشرته لجهازه ، إلى حفرته بيده ، وقاسى من الغصص وبرحاء[1] الحزن ، وإذراء العبرة ، وإراقة الدمعة ، ما حال بينه وبين الكلام ، وكاد يمنعه من القول والدعاء في صلاته عليه ، وحَفِظ أهل الحرمة به رعاية له فيهم ، ووفاء بعهده من بعده ، وأقرّ خاصته وقواده وعمّاله وكتّابه على مراتبهم ، وحمد بحمده وذم بذمه وجدد لجنده ... »

وبعد أن عدد ما صنع المأمون من الأعمال الحسنة قال خطاباً للمأمون : « فيا أيها المنصور المهدي الرشيد حُزْت فضائل الآباء ، واهتديت بهدى الأنبياء ، أنشكرك عن الإسلام ، فأنت القائم به الداعي له ، والناصر لحقه ، أم نشكرك عن الأمصار ، فأنت المفتتح لمتنعها عَنوة ، والمتطوّل على أهلها بالرحمة ، والمتعطف عليهم بحسن الفائدة ، بعدما هيجت منك سَوْرة الغضب ، فأطفأت نارها ، وأخمدت لهبها ، وعُدت على من سفِه وأضاع

---

(١) برحاء الحمى وغيرها شدة الأذى .

حظه . أم نشكرك على المساجد، فأنت الذي أسستها على التقوى، وعمّرتها بتلاوة القرآن ، وطهرت المنابر وركبتها ، تعلوها صائماً ، وتنطق عليها صادقاً ، وتدعو إلى الرشد عليها ناصحاً ، وتختم القرآن قبل أن تبدأها محسناً ، وتتلو من قوارعه ما تصيخ له الأسماع ، وتلين له القلوب . أم نشكرك على البيت العتيق ، والركن والمقام والحجر وزمزم ومشاعر الحج ، وأنت ذببت عنها ، وأعدت إليها عهدها في مبعث نبيها ، فأمنت النازع إليها من كل فج عميق ، والحالّين بها من الركّع والسجود . أم نشكرك عن رسول الله فيما حفظت فيه من عترته ، بعفوك عن مجرمهم ، ومضاعفتك ثواب محسنهم ، وإحيائك من أمرهم ما كان قد اندرس وانطمس بعد نبيّ الله ، وقد راعيت منه في قرابته وقرابتك ، وذوي رحمه ورحمك ، ما ضيع النـــاس ، ووصلت منهم ما كان وصله ، إذ كان الله عز وجل قد فرض صلة الأرحام ، فكان أطوع خلق الله فيما فرض عليه ؛ أم نشكرك على العوام ، فقد ألبست المسلمين ثوب الأمن ، وأذقتهم طعم السعة والرفاهة ، وعدلت بينهم بالإنصاف ، وتوليت دونهم النّصَب ، وآثرتهم بالراحة . أم نشكرك عن الملوك والقواد والأجناد فأنت الذي رفعت منازلهم ، ووفرت عددهم ، فلم يكن في دهر أحد من الخلفاء ، أسعد ولا أحظى منهم في سلطانك ، بما بذلت لهم من المعادن ، ووليتهم من الثغور والأمصار ، وأدررت عليهم من الأرزاق والخواص . أم نشكرك عن الأحكام والسنن فأنت الذي أنهجت سبيلها ، فأوجبت فرضها ونافست في أهلها .... »

* * *

وقّع إلى عامل آخر حمل المال : قد استبطأك الإغفال ، وأبطرك الإهمال ، فما تصحب قولك فعلاً ، ولا تتبع وعدك إنجازاً ، وقد دافعت

بمال نُجّم [١] لزمك حمله ، حتى وجب عليك مثله ، فاحمل ثلاثة أنجم ، ليكون ما يتعجل منك أداء ما أخر عنك إن شاء الله .

* * *

ووقع إلى عامل ظالم : الحق طريق واضح لمن طلبه ، تهديه محجته ولا يخاف عثرته ، وتؤمن في السرّ مَغبّته ، فلا تستقلن منه ، ولا تعدلن عنه ، فقد بالغت في مناصحتك ، فلا تحوجني إلى معاودتك ، فليس بعد التقدمة إليك ، إلا سطوة الانكار عليك .

* * *

ووقّع إلى عامل ذكر أنه قد أصلح ما تحت يده : أنا لك حامد فاستدم أحسن ما أنت عليه ، يدم لك أحسن ما عندي ، واعلم أن كل شيء لا يزاد فيه ينقص ، والنقصان وإن قل يمحق الكثير ، كما ينمي على الزيادة القليل .

* * *

ووقّع في كتاب : مستتم الصنيعة من صابَرها ، فعدل زيغها ، وأقام أوَدها ، صيانة لمعروفه ، ونصرة لرأيه ، فإن أول المعروف مستخَف ، وآخره مستثقَل ؛ تكاد أوائله تكون للهوى ؛ وأواخره تكون للرأي ؛ ولذلك قيل : ربّ الصنيعة أشد من ابتدائها .

* * *

ووقع إلى بعض العمال في العناية بأحدهم : أنا بفلان تام العناية وله شديد الرعاية ، وكنت أحب أن يكون ما أرعيته طرفك من أمره في

---

(١) نجم المال أداه نجوماً أي في أوقات مضروبة .

كتابي ، مستودعاً سمعك من خطابي ، فلا تعدلن بعنايتك إلى غيره . ولا تمنحن بعقدك سواه ، حتى تنيله إرادته ، وتتجاوز به امنيته . إن شاء الله .

* * *

ومما نسب إليه في ذم بخيل .

كأن البخل والشوءم صارا معاً في سهمه . وكانا قبل ذلك في قِسْمه ، فحازهما بالوراثة ، واستحق ما استملك منهما بالشّفعة ، وأشهد على حيازتهما أهل الدين والأمانة ، حتى خلصا له من كل مانع ، وسلما له من تبعة كل منازع ، فهو لا يصيب إلا مخطياً ، ولا يحسن إلا ناسياً ، ولا ينفق إلا كارهاً ، ولا ينصف إلا صاغراً .

وفي مثله :

وصل كتابك فرأيناك قد حليته بزخارف أوصافك ، وأخليته من حقائق إنصافك ، وأكثرت فيه الدعاوي على خصمك ، من غير برهان أتيت به على دعواك وزعمك ...

وكتب إلى عبد الله بن طاهر عند خروج عبيد الله بن السريّ إليه يهنئه بذلك الفتح : بلغني ، أعز الله الأمير ، ما فتح الله عليك ، وخروج ابن السريّ إليك ، فالحمد لله الناصر لدينه ، المعز لدولة خليفته على عباده ، والمذل لمن عَنَدَ عنه وعن حقه ، ورغب عن طاعته ، ونسأل الله أن يُظاهر له النعم ، ويفتح له بلدان الشرك ، والحمد لله على ما والاك مذ ظعنت لوجهك ، فإنا ومن قِبَلنا نتذاكر سيرتك في حربك وسلمك ، ونكثر التعجب لما وفقت له من الشدة واللبان في مواضعهما ، ولا نعلم سائس جند ولا رعية عدل بينهم عدلك ، ولا عفا بعد القدرة عمن آسفه واضغنه عفوك . ولقلّ ما رأينا ابن شرف لم يلق بيده متكلاً على ما قدمت له أبوته ، ومن أُوتي حظّاً وكفاية ، وسلطاناً وولاية ، لم يخلد إلى ما عنا له حتى يخلّ بمساماة ما أمامه ، ثم لا نعلم سائساً استحق النجح لحسن السيرة وكف مَعَرَّة الأتباع استحقاقك ، وما يستجير أحد

ممن قبَلنا أن يقدّمَ عليك أحداً يهوي عند الحاقّة[١] ، والنازلة المعضلة ، فليهنكَ منة الله ومزيده ، ويسوغك الله هذه النعمة التي حواها لك بالمحافظة على مابه تمت لك من التمسك بحبل إمامك ومولاك ومولى جميع المسلمين ، وملاّك وإيانا العيش ببقائه ، وأنت تعلم أنك لم تزل عندنا وعند من قِبَلنا مكرماً مقدماً معظماً ، وقد زادك الله في اعين الخاصة والعامة جلالة وبجالة ، فأصبحوا يرجونك لأنفسهم ، ويعدّونك لأحداثهم ونوائبهم ، وأرجو أن يوفقك الله لمحابّه كما وفق لك صنعه وتوفيقه ، فقد أحسنت جوار النعمة فلم تطغك ولم تزدْك إلا تذللاً وتواضعاً ، فالحمد لله على ما أنالك وأبلاك وأودع فيك والسلام .

وكتب إلى عبد الله بن طاهر أيضاً عن المأمون يعزله عن ديار مصر وتسليم العمل إلى إسحاق بن إبراهيم : أما بعد فإن أمير المؤمنين قد رأى تولية إسحق ابن إبراهيم ما يتولاه من أعمال المعاون بديار مصر ، وإنما هو عملك نقل منك إليك ، فسلمه من يدك إلى يدك والسلام .

* * *

لما توفي طاهر بن الحسين بخراسان ، وعبد الله بن طاهر في وجه نصر بن شبث ، كتب إليه أحمد بن يوسف يعزيه عن نفسه :

أما بعد فإنه قد حدث من أمر الرزء العظيم بوفاة ذى اليمينين ما إلى الله عز وجل فيه المفزع والمرجع ، وفيه عليه المستعان ، وإنا لله وإنا إليه راجعون ، اتباعاً لأمر الله ، واعتصاماً بطاعته ، وتسليماً لنازل قضائه ، ورجاء لما وعد الصابرين من صلواته ورحمته وهداه ، وعند الله نحتسب مصيبتنا به . وقد كان سبق إلى القلوب عند بداهة الخبر من اللوعة ، واضطلاع الفجيعة ، ما كنا نخاف إحباطه من الأجر ، لولا ما تدارك الله به من الذكر بما وعد

---

(١) الحاقة : النازلة الثابتة كالحقة .

أهل الصبر ؛ فنسأل الله أن يرأب (١) هذه الثلمة ، ويسد هذه الخلة ، بأمير المؤمنين أولاً وبك ثانياً ، وأن يعظم مثوبتك ، ويحسن عقباك ، ويخلف بك ذا اليمينين ، ويعمر بك مكانه من أمير المؤمنين ومن كافة المسلمين . فأما ما يحتاج إليه من التسلية والتعزية ، فإنك في فضل رأيك ، واتساع لُبّك ، في حال العزة والنماء ، لم تكن تخلو من عوارض الذكر ، وخواطر الفكر ، فيما تعرو به الأيام من نوائبها ، وتبعت به من حوادثها ، وفي هذا لمن وفق له إعداد للنوازل ، وتوطين الأنفس على المكاره ، فلا يكون معه هلع ، ولا إفراط جزع ، بإذن الله ، مع أن مرد كل جزع إلى سلوة ، ولا ثبات عليها ، فأولى بالراغب في ذات الله أن يهتبل (٢) مثوبته في أوانها من بعض الأسى ، وفجاءة النكبة ، وأولى بذى اللب إذا علم ما هو لابد صائر إليه ، ألا يبعد منه إبعاداً يلزمه التفاوت عند التأمل ، واختلاف الحالين في بعد الأمد بينهما ؛ وقد كنت أُحب ألا أقنع في تعزيتك برسول ولا كتاب ، دون الشخوص إليك بنفسي ، لو أمكنني المسير ، إجلالاً للمصيبة ، وتأنساً بقربك ، بعد الذي دخلني من الوحشة ، فقد عرفت ما خصني من المرْزِئة (٣) بذى اليمينين ، كما كنت أتعرف من جميل رأيه ، وعظيم بره حاضراً ، وما كان يذكرني به غائباً ، ذكره الله في الرفيق الأعلى ...

* * *

وأخصر من هذا ما عزى به ولد رجل من آل الربيع ، وكان له مواصلاً فقال : عظم الله أجركم ، وجبر مصابكم ، ووجه الرحمة إلى فقيدكم ،

---

(١) رأب الصدع : أصلحه وشعبه كارتأبه . والثلمة بالضم : فرجة المكسور والمهدوم . والخلة : بفتح الخاء الحاجة والفقر والخصاصة .

(٢) اهتبل كلمة حكمة اغتنمها .

(٣) المرزئة : كالرزء والرزيئة ج أرزاء ورزايا .

وجعل لكم من وراء مصيبتكم حالاً تجمع كلمتكم ، وتلمّ شعثكم ، ولا تفرق ملأكم .

وسمع قول عليّ : لا تكونن كمن يعجز عن شكر ما أُوتي ، ويلتمس الزيادة فيما بقي . فكتب : أحق من أثبت لك العذر في حال شغلك من لم يخل ساعة من برك في وقت فراغك .

* * *

ومن كلامه يعتذر إلى بعض الأخلاء : لي ذنوب إن عددتها جلّت ، وإن ضممتها إلى فضلك حسنت ، وقد راجعت إنابتي ، وسلكت طريق استقامتي ، وعلمت أن توبتي في حجتي ، وإقراري أبلغ في معذرتي ؛ فهذا مقام التائب من جرمه ، المتضمن حسن الفيئة [١] على نفسه ، فقد كان عقابك بالحلم عني ، أبلغ من أمرك بالانتصاف مني ، فإن رأيت أن تهب لي ما استحققته من العقوبة ، لما ترجوه من المثوبة ، فعلت إن شاء الله .

* * *

وكتب في الذم : أما بعد ، فلا أعلم للمعروف طريقاً أحزن ولا أوعر من طريقه إليك ، ولا مستودعاً أقل زكاء ، ولا أبعد ثمرة خير من مكانه عندك . لأنه يحصُل منك في حسب دنيّ ، ولسان بذي ، ونسب قصي ، وجهل قد ملك طباعك ، فالمعروف لديك ضائع ، والشكر عندك مهجور ، وإنما غايتك في المعروف أن تحرزه ، وفي وليّه أن تكفر به .

ومن كلامه : قد كان كتابي نفذ إليك بما كان غيره أولى بي ، وألزم لي في حق الحرية والكرم ، اللذين جعلا لك إرثاً ، والشرف والفضل اللذين قسما لك حظاً ، ولكنني دُفعت من اتصال الزلل ، والإخلال بالعمل ، إلى

---

(٢) الفيئة : الرجعة .

ما اضطرني إلى محادثتك ، ودعاني إلى مخالفتك ، لأجَلّي عني هبوة [١] الاتهام، وأصرف عنك عارض الملام، وقد جرى لك المقدار بالسؤدد الذي خصك الله بمزيته ، وأفردك بفضيلته ، فليس يحاول أحد استقصاء عليك إلا عرض دونه حاجز من واجبك ، يضطره إلى ذلة التنصل إليك ويحور ذلك عن التعمد .

* * *

وكتب إلى صديق له : هذا يوم رقت حواشيه ، وبدت تباشير الحبور فيه ، والمرء بأخيه كثير ، وبمساعدته جدير ، وأنت قطب السرور ، ونظام الأمور ، فلا تتأخر فنقلّ ، ولا تنفرد عنا فنذل .

* * *

وكتب إلى إسحق بن إبراهيم الموصلي وقد زاره إبراهيم بن المهدي : عندي من أنا عنده ، وحجتنا عليك إعلامنا لك والسلام .

* * *

وكتب : عندي فلان وفلان ؛ فإن كنا من شأنك فقد آذناك .

* * *

وكتب إلى صديق له يستدعيه : يوم التلاقي قصير فأعن عليه بالبكور .

وكتب إلى صديق له يستدعيه :

إن كنت تنشط للصبوح فيومنا   يوم أغرّ مُحَجّل الأطراف
وترى السحابة في السماء تعلقت   وكأنما كسيت جناح غُداف [٢]
طوراً تبلل بالرذاذ وتارة   تهمي عليـــك بدلوها الغراف

---

(١) الهبوة : الغبرة .
(٢) الغداف : كغراب ، غراب القيظ والنسر الكثير الريش ، ج غدفان .

فانعم صباحاً وأتنا متفضــلا ودع الخلاف فليس يوم خلاف

* * *

وكتب إلى إبراهيم بن المهدي في هدية استقلها :

« بلغني استقلالك لما ألطفت [١] ، والذي نحن عليه من الأنس سهل علينا قلة الحشد لك في البر ، فأهدينا هدية من لا يحتشم إلى من لا يغتنم » .

وكان يقول في إبراهيم بن المهدي : القلوب من غِنائه على خطر ، فكيف الجيوب .

* * *

كتب إلى بعض إخوانه يهنئه بمولود : بارك الله في مولودك الذي أتاك ، وهنأك نعمته بعطيته ، وملاّك كرامته بفائدتك ، وأدام سرورك بزيادته ، وجعله باراً تقياً ، ميموناً مباركاً زكياً ، ممدوداً له في البقاء ، مُبَلّغاً غاية الأمل ، مشدوداً به عضدك ، مُكَثّراً به ولدك ، مُداماً به سرورك ، فدفوعاً به الآفات عنك ، مشفوعاً بأكثر العدد من طيب الولد .

* * *

وله في مثل ذلك : هنأك الله هذه الفائدة التي أفادكها ، وبارك الله في الهبة التي رزقكها ، وشفعهــا بإخوة متواترين ، يسرونك في حياتك ، ويخلفونك في عقبك .

* * *

وله : وهنأ الله أمير المؤمنين نِعَمَهُ ، وملاّه كرامته ، وأولى لــه فتوحه ، وأدام إعزازه ، وتولى حياطته وكفايتــه ، فيما دنا منه وما

(١) ألطفه بكذا : بره .

غاب عنه ، وأطال الله بقاءه والإمتاع به .

* * *

وكتب في تهنئة بمولود : أما بعد فليس من أمر يجعل الله لك فية سروراً إلا كننتُ به بهجاً ، أعتدّ فيه بالنعمة من الله الذي أوجب عليّ من حقك ، وعرّفني من جميل رأيك ، فزادكَ الله خيراً ، وأدام إحسانه إليك ، وقد بلغني أن الله وهب لك غلاماً سَرِيّاً [1] أجمل صورته ، وأتم خلقه ، وأحسن فيه البلاء عندكَ فاشتد سروري بذلك ، وأكثرت حمد الله عليه ، فبارك الله فيه ، وجعله بارّاً تقياً ، يشد عضدك ، ويكثر عددك ، ويُقر عينك .

* * *

وله في فتح السند : الحمد لله ولي الحمد ، وأهل الثناء والمجد ، خالق الخلق ، ومدبر الأمر ، المسبغ على عباده ، والموجب عليهم حجته ، فليسوا يرجون الا سعة فضله ، ولا يحذرون الا ما اجترحوا من معصيته ، لما سبق من جزيل إحسانه ، وتظاهر من امتنانه ، وتقدم به الإعذار والإنذار اللذان لايستخف بما عظم منهما ، إلا من استحوذ عليه الشيطان ، واستولى عليه الخذلان ، وقاده الحَيْن إلى موارد الهلكة .

* * *

وله تحميد إلى الولاة عن الخليفة : أما بعد فالحمد لله ذى المنن الظاهرة . والحجج القاهرة ، الذي قطع بينه وبين عباده المعذرة ، وردف عليهم البينة ، ومهلة النظرة [2] ، وجعل ما آتاهم من حظوظ الدنيا بالقسم المكتوب ، وما ذخر لهم من ثواب الآخرةبالنجح المطلوب ، فهم في العاجلة شركاء في النعمة ، وفي الآجلة شتى في الرحمة ، يختص بها أهله ، المنتفعين

---

(١) السري : الظريف .
(٢) النظرة : كفرحة ، التأخير في الأمر .

بما ضرب لهم من الأمثال ، وتصريف الحال بعد الحال . المبادرين بأعمالهم إلى انقضاء مدد آجالهم ، قبل حلول ما يتوقع ، وفوت مالا يرتجع .

* * *

سمع أحمد لأخيه شعراً قد كتب به إلى هويّ [1] له :

أيا باذلا ودّاً لمن لا يشاكله ... يساعده في حبـه ويواصله
عليك بمن يرضى لك الناس وده ... أواخره محمودة وأوائله

فكتب إليه أحمد : وفقك الله يا أخي للسداد ، وهداك للرشاد ، قرأت لك شعراً أنفذته إلي من تخطب مودته ، وتستدعي عشرته ، فسرني شغفك بالأدب ، وساءني اضطرابك في الشعر ، وليس مثلك من أخرج من يده شيئاً يعود بعيب عليه ، وأعيذك بالله بأن تلج لجة الشعر بلا عوم ينجيك منها ، وسباحة تصدرك عنها ، فتنسب إلى قبيح أمراً هويت النسبة إلى حسنه ، فاعرف الشعر قبل قوله ، واستعن على عمله بأهله ، ثم قل منه ما أحببت ، إذا عرفت ما أوردت وأصدرت ، وهذه أبيات على وزن أبياتك نظمتها بمثل ما نثرته لك وهي :

أبا حسن عانِ الدراية قبل ما ... تريغ [2] من الشعر الذي أنت قائله
ففي الشعر آداب كثير فتونها ... وباطل لهو إن تعَنّاك باطله [3]
وحسبك عجزاً بامرئ متغزل ... إذا عيّ بالأمثال فيمن يواصله
يهون على معشوقه ما أعزه ... فتنقلب الأحوال فيما يحاوله

* * *

---

(١) الهوي كغني المهوى : أي الذي يهوى ويعشق .
(٢) أراغ : أراد وطلب .
(٣) هذه رواية المرزباني في الموشح ، ورواية الصولي في الأوراق هكذا :
في الشعر فضل لو وفيت بحقه ... ونقص إذا لم توف يشهر باطله

فدونك نصحاً من خبير مجرب　　قضى آخراً أفضت إليه أوائله
ومستأنف الأيام منها كسالف　　فبالسالف الماضي فقس ما تزاوله

ولأحمد بن يوسف شعر رقيق كما رأيت ، ومنه ما كتب به إلى أبي دُلَف القاسم بن عيسى ، وكانت بينهما مودة ، وكانا يتهاديان ويتكاتبان ، ثم وُلي أبو دُلَف الجبل كله ، وأعرض فيما يظهر عن أحمد فكتب إليه :

ما على ذا كنا افترقنا بشيرا　　زولا هكذا عقدنا الإخاء
لم أكن أحسب الإمارة يزدا　　د بها ذو الوفاء إلا صفاء
تطعن الناس بالمثقفة السمـ　　ـر على غدرهم وتنسى الوفاء

وقال :

نفسي على حسراتها موقوفة　　فوددت لو خرجت من الحسرات
لو في يديّ حساب أيامي إذاً　　ألفيته متطلباً لوفاتي
لم أبك حبّاً للحياة وإنما　　أبكي مخافة أن تطول حياتي

وذكر من طريف شعره قوله :

أصبحت مخموراً أحدث عن نفسي　　ومالي من علم بما كان بالأمس
سقاني عبيد من يديه مدامة　　يصرّفها لي ثم يلحى على الجلس
فيا ربّ يوم قد حمدت مساءه　　يباكرني ذمّ له مطلع الشمس
فأصبحت قد حدثت نفسي بتوبة　　ويعتادني للهو عندي إذا أُمسي

وقال أيضاً :

عذب الفراق لنا قبيل وداعنا　　ثم اقتبلناه كسم ناقع
وكأنما أثر الدموع بخدها　　طَلّ سقيط فوق ورد يانع

قال أبو بكر الصولي : هو أول من أفصح عن هذا المعنى وتبعه الناس .

* * *

عتب أحمد على جارية له في شيء سألته ألا يفعله ثم فعلت مثله فقال :

وعامل بالفجور يأمر بالبـ　ـر كهاد يقود[١] في الظلم
أو كطبيب قد شفّه سقم　وهو يداوي من ذلك السقم
يا واعظ الناس غير متعظ　ثوبَك طهر أو لا فلا تلم

* * *

ومن شعره :

يزين الشعر أفواهاً إذا نطقت　بالشعر يوماً وقد يزرى بأفواه
قد يرزق المرء لامن حسن حيلته　ويصرف الرزق عن ذى الحيلة الداهي
ما مضى من غني يوماً ولا عدم　إلا وقولي عليه الحمد لله

وقال :

إذا قلت في شيء ، نعم ، فأتمه　فإن نعم دين على الحر واجب
وإلا فقل ، لا ، فاسترح وأرح بها　لكيلا يقول الناس إنك كاذب

وقال في إفشاء السر :

إذا المرء أفشى سره بلسانه　ولام عليه غيره فهو أحمق
إذا ضاق صدر المرء عن سر نفسه　فصدر الذي استودعته السر أضيق

وقال : ياساخطاً من أن طربت لزلزل　لك حرمة ولزلزل إحسان
أغضبت من طربي على إحسانه　أحسن لأغضب أيها الغضبان

وقال في الهجاء :

كأنه من سوء آدابه　أسلم في كتاب سوء الأدب

وقال : نفسي على زفراتها مطوية　وودت لو خرجت مع الزفرات

---

(١) رواية ابن عساكر « يخوض » .

ومن كلامه : مجالسة البغضاء تثير الهموم ، وتجلب الغموم ، وتؤلم القلب ، وتقدح في النشاط ، وتطوي الانبساط .

وقال : بالأقلام تساس الأقاليم .

وقال : القلم لسان البصر يناجيه بما استتر عن الأسماع ، إذا نسج حلله ، وأودعها حكمه .

وله من كلام : قد أذهب الله وصب العلة ونصبها ، ووفر خراجها وثوابها ، وجعل فيها من إرغام العدو بعقباها ، أضعاف ما كان عنده من السرور بفتح أولاها .

وقال : عبرات الأقلام في خدود كتبها ، أحسن من عبرات الغواني في صحون خدودها .

ومما كتب به : أحق من أثبت لك العذر في حال شغلك ، من لم يخل ساعة من برك في وقت فراغك .

ومن كلامه : إذا لم تقدر أن تعض يد عدوك فقبّلها .

كان أحمد عدواً لسعيد بن سالم الباهلي وولده فذكرهم يوماً فقال : لولا أن الله عز وجل ختم نبوته بمحمد وكتبه بالقرآن ، لبعث فيكم نبي نقمة وأنزل عليكم قرآن عذاب ، وما عسيت أن أقول في قوم محاسنهم مساوي السفل ، ومساويهم فضائح الأمم .

ابراهيم بن العبّاس الصولي

حياته الخاصة والعامة :

في بغداد وفي عهد الرشيد السعيد ، ولد إبراهيم بن العباس بن محمد بن صُول ، في بيت عُرف بالأدب والسياسة ، وكان جده من رجال الدولة العباسية ودعاتها ؛ وصُول جد أبيه يدين بالمجوسية ، أسلم في جُرجان على يد يزيد بن المهلب ، فأصبح له مولىً ، وأصل صول تركي الجنس ، أقام في فارس ، فنشأ أبناؤه على التشبه بأهلها .

وتخرّج إبراهيم في مدينة المنصور بأخيه عبد الله بن العباس ، وكان من وجوه الكتاب ، وهو أسنّ من أخيه بنحو عشرين سنة ؛ وجاء إبراهيم آدب من عبد الله ، وأحسن شعراً ، وأحذق كتابة ، وأعرق في البلاغة ؛ وكان المطبوع فيه أكثر من المكسوب ، علّمه الدهر ما لم تعلمه الكتب ، وأوحى إليه الزمن المؤدب ما لم يُوحه لرجل عاش في بيئة ضيقة ، وعيش ضنك ، وبيت خامل .

كان الصُولي مجموعة ثقافات وعناصر ، فيه الدم التركي والدم العربي ، جاءه الدم العربي من أمه ؛ وكان خاله العباس بن الأحنف من أشعر الشعراء في عصره ، وربما كان إبراهيم يعرف التركية لغة آبائه ، والفارسية لغتهم الثانية ، بعد جلائهم إلى خراسان ، أما ثقافته العربية ، فأوسع ثقافة في لغة العلم والدين ولغة دولته العظيمة .

كان محيط الصولي متسع الرحاب وحياته كلها كذلك ، دخل في خدمة الدولة كآبائه ، يتولى بعض أعمال الإدارة ، ويتعرف إلى رجالها ويختلط بهم ، واطلع على عورات الناس ومحامدهم ، وكشف سر مجتمعه وعلانيته ، قلّب الأخلاق والأعراق كل مقلّب ، وثافن العظماء ، وعرف ما يرضيهم وما يغضبهم ، وكتب للخلفاء وتأدب بآدابهم ، كتب للمعتصم والواثق والمتوكل ؛ وقلما ذهب رجل برضا الملوك إلا كانت له مزايا تنفع دولتهم .

وأصاب الصولي ما يصيب قُربان [١] الملوك من السعادة ونقيضها ، وعانى من الكبراء ما يعانيه أمثاله ممن تطوحوا في الخدمة ؛ وكان بعض ما نال مما أوقعته فيه المنافسة ، وبعضه مما استحق عليه النكبة : جرى في طريقة جال الدولة المطلقة المستبدة ، فمثّل صورة صحيحة من مجتمعه ، على ما ركان كلامه صورة صادقه من قلبه وفكره ، ودخل فيما يدخل فيه نظراؤه من أرباب الولايات ، وما خرج على مألوفهم ، بلى ضَرَب على وترهم ، وحطب في حبلهم ، تآمر على خصمائه وتآمروا عليه ، وضربهم وضربوه ، ومدح الناس ومدحوه ، وثلبهم وثلبوه ، وحسدهم وحسدوه ،وكان في كلما أتى مدفوعاً بنابل [٢] من تربية عصره ومصره ، تجسدت فيه أخلاق عَصْرِيّيه ، فانعكس كل ما رأى على صحيفة شعره ونثره ، فردده وردّد عنه حتّى عاد بعدُ أمثالاً .

لما عزم المأمون على الفتك بالفضل بن سهل عرف الصولي ذلك من صديق له كان من بعض من وُضعوا له ، فما رأى إلا القيام بحسن الصنيعة مع الفضل ؛ وقد عاش هو وأخوه عبد الله في حمايته واصطناعه ، ورَفع منهما وحَنى عليهما ، فأخبر الفضل بما يدبّر له ، وانتهى الخبر إلى المأمون ، فعرف أن الصولي قد أبلغ الفضل ما يُراد به ، فطلبه فاستتر ، ثم عفا عنه

---

(١) القربان جليس الملك الخاص .

(٢) النابل : السائق .

بما بلغه عنه من جواب لطيف ، دل على بعد نظر وذكاء .

بدأت حياة إبراهيم في السياسة زمن المعتصم ، وسار سيرة أرباب الأدارة إذ ذاك ، يأخذ ويعطي من مال الأمة والدولة ، ويُقلد كبار العمال في مظاهرهم ، ولا يتعفف عن مال ومتاع ؛ كان مظهراً من مظاهر العاملين في الدولة ، يستمتع بخيراتها أنّى وجدها ، ويفوقهم بأنه كان على جانب عظيم من المروءة وسعة الفضل ؛ ولا عجب ان سار الصولي هذه السيرة ، وقد كان في زمن يكتب فيه مثل أبي العيناء النديم إلى صديق له وَلي ولاية : « واعلم أن الخيانة فطنة ، والأمانة حرفة ، والجمع كَيْس ، والمنع صرامة ، وليس كل يوم ولاية ، فاذكر أيام العطلة ، ولا تَحْقِرن صغيراً ، فإن من الدور إلى الدور ، وإيلاء الولاية رِقدة ، فتنبه قبل أن تُنبه ، وأخو السلطان أعمى عن قليل سوف يبصر ، وما هذه الوصية التي أوصى بها يعقوب بنيه ، ولكن رأيت الحزم في أخذ العاجل ، وترك الآجل » .

وموطن الضعف من أخلاق الصولي أنه كما أراد أبو العيناء يأخذ العاجل ولا يبالي ، ويدب اليه دبيب الوشاة ، فينجو مرات ، ويَعْطَب مرات . روى الجهشياري أنه لم يكن للصولي تقدم في الخراج على بلاغة فيه ، وكان بينه وبين أحمد بن المدَبّر تباعد ، وكان أحمد مقدماً في الكتابة ، فقال أحمد بن المدبر للمتوكل : قلدت إبراهيم بن العباس ديوان الضياع ، وهو متخلف في هذا الشأن ، لا يحسن منه قليلاً ولا كثيراً ، وطعن عليه طعناً قبيحاً ، فقال المتوكل : في غدٍ أجمع بينكما . واتصل الخبر بإبراهيم فأيقن بحلول المكروه ، وعلم أنه لا يفي بأحمد بن المدبر في صناعته ، وغدا إل دار السلطان آيساً من نفسه ونعمته ، وحضر أحمد فقال له المتوكل : قد حضر إبراهيم وحضرتَ ومن أجلكما قعدت ، هات اذكر ما كنت فيه أمس ، فقال أحمد : أي شيء أذكر عنه فإنه لا يعرف أسماء عماله في النواحي ، ولا يعلم ما في دساتيرهم من تقديراتهم وكيولهم ، وحمل من

حمل منهم ومن لم يحمل ، ولا يعرف أسماء النواحي التي تقلدها ، وقد اقتطع أصحابه بناحية كذا كذا ألفاً ، واختلت ناحية كذا في العمارة ، وأطال في ذكر هذه الأمور ؛ فالتفت المتوكل إلى إبراهيم فقال : ما سكوتك؟ فقال : يا أمير المؤمنين جوابي في بيتي شعر قلتهما فإن أذن أمير المؤمنين أنشدتهما ، فقال هات فأنشده :

ردَّ قولي وصدق الأقوالا وأطاع الوشاة والعذّالا
أتُراه يكون شهر صدود وعلى وجهه رأيت الهلالا

وقيل إن إبراهيم لما سمع كلام ابن المدبر ضاقت عليه الحجة ، وخاف ان يحقق قوله إن اعترف ، ثم لا يرجع منه إلى شيء فيعود عليه الغرم ، فعدل عن الحجة إلى الحيلة فأنشد البيتين . وفي رواية ان الخليفة لما سمع ما سمع قال : لا يكون ذلك والله لا يكون ذلك أبداً ، والتفت إلى الواشي وقال له : كيف تقبل في المال قول صاحبه . وفي رواية ثانية أن المتوكل قال لما سمع البيتين : زه زه أحسنت ؛ إيتوني بمن يعمل في هذا لحناً ، وهاتوا ما نأكل وجيئوا بالنساء ، ودعونا من فضول ان المدبر واخلعوا على إبراهيم بن العباس ، فخلع عليه وانصرف إلى منزله .

قالوا ومكث إبراهيم بن العباس يومه مغموماً ، فقيل له هذا يوم سرور وجذل بما جدد الله لك من الانتصار على خصمك ، فقال : الحق أولى بمثلي وأشبه ، إني لم أدفع حجة أحمد بحجة ، ولا كُذّب في شيء مما ذكر ، ولا أنا ممن يُعشره في الخراج ، كما أنه لا يُعشرني [1] في البلاغة ، وإنما فَلَجت [2]

---

(١) لا يبلغ معشاره ، يقال فلان لا يعشر فلاناً ظرفاً أي لا يبلغ معشاره ، وعشرت (بتشديد الشين) القوم تعشيراً إذا كانوا تسعة فجعلتهم عشرة وعشرتهم (بفتح الشين) إذا أخذت واحداً فصاروا تسعة .

(٢) الفلج : الظفر ، ويفلج ويفلج في الكل .

برطازة [1] ومخرقة ، أفلا أبكي فضلاً عن أن أغتم من زمان يدفع هذا كله .

وبهذه الوقعة تمثل لنا أدب الصولي ، وضعفه فيما وسد إليه من عمل ، اعترف بإهماله في أعماله ، حتى ترك المجال لخصمه يسقطه في نظر الخليفة ؛ وكأن ابن المدبّر رماه بما رماه وهو موقن بأن هذا الإهمال لابدّ أن يكافئه عليه عماله ، ويعطوه بعض ما يجنون ، فتضيع حقوق الدولة ، وتهمل مصالح الرعية .

« ما كل مرة تسلم الجرة » فقد صار الصولي إلى زمن ما استطاع أن يدفع عن نفسه بغير ما ملكت يده . كان في سنة ٢٣٣ على الأهواز ، وكان صديقه محمد بن عبد الملك الزيات وزيراً ، فوجه إليه من أقامه للناس ، فصالحه عن نفسه بألف ألف درهم وخمسمائة ألف درهم ، وأُحد الصولي بعد ما قُبض عليه إلى بغداد لأخذ ماله بها ، وأخذوا غلامه وكان قهرمانه ، في يده أمواله يتجر بها ، وأخذوا عدة من أهل بيته ، وأخذ معهم حمل بغل من الدنانير ، ووجدت له بيوت فيها أنواع التجارة ، وكان جميع ما قبض له ، مع ما وجد قيمة تسعين ألف دينار ، وأمر المتوكل بحبسه ، فقال إبراهيم يخاطب الوزير صديقه القديم :

وكنت أخي بأرخي الزما ن فلما نبا عُدْتَ حرباً عواناً
وكنت أذمّ إليك الزمـا ن فأصبحت فيك أذم الزمانا
وكنت أعـدك للنـائبا ت فها أنا أطلب منك الأمانا

وقال :

أصبحت من رأي أبي جعفر في هيئة تنذر بالصيْلم [2]
من غير ما ذنب ولكنهـا عداوة الزنـديق للمسلم

---

(١) والرطازات مخففة الخرافات .

(٢) الصيلم : الأمر الشديد والداهية .

وذكر من ترجم للصولي أن الذي تولى أمر كشفه تحامل عليه تحاملاً شديداً ، فكتب إبراهيم إلى الوزير محمد بن عبد الملك :

فلو إذ نبا دهــر وأنكر صاحب وسُلط أعداء وغاب نصير
تكون عن الأهواز داري بنجْوَة (١) ولكن مقادير جرت وأمور
وإني لأرجــو بعد هــذا محمداً لأفضل ما يُرجى أخ ووزير

والسبب في العداوة بين محمد بن عبد الملك الزيات وإبراهيم بن العباس الصولي ، أنه لما ولي ابن الزيات وزارة المعتصم نقص إبراهيم عما يستحقه من الدعاء ، فلم تحتمل ذلك نفسه ورياسته ، وموضعه من الصناعة والدولة ، فعاتبه في ذلك فلم يُعْتبه ، فألهب له نار هجاء لا يطفئها الدهر ، فزعم إبراهيم أن ابن الزيات ما ظنّ ان الرياسة تنجذب إليه ، ولا أن العز يتحصل له ، إلا بحط إخوانه عن منزلتهم ، ونقصهم عن مرتبتهم ، ثم نظم ذلك في شعر فقال :

من رأى في المنام مثل أخٍ لي كان عوني على الزمــان وخلي
رفعتــه حال فحاول حطي وأبي أن يُعَزَّ إلا بذلي

وكان هذا الخطاب في أول الأمر ، ثم أنحى عليه بالهجاء ، وكان محمد ابن عبد الملك ، على علمه وأدبه ، وكونه واحداً في صناعته ، مفرداً في براعته ، لا يخلو من لؤم أحياناً .

ولما وقف الخليفة على تحامل ابن الزيات رفع يده عن إبراهيم ، وأمره أن يقبل منه ما رفعه ، ويرده إلى الحضرة مصوناً ، ثم ولاه ديوان زمام النفقات ، وتولى أيضاً الضياع ، فبسط إبراهيم لسانه في ابن الزيات ، وهجاه هجاءً كثيراً منه :

---

(١) النجوة : ما ارتفع من الأرض .

قدرت فلم تَضْرُر عدوّاً بقدرة　　وسمتَ بها إخوانكَ الذلّ والرغما
وكنت مليّـاً بالتي قد يعافها　　من الناس من يأبى الدّنيّة والذّما

وقال فيه أيضاً :

أبا جعفر خَفْ خفضة بعد رفعة(١)　　وقَصّر قليلاً عن مدى غُلَوائكا
فإن كنتَ قد أُوتيت عزّاً ورفعة(٢)　　فإن رجائي في غدٍ كرجائكا

وقال فيه أيضاً :

دعوتك في بلوى ألَمّت صروفها　　فأوقدت من ضِغن علي سعيرَها
وإني إذا أدعوك عند ملمة　　كداعية بين القبور نصيرها

ومما قال فيه :

أخ كنت آوى منه عند ادكاره　　إلى ظل آباء من العز باذخ
سعت نُوب الأيام بيني وبينه　　فأقلعن منا عن ظلوم وصارخ
وإني وإعدادي لدهري محمداً　　كملتمس إطفاء نار بنافخ

وقال فيه :

فإن تكن الدنيا أنالتك ثروة　　فأصبحت ذايُسر وقد كنت ذا عُسر
فقد كشف الإثراء منك خلائقاً　　من اللؤم كانت تحت ثوب من الفقر

وتَغيّر الزمان ورأى ابن الزيات تغيراً من الواثق فخافه، وفرق مالاً عظيماً، وجوهراً نفيساً، في ثقاته ومعامليه من التجار، والصولي « يعاديه ويرصد له

---

(١) في رواية : « أبا جعفر خف نبوة بعد دولة » .
(٢) في الأغاني بدل هذه الشطرة « لئن كان هذا اليوم يوماً حويته » ؛ وفي رواية (فان يك هذا اليوم يوماً حويته) .

بالمكاره لإساءته إليه » ، فنظم أبياتاً وأشاعها حتى بلغت الواثق يُغريه به ؛ وفي السنة التي قبض فيها ابن الزيات على الصولي ، هلك ابن الزيات في حبس المتوكل .

ولما أمر المتوكل إبراهيم بن العباس الصولي أن يكتب فيما كان أمر به من تأخير الخراج حتى يقع في خمس من حزيران ويقع استفتاح الخراج به ، كتب في ذلك كتابه المعروف ، وأحسن فيه غاية الإحسان ، فدخل عبيد الله بن يحيى على المتوكل ، فعرفه حضور ابراهيم بن العباس واحضاره الكتاب معه ، فأمر بالإذن له ، فدخل وأمره بقراءة الكتاب فقرأه ، واستحسنه عبيد الله بن يحيى وكل من حضر ؛ قال البلاذري فدخلني حسد له فقلت : فيه خطأ ، قال فقال المتوكل : في هذا الكتاب الذي قرأه عليَّ إبراهيم خطأ ؟ قال : قلت نعم ، قال : يا عبيد الله وقفت على ذلك ؟ قال : لا والله يا أمير المؤمنين ، ما وقفت فيه على خطأ ، قال : فأقبل إبراهيم بن العباس على الكتاب يتدبره ، فلم ير فيه شيئاً ، فقال : يا أمير المؤمنين ، الخطأ لا يعرى منه الناس ، وتدبرت الكتاب خوفاً من أن أكون قد أغفلت شيئاً وقف عليه أحمد بن يحيى فلم أر ما أنكره ، فليعرفنا موضع الخطأ ، قال فقال المتوكل : قل لنا ما هو هذا الخطأ الذي وقفت عليه في هذا الكتاب ، قال : فقلت هو شيء لا يعرفه إلا علي بن يحيى المنجم ومحمد بن موسى وذلك أنه أرخ الشهر الرومي بالليالي ، وأيام الروم قبل لياليها ، فهي لا تؤرخ بالليالي ، وإنما يؤرخ بالليالي العرب ، لأن لياليها قبل أيامها بسبب الأهلّة ، فقال إبراهيم : يا أمير المؤمنين هذا ما لا علم لي به ولا أدعي فيه ما يدعي ، قال : فغيّر تاريخه .

وقد عرف من سيرة الصولي أنه كان يستمتع بمباهج الحياة ومناعمها ، ويتبسط في مجالسه مع عشرائه . ويصرف جانباً من وقته في اللهو ، ومداعبة الغواني والقيان . هوي جارية لبعض المغنين بسر من رأى يقال لها شاهر شُهر بها ، وكان منزله لا يخلو منها ؛ وله معها وقائع وتجنيات ، وقال

فيها أشعاراً كثيرة وكانت هي شاعرة ، وكانت تهواه أيضاً ، فعاتبها وعاتبته ، وغازلها وغازلته ، وما زالا كذلك حتى فرق الموت بينهما .

وكأن الصولي كان يرى من حقه أن يحب ، ومن حقه أن يطرب ويمجن ، وأن يسمع الغناء والموسيقى ، ويخلع أثواب الوقار في بعض ساعات يومه ، وما كان يرى في ذلك بأساً ، بل يعتقد أن هذه الملاهي مما يخفف من تعبه ، ويزيد في الإمتاع بأدبه . ولقد قال له بعضهم ذات يوم : قد أخملت نفسك ورضيت أن تكون تابعاً أبداً ، لاقتصارك على القصف واللعب ، فأنشأ يقول :

إنما المرء صورة حيث حلّت تناهتِ
أنا مذ كنت في التـ ـصرف [1] لي حال ساعتي

وهذا سرّ تخلفه في عمله الإداري ، يلقي الحبل على الغارب ، ويلتفت لإرضاء نفسه بما تصبو إليه من راحة ونعيم ؛ وربما كان ذلك من دواعي معاداته بعض رجال الدولة ، ومنهم من كان يريد أن يستوفي مال السلطان منه ، فيما يُولاه من الأعمال الجليلة ، ومنهم من يحاول أن يشاطره مغانمه ، ويريده أن ينزل على إرادته ، أو يصادره ويسعى به إلى السلطان .

استلزمت حياة الصولي الخاصّة تعرّف طرق الأخذ من المال ، وإنفاقه فيمن كان يحيط به من الناس ، وهو في كرمه على أخلاق عالية ، ولعله كان من المتعذر في ذاك العصر أن يعتصم العامل بعصمته من كل وجه ، ويعف عن كل منكر ؛ ولو فعل ذلك لقضت الحال أن ينعزل في رأس جبل أو يأوي إلى بعض الرباطات يجاهد في سبيل الله قانعاً مخبتاً . والمجتمع لا يعيش بهذا المقتّر ، ولا بذاك المسرف .

---

(١) التصرف : الاستخدام .

أدبه وكتابته :

كأن ملكة النثر والنظم كانت كالشيء الواحد في نظر الصولي ، إن شاء نثر ، وإن شاء شَعر ، والإجادة مكتوبة له في كلتا الوجهتين ، وما كان شعره لولا أوزانه وقوافيه إلا نثراً ، وبعمل قليل يحال نثره شعراً وشعره نثراً . كان إبراهيم بن العباس إن قال الشعر كأنه يخطب أو يكتب ، وإذا كتب الكتاب وخطب الخطاب كان كأنه يشعر ، فأكذب من قالوا إنه لا إجادة لشاعر في الكتابة ، ولا لكاتب في الشعر . فهو إمام في الصناعتين ، فرد في الكتابة ، وبحق دعي كاتب العراق ، وعدّ في زمرة أعاظم الشعراء ؛ وهذا من أندر ما وقع لمن عانوا صناعة القلم منذ القديم وإلى اليوم .

يقول المسعودي إنه لا يعلم فيمن تقدم وتأخر من الكتاب أشعر منه ، وكان دِعْبِل يقول : لو تكسب إبراهيم بالشعر لتركَنا في غير شيء ، وتعجب من قوله :

إنّ امرأ ضنّ بمعروفه　　　عني لمبذول له عذري
ما أنا بالراغب في خيره　　　إن كان لا يرغب في شكري

قال ابن رشيق : والكتاب أرق الناس في الشعر طبعاً ، وأملحهم تصنيعاً ، وأحلاهم ألفاظاً ، وألطفهم معاني ، وأقدرهم على تصرف ، وأبعدهم من تكلف ؛ وقد قيل الكتاب دهاقين الكلام ، وما نزيدك على قول إبراهيم بن العباس الصولي بين يدي المتوكل حين أحضر لمناظرته أحمد ابن المدبر . فقال ارتجالاً :

صدّ عني وصدّق الأقوالا　　　وأطاع الوشاة والعذالا
أتراه يكون شهر صدود　　　وعلى وجهه رأيت الهلالا

وكان أحمد بن ثعلب يقول إبراهيم بن العباس أشعر المحدثين ، وما روى شعر كاتب غيره ، وكان يستجيد قوله :

لنا إبل كُوم (١) يضيق بها الفضا ويغــبرّ منها أرضها وسماؤها
فمن دونها أن تستباح دمــاؤنا ومن دوننا أن تستباح دماؤها
حمىً وقِرًى، فالموت دون مرامها وأيسر خطب يوم حق فناؤها

ويقول والله لو أن هذا لبعض الأوائل لاستجيد له .

وسُمع إبراهيم بن العباس يقول لأبي تمام الطائي ، وقد أنشده شعراً له في المعتصم : يا أبا تمام أُمراء الكلام رعية لإحسانك ، فقال له أبو تمام : لأني أستضيء بك ، وأرِدُ شِرعتك .

ولما قرأ إبراهيم على المتوكل رسالته إلى أهل حمص : « أما بعد فإن أمير المؤمنين يرى من حمد الله عليه بما قوَّم به من أوَد ، وعدّل به من زَيْغ ، ولمَّ به من منتشر ، استعمال ثلاث ، يقدم بعضهن أمام بعض ، أُولاهن ما يتقدم به من تنبيه وتوقيف ، ثم ما يستظهر به من تحذير وتخويف ، ثم التي لا يقع بحسم الداء غيرها .

أناة ، فإن لم تغنِ عقّب بعدها وعيداً، فإن لم تغن، أغنت عزائمه

عجب المتوكل من حسن ذلك ، وأومأ إلى عبيد الله ، أما تسمع ؟ فقال : يا أمير المؤمنين إن إبراهيم فضيلة خبأها الله لك ، واحتبسها على أيامك ؛ وهذا أول شعر نفذ في كتاب عن خلفاء بني العباس .

وكتب عن أمير المؤمنين إلى بعض البغاة الخارجين يتهددهم ويتوعدهم ، وما زاد أن وضع خمس كلمات في أول البيت السابق ، فأصبح كتاباً منثوراً قال :

« أما بعد فإن لأمير المؤمنين أناة ، فإن لم تغن عقب بعدها وعيداً ، فإن لم تُغن أغنت عزائمه والسلام . »

---

(١) الكوم : بضم الكاف قطعة من الإبل .

واشتهر إبراهيم بإيجازه في رسائله ؛ ومن ذلك رسالة له أنشأها في بعض العصاة الذين نصبت جثثهم للاعتبار . « قسم الله عدوه أقساماً ثلاثة : روحاً معجلة إلى دار عذاب الله ، وجثة منصوبة لأبصار أولياء الله ، ورأساً منقولاً إلى مقر خلافة الله . »

حدث أبو بكر الصولي عن العباس بن محمد قال : أنشدني إبراهيم بن العباس في مجلسه في ديوان الضياع :

ربما تجزع النفوس من الأمــر له فرجة كحلّ العقال

ونكت بقلمه ثم قال :

ولرب نازلة يضــيق بها الفتى ذَرعاً وعنــد الله منها المخرج
ضاقت فلما استحكمت حلقاتها فرجت وكان يظنها لا تفرج

قال : فعجبنا من سرعة طبعه ، وجودة قريحته ؛ وشاعت الأبيات الثلاثة في المتأخرين حتى أصبحت مما لا يكاد يغفل عن التمثل بها أحد ؛ وكذلك كثير من أبياته ، وقلّ في الناس من يعرف ناظمها .

ومما ذكروا من بدائع بدائهه : أنه خرج ودعبل الخزاعي وأخوه رزين في نظراء من أهل الأدب رجالةً إلى بعض البساتين في خلافة المأمون ، وذلك في زمن خمول إبراهيم ، فلقوا جماعة من أهل السواد من حُمّال الشوك ، فأعطوهم شيئاً وركبوهم حميرهم ، فأنشأ إبراهيم يقول :

أُعيضت عن حمول الشو ك أحمالاً من الحَرْف
نشاوى لا من الصهبا ء بل من شدة الضعف

فقال رزين :

فلو كنتم على ذاك تميلــون إلى قصــف
تساوت حالكم فيــه ولم تبقوا على خسف

فقال دعبل :

وإذ فات الذي فات فكونوا من أولى الظرف
ومرّوا نقصف اليوم فإني بائع خفي

ثم باع خفه وأنفق ثمنه عليهم .

ومما أنشد الصوليّ ثعلباً لنفسه :

كم قد تجرعت من حزن ومن غُصص إذا تجدّد حزن هوّن الماضي
وكم غضبت فما بَالَيْتُمُ غضبي حتى رجعت بقلب ساخط راضي

قال أبو بكر الصولي كأنه أخذه عندي من قول خاله العباس بن الأحنف :

تعلمت الوان الرضا خوف عتبها وعلّمها حبي لها كيف تغضب
ولي غير وجه قد عرفت مكانه ولكن بلا قلب إلى أين أذهب

ومما يتمثل به من شعره قوله :

وربّ أخ ناديته لملمة فألفيته منها أجلّ وأعظما

ومما أُثر له :

لا تمدحن ابن سهل إن وجدت له فعلاً جميلاً ولا تعذل إذا أزِما (١)
فليس يمنع إبقاء على نَشَب وليس يعطي الذي يعطيه معتزما
لكنها خطرات من وساوسه يعطي ويمنع لا بخلا ولا كرما

ربما كان لإبراهيم دوران اخصب فيهما شعره ونثره ، دور افتتانه بتلك القينة الشاعرة في سامرّا ، ودور اضطهاد محمد بن عبد الملك الزيات

---

(١) أزم العام : أشتد قحطه .

له ، وهياج النفس بالحب ، وهياج النفس بالشدة ، مدعاة إلى تفتح القريحة عند بعض الناس ؛ فمن كتبه يستعطف ابن الزيات : « كتبت إليك وقد بلغت المدية المحزّ ، وَعَدَتْ الأيام عليّ ، بعد عدوي بك عليها ، وكان أسوأ ظني وأكثر خوفي أن تسكن في وقت حركتها ، وتكفّ عند أذاتها ، فصرت عليّ أضَرَّ منها ، وكف الصديق عن نُصرتي خوفاً منك ، وبادر إليّ العدو تقرباً إليك » وكتب تحت ذلك :

أخ بيني وبين الدهـ ـر صاحب أيّنـا غلبا
صديق ما استقام فإن نَبَا دهر عليّ نبا
وثبت على الزمان به فعاد به وقد وثبـا
ولو عاد الزمان لنا لعـاد به أخـاً حَدِبا

وكتب إليه : « أما والله لو أمنت ودك لقلت ، ولكني أخاف منك عتباً لا تنصفني فيه ، وأخشى من نفسي لائمة لا تحتملها لي ، وما قدّر فهو كائن ، وعن كل حادثة أُحدوثة ، وما استبدلت بحالة كنت فيها مغتبطاً ، حالة أنا في مكروهها وألمها أشد عليّ من أني فزعت إلى ناصري عند ظلم لحقني ، فوجدت من ظلمني أخفّ في ظلمي منه ، وأحمد الله كثيراً » .

ولما انحرف الوزير عن الصولي تحاماه الناس أن يلقوه ، وكان الحارث المغنّي صديقاً له مصافياً ، وهجره في من هجره من الإخوان ، فكتب إليه :

تغيّر لي فيمن تغير حارث وكم من أخ قد غيرته الحوادث
أحارث ان شوركت فيك فطالما غنينا وما بيني وبينك ثالث

دخل أحمد بن المدبّر على إبراهيم بعد خلاصه من النكبة مهنئاً ، وكان استعان به في أمر النكبة فقعد عنه ، وهو الذي كان جاهره العداوة في حضرة المتوكل ، وأغضى الخليفة عما نسب إلى الصولي ، وكان بلغه أن ابن المدبر حرّض عليه ابن الزيات ، فقال الصولي :

وكنت أخي بالدهر حتى إذا نبا نبوتَ فلما عاد عدت مع الدهر
فلا يوم إقبالي عددتك طائلاً ولا يوم إدباري عددتك من وتر
وما كنت إلا مثل أحلام نائم كلا حالتيك من وفاء ومن غدر

وله فيه أيضاً :

لو قيل لي خذ أماناً من أعظم الحدثان
لمــا أخذت أماناً إلا من الخــلان

وقال :

بلوت الزمان وأهل الزمان وكل بلوم وذمّ حقيق
فأوحشني من صديقي الزمان وآنسني بالعدو الصــديق

وقوله :

يا أخاً لم أر في الدهر خِلاّ قبــله أسرع هجراً ووصلا
كنت لي في صدر يومي صديقاً فعلى عهدك أمسيتَ أم لا

* * *

حكى الجهشياري قال : رأيت دفتراً بخط إبراهيم بن العباس الصولي فيه شعر قاله في حبس موسى بن عبد الملك ، أخي محمد بن عبد الملك الوزير ، يصف غليظ ما فيه من الحبس ، وثقل الحديد والقيد ، ويذكر موسى في شعره ، وكان يكنى بأبي الحسن ، فكناه بأبي عمران . فقال في قصيدة طويلة :

كم تُرى يبقى على ذا بدني قد بَلي من طول همي وفني
أنا في أسر وأسباب رَدىً وحــديد فادح يَكْلَمُني
وأبو عمران موسى حنق حاقدٌ يطلبني بالإحَــنِ
ليس يشفيه سوى سفك دمي أو يراني مدرجــاً في كفن

وقد كتب أحمد بن المدبر بخطه في ظهر هذا الدفتر :

أبا إسحاق إن تكن الليـــالي عطفن عليك بالخطب الجسيم
فلم ار صَرف هذا الدهر يجري بمكروه على غير الكريم

وله أبيات في الغزل والنسيب فيها إبداع جميل ، ومنها :

وعلمتني كيف الهوى وجهلته وعلمكم صبري على ظلمكم ظلمي
وأعلم مالي عندكم فيردّني هواي إلى جهلي فأرجع عن علمي

وقال وأورده أبو تمام في الحماسة :

ونُبئت ليلى أرسلت بشفاعة إليّ فهلا نفس ليلى شفيعها
أأكرم من ليلى عليّ فتبتغي به الجاه أم كنت امرأ لا أطيعها

وقال :

تدانت بقوم عن تناء زيارة وشط بليلى عن دنوّ مزارها
وإن مقيمات بمنعرج اللّوى [1] لأقرب من ليلى وهاتيك دارها

وقال :

وليلى كمثل النار ينفع ضوءها بعيداً نأى عنها ويحرق جارها

ومما قال في حسن الحديث :

إن الزمان وما ترين بمفرقي صرَفَ الغواية فانصرفت كريما
وضجرت إلا من لقاء محدّث حسن الحديث يزيدني تعليما

ومن قوله :

لا تلمني فإن همك أن تث رى وهمي مكارم الأخلاق
كيف يسطيع حفظ ما جمعت كف اه من ذاق لذة الإنفاق

---

(١) اللوى كإلى : مالتوى من الرمل .

ومن إشاراته :

لا يمنعنك خفض العيش في دعة نزوع نفس إلى أهل وأوطان
تلقى بكل بــلاد إن حللت بها أهلاً بأهل وجيراناً بجيران

وقال :

لا نُهنّيك بطوس بل نهني بك طوسا
أصبحت بعد طلاق بك بالفضل عروسا (١)

وقال في أبي الوليد أحمد بن أبي الورد :

عَفَّت مساوٍ تبدت منك فاضحةً على محاسن أبقاها أبوك لكا
لئن تقدمت أبناء الكرام بها لقــد تقدم آباء اللئام بكا

وقال :

وأنت هوى النفس من بينهم وأنت الحبيب وأنت المطاع
فما بك أن بَعُدوا وحدةٌ ولا معهم إن بعدتَ اجتماع

ومما نسب إليه :

كن كيف شئت وقل ما تشا ء وأبرق يميناً وأرعد شمالا
نجا بك لؤمك منجى الذبا ب حمته مقاذره أن يُنــالا

ومن تغزله :

أراك فلا أردّ الطرف كيلا يكون حجابُ رؤيتك الجنونُ
ولو أني نظرتُ بكل عين لما استقصت محاسنك العيونُ

ومن شعره وهو مما صار في حكم الأمثال شيوعاً ، وقيل هو لأبي تمام الطائي وهو الأرجح :

---

(١) هذه رواية الثعالبي في المنتحل ، وروايته في كتابه نثر النظم وحل العقد هكــذا :
فلقــد أصبحت اليو م بك الطـوس عروسا

أوْلَى البرية طراً أن تؤاسيه عند السرور الذي آساك في الحزَن
إن الكرام إذا ما أسهلوا ذكروا من كان يألفهم في الموطن الخشن

وأنشد الأخفش من شعر الصولي الأبيات الثلاثة التالية ، وكان يفضلها ويستجيدها :

أميل مع الصديق على ابن[١] أمي وأقضي[٢] للصديق على الشقيق
وإما تلقـني حرّاً مطاعـاً فإنك واجدي عبد الصديق
أُفرّق بين معروفي ومَنّي وأجمع بين مالي والحقوق

قال المسعودي : ومما استحسن من شعره الذي لم يسبقه عند جماعة أهل الأدب أحد من زمانه قوله :

لنا إبل كُوم يضيق بها الفضا الخ

وهي الأبيات الثلاثة التي تقدمت ، وكان ثعلب يستحسنها .

ويقول أبو هلال العسكري في ديوان المعاني ، ومن المديح البارع قول إبراهيم بن العباس :

أسدٌ ضارٍ إذا هيجته وأبٌ برّ إذا ما قدرا
يعلم الأبعد[٣] إن أثرى ولا يعلمُ الأدنى إذا ما افتقرا

قال وقد أحسن إبراهيم في قوله :

إمّا تريني أمام القوم متبعاً فقد أرى من وراء الخيل أتبع
يوماً أُنيخ فلا أبقى على نَشَب وأستبيح فلا أبقى ولا أدع
لا تسألي القوم عن حيّ صحبتهم ماذا صنعت وماذا أهله صنعوا

---

(١) في رواية ابن عمي .
(٢) رواية وآخذ .
(٣) في رواية يعرف بدل يعرف في الموضعين .

ونقل له قوله :

فكن كيف شئتَ وقل ما تشا وأبرق يميناً وأرعد شمالا

إلى آخر ما ورد آنفاً .

قال وهذه الأبيات وإن كانت مشهورة ، فإن لإيرادها ههنا معنى كبيراً ، وذلك أني لست أجد خيراً منها في معناها وأجود .

وقال المرزباني أيضاً : وأنشدني أبو أحمد أنشدني أبو مسلم بن بحر لإبراهيم بن العباس ، وهي أبيات مشهورة أوردتها لأني لست أجد مثلها في معناها .

ولما رأيتك لا فاسقاً تهابُ ولا أنت بالزاهد
وليس عدوّك بالمتقي وليس صديقك بالحامد
أتيت بك السوق سوق الرقيق فناديت هل فيك من زائد
على رجل غادر بالصديـ ـق كفور لنعمائه جاحد
فما جاءني رجل واحدٌ يزيد على درهم واحـد
سوى رجل حار منه الشقا وحلّت به دعوة الوالد
فبعتك منه بلا شاهد مخافة أدرك بالشاهد
وأبت إلى منزلي سالماً وحلّ البلاء على الناقد

قال وقد أحسن التصرف فيها فما قاربه في معانيها أحد . قال : ومن ظريف الشكاية قول إبراهيم :

فدعني راغماً أشقى بوجدي وخُذ قلبي إليك بغير حمدِ
سقام لا يرق عليَّ منه ووجه لا يكافئه بود
وقد أصفيته ودي بجهدي فعارض في الجفاء بمثل جهدي

ومما يجب على الرؤساء أن يحفظوه قوله :

تزيده الأيام إن أقبلت حزماً وعلماً بتصاريفها
كأنها في وقت إسعافها تُسمعه صوت تخاريفها

ومما أحسن فيه وبرَّز على نظرائه قوله :

سقياً ورعياً لأيام لنا سلفت بكيت منها فصرت اليوم أبكيها
كذاك أيامنا لا شك نندبها إذا تقضّت ونحن اليوم نشكيها

وقال :

قلت لها حين أكثرت عليَّ ويحك أزرت بنا المروءات
قالت فأين الكرام قلت لها لا تسألي عنهم فقد ماتوا

وقال :

خلّ النفاق لأهله وعليك فالتمس الطريقا
وارغب بنفسك أن تُرى إلا عدواً أو صديقا

وقال :

وعابكِ أقوام فقالوا شبيهة ببدر الدّجى حاشاك أن تشبهي البدرا
لئن شبهوك البدر ليلة تمه لقد قارنوا الشنعاء واقترفوا الوزرا
أيشبه بدرٌ آفلٌ نصفَ شهره ضياء منيراً يطلع الشهر والدهرا

ومن قوله في الفضل بن سهل وهو كسائر شعره كأنه نثر :

لفضل بن سهل يدٌ تقاصر عنها المثل
فبسطتها للغنى وسطوتها للأجل
وباطنها للندى وظاهرها للقُبَل

وقوله :

تمر الصّبا صفحاً بساكن ذي الغضا ويصدع قلبي أن يهب هبوبها
قريبة عهد بالحبيب وإنما هوى كل نفس حيث حلَّ حبيبها

وزالت زوال الشمس عن مستقرها   فمن مخبري في أي أرض مغيبها
تطلّع من نفسي إليها [١] نوازع   عوارف إن اليأس منك نصيبها

ومما ينسبه اليه :

يُمن عليكم بأموالكم   وتُعطون من مائة واحدا

ونقل المرزباني :

ومؤمل للنائبات إذا   هب الزمان بأزره هبا
لما رآني نهب حادثة   جعل الذخائر دونها نهبا

ونقل له ياقوت قوله :

ولكن الجواد أبا هشـام   وفيّ العهد مأمون المغيب
بطيءٌ عند [٢] ما استغنيت عنه   وطلاّع عليك مع الخطوب

فقال : إن هذا من نادر الشعر وجيده . وقال أيضاً : ومن أحسن ما قيل في قصر الليل قول إبراهيم بن العباس :

وليلة من الليالي الزُّهر   قابلت فيها بدرها ببدر
لم تك غير شَفَق وفجر   حتى تولّت وهي بكرُ الدهر

ومن شعره والناس يرونه لغيره :

ليلة كاد يلتقي طرفاهـا   قصراً وهي ليلة الميـلاد

وهكذا تكاد لا ترى للصولي إلا البيتين والثلاثة ، ومنها ما يغني عن قصيدة أو قصائد . ذكروا ان عبد الله بن العباس وهب لأخيه إبراهيم بن العباس ثلث ماله ، ووهب لأخته الثلث الآخر ، فصار مساوياً لهما في

---

(١) في رواية طوالع .
(٢) في رواية بطيء العهد ما استغنيت عنه .

المال . فقال إبراهيم :

ولكن عبد الله لما حوى الغنى   وصار له من بين إخوته مال
رأى خـَلة منهم تـُسدّ بماله   فساهمهم حتى استوت بهم الحال

وكان لإبراهيم ابن قد يفع وترعرع ، وكان مُعْجَبَاً به ، فاعتلّ علة لم تطل حتى مات ، فرثاه مراثي كثيرة ، وجزع عليه جزعاً شديداً ، فمن مراثيه :

أنت السواد لمقـلة   تبكي عليـك وناظرُ
من شاء بعدك فليمت   فعليك كنت أُحـاذر

قال الحسين بن علي الباقطائي : شاور أبا الصقر قبل وزارته في أمر لي ، فعرفني الصواب . فقلت له : أنت أيدك الله كما قال إبراهيم بن العباس في هذا المعنى :

أتيتك شتى الرأي لابس حيرة   فسددتني حتى رأيت العواقبا
على حين ألقى الرأي دُوني حجابه   فجبت الخطوب واعتسفت المذاهبا

فقال : لا تبرح والله حتى أكتب البيتين ، فكتبتهما له بين يديه بخطي .

نثره وطريقته :

خلطنا نثر الصولي بشعره ، وكان الغرض أن نقتصر على نثره دون شعره ، والإنشاء مرمانا في هذه الورقات ، ولكن هكذا جاء ؛ وفي شعره كما في نثره ما يتعلم منه ويحتذى ، وشعره لمن يحاول أن يترجم له أصدق وثيقة تترجم عنه ، ثم إن الباقي من شعره كثير ، لا يوازيه المأثور من نثره . وللصولي فيما ذكره ابن النديم كتاب ديوان رسائله ، وكتاب ديوان شعره ، وكتاب الدولة كبير ، وكتاب الطبيخ ، وكتاب العطر ، وكلها في المفقودات .

يقول المسعودي إن الصولي كان يتكسب في حداثته بشعره ، ورحل إلى

الملوك والأمراء ومدحهم طلباً لجدواهم . وقال إن له مكاتبات قد دونت ، وفصولاً حساناً من كلامه قد جمعت . ومما استحسن من فصوله ، وكلها في نهاية الجودة : « وقديماً (١) غذت المعصية أبناءها فحلبت عليهم من درّها مرضعة ، وبسطت لهم من أمانيها مطمعة ، وركبت فيهم مخاطرها موضِعة ، حتى إذا رتعوا فأمنوا ، وركبوا فاطمأنوا ، وانقضى رضاع وآن فطام ، سقتهم سماً ففجّرت مجاري ألبانها دماً ، وأعقبتهم من حلو غذائها مُرّاً ، وحطت بهم من معقل إلى عقال ، ومن حسرة إلى حسرة ، قتلاً وأسراً ، وإباحة وقسراً ، وقلَّ من أوضع في الفتنة مرهجاً (٢) في لهبها ، واقتحم لهبها مؤججاً ، إلا استقحمته آخذة بمخنقه ، وموهنة بالحق كيده ، حتى تجعله لعاجله جرزاً (٣) ، ولآجله حطباً ، وللحق موعظة ، وللباطل حجة ، ذلك لهم جزاء في الدنيا ولعذاب الآخرة أكبر ، وما ربك بظلام للعبيد » .

كان الكاتب عبد الله بن عمرو من بني « عبدكان » المصريين يستصغر كتاب سُرَّ من رأى لما وردها ولا يرضى أحدهم . فلما أدخلوه على إبراهيم ابن العباس ، وهو يملي رسالة في قتل إسحاق بن إسماعيل ، سمع ما أعجبه فقال : هذا من لم تلد النساء مثله ، فإني سمعته يملي شيئاً كأنه فيه نذير مبين .

ومن كلامه : ووجد أعداء الله زخرف باطلهم ، وتمويه كذبهم ، سراباً بقيعة يحسبه الظمآن ماء حتى إذا جاءه لم يجده شيئاً ، وكوميض برق عرض فأسرع ، ولمع فأطمع ، حتى انحسرت مشرقة مغاربه ، وتشبعت

---

(١) في رواية عريب في صلة تاريخ الطبري أن أول هذه الرسالة هكذا : وقسم الله عدوه ثلاثة : روحاً معجلة إلى عذاب الله ، وجثة منصوبة لأولياء الله ، ورأساً منقولا إلى دار خلافة الله ، استنزلوه من معقل إلى عقال ، وبدلوه آجالا من آمال وقديماً الخ .

(٢) أرهج الغبار أثاره .

(٣) أرض جرز وجرز وأجرز وجوز ومجروزة لا تنبت أو أكل نباتها أو لم يصبها مطر .

مولّيَة مذاهبه ، وأيقن راجيه وطالبه ، ألاّ ملاذ ولا وَزَر ، ولا مورد ولا مصدر ، ولا من الحرب محصر ، وهناك ظهرت عواقب الحق منجية ، وخواتم الباطل مردية ، سنة الله فيما أزاله وأداله ، ولن تجد لسنة الله تبديلاً ، ولا لقضائه تحويلاً .

وله في غرض التعزية رسالة منه إلى الخليفة الواثق بالله يعزيه بالمعتصم :
إن أحق الناس بالشكر من جاء به عن الله ، وأولاهم بالصبر من كان سلفه رسول الله ، وأمير المؤمنين أعزه الله ، وآباؤه نضرهم الله ، أُولو الكتاب الناطق عن الله بالشكر ، وعترة رسوله المخصوصون بالصبر ، وفي كتاب الله أعظم الشفاء ، وفي رسوله أحسن العزاء ، وقد كان من وفاة أمير المؤمنين المعتصم بالله ، ومن مشيئة الله في ولاية أمير المؤمنين الواثق بالله ، ما عفى أوله على آخره ، وتلافت بدأته عاقبته ، فحق الله في الأولى الصبر ، وفرض في الأخرى الشكر ، فإن رأى أمير المؤمنين أن يستجيز ثواب الله بصبره ، ويستدعي زيادته بشكره ، فعل إن شاء الله وحده .

وله تعزية على لسان الخليفة إلى طاهر بن عبد الله مولى أمير المؤمنين . وقد يجيد الكاتب إذا كتب لنفسه ولا يجيد إذا كتب بلسان غيره . إلا أن إبراهيم في ذلك سواء وغاية قال :

« أما بعد ، تولّى الله توفيقك وحياطتك ، وما يرتضيه منك ويرضاه عنك ، إن أفضل النعم نعمة تُلقيت بحق الله فيهـــا من الشكر ، وأوفر حادثة أدي حق الله فيها من الرضاء والتسليم والصبر ، ومثلك من قدم ما يجب لله في نعمة فشكرها ، وفي مصيبة فأطاعه فيها ، وقد قضى الله سبحانه وتعالى في محمد بن اسحق مولى أمـــير المؤمنين ، عفا الله عنه قضاءه السابق والمتوقع ، وفي ثواب الله ورضا أمير المؤمنين أدام الله عزه ، وتقديم ما يقدّم مثله أهل الحجا والفهم ، ما اعتاضه معتاض ، وقدمه موفق ، فليكن الله عز وجلّ وما أطعته به ، وقدمت حقه فيه أولى بك في الأمور كلها ، فإنك إن تتقرب إليه في المكروه بطاعته يحسن ولايتك في

توفيقك لشكر نعمه عليك » .

ومن توقيعاته توقيع كتبه في كتاب عامل له يعتدّ بحسن أثر ، ويمت بمقام محمود : يا هذا لست أشك أن لك أثراً في التوفير كان من تقدمك مقصراً عنه ، وأنك معنيّ محتاط . غير أنك عفيتَ على ما أحمدتُ منك بما يتناهى إليّ عنك على ألسن المتظلمين وأصحاب الأخبار . وذكر لي فلان ما جرى بينك وبين أخيه ما كثّر وصفه له ، وقام منه وقعد ، وتالله لأكونن الباحث عليك والمطالب لك دونه ، لإقدامك على شيخ ابن ستين سنة بما أقدمت به عليه ، وأُفّ لدنيا اضطرت إليكم فكنتم خيار من يعمل فيها ، وأبرأُ إلى الله من أعمالكمً التي رجعتم بها إلى أنفسكم ونياتكم .

ومن تحميداته في فتح :

فالحمد لله المزيل لما يمهد المبطلون ، ويمكر به الماكرون ، ويكيد به الملحدون ، تمكيناً لعبده وخليفته ، وذباً [1] عن دينه وحقه ، وإظهاراً لأوليائه وحزبه ، وإمضاء لعزائمه [2] وقدرته ، منعماً قادراً ، ومملياً ممهلاً ، عدلاً إذا استدرج ، متفضلاً إذا أنعم ، حمداً به يُستَنْزَل نصره ، ويُبلغ به رضوانه ، ويُمْتَري [3] بمثله فواضل مزيده .

ومن آخر .

والحمد لله بجميع محامده التي حُمد بها ، على جميع آلائه ، وجميل بلائه ، فيما وَلّى به خليفته ، ونصر به دينه ، وأقام به حقه ، وأقرّ به وليّه ، وقمع به من ألحد [4] عن سبيله ، حمداً يؤدي حق نعمته ، ويوجب به أفضل مزيده ، بمنه وطوله .

---

(١) ذب عنه : دفع ومنع .
(٢) عزائم الله : فرائضه .
(٣) مرى الشيء : استخرجه كامتراه .
(٤) ألحد : مال وعدل .

وله في فتح إسحق بن إسماعيل :

الحمد لله معز الحق ومديله ، وقامع الباطل ومزيله ، الطالب فلا يفوته من طلب ، والغالب فلا يعجزه من غلب ، مؤيد خليفته وعبده ، وناصر أوليائه وحزبه ، الذين أقام بهم دعوته ، وأعلى بهم كلمته ، وأظهر بهم دينه وأدال بهم حقه، وجاهد بهم أعداءه، وأنار بهم سبيله ، حمداً يتقبله ويرضاه ، ويوجب أفضل عواقب نصره ، وسوابغ نعمائه .

وله تحميد آخر :

أما بعد ، فالحمد لله الأول بلا أبد يحصى ، والآخر بلا أمد يفنى ، الظاهر لخلقه بعزته ، العزيز في سلطانه بعظمته ، الفرد بواحدانيته بقدرته ، المدبر في ملكه بجبروته ، الذي نأى عن الأشياء أن يكون فيها محوياً ، واتصل بها فلم يلك من علمها خلياً ، وهو فيها غير مستكنّ ، ومعها غير مماسّ ، في لجج البحار ، ومفاوز القفار ، وشوامخ الجبال ، وكثبان الرمل ، مع كل خلق ، في كل أُفق ، وعلى كل شرف ومكان ، وفي كل وقت وأوان ، موجود إذا طلب ، وقريب حيث نُدب ، عالم خفيات الغيوب ، وخطرات القلوب ، وما في السموات وما في الأرض ، ما يكون من نجوى ثلاثة إلا هو رابعهم ، ولا خمسةٍ إلا هو سادسهم ، ولا أدنى من ذلك ولا أكثر إلا هو معهم ، وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ، ولا حبةٍ في ظُلمات الأرض ولا رطبٍ ولا يابس إلا في كتاب مبين .

ومن توقيعاته ما وقّع به لرجل مَتَّ إليه بحرمة :

« تقدمت بحرمة مألوفة ، ووسيلة معروفة ، أقوم بواجبها ، وأرعاها من جميع جوانبها » . وورد إليه كتاب بعض الكتاب بذم رجل ومدح آخر فوقّع في كتابه : « إذا كان للمحسن من الجزاء ما يقنعه ، وللمسيء من النكال ما يقمعه ، بذل المحسن الواجب على رغبة ، وانقاد المسيء للحق رهبة »، فوثب الناس يقبلون يده . وكتب شفاعة لرجل إلى بعض إخوانه :

فلان مما يزكو شكره ، ويحسن ذكره ، ويعنيني أمره ، والصنيعة عنده واقعة موقعها ، وسالكة طريقها :

وأفضل ما يأتيه ذو الدين والحجا إصابة شكر لم يضع معه أجر

وقال : الكريم أوسع ما تكون مغفرته ، إذا ضاقت بالمذنب معذرته

ومن منثور كلامه : أتاني فلان في وقت استثقل فيه لحظة الفرح .

وقال : كأن ابن أخي خـُلق من ثلاثة أشياء : من الثلج والمصل والعذرة ، بارد حامض منتن . وكان يقول مثل أصحاب السلطان مثل قوم علوا جبلا ثم وقعوا منه ، أقربهم إلى التلف أبعدهم من الارتقاء .

وقيل له إن فلاناً يحب أن يكون لك ولياً فقال : أنا والله أُحب أن يكون الناس جميعاً إخواني ، ولكني لا آخذ منهم إلا من أُطيق قضاء حقه ، وإلا استحالوا أعداء ؛ وما مثلهم إلا كمثل النار قليلها مُقْنِع ، وكثيرها محرق . وكان يقول : مثل الأصدقاء كالنار ، قليلها متاع ، وكثيرها بوار . وقال : لو وزنت كلمات النبي عليه السلام : « إنكم لن تسَعُوا الناس بأموالكم ، فسعوهم بأخلاقكم » بكلام أهل الأرض لرجحت .

كتب الصولي على لسان المتوكل إلى عماله في الآفاق كتابه بأخذ أهل الذمة كلهم بلبس الطيالسة العسلية والزنانير . قال : بسم الله الرحمن الرحيم . أما بعد : فإن الله تبارك وتعالى بعزته التي لا تحاوَلُ ، وقدرته على ما يريد ، اصطفى الإسلام فرَضِيَه لنفسه ، وأكرم به ملائكته ، وبعث به رسله ، وأيد به أولياءه ، وكنفه بالبر ، وحاطه بالنصر ، وحرسه من العاهة ، وأظهره على الأديان ، مبرّأً من الشبهات ، معصوماً من الآفات ، محْبُوّاً بمناقب الخير ، ومن الأحكام بأعدلها وأقنعها ، ومن الأعمال بأحسنها وأقصدها ، وأكرم أهله بما أحلّ لهم من حلاله ، وحرّم عليهم من حرامه ، وبين لهم من شرائعه وأحكامه ، وحدّ لهم من حدوده ومناهجه ، وأعدّ لهم من سعة جزائه وثوابه . فقال في كتابه فيما أمر به ونهى عنه ، وفيما حضّ

عليه فيه ووعظ ، إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى ، وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي ، يعظكم لعلكم تذكّرون . وقال فيما حرم على أهله مما عمط [١] فيه من رديء المطعم والمشرب والمنكح لينزههم عنه ، وليطهر به دينهم ، ليفضلهم عليهم تفضيلا : حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أُهلّ لغير الله به والمنخنقة ، إلى آخر الآية . ثم ختم ما حرم عليهم من ذلك في هذه الآية بحراسة دينه ممن عنَدَ عنه ، وبإتمام نعمته على أهله الذين اصطفاهم ، فقال عز وجل : اليوم يئس الذين كفروا من دينكم فلا تَخْشَوْهُم واخشوني ، اليوم أكملت لكم دينكم الآية . وقال عز وجل : حرمت عليكم امهاتكم وبناتكم الآية . وقال : إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان الآية ، فحرم على المسلمين من مآكل أهل الأديان أرجسها وأنجسها ، ومن شرابهم أدعاه إلى العداوة والبغضاء ، وأصدّه عن ذكر الله وعن الصلاة ، ومن مناكحهم أعظمها عنده وزراً ، وأولاها عند ذوي الحجا والألباب تحريما ، ثم حباهم محاسن الأخلاق وفضائل الكرامات ، فجعلهم أهل الإيمان والأمانة ، والفضل والتراحم ، واليقين والصدق ، ولم يجعل في دينهم التقاطع والتدابر ، ولا الحمية ولا التكبر ، ولا الخيانة ولا الغدر ، ولا التباغي ولا التظالم ، بل أمر بالأولى ونهى عن الأخرى ، ووعد وأوعد عليها جنته وناره ، وثوابه وعقابه . فالمسلمون بما اختصهم الله من كرامته ، وجعل لهم من الفضيلة بدينهم الذي اختاره لهم ، بائنون على الأديان بشرائعهم الزاكية ، وأحكامهم المرضية الطاهرة ، وبرهاناتهم المنيرة ، وبتطهير الله دينهم ، بما أحل وحرم فيه ، لهم وعليهم ، قضاء من الله عز وجل في إعزاز دينه حتماً ، ومشيئة منه في إظهار حقه ماضية ، وإرادة منه في إتمام نعمته على أهله نافذة ، ليهلك من هلك عن بينة ويحيا من حيّ عن بينة ، وليجعل الله

---

(١) عمط عرضه : عابه وثلبه كاعتمطه .

الفوز والعاقبة للمتقين ، والخزي في الدنيا والآخرة على الكافرين .

« وقد رأى أمير المؤمنين ، وبالله توفيقه وإرشاده ، أن يحمل أهل الذمة جميعاً بحضرته ، وفي نواحي أعماله ، أقربها وأبعدها ، وأخصهم وأخسهم ، على تصيير طيالستهم التي يلبسونها من لبسها من تجارهم وكتابهم ، وكبيرهم وصغيرهم ، على ألوان الثياب العسلية ، لا يتجاوز ذلك منهم متجاوز إلى غيره ، ومن قصر عن هذه الطبقة من أتباعهم وأرذالهم ، ومن يقعد به حاله عن لبس الطيالسة منهم ، أُخذ بتركيب خرقتين صبغهما ذلك الصبغ ، يكون استدارة كل واحد منهما شبراً تاماً في مثله ، على موضع أمام ثوبه الذي يلبسه ، تلقاء صدره ومن وراء ظهره ، وأن يؤخذ الجميع منهم في قلانسهم بتركيب أزرّة عليها يخالف ألوانها ألوان القلانس ، ترتفع من أماكنها التي تقع بها لئلا تلصق فتُستر ، ولا يركب منها على حباك [1] فيخفى ، وكذلك في سروجهم ، باتخاذ ركب الخشب لها ونصب أكر على قرابيسها[2] تكون ناتئة عنها وموفيّة عليها ، لا يرخص لهم في إزالتها عن قرابيسهم وتأخيرها إلى جوانبها ، بل تتفقد ذلك منهم ، ليقع ما وقع من الذي أمر أمير المؤمنين بحملهم عليه ظاهراً يبينه الناظر من غير تأمل ، وتأخذه العين من غير طلب ؛ وأن تؤخذ عبيدهم وإماؤهم ، ومن يلبس المناطق من تلك الطبقة ، بشد الزنانير والكساتيج [3] مكان المناطق التي كانت في أوساطهم ، وأن توعز إلى عمالك فيما أمر به أمير المؤمنين في ذلك ، إيعازاً تحدوهم به إلى استقصاء ما تقدم اليهم فيه ، وتحذرهم إدهاناً وميلاً ، وتتقدم إليهم في إنزال العقوبة بمن خالف ذلك من جميع أهل الذمة عن سبيل عناد وتهوين إلى غيره ، ليقتصر الجميع منهم على طبقاتهم

---

(١) القدة التي تضم الرأس إلى خشبة القتب .

(٢) القربوس كحلزون : حنو السرج .

(٣) الكستيج بالضم : خيط غليظ يشده الذمي فوق ثيابه دون الزنار .

وأصنافهم على السبيل التي أمر أمير المؤمنين بحملهم عليها ، وأخذهم بها إن شاء الله .

« فاعلم ذلك من رأى أمير المؤمنين وأمره ، وأنفذ إلى عمالك في نواحي عملك ما ورد عليك من كتاب أمير المؤمنين بما تعمل به إن شاء الله . وأمير المؤمنين يسأل الله ربه ووليه ، أن يصلي على محمد عبده ورسوله صلى الله عليه وملائكته ، وأن يحفظه فيما استخلفه عليه من أمر دينه ، ويتولى ما ولاه مما لا يبلغ حقه فيه إلا بعونه ، حفظاً يحمل به ما حمله ، وولايةً يقضي بها حقه منه ، ويوجب بها له أكمل ثواب وأفضل مزيده ، إنه كريم رحيم .

وكتب إبراهيم بن العباس في شوال سنة خمس وثلاثين ومائتين » .

هذا ما أمكن التقاطه من كلام الصولي ، وعدَّه صاحب العقد في جملة من نَبُل بالكتابة وكان قبل خاملاً فاستحق اسمها ، وعدّه ابن النديم في البلغاء الحُدُث . وفي كتاب الأوراق : اجتمع الكتاب عند أحمد بن إسرائيل فذكروا الماضين من الكتاب ، فأجمعوا أن أكتب من كان في دولة بني العباس أحمد بن يوسف وإبراهيم بن العباس ، وأن أشعر كتاب دولتهم إبراهيم بن العباس ومحمد بن عبد الملك الزيات ؛ فإبراهيم أجودهما شعراً ، ومحمد أكثرهما شعراً ؛ ثم الحسن بن وهب وأحمد بن يوسف ، وأن أذكى كتّاب الدولة وأجمعهم لمحاسن الكتابة من ذكاء وخط وفطنة : جعفر بن يحيى وإسماعيل بن صبيح . وقال صاحب الأغاني : كان محمد بن عبد الملك الزيات شاعراً مجيداً لا يقاس به أحد من الكتاب ، وإن كان إبراهيم بن العباس مثله في ذلك ؛ وكان إبراهيم مقلاّ ، وصاحب قصار ومقطعات ؛ وكان محمد شاعراً يطيل فيجيد ، ويأتي بالقصار فيجيد ، وكان بليغاً حسن اللفظ إذا تكلم وإذا كتب . وقال آخر : كلام إبراهيم ابن العباس نمط واحد قد أسدته القريحة ، وألحمته الغزارة ، فاتصل أوله

بآخره ، ووارده بصادره .

ولعل حبّ التأنق الذي غلب عليه منذ نشأته الأولى ، دعاه إلى أن يخرج من كلامه إلى المجوَّد المنقح ، وأن يعمد إلى الإيجاز في منظومه ومنثوره ، لا يكتب إلا ما رأى بعينه ، وتخيله بحسه ونفسه ، « وكان إذا قال شعراً اختاره وأسقط رَذْله وأثبت نخبته » ، وإذا كتب أوجز وألبس المعنى قالباً شفافاً من نسجه ، ليس بالفضفاض المسترسل ، ولا بالضيق المخنوق . ذكره أبو زيد البلخي فقال : « كان من أبلغ الناس في الكتابة ، حتى صار كلامه مثلاً » . والمثل لا يدور على الألسن إلا لاختصاره ، والشعر لا تتناقله الألسن إلا لسهولة حفظه ، ولما فيه من إيقاع ووزن وتساوق . ولا يزال المتصفح لكلامه يقع له على المعنى الكثير في الجملة القصيرة ، فكان حقاً كما قالوا : « كاتباً من أشعر الكتاب وأرقهم لساناً ، وأسيرهم مثلاً » ، وهو « أشعر نظرائه الكتاب ... وأشعاره قصار ، ثلاثة أبيات ونحوها إلى العشرة ، وهو أنعت الناس للزمان وأهله غيرَ مدافع » ، وهذا من أعظم ما امتاز به ، لأنه عرف أخلاق الناس في نكبته .

وأبان إبراهيم عن طريقته وسبب نجاحه في تنضيد درره فقال : ما اتكلت في مكاتبتي قط إلا على ما يجلبه خاطري ، ويجيش به صدري ، إلا قولي : وصار ما يُحْرِزهم يُبْرِزهم ، وما كان يَعْقِلهم يَعْتقلهم . وقولي في رسالة أخرى : فاستزلوه من مَعْقِلٍ إلى عِقال ، وبدلوه آجالاً من آمال . فإني ألممت بقولي آجالاً من آمال بقول مسلم بن الوليد الأنصاري المعروف بصريع الغواني وهو :

موفٍ على مُهَجٍ في يوم ذي رَهَجٍ كأنه أجل يسعى إلى أمل

وفي العقل والعقال بقول أبي تمام :

فإن باشر الإصحار فالبيض والقنا قِراه وأحواض المنايا مناهله
وإن يبن حيطاناً عليه فإنما أولئك عُقّالاته لا معاقله

وإلا فأعلمـه بأنك ساخط　　عليه فإن الخوف لا شك قاتله

ذكر شعر الكتاب بحضرة إبراهيم بن العباس فقال : أشعرهم عندي الذي مزحه أفصح وأحسن من جدّ الناس . وكان يقول : ما تمنيت كلام أحد أن يكون لي إلا قول عبد الحميد بن يحيى : الناس أصناف متباينون ، وأطوار متفاوتون ، منهم عِلق مضنة لا يباع ، ومنهم غِلّ مظنة لا يبتاع .

ولعل أعظم سبب في توفيقه وتفوقه زهده في الغريب من اللفظ ، وتشبثه بأهداب المعنى أكثر من كل شيء ، واعتداده بعفو القريحة ووحي الساعة . قال أبو الغيث : كنت عند إبراهيم بن العباس وهو يكتب كتاباً ، فنقطت من القلم نقطة مفسدة ، فمسحها بكمه ، فعجبت فقال : لا تعجب ، المال فرع والقلم أصل . ومن هذا السواد جاءت هذه الثياب ، والأصل أحوج إلى المراعاة من الفرع ، ثم فكر قليلاً وقال :

إذا ما الفكر وَلّدَ حسن لفظ　　وأسلمه الوجود إلى العيـان (١)
ووشّاه ونمنمه بيـانٌ　　فصـيح في المقال بلا لسان
ترى حلل البيان مُنَشّرات　　تضاحك بينها صور المعاني

وكان يقول : المتصفح للكتاب أبصر بمواقع الخلل فيه من منشئه . وقال : الكتب موات ، ما لم يوقّع فيها توقيع الختم وتختم ، فإذا فعل ذلك بها عاشت . وقال لغلام كان يكتب بين يديه : « ليكن قلمك صلباً بين الدقة والغلظ ، ولا تبره عند عُقَده ، ولا تجعلن في أنبوبه أنبوبة ، ولا تكتبن بقلم ملتوٍ ، ولا بذي شق غير مستو ، واختر من الأقلام ما يضرب إلى السمرة ، وأحدّ سكينك ولا تستعملها لغير قلمك ، وتعهده بالإصلاح يصلح ، وليكن مقطعك صلباً ليمضي الخط مستوياً لا مستطيلاً ، وابر

---

(١) روى الصولي في أدب الكتاب هذا البيت هكذا :

إذا ما الفكـر أظهر حسن لفظ　　وأداه الضـمير إلى العيان

قلمك بين التحريف والاستواء ، وإذا كتبت الدقيق فأمِلْ قلمك إلى إقامة الحروف لإشباع الخط ، وإذا جللت فإلى التحريف ، واعلم أن تبطين القلم شُؤم ، وتحريفه حرن ، وهما دمار الخط ، واعلم أن وزن الخط مثل وزن القراءة ، فأجود الخط أبينه كما أن أحمد القراءة أبينها » .

وبعد فإن إبراهيم بن العباس أحد أركان البيان في عصره كان كما قال فيه أبو الشبل لما رآه يكتب :

ينظم اللؤلؤَ المنثور منطقه ... وينظم الدر بالأقلام في الكتب

توفي إبراهيم بن العباس الصولي في سنة ٢٤٣ هـ .

محمّد بن عبد الملك الزيات

عصره :

عاش العباسيون ، بالقوة التي أورثها الرشيد والمأمون للملك العباسي ، يام المعتصم والواثق دون أن يشهدوا ضعفاً محسوساً في دولتهم . عاشو بقوة التسلسل لا بقوة هذين الخليفتين ، وكانا يستران نقصهما بمن يعهدان إليهم تدبير الملك من الرجال وإطلاق أيديهم في الحكم . ولم تظهر في الدولة آثار الخطإ الذي ارتكبه المعتصم بتقديم الأتراك ، والقضاء على قيادات العرب إلا في أيام المتوكل ، ففي عهده بدأ ضعف الدولة ، وزاده ضعف المتوكل في التدبير والسياسة ، حتى قُتل فكان أول خليفته قتل جهرة من خلفاء بنى العباس ، وكثر بعد ذلك القتل في المستخلفين .

نفذ المعتصم ثم الواثق خطط المأمون في تدبير الملك ، فاعتمد المعتصم على من اعتمد عليهم أخوه من الرجال ، وجرى ابنه الواثق من بعده على خطة المأمون والمعتصم في القول بخلق القرآن ، وحمل الأمة على اعتقاد ذلك ، فتألم الناس من هذا التحكم ، وحنقوا على المعتزلة أصل هذه المحنة ، وكان للمعتزلة السلطان الأكبر في خلافة المأمون .

بيد أن المأمون لم يكن بالخليفة المستضعف ، والمعتصم ، وإن لم يصدر عن رأيه الخاص ، فقد كان على جانب من حسن الخلق والكرم ، وكذلك ابنه الواثق ، وكان الواثق يحاسن العلويين ويحسن إليهم وإلى أهل الحرمين ،

حتى لم يبق منهم من يسأل الصدقة ، ويشبه الواثق عمه المأمون في كثير من أخلاقه ، وكان المعتصم قليل البضاعة من الأدب ، وابنه على جانب عظيم منه . وفي أيام المعتصم كان الروم من جيوشه في أمر عظيم ، على نحو ما كانوا في عهد أبيه الرشيد ، وفي أيامه قوي أمر بابك الخُرَّمي في أذربيجان ، يريد ان يقيم ملة المجوس ، فأخرب البلاد ، وقتل عشرات الألوف من الجند والرعية ، حتى قتل بعد أن أتعب الخلافة عشرين سنة .

وفي أيام المعتصم والواثق لم يقتطع شيء من جسم الدولة العباسية ، وكان الأمويون في الأندلس يَعْملون على توطيد أمرهم ، وإنشاء حضارتهم ، وفي هذا العهد كان عبد الرحمن الثاني الأموي حامي الآداب والعلوم ، ومن أعظم خلفاء بني أُمية في المغرب ، وكان بنو الأغلب في أفريقية ، يرضون الخليفة العباسي ببعض الخراج ، ويدعون له على المنابر ، ويصدرون في المسائل الكبرى عن رأيه في الجملة ، ويتولون استصفاء جزيرة صقلية ، وكان ما وراء ذلك من بلاد الغرب الأقصى في أيدي الأدارسة العلويين يتخبطون ولا يستطيعون قيام مملكة قوية .

وظل العلم الديني والمدني سائراً في طريقه التي أخذ بها في عهد الرشيد وابنه المأمون ، ولكن بمعزل عن تنشيط المعتصم والواثق ، وقلما كان هذان الخليفتان يشاركان أهل العلم ، أو يعطفان عليهم العطف المطلوب ، كفعل من كان قبلهما ، وإذا لم يقع من هذين الخليفتين شيء يستحق أن يسمى تنشيطاً للآداب ، فإنهما لم يعملا ما من شأنه أن يثبط العاملين عن عملهم ، فكأن دورهما أول مرحلة إلى برزخ جديد ، يقلّب الأمة بين القوة والضعف . وبعد عهد المتوكل انتهت أيام العزّ في بني العباس ، وفرح الجمهور لأول أمره بأنه أعاد السنّة ، وأبطل القول بخلق القرآن ، وعندئذ بدأ اضطهاد الناس والحكام سراً لجماعات المعتزلة بعد أن غَلبوا على ثلاثة خلفاء .

نشأته ووزارته :

هو أبو جعفر محمد بن عبد الملك بن أبان بن أبي حمزة ، عُرف بابن الزيات ، لأن جده على ما قيل كان يجلب الزيت من مواضعه إلى بغداد ، فغلب هذا التلقيب على بيته ، وكان جده أبان من أهل قرية الدسكرة مقابل جبّل من عمل بغداد . فهو عربي بأصوله ، وُلد ونشأ في بغداد ، ولا يُعرف شيءٌ عن أوليته ، ولا عمن أخذ العلم في صباه ، وغاية ما أُثر عنه أنه أُولع بالأدب ، وكان أبوه من مياسير تجار الكرخ ، يحثه على التجارة وملازمتها ، فيمتنع ويأبى إلا الكتابة وطلبها ، ويخاطب الكتاب ، ويلازم الدواوين ، فقال له ذات يوم : والله ما أرى ما أنت ملازمه ينفعك وليضرَّنك ، لأنك تدع عاجل المنفعة ، وما أنت فيه مكفي ، ولك ولأبيك فيه مال وجاه ، وتطلب الآجل الذي لا تدري كيف تكون فيه . فقال : والله لتعلمن أينا ينتفع بما هو فيه ، أأنا أم أنت ، ثم شخص إلى الفضل بن سهل بفم الصلح ، فامتدحه بقصيدة ، فاعطاه عشرة آلاف درهم ، فعاد بها إلى أبيه فقال له أبوه : لا ألومك بعدها على ما أنت فيه ، وكان من جملة أبيات تلك القصيدة :

إني شعرت فلم أمدح سواك ولم ... أُعمِل إلى غيركَ الإدلاج[1] والبُكر
ما كان ذلك إلا أنني رجــل ... لا أقْرَب الورد حتى أعرف الصدرا
لم أمتدحكَ رجاء المال أطلبه ... لكن لتلبسَني التحجيل والغــرر

فابن الزيات إذن من بيت اغتنى في التجارة ، وسمت نفس محمد إلى العلا ، فعدَّ مفخرة أهله ، لما وجه وجهته إلى الآداب ، وسار في طريق

---

(١) الدلج : محركة ، والدلجة بالضم والفتح : السير من أول الليل ، وقد أدلجوا ، فان ساروا من آخره ، فادلجوا بالتشديد . والبكرة بالضم : الغدوة كالبكرة محركة اسمها الإبكار ، وشعر كنصر وكرم شعراً ، وشعراً قاله أو شعر قاله وشعر أجاده .

سعادته بحسب ميله واستعداده ، وسما به شوق إلى المجد فدخل حظيرته من أبوابه ، واتخذ لنجاحه الأسباب فتعلم ، ولابس أرباب الكتابة في أعظم دواوين الدولة في عهد المأمون ، فرأى ولا شك كبار الكتاب كعمرو بن مسعدة وأحمد بن يوسف وسهل بن هارون ؛ هذا إن لم يكن قد أخذ عنهم . فمدرسته الأولى في الواقع هي ذاك الديوان الذي اختلف إليه في صباه ، وعرف فيه معاملات الحكومة وأصولها في سياسة الملك ، وكتب كتباً ، وشاهد الكتاب يكتبون ، وأرهف حسه ، وهذب نفسه ، منذ ألقي في رُوعه أن يكون ذات يوم صاحب شأن في الدولة .

كان ابن الزيات جهمياً ، يقول بمذهب جهم بن صفوان ، وهو يو افق المعتزلة في مسائل كثيرة ، ومنها القول بخلق القرآن وأن الله لا يُرى في الآخرة ، وكان ممدوحه الأول الفضل بن سهل يتشيع ، وهو من أعاظم الفرس أدباً وفضلاً ، وهو ابن الوزير الحسن بن سهل ، والد بوران زوج المأمون . وتصرفت الأقدار تصرفها ، وأبى فضل أبي جعفر إلا أن يظهر ظهوراً رائعاً خرج به من خمول الذكر إلى نباهة القدر . اتفق أن ورد على المعتصم كتاب من بعض العمال ، قرأه عليه وزيره أحمد بن عمار ، وكان في الكتاب ذكر الكلأ فقال المعتصم : ما الكلأ ؟ فقال : لا أعلم ، وكان قليل المعرفة بالأدب . فقال المعتصم : « خليفة أُمي ووزير عامي » ، وكان المعتصم ضعيف الكتابة ، ثم قال : أبصروا من الباب من الكتاب ، فوجدوا محمد بن عبد الملك الزيات ، فأدخلوه إليه فقال له : ما الكلأ ؟ فقال : الكلأ العشب عَلَى الإطلاق ، فإن كان طرياً فهو الخلا ، فإذا يبس فهو الحشيش ، وشرع في تقسيم أنواع النبات ، فعلم المعتصم فضله . وتجلى له في كل موطن أنه قريع دهره في قيام الملك ، وأنه حاضر البديهة ، واسع المعرفة ، جم الأدب . سأل المعتصم مرة جماعة من خواصه عن معنى سبب

تسمية طاهر ذا اليمينين فلم يعلموا . فقال محمد بن عبد الملك : ذو الاستحقاقين استحقاق ما لجده من رزق في الدولة ، واستحقاق ما له في دولة المأمون .

وكان ابن الزيات يتولى قهرمة [١] الدار ، ويشرف على مطبخ الخليفة ، ويقف في الدار وعليه دُرَّاعة سوداء . يقول الطبري : إن محمد بن عبدالملك الزيات كان يتولى ما كان أبوه يتولاه للمأمون من عمل الفساطيط وآلة الجُمّازات [٢] ، ويكتب على ذلك « مما جرى على يدي محمد بن عبد الملك » وكان يلبس إذا حضر الدار دُرّاعة سوداء وسيفاً بحمائل ، فقال له الفضل بن مروان وزير المعتصم قبل أحمد بن عمار : إنما أنت تاجر فمالك وللسواد والسيف ، فترك ذلك محمد . ولما تركه أخذه الفضل برفع حسابه إلى دُلَيْل ابن يعقوب النصراني ، فرفعه فأحسن دُلَيْل في أمره ولم يَرزأه شيئاً ، وكان الفضل بن مروان نصراني الأصل « قليل المعرفة بالعلم ، حسن المعرفة بخدمة الخلفاء » حاول أن يسقط محمد بن عبد الملك ، لأنه كان يتفرس فيه الذكاء النادر والعلم ، ولا يحب أن يشاهده في دار الخلافة ، ولا أن يخالط أهلها ، ويعرف اسمه ورسمه ، فأبت الأقدار إلا رفعه ، وصادر المعتصم الفضل ابن مروان على ألفي ألف دينار وأبقى على حياته ، ورفعت إلى الفضل قصص العامة ، فرأى في جملتها رقعة مكتوباً فيها :

تفرعنت يا فضل بن مروان فاعتبر … فقبلك كان الفضل والفضل والفضل
ثلاثة أملاك مضوا لسبيلهم … أبادهم التقييد والحبس والقتل
وإنك قد أصبحت في الناس ظالماً … ستودي [٣] كما أودى الثلاثة من قبل

---

(١) القهرمان : هو المسيطر الحفيظ على من تحت يده . والقهرمان من أمناء الملك وخاصته ، وفي الحديث : كتب الى قهرمانه ، هو كالخازن والوكيل الحافظ لما تحت يده والقائم بأمور الرجل بلغة الفرس (اللسان) .

(٢) الجمازة : دراعة من صوف بضم الدال ، والدراعة ثوب من صوف .

(٣) أودى : هلك وبه الموت ذهب .

أراد بالفضول الثلاثة الفضل بن يحيى البرمكي ، والفضل بن الربيع ، والفضل ابن سهل، وهم ثلاثة وزراء نكبوا وقتلوا على عهد الرشيد وابنيه المأمون والمعتصم.

تولى الوزارة أحمد بن عمار ، ولما عرف المعتصم غَناء ابن الزيات ، وعجز ابن عمار وجهله ، قال له المعتصم : انظر أنت في الدواوين ، وهذا يعرض عليّ الكتب ، ثم استوزر ابن عبد الملك وصرف ابن عمار صرفاً جميلاً ، فأصبح ابن الزيات وزيراً كاتباً ، وجرى على يديه عامة ما بنى المعتصم بسامرّا ، من الجانبين الشرقي والغربي . أحيا المعتصم بذلك سنة أخيه بتقليده الوزارة إلى كاتب ، وكان لا يتولاها في عهد أخيه إلا من جمع أسباب الفضل ، وذهب في الأدب كل مذهب .

لا نعلم سنة مولد أبي جعفر ، ولا نستطيع تقدير سنة يوم تولى الوزارة ، وربما كان حوالي الأربعين . وقد حكّمه المعتصم وبسط يده ، فارتقى من ابن تاجر يعد الدوانيق ، إلى أرقى رتب الخلافة يصرف الأمور كما يرى . ولما تولى الوزارة « أشترط أن لا يلبس القَباء ، وأن يلبس الدّراعة ، ويتقلد عليها سيفا بحمائل ، فأُجيب إلى ذلك » لبس ما كان يحب أن يلبس وهو ابن تاجر يبيع من القصر بضاعته ، ويدل بما ورث عن أبيه من عادات التجار أصحاب التربيح والتكسب والتدنيق [1] . وكان يقول : قد صنع إليّ الخليفة صنيعة تفرد بها : نقلني من ذل التجارة إلى عز الوزارة . وأحرز ابن الزيات نعمة كما قال له أحدهم بحقها ، واستوجبها بما فيه من أسبابها .

علمه وسياسته :

يقول إبراهيم بن المدبر الوزير : إن محمد بن عبد الملك من ألطف الناس ذهناً ، وأرقهم طبعاً ، وأصدقهم حساً ، وأرشقهم قلماً ، وأملحهم إشارة ،

---

(١) التدنيق : الاستقصاء وإدامة النظر إلى الشيء .

إذا قال أصاب ، وإذا كتب أبلغ ، وإذا شعر أحسن ، وإذا اختصر أغنى عن الإطالة . وما زاد اليعقوبي والمسعودي – وهما المؤرخان القريبان من عهده – على أن وصفاه بالكتابة والبلاغة كما يوصف آحاد الكتاب لا كما يوصف من كان « واحداً في صناعته ، ومفرداً في براعته » . وقال فيه من لا غرض له إنه كان شاعراً يطيل فيجيد ، ويأتي بالقصار فيجيد ، وكان بليغاً حسن اللفظ إذا تكلم وإذا كتب ، وكان يعد من علماء النحو واللغة ، وهو فتى لم تَعلُ به السن حتى أن أبا عثمان المازني ، لما كان أصحابه وجلساؤه يخوضون بين يديه في النحو إذا اختلفوا فيما يقع فيه الشك يقول لهم أبو عثمان : ابعثوا إلى هذا الفتى الكاتب ، يعني ابن الزيات ، فاسألوه ، واعرفوا جوابه ، فيفعلون ويصدر جوابه بالصواب الذي يرتضيه أبو عثمان .

لا جرم ان اشتغال ابن الزيات بسياسة الدولة أضاع من مكانته الأدبية ، والناس في كل زمان يرهبون القريب من السلطان . ويغتابونه في السر ، ويستثقلون ظله أو يعادونه لعدة أسباب ؛ فابن الزيات كان يدعو الأمة إلى حرمة القوانين ، وكثيراً في الناس من يحبون أبداً الخروج عليها ، ويمقتون من يدعو اليها ويحنقون عليه ، ومنهم الحساد يشق عليهم الإقرار بفضائل أهل الفضل ، ومنهم أعداء عزّه وأعداء مذهبه . ومثل منصبه الخطير مما تلتهب الصدور إلى الوصول إليه . ومنهم من أبغضوه لمجرد كونه جهمياً كالشيعيين اليعقوبي والمسعودي ، ولو كان يذهب في الإمامة مذهبهما لسكتا عن كثير من مساوئه ، ولحملاه بصفات هو منها أعرى من مغزل . ومن تولي وزارة أعظم خلافة أربع عشرة سنة ، لخليفتين بدون انفصال ، وتولاها للثالث أيضاً ، على ما لم يكن يعهد له نظير في دولة من الدول ، لا يتوقع من الناس كافة أن يجمعوا على حبه . ولطالما سلبت أهواء السياسة من ذوي الفضل فضلهم ، ومن أجلها عرّاهم أرباب اللؤم من محامدهم .

نسبوا إلى ابن الزيات أنه كان يقول إذا استرحمه أحد ممن يعذبهم : « الرحمة خَوَر في الطبيعة وضعف في المُنَّة » ، فكانوا يطعنون عليه في

دينه بهذا القول . ولا دليل على أنه قال هذا القول ، ويرد على الخاطر أن أعداءه اخترعوه من عند أنفسهم لينالوا منه عند الخاصة والعامة . وكم من كتاب ألفه مؤلفه فنسبه إلى غيره ليسقطه ، وكم من قصيدة قالها رجل فعزاها إلى آخر للوقيعة به ، وكأي من حديث وَضعه واضعه على لسان من لم يخطر له هذا الكلام المزوّر ببال .

وضعوا حكايات أسندوها إلى أشخاص في جمل مزوقة قد تستغوي القارىء الغِرّ ، أوردوها في باب الملح والنوادر ، يشيرون بها إلى لؤم ابن الزيات وتجبيهه الناس ؛ زعموا انه بعيد عن إسداء المعروف ، يتجافى عن نفع غيره ، وما حملو عليه ولفقوا من الأحاديث المسقطة له إلا أنه وصل إلى المعالي عن جدارة ، وكم سعى غيره ليبلغوا منزلته فخابوا وما أفلحوا ، وعَظُم ما رمي به من تلفيق منافسيه وقاصديه ؛ ولن يرضى العامة والخاصّة إلا إذا عمل لهم ربّ الأمر والنهي المعقول وغير المعقول ، وصاحب الحاجة أرعن لا يروم إلا قضاءها ؛ ومن كان على شيء من الأخلاق لا يستقيم له حال مع الغوغاء ؛ ومن أراد أن يصدع بالحق مع الكبير والصغير مقته كل من لم يظفر بطَلِبَته ، ويعز في الطبقات مَن تصبر نفسه على مرّ الحق ، وحرارة الإصلاح والتقويم .

ثم إن من كان في مثل هذه الصدارة يستحيل عليه ، وهو بشر يخطىء ويصيب ، أن تكون اعماله كلها مسددة ، والنقص من خلق الآدميين في الجملة . مثال من خطئه في اجتهاده ؛ ولعل بعض العارفين يعدونه صواباً : روى الراوون : أن المعتصم كان أمر بأن يعطي الواثق عشرة آلاف ألف درهم يستعين بها على أمره ، ويصلح بها ما يحتاج إلى إصلاحه ، فدافعه بذلك مدافعة متصلة أحوجته إلى شكايته إلى المعتصم ، فأنكر عليه تأخر المال . فقال : يا أمير المؤمنين : العدل أولى بك وأشبه بقولك وفعلك ، ولك عدة أولاد ، أنت في أمرهم بين خلّتين : إمـا أن تسوي بينهم في العطية فتجحف ببيت المـال ، وإما أن تخص بعضهم فتحيف عـلى

الباقين . فقال : قد رهنت لساني فما تصنع ؟ قال : تأمر لباقي ولدك بإقطاعات وصلات ، وتطلق لهارون صدراً من المال فأُدافعه بباقيه ، ويتسع الأمر قليلاً ، وتُدَبّر الأمر بعد ذلك بما تراه ، فقال له : وفقك الله ؛ فما زلت أعرف الصواب في مشورتك .

وتأدى الخبر إلى هارون ، فحلف بعتق عبيده ومماليكه ، وبحبس عدة خيل ووقف عدة ضياع ، وصدقة مال جليل ، لئن ظفر بمحمد ليقتلنه ، وكتب اليمين بخطه ، وجعلها في درج وأودعها دايته ، ومرت مدة وأفضى الأمر إلى هارون ، وكان ذا أناة وعقل ، وكره أن يعاجله ، فيقول الناس بادر بشفاء غيظه . ثم عزم على الإيقاع به ، فتقدم بأن يُجمع له من وجوه الكتاب من يصلح لولاية الدواوين والوزارة فجُمعوا ، ودعا بواحد منهم وقال له : أكتب كذا في أمر رسمه له ، فاعتزل وكتب وعرض الكتاب عليه فلم يرضه ، حتى امتحن الجميع فأمر صاحبه فقال : أُدخل من المُلك مضطر إليه محمد بن عبد الملك ، فجيء به وهو واجم مضطرب . فلما وقف قال له : أُكتب إلى صاحب خراسان في كذا وكذا ، فأخرج من كمه نصفاً ، ومن خفه دواة ، وابتدأ يكتب بين يديه ، حتى فرغ من الكتاب ، ثم أخرج خريطة فيها حصا فأترب الكتاب وأصلحه ، وتقدم فناوله إياه ، فوجده قد أتى على جميع ما في نفسه ، فأُعجب به جداً وقال : اختمه فأخرج من الخريطة طيناً فوضعه عليه وتناوله ، فختمه وأنفذه من ساعته . فقال الواثق لخادم له : امض إلى دايتي وقل لها توجه إليَّ بالدّرج الفلاني ، فمضى الخادم فجاء به ، فأخرج الرقعة فدفعها إليه فقال : يا أمير المؤمنين أنا عبد من عبيدك إن وفيت بيمينك فأنت محكّم ، وإن كفّرت وصفحت كان أشبه بك ، قال : لا والله ما يمنعني من الوفاء بيميني إلا النفاسة على أن يخلو الملك من مثلك ، وأمر بعتق من حلف بعتقه ، ووقف الضياع وحبس الخيل وأنفذ صدقة المال ؛ وظل ابن الزيات وزيراً للواثق كما كان في عهد أبيه . وقيل إن موضوع الكتاب الذي اقترحه الواثق عليه

كان يتعلق بأمر البيعة ، فكتبوا فلم يرض بما كتبوه ، فكتب ابن الزيات نسخة رضيها ، وأمر بتحرير المكاتبات عليها ، وأن الواثق قال : عن المال والفدية عن اليمين عوض ، وليس عن الملك وابن الزيات عوض .

إن السبب الذي غضب له الواثق أيام ولايته العهد ، من تضييق ابن الزيات عليه ثم عفوه عنه لما أفضت إليه الخلافة ، يدل على وفرة عقل الواثق . أما معاملة محمد بن عبد الملك الزيات قبل الخلافة لولي عهدها فما كانت غير محض اجتهاد ، لأنه لا يريد استرسال ولي العهد في طلباته من مال الدولة بدون حساب ، ويود أن يعرفه قدر المال ، وأن يعدل الخليفة بين أولاده ، حتى لا تتأثر أنفسهم من معاملة شاذة، لا يرون ولو في باطنهم أنها تمت إلى الإنصاف بسبب . وأدرك الواثق بعقله الراجح أن في قتل مثل هذا الرجل العظيم لشفاء غضب ، قد يكون سكن بمرور الزمن ، خسارة على الدولة لا تعوض ، فما كل دهر ينبغ مثل ابن الزيات ، وما كل حين يتهيأ للخليفة رجل مجرب مثله ، ومن أخلص لسيده الأول كان حرياً أن يخلص لسيده الثاني ، والدين النصيحة .

وعلل صاحب النشوار غضب الواثق على ابن الزيات بما كان محمد بن عبد الملك يعامله به في أيام أبيه ، فمن ذلك أن المعلم شكا إلى المعتصم أن الواثق لا يتعلم ، فإذا طالبه بذلك شتمه ووثب عليه ، فأمر المعتصم محمداً بأن يضرب الواثق أربع مقارع ، فخرج محمد واستدعى الواثق ، وضربه ثلاث عشرة مقرعة حتى مرض ، فلما عرف أبوه الخبر أنكر ذلك ، وحلف للواثق أنه ما أمر محمداً إلا أن يضربه أربع مقارع ، فأخفاها في نفسه ، فكان يبغضه . وعلم محمد بذلك فكان يقصده في ضياعه وأملاكه لما ترعرع وصار أميراً . فوقع المعتصم يوماً أن يُقطع الواثق ما ارتفاعه ألف ألف دينار ، فمحاها محمد وكتب (ما قيمته ألف ألف درهم) فلما دخل إليه الخادم وعرفه ما عمله محمد وثب إلى أبيه وعرفه ذلك ، وعرض التوقيع عليه ، فقال له المعتصم : ما أُغير ما وقعت به ، وما أرى في التوقيع

إصلاحاً ، وكان محمد قد أجاد محوه ، وعلم المعتصم أن رأي محمد في الاقتصاد أصلح ، فبطل ما كان يريده الواثق وانصرف ، فقال للخادم : قد تم عليّ من هذا الكلب كل مكروه ؛ فإن أفضت الخلافة إليّ فقتلني الله إن لم أقتله . ثم قال له : أنت خادمي وثقتي ، فإن أفضى هذا الأمر إليّ فاقتله ساعة أُخاطب بالخلافة ولا تشاورني ، وجئني برأسه . قال : فمضت الأيام وتقلد الواثق فحضر الدار في أول يوم محمد بن عبد الملك مع الكتّاب ، فتقدم الواثق إلى الكتّاب دونه بأن يكتب كل منهم نسخة بخبر وفاة المعتصم وتقلده الخلافة ، فكتبوا بأسرهم ، وعرضوا ذلك عليه فلم يرضه ، فقال لمحمد : أكتب أنت ، فكتب في الحال بلا نسخة كتاباً حسناً ، وعرضه فاستحسنه ، وأمر بتحرير الكتب عليه . ولم يبرح حضرته حتى أقره على الوزارة . وخرج من بين يديه والناس كلهم خلفه . قال الخادم : فعجبت من ذلك وقلت تُراه أنسي ما كان أمرني به ؟ لم لا أستأذنه في ذلك وأذكره به ؟ فتقدمت إليه لما خلا وأذكرته الحديث واستأذنته فقال : « ويحك ، السلطان إلى محمد بن عبد الملك أحوج من محمد إلى السلطان ، دعه » .

عن محمد بن الفضل بن الأسود الكاتب قال حدثني ابن قريش بن أنس عن أبيه قال : دخلت على الواثق فقال لي : يا أبا قريش أخرج رقعة من تحت المصلى . فمددت يدي فأخرجت الرقعة وقرأتها وقلت : يا أمير المؤمنين رقعة حسنة ، أولها تشوق ، وأوسطها استعتاب ، وآخرها استبطاء . وإذا آخر الرقعة :

إن يكن حبلك من حبلي وهى فإلى شوقي يكون المنتهى
لم يذكرنيك خطب حادث إنما يذكر من كان سها

وكانت الرقعة من محمد بن عبد الملك ، فقال الواثق : ويلومني الناس على حب محمد بن عبد الملك ؟ وبعد فإن من أصعب ما أُصيب به ابن الزيات عداوة أحمد بن أبي داود شريكه ومنافسه في سلطانه ، وكان كصاحبه في العلم والأدب المثل الأعلى ، جهمي الرأي مثله ، « مؤالفاً لأهل الأدب

من أي بلد كانوا ، وكان قد ضم منهم جماعة يعولهم ويمونهم » ، وكان المأمون أوصى أخاه المعتصم به قائلاً : « وأبو عبد الله أحمد بن أبي داود لا يفارقك الشركة في المشورة في كل أمرك ، فإنه موضع ذلك » .

أمر الواثق أن لا يرى أحد من الناس محمد بن عبد الملك الوزير إلا قام له ، فكان ابن أبي داود إذا رآه قام واستقبل القبلة يصلي ، فقال ابن الزيات :

صلى الضحى لما استفاد عداوتي وأراه يَنْسُكُ بعدها ويصوم
لا تعدمن عـداوة مشؤومة تركتك تقعـد تارة وتقوم

وقال ابن أبي داود : إني لأمتنع من تكليم الخلفاء بحضرة محمد بن عبد الملك الزيات في حاجة كراهة أن أعلمه ذلك ، ومخافة أن أُعلّمه التأني لها . وقد أثر لابن الزيات شعر كثير في هجو أحمد بن أبي داود ومنه :

أبلغ دعي إياد إن مررت به قول امرىء ناصح لله والـدين
لن تصلح الأرض ما أُسكنت ظاهرها ولا ترى العدل أو تلحق بأفشين
ما زلت تضمر للخذلان عن دخل في القلب منك لهذا الدين مكنون
وكنت في ذاك لما إن قصدت له كالعنز إن بحثت عن حد سكين
نحن الذين إذا عدّ العفاف يُرى فينا العفاف ومأوى كل مسكين

وفي سنة ٢٢٩ نصب ابن الزيات لأصحاب المظالم العداوة فكشفوا وحبسوا وأقيموا للناس ولقوا كل جهد ، ومن جملتهم صديقه إبراهيم ابن العباس الصولي نسي صداقته في مطالبته بما تأخر في ذمته من حق بيت المال ، فاستهدف لهجائه ؛ هكذا كان ابن الزيات مع سائر الناس لا يجوّز لعامل أن يسرق ، ولا للرعية أن تتلكأ في أداء ما عليها ، حتى ينتظم سير الأعمال . فهو رجل الدولة ، خلق للحكم وكأن معاني الحكم ممزوجة بلحمه ودمه ، حتى لقد هُجِيَ بذلك ، وكان من حقه أن يُمدح ، فقال علي ابن الجهم في وصف توقيعاته :

على ابن عبد الملك الزيات　لَـعَــائن　الله　موفرات
يرمي الدواوين بتوقيعات　مطــولات　ومقــصرات
أشبه　شيء　برقى　الحيات

من عادة ابن الزيات المبالغة بتعظيم مظاهر الخلافة ، ليقتدي به الناس ، وينتظم الدولة الوقارُ والمهابة . كان إذا أراد أن يختم الكتاب دعا بدرج فيه الخاتم ، فإذا جيء به وهو خاتم الملك ، قام قائماً فأخذه إجلالاً له ، ثم جلس فأخرجه ، وختم الكتاب به ، وردّه إلى الدرج وختم عليه . ومع هذا ربما كان يناقش الخليفة في بعض المشاكل إذا خلا به ، وربما قام بأعمال يبتدعها ، وبعض تراتيبه ما عُهد له مثيل قبله ، كفعله لما عقد لإسحق بن إبراهيم على اليمامة والبحرين وطريق مكة مما يلي البصرة في دار الخلافة . قالوا ولم يُذكر أن أحداً عقد لأحد في دار الخلافة إلا الخليفة غير محمد بن عبد الملك الزيات ، كما لم يعهد أن أحداً بدأ الكلام مع الخلفاء قبل أن يبدؤوه غير أحمد بن أبي داود .

وابن الزيات سياسي ذاك العصر المنقطع القرين ، كان يراعي عواطف العوام ، ويحاذر ممـــا يَهيجهم ، ويقول إرجاف العوام مقدمة الكون (١) نظمه جحظة فقال :

أرى الإرجاف متصلاً بحال　ولابس حليتي كِبْرٍ وتيه
وإرجاف العوام مقدمات　لأمر كائن لا شك فيه

ولابن الزيات عطف خاص على العلماء ، وقد ترجموا له كتباً مهمة في الطب وغيره ، ومنهم حنين بن إسحق ، نقل له بعض الكتب إلى العربية ، وكان الجاحظ منقطعاً إليه . قال ابن أبي أُصيبعة : وكان يقارب عطاؤه للنقلة والنساخ في كل شهر ألفي دينار ، ونقل باسمه عدة كتب ، وكان

---

(١) الكون : الحدث ، كالكينونة والكائنة الحادثة ، وفي رواية مقدمة الفتنة .

أيضاً مما نقلت له الكتب اليونانية وترجمت باسمه جماعة من أكابر الأطباء مثل يوحنا بن ماسويه وجبرئيل بن بختيشوع ، وبختيشوع بن جبرئيل بن بختيشوع ، وداود بن سرابيون وسلمويه بن بنان ، واليسع ، وإسرائيل بن زكريا بن الطيفوري ، وحبيش بن الحسن ؛ ومما قال الجاحظ فيه :

بدا حين أثرى بإخوانه ففلّل منهم شباة [1] العدم
وأبصر كيف انتقال الزما ن فبادر بالعُرف قبل الندم

وقد مدحه أعاظم شعراء العصر ، ومنهم أبو تمام ، وصف قلمه بقوله :

لك القلم الأعلى الذي بشباته تُصاب من الأمر الكُلى والمفاصل
لعاب الأفاعي القاتلات لعابه وأرْى الجنى اشتارته [2] أيد عواسل
له ريقة طلّ ولكن وقعها بآثاره في الشرق والغرب وابل
فصيح إذا استنطقته وهو راكب وأعجم إن خاطبته وهو راجل
إذا ماامتطى الخمس اللطاف وأفرغت عليه شعاب الفكر وهي حوافل
أطاعته أطراف القنا وتقوضت لنجواه تقويض الخيامَ الجحافل
إذا استغزر الذهن الذكي وأقبلت أعاليه في القرطاس وهي أسافل
وقد رفدته الخنصران ووسدت ثلاث نواحيه الثلاث الأنامل
رأيت جليلاً شأنه وهو مرهف ضنى ، وسميناً خطبه ، وهو ناحل

ولهذه القصيدة قصة طريفة . قال ابن عبدوس : وجدت بخط أبي أحمد إسماعيل حدثني محمد بن علي بن سعيد الطبري وأخوه إبراهيم بن علي وأُمهما أخت محمد بن عبد الملك الزيات قالا : جائنا حبيب بن أوس الطائي يعني أبا تمام بقصيدته التي يقول فيها :

لك القلم الأعلى الذي بشباته تصاب من الأمر الكلي والمفاصل

---

(١) الشباة : حد كل شيء ، وفلل ثلم ، والعدم بالضم وبضمتين وبالتحريك الفقدان .
(٢) اشتارته جنته ، والأرى العسل ، والجنى كل ما يجنى .

فسألنا أن نعرضها على محمد ، وأن نتوخى بها وقتاً تكون نفسه طيبة فيه ، فتوخينا ذلك الوقت وأوصلنا القصيدة ، فقرأها من أولها وتوقف على أكثرها ، ثم قال : الطائي جيد الشعر ، إلا أنه يهجّن شعره بأنه يمتــدح السّوقة بما يمدح به الملوك ، فيعطي السوقي أكثر من حقه ، ويبخس الملك حقه إذا أعطى السوقي ما يعطيه ، ثم قلب القرطاس وكتب شيئاً في ظهره ، وقال : إذا جاء فادفعوه إليه ، فقرأنا ما كتبه فإذا هو :

رأيتك(١) سمح البيع والعِلق إنما يغالي به إن ضنّ بالعلق بايعه
وأحرِ بمن هانت بضائع ماله لدى البيع يوماً أن تبور بضائعه
هو الماء إن أجممته طاب وِرده ويفسده أن تستباح شرائعــه

فلما جاء الطائي أعلمناه أنا قد أوصلنا شعره ، فلم يشك أن معه جائزة قال فأين الجائزة ؟ قلنا : خذها ، ودفعنا القرطاس إليه . فلما قرأه قال : الله الله ، قد رضيت من جائزته أن تكتما هذ الشعر ، فإنه إن انتشر أفسد عليّ عمود الصناعة وكان لبخلاء الملوك مثله أعزه الله حجة . قلنا : وتهجوه ؟ قال : ما أدير لساني بهجائه ، ولكني استفدت مما وصلني به . فحكينا ذلك لمحمد فضحك وبعث إليه بمائتي دينار .

وفي رواية أن محمد بن عبد الملك عاتب أبا تمام واحتج عليه بأنه مدح غيره ، وأنه لو اقتصر عليه أغناه ، وأن كثرة مدحه للناس زهدته فيه ، وكتب إليه الأبيات الثلاثة ، فكتب إليه أبو تمام :

أبا جعفر إن كنتُ أصبحتُ شاعراً أُساهل في بيعي له من أُبايعه
فقد كنتَ قبلي شاعراً ذا رواية تساهل من هانت عليه بضائعه
وصرت وزيراً ، والوزارة مشرب يَغَصُّ به بعد اللّذاذة كارعه

---

(١) في رواية البديعي :

رأيتك سمح البيع سهلا وإنما يغالى إذا ماضن بالشيء بايعه
فأما الذي هانت بضائع بيعه فيوشك أن تبقى عليه بضائعه

وكم من وزير قد رأينا مسلطاً رأيناه قد سُدّت عليه مطالعه
ولله قوس لا تطيش سهامها ولله سيف لا تُفلّ مقاطعه

ووصف البحتري إنشاء ابن الزيات بقوله :

لتفننت في الكتابة حتى عطّل الناس فن عبد الحميد
في نظام من البلاغة ما شـ ـك امروٌ أنه نظام فريد
وبديع كأنه الزّهَر الضا حك في رونق الربيع الجديد
مشرق في جوانب السمع ما يخـ ـلقه عوده على المستعيد
ما أعيرت منه بطون القراطيـ ـس وما حُمّلت ظهور البريد
مستميل سمع الطروبِ المعنّى عن أغاني مُخارق وعبيد
حجج تُخرس الألد بألفا ظ فرادى كالجوهر المعدود
ومعان لو فصلتها القوافي هَجّنت شعر جَرْول ولبيد
حُزْنَ مستعمل الكلام اختياراً وتجنبن ظلمة التعقيد
وركبن اللفظ القريب فأدركـ ـن به غاية المراد البعيد
كالعذارى غدون في الحلل البيض إذا رُحْن في الخطوط السود

وهذا أجمل وصف لبلاغة ابن الزيات في الكتابة ، ولم يمدحه أبو تمام وأبو عبادة بشعره مع أنه كان أشعر كتاب الدولة، ومدحاه بأظهر خصائصه .

حدث عبد الله بن العباس الربيعي قال : دخل محمد بن عبد الملك الزيات على الواثق وأنا بين يديه أُغنيه وقد استغناني صوتاً فاستحسنه ، فقال له محمد ابن عبد الملك : هذا والله يا أمير المؤمنين أولى الناس بإقبالك عليه ، واستحسانك له ، واصطناعك إياه . فقال : أجل هذا مولاي وابن مولاي وابن مواليّ لا يعرفون غير ذلك . فقال له : ليس كل مولى يا أمير المؤمنين بولي لمواليه ، ولا كل مولى متجمل بولاية تجمع ما جمع عبد الله من ظرف وأدب ، وصحة عقل ، وجودة شعر . فقال له : صدقت يامحمد . فلما كان من الغد جئت محمد بن عبد الملك شاكراً لمحضره ، فقلت له في

أضعاف كلامي : وأفرط الوزير أعزّه الله في وصفي وتقريظي ، ولو كان عندي أيضاً شيء بعـــد ذلك لصغر عن أن يصفه الوزير ، ومحله في هـــذا الباب المحل الرفيع المشهور فقال : والله يا أخي لو عرفت مقدار شعرك وقولك :

يا شـــادناً رام إذ مـــرّ في السعانين [١] قتلى
يقول لي كيف أصبحـــت كيف يصبح مثلي

لما قلت هذا القول ، والله لو لم يكن لك شعر في عمرك كله إلا قولك « كيف يصبح مثلي » لكنت شاعراً مجيداً . روى هذا الأصفهاني وقال أيضاً : أخبرني الصولي قال : حدثني عون بن محمد الكندي قال : حدثني عبد الله بن العباس ابن الفضل بن الربيع قال : وصفني محمد بن عبد الملك للمعتصم ، وقال : ما له نظير في ملاحة الشعر والغناء والعلم بأمور الملوك ، فلقيته فشكرته وقلت : جعلت فداءك أتصف شعري وأنت أشعر الناس ألست القائل :

ألم تعجب لمكتئب حزين خديم صبابة وحليف صبر
يقول إذا سألت به بخير وكيف يكون مهجور بخير

قال وأين هذا من قولك :

يقول لي كيف أصبحت كيف يصبح مثلي
ماء ولا كصدّاء ومرْعى ولا كالسّعدان [٢]

كتب الحسن بن وهب إلى محمد بن عبد الملك : سروري ، أعاذ الله حياتك ، إذ رأيتك كوحشتي لك إذا لم أرك ، وحفظي لك في مغيبك ،

---

(١) السعانين : عيد للنصارى قبل الفصح بأسبوع يخرجون فيه بصلبانهم (القاموس) .
(٢) صداء : اسم ركية عذبة الماء ، وسعدان نبت وهو من أفضل مراعي الإبل ، والجملة من أمثال العرب .

كمودتي لك في مشهدك ، وإني لصافي الأديم ، غير نَغل ولا متغير ، فامنحني من مودتك مزن لذاذة مشربك ، وكن لي كأنا ، فوالله ما عجبت عن ناحيتك إلا وأنا محنيّ الضلوع إليك والسلام . فكتب إليه محمد : يا أخي ما زلت عن مودتك ، ولا حلت عن أخوتك ، ولا استبطأت نفسي لك ، ولا استزدتها في محبتك ، وإن شخصك لماثل نصب طرفي ، ولقل ما يخلو من ذكرك قلبي ، ولله در الذي يقول :

أما والذي لو شاء لم يخلق النوى   لئن غبت عن عيني لما غبت عن قلبي
يذكرنيك الشوق حتى كأنني   أُناجيك من قرب وإن لم تكن قربي

هذا إجمال ما أمكن الوقوف عليه من حياة ابن الزيات وصفاته ، بقي أن نقول ما انتهى اليه مصيره بعد أن خدم الدولة العباسية بروحه وقلبه وعينه ، فقد ذكر أرباب السير أن المتوكل كان في نفسه شيء منه قبل أن يتولى الخلافة لأن محمداً كان أشار بتولية ولد الواثق بدلاً من أخيه المتوكل ، وأشار ابن أبي داود بتولية المتوكل . وقيل كان ابن الزيات يتجهم للمتوكل في أيام الواثق ، ويغلظ عليه الكلام ، فحقد المتوكل عليه ، فلما ولي الخلافة قتله مخدوعاً بالذين قالوا له إنه كان صاحب أموال كثيرة ، فلما قتله بعد أربعين يوماً من توليته لم ير جميع ما يملك من الضياع والأملاك والذخائر إلا ما كانت قيمته مئة ألف دينار فندم على ذلك . وقيل إن المتوكل قال لابن أبي داود : أطمعتني في باطل ، وحملتني على شخص لم أجد عنه عوضاً . ذلك لأن هذه الثروة تافهة لمن تولى الوزارة أربع عشرة سنة ، وكان أهله أغنياء موسرين . وقضى ابن الزيات نحبه في التنور الذي قيل إنه كان اتخذه أيام وزارته من حديد وأطراف مساميره المحدودة إلى داخل وهي قائمة مثل رأس المسالّ ، وكان يعذب فيه المصادرين وأرباب الدواوين المطلوبين بالأموال . وكان يقول لنفسه قبل موته بيومين أو ثلاثة : يا محمد بن عبد الملك لم تقنعك النعمة والدواب الفُره ، والدار النظيفة والكسوة الفاخرة ، وأنت

في عافية حتى طلبت الوزارة ، ذقْ ما عملت بنفسك .فكان يكرر ذلك على نفسه فلما كان قبل موته بيوم ذهب عن عتاب نفسه ، فكان لا يزيد على التشهد وذكر الله . وراح أعداؤه يصنعون عن لسانه أقوالاً وأشعاراً ربما لم يقلها ، ويزوّرون ما يحاولون به إلقاء الغطاء على محاسنة الكثيره .

نموذج من انشائه :

لم يؤلف ابن الزيات كتاباً في موضوع خاص ، صرف جميع ما أوتيه من موهبة البلاغة في رسائل الدولة ، وذكروا ان له كتاب رسائل قدره خمسون ورقة ولم يعثر عليه ، والمعقول أن يكون خلف مئات من الأوراق ، والباقي اليوم من رسائله في دوواوين الأدب لا يتجاوز بضع صفحات ، وله ديوان شعر رائق ؛ ومن كتبه عهد الواثق على مكة كتبه بحضرة المعتصم وهو : « أما بعد فإن أمير المؤمنين قد قلدك مكة وزمزم، وتراث أبيك الأقدم ، وجدك الأكرم ، وركضة جبريل ، وسقيا إسماعيل ، وحفر عبد المطلب ، وسقاية العباس ، فعليك بتقوى الله تعالى والتوسعة على أهل بيته » ، وهذا من الإيجاز المعجب الذي تمليه قريحة اعتادت البديهة واعتادت الروية ، وما أحلى قوله : « ركضة جبريل وسقيا إسماعيل » ، وهي من التعابير التي يفترعها أمثاله من الكاتبين .

* * *

أمر الواثق ابن الزيات أن يتلطف بعبد الله بن طاهر ، ويعلمه أنه صرفه عن أمر الجزائر والعواصم ، وفوّض ذلك لابن عمه إسحق بن إبراهيم ، فكتب : « أما بعد فإن أمير المؤمنين رأى أن يخلع ما في يمينك من أمر الجزائر والعواصم فيجعله في شمالك ، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته » ، وليس في الوصول إلى الغرض مع مراعـــاة المكتوب إليه ، أوجز ولا ألطف من هذا السطر .

* * *

لما بويع المتوكل أمر بالكتاب إلى الناس باعتمادهم على اللقب الذي لقب به ، وكتب ذلك ابن الزيات : « بسم الله الرحمن الرحيم » . أمر أبقاكَ الله أمير المؤمنين أطال الله بقاءه ، أن يكون الرسم الذي يجري به ذكره على أعواد منابره ، وفي كتبه إلى قضاته وكتابه وعماله وأصحاب دواوينه وغيرهم ، من سائر من تجري المكاتبة بينه وبينه « من عبد الله جعفر الإمام المتوكل على الله أمير المؤمنين » فرأيك في العمل بذلك ، وإعلامي بوصول كتابي إليك موفق إن شاء الله .

* * *

وكتب إلى الحسن بن وهب : يجب على المرؤوس إذا تجاوز به الرئيس حق مرتبته بعمله ، وكان تفضيله إنما وقع له بخفته على القلب ، ومحله من الأدب ، أن يقابل ذلك بمثله ، إن كان محامياً على محله ، وإلاّ فلا يؤمن عليه .

* * *

وكتب : إن حق الأولياء على السلطان تنفيذ أُمورهم ، وتقويم أودهم ، ورياضة أخلاقهم ، وأن يميز بينهم فيقدم محسنهم ، ويؤخر مسيئهم ، ليزداد هؤلاء في إحسانهم ، ويزدجر هؤلاء عن إساءتهم .

* * *

وفصل له : إن من أعظم الحق حق الدين ، وأوجب الحرمة حرمة المسلمين ، فحقيق لمن راعى ذلك الحق ، وحفظ تلك الحرمة ، أن يراعي له حسب ما راعاه الله ، ويحفظ له حسب ما حفظ الله على يديه .

* * *

وفصل له : إن الله أوجب لخلفائه على عباده حق الطاعة والنصيحة ،

ولعبيده على خلفائه بسط العدل والرأفة ، وإحياء السنن الصالحة ، فإذا أدّى كل إلى كل حقه ، كان ذلك سبباً لتمام المعونة ، واتصال الزيادة ، واتساق الكلمة ، ودوام الألفة .

* * *

فصل : ليس من نعمة يجددها الله لأمير المؤمنين في نفسه خاصة ، إلا اتصلت برعيته عامة ، وشملت المسلمين كافة ، وعظم بلاء الله عندهم فيها ، ووجب عليهم شكره عليها ، لأن الله جعل بنعمته تمام نعمتهم ، وبتدبيره وذبه عن دينه حفظ حريمهم ، وبحياطته حقن دمائهم وأمن سبيلهم ، فأطال الله بقاء أمير المؤمنين منطوي القلب على مناصحته ، مؤيداً بالنصر ، معززاً بالتمكين ، موصول البقاء بالنعيم المقيم .

* * *

وله : الحمد لله الذي جعل أمير المؤمنين معقود النية بطاعته ، منطوي القلب على مناصحته ، مستحوذ السيف على عدوه ، ثم وهب له الظفر ، ودوخ له البلاد ، وشرد به العدو ، وخصه بشرف الفتوح ، شرقاً وغرباً ، وبراً وبحراً .

* * *

وله : أفعال أمير المؤمنين عندنا معسولة كالأماني ، متصلة كالأيام ، ونحن نواتر الشكر لكريم فعله ، ونواصل الدعاء له مواصلة برّه ، إنه الناهض بكلنا ، والحامل لأعبائنا ، والقائم بما ناب من حقوقنا .

* * *

وله : أما بعد فقد انتهى إلى أمير المؤمنين كذا فأنكره ، ولا يخلو من إحدى منزلتين ، ليس في واحدة منهما عذر يوجب حجة ، ولا يزيل لائمة : إما تقصير في عملك دعاك للإخلال بالحزم ، والتفريط في الواجب ،

وإما مظاهرة لأهل الفساد ، ومداهنة لأهل الريب ، وأية هاتين كانت منك مُحِلّةُ النكر بك ، وموجبة العقوبة عليك ، لولا ما يلقاك به أمير المؤمنين من الأناة والنّظِرة ، والأخذ بالحجة ، والتقدم في الأعذار والإنذار ، على حسب ما أقلت من عظيم العثرة ، وما يجب اجتهادك في تلافي التقصير والإضاعة والسلام .

* * *

والمظنون أن الكتاب الذي كتب عن المعتصم إلى ملوك الآفاق من المسلمين عند قبض الإخشيد على بابك الخرَّمي ، ونقله القلقشندي (صبح الأعشى ص ٤٠٠ ج ٦) ، هو من كتابة محمد بن عبد الملك الزيات ، لولا ما يحول دون هذا الظن من أثر التطويل فيه ، وعلى كل فهو مما كتب تحت إشرافه لأن بابك قتل سنة ٢٢٣ ، وابن الزيات تولى الوزارة في سنة ٢٢٠ ، والكتاب بأسلوب ابن الزيات أشبه ، لا تكلف في ألفاظه وتراكيبه ، ويستعبد أن لا يجول قلم ابن الزيات في هذا الموضوع الخطير ، الذي أقام الخلافة وأقعدها ؛ ومما جاء فيه بعد التحميد : ولا يعلم أمير المؤمنين — مع كثرة أعداء الإسلام وتكنفهم إياه من أقطاره ، والضغائن التي في قلوبهم على أهله ، وما يترصدونه من العداوة ، وينوطون عليه من المكايدة ، إذ كان هو الظاهر عليهم ، والآخذ منهم — عدوّاً كان أعظم بلية ، ولا أجل خطباً ، ولا أشد كلَباً ، ولا أبلغ مكايدة ، ولا أرمى بمكروه ، من هؤلاء الكفرة الذين يغزوهم المسلمون ، فيستعلون عليهم ، ويضعون أيديهم حيث شاءوا منهم ، ولا يقبلون لهم صلحاً ، ولا يميلون معهم إلى موادعة ، وإن كان لهم على طول الأيام وتصرف الحالات وبعض مالا يزال يكون من فَتَرات ولاة الثغور أدنى دولة من دولات الظفر ، وخُلسة من خلس الحرب ، كان بما لهم من خوف العاقبة في ذلك منغصاً لما تعجلوا من سروره ، وما يتوقعون من الدوائر بعد مكدراً لما وصل إليهم من فرحة .

فأما اللعين بابك وكَفرَته ، فإنهم كانوا يَغْزُون أكثر مما يُغزون ، وينالون أكثر مما يُنال منهم ؛ ومنهم المنحرفون عن الموادعة ، المتوحشون عن المراسلة ، ومن أديلوا (١) من تتابع الدول ، ولم يخافوا عاقبةً تدركهم ، ولا دائرة تدور عليهم ، وكان مما وطّأ ذلك ومكّنه لهم أنهم قوم ابتدأوا أمرهم على حال تشاغل السلطان ، وتتابع من الفتن ، واضطراب من الحبل ؛ فاستقبلوا أمرهم بغرّة من أنفسهم وضعف ، واستثارة ممن باراهم ، فأجلوْا من حولهم لتخلُص البلاد لهم ، ثم أخربوا البلاد ليعز مطلبهم ، وتشتد المؤنة وتعظم الكلفة ، ويقوَوْا في ذات أيديهم ، فلم يتوافَ إليهم قواد السلطان ، إلا وقد توافت إليهم القوة من كل جانب ، فاستفحل أمرهم وعظمت شوكتهم ، واشتدت ضروراتهم ، واستجمع لهم كيدهم ، وكثر عددهم واعتدادهم ، وتمكنت الهيبة في صدور الناس منهم ، وتحقق في نفوسهم أن كل ما يَعدهم الكافر ويُمنّيهم أخذٌ باليد ، وكان الذي بقي عندهم منه كالذي مضى ، وبدون هذا ما يُختَدَع الأريب ، ويستنزل العاقل ، ويُعْتَقَل الفطن ، فكيف بمن لا فكرة له ، ولا روية عنده .

هذا مع كل ما يقوم في قلوبهم من حسد أهل النعم ، ومنافستهم على ما في أيديهم ، وتقطعهم حسراتٍ في إثر ما خُصوا به ، وأنهم إن لا يكونوا يرون أنفسهم أحق بذلك ، فإنهم يرون أنهم فيه سواء .

وفيه : فأعدَّ (أمير المؤمنين) من أمواله أخطرها ، ومن قواد جيشه أعلمهم بالحرب ، وأنهضهم بالمعضلات ، ومن أوليائه وأبناء دعوته ودعوة آبائه — صلوات الله عليهم — أحسنهم طاعة ، وأشدهم نكاية ، وأكثرهم عُدة ، ثم اتبع الأموال بالأموال ، والرجال بالرجال ، من خاصة مواليه وعدد غلمانه ، وقبل ذلك ما اتكل عليه من صُنع الله عز وجل ، ووجه

---

(١) أدالنا الله من عدونا من الدولة والإدالة : الغلبة .

إليه من رِعيته ؛ فكيف رأى الكافر اللعين وأصحابه الملاعين ؟ ألم يكَذّب الله ظنونهم ، ويشف صدور أوليائه منهم ؟ يقتلونهم كيف شاؤوا في كل موطن ومعترك ، ما دامت عند أنفسهم مقاومة .

وفيه : فلما حصرهم الله وحبسهم عليهم ودانتهم مصارعهم ، سلطهم الله عليهم كيدٍ واحدة ، يختطفونهم بسيوفهم ، وينتظمونهم برماحهم ؛ فلا يجدون ملجأ ولا مهرباً ، ثم أمكنهم من أهاليهم وأولادهم ونسائهم وحُرَمهم ، وصيروا الدار دارَهم والمحلة مَحِلتهم ، والأموال قَسْماً بينهم ، والأهل إماء وعبيداً ؛ وفوق ذلك كله ما فعل بهؤلاء ، وأعطاهم من الرحمة والثواب ، وما اعد لأولئك من الخزي والعقاب ، وصار الكافر بابك لا فيمن قتل فسلم من ذل الغَلَبة ، ولا فيمن نجا فعاين في الحياة بعض العوض ، ولا فيمن أُصيب ، فيشتغل بنفسه عن المصيبة بما سواه .

وجاء في خاتمته : فالحمد لله الذي أعز دينه ، وأظهر حجته ، ونصر أولياءه ، وأهلك أعداءه ، حمداً يُقضى به الحق ، وتتم به النعمة ، وتتصل به الزيادة ، والحمد لله الذي فتح على أمير المؤمنين وحقق ظنه ، وأنجح سعيه ، وحاز له أجر هذا الفتح وذُخره وشرفه ، وجعله خالصاً لتمامه وكماله ، بأكمل الصّنع وأحسن الكفاية .

* * *

كان ابن الزيات يقول : احذروا الصديق الجاهل أكثر من حذركم العدو العاقل ، فليس من أساء وهو يعلم أنه مسيء كمن أساء وهو يظن أنه يحسن . ومن شعره :

لو كان يمنع حسن الوجه صاحبه من أن يكون له ذنب إلى أحد
كانت عليم أبر النـــاس كلهم من أن تكافا بسوء آخر الأبد

ومنه :

مالي إذا غبت لم أُذكر بصالحة   وإن مرضت وطال السقم لم أُعد
ما أعجب الشيء ترجوه فتحرمه   قد كنت أحسب أني قد ملأت يدي

ذكر ابن المدبر في الرسالة العذراء أنهم لم يجيزوا أن يكتبوا بمثل « أبقاك الله وأمتع بك » إلا إلى الحرمة والأهل والتابع والمنقطع إليك ، وأما في كتب الإخوان فغير جائز بل مذموم مرغوب عنه ، ولذلك كتب عبد الله ابن طاهر إلى محمد بن عبد الملك الزيات :

أحلت عما عهدت من أدبك   أم نلت ملكاً فتهت في كتبك
أم هل ترى أن في التواضع للإخوان نقصاً عليك في حسبك
أتعبت كفيك في مكاتبتي   حسبك مما يزيد في تعبك
إن جفاء كتاب ذي أدب   يكتب في صدره « وأمتع بك »

فكتب إليه ابن الزيات :

أنكرتَ شيئاً فلست فاعله   فلن تراه يُخَطّ في كتبك
فاعفُ، فدتك النفوس، عن رجل   يعيش حتى الممات في أدبك
كيف أخون الإخاء يا أملي   وكل شيء أنال من سببك
إن يك جهلاً أتاك من قبلي   فَعُدْ بفضل عليّ في أدبك

* * *

تعشق محمد جارية ، فبيعت من رجل من أهل خراسان وأخرجها ، فذهل عقله حتى خشي عليه ، ثم أنشأ يقول :

يا طول ساعات ليل العاشق الدنف   وطول رعيته للنجم في السدف[1]

---

(١) السدف : محركة الصبح وإقباله ، وسواد الليل كالسدفة . والدنف : محركة المرض الملازم .

ماذا توارى ثيابي من أخي حُرَقٍ ... كأنما الجسم منـــه دقة الألف
ما قال يا أسفي يعقوب من كمد ... إلا لطول الذي لاقى من الأسف
من سره أن يرى ميت الهوى دنفاً ... فليستدل عَلى الزيات وليقف

* * *

وكان محمد بن عبد الملك يحب بعض جواري القيان ، ثم تنكر لها ، فكتبت على خاتم لفظاً تعرّض فيه بالعتاب ، فبلغه ذلك ، فكتب على خاتمه ضد ما كتبت ، فبلغها فمحت ما كان على خاتمها، وكتبت ضد ما كتب ، فبلغه ذلك ، فمحا ما كان على خاتمه ، وكتب ضد ذلك في أبيات يقول فيها :

كتبت عَلى فَص لخاتمها ... من ملّ من أحبابه رقدا
فكتبت في فَصّي ليبلغها ... من نام لم يشعر بمن سهدا
فمحته واكتتبت ليبلغني ... ما نام من يهوى ولا هجدا
فمحوته ثم اكتتبت أنا ... والله أول ميت كمـــدا
قالت يعارضـــني بخاتمه ... والله لا كلمتـــه أبـــدا

وقال :

أترحل والذي تهوى مقيم ... لعمرك إن ذا خطر جسيم
إذا ما كنت للحدثان عوناً ... عليك وللزمـــان فمن تلومُ

ومن شعره في العيادة :

ونعود سيدنا وسيد غيرنا ... ليت التشكي كان بالعُوّاد
لو كان يقبل فدية لفديته ... بالمصطفى من طارفي وتلادي

وقال في عباس بن المأمون وقصته أيام عمورية :

حلفة ما حلفت لا تعبر اللّ ... كام مبرورة من الايمـــان
رب حنث فيه النجاة وبر ... قد أحلّ الفتى بدار هوان

وقال :

أباح الدمع سرّاً لم أبحه ... فدمعي آفتي لا تظلميني

فما ذنبي إذا كانت دموعي ... تعين عليَّ أسباب المنون
إذا ظن الجليس ببعض مابي ... يبين لعينه وجه اليقـين
ونرمى بالظنون إذا التقينا ... فتكشف لمحيّ لبس الظنون

وله :

تمكنت من قتلي فأزمعت قتلها ... على غير عمد منك والروح تذهب
كعصفورة في كف طفل يسومها ... ورود حياض الموت والطفل يلعب

وله :

وعائب عابني بشيبي ... لم يَعْدُ لما ألمَّ وقتَه
فقلت إذ عابني بشيبي ... يا عائب الشيب لا بَلَغْته

ومن قصائده قصيدته التي أغرى فيها بإبراهيم بن المهدي في أيام المأمون ، عند رضى المأمون عنه ، وعدد فيها ما كان منه عند دعائه إلى نفسه ، وأولها :

ألم تر أن الشيء للشيء علة ... يكون له كالنار تقدح بالزند

وقال في جارية يهواها اسمها عذر :

يا عذر زين باسمك العذر ... وأسا ولم يحسن بك الدهر
وهي التي قالت وقد جعلت ... تنسـل من وجناتها الحمر
أكمد بدائك هل رأيت كذا ... بدر يلوح بخـده البـدر

ورأته هذه الجارية في ليلة أربع عشرة من الشهر فقال :

بدر بدا في ليلة البـدر ... في ليـلة الأربع والعشر
لـذلك الشهر له شاهـد ... لا ينقضي الدهرَ له شكري
أطلع بدرين وما عهـدنا ... بأن نرى بدرين في شهر
وَيْلي من بدرين في ليلة ... كلاهمـا في صورة يسري

ومن هذه المقاطيع عرفنا أيضاً أن ابن الزيات كان رجل صبابة ودعابة ، ورقة طبع وحاشية ، وجميل إخاء ووفاء .

عمرو بن بحر الجاحظ

عصره :

كان عصر الجاحظ عصر استقرار وازدهار ، ثبتت قواعد الدولة العباسية على عهد الرشيد وابنيه المأمون والمعتصم ، واطردت سياستها ، وخيف سلطانها ، وعظم شأنها ، ولم يكدر صفاء تلك الحقبة غير الحرب التي نشبت بين الأمين والمأمون ، للنزاع على ولاية العهد ، فسالت الدماء في خراسان والعراق ، وأنفق الأمين الأموال ، حتى إذا استقل أخوه المأمون بالخلافة ، عادت الأمور إلى مجراها الأول في عهد الرشيد وأبيه المهدي وأخيه الهادي . ثم اختلت الدولة بعد عهد الواثق ، فقتل المتوكل والمستعين والمعتز من خلفائهم .

وكانت العلائق السياسية بين ملوك العباسيين وملوك غربي أوربا مثل « شارلمان وپيپن » على غاية الوئام ، يتبادل العباسيون مع ملوك الإفرنج السفراء والهدايا ، ويريد بنو العباس من هذا التلطف على الغالب أن يقف الإفرنج بالمرصاد لدولة الأندلس . أما دولة روم القسطنطينية ، فكانت في بلاء من جيش بني العباس إلى زمن الواثق ، يغزوها في الأحايين فيظفر ويغنم ، حتى اضطرت أن تؤدي للعباسيين جزية سنوية .

وعرف الرشيد أن دولة الأمويين في الأندلس أخذت كدولته تعرج معارج الحضارة ، وتأخذ من كل وجه بأسباب القوة ، فحاذر تقدمها نحو

بلاده ، ورأى أن يقيم أمامها حاجزاً في إفريقية من دولة الأغالبة ، فمنح هذه شبه استقلال ، وقام بعض العلويين وغيرهم على عهد الرشيد ، فقاتلهم بجزء من جيشه ، فأيقنوا أن لا سبيل إلى تحقيق رغائبهم في قلب أوضاع الدولة ، وعادوا بما لاقوا من الجدّ في استئصالهم يعتصمون بالتقية ، وأرجأ بقايا السيوف منهم بثَّ دعوتهم جهرةً إلى الوقت المناسب .

وأهم ما تم من الخير للعلم بعد القضاء على الزنادقة على عهد المهدي ، وتقطيع كتبهم كتقطيع أوصالهم ، استمتاع أرباب العقول بحرياتهم ، فأنشأوا يفكرون على ما يشاؤون في نطاق الإسلام ، لا يخرجون عن رُخَصه وعزائمه ، وكثر الباحثون والدارسون ، وأخذ الخلفاء والأمراء بأيدي من أتقنوا فنهم وعلمهم ، واشتد الغرام بنقل العلوم المادية اشتداده في تدوين العلوم الدينية ، وفي هذا الزمن نبغ عظماء في علوم الدين ، وعظماء في علوم الدنيا ، وعظماء في الآداب والفنون ، وعظماء في الحرب والسياسة ، وكان كل من تفرَّد بضرب من ضروب العلم والأدب يلقى من الخلفاء على الأكثر أنواع التجلّة والإكرام ، ويخلع عليه كل جميل .

وفي هذا الدور نبغ أئمة المذاهب الأربعة التي وقع الاكتفاء بها عند أهل السنة ، ودوّن مذهب مالك وأبي حنيفة وغيرهما ، وتم تدوين الحديث وتدوين اللغة والشعر ، وكثر عظماء القراء ، وزاد عدد النقلة من الفارسية والسريانية واليونانية ، وراجت الوراقة رواجاً عظيماً ، لما بدأ الملوك يجمعون خزائن كتب في قصورهم ، ويقيمون دُور الحكمة في عاصمة الخلافة ، وعَلق الأمراء وعِلْية الأمة يتنافسون في اقتفاء آثار خلفائهم في خدمة الآداب ، يُحْظُون ويُعْطُون كل من ينقل لهم ضرباً جديداً من المعارف . وبعد أن كانت البصرة والكوفة مستأثرتين بالحركة العلمية ، شاركتهما بغداد بهذا الشرف ، ثم أربت عليهما منذ وافاها أهل الفضل من الأمصار ، فما هي إلا أعوام قليلة حتى أصبحت بغداد مدينة علم ، وكانت من قبل مدينة ملك ، بما نُقل من صنوف العلم إلى الخلفاء وأتباعهم .

وأيقن أرباب البصائر أن الدنيا لا تأتي من غير طريق الكفاية ، وأن « كل عزّ لم يؤكد بعلم فإلى ذل يؤول » فانكبوا على التأدب ، وحرص أرباب اليسار على تثقيف أبنائهم ، وكان إذا تفرس رب البيت في ولده ذكاء جاءه بالمؤدبين يلقنونه ما تشتهي نفسه من الآداب ، ولذا أصبح التعليم صناعة ، وحسن عيش المؤدبين ؛ وغدا التأديب أيضاً طريقاً إلى المجد والسؤدد ، على ما أمست منادمة الملوك والأمراء صناعة برأسها ؛ وقد يبلغ سلطان النديم في قصور العظماء ما لا يبلغه سلطان الوزراء والكتاب ، وهو ابن الخلوة والجلوة ، والمؤتمن على الحُرَم والأسرار .

عمرت مجالس العلم والأدب ، وأمست دور الكبراء مثابة المفَنّين والإخصائيين ، يغشاها أرباب الأفكار ، وحملة الآثار والأشعار ؛ والعهد بعلماء البصرة يختلفون إلى المسجد والمِرْبد ، وكان المسجديون والمِرْبَديون جماعاً من شُعب الأدب والرواية ، والعهد بالكوفة يختلف المنورون من بنيها إلى الكُناسة مجمع الشعراء والأدباء ، ومسجدهم مجمع علمائهم ، ومغنى قرائهم ، والمنافسة بين المصرين ، الكوفة والبصرة ، في الفقه والحديث واللغة والنحو والتصريف مشهورة مذكورة ، وبغداد تنعقد مجالسها ، وتغص مساجدها بأرباب العقول وحَفَدة الشريعة ، وقادة الفكر ، وشعراء الحضارة ، وأمراء البلاغة .

وهناك مجالس اللهو يَعرض فيها الموسيقاريون والمغنون فنهم ، ويتبارى أرباب النعيم والرفاهية في اقتناء المسْمِعات والقَيْنات ، وغدت الجارية التي تجد من نفسها طبيعة مؤاتية في هذا الفن ، تتوفر في هذا على إتقانه ، وتلْقَف ما يستلزم فنها من أدب وشعر ؛ فجاء منهن أديبات وشاعرات ، وغدا لكل قريحة قيمة ، ولكل أدب خُطّاب ، والناس يتمزون طعم الحياة ، ويَنعمون بمباهجها ، وأصبح المسلمون ولا سيما أهل الدولة ومن والاهم ، بعيدين عن حياة التزمت والتخافت بُعْدَهم عن الأمية ، وراحوا يحضرون مجالس الغناء على تصوّن وتعفف

غالباً ، وخف الإنكار على من عرفوا بهذا الشأن ، وأنشأت معظم الطبقات تألف ذلك من غير نكير .

وأثارت الرعية الأرض وعَمَروها ، ففاضت الثروة ، وامتلأت خزائن الدولة بالأموال ، وزاد العمران ، وجدَّ كل عامل في ناحيته أن ينفق جانباً من الجباية على ما يزيد في ريع بلده ونمائه ، وغدا غرام معظم الخلفاء بتنظيم أمور الرعية ، يوازي غرامهم في دفع كل معتد على سلطانهم .

وكانت البصرة ميناء العراق الكبرى من أعظم ما تكون عليه الفُرَضُ البحرية في الدول العظمى ، تبادل تجارة بلاد العرب مع موانىء المحيط الهندي حتى الصين ، ويغشاها أصناف من شعوب الشرق في آسيا وإفريقية ، والبصري كالحميري مشهور بأسفاره ومغامراته ، وأصبح البحر الرومي بحراً عربياً ، وتراجع الروم إلى موانيء بلادهم ، وغدا السلطان الأكبر فيه لأساطيل مصر والشام وإفريقية والأندلس ، واعتزلت شعوب جنوبي أوروبا في موانيها لا يبحر لها سفين ، ولا تحمل لهم بضاعة ؛ والعرب بما عرف من مرانهم على التجارة يتولون كبرها في البر والبحر ، والزراعة والصناعة على الأعم الأغلب في أيدي أبناء الذمة من السريان والعجم والقبط والبربر وغيرهم ؛ وتعينت حدود الاختصاص بالصناعات اليدوية والعلمية ، وقلَّ في الناس المتشائمون وكثر المترفون .

كتب الرواج في هذا العصر لكل صناعة ولكل بضاعة ، واستوت شعوب المملكة العباسية أمة ذات حضارة مقررة ، وربة شخصية ظاهرة ؛ وكان حظ الجميع سواء في الاستمتاع بالأمَنَة والسلامة ، وعلى قدر كفاية الكفء ، وإخلاص المخلص للدولة ، يَخْلُص الناس إلى المراتب والمناصب ، وعلى نسبة عمل العاملين في صنوف الأعمال يغتنون ويسعدون ، لا يخاف الناس إلا أنفسهم ، ولا يُلْزَمون أن يقدموا حسابهم لغير ديّانهم وسلطانهم ؛ فحضارة هذا العهد حضارة صقلها الإسلام والعربية ، واشترك في خدمتها

أهل كل نحلة وملة ، ووقف كل امرئ عند حده ، ليس له أن ينكر على من يناقش إلا ببرهان ، وقلما تعدى حِجاج المتجادلين أبواب المجامع والجوامع والمجالس الخاصة ، وصفحات الأسفار والرسائل ، فهذا العصر هو خير عصور بني العباس على الناس ، وفيه سَعِدَ العلم ، وسعدت البلاغة بنبوغ الجاحظ .

نشأته ونعمته :

هو عمرو بن بحر بن محبوب الكناني الليثي ، من بني كنانة بن خُزَيْمة ، والد النضر أبي قريش ، وبنو كنانة بطن من مضر يقال لهم كنانة طلحة ، والليثي نسبة إلى الليث بن بكر بن عبد مَنَاة بن كنانة بن خُزيمة بن مُدْركه ، وإلى هذه القبيلة ينتسب أبو عثمان الجاحظ ، وقيل إنه كان مولى أبي القَلَمّس عمرو بن قِلَع الكناني ثم الفُقيمي . فهو كناني صليبة خالص النسب ، وكان جده فزارة أسود اللون ، وكان جمالاً لعمرو بن قلع ، وأُطلق على عمرو اسم « الجاحظ » لنتوء عينيه ، ويقال له « الحَدَقي » لذلك ، وكان مشوَّه الخلقة ، فكأن ما نقص من صورته استوفاه من ذكائه وعقله .

ولد في البصرة حوالي سنة ستين ومائة ، وتوفي والده وهو طفل ، فلما ترعرع تعلم الخط والقراءة في أحد كتاتيب بلده ، وأخذ مذ كان يافعاً يتلقى الفصاحة شفاهاً عن العرب في المِرْبد ، وكان المربد اشهر محالّ البصرة ، وبه كانت في الإسلام مفاخرات الشعراء ومجالس الخطباء ، على مثال سوق عُكاظ بين نَخْلَة والطائف في الجاهلية . واتصل بعظماء في الدين والآداب ، مثل الأصمعي ، وأبي زيد الأنصاري ، وأبي عبيدة مَعْمَر بن المثنّى ، والأخفش ، والنظام إبراهيم بن سيار البلخي ، وصالح بن جناح اللَّخْمي . أخذ اللغة والأدب عن الثلاثة الأولين ، والنحو عن الأخفش ، والكلام عن النظام ، والحكمة عن ابن جناح .

وحدّث عن ثُمامة بن أشرس النميري المتكلم ، ويزيد بن هارون ، والسري بن عبدويه ، والقاضي أبي يوسف يعقوب بن إبراهيم ، والحجاج محمد بن حماد بن سلمة وروى عنه أبو بكر عبد الله بن أبي داود السجستاني ، ومحمد بن عبد الله بن أبي الدلهاب ، ودعامة بن الجهم ، وأبو سعيد الحسن ابن علي العدوي ، وأبو العباس محمد بن يزيد المبرّد ، ويموت بن المزرَّع ، وأبو العَيناء محمد بن القاسم . وقال عن نفسه إنه جلس إلى أبي عبيدة والأصمعي ويحيى بن نجيم وأبي مالك وعمرو بن كركرة مع من جالس من رواة البغداديين .

أولئك الذين عرفوا ممن أخذ الجاحظ عنهم ومنهم نَجَم ، وهؤلاء الذين أخذوا عنه الحديث وغيره ، فكان له في كل حلقة من حلاق البصرة متنفس . وإذا نظرنا في اختصاص اساتيذ الجاحظ من غير المحدثين ، نرى الأصمعي ممن جمع شتيت اللغة في الشجر والنبات والإبل والشاء والوحوش وغير ذلك ، وقالوا إنه كان يحفظ ثلث اللغة كما كان الخليل يحفظ نصفها وابن كركرة يحفظها كلها . وصنف أبو عبيدة في البازي والحمام والعقارب والحيات والزرع « وكان الغريب أغلب عليه وأخبار العرب وأيامهم » وكان يرى رأي الخوارج ، ووصفه تلميذه بأنه لم يكن في الأرض خارجي ولا جماعي أعلم بجميع العلوم منه ، وألف أبو زيد الأنصاري في القوس والترس والقضيب والإبل والوحوش ، وخلق الإنسان والمطر والنبات ؛ وكان هؤلاء الثلاثة في عصرهم « أئمة الناس في اللغة والشعر وعلوم العرب لم ير قبلهم ولا بعدهم مثلهم ، عنهم أُخذ جلّ ما في أيدي الناس من هذا العلم بل كله » . كان الأخفش الأوسط من أعلم الناس بالنحو والتصريف ، وصالح بن جناح كان ممن أدرك التابعين ، وكلامه مستفاد في الحكمة كما قال ابن عساكر ، أخذ عنه الجاحظ في نيسابور ؛ أما النظام ، شيخ المعتزلة وإمام الأئمة فقد كان من جملة ما يحفظ القرآن والتوراة والإنجيل والزبور وتفسيرها ، مع كثرة حفظه الأشعار والأخبار واختلاف الناس في الفتيا ، وقد وصفه الجاحظ بقوله : إن الأوائل يقولون في كل ألف سنة رجل لا نظير له ،

فإن كان ذلك صحيحاً فهو أبو اسحق النظام . وقال انه ما رأى أحداً اعلم بالكلام والفقه منه . وقال عن نفسه : إنه وجد عند أدباء الكتاب كابن وهب وابن الزيات ما لم يجده عند مشايخه الذين أخذ عنهم الشعر والأدب ، وبهم عرف ماهية الشعر ، وقام بحق الأدب والكتابة .

هذه أوجه الدراسة التي وجهت اليها مدارك الجاحظ ، وهؤلاء أشهر أساتذته . أحكم فنون الأدب والأخبار واللغة والكلام والحكمة ، أي تثقف بالثقافة الراقية لعهده ، وزاد على هذه العلوم النظرية أنه أعمل فكره فيما تعلم ، وحلل المسميات كما تعلم الأسماء ، واتسع عقله للاشتغال بمسائل مهمة من الدين ، فكان صاحب مذهب وأتباع ، والغالب أنه كان يعرف الفارسية . وكان مولعاً بالكتب ، يكثر الاختلاف إلى الوراقين في البصرة وبغداد ، يقضي في حوانيتهم ساعات « حدث أبو هفان قال : لم أر قط ولا سمعت من أحب الكتب والعلوم أكثر من الجاحظ فإنه لم يقع بيده كتاب قط إلا استوفى قراءته كائناً ما كان ، حتى إنه كان يكتري دكاكين الوراقين ويبيت فيها للنظر » وله ورّاق خاص .

روى الخطيب البغدادي عن محمد بن سليمان الجوهري قال : كنا نصحب الجاحظ على سائر أحواله من جد وهزل ، قال : فخرجنا يوماً لنزهة ، فبينا نحن على باب جامع البصرة ننظر شيئاً أردناه ، إذ عارضت امرأة معها أوراق مقطعة ، فعرضت ذلك علينا فلم نجد فيها طائلاً ، فتركناها وانصرفنا ، وتخلف معها الجاحظ ونحن ننتظره فأطال ، ثم رأيناه قد وزن لها شيئاً ، وأخذ الأوراق وقال : انتظروني ، ومضى بها إلى منزله ؛ فلما عاد أخذنا نهزأ به ويقول : فزت بقطعة من العلم وافرة ، وضحكنا فقال : أنتم حمقى والله ، إن فيها ما لا يوجد إلا فيها ، ولكنكم جهال لا تعرفون النفيس من الخسيس .

نشأ الجاحظ من أبوين فقيرين ، قيل إنه رؤي بسيحان أحد أنهار البصرة

يبيع الخبز والسمك في صباه ، وقيل إن أمه كانت تمونه في حداثته ، فجاءته يوماً بطبق عليه كراريس ، فقال : ما هذا ؟ قالت : هذا الذي تجيء به . فخرج مغتماً وجلس في الجامع ، ويونس بن عمران [١] جالس ، فلما رآه مغتمّاً قال له : ما شأنك ؟ فحدثه الحديث ، فأدخله المنزل ، وقرّب اليه الطعام ، وأعطاه خمسين ديناراً ، فدخل السوق واشترى الدقيق وغيره ، وحمله الحمالون إلى داره ، فأنكرت الأم ذلك : قالت : من أين لك هذا ؟ قال : من الكراريس التي قدمتها إليّ .

وظل رزق الجاحظ غيبيّاً في شبابه ، واتسع في الكهولة عقبى تأليفه كتاب العباسية للمأمون ، وعلى عهده تصدر في ديوان الرسائل ببغداد ثلاثة أيام ، ثم استعفى فأُعفي ؛ وكان سهل بن هارون يقول : إن ثبت الجاحظ في هذا الديوان أفل نجم الكتاب . واتصل بابن الزيات الوزير على عهد المعتصم فأقطعه أربعمائة جَريب ؛ وكتب إليه مرة زمن المتوكل « إن أمير المؤمنين يَجِد [٢] بك ، ويهش عند ذكرك ، ولولا عظمتك في نفسه لِعِلْمك ومعرفتك ، لحال بينك وبين بُعدك عن مجلسه ، ولغصبك رأيك وتدبيرك فيما أنت مشغول به ومتوفر عليه » ثم حثه على الفراغ من كتاب الردّ على النصارى والتعجيل به إليه ، وقال : « وتنال مشاهرتك ، وقد استطلقته لما مضى ، واستسلفته لك ، لسنة كاملة مستقبلة » .

والظاهر أن أداء الرواتب كان يتأخر في بعض الأيام ، حتى قال الجاحظ في أبي الفرج نجاح بن سلمة الكاتب — وكان على الأموال زمن الواثق والمتوكل ، وإليه أهدى رسالته في امتحان عقول الأولياء ورسالته في الكَرَم — هذه القصيدة :

---

(١) يقول ياقوت إن زيادان ناحية ونهر بالبصرة منسوبة إلى زياد مولى بني الهجيم جد يونس بن عمران بن جميع بن بشار بن زياد .

(٢) وجد وجداً في الحب فقط وكذا في الحزن لكن يكسر ماضيه (القاموس) .

أقام بدار الخفض راض بخفضه | وذو الحزم يسري حين لا أحد يسري
يظنّ الرّضا شيئاً يسيراً مُهَوَّناً | ودون الرضى كأس أمرّ من الصبر
سواء على الأيام صاحب حنكة | وآخر كاب لا يريش ولا يبري
خضعت لبعض القوم أرجو نواله | وقد كنت لا أُعطي الدنيّة (١) بالقسر
فلما رأيت القوم يبذل بِشره | ويجعل حسن البشر واقية الوفر
رَبَعْتُ عَلَى ظَلْعي (٢) وراجعت منزلي | فصرت حليفاً للدراسة والفكر
وشاورت إخواني فقال حليمهم | عليك الفتى المرّيّ ذا الخلق الغمر
أُعيذك بالرحمن من قول شامت | « أبو الفرج المأمول يزهد في عمرو »
ولو كان فيه راغباً لرأيته | كما كان دهراً في الرخاء وفي اليسر
أخاف عليك العين من كل حاسد | وذو الودّ منخوب (٣) الفؤاد من الذّعر
فإن ترع ودي بالقبول فأهله | ولا يعرف الأقدار غير ذوي القدر

ولما اشتهر أمر الجاحظ أمسى يعيش من الهدايا والعطايا التي تنهال عليه من العظماء وارباب الدولة ، ممن يؤلف بعض كتبه لهم ويحليها بأسمائهم ، حتى لقد سأله أحدهم مرة إذا كان له بالبصرة ضيعة ، فتبسم وقال : إنما أنا وجارية ، وجارية تخدمها ، وخادم وحمار : أهديت كتاب الحيوان إلى محمد بن عبد الملك ، فأعطاني خمسة آلاف دينار ، وأهديت كتاب البيان والتبيين إلى ابن أبي دواد فأعطاني خمسة آلاف دينار ، وأهديت كتاب الزرع والنخل إلى إبراهيم بن العباس الصولي فأعطاني خمسة آلاف دينار ، فانصرفت إلى البصرة ، ومعي ضيعة لا تحتاج إلى تجديد ولا تسميد . كان هذا والجاحظ في شيخوخته ، والخلفاء والعظماء يعشقون قربه ، ويفاخرون بصداقته ؛

(١) في الحديث : فلم نعطي الدنية في ديننا ، أي الخصلة المذمومة. البخاري ومسلم (الناشر)
(٢) من المجاز « إرق على ظلعك » أي ارفق بنفسك ، واربع على نفسك تمكث وانتظر .
(٣) المنخوب : الذاهب اللحم المهزول .

ومن أصدقائه الفتح بن خاقان [١] ومحمد بن عبد الملك الزيات ، والحسن ابن وهب . ولم ير الجاحظ التقيد بخدمة الخلفاء ، واعترض عليه بعضهم في ذلك ، وقال فيه بعض من لا يرى للرجال قيمة إلا بما ملكت أيديهم ، ومُتّعوا به من جاه وسطوة : « إني لم أر أغبن من الجاحظ لنفسه ، وإن كان أوحد البلاغة في عصره ، فما باله لم يلتمس شرف المنزلة بشرف الصنعة ، وقد رأى ابن الزيات وإبراهيم بن العباس بلغا فيها ما بلغا ، وهو يلتمس فوائدهما والجاه بهما » بيد أن الجاحظ كان يفضل أن يكون أميراً وسط كتبه على الصورة التي رأى عليها إسحق بن سليمان ، وقد دخل عليه في إمرته ، فرأى السماطين والرجال مثولاً ، كأن على رؤوسهم الطير ، ورأى فرشته وبزته ، ثم دخل عليه وهو معزول ، وإذا هو في بيت كتبه ، وحواليه الأسفاط والرقوق والقماطر والدفاتر والمساطر والمحابر . قال الجاحظ : فما رأيته قط أفخم ولا أنبل ولا أهيب ولا أجزل منه في ذلك اليوم ، لأنه جمع مع المهابة المحبة ، ومع الفخامة الحلاوة ، ومع السؤدد الحكمة .

ومنذ ابتعد الجاحظ عما يستهوي من المظاهر انتهت ايام ضائقته لما اشتهر بين العالمين قدره ، وتحامى الخلفاء لما يعرف من بطشهم إذا غضبوا ، على ما لا يوازي أفضالهم إذا رضوا . ولما قبض على الوزير محمد بن عبد الملك الزيات في خلافة المتوكل ، وكان الجاحظ في أسبابه وناحيته منحرفاً عن أحمد بن أبي دواد ، هرب الجاحظ فقيل له : لِمَ هربت ؟ قال : خفت أن أكون ثاني اثنين إذ هما في التنور . يريد بذلك ما صنعوا بابن الزيات

(١) يقول ابن خلكان إنه كانت للفتح بن خاقان خزانة كتب جمعها علي بن يحيى المنجم لم ير أعظم منها كثرة وحسناً ، وكان يحضره فصحاء العرب وعلماء البصرة والكوفة . قال أبو هفان : ثلاثة لم أر قط ولا سمعت بأكثر محبة للكتب والعلوم منهم : الجاحظ والفتح ابن خاقان وإسماعيل بن إسماعيل القاضي .

من إدخاله تنوراً فيه مسامير محماة . وذكروا انه لما قتل ابن الزيات حمل الجاحظ مقيداً من البصرة ، وفي عنقه سلسلة وعليه قميص سَمَل ؛ فلما دخل على ابن أبي دواد عاتبة عتاباً فاحشاً . فقال الجاحظ : خفض عليك أيدك الله ، فوالله لأن يكون لك الأمر عليَّ خير من أن يكون لي عليك ، ولأن أُسيء وتحسن ، أحسن في الأحدوثة من أن أُحسن وتسيء ، ولأن تعفو عني في حال قدرتك ، أجمل بك من الانتقام مني ، فعفا عنه وصدَّره في مجلسه .

مذهبه وأخلاقه :

يعدّ الجاحظ من الطبقة السابعة في المعتزلة ، وفي هذا المذهب ربي وعليه نشأ ، وعنه ناضل وله ألّف ؛ وقد خالف أصحابه في مسائل طفيفة ، فسميت فرقته الجاحظية ، وزعموا انه قال إن المعرفة طبائع ؛ ونقل عنه أنه أنكر أصل الإرادة وكونها جنساً من الأعراض ، فقال إذا انتهى السهو عن الفاعل ، وكان عالماً بما يفعله ، فهو المريد على التحقيق ، وأما الإرادة المتعلة بفعل الغير فهو ميل النفس إليه ، وزاد على ذلك إثبات الطبائع للأجسام ، كما قال الطبيعيون من الفلاسفة ، وأثبت لها أفعالاً مخصوصة بها ، وقال بعدم استحالة الجواهر ، وأن الأعراض تتبدل والجواهر لا يجوز أن تفنى ، ومذهبه مذهب الفلاسفة في نفي الصفات ، وفي إثبات القدر خيره وشره من العبد مذهب المعتزلة.

هذا مجمل ما يقال في مذهب أبي عثمان ، أما أخلاقه ومزاجه ، فما كان بالسوداوي ولا بالعصبي ، وكان أميل إلى التفاؤل منه إلى التشاؤم ، يرى الدنيا بعين المغتبط المحبور ، لا بعين المَغيظ المُحنَق ، يبدو السرور عليه إذا خطب وإذا كتب ، وتغمره الغبطة ، وتعتاده الدعابة ، وخفة الروح فيه جِبلّة ، يتنادر إلى الطبقات المختلفة ، يعبث بهذا ، ويَوْلع (١)

---

(١) ولع كوضع ولعاً وولعاناً محركة : استخف .

بذاك ، لا تفزعه المظاهر ، ولا يتوقف في إيراد النكتة ؛ فطر على الوفاء لأصحابه ، والثبات على ودهم وعهدهم ، ولا يشفع بمن يعرف وبمن لا يعرف ، لاعتقاده أن الوصاة شهادة ، وصعب عليه أن يشهد الزور .

كان يحافظ على أوقاته لا يضيع منها ما يمكن شغله بالمفيد ، بعيداً عن الفوضى بعض البعد ، ويحب النظام في الجملة . إلا أنه كان لا يدخر المال إلى أيام العسرة ، وإذا أتاه ينفقه لا يحسب للغد حساباً كبيراً ، ولذلك كان يعسر أحياناً وتعوزه النفقة ، ويلوب على الناضّ يرتفق به . وما كان ضنينا على إخوانه ، وود لو أخذ من الأغنياء فأفضل على الفقراء . ولئن نشأ من بيت وضيع ، لقد كان على جانب عظيم من عزة النفس .

ما كان الجاحظ بالمتزمت ولا بالمتنسك ، قام بما فرض الإسلام عليه من الفروض والواجبات ، وصرف ساعات عمره فيما يرفع من شأن المسلمين ، دعاهم إلى الحياة الفاضلة ، وحبب إليهم دينهم ودنياهم ، ليستقيموا أمة عزيزة فاضلة في أخلاقها . وكان يرى سعادة أصحاب السلطان وأصحاب الثروة تزول بزوال أربابها ، أو بما يعرض لها من أسباب الفناء ، وأن العمل الصالح هو الأثر الذي يظل على الأيام ، لذلك كان يتقن عمله ، لا يتوخى منه إلا ما يجدي في الحياة والمعاد . وسع علمه الناس والأمصار ، ونظر أكثر من غيره إلى ما وراء حدود النظر ، وما كان بالمقلد الخائف ، ولا ممن يأخذ كل ما اتصل به قضية مسلمة لا بحث ولا نظر : قصاراه التجديد ، والبعد عن مزالق التقليد ، والتعرف إلى كل شيء معرفة ثاقبة .

رأى من العبث تكليف الأيام ضد طباعها ، فلابس دهره كما شاء في الجملة ، لا كما أراد هو بالتفصيل ، فضحك لشقاء الحياة الدنيا ، وهزأ بما يراه غيره نعمة ؛ عرف أن السعادة في الأرض مستحيلة ، وأن العالم يحلو ويمرّ ، فرضي بحلوه ومره ، وفي الرضا والقناعة عزاء وشفاء . رأى فساد الناس بما كسبت أيديهم من الكذب والزور والحسد والخبث ، فاستعمل من

دهائه ما اتقى به شرهم ، وعلّق يطمع في الحيلة لتعليمهم ، ومداواة أمراض نفوسهم ، وتفنن في دعوته ، لا تفنن صاحب خيال ، وطالب محال ، بل تفنن الرجل الحكيم ، يفيض اليوم بعد اليوم من علمه على تلميذه ، بقدر ما يشهد فيه من استعداد ، ويسمح له من رأس ما له الواسع ما يرجى له أن ينعم به ، وهو لا ينفّر أهل جيله وقبيله ، ولا يقرهم على كل ما هم فيه .

خُلق نقاداً كما يُخلق الشاعر شاعراً ، وقوة النقد فيه شديدة ، ومع هذا يعمد إلى الرفق ، وينصف خصمه من نفسه ، ويستمع إلى ما يدلي به من حجة . تراه وهو العربي القح في جميع منازعه ، لم تستهوه حكمة اليونان والهند وفارس ، وما امتلكت قلبه غير حكمة العرب وهدايتهم وآدابهم ، ومع هذا يأخذ ممن سبق ولحق ، وعمن وافق وخالف ؛ لا ينبو نظره عن شيء ، ولا تُرذل نفسه حقيراً . ولم تورثه شهرته العلمية زهواً وغروراً ، ولا يتكلف التواضع ولا التخاشع ، وبغيته الكبرى أن يرفق بالضعاف حتى يقووا ، وبالجهلاء حتى يتعلموا ؛ يحاسن الكبراء من دون إسفاف ، ويجتنب مخاشنتهم تفادياً من شرهم وعتوهم ، ويحلم عن الأشرار طبعاً وتطبعاً ، ويبتعد عن الحاسدين والموتورين ؛ لا يضجر ولا يضطرب ؛ متّزن إذا أزِم ، معتدل إذا حاور ؛ لا يحسد ذا نعمة على نعمته ، ولا ذا سلطان على نفوذ إرادته .

* * *

فلج الجاحظ وأصيب بالنقرس في شيخوخته ، فدخل عليه المبرّد في آخر أيامه وهو عليل ، فسأله عن حاله فقال : كيف يكون من نصفه مفلوج ، لو نشر بالمنشار لما أحس به ، ونصفه الآخر منقرس ، ولو طار الذباب بقربه لآلمه ، والأمر على ذلك أني قد جاوزت التسعين وأنشد :

أترجو أن تكون وأنت شيخ   كما قد كنت أيام الشباب

لقد كذبتك نفسك ليس ثوب   دريس [١] كالجديد من الثياب

ودخل عليه جماعة يوماً بسرَّ من رأى يعودونه وقد فلج ، فلما أخذوا مجالسهم أتاه رسول المتوكل فقال : وما يصنع أمير المؤمنين بشق مائل ، ولعاب سائل ؟ ثم أقبل عليهم فقال : ما تقولون في رجل له شقان أحدهما لو غرز بالمسال ما أحس ، والشق الآخر يمر به الذباب فيغوث [٢] وأكثر ما أشكوه الثمانون ؟

ومع هذا ظل الجاحظ يسلي نفسه بالتأليف على النحو الذي جرى عليه أيام الكهولة والشباب . فعوضته الطبيعة في شبابه عن جمال الوجه بجمال العلم وجلاله ، وأعاضته في شيخوخته عن جودة الصحة صحة العقل . مات الجاحظ في سنة ٢٥٥ قيل إنه وقعت عليه مجلدات العلم ، فمات في الذي أحبه وبحر فيه طول حياته . قالوا وكان من عادته أن يضعها قائمة ، كالحائط محيطة به وهو جالس إليها ، فسقطت عليه . مات في البصرة لا في بغداد ، بدليل ما رواه ابن المهلبي عن أبيه قال : قال لي المعتز بالله : يا يزيد ورد الخبر بموت الجاحظ ، فقلت : لأمير المؤمنين طول البقاء ودوام العز . قال المعتّز : لقد كنت أحب أن أشخصه إليَّ وأن يقيم عندي ، فقلت له : إنه كان قبل موته عطلاً بالفالج .

أدبــه :

يطالعك الجاحظ من بارع أدبه بالإبداع دونه كل إبداع ، ويعلمك في سهولة ويسر لا يشق عليك ، يدخل من نفسك مدخل صدق ، ويستهويك وأنت لا تدري كيف أُخذت . قد تقرأُ لغيره كلاماً ، وتُعْجَب بما فيه من

---

(١) درس الثوب أخلقه فدرس ، هو لازم متعد .
(٢) غوث الرجل تغويثاً قال واغوثاه .

ديباجة حسنة أو معنى دقيق ، أو تحقيق وإحاطة ، أو فكر طريف ، أو رأي نادر ، أما أن يضمّ الكلام شتيت هذه الميزات ، ويحمل كل ما يعن للخاطر من الصفات ، فهذا مما لا يقع إلا على النّدْرة في كلام البلغاء ، وهو من الأمور المعتادة في كلام أبي عثمان . أنت تتمثل فيما يلي الكاتبون شيئاً تستطيبه وتستحمله ، وفي أدبه كل ما يطرب ويعجب . الكتّاب في العادة يتطالون إلى أن يكتبوا موضوعاتهم ، والجاحظ يستمليه موضوعه فيمليه ، لا يتكلف ولا يتعسف . يصوّر لك خلجات الروح ، وآهات النفس ، وأزمات العقل ، ويرسم لك المحسوسات كأنك تحسها ، ويصف لك المعلوم والمجهول ، ويعرض عليك المعقول والمنقول ، ويفيض كل الفيض بما لم يكتب لغير أفراد في علماء هذه الأمة الطويل تاريخها ، الكثير نبغاؤها ، كأن الجاحظ بوق عصره ومصره ، والآلة المحكمة التي أحسنت نقل أصوات أهل جيله . سجّل المفاخر والمعاير ، وحمل إلى أبناء القرون اللاحقة أفانين من أدبه جمّلها بروح وسحر الجمال .

يقف القارىء بما ينقل إليه على صور رآها بعينه ، فأحب إمتاع غيره برؤيتها ، وإشراكه بحالات تأثرت بها نفسه ، هو ممن ربط ماضي الأمة بمستقبلها ، ودينها بدنياها ، وتعمد لفرط أمانته أن يسمعها الحسن والقبيح ، فطبّ بلطف عبقريته روحها وجسمها . وإذا كنت ممن لا يتوقع من المصوّر أكثر من أن يصوّر لك ما يقع بصره عليه ، فأدب الجاحظ يصور لك في حذق وتدقيق ما وقعت عليه عينه وقلبه وحسه . ولما كان من رقة الشعور إلى التي ليس بعدها ، جاء كلامه شعوراً وعاطفة .

ينبعث البهاء في أدب الجاحظ من كون مادة الجمال فيه سيّالة براقة ناصعة تنشر السرور في الروح . قالوا إذا أورثك الكلام ما يعلوا به فكرك ، وما ينبه فيك حسّاً شريفاً ، فلا تبحثن بعدها عن شيء آخر لتحكم على ما قرأت ، وكن على مثل اليقين أنه من الجيد الصالح ، وأنه ما صدر إلا عن يد صنّاع ، وقريحة وقادة . والجاحظ ، فوق هذا ، لم يتقيد كثيراً بذوق

عصره ، وفي ذلك إبداعه في أدبه .

كان كما قال لانسون في وصف أحد كتاب الإفرنج يعيش كالأديب في العالَم ، ويكتب كما يكتب الأديب للعالم ، ولا يرضى عن نفسه إلا لأنه يُرضي الناس ، وقد قَبِل البشر بكل ما فيهم من صفات ، ليزحزحهم عما هم فيه . فخاطب الإنسان للتأثير في الإنسان ، ونظر إليه لا على أنه روح محض ، ولا على أنه عقل محض ، نظر اليه على أن له جسماً يضطهد الفكر ويحرّفه وينفيه ، فرأى من الواجب أن يخاطبه بما فيه ، فخاطب فيه العقل والإرادة والذهن والإحساس ، فبرزت فصوله تَزهى بما خلع عليها من الجمال ، والفكر الذي لا يتمثله الكاتب ينفر القارىء منه ، لأن له من عزّة نفسه ما يحب معه أن يُخاطب بما ألف ، وبما تتأثر به نفسه . وهذا ما كان مستجمعاً في أبي عثمان .

كتب بعد الدرس الطويل والخبرة الواسعة ، وما عانى من الأبحاث إلا ما اضطلع به ، وما قولك بعظيم يحيط بأكثر ما في صحيفة الوجود من المعارف ، ويعرف ما في الأرض من تعاجيب ، وما في السماء من غرائب ، ووكده مصروف إلى إرضاء من يواصل السير معه ، ويرافقه ويعاشره من قرائه . ومن لا يحتقر شيئاً يدخل في باب الآداب ، ولا يستنكف من الأخذ عن صغير الناس وكبيرهم ويكشف كل غامض ، ويستقري ويستنبط ، خليق أن يفعل أدبه في النفوس ، وأن يكون كلامه راحاً للأرواح .

قيل ان الكتابة الصحيحة صعبة المراس ، وأصعب منها اختراع تركيب جديد ، وأن جودة الكتابة تتوقف على استبطان أسرار الأشياء ؛ ومنها أن يسلي الكاتب السامع بالمناظر المختلفة ، يجمع له منها أصنافاً ، وينقله في الأحاسيس ، ويبعد به عن المهجورات والمكررات ، ويهيب به إلى الإشراف على ما تخترع قريحته ، ويتكشف عنه بيانه . وهذا القول أيضاً يصدق على الجاحظ إذا تأملت تراكيبه ، وبصره بالأشياء ، حتى لا يترك قولاً لغيره إذا بدا له أن يقوله .

فصلان للجاحظ أبدع فيهما الإبداع كله . أحدهما في وصف الكتاب والثاني في وصف الحسد . ولعل إجادة الجاحظ تجلت لنا فيهما لأن موضوعهما مما أهمه كثيراً . ومن أعرفُ بنفع الكتب من سيّد من صنفها ، ومن أقدر على وصف الحسد ، من العارف بمدبّ هذا الداء من نفوس الحساد ، ومن كان طول حياته غرضاً لهم يحاولون أن يصيبوه فيتقيهم . انتقد بعضهم على الجاحظ حتى وضعه الكتب ، فذكر لهم فضلها على الناس ، ومما قال : الإنسان لا يعلم حتى يكثر سماعه ، ولا بد أن تكون كتبه أكثر من سماعه ، ولا يعلم ولا يجمع العلم حتى يكون الإنفاق عليه من ماله ألذّ عنده من الإنفاق من مال عدوه ، ومن لم تكن نفقته التي تخرج في الكتب ألذّ عنده من عشق القيان ، لم يبلغ في العلم مبلغاً رضيّاً ، وليس ينتفع بإنفاقه حتى يؤثر اتخاذ الكتب إيثار الأعرابي فرسه باللبن على عياله ، وحتى يؤمل في العلم ما يؤمل الأعرابي في فرسه .

وقال بعد مقدمة : « وأنا أحفظ وأقول : الكتاب نعم الذخر والعقدة ، والجليس والعمدة ، ونعم النشوة ونعم النزهة ، ونعم المستغلّ والحرفة ، نعم الأنيس ساعة الوحدة ، ونعم المعرفة ببلاد الغربة ، ونعم القرين والدخيل والزميل ، ونعم الوزير والنزيل . والكتاب وعاء مليءُ علماً ، وظَرف حشي ظَرفاً ، وإناء شحن مزاحاً . إن شئت كان أعيى من باقل ، وإن شئت كان أبلغ من سحبان وائل ، وإن شئت سرّتك نوادره ، وشَجَتك مواعظه . ومن لك بواعظ مثله ، وبناسك فاتك ، وناطق أخرس ؛ ومن لك بطبيب أعرابي ورومي وهندي وفارسي ويوناني ، ونديم مولّد ، وحبيب ممتع ؛ ومن لك بشيء يجمع لك الأول والآخر ، والناقص والوافر ، والشاهد والغائب ، والرفيع والوضيع ، والغث والسمين ، والشكل وخلافه ، والجنس وضده ؟

« وبعد فما رأيت بستاناً يحمل في رُدن ، وروضة تنقل في حِجر ، ينطق عن الموتى ، ويترجم عن الأحياء ؛ ومن لك بمؤنس لا ينام إلا بنومك ، ولا ينطق إلا بما تهوى ؛ آمن من الأرض ، وأكتم للسر من صاحب السر ،

وأحفظ للوديعة من أرباب الوديعة ؛ ولا أعلم جاراً آمن ، ولا خليطاً أنصف ، ولا رفيقاً أطوع ، ولا معلماً أخضع ، ولا صاحباً أظهر كفاية وعناية ، ولا أقل إملالاً ولا إبراماً ، ولا أبعد عن مراء ، ولا أترك لشَغب ، ولا أزهد في جدال ، ولا أكف عن قتال – من كتاب ؛ ولا أعمّ بياناً ، ولا أحسن مؤاتاة ، ولا أعجل مكافأة ؛ ولا شجرة أطول عمراً ، ولا أطيب ثمراً ، ولا أقرب مجتنى ، ولا أسرع إدراكاً ، ولا أوجد في كل إبان – من كتاب ؛ ولا أعلم نتاجاً في حداثة سنه ، وقرب ميلاده ، ورخص ثمنه ، وإمكان وجوده ، يجمع من السير العجيبة ، والعلوم الغريبة ، وآثار العقول الصحيحة ، ومحمود الأذهان اللطيفة ، ومن الحكم الرفيعة ، والمذاهب القديمة ، والتجارب الحكيمة ، والأخبار عن القرون الماضية ، والبلاد النازحة ، والأمثال السائرة ، والأمم البائدة ، ما يجمعه كتاب .

« ومن لك بزائر إن شئت كانت زيارته غِبّاً ، ووروده خمساً [١] ، وإن شئت لزمك لزوم ظلك ، وكان منك كبعضك ؛ والكتاب هو الجليس الذي لا يُطريك ، والصديق الذي لا يَقليك ، والرفيق الذي لا يَملّك ، والمستمع الذي لا يستزيدك ، والجار الذي لا يُساطيك ، والصاحب الذي لا يريد استخراج ما عندك بالمَلَق ، ولا يعاملك بالمكر ، ولا يخدعك بالنفاق . والكتاب هو الذي إن نظرت فيه أطال إمتاعك ، وشحذ طباعك ، وبسط لسانك ، وجوّد بيانك ، وفخّم ألفاظك ، وبجّحَ [٢] نفسك ، وعَمّر صدرك ، ومنحك تعظيم العوام ، وصداقة الملوك ؛ يعطيك بالليل طاعته بالنهار ، وفي السفر طاعته في الحضر ؛ وهو المعلم الذي إن افتقرت اليه لم يحقرك ، وإن قطعت عنه المادة لم يقطع عنك الفائدة ، وإن عُزلت لم يدع

---

(١) الغب بالكسر في الزيارة أن تكون كل أسبوع ، والخمس بالكسر من إظماء الإبل وهي أن ترعى ثلاثة أيام وترد الرابع وهي إبل خوامس .

(٢) بجحته تبجيحاً فتبجح أي أفرحته ففرح .

طاعتك ، وإن هبت ريح أعدائك لم ينقلب عليك . ومتى كنت متعلقاً منه بأدنى حبل ، لم تضطرك معه وحشة إلى جليس السوء .

« وإن أمثل ما يقطع به الفُرّاغ نهارهم ، وأصحاب الكفايات ساعات ليلهم ، نظر في كتاب لا يزال لهم فيه ازدياد في تجربة ، وعقل ومروءة ، وصون عرض ، وإصلاح دين ، وتثمير مال وربّ[1] صنيعة ، وابتداء إنعام . ولو لم يكن من فضله عليك ، وإحسانه إليك ، إلا منعه لك من الجلوس على بابك ، والنظر إلى المارّة بك ، مع ما في ذلك من التعرض للحقوق التي تلزم ، ومن فضول النظر ، وملابسة صغار الناس ، ومن حضور ألفاظهم الساقطة ، ومعانيهم الفاسدة ، وأخلاقهم الردية ، وجهالتهم المذمومة ، لكان في ذلك السلامة والغنيمة ، وإحراز الأصل مع استفادة الفرع . ولو لم يكن في ذلك إلا أنه يشغلك عن سخف المنى ، واعتياد الراحة ، وعن اللعب ، وكل ما تشتهيه ، لقدكان له في ذلك على صاحبه أسبغ النعم ، وأعظم المنة ، وجملة الكتاب وإن كثر ورقه فليس مما يملّ ، لأنه وإن كان كتاباً واحداً ، فإنه كتب كثيرة في خطابه ، والعلم بالشريعة والأحكام ، والمعرفة بالسياسة والتدبير .

« والكتاب هو الذي يؤدي إلى الناس كتب الدين ، وحساب الدواوين ، مع خفة نقله ، وصغر حجمه ، صامت ما أسكته ، وبليغ ما استنطقته ، ومن لك بمسامر لا يبتديك في حال شغلك ، ويدعوك في أوقات نشاطك ، ولا يحوجك إلى التجمل له والتذمم منه .

« والكتاب قد يفضل صاحبه ، ويتقدم مؤلفه ، ويرجح قلمه على لسانه بأمور : منها أن الكتاب يقرأ بكل مكان ، ويظهر ما فيه على كل لسان ، ويوجد مع كل زمان ، على تفاوت ما بين الأعصار ، وتباعد ما بين الأمصار ، وذلك أمر مستحيل في واضع الكتاب ، والمتنازع في المسألة والجواب ،

---

(١) ربّ : جمع وزاد ولزم .

ومناقلة اللسان وهدايته ، لا تجوازون مجلس صاحبه ، ومبلغ صوته ، وقد يذهب الحكيم وتبقى كتبه ، ويذهب العقل ويبقى أثره ، ولولا ما أودعت لنا الأوائل في كتبها ، وخلّدت من عجيب حكمتها ، ودونت من أنواع سيرها ، حتى شاهدنا بها ما غاب عنا ، وفتحنا بها كل مستغلق كان علينا ، فجمعنا إلى قليلنا كثيرهم ، وأدركنا ما لم نكن ندركه إلا بهم ، لما حسن حظنا من الحكمة ، ولضعف سببنا إلى المعرفة ، ولو لجأنا إلى قدر قوتنا ، ومبلغ خواطرنا ، ومنتهى تجاربنا ، لما تدركه حواسنا ، وتشاهده نفوسنا ، لقلت المعرفة ، وسقطت الهمة ، وارتفعت العزيمة ، وعاد الرأي عقيماً ، والخاطر فاسداً ، ولكلّ الحد وتبلّد .

« ولولا جياد الكتب وحَسَنها ، وبيّنها ومختصرها ، لما تحركت همم هؤلاء لطلب العلم ، ونزعت إلى حب الأدب ، وأنفت من حال الجهل ، وأن تكون في غمار الحشو ، ولدخل على هؤلاء من الخلل ، والمضرة من الجهل وسوء الحال ، ما عسى ان لا يمكن الإخبار عن مقداره إلا بالكلام الكثير . ولذلك قال عمر رضي الله عنه : تفقهوا قبل أن تُسَوَّدوا . وقد نجد الرجل يطلب الآثار ، وتأويل القرآن ، يجالس الفقهاء خمسين عاماً ، وهو لا يعدّ فقيهاً ، ولا يجعل قاضياً ؛ فما هو إلا أن ينظر في كتب أبي حنيفة وأشباه أبي حنيفة ، ويحفظ كتب الشروط في مقدار سنة أو سنتين حتى تمرَّ ببابه ، فتظن أنه من بعض العمال ، وبالحريّ أن لا يمرّ عليه من الأيام إلا اليسير ، حتى يصير حاكماً على مصر من الأمصار ، أو بلد من البلدان . ومما يدل على نفع الكتاب أنه لولا الكتاب لم يجز أن يعلم أهل الرَّقة والموصل وبغداد وواسط ما كان بالبصرة ، وما يحدث بالكوفة في بياض يوم ، حتى تكون الحادثة بالكوفة غُدوة ، فتعلم بها أهل البصرة قبل المساء » .

أملى الجاحظ هذه الفقرات في عصر كان الناس يؤثرون فيه السماع من المشايخ ، والأخذ عن الرواة ، على مطالعة الأسفار ، والمنافسة في دواوين العلم ، لا يحفلون بالتقييد والتسجيل كثيراً ، ويرون على الدوام الأخذ من

الأفواه ، فوجه أفكار أمته وجهة أخرى مستديمة مستقرة ، أتاها يرغبها في الكتاب ليكون للناظر فيه كل ساعة ما يستقي من مَعينة ، نصح لقومه أن يتناغوا في اقتناء الأسفار ، ويتباروا في الاعتماد على ما تدخره من الدرر الغوالي ، وبذلك ينشط المؤلفون إلى وضع كتبهم ومصنفاتهم ، وتبقى لمن يتلوها أصح مرجع على الأيام .

وبعد فهل رأيتم دخول الجاحظ على نفوس المتعلمين ، أو من يطمع في تثقيفهم من العالمين ، عندما قال لهم إن الكتاب يمنح صاحبه تعظيم العوام وصداقة الملوك ؛ وأن من حضر دروس الفقهاء لا يحصل من العلم على طائل ؛ إلا إذا درس كتب أبي حنيفة وغيره ، فأصبح بما استظهر قاضياً أو حاكماً في أحد الأمصار . وبعد أن أفاض ، في ضروب من الأقوال التي تفعل في النفوس ، ونقل ما قاله من تقدموه في هذا الباب ، باغت القاريء فضربه في الوتر الحساس ، وهو طلب المال والجاه بالكتاب ، والنفوس تصبو من طبعها إلى بلوغ هذه المراتب ؛ وما دامت المسألة لا تحتمل أكثر من النظر في صفحات معدودة ، ويفتح الكنز المرصود لطالب السعادة ، فجمهرة المقبلين على الأخذ من الأسفار ، ستزيد يوماً بعد يوم .

وهذا منزع آخر من منازع الجاحظ في الإصلاح والتمدين ، يحاول أن يصل منه إلى غاية معينة ، وبضَرْبه على نغمة المادية يستهوي قلوب العالم . ما هو بالغافل عن ضعفهم ، وأنهم عبيد الدنيا مهما تقلبوا زماناً ومكاناً ، فخاطبهم بما يقربهم إليه . ثم هو ليس ممن يرغب في الخطب التي يزول أثرها بزوال مؤثراتها ، ولا يتعدى نفعها حدود أوقاتها ، ويتعشق الكتب لأنها موضع تبصر وتدبر ، لا يتناولها ما يتناول الخطب من تأويل وتحريف وزيادة ونقص . وأثبت الجاحظ في هذا المنحى أيضاً أنه على جانب عظيم من الدهاء ، أثبت أنه لو اعتمد في تهذيب الناس على محاضراته ومسامراته في مجالسه ودروسه فقط ، لضاع على الناس علم كثير ، واستهلك ذلك وقتاً ودّ لو صرفه في التأليف الخالد ، ثم لا يجد اليه المشاغبون طريقاً يلجونه

لمناقشته ومراوغته ، فيضطر إلى إجابتهم وصرف الذهن عبثاً في حوارهم ؛ ومن خُلقوا للجدال في الحق والباطل لا يزحزحهم عما هم فيه برهان ، وهل يرضى العدو من عدوه غير إهلاكه أو زوال نعمته ؟

من أجل هذا تملص الجاحظ من إجابة من تقدم إليه أن يحدثه قائلاً له : إنه ليس حشوياً ، ذلك لأن الجاحظ الحذر اليقظ لا يُرضيه أن يستخدم أحد اسمه ، مدعياً أنه نقل عنه حديثاً قد يحرفه ، أو يعبث به على هواه ، ولذا قطع على الطالب حديثه وتبرأ من الحشوية ، والحشوية هم الذين لا يدرون ما يرون ، ولا ما يصححون من أحاديث الرسول . وأخرى أنه كان ينوي بالدعوة إلى الاستكثار من اقتناء الكتب أن يظهر تدجيل الدجالين من الراوين والمؤلفين ليبدوا في أصح مظاهرهم ، وتتبين للقاصي والداني أقدارهم ، فيسقط المموّهون ، ويبقى المجوّدون ، ممن تستحق مدوناتهم أن تبقى وتتناقل جيلاً فجيلاً .

والآن ننتقل إلى الصفحة الجاحظية الأخرى ، صفحة الحاسد والمحسود ؛ فاستمعوا اليها من لسان أعرف الناس بطباع الناس ، بل أعظم منشيءٍ وأكبر عالم قام في القرن التاسع للميلاد كما وصفه أحد علماء الأفرنج ، وهو جواب من سأله عن الحسد : « لِمَ صار في العلماء أكثر منه في الجهلاء ، ولم كَثُر في الأقرباء ، وقلّ في البعداء ، وكيف دب في الصالحين ، أكثر منه في الفاسقين ، وكيف خص به الجيران من جميع الأوطان » فقال : « الحسد أبقاك الله داء ينهك الجسد ، ويفسد الأود ، علاجه عَسِر ، وصاحبه ضَجِر ، وهو باب غامض ، وأمر متعذر ، فما ظهر منه فلا يداوى . وما بطن منه فمداريه في عناد ، ولذلك قال النبي (ص) : دب إليكم داء الأمم من قبلكم الحسدُ والبغضاء[1] ... فمنه تتولد العداوة ، وهو سبب كل قطيعة ، ومنتج كل وحشة ، ومفرّق كل جماعة ، وقاطع كل رحم بين

(١) رواه الترمذي وأحمد بن حنبل ، وإسناده ضعيف؛ فيه مولى لآل الزبير مجهول(الناشر) .

الأقرباء ، ومحدث التفرق بين القرناء ، وملقّح الشرّ بين الخلطاء ، يكمن في الصدور ، كمون النار في الحجر . ولو لم يدخل ، رحمك الله ، على الحاسد بعد تراكم الهموم على قلبه ، واستمكان الحزن في جوفه ، وكثرة مضضه ، ووسواس ضميره ، وتنغيص عمره وكدر نفسه ، ونكد لذاذة معاشه ، إلا استصغاره لنعمة الله تعالى عنده ، وسخطه على سيده ، بما أفاده الله عبده ، وتمنيه عليه أن يرجع في هبته إياه ، وأن لا يرزق أحداً سواه ، لكان عند ذوي العقول مرحوماً ، وكان عندهم في القياس مظلوماً » .

وبعد أن سار على هذا النحو ينقل الشاهد والمثل والقصة قال :

« فمن شأن الحاسد إن كان المحسود غنيّاً ، توبيخه على المال وقوله إنه جمعه حراماً ،ومنعه أثاماً ، وألّب عليه محاويج أقاربه ، وتركهم له خصماء ، وأعانهم في الباطن ، وحمل المحسود على قطيعتهم في الظاهر ، وقال له : كفروا معروفَك ، وأظهروا في الناس ذمك ، فليس أمثالهم يوصلون ، فإنهم لا يَشكرون . وإن وَجَدَ له خصماً ، أعانه عليه ظلماً ، فإن كان ممن يعاشره فاستشاره غَشّه ، أو تفضل عليه بمعروف كفره ، أو دعاه إلى نصره خذله ، أو حضر مدحه ذمه ، وإن سُئل عنه هَمَزه ، أو كانت عنده شهادة كتمها ، وإن كانت منه إليه زلة عظمها ، وقال : إنه يجب أن يعاد ولا يعود ، ويرى عليه القعود » .

« إن كان المحسود عالماً ، قال : مبتدع ، ولرأيه متبع ، حاطب ليل ، ومتبع نَيْل ، ما يدري ما حمل ، قد ترك العمل ، وأقبل على الحيل ، وقد أقبل بوجوه الناس إليه ، وما أحمقهم إذ مالوا اليه ، فقبحه الله من عالم ، ما أعظم بليته ، وأقل رعيته ، وأسوء طِعْمته . »

ووصفه للعالم المحسود وصفه لنفسه مع بعض حساد زمانه ، ممن لم تدرك أنفسهم شأوه في علمه وفنه ، ولذلك نراه عرف داءهم وعرف دواءهم ، فكان الإعراض عنهم في حياته ، ومداراة الشياطين منهم من جملة ما يعد

في باب عقل الجاحظ . وقال : « لو ملكت عقوبة الحاسد لم أعاقبه بأكثر مما عاقبه الله به ، بإلزامه الهموم قلبه ، وتسليطها عليه ، فزاده الله حسداً ، وأقامه عليه أبداً » وأبان عما ارتآه لمداواة داء الحاسد بقوله : « فإذا أحسست رحمك الله ، من صديقك بالحسد فأقلل ما استطعت من مخالطته ، فإنه أعون الأشياء لك على مسالمته ، وحصّن سرّك منه تسلم من شذى [١] شره ، وعوائق ضره ، وإياك والرغبة في مشاورته ، فتمكن نفسك من سهام مشاررته » .

« ومتى رأيت حاسداً يصوب لك رأياً ، وإن كنت مصيباً ، أو يرشدك إلى الصواب ، وإن كنت مخطئاً ، أو نصح لك في غيبته عنك ، وأقصر من عيبه لك ؟ هو الكلب الكلِب ، والنمر الحرِب ، والسم القشب ، والفحل القَطِم [٢] ، والسيل العرِم . إن مَلَكَ قتل وسبى ، وإن مُلك عصى وبغى ؛ حياتك موتك وثبوره ، وموتك عرسه وسروره ؛ يصدّق عليك كل شاهد زور ، ويكذّب فيك كل عَدْل مرضي ؛ لا يحب من الناس إلا من يبغضك ، ولا يبغض من الناس إلا من يحبك ؛ عدوّك بطانته ، وصديقك علاوته .... أحسن ما تكون عنده حالاً ، أقلّ ما يراك مالاً ، وأكثر ما تكون عيالاً ، وأعظم ما تكون ضلالاً ؛ وأفرح ما يكون بك أقرب ما تكون بالمصيبة عهداً ، وأبعد ما تكون من الناس حمداً ؛ فإذا كان الأمر على هذا فمجاورة الأموات ، ومخالطة الزَّمنَى ، والاكتنان بالجدران ، ومصّ المصران ، وأكل القردان ، أهون من معاشرة مثله ، والاتصال بحبله .... وما أرى السلامة إلا في قطع الحاسد ، ولا السرور إلا في افتقاد وجهه ، ولا الراحة إلا في صرم مداراته ، ولا الربح إلا في ترك مصافاته ... »

قال : « وما لقيت حاسداً قط إلا تبين مكنونه بتغير لونه ، وتخوّص عينه ، وإخفاء سلامه ، والإقبال على غيرك ، والإعراض عنك ، والاستثقال

---

(١) الشذى كالأذى وزناً ومعنى .

(٢) القطم كـكتف الـكثير العض ، والقشب : الخلط وسقي السم .

لحديثك ، والخلاف لرأيك » ، « من شأن الحاسد تهجين ما يَحْسد عليه ، ومن خلق المحروم تقبيح ما حُرِم وتصغيره والطعن على أهله » ، « والذي يحسد فعلى ما لا حدّ له يكون حسده ، فحسده متسع بقدر تغير اتساع ما حسد عليه » ، « ما خالط الحسد قلباً إلا لم يمكنه ضبطه ، ولا قدر على تشحينه [1] وكتمانه ، حتى يتمرد عليه في ظهوره وإعلانه ، فيصده ويستعمله ، ويستعطفه لقهره عليه ، ولهو أغلب على صاحبه من السيد على جنده ، ومن السلطان على رعيته ، ومن الرجل على زوجته ، ومن الآسر على أسيره » .

وقال في مكان آخر : « ومتى أحب السيد الجامع ، والرئيس الكامل ، قومه أشد الحب ، وحاطهم على حسب حبه لهم ، كان أبغض أعدائهم له على حسب حب قومه له ؛ هذا إذا لم يتوثب إليه ، ولم يعترض عليه من بني عمه واخوته من قد أطمعته الحال باللحاق به . وحسد الأقارب أشد ، وعداوتهم على حسب حب حسدهم . وقد قال الأولون : رضا الناس شيء لا يُنال . وقد وقد قيل لبعض العرب : مَن السيد فيكم ؟ قال : الذي إذا أقبل هبناه ، وإذا أدبر اغتبناه . وقد قال الأول : بَغضاء السوء موصولة بالملوك والسادة ، وتجري في الحاشية مجرى الملوك ؛ وليس في الأرض عمل أكدّ لأهله من سياسة العوام » . والجملة الأخيرة من حكمه أو من الكلام الذي يختم به فصوله غالباً ليبقى من القارىء على ذُكر . وما أحلى قوله في الحاسد : « من العدل المحض ان تحط من الحاسد نصف عقابه ، لأن ألم حسده لك قد كفاك شر موئنة غيظه عليك » . وما أصدق قوله : « ما لقيت حاسداً قط إلا تبين مكنونه بتغير لونه ، وتخوص عينه ، وإخفاء سلامه ، والإقبال على غيرك الخ » .

ولا نرى ختم هذا الفصل قبل أن نشير إلى أن الجاحظ كان صريحاً في

---

(١) أشحن السيف أغمده وسله ضد .

أدبه ، لا يبالي تشدد المتزمتين ، يسمي الأشياء بأسمائها ، رغم أنف من رضي وكره ، فأدبه ، والحالة ما ذكرنا ، الأدب الواقع Réalisme ، على ما يدعوه المعاصرون ، أي نقل الطبيعة كما هي ، أو كما يظن أن تُرى ، مع ما فيها من بشاعة وابتذال ؛ ولهذا الأدب في دهرنا من أهل الغرب أدباء مشهورون عانوه في كتبهم ، وما عبأوا بمصطلح مجتمعهم .

وكان كثير من المؤلفين العرب ، ومن المشهود لهم بالتقوى والفضل ، يسيرون على نهج أبي عثمان في ذلك ، ومنهم خصمه اللدود جاحظ أهل السنة ابن قتيبة ، فقد قال في مقدمة عيون الأخبار : « وإذا مرَّ بك حديث فيه إيضاح بذكر عورة أو فرج ، أو وصف فاحشة ، فلا يحملنك الخشوع أو التخاشع على أن تصعّر [١] خدك ، وتعرض بوجهك فإن أسماء الأعضاء لا تؤثم ، وإنما المأثم في شتم الأعراض ، وقول الزور والكذب ، وأكل لحوم الناس بالغيب . قال ولم أترخص لك في إرسال اللسان بالرّفث على أن تجعله هجيراك [٢] على كل حال ، وديدنك في كل مقال ، بل الترخص مني فيه حكاية تحكيها ، أو رواية ترويها ، تنقّصها الكناية ، ويذهب بحلاوتها التعريض وأحببت أن تجري في القليل من هذا على عادة السلف الصالح ، في إرسال النفس على السجية ، والرغبة بها عن لبسة الرياء والتصنع » .

وأبان الجاحظ عن منزعه في الأدب الواقع بقوله : « وبعض الناس إذا انتهى إلى ذكر ... ... ، ارتدع وأظهر التعزز ، واستعمل باب التورع ، وأكثر من تجده كذلك ، فإنما هو رجل ليس معه من العفاف

---

(١) صعر خده تصعيراً وصاعره وأصعره أماله عن النظر إلى الناس تهاوناً من كبر ، وربما يكون خلقه .

(٢) الرفث محركة الجماع ، والفحش كالرفوث وكلام النساء في الجماع أو ما ووجهن به من الفحش . يقال هذا هجيراه (بكسر الأول وتشديد الثاني) واهجيراه واهجيراؤه وهجيره وأهجورته وهجرياه ، أي دأبه وشأنه .

والكرم والنبل والوقار إلا بقدر هذا الشكل من التصنع ، ولم يكشف قط صاحب رياء ونفاق إلا عن لؤم مستفحل ، ونذالة متمكنة . وبعد فلو لم يكن لهذه الألفاظ مواضع لما استعملها أهل هذه اللغة ، وكان الرأي أن لا يلفظ بها » (١) .

سار الجاحظ على العرف قبله في إيراد أسماء الأعضاء وعملها ، لأنها ما وجدت في اللغة إلا لتستعمل ، ولطالما أرسل النفس على سجيتها ، وأورد

---

(١) جرى كثير من العلماء والأدباء على هـذه الطريقة في التصريح ، بما يعد اليوم مخالفاً للعرف ومنافياً للأدب ، ومنهم ابن حزم الظاهري في طوق الحمامة والراغب الأصفهاني صاحب الذريعة إلى مكارم الشريعة ، في كتاب محاضرات الراغب ، والقاضي التنوخي في نشوار المحاضرة ، وياقوت في طبقات الأدباء وغيرهم كثير . وروى الحصري بمناسبة مجون الحسن بن هـانىء « إن الشعر لم يؤسسه بانيه على ان يكون المبرز في ميدانه من اقتصر على الصدق ولم يغو بصبوة ، ولم يرخص في هفوة ، ولم ينطق بكذبة ، ولم يغرق في ذم ، ولم يتجاوز في مدح ، ولم يزور الباطل ، ويكسبه معارض الحق ، ولو سلك بالشعر هذا المسلك ، لكان صاحب لوائه من المتقدمين ، أمية بن أبي الصلت الثقفي ، وعدي بن زيد العبادي ، إذ كانا أكثر تذكيراً وتحذيراً ومواعظ في أشعارها من امرىء القيس والنابغة . قال : وهل يتناشد الناس أشعار امرىء القيس والأعشى والفرزدق وعمر بن أبي ربيعة وبشار وأبي نواس على تعهرهم ، ومهاجاة جرير والفرزدق على قذعهم ، إلا على ملأ من الناس ، وفي حلق المساجد ؛ وهل يروي ذلك إلا العلماء الموثوق بصدقهم وما نهى النبي ولا السلف الصالح من الخلفاء المهديين بعده عن إنشاد شعر عاهر ولا فاجر اه . وقال الجرجاني : وقد استشهد العلماء لغريب القرآن وإعرابه بالأبيات فيها الفحش وفيها ذكر الفعل القبيح ، ثم لم يعبهم ذلك إذ كانوا لم يقصدوا إلى ذلك الفحش ولم يريدوه ، ولم يرووا الشعر من أجله » . ونقول مثل هذا لمن يجوزون تغيير نصوص القدماء بدعوى انها لا تتلاءم مع أدب العصر ، ونحن في صدد معرفة أدب ذاك العصر . قال القديس كليمان : أنا لا أخجل ، لفائدة القراء ، من الكلام على الأعضاء التي يخلق بها الانسان لأن المولى تعالى لم يخجل اذ خلقها . وقال مونتين وهو من اعظم من اشتهروا بالفضائل من المؤلفين الفرنسيين : ماذا كان عمل الفعل التناسلي في الناس وهو طبيعي وضروري حتى شجبوه وابتعدوا عن ذكره ؛ فتراهم لا يجسرون على الكلام عنه إلا بشيء من الخجل ، ويبتعدون عنه في أحاديثهم ، الناس يجرؤون على التلفظ بأفعال القتل والسرقة والخيانة والزنا الخ . ولا يجرؤون على النطق بالعمل الذي يهب الحياة للمخلوق . ياللعفة المكذوبة ، وياللنفاق المخجل ؟ ألا ترون أن من يرون إطلاق اسم الحيوان على العمل الذي يخلق الانسان أحرياء بأن يطلق عليهم اسم بهائم وحيوانات ؟

النكات والنوادر بالألفاظ التي رويت بها . وليس ذكر الأشياء بأسمائها بدعاً في أسلوب الجاحظ ، ووصف الأشياء بما فيها من قبح وحسن بالأسلوب الواقعي طريقة للعرب قديمة ؛ ومع هذا لم يفرط أبو عثمان في ذلك ، يورد ما يورد منها في المناسبات ، ولا يعد اللفظ ولا الجملة من ذلك مما يمس الدين ، أو يعبث بخلق ، أو يأتي على أدب ، ولا سيما في حكاياته وما ينقله من أشعار . الجاحظ يملي أدبه من روحه وقلبه وعقله ، ويقول ما يقول غير متزيد ، فمن الأحجى ان يعرض الطبائع البشرية في صورتها الحقيقية ، لا يداجي ولا يحابي ، ويجابه الحقيقة مجابهة .

بقي أن نقول إن أدب الجاحظ قطعة من نفسه تتجلى فيه لأول نظرة طريقته ، ولو أنك القيت قطعة من قلمه بين عشر قطع أدبية لغيره ، لما صعب عليك أن تميز كلامه من كلام غيره . إن كنت ممن تأدب بكلامه ، لما تحس من أفكار سديدة ما خان اللفظ ولا السبك كاتبها ؛ فشخصية الجاحظ تلمسها إذاً في كل موضوع جالت فيه يراعته ؛ وهذا قلما تعرف مثله كثيراً لغيره من العلماء والأدباء ، وأسلوبه خاص به ، لاينارعه فيه منازع ، وجماع عوامل الإحسان مستوفاة في كلامه .

بلاغته :

ضرب المثل بأدب الجاحظ وبيانه وسعة عبارته « حتى كان يقال من دليل إعجاز القرآن إيمان الجاحظ به » ومن الخير لطلاب البلاغة إذاً ان يمعنوا النظر بكلام الجاحظ ، ليتبينوا بأنفسهم طريقته ، ويتواصفوا في الجملة طراز إملائه دروس البلاغة ، ويتعرفوا ميزانه الدقيق في فقه اللغة ، « أي النظر في مواقع الألفاظ وأين استعملتها العرب » و « تحري الألفاظ البعيدة عن طرفي الغرابة والابتذال » ، و « اجتناب كل صيغة تخرج الذهن عن أصل المعنى أو تشوش عليه » .

قالو إن « مدار البلاغة على تحسين اللفظ وتجميل الصورة » وحظّ الجاحظ من هذا كان جزيلاً . حسنت بلاغته في كل عين ، لتجميلها ببراعته في تخير جيد الألفاظ ، وتجافيه عن استخدام الثقيل في ميزانه ، وقد ينبذ اللفظ الواحد ويستعمل معناه ، ويؤدي المعنى بعدة ألفاظ ، واللفظة الواحدة تُجزئه ، وفي ألفاظ الأعيان يضع الشيء موضعه ، ويطبق كل اسم على مسماه . قال مرة : « ليس للعرب اسم لما لا يبصر بالليل ، وهو الذي يقال له سَبْكور ، أكثر من أن يقولوا به هُدْبد » . وقال في وصف كتاب بالقدم «كتاب متقادم الميلاد دهريّ الصنعة » ، وكأنه كان يضع بعض ألفاظ أو يستعمل مالا عهد باستعماله قبله مثل قوله : « القرويون والبلديون » ، « اللغويون والمعنويون » أطلق هذا على من يشتغلون بالألفاظ ويشتغلون بالمعاني ، فمعرفة أبي عثمان بوقع الكلمة في نفس القاريء وتمييزه الدقيق بين حيّ الألفاظ وميتها ، وسهلها وصعبها ، سبب أول في تفوقه في بلاغته .

وملاك الأمر عنده أبداً أن يكون اللفظ سمحاً لا كزّاً [1] ، والابتعاد عن المعاني التافهة ، والقوالب المستكرهة ؛ ولطالما أوصى طلاب البلاغة أن لا يكون اللفظ عامياً ساقطاً سوقياً ، ولا وحشياً غريباً وقال : « الاستعانة بالغريب عجز » « إلا أن يكون المتكلم بدوياً أعرابياً ، فإن الوحشي من الكلام يفهمه الوحشي من الناس ، كما يفهم السوقي رطانة السوقي » ؛ والمعوّل عليه في هذا الباب أن « لا يكلم العامة بكلام الخاصة ولا الخاصة بكلام العامة » ؛ فهو إذاً ممن سعوا في تدميث اللغة ، على نحو ما تدمثت طبائع العربية بالحضارة .

وقد أبان عن طريقته الواضحة فقال : « قد يستخفّ الناس ألفاظاً ويستعملونها وغيرها أحق بذلك منها ، والعامة ربما استخفت أقل اللغتين وأضعفهما ، وتستعمل ما هو أقل في أصل اللغة استعمالاً ، وتدع ما هو

---

(١) يقال رجل كز اليدين ذو كزز أي بخل ، والكزازة اليبس والانقباض .

أظهر وأكثر ، ولذلك صرنا نجد البيت من الشعر قد سار ، ولم يسر ما هو أجود منه ، وكذلك المثل السائر » « وسخيف الألفاظ مشاكل لسخيف المعاني ، وقد يحتاج إلى السخيف في بعض المواضع ، وربما أمتع بأكثر من إمتاع الجزل الفخم ، ومن الألفاظ الشريفة الكريمة المعاني » ويقول إن لكل قوم ألفاظاً حظيت عندهم « وكذلك كل بليغ في الأرض ، وصاحب كلام منثور ، وكل شاعر وصاحب كلام موزون ، فلا بد من أن يكون قد لهج [1] وألف ألفاظاً بأعيانها ، ليديرها في كلامه ، وإن كان واسع العلم ، غزير المعاني ، كثير اللفظ » .

قال وأنا أقول في هذا قولاً ، وأرجو أن يكون مرضياً ، ولم أقل أرجو لأني أعلم فيه خللاً ، ولكني أخذت بآداب وجوه أهل دعوتي وملتي ولغتي وجزيرتي وجيرتي وهم العرب . وذلك أنه قيل لصُحَارِ العَبْدي [2] : ما يقول الرجل لصاحبه عند تذكيره أياديه وإحسانه ؟ قال : أما نحن فإنا نرجو أن نكون قد بلغنا من أداء ما يجب علينا مبلغاً مَرْضياً . وهو يعلم أنه قد وفّاه حقه الواجب ، وتفضل بما لا يجب . قال صُحَار : كانوا يستحبون أن يَدَعوا للقول مُتَنَفَّساً ، وأن يتركوا فيه فضلاً ، وأن يتجافوا عن حق إن أرادوه لم يُمنعوا منه ، فلذلك قلت أرجو ، فافهم ، فَهَّمك الله تعالى .

« فإن رأيي في هذا الضرب من هذا اللفظ ، أن أكون ما دمت في المعاني ، التي هي عبارتها والعادة فيها ، أن ألفظ بالشيء العتيد الموجود ، وأدع التكلف لما عسى ان لا يسلس ولا يسهل ، إلا بعد الرياضة الطويلة ، وأرى أن ألفظ بألفاظ المتكلمين ما دمت خائضاً في صناعة الكلام ، مع خاصّ أهل الكلام ، فإن ذلك أفهم عندي وأخف لمؤنهم عليّ . ولكل صناعة ألفاظ قد حصلت لأهلها بعد امتحان سواها ، فلم تلزق بصناعتهم إلا بعد

---

(١) لهج به : كفرح أغرى به فثابر عليه .
(٢) صحار بن العباس العبدي وفد على النبي صلى الله عليه وسلم وكان من أخطب الناس وأبينهم.

أن كانت مشاكلا بينها وبين تلك المعاني . وقبيح بالمتكلم ان يفتقر إلى ألفاظ المتكلمين في خطبة أو رسالة ، أو في مخاطبة العوام والجار ، أو في مخاطبة أهله وعبده وأمته ، أو في حديثه إذا حدّث ، أو خبره إذا أخبر ، وكذلك من الخطأ أن يجلب ألفاظ الأعراب وألفاظ العوام ، وهو في صناعة الكلام داخل . ولكل مقام مقال ، ولكل صناعة شكل » .

ذلكم رأي الجاحظ في وضع الألفاظ مواضعها في التأليف . وكلامه فيه غني عن الشرح والتعليق ، هو لا يدعوك في وضع القاعدة التي سنّها لك ، إلا أن تتدبر ما قال ، وتعمل به في اختيار اللفظ الموافق ، وأما المعاني فقد قال إن حكمها خلاف حكم الألفاظ ، لأن المعاني مبسوطة إلى غير غاية ، وممتدة إلى غير نهاية ، وأسماء المعاني مقصورة معدودة ، ومحصلة محدودة . وهنا روى عن غيره : « قال بعض جهابذة الألفاظ ونقاد المعاني : القائمة في صدور العباد ، المتصورة في أذهانهم ، والمتخلجة في نفوسهم ، والمتصلة بخواطرهم ، والحادثة عن فكرهم ، مستورة خفية ، وبعيدة وحشية ، ومحجوبة مكنونة ، وموجودة في معنى معدومة ، لا يعرف الانسان ضمير صاحبه ، ولا حاجة أخيه وخليطه ، ولا معنى شريكه ، والمعاون له على أُموره ، وعلى مالا يبلغه من حاجات نفسه إلا بغيره .وإنما تحيا تلك المعاني في ذكرهم لها ، وإخبارهم عنها ، واستعمالهم إياها ، وهذه الخصال هي التي تقربها من الفهم ، وتجليها للعقل ، وتجعل الخفيّ منها ظاهراً ، والغائب شاهداً ، والبعيد قريباً . وهي التي تخلص الملتبس ، وتحل المتعقد ، وتجعل المهمل مقيداً ، والمقيد مطلقاً ، والمجهول معروفاً ، والوحشي مألوفاً ، والغُفل موسوماً ، والموسوم معلوماً . وعلى قدر وضوح الدلالة ، وصواب الإشارة ، وحسن الاختصار ودقة المدخل ، يكون إظهار المعنى ، وكلما كانت الدلالة أوضح وأفصح ، وكانت الإشارة أبين وأنور ، كان أنفع وأنجع . والدلالة الظاهرة على المعنى الخفي ، هو البيان الذي سمعت الله تبارك وتعالى يمدحه ويدعو إليه ويحث عليه ، وبذلك نطق القرآن ، وبذلك

تفاخرت العرب وتفاضلت ، وأصناف العجم » .

« وقال : مَن علم حق المعنى ان يكون الاسم له طبقاً ، وتلك الحال له وَفْقاً ، ويكون الاسم له لا فاضلاً ولا مفضولاً ، ولا مقصراً ولا مشتركاً ولا مضمناً ، ويكون مع ذلك ذاكراً لما عقد عليه أول كلامه ، ويكون تصفحه لمصادره في وزن تصفحه لموارده ، ويكون لفظه مونقاً ، ولهول تلك المقامات معاوِداً ، ومدار الأمر على إفهام كل قوم بقدر طاقتهم ، والحمل عليهم على اقدار منازلهم » . قال : « وأحسن الكلام ما كان قليله يغنيك عن كثيره ، ومعناه في ظاهر لفظه ، وكأن الله عز وجل قد ألبسه من الجلالة ، وغَشّاه من نور الحكمة على حسب نية صاحبه ، وتقوى قائله ، فإذا كان المعنى شريفاً ، واللفظ بليغاً ، وكان صاحبه صحيح الطبع ، بعيداً من الاستكراه ، منزهاً عن الاختلال ، مصوناً عن التكلف ، صنع في القلوب صنع الغيث في التربة الكريمة ، ومتى كانت الكلمة على هذه الشريطة ، ونفذت عن قائلها على هذه الصفة ، أصحبها الله من التوفيق ، ومنَحها من التأييد ، ما لم يمتنع معه من تعظيمها صدور الجبابرة ، ولا تذهل عن فهمها معه عقول الجهلة » .

قال : « ومتى شاكل أبقاك الله اللفظ معناه ، وكان لذلك الحال وَفقاً ، ولذلك القدر لفقاً[1] ، وخرج من سماجة الاستكراه ، وسلم من فساد التكلف ، كان قَمِناً بحسن الموقع ، وحقيقاً بانتفاع المستمع ، وجديراً أن يمنع جانبه من تأويل الطاعنين . ويحمي عِرضه من اعتراض العائبين ، ولا تزال القلوب به معمورة ، والصدور مأهولة . ومتى كان اللفظ أيضاً كريماً في نفسه ، متخيراً من جنسه ، وكان سليماً من الفضول ، بريئاً من التعقيد ، حبب إلى النفوس ، واتّصَل بالأذهان ، والتحم بالعقول ،

---

(١) يقال للرجلين لا يفترقان هما : لفقان . والوفق والوفاق والفيقة والفوقة والسية والعدل واحـــد .

وهشت له الأسماع ، وارتاحت له القُلوب ، وخفَّ على ألسن الرواة ، وشاع في الآفاق ذكره ، وعظم في الناس خطره ، وصار ذلك مادة للعالم الرئيس ، ورياضة للمتعلم الريّض[١] ، ومن أعاره من معرفته نصيباً ، وأفرغ عليه من محبته ذَنوباً[٢] حبب إليه المعاني ، وأسلس له نظام اللفظ ، وكان قد أغنى المستمع عن كدّ التكلف . وأراح قاريء الكتاب من علاج التفهم » .

وقد يقع للجاحظ أن يكرر القضية الواحدة في عدة أماكن من كتبه ورسائله ، يريد إثباتها في الأذهان ، وأمر البلاغة واختيار الألفاظ لإلباس المعاني الصورة اللائقة مما يُعنى به ، فقد قال في رسالة « مدح التجار وذم عمل السلطان » ما لم يخرج عن قوله في هذا المعنى في البيان والتبيين وفي الحيوان وغيرهما . قال : ثم خذه بتعريف حجج الكتّاب ، وتخلصهم باللفظ السهل القريب المأخذ إلى المعنى الغامض ، وأذقه حلاوة الاختصار ، وراحة الكفاية ، وحذره التكلف ، واستكراه العبارة ، فإن أكرم ذلك كله ما كان إفهاماً للسامع ، ولا يحوج إلى التأويل والتعقيب[٣] ، ويكون مقصوراً على معناه ، لا مقصراً عنه ، ولا فاضلاً عليه ، فاختر من المعاني ما لم يكن مستوراً باللفظ المتعقد ، مغرقاً في الإكثار والتكلف ، فما أكثر من لا يحفل باستهلاك المعنى مع براعة اللفظ ، وغموضه على السامع ، بعد أن يتسق له القول ، وما زال المعنى محجوباً لم تكشف عنه العبارة ، فالمعنى بعد مقيم على استخفائه ، وصارت العبارة لغواً وظرفاً خالياً ، وشر البلغاء من هيأ رسم المعنى قبل أن يهيىء المعنى ، عشقاً لذلك اللفظ ، وشغفاً بذلك الاسم ، حتى صار يجرُّ إليه المعنى جراً ، ويلزقه به إلزاقاً ، حتى

---

(١) يقال ناقة ريض كسيد أول ما ريضت وهي صعبة بعد .
(٢) الحظ والنصيب والدلو أو فيها ماء أو الملأى أو دون الملأى .
(٣) التعقيب : المكث والالتفات .

كأن الله تعالى لم يخلق لذلك المعنى اسماً غيره ، ومنعه الإفصاع عنه إلا به ، والآفة الكبرى أن يكون رديء الطبع ، بطيء اللفظ ، كليل الحد ، شديد العجب ، ويكون مع ذلك حريصاً على أن يعدَّ في البلغاء ، شديد الكلف بانتحال اسم الأدباء ؛ فإذا كان كذلك خفي عليه فرق ما بين إجابة الألفاظ ، واستكراهه لها .

« وبالجملة إن لكل معنى شريف أو وضيع ، هزل أو جد ، أو حرفة أو صناعة ، ضرباً من اللفظ هو حقه وحظه ونصيبه ، الذي لا ينبغي أن يجاوزه ، أو يقصر دونه ، ومن قرأ كتب البلغاء ، وتصفح دواوين الحكماء ، ليستفيد المعاني ، فهو على سبيل صواب ؛ ومن نظر فيها ليستفيد الألفاظ ، فهو على سبيل الخطأ ، والخسران ها هنا في وزن الربح هناك ، لأن من كانت غايته انتزاع الألفاظ حمله الحرص عليها ، والاستهتار بها ، إلى أن يستعملها قبل وقتها ، ويضعها في غير مكانها ؛ ولذلك قال بعض الشعراء لصاحبه : أنا أشعر منك ، قال صاحبه : ولمَ ذاك ؟ قال : لأني أقول البيت وأخاه ، وأنت تقول البيت وابن عمه ، وإنما هي رياضة وسباحة ، والرفيق مصلح ، والآخر مفسد ، ولابد من هذين ، وطبيعة مناسبة ؛ وسماع الألفاظ ضار ونافع ؛ فالوجه النافع أن يدور في مسامعه ، ويغيب في قلبه ، ويختم في صدره ، فإذا طال مكثها تناكحت ثم تلاقحت ، فكانت نتيجتها أكرم نتيجة ، وثمرتها أطيب ثمرة ، لأنها حينئذ تخرج غير مسترقة ، ولا مختلسة ولا مُغْتصبة ، ولا دالة على فقر ، إذ لم يكن القصد إلى شيء بعينه ، والاعتماد عليه دون غيره ، وبين الشيء إذا عشش في الصدر ، ثم باض ثم فرخ ثم نهض ، وبين أن يكون الخاطر مختاراً ، واللفظ اعتسافاً واغتصاباً ، فرقٌ بيّن » . وقال : « إن كلام الناس في طبقات كما أن الناس أنفسهم في طبقات ، فمن الكلام الجزل والسخيف ، والمليح والقبيح ، والخفيف والثقيل ، وكله عربي ، وبكل قد تكلموا ، وبكل قد تمادحوا وتعايبوا » .

وقد أعجب بما يستخدمه رواة الأخبار من السهولة فقال : ورأيت عامتهم – فقد طالت مشاهدتي لهم – لا يقفون إلا على الألفاظ المتخيرة ، والمعاني المنتخبة ، وعلى الألفاظ العذبة ، والمخارج السهلة ، والديباجة الكريمة ، وعلى الطبع المتمكن ، وعلى السبك الجيد ، وعلى كل كلام له ماء ورونق ، وعلى المعاني التي إذا صارت في الصدور عمرتها ، وأصلحتها من الفساد القديم ، وفتحت للسان باب البلاغة ، ودلت الأقلام على مدافن الألفاظ ، وأشارت إلى حسان المعاني ؛ ورأيت البصر بهذا الجوهر من الكلام في رواة الكتّاب أعم ، وعلى ألسنة حذاق الشعراء أظهر . يعني أن الجاحظ لا يرى للكاتب أن يستعمل من الألفاظ إلا ما يفهمه العامة ؛ والكاتب يكتب ليُفهم لا ليُعجم ، ويتوخى المعاني الجديدة التي تصلح فساد القلوب ، وتعمر بها الأفئدة والعقول .

قال الجرجاني في دلائل الإعجاز : واعلم أن من الكلام ما أنت تعلم إذا تدبرته أن لم يحتج واضعه إلى فكر وروية حتى انتظم ، بل ترى سبيله في ضم بعضه إلى بعض سبيل من عمد إلى لآل فخرطها في سلك لا يبغي أكثر من أن يمنعها التفرق ، وكمن نَضَد أشياء بعضها على بعض لا يريد في نضده ذلك أن تجيء له منه هيئة أو صورة ، بل ليس إلا أن تكون مجموعة في رأي العين ، وذلك إذا كان معناك معنى لا يحتاج أن تصنع فيه شيئاً غير أن تعطف لفظاً على مثله كقول الجاحظ : « جنّبك الله الشبهة ، وعصمك من الحيرة ، وجعل بينك وبين المعرفة نسباً ، وبين الصدق سبباً ، وحبب إليك التثبت ، وزين في عينك الإنصاف ، وأذاقك حلاوة التقوى ، وأشعر قلبك عزّ الحق ، وأودع صدرك برد اليقين ، وطرد عنك ذل اليأس ، وعرفك ما في الباطل من الذلة ، وما في الجهل من القلة » .

واسمع الآن هذه الجملة يسجع فيها الجاحظ سجع الحمام ، قال في كتابه ذم العلوم ومدحها يصف القرآن : « حجة على الملحد ، وتبيان للموحد ، قائم بالحلال المنزل ، والحرام المفصل ، وفاصل بين الحق

والباطل ، وحاكم يرجع إليه العالم والجاهل ، وإمام تقام به الفروض والنوافل ، وسراج لا يخبو ضياؤه ، ومصباح لا يخزن ذكاؤه ، وشهاب لا يطفأُ نوره ، وبحر لا يدرك غوره ، ومعدن لا تنقطع كنوزه ، ومعقل يمنع من الهلكة والبوار ، ومرشد يدل على طريق الجنة والنار ، وزاجر يصد عن المحارم ، ويجير يوم التحاكم » .

وكما يرى الجاحظ أن الواجب تخير اللفظ الكريم للمعنى الكريم ، لم ير طرح الألفاظ السخيفة للتعبير عن المعاني السخيفة ، كان يرى نقل عبارات العوام ونكات الأعراب بألفاظها ، وقد حشى كتابه البخلاء والحيوان بطائفة من ألفاظ عامة الطبقات في عصره ، فعُدَّ ذلك في جملة إفضاله على اللغة أيضاً ، قال : « ومتى سمعت حفظك الله بنادرة من كلام الأعراب ، فإياك وأن تحكيها إلا مع إعرابها ومخارج ألفاظها ، فإنك إن غيَّرتها بأن تلحن في إعرابها ، وأخرجتها مخرج كلام المولدين والبلديين ، خرجت من تلك الحكاية وعليكَ فضل كبير . وكذلك إذا سمعت بنادرة من نوادر العوام ، وملحة من ملح الحشوة والطّغام[1] ، فإياك أن تستعمل فيها الإعراب ، وأن تتخير لها لفظاً حسناً ، أو تجعل لها من فيك مخرجاً سريّاً ، فإن ذلك يفسد الإمتاع بها ، ويخرجها من صورتها ، ومن الذي أُريدت له ، ويُذْهب استطابتهم إياها واستملاحهم لها » وهو يرى « أن النبيل لا يتنبل كما أن الفصيح لا يتفصح ، لأن النبيل يكفيه نبله عن التنبل ، والفصيح تغنيه فصاحته عن التفصح ، ولم يتزيد أحد قط إلا لنقص يجده في نفسه » .

ووضع القاعدة الكلية لطالب البلاغة فقال له : « وقد علمنا أن من يقرض الشعر ويتكلف الإسجاع ، ويؤلف المزدوج ، ويتقدم في تحبير المنثور ، وقد تعمل في المعاني ، وتكلف إقامة الوزن ، والذي تجود به

---

(١) الطغام كسحاب أوغاد الناس والحشوة (بكسر الحاء وضمها) : العوام .

الطبيعة وتعطيه النفس سهواً رهواً [١] ، مع قلة لفظه وعدد هجائه — أحمد أمراً ، وأحسن موقعاً من القلوب ، وأنفع للمستمعين من كثير خرج بالكد والعلاج ، ولأن التقدّم فيه ، وجمع النفس له ، وحصر الفكر عليه ، لا يكون إلا ممن يحب السمعة ، ويهوى الفَلْج [٢] والاستطالة » .

* * *

تخوّف الجاحظ من فساد كبير بدأ يعرض لبلاغة هذه اللغة ، عندما شرعت العرب بنقل كتب العلوم القديمة إلى العربية ، وقد شاهد النقلة ضعافاً في البيان ، وأقرب إلى الركاكة في الألفاظ وسبكها ، حتى أفسدوا المعاني وأبهموها فعميت على الناس ، وكان يعتقد أن هذه العلوم لا يفهمها في الحقيقة إلا من عاناها مهما تأنق ناقلوها في نقلها . قال : « إن كتاب المنطق لو قرئ على جميع خطباء الأمصار وبلغاء الأعراب ، لما فهموا كثره ، وكذلك كتاب أقليدس ، وهو عربي وقد صُفّي ، لو سمعه بعض الخطباء لما فهمه ، ولا يمكن أن يفهمه من يريد تعلمه ، لأنه يحتاج إلى أن يكون قد عرف جهة الأمر ، وتعود اللفظ المنطقي الذي استخرج من جميع الكلام » . وقال : « ويد الإنسان لا تكون إلا خرقاء ، ولا تصير صَناعاً [٣] ، ما لم تكن المعرفة ثقافاً لها ، واللسان لا يكون أبداً ذاهباً في طريق البيان ، متصرفاً في الالفاظ ، إلا بعد أن تكون المعرفة متخللة به ، منقلة له ، واضعة له في مواضع حقوقه ، وعلى أماكن حظوظه » .

وإليك الآن منزعه في الترجمة والنقل ، وما ينبغي لهما من البلاغة ، وما السبيل إليها : « وقال بعض من ينصر الشعر ويحوطه ويحتج له ،

---

(١) الرهو : السير السهل ، والسهو : السهل .

(٢) الفلج : الظفر والفوز كالإفلاج والاسم بالضم كالفلجة .

(٣) يقال رجل صنع اليدين بالكسر والتحريك وصنيع اليدين وصناعهما حاذق في الصنعة من قوم صنعى الأيدي بضمة وبضمتين وبفتحتين وبكسرة وأصناع الأيدي .

إن الترجمان لا يؤدي أبداً ما قال الحكيم على خصائص معانيه ، وحقائق مذاهبه ، ودقائق اختصاراته ، وخفيات حدوده ، ولا يقدر أن يوفيها حقوقها ، ويؤدي الأمانة فيها ، ويقوم بما يلزم الوكيل ويجب على الجريّ [1] ، وكيف يقدر على أدائها وتسليم معانيها ، والإخبار عنها ، على حقها وصدقها ، إلا أن يكون في العلم بمعانيها ، واستعمال تصاريف ألفاظها ، وتأويلات مخارجها ، مثل مؤلف الكتاب وواضعه ؛ فمتى كان رحمه الله تعالى ابن البطريق وابن ناعمة وأبو قرة وابن فهر وابن وهيلي وابن المقفع مثل أرسطاطاليس ، ومتى كان خالد مثل أفلاطون. ولابد للترجمان من أن يكون بيانه في نفس الترجمة ، في وزن علمه في نفس المعرفة ؛ وينبغي أن يكون أعلم الناس باللغة المنقولة والمنقول إليها ، حتى يكون فيها سواءً وغاية ؛ ومتى وجدناه أيضاً قد تكلم بلسانين ، علمنا أنه قد أدخل الضيم عليهما ، لأن كل واحدة من اللغتين تجذب الأخرى ، وتأخذ منها وتعترض عليها ؛ وكيف يكون تمكن اللسان منهما مجتمعين فيه ، كتمكنه إذا انفرد بالواحدة ، وإنما له قوة واحدة ، فإن تكلم بلغة واحدة استفرغت تلك القوة عليها ، وكذلك إن تكلم بأكثر من لغتين ، على حساب ذلك تكون الترجمة لجميع اللغات ، وكلما كان الباب من العلم أعسر وأضيق ، والعلماء به أقل ، كان أشد على المترجم وأجدر أن يخطيء فيه، ولن تجد مترجماً يفي بواحد من هؤلاء العلماء. هذا قولنا في كتب الهندسة والتنجيم والحساب واللحون ؛ فكيف لو كانت هذه الكتب كتب دين وإخبار عن الله عز وجل ».

وما عجب أبو عثمان من رجل عرف لغتين ، فكان إماماً في البلاغة ، غير موسى بن سيار الأسواري ، قال : إنه كان من أعاجيب الدنيا ، وكانت فصاحته بالفارسية في وزن فصاحته بالعربية ، وكان يجلس في مجلسه المشهور به ، فيقعد العرب عن يمينه ، والفرس عن يساره ، فيقرأ

---

(١) الجرى : الوكيل للواحد والجمع والمؤنث ، والرسول والأجير والضامن .

الآية من كتاب الله ، ويفسرها للعرب بالعربية ، ثم يحوّل وجهه إلى الفرس فيفسرها لهم بالفارسية ، فلا يدري بأي لسان هو أبين ، واللغتان إذا التقتا في اللسان الواحد أدخلت كل واحدة منهما الضيمَ على صاحبتها .

وقال في معنى الترجمة ومسخها بلاغة الشعر المنقول ، وكيف يُحيل النقل المباني والمعاني : « وفضيلة الشعر مقصورة على العرب ، وعلى من تكلم بلسان العرب . والشعر لا يستطاع أن يترجم ، ولا يجوز عليه النقل ، ومتى حُوّل تقطع نظمه ، وبطل وزنه . وذهب حسنه ، وسقط موضع التعجب منه . وصار كالكلام المنثور ، والكلام المنثور المبتدأُ على ذلك ، أحسن من المنثور المنقول من موزون الشعر . وقد نُقلت كتب الهند ، وترجمت حكم اليونان ، وحوّلت آداب الفرس ، فبعضها ازداد حسناً وبعضها ما انتقص شيئاً ، ولو حُوّلت حكمة العرب لبطل ذلك المعجز الذي هو الوزن ، ثم إنهم لو حولوها لم يجدوا في معانيها شيئاً لم تذكره العجم في كتبهم التي وضعت لمعاشهم وفطنهم وحكمهم . وقد نقلت هذه الكتب من أُمة إلى أمة ، ومن قرن إلى قرن ، ومن لسان إلى لسان ، حتى انتهت إلينا ، وكنا آخر من ورثها ونظر فيها » .

إنا إذا تأملنا قول الجاحظ في النقل ، وما يجب أن يكون عليه الناقل من المقدرة ، لينقل فيجيد من لغة إلى لغة ثانية ، نسجل أن رأيه هذا لا يختلف عن أحدث الآراء في عصرنا ، وكأنك إذا تدبرت ما قاله في هذا المعنى ، تقرأُ رأياً لرجل أنفق عمره في الترجمة والنقل ، ولا تبعد كثيراً عن محجة الصواب إذا حكمت بعد ذلك أن الجاحظ كان يترجم إلى لغته عن لغة أُخرى في الأحايين . والأرجح أن هذه اللغة هي الفارسية . وفي ذلك إشارات في البيان والتبيين ، وقد رأيناه يعجب من موسى بن سيار ببلاغته في اللغتين عند تفسيره القرآن للعرب والفرس ، وصعب أن يحكم هذا الحكم الصريح من لم يحسن اللغتين ، ومن لم يكن جهبذاً في البلاغة وما يقتضي لأعلى طبقة منها من اللفظ الجزل المأنوس والسبك المتين .

جدله ونقده :

لا يرى الجاحظ ، صاحب العقيدة الراسخة والإيمان الصحيح ، طريق النجاة للناس ، إلا إذا فهموا الإسلام على حقيقته كما فهمه هو ، وكان أبداً حرباً على من خالفوا الدين ، وحرباً على الملحدين والكافرين . أنحى على الشيع التي انفصلت من الإسلام ، وعبثت بشيء من فروعه ، فردّ على المشبهة وعلى الجهمية وعلى العثمانية وعلى الرافضة وغيرهم . وجادل اليهود والنصارى من أهل الكتاب بالتي هي أحسن . وأهم ما اهتم به الرد على الزنادقة والمانوية والمرتدين ، والطعن على من حاولوا من أرباب النحل القديمة أن يعيدوا في ملتهم من امتلوا ملة الإسلام[١] ؛ مثل رده على من ألحد في كتاب الله ، ورده الذي عنن له[٢] « بصيرة غنام المرتد » وغير ذلك .

كتب الجاحظ كل هذا ، وبعض المتنطسين من الحشوية ، أو المتنطعين في الدين والمتنمسين[٣] فيه . يعدونه مقصراً ويطلقون ألسنتهم فيما كتب ، وليس لهم ما يؤيد افتراءهم عليه غير دعواهم المجردة . وقاموا في عصره وبعده يكذبون عليه ، ومنهم من بلغت به القحة أن يخرجه من الدين ، ومنهم من بلغ به السخف أن يخرجه من الانسانية ، ومن الغريب أن أولئك الغُيُر على الإسلام لم تحدثهم أنفسهم أن يكتبوا فصلاً واحداً في دفع أعدائه ؛ وراحوا ، ورأس مالهم الباطل ، يعترضون من دون حياء على من كان في مثل قوة الجاحظ في تصديد لرد شبه المخالفين . أما أرباب العقول المستنيرة ، المنزهون عن الأغراض في الحكم على الجاحظ ، فقد كانوا يعدون ظهوره

---

(١) الملة بالكسر الشريعة أو الدين وتملل وامتل : دخل فيها .

(٢) عن الكتاب وعننه وعنونه وعناه : كتب عنوانه .

(٣) تنطس في الكلام تأنق فيه ، وتنطع في كلامه إذا تفصح فيه وتعمق . والتنميس التلبيس والاحتيال .

في ذاك العصر ، عصر تسرب الشبهات والمجاذبات الدينية ، نعمة عظيمة على الإسلام والمسلمين .

وأغرب من هذا دعوى بعض أصحاب الجرح والتعديل أن الجاحظ كان إذا روى حجج من يجادلهم من النصارى أوردها برمتها ، وقصر عمداً في رد أقوالهم تاركاً بعض النواحي الضعيفة في جوابه ، وهو يرمي بروايته مقالات المخالفين ثم نقضها إلى أن ينصف الخصم فيضع أمام الأنظار حججه ، ثم ينقدها بتؤدة لا حدة بها ولا غضب ، وقد يسخر ممن ينقده ويتهكم به ، وبمن يقوله بقوله تهكم أدب وتهذيب . ورسالته في الرد على النصارى تنادي بأفصح لسان أن خصومه ظلموه وما أنصفوه . وما كان لمؤلف أن يضع تأليفه ليرضى به حتى المتعنتين ، ومراض العقول وأصحاب الأهواء . ولولا أن الجاحظ كان الحجة الثبت في هذا الموضوع بين علماء عصره ، ما حثه الفتح ابن خاقان الوزير العالم على التعجيل بتأليف رده على النصارى . « وهَمّكَ من رجل ، وناهيك من عالم ، وشرعك[1] من صدوق » إن جادل أفحم ، وإن ألف كان الأعلم والأحكم .

أجاب الجاحظ بعض من شنعوا عليه لنقله كلام المخالفين ثم تفرغه للرد عليهم بقوله : « وعبتني بحكاية قول العثمانية والضرارية كما سمعتني أقول في أول كتابي : وقالت العثمانية والضرارية ، كما سمعتني أقول : قالت الرافضة والزيدية ، فحكمت عليّ بالنّصب لحكايتي ، فَهَلاّ حكمت عليّ بالتشيع لحكايتي ، وهلا كنت عندكَ من الغالية لحكايتي حجج الغالية ، كما كنت عندك من الناصبة لحكايتي قول الناصبة . وقد حكينا في كتابنا قول

(١) يقال مررت برجل شرعك من رجل أي حسبك يستوى فيه الواحد والجميع ، ومثله وهذا رجل همك من رجل وهمتك من رجل حسبك .

الاباضية والصُفْرية ، كما حكينا قول الأزارقة والزيدية . وعلى هذه الأركان الأربعة بنت الخارجية وكل اسم سواها فإنما هو فرع ونتيجة ، واشتقاق منها ومحمول عليها ، وإلا كنا عندك من الخارجية ، كما صرنا عندك من الضرارية والناصبة ، فكيف رضيت بأن تكون أسرع من الشيعة إلى أعراض الناس من الخارجية ، اللهم إلا أن تكون وجدت حكايتي عن العثمانية والضرارية أشبع وأجمع ، وأتم وأجود وعبتني بكتاب العباسية ، فهلا عبتني بحكاية مقالة من أبي وجوب الإمامة ، ومن يرى الامتناع من طاعة الأئمة الذين زعموا أن تركَ الناس سدىً بلا قيم أردّ عليهم ، وهملاً بلا راع أربح لهم ، وأجدر أن يجمع لهم ذلك بين سلامة العاجل وغنيمة الآجل » .

وفي كتابه حجج النبوة : « والعجب من ترك الفقهاء تمييز الآثار ، وترك المتكلمين القول في تصحيح الأخبار ، وبالأخبار يعرف الناس النبي من المتنبي والصادق من الكاذب ، وبها يعرفون الشريعة من السنة ، والفريضة من النافلة ، والحظر من الإباحة ، والإجتماع من الفرقة ، والشذوذ من الاستفاضة ، والردّ من المعارضة ، والنار من الجنة ، وعامة المفسدة والمصلحة ». وقال : « إن كل منطيق محجوج ، والحجة حجتان : عيان ظاهر وخبر قاهر . فإذا تكلمنا في العيان وما يفرع منه ، فلا بدّ من التعارف في أصله والتعارف في فرعه ، فالعقل هو المستدل ، والعيان والخبر هما علة الاستدلال وأصله ، ومحال كون الفرع مع عدم الأصل ، ويكون الاستدلال مع عدم الدليل ، والعقل مضمن بالدليل ، والدليل مضمن بالعقل ، ولا بد لكل واحد منهما من صاحب ، وليس لإبطال احدهما وجه مع إيجاب الآخر . والعقل نوع واحد . والدليل نوعان : أحدهما شاهد عيان يدل على غائب ، والآخر مجيء خبر يدل على صدق » .

كان الجاحظ محيطاً بما يجول في قلوب أولئك الناقدين الناقمين ، يعرف أنهم يبغون له العثرة ، ويقفون له كل حين بالمرصاد فيترفع عن مجادلتهم ،

لوقوفه على نياتهم ، ومثل هذه الطبقة كان على الأغلب يهزأ بها ويرحمها . وليس بعد الجهل ذنب ، كما قيل ليس بعد الكفر ذنب . وقد وصف من كانوا يعترضون سبيله ويحسدونه حسد لؤم وغباوة ، بقوله : « إني ربما ألفت الكتاب المحكم المتقن في الدين والفقه والرسائل والسيرة والخطب والخراج والأحكام ، وسائر فنون الحكمة ، وأنسبه إلى نفسي ، فيتواطأ على الطعن فيه جماعة من أهل العلم ، بالحسد المركب فيهم ، وهم يعرفون براعته ونصاحته [١] ، وأكثر وما يكون هذا منهم ، إذا كان الكتاب مؤلفاً للملك معه القدرة على التقديم والتأخير ، والحط والرفع ، والترهيب والترغيب ، فإنهم يهتاجون عند ذلك اهتياج الإبل المغتلمة [٢] فإن أمكنتهم الحيلة في إسقاط ذلك الكتاب عند السيد الذي ألف له ، فهو الذي قصدوه وأرادوه ، وإن كان السيد المؤلف فيه الكتاب نحريراً نقاباً ونقريساً [٣] بليغاً ، وحاذقاً فطناً ، وأعجزتهم الحيلة سرقوا معاني ذلك الكتاب وألفوا من أعراضه وحواشيه كتاباً ، وأهدوه إلى ملك آخر ، ومتوا [٤] إليه به ، وهم قد ذموه وثلبوه . لما رأوه منسوباً إليّ وموسوماً بي . وربما ألفت الكتاب الذي هو دونه في معانيه وألفاظه ، فأترجمه باسم غيري ، وأحيله على من تقدمني عصره ، مثل ابن المقفع والخليل وسلم صاحب الحكمة ويحي بن خالد والعتابي ، ومن أشبه هؤلاء من مؤلفي الكتب ، فيأتيني أولئك القوم بأعيانهم ، الطاعنون على الكتاب الذي كان أحكم من هذا الكتاب ، لاستنساخ هذا الكتاب وقراءته عليّ ، ويكتبونه بخطوطهم ، ويصيرونه إماماً يقتدون به ويتدارسونه بينهم ، ويتأدبون به ويستعملون ألفاظه ومعانيه في كتبهم وخطاباتهم . ويروونه

(١) نصح : خلص .
(٢) المغتلمة من الابل التي غلبت عليها شهوة الضراب .
(٣) النقاب بكسر النون الرجل العلامة ، أو النافذ في الأمور كما في الأساس ، والنقريس بكسر النون أيضاً الطبيب الماهر النظار المدقق كالنقرس .
(٤) مت إليه بحرمة متاً توصل بقرابة أو دالة .

عني لغيرهم من طلاب ذلك الجنس ، فتثبت لهم به رياسة يأتم بهم قوم فيه ، لأنه لم يترجم باسمي ، ولم ينسب إلى تأليفي » .

هكذا سبر الجاحظ عقول حاسديه بمسبار علمه ، وضحك وأضحك من لؤمهم وغبائهم ، وأبت نفسه أن يحاورهم ، وهو جدّ عارف بمقدار ما يكتب ، وبما يرمي إليه من المقاصد في وضع أسفاره . ولطالما وطّن نفسه على استماع سخف السخفاء في أحكامهم المتجانفة (١) عن الحق ، قال : « لأن كل من التقط كتاباً جامعاً ، وباباً من أمهات العلم مجموعاً ، كان له غنمه ، وعلى مؤلفه غُرمه ، وكان له نفعه ، وعلى صاحبه كدّه ، مع تعرضه لمطاعن البغاة ، ولاعتراض المنافسين ، ومع عرضه عقله المكدود على العقول الفارغة ، ومعانيه على الجهابذة ، وتحكيمه فيه المتأولين والحسدة » . وبديهي أن المتأولين والحسدة لا يرضيهم منه إلا أن ينقطع عن التأليف ليساويهم في قصورهم ، ولذلك كان من الطبيعي أن لا يناقشهم لأنهم طلقوا المنطق في حواره ، وأبهموا وما أبانوا في وجوه اعتراضهم على أفكاره ، والكلام المجمل يحتاج إلى تفصيل ، وهم عاجزون عن الإدلاء بحق ، وهو في غُنية عن أن يعرض لكلام من قتلهم الحسد .

على انه عرض في الحيوان لأولئك الذين ينالون منه بالباطل بقوله : « ولولا سوء ظني بمن يظهر التماس العلم في هذا الزمان ، ويظهر اصطناع الكتب في هذا الدهر ، لما احتجت في مداراتهم واستمالتهم ، وتوفيق نفوسهم ، وتشجيع قلوبهم ، مع كثرة فوائد هذا الكتاب ، إلى هذه الرياضة الطويلة ، وإلى كثرة هذا الاعتذار ، حتى كأن الذي أُفيدهم إياه أستفيده منهم ، وحتى كأن رغبتي في صلاحهم ، رغبة من رغب في دنياهم » . وقال في غرض كتاب آخر : « وقد جمعنا في هذا الكتاب جملاً التقطناها

---

(١) تجانف : مال .

من أفواه أصحاب الاخبار ، ولعل بعض من لم يتسع في العلم ، ولم يعرف مقادير الكلام ، يظن أن تكلفنا له من الامتداح والتشريف ، ومن التزيد والتجويد ، ما ليس عنده ، ولا يبلغه قدره . كلاّ والذي حرّم التزيد[١] على العلماء ، وقبح التكلف عند الحكماء ، وبهرج[٢] الكذابين عند الفقهاء ، لا يظن هذا إلا من ضلّ سعيه » . وما أحلى هذا القسم وما أجمل مغزاه .

ولما كان المعتزلة يتشددون في الحديث وتأويله وروايته ، ويردون كثيراً مما لم يثبت من طرق موثوق بصحتها ، ويسمون المكثرين منه على علاته الحشوية ، أبت نفس الجاحظ بالضرورة أن يكون في الحديث حاطب[٣] ليل ، فما كان من الأحاديث مرضي الإسناد صحيح المخرج قَبِله ، وما كان مسخوط[٤] الإسناد فاسد المخرج نبذه . وكان الشهاب الزهري يقول عن الحديث وروايته : يخرج الحديث من عندنا شبراً ، ويعود في العراق ذراعاً . وكان مالك بن أنس يقول : إذا جاوز الحديث الحرّتين ضعفت شجاعته ؛ وكان يسمي الكوفة دار الضرب لأنها تضع الأحاديث كما تضرب النقود ؛ وكان أحمد بن حنبل يشك في التفسير ويقول : ثلاثة ليس لها أصل : التفسير والملاحم والمغازي .

هكذا روى أبو عثمان الحديث وأرواه ، وفهم « تأويل الأحاديث ، وأي ضرب يكون مردوداً ، وأي ضرب منها يكون متأوّلاً ، وأي ضرب منها يقال إن ذلك إنما هو حكاية عن بعض القبائل » . وقال : « لولا مكان المتكلمين لهلكت العوام واختطفت واسترقت ، ولولا المعتزلة لهلك المتكلمون » .

---

(١) التزيد في الحديث الكذب .
(٢) البهرجة أن يعدل بالشيء عن الجادة القاصدة إلى غيرها .
(٣) حاطب ليل : مخلط في كلامه .
(٤) المسخوط : المكروه .

غلب الصدق على الجاحظ حتى ليتحاشى الحط على أحد من أهل الملل والنحل ، وما جوّز التقول على من يخالفه أياً كان وكانت نحلته ، « ولم يذكر محاسن الخوارج ، ولم يخبر عن مآثرهم لأنه يتولاهم[1] ، ولا لأنه يميل إليهم ، ولكنه خبر أنهم مع مروقهم من الدين وخروجهم عنه وجهلهم به ، أحسن اقتصاداً من الرافضة ، فخبر عن توقيهم للكذب على من عاداهم ، وجرأة الرافضة على الكذب على أعدائهم ، وخبر عن شعر الخوارج ونواحهم على ذنوبهم ، ووصف أصحابهم بالنسك والفضل ، ثم خبر عن شعر عمران ابن حطان وحبيب بن خُدرة وأشباههما من شعراء الخوارج » . قال الخياط : « وهذا شعر السيد فانظروا فيه لتعلموا صدق الجاحظ ، وأنه لم يتزيد على الرافضة حرفاً واحداً ، وقال إن الجاحظ بين في كتاب فضيلة المعتزلة أن الرافضة يقتطعون آل أبي طالب عن العلم والعمل جميعاً ، ويوهمونهم أن المعاصي لا تضرهم ، وأن الواحد منهم يشفع فيمن أراد أن يشفع ، وأنه لم يسلم جلة أصحاب رسول الله من المهاجرين والأنصار من شتمهم وعداوتهم ، ولم يسلم من تولوه من آل علي من تثبيطهم عن العلم ، وتزهيدهم في العمل الصالح المقرّب لهم إلى الله ، فلم ينج منهم ولي ولا عدوّ » . ومن أجل هذا قال المسعودي في كتب الجاحظ : إنها حسنة « إن لم تدع إلى نَصْب » ؛ وأهل النصب هم المتدينون ببغضة علي بن أبي طالب فإنهم نصبوا له أي عادوه ومنهم الخوارج . والمعتزلة يختلفون في أمير المؤمنين عثمان بعد الأحداث التي أحدثها ، وأكثرهم تولاه وتأول له ؛ ومعظمهم على البراءة من معاوية وعمرو بن العاص ومن شايعهما ؛ ولا نعرف السرّ في انحرافهم عن بني أمية ، مع أن المعتزلة كانوا معتدلين في الحكم على عليّ بن أبي طالب يعطونه حقه من دون زيادة ، ومعاوية وآله وأنصاره جمعوا شمل الإسلام . ولا نعتقد مع هذا أن رسالة النابتة التي نسبت إليه وفيها إقذاع بالأمويين هي من تأليفه ،

---

(١) تولاه : أخذه ولياً .

كما لا نعتقد أن كتاب التاج وكتاب الأخلاق هما له أيضاً .

يقول شيخنا طاهر الجزائري إن الجاحظ قد يسلك طريق التمويه كما سجل عليه ذلك بعض عصرييه من أبناء نحلته كأبي جعفر الإسكافي . وتمويه الجاحظ تمويه عاقل ذي بصيرة ، إذا موّه يكاد يظهر الحق من خلال تمويهه ، وقد يصرح بغير ذلك في موضع آخر ؛ فالعاقل ذو البصيرة ينتفع بكلامه كيف كان . ونقل ابن أبي الحديد أن الجاحظ ألف كتاب العثمانية انتصر فيه للخلفاء الراشدين إلا أنه أظهر ما يشعر بالنصب ، لما اقتضته طينة البصرة على زعم بعضهم ، فتصدى له من أبناء نحلته الإمام أبو جعفر الإسكافي فنقض كتابه ، وأطلق لسانه في الجاحظ ؛ ومن ذلك قوله : القول ممكن ، والدعوى سهلة سيما على مثل الجاحظ ... قوله لغو ومطلبه سجع ، وكلامه لعب ولهو ؛ يقول الشيء وخلافه ، ويحسن القول وضده . قال قاضي القضاة عبد الجبار في طبقات المعتزلة : نقض الإسكافي كتاب الجاحظ في العثمانية في حياته ، فدخل الجاحظ الوراقين ببغداد فقال : من هذا الغلام السوادي الذي بلغني أنه تعرض لنقد كتابي ، وأبو جعفر جالس ، فاختفى منه حتى لم يره . وكان أبو جعفر علويّ الرأي محققاً منصفاً ، قليل العصبية ، ألف سبعين كتاباً في علم الكلام ا هـ .

وقول أستاذنا إن الجاحظ قد يعمد إلى التمويه ، وتمويهه تمويه العاقل ، كلام يحتاج إلى شرح قليل . فإن الجاحظ قد ينقل بعض المسائل على علاتها لا يعرض لها بنقد كما وقع له أن نال من أميري المؤمنين عمر بن عبد العزيز ومعاوية بن أبي سفيان . فنسب إلى معاوية في رسالته القيان ما يقدح في عدالته وما كان معاوية بالمستهتر ولا بالمتهتك ، ولم يجرأ خصومه أن يتهموه بشيء من ذلك . وغريب من أبي عثمان إطلاقه هذا القول مع حبه للحق حتى في مقارعة أعدائه . ولقد شهدناه يدافع عن الخوارج لما أعجبه نسكهم وامتناعهم عن الكذب على من خالفهم ، وإن لم يقل بقولهم في إكفار من رضي بالتحكيم ، وحط من الرافضة لما رآهم يضعون ما لا يحل من الكذب على الرسول وعلى

مخالفيهم ، وأصلاهم ناراً من نقده لما وضعوا آل علي في منزلة لا يرضاها العقلاء من ذريته ، فقالوا بعصمتهم وأن المعاصي لا تضرهم .

ومن هذا الضرب إشارته إلى ما وقع بين أحمد بن حنبل والمعتصم في مسألة خلق القرآن قال الجاحظ : وبعد فنحن لم نكفر إلا من أوسعناه حجة ، ولم نمتحن إلا أهل التهمة ، وليس كشف المتهم من التجسس ، ولا امتحان الظنين من هتك الأستار ، ولو كان كل كشف هتكاً . وكل امتحان تجسساً ، لكان القاضي أهتك الناس لستر ، وأشد الناس كشفاً لعورة ، والذين خالفو في العرش ، إنما أرادوا نفي التشبيه فغلطوا ، والذين أنكروا أمر الميزان إنما كرهوا أن تكون الأعمال أجساماً وأجراماً غلاظاً ، فإن كانوا قد أصابوا فلا سبيل عليهم ، وإن كانوا قد أخطأوا فإن خطأهم لا يتجاوز بهم إلى الكفر ، وقولهم وخلافهم بعد ظهور الحجة تشبيه للخالق بالمخلوق ، فبين المذهبين أبين الفرق . وقد قال صاحبكم للخليفة المعتصم يوم جمع الفقهاء والمتكلمين والقضاة والمحصلين إعذاراً وإنذاراً : امتحنتني وأنت تعرف ما في المحنة وما فيها من الفتنة ، ثم امتحنتني من بين جميع هذه الأمة. قال المعتصم : أخطأت بل كذبت . وجدت الخليفة قبلي قد حبسك وقيدك ، ولو لم يكن حبسك على تهمة لأمضى الحكم فيك ، ولو لم يَخَفْكَ على الاسلام ما عرض لك ، فسؤالي إياك عن نفسك ليس من المحنة ولا من طريق الاعتساف ، ولا من طريق كشف العورة ، إذ كانت حالك هذه الحال ، وسبيلك هذه السبيل . وقيل للمعتصم في ذلك المجلس : ألا تبعث إلى أصحابه حتى يشهدوا إقراره ويعاينوا انقطاعه فينقض ذلك استبصارهم فلا يمكنه جحد ما أقر به عندهم فأبى أن يقبل ذلك وأنكره إلى آخر ما ذكر .

مذهب الجاحظ في الدين كمذهبه في العلم ، مذهب العقل وصدق الحس لا يحَكّمُ غيرهما ، ولا يَحْكُمُ بسواهما . لا جرم أن اختلاف أهل السنة والجماعة مع المعتزلة اختلاف لا يعتد به كثيراً ، والمسائل المختلف فيها لا

تعبث بأصل من أُصول الدين ، فمن قال مثلاً بأن الله يرى في الآخرة له أدلته من الكتاب ، ومن قال بأن الله لا يرى تأول بعض الآيات لإثبات قضيته ، ومن قال إن الفاسق يخلد في النار أو لا يخلد ، فلا يتعلق على كلامه كبير أمر في الدين . يقول إبن حزم : « إن أقرب فرق المعتزلة إلى أهل السنة أصحاب الحسين بن محمد النجار وبشر بن غياث المريسي ثم أصحاب ضرار ابن عمرو وأبعدهم أصحاب أبي هذيل » .

ومن ثبتت له كالجاحظ كل هذه الحسنات في الدفاع عن الدين ، لا يضيره إذا رأى رأي غيره في مسائل طفيفة . والناس منذ كانت الدنيا لا يتفقون في كل الأمور . فقد شهدنا الجاحظ نفسه يخالف أحد أساتذته في بعض الآراء فما قدح ذلك فيهم ، ولا عُدّ عمله من سوء الأدب . وإذا أدركنا أن معظم ما كتبه في الدين قد فُقد نتخيل مبلغ سعة الدعاية التي دُبرت عليه وعلى كتبه خاصة وعلى المعتزلة عامة . يقول ابن أبي الحديد إن المرتضى لما رأى الجاحظ وافق غرضه مرة استجاد قوله فكناه ، مع أنه ما كناه أصلاً قال : « فسبحان الله ما أشد حب الناس لعقائدهم » .

رأينا الجاحظ يجادل أهل الكتاب بالحسنى فينفي عن النصارى لما جاء يحاجهم معرفة الفلسفة ، ويقول ليس لهم « إلا حكمة الكف من الخرط والنجر والتصوير وحياكة البزيون [١] . وكتب المنطق والكون والفساد ، وكتاب العُلوى والمجسطي والهندسة والطب ليست للنصارى ، بل هي لأرسطاليس وبطلميوس وأقليدس وجالينوس وديمقراط وأبقراط وغيرهم ». « هؤلاء الناس من أُمة قد بادوا وبقيت عقولهم ، وهم اليونان ، ودينهم غير دينهم ، وأدبهم غير أدبهم ؛ أولئك علماء وهؤلاء صناع . أخذوا كتبهم لقرب الجوار ، وتداني الدار ، فمنها ما أضافوه إلى أنفسهم ، ومنها

---

(١) البزيون : السندس .

ما حولوه إلى ملتهم » . وقال : إن أكثر من قتل من الزنادقة — ممن كان ينتحل الإسلام ويظهره — هم الذين آباؤهم وأمهاتهم نصارى ، على أنك لو عددت اليوم أهل الظنة ، ومواضع التهمة لم تجد أكثرهم إلا كذلك » قال : « ومما عظّم النصارى في قلوب العوام ، وحببهم إلى الطّغَام ، أن منهم كتاب السلاطين وفراش الملوك ، وأطباء الأشراف ، والعطارين والصيارفة . ولا تجد اليهودي إلا صباغاً أو دباغاً أو حجاماً ، أو قصاباً أو شعاباً [١] .

وذكر أن المسلمين يبجلون النصارى أكثر من اليهود ، لأن النصرانية كانت فاشية في العرب وعليها غالبة ، إلا مُضَر فلم تغلب عليها يهودية ولا مجوسية ، ولم تفشُ فيها النصرانية ، إلا ما كان من قوم منهم ، نزلوا الحيرة يسمون العبّاد ، فإنهم كانوا نصارى وهم مغمورون [٢] مع نبذ [٣] يسير في بعض القبائل ، ولم تعرف مضر إلا دين العرب ثم الإسلام ، وغلبت النصرانية على ملوك العرب وقبائلها : على لَخم وغسان والحارث ابن كعب بنجران وقُضاعة وطيْ في قبائل كثيرة وأحياء معروفة ، ثم ظهرت في ربيعة فغلبت على ثعلب وعبد القيس وأفناء [٤] بكر ثم في آل ذي جَدَن [٥] خاصة . وجاء الإسلام وليست اليهودية بغالبة على قبيلة ، إلا ما كان من ناس من اليمانية ، ونبذ يسير من جميع إياد وربيعة ، ومعظم اليهودية إنما كان بيثرب وحِمْيَر وتَيْماء ووادي القرى في ولد هارون دون العرب ، فعطف قلوب دهماء العرب على النصارى ، المُلكُ الذي كان فيهم ، والقرابة التي كانت لهم ، ثم رأت عوامنا أن فيهم ملكاً قائماً ، وأن فيهم عرباً كثيرة ، وأن بنات الروم وَلَدن لملوك الإسلام ، وأن في النصارى متكلمين وأطباء

---

(١) الشعاب : الملئم وحرفته الشعابة .
(٢) المغمور : الخامل .
(٣) النبذ : الشيء القليل اليسير .
(٤) الفنأ محركة : الكثرة ، وبالسكون الجماعة .
(٥) قيل من أقيال حمير .

ومنجمين فصاروا بذلك عندهم عقلاء وفلاسفة حكماء ، ولم يروا ذلك في اليهود .

وقال في وصف حال الفلسفة عند اليهود : « إنهم يرون أن النظر في الفلسفة كفر ، والكلام في الدين بدعة ، وأنه مَجْلبة لكل شبهة ، وأنه لا علم إلا ما كان في التوراة وكتب الأنبياء ، وأن الإيمان بالطب وتصديق المنجمين من أسباب الزندقة ، والخروج إلى الدهرية ، والخلاف على الاسلاف وأهل القدوة ، حتى أنهم ليبهرجون المشهور بذلك ، ويحرمون كلام سالك سبيل أولئك » .

وقال في علاقة المسلمين بالنصارى : « على أن هذه الأمة لم تبتل باليهود ولا المجوس ولا الصابئين ، كما ابتليت بالنصارى ، وذلك أنهم يتبعون المتناقض من أحاديثنا ، والضعيف الإسناد من روايتنا ، والمتشابه من آي كتابنا ، ثم يَخلُون بضعفائنا ويسألون عنها عوامنا ، مع ما قد يعلمون من مسائل الملحدين والزنادقة الملاعين ، وحتى مع ذلك ربما تبرأوا إلى علمائنا وأهل الأقدار منا ، ويشْغَبون على القوي ، ويُلَبّسون على الضعيف ، ومن البلاء أن كل إنسان من المسلمين يرى أنه متكلم ، وأنه ليس أحد أحق بمحاجة الملحدين من أحد » .

وتفسير هذا ان الجاحظ عُني بالرد على من نال من الإسلام ، فلم يتخلّ حتى عن الكتابيين ، وأحسن تعليل صلات النصارى بالمسلمين ، واعترف بأن من دانوا بالنصرانية يعرفون كيف يدخلون الشبه على عقول العوام من المسلمين ، وقال إن النصارى ليسوا أهل حكمة ، وأن الحكمة خاصة باليونان ، وإنما النصارى أهل صناعات وقع إلى بلادهم شيء من علوم اليونانيين ، واليونان مخالفون للنصارى في دينهم وتاريخهم وأدبهم ، واليهود لا يعرفون شيئاً غير التوراة ، وينبذون ما عداها من العلوم ، وصناعاتهم حقيرة ، وصناعات النصارى شريفة ، وأن ما عطف قلوب جمهور المسلمين

على أبناء النصرانية إلا الصلات الكثيرة التي تأصلت بين النصارى والعرب بالمصاهرة والاختلاط ولأن فيهم ملكاً قائماً .

كثر الزنادقة في عهد الجاحظ واهتم لذلك الخلفاء ، فقال هو بالضرب على أيديهم قائلاً : « أجمعوا على أن قتل البعض إحياء للجميع ، وأن إصلاح الناس في إقامة جزاء الحسنة والسيئة ، ولكم في القصاص حياة ، والقَوَد حياة ؛ وهذا شيء تعمل به الأمم كلها غير الزنادقة ، والزنادقة لم تكن قط أمـة ، ولا كان لها مُلك ومملكة ، ولم تزل بين مقتـول وهارب ومنافق » .

وأجاب من قال له إن الزنادقة كانوا حرصى على كتب المقالات بالورق النقي الأبيض ، والحبر الأسود واستجادة الخط : « إن إنفاق الزنادقة على تحصيل الكتب ، كإنفاق النصارى على البيعَ ، ولو كانت كتب الزنادقة كتب حكم ، وكتب فلسفة ، وكتب مقاييس ، وسنن نبيين وتبيين ، أو لو كانت كتبهم كتباً تعرف الناس أبواب الصناعات ، أو سبـل الكسب والتجارات ، أو كتب ارتفاقات ورياضات ، أو بعض ما يتعاطاه الناس من الفطن والآداب ؛ وإن كان ذلك لا يقرب من غنيً ولا يبعد من مأثم ؛ لكانوا ممن قد يجوز أن يظن بهم تعظيم البيان ، والرغبة في التبيين ، ولكنهم ذهبوا فيها مذهب الديانة على طريق تعظيم الملة ، فإنما إنفاقهم في ذلك كإنفاق المجوس على بيت النار ، وكإنفاق النصارى على صلبان الذهب ، وكإنفاق الهند على سَدنة البددة [1] ... والذي يدل على ما قلنا أنه ليس في كتبهم مَثَل سائر ، ولا خبر طريف ، ولا صنعة أدب ، ولا حكمة غريبة ، ولا فلسفة ، ولا مسألة كلامية ، ولا تعريف صناعة ، ولا استخراج آلة ، ولا تعليم فلاحة ، ولا تدبير حرب ، ولا منازعة عن دين ، ولا مناضلة عن نحلة ، وجلّ ما

---

(١) البد : الصنم معرب بت ج بددة وأبداد بيت الصنم ، والسدنة واحدها سادن وهو خادم الصنم وأطلق في الإسلام على خادم الكعبة .

فيها ذكر النور والظلمة ، وتناكح الشياطين ، وتسافد العفاريت ... لا ترى فيها موعظة حسنة ، ولا حديثاً مونقاً ، ولا تدبير معاش ، ولا سياسة عامة ، ولا ترتيب خاصة ، فأي كتاب أجهل ، وأي تدبير أفسد من كتاب يوجب على الناس الإطاعة والتخرج بالديانة على جهة الاستبصار والمحبة ، وليس فيه صلاح معاش ، ولا تصحيح دين ، والناس لا يحبو ن إلا ديناً أو دنيا ... وكل دين يكون أظهر فساداً احتاج من الترقيع والتمويه ، ومن الاحتشاد له ، والتغليظ فيه ، إلى أكثر ، وقد علمنا أن النصرانية أشد انتشاراً من اليهودية تعبداً ، فعلى حسب ذلك يكون تزيدهم في توكيده ، واحتفالهم في إظهار تعليمه » .

وقال فيهم وفيمن يحب مشاكلتهم : « وربما سمع أحدهم ممن لا معرفة عنده ولا تحصيل له أن الزنادقة ظرفاء ، وأنهم عقلاء وأدباء وأنهم عباد ، وأصحاب اجتهاد ، وأن لهم البصائر في دينهم ، والبذل لمهجهم ، وأن هناك علماً وتمييزاً ، وإنصافاً وتحصيلاً ، فينزو نحوهم نزو المُهر الأرن[1] ، ويحن إليهم حنين الواله العجول ، ويتصبى فيهم صبابة العاشق المتيم ، ويرى أنه متى اتهم بهم فقد قضي له بذلك كله ، فلا يزال كذلك حتى يسهل في طباعه ، ويرجح عنده أن يزعم أنه زنديق » .

وقال في نعت الدهريين : « فإن الذي ينفي الرب ، ويحيل الأمر والنهى ، وينكر جواز الرسالة ، ويجعل الطينة قديمة ، ويجحد الثواب والعقاب ، ولا يعرف الحلال والحرام ، ولا يقرّ بأن في جميع العالم برهاناً يدل على صانع ومصنوع ، وخالق ومخلوق ، ويجعل الفلك الذي لا يعرف نفسه من غيره ، ولا يفصل بين الحديث والقديم ، وبين المحسن والمسيء ، ولا يستطيع الزيادة في حركته ، ولا النقصان من دورانه ، ولا معاقبة للسكون بالحركة ، ولا الوقوف طرفة عين ، ولا الانحراف عن الجهة هو الذي يكون

---

(١) الأرن : الهائج ، وينزو : يثب .

به جميع الإبرام والنقض ، ودقيق الأمور وجليلها ، وهذه الحكم العجيبة ، والتدابير المتقنة ، والتآليف البديعة ، والتركيب الحكيم ، على حساب معلوم ، ونسق معروف على غاية من حقائق الحكمة ، وإحكام الصنعة .. لأن الدهريّ ليس يرى أن في الأرض ديناً أو نحلة أو شريعة أو ملة ، ولا يرى للحلال حرمة ولا يعرفه ، ولا للحرام نهاية ولا يعرفه ، ولا يتوقع العقاب على الإساءة ، ولا يتوخى الثواب على الإحسان ، وإنما الصواب عنده والحق في حكمه ، أنه والبهيمة سيان ، وأنه والسبع سيان ، ليس القبيح عنده إلا ما خالف هواه ، وإن مدار الأمر على الإخفاق والدّرْك ، وعلى اللذة والألم ، وإنما الصواب فيما نال من المنفعة ، وإن قتَل ألف إنسان صالح لمنالة[1] الدرهم الرديء ... » .

وقال في المنانية أصحاب ماني : « إن أناساً حين جهلوا الأسباب والمعاني ، وقصروا في الخلقة عن تأمل الصواب والحكمة فيها خرجوا إلى الجحود والتكذيب حتى أنكروا خلق الأشياء . وزعموا أن كونها بإهمال لا صنعة فيه ولا تقدير ، فكانوا بمنزلة عميان دخلوا داراً قد بنيت أتقن بناء ، وفرشت أحسن فرش ، وأُعِدّ فيها من ضروب الأطعمة والأشربة والمآدب ، ووضع كل شيء من ذلك في موضعه على صواب وتقدير ، فجعلوا يسعون فيها محجوبة أبصارهم فلا يبصرون هيئة الدار وما أُعِدّ فيها ، وربما عثر والواحد منهم بالشيء قد وضع في موضعه وأعد لشأنه ، وهو جاهل بالمعنى فيه ، فتذمر وتسخط وذم الدار وبانيها . »

« فهذه حال هذا الصنف في إنكارهم ما أنكروا من الخلقة ، وأنهم لما غبيت أذهانهم عن معرفة الأسباب والعلل في الأشياء ، صاروا يجولون في هذا العالم كالحيارى لا يفقهون ما هو عليه في إتقان خلقته ، وصواب هيئته ، وربما وقف الواقف منهم على الشيء يجهل سببه والأرب فيه ، فيسرع إلى

---

(١) النال والمنال والمنالة مصدر نلت أنال .

ذمه وعيبه ووصفه بالخطأ والإحالة ، كالذي أقدمت عليه وجاهرت به المنانية الكفرة ، وأشباههم من أهل الضلال . فحق على من أنعم الله عليه بمعرفته ، ووفقه لتأمل هذه الخليقة ، والوقوف على ما في خلقها من لطف التدبير ، وصواب التقدير ، بالدلائل القائمة فيها ، أن لا يقصر في إظهار ما بلغه علمه من ذلك ، بل يجهد في نشره وإذاعته وإيراده على المسامع والأذهان ، لتقوى دواعي الإيمان ، وتخيب مكيدة الشيطان » .

هذه نموذجات من أساليب الرد على من خالفوا الإسلام ، ولا سيما المانوية والزنادقة والملحدون ممن كانوا يعملون على هدم كل معتقد ، فيتأذى الإسلام بدعوتهم ، وتسري في أذهان العوام . وقال في المجوسية : ولم ترَ قط ذا دين تحول إلى المجوسية عن دينه ولم يكن ذلك المذهب إلا في ضعفة من أهل فارس والجبال ، وخراسان كلها فارسية فإن عجبتَ من استسقاطي لعقل كسرى ابرويز وآبائه وأحبابه وقرابته وكتابه وأطبائه وحكمائه وأساورته فإني أقول في ذلك قولاً لا يعرف به أنني ليس إلى العصبية ذهبت .

رأى أبو عثمان إنزال العقوبات في العابثين بالأديان فقال : « من لم يعمل بإقامة جزاء السيئة والحسنة ، وقتل في موضع القتل ، وأحيي في موضع الإحياء ، وعفا في موضع العفو ، وعاقب في موضع العقوبة ، ومنع ساعة المنع ، وأعطى ساعة الإعطاء ، خالف الربّ في تدبيره ، وظن أن رحمته فوق رحمة ربه ؛ وقد قالوا : بعض القتل إحياء للجميع ، وبعض العفو إغراء ، كما أن بعض المنع إعطاء ولا خير فيمن كان خيره محصناً ، وشرّ منه من كان شره صرفاً ، ولكن أخلط الوعد بالوعيد ، والبشر بالعبوس ، والإعطاء بالمنع ، والحلم بالإيقاع ، فإن الناس لا يهابون ويصلحون إلا على الثواب والعقاب ، والإطماع والإخافة ، ومن أخاف ولم يقع وعرف بذلك كان كمن أطمع ولم ينجز وعرف بذلك ، ومن عرف بذلك دخل عليه بحسب ما عرف منه ؛ فخير الخير ما كان ممزوجاً ، وشر الشر ما كان صرفاً . ولو كان الناس يصلحون على الخير وحده ، لكان الله عزّ وجل أولى بذلك

الحكم ، وفي إطباق جميع الملوك وجميع الأئمة في جميع الأقطار ، وفي جميع الأعصار ، على استعمال المكروه والمحبوب ، دليل على أن الصواب فيه دون غيره ؛ وإذا كان الناس إنما يصطلحون على الشدة واللين ، وعلى العفو والانتقام ، وعلى البذل والمنع ، وعلى الخير والشر ، عاد ذلك الشر خيراً ، وذلك المنع إعطاء وذلك المكروه محبوباً » .

وراعني سمعك في تلاوة الجملة الآتية يرد على من لم يحسن من العلماء تعليل أمية رسول الله ، وكيف حاجه فأحسن حجاجه ، ودله على قصور علمه وضعف منطقه ، قال : « وكان شيخ من البصريين يقول : إن الله إنما جعل نبيّه أُميّاً لا يكتب ، ولا يحسب ولا ينسب ، ولا يقرض الشعر ، ولا يتكلف الخطابة ، ولا يتعمد البلاغة ، لينفرد الله بتعليمه الفقه وأحكام الشريعة ، ويقصره على معرفة مصالح الدين ، دون ما تتباهى به العرب من قيافة الأثر ، وعيافة الطير ، ومن العلم بالأنواء وبالخيل ، وبالأنساب والأخبار ، وتكلف قوم الأشعار ، ليكون إذا جاء بالقرآن الحكيم ، وتكلم بالكلام العجيب ، كان ذلك أدل على أنه من الله ، وزعم أن الله لم يمنعه معرفة آدابهم وأخبارهم وأشعارهم ، ليكون أنقص حظّاً من الحاسب والكاتب ، ومن الخطيب الناسب ، ولكن ليجعله نبيّاً ، وليتولى أمر تعليمه بما هو أزكى وأنمى ؛ فإنما نَقَصَه ليزيده، ومنعه ليعطيه ، وحجبه عن القليل ، ليجلي له الكثير .

قال الجاحظ وقد أخطأ هذا الشيخ ولم يرد إلا الخير ، وقال بمبلغ علمه ومنتهى رأيه ، ولو زعم أن أداة الحساب والكتابة ، وأداة قرض الشعر وجميع النسب ، قد كانت فيه تامة وافرة مجتمعة كاملة ، ولكنه صلى الله عليه وسلم صرف تلك القوى وتلك الاستطاعة إلى ما هو أزكى بالنبوة وأشبه بمرتبة الرسالة ، وكان إذا احتاج إلى البلاغة كان أبلغ البلغاء ، وإذا احتاج إلى الخطابة كان أخطب الخطباء ، وأنسب من كل نسب ، وأقوف من كل قائف ، ولو كان في ظاهره ، والمعروف من شأنه أنه كاتب حاسب وشاعر

ناسب ، ومتفرس قائف ، ثم أعطاه الله برهانات الرسالة وعلامات النبوة ، لما كان ذلك مانعاً من وجوب تصديقه ، ولزوم طاعته ، والانقياد لأمره ، على سخطهم ورضاهم ، ومكروههم ومحبوبهم ، ولكنه أراد أن لا يكون للشاعر مُتَعَلّق عما دعا اليه ، حتى لا يكون دون المعرفة بحقه حجاب وإن رق ، وليكون ذلك أخف في المؤنة ، وأسهل في المحنة ، فلذلك صرف نفسه عن الأمور التي كانوا يتكلفونها ويتنافسون فيها ، فلما طال هجرانه لقرض الشعر وروايته ، صار لسانه لا ينطق به ، والعادة توأم الطبيعة ، فأما في غير ذلك ، فإنه إذا شاء كان أنطق من كل منطيق ، وأنسب من كل ناسب ، وأقوف من كل قائف ، وكانت آلته أوفر ، وأداته أكمل ، إلا أنها كانت مصروفة إلى ما هو أبعد ، وبين أن يضيف إليـــه العادة الحسنة وامتناع الشيء عليه من طول الهجران له رفق .

قال : « ومن العجب أن صاحب هذه المقالة لم يره عليه السلام في حال معجزة قط ، بل لم يره إلا وهو وإن طال الكلام قصر عنه كل مطيل ، وإن قصر القول أتى على غاية كل خطيب ، وما عدم منه إلا الخط وإقامة الشعر ، فكيف ذهب ذلك المذهب ، والظاهر من أمره عليه السلام غير ما توهم » .

ويخيل إلى من يتدبر هذا الكلام أنه لم يفهم من أمية الرسول عالم من المحدثين والقدماء ما أدركه الجاحظ من هذه الصفة الشريفة في النبي خاصة ، وإذا فهمه فيستحيل عليه أن يكتب فكره بهذا البيان .

انظر اليه ينتقد على السلف في تقصيرهم في سيرة الرسول ، يقول : إن السلف الذين جمعوا القرآن في المصاحف بعد أن كان متفرقاً في الصدور ، والذين جمعوا الناس على قراءة زيد بعد أن كان غيرها مطلقاً غير محظور ، والذين حصنوه ومنعوه الزيادة والنقصان لو كانوا جمعوا علامات النبي صلى الله عليه وسلم وبرهانه ودلائله وآياته ، وصنوف بدائعه ، وأنواع

عجائبه ، في مقامه وظعنه ، وعند دعائه واحتجاجه في الجمع العظيم وبحضرة العدد الكثير الذين لا يستطيع الشك في خبرهم إلا الغبي الجاهل والعدو المائل لما استطاع اليوم أن يدفع كونها وصحة مجيئها لا زنديق جاحد ، ولا دهري معاند ، ولا متظرف ماجن ، ولا ضعيف مخدوع ، ولا حدث مغرور ، ولكان مشهوراً في عوامنا كشهرته في خواصنا ، ولكان استبصار جميع أعياننا في حقهم كاستبصارهم في باطل نصاراهم ومجوسهم ، ولما وجد الملحد موضع طمع في غيّ يستميله وفي حدث يموه له ، ولولا كثرة ضعفائنا مع كثرة الدخلاء فينا الذين نطقوا بألسنتنا واستعانوا بعقولنا على أغبيائنا وأغمارنا لما تكلفنا كشف الظاهر وإظهار البارز والاحتجاج الواضح اهـ .

كان الجاحظ على سعة صدره ، وطول أناته ، لا يغتفر التخليط لأي كان ممن عاصرهم أو تقدموا زمنه ، يناقشهم ويحاسبهم خصوصاً إذا قصروا في الكلام وادعوا ما ليس فيهم وخاضوا فيما لا يحسنون الخوض فيه . فقد رأيناه آنفاً ينحى إنحاء شديداً على الخليل بن أحمد وعلى عبدالله ابن المقفع ، لأنهما كتبا في الكلام أموراً عدها جرأة على العلم . ومن رأيه أن الرجل إذا أتقن الصنف والصنفين من العلوم يجب أن لا يدعى غيرهما ، ويحجم عن مقامات العلوم الأخرى ، فلا يتطاول إلى ما لا يعلم ، فالخليل بن أحمد صاحب العروض والنحو كان يجب أن يبقى في فنه لا يتعداه ، وكذلك عبدالله بن المقفع كان المفروض فيه ، وهو ما هو في البلاغة والحكمة واختراع المعاني ، أن لا يتعدى ذلك إلى البحث في الكلام ولذلك أوجع الجاحظ هذين المؤلفين العظيمين لأنهما تعديا اختصاصهما في العلم ، ونقدهما بشدة لم يشفع فيهما ذكاؤهما النادر ، وجهة إخصائهما في الفنون الأخرى . قال في كتابه طبقات المغنيين بعد أن ذكر أن الخليل ابن أحمد واضع علم العروض : فلما أحكمه وبلغ منه ما بلغ أخذ في تفسير اللحون فاستدرك منه شيئاً ورسم له رسماً احتذى عليه من خلفه ،

واستعمله من غنى به ، وكان إسحاق بن إبراهيم الموصلي أول من حذا حذوه وامتثل هديه . واجتمعت له في ذلك آلات لم تجتمع للخليل بن أحمد قبله . وقال في الموصلي إنه ألف في الغناء كتباً معجبه « وسهل له فيها ما كان مستصعباً على غيره ، فصنع الغناء بعلم فاضل ، وحذق راجح ، ووزن صحيح » .

مقاتل المرء تبدو متى عالج عملاً ليس منه بسبيل ؛ فقد كتب المسعودي في سنان بن ثابت الحراني لما وضع كتاباً في الأخلاق يقول : « إنه انتحل ما ليس من صناعته ، واستنتج ما ليس من طريقته ، وهو وإن أحسن فيه ، ولم يخرجه عن معانيه ، فإنه عِيب لأنه خرج عن صناعته ، وتكلف ما ليس من مهنته ، ولو أقبل على علمه الذي انفرد به من أنواع الفلسفة ، لكان قد سلم مما تكلفه ، وأتى بما هو أليق بصنعته ، ولكن العارف بقدره معوز ، والعالم بمواضع الخلة مفقود » .

كل هذا يعالجه الجاحظ في نطاق الإنصاف والأدب بأسلوب لا يخلو من لذع وتهكم . ومن أقواله : وإن امرأً اجتمعت عليه المعتزلة والشيعة والخوارج والمرجئة لظاهر الصواب واضح البرهان ، على اختلاف أهوائهم وبغيتهم لكل ما ورد عليهم ؛ فإن قال قائل : هذه الروافض بأسرها تأبى ذلك وتنكره ، وتطعن فيه وترى تغييره ، قلنا : إن الروافض ليست منا بسبيل ، لأن من كان أذانه غير أذاننا ، وصلاته غير صلاتنا ، وطلاقه غير طلاقنا ، وعتقه غير عتقنا ، وحجه غير حجنا ، وفقهاؤه غير فقهائنا ، وإمامه غير إمامنا ، وقراءته غير قراءتنا ، وحلاله غير حلالنا ، وحرامه غير حرامنا ، فلا نحن منه ولا هو منا .

فنــه :

سئل الجاحظ مرة ما تأويل هذه الآية (وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة ، إن أخذه أليم شديد) فقال : تأويلها تلاوتها . ونحن

إذا سئلنا ما هي الصنعة أو التثقيف أو الفن في كلام الجاحظ نقول : تدبروا كلامه تدركوا مبلغه من الصنعة . وإذا كان لابد من تحليل صنعته نقول : كان اتساع أبي عثمان في اللغة لا يشبه اتساع اللغويين ، استبطن من أسرارها ما يقل استبطان مثله على غيره ، وعرف طوائف من الألفاظ تصلح في الأدب ، وطوائف تصلح في الزراعة ، وأخرى للصناعات وأعمال الحياة ، وغيرها للدينيات ومطالب العقبى ، عدا ما خص بمعرفته من الألفاظ الصالحة لكل شأن . كان جدّ عارف بما يختار ويطرح ، يقدر اللفظة بجَرْسها ورنتها ، وما يتوقع من تأثير توقيعها وتلحينها إذا قرنت إلى أختها ، ويميز الثقيلة والخفيفة ، والمأنوسة من الوحشية ، فيختار ما يؤدي جملته حق الأداء ؛ فإبداعه في فنه يرجع أولاً إلى ما يختار من الألفاظ . كان نحاتاً وبناءً في آن واحد : يجوّد نحت أحجاره ، ويحسن رصفها في البناء ، والمهارة كل المهارة في إبراز المتماثل من المواد إلى جانب ما يوائمها ، وقد يستجيد الباني أجمل الأحجار لبنائه ، فإذا لم يحسن الهندسة فقد البناء روعته المشعرة بأن الباني عليم بالجمال . يقول العسكري : « إن المعاني مشتركة بين العقلاء ، فربما وقع المعنى الجيد للسُّوقي والنَّبَطي والزنجي ، وإنما تتفاضل الناس في الألفاظ ورصفها وتأليفها ونظمها » .

أعظم ما تدور حوله صنعة الجاحظ إذا لباقة في تصيده من بحر اللغة المتلاطمة أمواجه في صدره . هو لم يستعمل إلا ما عذب في المذاق ، وحلا في السمع ، وما تحذلق قط فأكره خشن الألفاظ على أداء ضعيف المعاني ، وما عمد إلى سهل اللفظ للإفصاح عن سهل المعنى ، وهواه أبداً أن يتخير ألفاظاً لمعانيه ، لا معاني لألفاظه . يسير مع الطبع ، ولا يتكلف السجع ، ويكتفي منه بما جاء عفواً في الأحايين ، متجافياً عن خشونة التعمل ، ووعوثة[١] التعقيد ، وآية صنعته ولوعه بتصوير المعاني ، وتقريبها

---

(١) وعث الطريق : كسمع وكرم تعسر سلوكه ، والوعث المكان السهل الدهس تغيب فيه الأقدام والطريق العسر .

من الأذهان ليخرج التالي بشيء يبقى في نفسه . إذا عرفنا كل هذا كشف لنا بعض الغطاء عن تناهيه في إبداعة وفنه .

وقد أفصح عن صنعته بقوله : « ومتى اتكل صاحب البلاغة على الهوينا والوكال[١] ، وعلى السرقة والاحتيال ، لم يَنَلْ طائلاً[٢] ، وشق عليه النزوع[٣] ، واستولى عليه الهوان ، واستهلكه سوء العادة . والوجه الضار أن يحفظ ألفاظاً بعينها من كتاب بعينه ، أو من لفظ رجل ، ثم يود أن يعد لتلك الألفاظ قَسْمها من المعاني ، فهذا لا يكون الا بخيلاً فقيراً ، وحائفاً سروقاً ، ولا يكون إلا مستكرهاً لألفاظه ، متكلفاً لمعانيه ، مضطرب التأليف ، متقطع النظام ، فإذا مر كلامه بنُقّاد الألفاظ وجهابذة المعاني استخفوا عقله ، وبهرجوا علمه . ثم اعلم أن الاستكراه في كل شيء سمج ، وحيث ما وقع فهو مذموم ، وهو في الظرف أسمج ، وفي البلاغة أقبح ، وما أحسن حاله ما دامت الألفاظ مسموعة من فمه ، مسرودة في نفسه ، ولم تكن مخلدة في كتبه ، وخير الكتب ما إذا أعدت النظر فيه زادك في حسنه » . ومعنى قوله هذا أن خير الكتّاب ، من لم يستظهر ألفاظاً بعينها ، ليكرهها على الاندماج في تراكيبه ، ومن لا يستعمل من الألفاظ إلا السهل ، حتى يحوز رضا النقاد ، وأن يجعل تصفحه لدواوين المعاني لا لدواوين الألفاظ « وشر البلغاء من هيأ رسم المعنى قبل أن يهيىء المعنى » عشقاً للفظ الذي يريد إقحامه . ولعل السبب في أنه لم يأت من اللغويين كتاب عظماء كونهم حصروا أذهانهم في الألفاظ ، وما عبأوا بمواطن الاستعمال ، ملأوا حافظتهم بالجيد والرديء ، وعدوه كله من الجيد ، لأنه كان من محفوظهم ، فإذا جاءوا ينشئون استعملوا كل ما وجدوا

---

(١) الوكال : هو الاتكال من تواكلوا مواكلة ووكالا إذا اتكل بعضهم على بعض .

(٢) الطول والطائل والطائلة : الفضل والقدرة والغنى والسعة .

(٣) النزوع : التشبه .

أمامهم أو ذكروه ، فقصروا في البيان ، وانقطعوا عن اللحاق بالبلغاء .

وفي نظره « ليس الكتاب إلى شيء أحوج منه إلى إفهام معانيه ، حتى لا يحتاج السامع لما فيه إلى الروية ، ويحتاج من اللفظ إلى مقدار يرتفع به عن ألفاظ السفِلة[1] والحشوة ، ويحطه من غريب الأعراب ووحشي الكلام ، وليس له أن يهذبه جداً ، وينقحه ويصفيه ويروّقه ، حتى لا ينطق إلا بلب اللب ، وباللفظ الذي قد حذَفَ فضوله ، وتعرّفه وأسقط زوائده ، حتى عاد خالصاً لا شَوْب فيه ، فإنه إن فعل ذلك لم يفهم عنه ، إلا بأن يُجِدّ لهم إفهاماً ، مراراً وتكراراً ، لأن الناس كلّهم قد تعودوا المبسوط من الكلام ، وصارت أفهامهم لا تزيد عن عاداتهم ، إلا أن يعكس عليها ويؤخذ بها » .

فالطريقة عنده إذاً ألا يكثّر المنشيء من التصفية والترويق في الألفاظ ، ولا يرسل كلامه في الناس ، مفتوناً بما جادت به قريحته باديء الرأي . هو يريد التنقيح ، ولكنه لا يوصي بالإكثار منه ، لأن في التعمق الزلل . ولما كان على علم بأن « فتنة الرجل بشعره ، وفتنته بكلامه وكتبه ، فوق فتنته بجميع نعمته » أوصى من يكتب كتاباً « أن لا يكتبه إلا على أن الناس كلهم له أعداء ، وكلهم عالم بالأمور ، وكلهم متفرغ له » قال أبو زيد البلخي ما أحسن ما قال الجاحظ : « عقل المنشيء مشغول ، وعقل المتصفح فارغ » قال أبو عثمان : « ثم لا يرضى بذلك حتى يدع كتابه غفلاً ولا يرضى بالرأي الفطير ، فإن لابتداء الكتب فتنة وعجباً ، فإذا سكنت الطبيعة ، وهدأت الحركة ، وتراجعت الأخلاط ، وعادت النفس وافرة ، أعاد النظر فيه ، فتوقف عند فصوله ، توقف من يكون وزن طبعه في السلامة ، أنقص من وزن خوفه من العيب » . دلّ الكاتبَ بهذا على الوقت المناسب لإعادة النظر فيما كتب . أما هو فكان يحسن اختيار الزمن ليبرز

(١) سفلة الناس (بكسر السين) كفرحة : وأسافلهم وغوغاؤهم .

كلامه في قوالبه المعهودة إحسانه اختيار موضوعه . وقد حكى تلميذه المبرّد عنه قال : رأيت الجاحظ يكتب شيئاً فتبسم ، فقلت : ما يضحكك ؟ قال : إذا لم يكن القرطاس صافياً ، والمداد نامياً ، والعلم مواتياً ، والقلب خالياً ، فلا عليك أن تكون غائباً . وهذا الكلام لا يصدر عن غير متفنن ، ومن عيار الجاحظ ، ولذلك جاءت كتبه كثيرة الحيوية والمائية ، تبسم وتغازل وترقص وتغني .

قال الجاحظ : « وليس في الأرض إنسان إلا وهو يطرب من صوت نفسه ، ويعتريه الغلط في شعره وفي ولده ، إلا أن الناس في ذلك على طبقات من الغلط : فمنهم المغرق المغمور ، ومنهم من قد نال من الصواب ونال من الخطأ ، ومنهم من يكون خطؤه مستوراً لكثرة صوابه ، فما أحسن حاله ما لم يمتحن بالكشف ، ولذلك احتاج العاقل في استحسان كتبه وشعره من التحفظ والتوقي ، ومن إعادة النظر والتهمة ، إلى أضعاف ما يحتاج إليه في سائر ذلك » .

وانظر إليه بعد هذا يصور لك كاتباً « خلا بعلمه عند فقد خصومه ، وأهل المنزلة من صناعته » ويقول : إن « صاحب القلم يعتريه ما يعتري المؤدب عند ضربه وعقابه ، فما أكثر من يعزم على خمسة أسواط فيضرب مائة ، لأنه ابتدأ الضرب وهو ساكن الطباع ، فأراه السكون أن الصواب في الإقلال ، فلما ضرب تحرك دمه فأشاع فيه الحرارة ، فزاد في غضبه ، فأراه الغضب أن الرأي في الإكثار ، وكذلك صاحب القلم ، فما أكثر من يبتديء الكتاب ، وهو يريد مقدار سطرين ويكتب عشرة » .

بهذا تمت مزية الجاحظ من الصنعة مقرونة إلى موهبة الفطرة المفطور عليها : لا يطيل كلامه ولا يختزله ، ولا يرسله حالاً ، يسيل سيلاً ، بل ينظر فيه إذا خلا بنفسه ، فيحذف فضوله ، وإذا أضاف إلى ذلك تخير العذب السائغ من الألفاظ للإفصاح عن المعاني الصريحة ، كان في ذلك

البلاغة وجماع الصنعة المعجزة. انظره مثلاً في كلامه على الخصاء في الإنسان كيف يعبر في جملة قصيرة عن معان كثيرة دقيقة، ويقول في سهولة وتهكم: «وكل خصاء في الدنيا فإنما أصله من قِبَل الروم، ومن العجيب أنهم نَصارى، وهم يدّعون من الرأفة والرحمة ورقة القلب والكبد، ما لا يدعيه أحد من جميع الأصناف» فبهذا الإيجاز واللفظ المنتقى، صوّر المعنى الذي يريد لنقض دعوى النصارى التفرد بالرحمة والشفقة، وقال إنهم المنفردون بين الأمم في ارتكاب هذه الكبيرة.

وشرح هذه العادة في الرد على الروم بقوله: ومما يدل على قلة رحمتهم، وفساد قلوبهم، أنهم أصحاب الخصاء من بين جميع الأمم، والخصاء أشد المُثلة، وأعظم ما ركبه الإنسان، ثم يفعلون ذلك بأطفال لا ذنب لهم ولا دفع عندهم، ولا نعرف قوماً يُعرفون بخصاء الناس حيث ما كانوا إلا ببلاد الروم والحبشة، وهم في غيرهما قليل وأقل قليل، على أنهم لم يتعلموا إلا منهم، ولا كان سبب في ذلك غيرهم ...

لا جرم أن فن الجاحظ بحسن تصويره، لا يترك مجالاً لأن يدعي عليه القارىء أقل قصور، يصور لك كالمصور المبدع بالعبارة، وقد يبسطها أو يقبضها، ويصوّر بالإشارة، وبالشاهد والواقع، حتى لا تخرج من كلامه إلا وقد وعيت أُموراً تخيل إليك أنك سُحرت، لما عمُر به صدرك وقلبك بما أملى عليك. ومن أهم ما في الجاحظ من صنعة أن كلامه قليل الاستعارات والكنايات والمجازات والتشبيهات، لا يأخذ منها إلا بقدر معلوم عند الحاجة، لأن صفاء ديباجته، ونصاعة معانيه، لا يحوجانه إلى الاستعانة بما يبرقش به جمله. والقويّ في امتلاك ناصية الكلام في غُنْيَة عن هذه التهاويل والزخرف[١]. والطلاء يَنْصُل، وإن

---

(١) الزخرف بالضم: الذهب وكمال حسن الشيء ومن القول حسنه بترقيش الكذب ومن الأرض ألوان نباتها، والتهاويل الألوان المختلفة، وزينة التصاوير والنقوش والحلى.

حَسُن في العين للنظرة الأولى ، والعبرة بما تحته من التقاطيع والقسامة . وليس معنى هذا أنه أسقط الكناية والاستعارة والمجاز والتمثيل جملة ، فإنها الأقطاب التي تدور البلاغة عليها كما قال عبد القاهر ، وهي التي نوه بذكرها البلغاء ، ورفع من أقدارها العلماء ، وصنفوا فيها الكتب حتى صار الكلام فيها نوعاً من العلم مفرداً خصوصاً الاستعارة والمجاز . وخَصلة أخرى وهي أن الجاحظ ليس من أرباب الخيال الواسع ولا الضيق ، هو خليق أن يعدّ في جماعة المحسوسات أرباب الفلسفة الحسية ، ولذلك كان تبريزه في النثر . أما شعره فلا يتعدى حدّ الحكاية ، وتصوير حال وحَدَث ، ولطالما تناشده وتذوقه .

للجاحظ فصول كثيرة تحله المحل الأرفع من الإبداع في تصويره ، ومقامه في وصفه لا يقلّ عن مقامه في الحكاية والرواية . انظر إلى حكاياته ورواياته في كتاب البخلاء ، وأمعن النظر فقط في أقوال الكندي ، وحِيَل من يستأجرون الدور وأخلاقهم وتلاعبهم ، تدرك قوة الجاحظ على الإبانة في شؤون الحياة . وانظره في رسالته مدح النبيذ وصفة أصحابه ، يدلي إليك بحججه في المدح ، وحججه في الذم ، ثم يحكى لك ولا يبالي أن حذاق الملوك وأصحاب العنايات التامة ، احتاجوا أن يداووا نفوسهم بالسماع الحسن ، ويشدّوا من مَتْنهم بالشراب الذي إذا وقع في الجوف حرّك الدم ، وإذا حرّك الدم حرك طباع السرور ، ثم لا يزال زائداً في مكيال الدم ، زائداً في الحركة المولّدة للسرور قال : « هذه صفة الملوك وعليه بنوا أمرهم ، جهل ذلك من جهله وعلمه من علمه » . تأمل قوله جهل ذلك من جهله وعلمه من علمه ، فإن فيه صنعة ، وينطوي على معان كثيرة .

كتب رسالة النبيذ إلى صديقه الحسن بن وهب ، ومما قال في مدح النبيذ انه « إذا تمشى في عظامك ، والتبس بأجزائك ، ودب في جنانك ، مَنَحك صدق الحس ، وفراغ النفس ، وجعلك رخى البال ، خليّ الذرع ، قليل الشواغل ، قرير العين ، واسع الصدر ، فسيح الهمّ ،

حسن الظن ، ثم سد عليك أبواب التهم ، وحسن دونك الظن وخواطر الفهم ، وكفاك مؤونة الحراسة ، وألم الشفقة ، وخوف الحدثان ، وذل الطمع ، وكد الطلب ، وكل ما اعترض السرور وأفسد اللذة ، وقاسم الشهوة ، وأخل بالنعمة ، وهو الذي يرد الشيوخ في طبائع الشبان ، ويرد الشبان في نشاط الصبيان ، وليس يخاف شاربه إلا مجاوزة السرور إلى الأشر ، ومجاوزة الأشر إلى البطر ، ولو لم يكن من أياديه ومننه ، ومن جميل آلائه ونعمه . إلا أنك ما دمت تمزجه بروحك ، وتزاوج بينه وبين دمك ، فقد أعفاك من الجد ونصبه ، وحبب إليك المزاح والفكاهة ، وبغّض إليك الاستقصاء والمحاولة ، وأزال عنك تعقد الحشمة ، وكد المروءة ، وصار يومه جَماماً لأيام الفكرة ، وتسهيلاً لمعاودة الروية ، لكان في ذلك ما يوجب الشكر ويطنب الذكر » ، وبالفن الذي حواه هذا الكلام حبب تعاطي النبيذ حتى لمن لا يتعاطاه !

وأنت إذا نظرت إلى رسالته في القيان تراه إذا وصف لك الوجه الحسن تكاد تبصره بعينك ، وإذا عرَض للقبيح ينفرك منه أي نفور . ألا تعجب منه إذا تلوت فيه أسطراً قليلة في وصف حال المغنية في عصره إذ يقول : « وكيف تسلم القَيْنة من الفتنة . أويمكنها أن تكون عفيفة ، وإنما تكتسب الأهواء ، وتتعلم الألسن والأخلاق بالمنشإ ، وهي إنما تنشأ من لدن مولدها إلى أوان وفاتها ، بما يصدُّ عن ذكر الله من لهو الحديث ، وصنوف اللعب والأخابيث ، وبين الخلعاء والمجان ، ومن لا يُسمع منه كلمة جِدّ ، ولا يَرجع إلى فقه ولا دين ، ولا صيانة مروءة ، وتروي الحاذقة منهن أربعة آلاف صوت فصاعداً ، يكون الصوت فيما بين البيتين إلى أربعة أبيات ، عدد ما يدخل في ذلك من الشعر ، إذا ضُرب بعضه ببعض عشرة آلاف بيت ، ليس فيها ذكر الله إلا عن غفلة ، ولا ترهيب عن عقاب ولا ترغيب في ثواب ، وإنما بنيت كلها على ذكر الزنا والقيادة ، والعشق والصبوة ، والشوق والغلمة ، ثم لا تنفك من الدراسة لصناعتها ، منكبة

عليها ، تأخذ من المطارحين الذين طرحهم كله تجميش[١] ، وإنشادهم مراودة ، وهي مضطرة إلى ذلك في صناعتها ، لأنها إن جفتها تفلتت ، وإن أهملتها نقصت ، وإن لم تستفد منها وقفت ، وكل واقف فإلى نقصان أقرب ، وإنما فرق ما بين أصحاب الصناعات ، وبين من لا يحسنها التزيد فيها ، والمواظبة عليها ، فهي لو أرادت الهدى لم تعرفه ، ولو بغت العفة لم تقدر عليها . وإن ثبتت حجة أبي الهُذَيْل فيما يجب على المتفكر زال عنها خاصة ، لأن فكرها وقلبها ولسانها وبدنها مشاغيل بما هي فيه ، وعلى حسب ما اجتمع عليها من ذلك في نفسها لمن بُلي بمجالستها عليه وعليها » .

ألست تتلمس في مفردات هذا الكلام ومركباته فن الجاحظ ، تأمل قوله : « إن جفتها تفلتت وإن أهملتها نقصت » وقوله : « تأخذ عن المطارحين الذين طرحهم كله تجميش وإنشادهم مراودة » وقوله : « وكل واقف فإلى نقصان أقرب » ، ونحن إذا أكثرنا من إيراد الشواهد من أقوال أبي عثمان ، فذلك لنخرج منها بدليل حسي نسقط به حجة خصومه في دعواهم أنه كان يقول الشيء ونقيضه ، على أن هذا أيضاً ضرب من البلاغة ، وأُسلوب من أَساليب الصنعة ، ولا يتيسر مثله لغير أفراد في البلغاء ، فقد يوفّي الكاتب موضوعه عند نفسه ، ويلوّنه للوصول إلى تعريفه ألواناً مُغْرية ، ولكنه قد لا يرضي غيره ولا يبلغ حاجته لأمور تنقصه .

إستمع للجاحظ قطعة أخرى ينفض إليك فيها جملة حال النساك ويصنف لك طبقاتهم ، ويصف لك الدواعي التي أهابت بهم إلى التنسك المصنع ، فتركوا الكدح في الحياة ، ورضوا أن يكونوا حَلَمة طفيلية

---

(١) التجميش كالجمش : المغازلة والملاعبة والمطارحون من يعلمون الغناء يقال طرحت عليه المسألة وطارحته العلم والغناء وتطارحناه .

تمتص رزق غيرها قال : « وجدنا لجميع أهل النقص ، ولأهل كل صنف منهم نسكاً يعتمدون عليه في الأعمال ، ويحتسبون به في الطاعة وطلب المثوبة ، ويفزعون إليه على قــدر فساد الطباع ، وضعف الأصل ، واضطراب الفرع ، مع خبث المنشإ ، وقلة التثبت والتوقف ، ومع كثرة التقلب والإقدام مع أول خاطر ، فنسكُ المريب المرتاب من المتكلمين أن يتحلى برمي الناس بالريبة ، ويتزين بإضافة ما يجد في نفسه إلى خصمه ، خوفاً من أن يكون قد فطن له ، فهو يستر ذلك الداءَ برمي الناس به ، ونسكُ الخارجي الذي يتحلى به ويتزيا بجماله ، إظهار استعظام المعاصي ، ثم لا يلتفت إلى مجاوزة المقدار ، وإلى ظلم العباد ، ولا يقف على أن الله تعالى لا يحب أن يظلم أظلم الظالمين ، وأن في الحق ما وسع الجميع ، ونسكُ الخراساني أن يحج وينام على قفاه ، ويفقد الرياسة ويتهيأ للشهادة ، ويبسط لسانه بالحسبة . وقد قالوا إذا نَسَكَ الشريف تواضع ، وإذا نسك الوضيع تكبر ، وتفسيره قريب واضح . ونسك الكوفي والجندي طرح الديوان وزيارة السلطان ، ونسك دهاقين السواد ترك شرب المطبوخ ، ونسكُ الحصي لزوم طرسوس ، وإظهار مجاهدة الروم ، ونسك الرافضي ترك النبيذ ، ونسك البستاني ترك سرقة الثمر ، ونسك المغنى الصلاة في الجماعة ، وكثرة التسبيح والصلاة على النبي ، ونسكُ اليهودي التشدد في السبت وإقامته ، والصوفي إظهار النسك بين المسلمين إذا كان فَسْلاً[1] ببعض العمل تظرف واظهر تحريم المكاسب وعاد سائلاً ، وجعل مسألته وسيلة إلى تعظيم الناس له . وإذا كان النصراني فسلاً نذلاً مبغضاً للعمل ترهّب ولبس الصوف ، لأنه واثق انه متى لبس وتزيـا بذلك الزيّ وتحلى بذلك اللباس ، وأظهر تلك السيماء أنه قد وجب على أهل اليسر والثروة منهم أن يعولوه ويكفوه ، ثم لا يرضى بأن رَبِـح الكفاية باطلاً حتى استطال

---

(١) الفسل : الرذل الذي لا مروءة له كالمفسول ج أفسل وفسول .

بالمرتبة . فإذا رمى المتكلم المريب أهل البراءة ظن أنه قد حوّل ريبته إلى خصمه ، وحوّل براءة خصمه إليه ؛ وإذا صار كل واحد من هذه الأصناف إلى ما ذكرنا فقد بلغ الأمنية ووقف على النهاية ، فاحذر ان تكون منهم » .

وزاد في مكان آخر ذاكراً الدواعي التي دعت الخصيان إلى التنسك ، فقال : « إن نسك الخصي غزو الروم لما أن كانوا هم الذين خصوه ، وقال ان نسكَ المتكلم التسرع إلى إكفار أهل المعاصي ، وأن يرمي الناس بالجبر أو بالتعطيل أو بالزندقة ، يريد أن يوهم أموراً منها أن ذلك ليس إلا من تعظيمه للدين والإغراق فيه ، ومنها أن يقال لو كان نَطِفاً (١) أو مرتاباً أو مجتنحاً (٢) على بلية ، لما رمى الناس ولرضي منهم بالسلامة ، ومان كان ليرميهم إلا للعز الذي في قلبه ، ولو كان هناك من ذل الريبة شيء لقطعه ذلك عن التعرض لهم ، أو التنبيه على ما عسى أن حركهم له أن يتحركوا ، ولم نجد في المتكلمين أنطف ولا أكثر عيوباً ممن يرمي خصومه بالكفر » .

أرأيتم أبا عثمان يختم جملته الجميلة بقوله « فاحذر ان تكون منهم » يأتي بها بعد أن وصف النساك ووصف سخفهم ومضرتهم ، وبعد أن ثلبهم وأسقطهم حذر منهم . أسمعتموه يقول « ولم نجد في المتكلمين أنطف ولا أكثر عيوباً ممن يرمي خصومه بالكفر » والمتكلمون هنا رجال الدين : ولم لا يكره النساكَ ويدعو الناس إلى كراهتهم وهو الذي لا يقول بغير العمل في المجتمع البشري ؟ ومن مذهبه أن الباريء تعالى منح عبده عقلاً وعرفه طرق الخير والشر وهو مسؤول عن عمله ؛ ولعلك أدركت أيضاً أن خطاب الجاحظ في النسك كان موجهاً لكل من يقرأ كلامه عربيّاً كان أو أعجميّاً ، مسلماً كان أم كتابيّاً ، موافقاً كان أم مخالفاً . لأن الكاتب كاره للنساك على هذا الوجه مهما كانت صورتهم ونحلتهم ، يعتقد المضارّ التي يجلبونها على المجتمع

---

(١) النطف المتهم بريبة والفاسد .
(٢) يجتنح عليه يعتمد .

الإنساني عامة ؛ وكلام الجاحظ فيهم يبقي في نفسك أثراً إذا تدبرته ، وهذا من صنعته وفنه ، ويد صنّاع كيده لا تجري في غير إبداع ، فقد عقد فصلاً في الشعر يكثر ويقل في القبيل الواحد لدواع وبواعث ، لا لمكان الخصب من أرضهم ، ولالأنهم أهل مدر وأكالو تمر ، وقد يكون غذاء بعضهم رديئاً ويأتي فيهم الشاعر « وإنما ذلك على قدر ما قسم الله لهم من الحظوظ والغرائز ، والبلاد والأعراق مكانها » ، وقد ختم كلامه بقوله : « وما أعلم في الأرض نعمة بعد ولاية الله أعظم من أن يكون الرجل ممدوحاً » .

وكذلك تأمل صنعته في إبانته عن رأيه في عدم تغليظ حجاب النساء : « ثم لم يزل للملوك والأشراف إماء يختلفن في الحوائج ويدخلن في الدواوين ، ونساء يجلسن للناس ... ثم كن يبرزن للناس أحسن ما كنّ وأشدّ ما يتزيّن به ، فما أنكر ذلك منكر ولا عابه عائب ... والدليل على ان النظر إلى النساء كلهن ليس بحرام أن المرأة المغنية تبرز للرجال فلا تحتشم من ذلك ، فلو كان حراماً وهي شابة لم يحلّ إذا غنت ، ولكنه أمر أفرط فيه المعتدون حدّ الغَيْرة ، إلى سوء الخلق وضيق العطَن [1] ، فصار عندهم كالحق واجب » تدبر قوله ولكنه أفرط فيه الخ ، فإن فيه صنعة ؛ وكذلك قوله في كتاب النساء : ولسنا نقول ، ولا يقول أحد ممن يعقل ، أن النساء فوق الرجال ، أو دونهم بطبقة أو طبقتين أو بأكثر ، ولكننا رأينا أُناساً يزرون عليهن أشد الزراية ، ويحتقرونهن أشد الاحتقار ، ويبخسونهن أكثر حقوقهن ، وإن من العجز أن يكون الرجل لا يستطيع توفير حقوق الآباء والأعمام ، إلا بأن ينكر حقوق الأمهات والأخوال ، فلذلك ذكرنا جملة ما للنساء من المحاسن ، ولولا أن أناساً يفخرون بالجَلَد وقوة المُنّة ، وانصراف النفس عن حب النساء حتى جعلوا شدة حب الرجل لامَتِه وزوجته وولده دليلاً على الضعف ، وباباً من الخوَر ، لما تكلفنا كثيراً مما شرطناه في هذا

---

(١) يقال : فلان واسع العطن إذا كان رحب الذراع .

الكتاب . قال : ونحن وإن رأينا فضل الرجل على المرأة في جملة القول في الرجال والنساء أكثر وأظهر ، فليس ينبغي لمن عظم حقوق الآباء أن يصغر حقوق الأمهات ، وكذلك الإخوة والأخوات والبنون والبنات ، وأنا وإن كنت أرى أن حق هذا أعظم فإن هذه أرحم . انظر أيضاً هذه الجملة بل مجموع العبارة ألا ترى فيه جنساً من الكلام لا يحسنه كل إنسان .

دع هذا واستمع إلى أبي عثمان يكتب في رسالته التبصر بالتجارة : « كل ثوب من اللباس والفرش ، إذا كان الين وانعم وأسنى كان أرفع ، وكل عِلق من الجواهر والأحجار ، إذا كان أصفى وأضوأ فهو أنفس ، وكل حيوان من الوحشية والأهلية ، إذا كان أجسم وأطوع فهو آثر وأفخر ، وكل انسان من الشريف والوضيع ، إذا كان أعقل وأسهل فهو أجمل ، وكل امرأة حرَّة أو أمة ، إذا كانت أكثر سكوناً ، وأجمل حالاً ، وأنزر طمعاً ، وأشكر للناس فهي أصون ، وكل طير من السهلية والجبلية ، إذا كان آلف كان آثر ، وكل طارف وتالد ، إذا كان أزكى وأجلّ فهو أهنأ ، وكل عدو صغير أو كبير ، إذا كان حميماً فهو أعدى وأشد حسداً ، ومن لم يعرف مأواه فمحذور قربه » تأمل هذه القوانين التي لا تتخلف ، وأنعم النظر في قوله : « من لم يعرف مأواه فمحذور قربه » . أما هو من شريف القول الذي يستسيغه كل أحد ويذهب في تأويله مذاهب ؟ ثم تراه في هذا الفصل يعود فيقول : والدول تنتقل ، والأرزاق مقسومة ، فأجملوا في الطلب ، وارحموا المسكين ، واعطفوا على الضعيف ، تجازوا به وتثابوا ، والقضاء جالب يجلب الأمور ، وخير النوم ما يذهب الإعياء والكسل . ومعرفة الأشياء بالحواس الخمس ، وجودة الشيء بالنظر أن يكون حسناً رائقاً ، وبالخيشوم إذا كان طيباً أرِجاً ، وبالمذاق إذا كان حلواً عذباً ، وبالسمع ان يكون صافي الوقع والصوت ، وباللمس أن يكون ليناً ناعماً . وكانت العجم تقول : القلب والبصر شريكان ، والطعم والحس متفقان ، والفطنة والحفظ رفيقان ، والسمع والمنطق مجتمعان ... وزعم سابور الملك أنه ليس ينبغي

للعاقل أن يعتد بقول سبعة من الناس : بقول السكران والدّلال والمضحك والعليل والعرّاف والنمام والنساء .

الجاحظ متعة النفس في صنعته ، كيف قلّب يراعته فكتب ، وريحانة الأنس إذا جد وهزل ، تتجلى صنعته في وصفه وروايته وحكايته ، وفي جداله وتقريره ، وفي تحقيقه ونقله ، وتطلُ الأنفس على روحه من كل باب ، وحيث تقلبتَ في رياض كلامه تشرف على ألوان الإحسان ، ويأسر عقلك إذا طالت عشرتك له فتستسلم إليه مؤمناً ، وإن كنت من ضعاف الإيمان فيما يحاول سوقك إليه ، واستتباعك فيه .

ونختم هذا بفصل صغير رسم فيه الجاحظ صورة أخرى من صُوَر صنعته ، في موضوع جدّ ألبسه صورة الهزل وهو في وصف الذباب ينال من قاضي البصرة ، ووصفه في الحق « نهاية الفصاحة والاتساع » . قال : «كان لنا بالبصرة قاض يقال له عبد الله بن سوار . لم ير الناس حاكماً زميتاً[1] ركيناً ولا وقوراً حليماً ، ضبط من نفسه ، وملك من حركته مثل الذي ضبط وملك . كان يصلي الغداة في منزله ، وهو قريب الدار من مسجده ، فيأتي مجلسه فيحتبي ولا يتكىء ، فلا يزال منتصباً لا يتحرك له عضو ، ولا يلتفت ولا يَحلُ حبوته ، ولا يُحلُ[2] رجلا على أخرى ، ولا يعتمد على أحد شقيه ، حتى كأنه بناء مبني ، أو صخرة منصوبة . فلا يزال كذلك حتى يقوم إلى صلاة الظهر ، ثم يعود إلى مجلسه ، فلا يزال كذلك حتى يقوم إلى صلاة العصر ثم يرجع لمجلسه ، فلا يزال كذلك حتى يقوم لصلاة المغرب ، ثم ربما عاد إلى مجلسه ، بل كثيراً ما كان يكون ذلك ، إذا

---

(١) الزميت : الوقور وكالسكيت أوقر منه .

(٢) في رواية ولا يحول رجلا عن رجل ، والحبوة بالفتح والضم ، اسم من احتبى بالثوب اشتمل او جمع بين ظهره وساقيه بعمامة ونحوها .

بقي عليه شيء من قراءة العهود والشروط [١] والوثائق ، ثم يصلي العشاء الآخرة وينصرف . فالحق يقال لم يقم في طول تلك المدة والولاية مرة واحدة إلى الوضوء ، ولا احتاج إليه ، ولا شرب ماء ولا غيره من الشراب ، كذلك كان شأنه في طوال الأيام وفي قصارها ، وفي صيفها وفي شتائها . وكان مع ذلك لا يحرك يداً ولا عضواً ، ولا يشير برأسه ، وليس إلا أن يتكلم ثم يوجز ، ويبلغ باليسير من الكلام إلى المعاني الكثيرة .

« فبينا هو كذلك ذات يوم (في مجلسه) وأصحابه حواليه ، وفي السماطين بين [٢] سقط على أنفه ذباب فأطال المكث ، ثم تحول إلى موق عينه ، فرام الصبر في سقوطه على الموق ، وصبر على عضته ، ونفاذ خرطومه ، كما رام الصبر على سقوطه على أنفه ، من غير أن يحرك أرنبته ، أو يغضّن وجهه ، أو يذب بإصبعه ، فلما طال ذلك عليه من الذباب ، وشغله وأوجعه وأحرقه ، وقصد إلى مكان لا يحتمل التغافل ، أطبق جفنه الأعلى على جفنه الأسفل فلم ينهض ، فدعاه ذلك إلى أن يوالي بين الإطباق والفتح ، فتنحى ريثما سكن جفنه ، ثم عاد الى موقه بأشد من مرته الأولى ، فغمس خرطومه في مكان ، كان قد آذاه فيه قبل ذلك ، فكان احتماله أقل ، وعجزه عن الصبر عليه في الثانية أقوى ، فحرك أجفانه ، وزاد في شدة الحركة ، وألحّ في فتح العين ، وفي تتابع الفتح والإطباق ، فتنحى عنه بقدر ما سكنت حركته ، ثم عاد إلى موضعه ، فما زال يلحُّ حتى استفرغ صبره وبلغ مجهوده ، فلم يجد بداً من أن يذبَّ عن عينه بيده ففعل ، وعيون القوم ترمقه ، وكأنهم لا يرونه ، فتنحى عنه بقدر ما ردّ يده ، وسكنت حركته ، ثم عاد إلى موضعه ، ثم ألجأه إلى أن ذب عن وجهه بطرف كمه ،

---

(١) في رواية من قراءة السجلات .

(٢) في رواية والسماط بين يديه ، وسماط القوم بالكسر صفهم .

ثم ألجأه إلى أن تابع ذلك ، وعلم أن فعله كله بعين مَن حضره من أُمنائه وجلسائه ، فلما نظروا إليه قال : أشهد أن الذباب ألجُّ من الخنفساء ، وأزهى من الغراب ، قال : واستغفر الله ، فما أكثر من أعجبته نفسه ، فأراد الله عزَّ وجل أن يعرفه من ضعفه ما كان عنه مستوراً ، وقد علمتم أني ، عند نفسي وعند الناس ، من أرزن الناس ، فقد غلبني وفضحني أضعف خلقه ، ثم تلا قوله تعالى : (وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب) ، وكان بيّن اللسان ، قليل فضول الكلام ، وكان مهيباً في أصحابه ، وكان أحد من لم يطعن عليه في نفسه ، ولا في تعريض أصحابه للمنالة » .

ولا ينقص هذه الصورة البديعة إلا أن يمسك الجاحظ بريشة المصور ، ويعمد إلى إصباغه وليقته ، ليصور القاضي بقده وتقاطيع وجهه ورأسه وعينيه ووجنتيه وسَبَلاته ويديه ورجليه وعمامته وقلنسوته أودنيته وجبته وقفطانه وسراويله وحزامه وحذائه ، ليضيف إلى صورته صورة أخرى . صوَّر قاضي البصرة صورة لا يصل إليهاالمصور المبدع ، صور لنا معنوياته ساعة سطا عليه الذباب ، وصور ما بدر منه، وما انطوى عليه من وقار في جميع حالاتـــه ، ثم اثنى على حسن سيرته وقلة فضوله ، في جد كان الهزل في معانيه وإشاراته لافي ألفاظه ورصفها .

تقرينا جمال فن الجاحظ واستجليناه يتناول كل موضوع من عامة أطرافه ، لا يبقى حاجة في نفس سامع وتال ، شهدناه مهما تعنت متعنت من جهابذة النقد يستحيل عليه أن يقول إنه قالً كذا ، وكان الأولى أن يقول كذا ، وهذا من بعد مرماه في الصنعة .

علمه وبحثه :

تقدم أن الجاحظ لم تقف معارفه عند حد المنقول ، وأنه تعداها إلى الأخذ من كل معقول ، وأن العلوم التي اتجهت إليها همته ، أحذقته فأخرجت

منه عالماً فوق العلماء ، ولم يكن صَحَفياً يأخذ من الكتب ما اتفق ، بل كان نظاراً محققاً يدرس الأشياء ، ويقتلها بحثاً وتنقيباً . كان منهاجه في العلم مطولاً واسعاً ، وهو في كل ما خاض عبابه إخصائي وأعظم من كل إخصائي . يتناول كل ما يقع عليه الحس ، وتنظره العين ، وتتشوف اليه النفس . وليس نظره في كل ما عانى النظر المجرد ، بل نظر « الفلسفة والغرائب التي صحتها التجربة ، وأبرزها الامتحان ، وكشف قناعها البرهان. » لا تراه وهو يفكر فيجيد التفكير ، ويبحث فيكشف عن الحقائق ، إلا داعياً إلى استعمال العقل ، وتجويد التفكير ، لأن « مع عدم الفكرة يكون عدم الحكمة » وفي التفكير « مشحذة للأذهان ، ومنبهة لذوي الغفلة ، وتحليلل لعقدة البلادة ، وسبب لاعتياد الروية ، وانفساح في الصدور ، وعزاء في النفوس ، وحلاوة تقتاتها الروح ، وثمرة تغذو العقل » . قال : « إن كثرة السماع للأخبار العجيبه ، والمعاني الغريبة ، مشحذة للأذهان ، ومادة للقلوب ، وسبب للتفكير ، وعلة للتنقير عن الأمور ، وأكثر الناس سماعاً أكثرهم خواطر ، وأكثرهم خواطر أكثرهم تفكراً ، وأكثرهم تفكراً أكثرهم علماً ، وأكثرهم علماً أرجحهم عملاً ، كما أن أكثر البصراء رؤية للأعاجيب أكثرهم تجارب ولذلك صار البصير أكثر خواطر من الأعمى ، وصار البصير السميع أكثر خواطر من البصير الأصمّ » .

قال : « والذي صير الإنسان إلى استحقاق قول الله عز وجل : (وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعاً) ليس هو الصورة ، وأنه خلقه من نطفة ، وأن أباه خُلق من تراب ، وأنه يمشي على رجليه ، ويتناول حوائجه بيديه ، لأن هذه الخصال كلها مجموعة في البله والمجانين ، والأطفال والمنقوصين والفرق الذي هو الفرق ، إنما هو الاستطاعة ، والتمكن من وجوه الاستطاعة ، وجودة العقل والمعرفة ، أفتظن أن الله عز وجل يخص بهذه الخصال بعض خلقه دون بعض ، ثم لا يطالبهم إلا كما يطالب بعض من أعدمه ذلك وأعراه منه ؟ فلم أعطاه العقل إلا للاعتبار والتفكر ؟ ولِمَ أعطاه المعرفة

إلا ليؤْثر الحق على هواه ؟ ولم أعطاه الاستطاعة إلا لإلزام الحجة ؟ » .

وحذر المرء من الاغترار بما ألف وبما يعرض لقلبه بادىء الرأي . ورأى « أن الناس يحتاجون إلى طبيعة ، ثم إلى معرفة ، ثم إلى إنصاف ، وأول ما يبتدىء به صاحب الإنصاف أمره ، أن لا يعطي نفسه فوق حقها ، وأن لا يضعها دون مكانها ، وأن يتحفظ من شيئين ، فإن نجاته لا تتم إلا بالتحفظ منهما ، أحدهما تهمة الإلف ، والآخر تهمة السابق إلى القلب » . وقال : « فلا تذهب إلى ما تريك العين ، واذهب إلى ما يريك العقل ، وللامور حكمان : حكم ظاهر للحواس ، وحكم باطن للعقول ، والعقل هو الحجة « . « ولعمري إن العيون لتخطىء ، وإن الحواس لتكذب ، وما الحكم القاطع إلا للذهن ، وما الاستبانة الصحيحة إلا للعقل ، إذ كان زماماً على الأعضاء ، وعياراً على الحواس » .

دعا إلى التفكر ودعا إلى الملاحظة ، قائلاً « لا تشفيني إلا الملاحظة » ودعا إلى الشك ؛ ومن لم يشك لم ينظر ، ومن لم ينظر لم يبصر ، ومن لم يبصر بقي في العمى والحيرة كما قال الغزالي . أما هو فيقول : « اعرف مواضع الشك وحالاتها الموجبة لها ، تعرف بها مواضع اليقين والحالات الموجبة له ، وتعلّم الشك في المشكوك فيه تعلماً ، فلو لم يكن ذلك إلا تعرّف التوقف ثم التثبت ، لقد كان ذلك مما يحتاج إليه . ثم اعلم أن الشك في طبقات عند جميعهم ، ولم يُجمعوا على أن اليقين طبقات في القوة والضعف » . وقبله قال شيخه النظام : « الشاك أقرب إليك من الجاحد ، ولم يكن يقين قط حتى صار فيه شك ، ولم ينتقل أحد من اعتقاده إلى اعتقاد غيره حتى يكون بينهما حال شك » .

ومع اعتقاده بما يكشفه العقل من حقائق الكون لم يتجاوز إلى أكثر مما كتب له إدراكه ، قال : « ولو وقفت على جناح بعوضة وقفة معتبر ، وتأملته تأمل متفكر ، بعد أن تكون ثاقب النظر ، سليم الآلة ، غواصاً

على المعاني ، لا يعتريك من الخواطر إلا على حسب صحة عقلك » . وقال : « والإنسان وإن أُضيف إلى الكمال ، وعرف بالبلاغة ، وفاتش العلماء ، فإنه لا يكمل أن يحيط علمه بكل ما في جناح بعوضة أيام الدنيا ، ولو استمد بكل نظار عظيم ، واستعان بكل بحاث واعٍ ، وكل نقّاب في البلاد ودراسة للكتب ، وما أشك أن عند الوزراء في ذلك ما ليس عند الرعية من العلماء . وعند الخلفاء ما ليس عند الوزراء ، وعند الأنبياء ما ليس عند الخلفاء ، وعند الملائكة ما ليس عند الأنبياء ، وما عند الله عز وجل أكثر ، والخلق في بلوغه أعجز » . قال لو كان الأمر « على ما يشتهيه الغرير[1] ، والجاهل بعواقب الأمور ، لبطل النظر وما يشحذ عليه وما يدعو إليه ، ولتعطلت الأرواح من معانيها ، والعقول من ثمارها ، ولعدمت الأشياء حظوظها وحقوقها » .

أهاب بالنفوس أن لا تغتر بما ألفت وسمعت ، وأن لا تهوى الغرائب إلا بامتحانها والنظر فيها ، وحبب التكشيف والتنقيب ، ودعا إلى العقل في النطاق الذي يتأتى الخوض فيه قائلاً : « وباب من هذا الشكل فيكم أعظم حاجة إلى أن تعرفوه ، وتقفوا عنده ، وهو ما يضع الخبر السابق إلى السمع ، ولاسيما إذا صادف من السامع قلة تجربة ، فإن قرن بين قلة التجربة وقلة التحفظ ، دخل ذلك الخبر السابق إلى مستقره دخولاً سهلاً ، وصادف موضعاً وطيئاً ، وطبيعة قابلة ، ونفساً ساكنة ، ومتى صادف القلب كذلك رسخ رسوخاً لا حيلة في إزالته » . وقال : « إن الناس قد استغنوا عن التدبر ، وكفوا مؤونة البحث والتنقير ، لقلة اعتبارهم ، ومن قل اعتباره قلّ علمه ، ومن قلّ علمه قلّ فضله ، ومن قلّ فضله كثر نقصه ، ومن قل علمه وفضله وكثر نقصه لم يحمد على خير أتاه ، ولم يذم على شر جناه ، ولم يجد طعم العزّ ، ولا سرور الظفر ، ولا رَوْح

---

(١) الغرير المخدوع أو الشاب لا تجربة له .

الرجاء ، ولا برد اليقين ، ولا راحة الأمن » .

كان إذا رأى أن « ليس إلى رد الخبر سبيل لمواترته ومرادفته ، ولأن العيان قد حققه ، والتجربة قد ضمت إليه » زاد اعتقاداً فيما كان لا يعتقده ولا يعتقده كثير غيره . ويريد الناس أبداً أن يجربوا بأنفسهم فقد ذكر عند كلامه على أقوال العلماء أن عرق الخال أنرع من عرق العم ، وأن نصيب الأمهات في الأولاد أكثر ، وأنها على الشبه أغلب ـ أن أكثر ما تلد الأمهات الأناث ، وكذلك الناس وجميع الحيوانات قال : فإذا أردت أن تعرف حق ذلك من باطله فأحص سكان عشر دور من يمينك وعشر من شمالك ، وعشر من خلفك وعشر من أمامك ، فانظر أيها أكثر رجالهم أو نساؤهم .

ونبّه أرباب العقول إلى من يعبث بها ، فقال : « وقد ابتلتنا بضربين من الناس ، ودعواهما كبيرة ، أحدهما أن يبلغ من حبه للغريب أن يجعل سمعه هدفاً لتوليد الكذابين ، وقلبه قراراً لغرائب الزور ، ولكلفه بالغريب وشغفه بالطُّرف ، لا يقف على التصحيح والتمييز ، فهو يدخل الغث في السمين ، والممكن في الممتنع ، ويتعلق بأدنى سبب ، ثم يدفع عنه كل الدفع ، والصنف الآخر هو أن بعضهم يرى أن ذلك لا يكون منه عند من يسمعه يتكلم ، إلا من خاف التقذر[1] من الكذب » . وقال في التحذير من صنف من هذه الأصناف المضرة : « وهؤلاء وما أشبههم يفسدون العلم ، ويتهمون الكتب ، وتضرهم كثرة أتباعهم ، ممن تجده مُسْتَهْتَراً بسماع الغريب ، ومغرماً بالطرائف والبدائع ، ولو أعطوا بدلاً من هذا الاستهتار نصيباً من التثبت ، وحظاً من التوقي ، لسلمت الكتب من كثير من الفساد » .

ويحذرك جهرة من تخريف المخرفين من العوام ، والمضللين ممن كان بسبيلهم من الخواص ، لأن في الخواص دجالين أيضاً ، وإن كانوا مؤلفين

---

(١) التقذر : الاجتناب من قذر الشيء كرهه واجتنبه .

ومشهورين ، قال إنهم « لا يدينون بالحقيقة ، ولا يحمدون إلا ظاهر الحيلة ، ومن الدليل على نذالة طبعهم ، والعلم بسفالة رأيهم ، تقديمهم بالفضل لمن لا يفهمونه ، وقضاؤهم بالعلم لمن لا يعرفونه » . وهو يرى بعض الخواص أضرَّ على سير العقل من العوام ، ولطالما حزّت بلاهة الخواص في قلبه ، وهو لا يبرح يهزأ بهم ، ويبين مناشيء المضعوف من رواياتهم ويعلم « أن الناس موكلون بحكاية كل غريب ، وميسرون للإخبار عن كل عظيم ، وليسوا للحسن أحكى منهم للقبيح ، ولا لما ينفح أحكى منهم لما يضر ، وعلى قدر كبر الشيء تكون حكايتهم له واستماعهم إليه » ، « وقد ترك هذا الجمهور الأكبر والسواد الأعظم التوقف عند الشبهة ، والتثبت عند الحكومة[1] جانباً ، وأعرضوا عنه صفحاً ، فليس إلاَّ لا أو نعم . إلا أن قولهم لا ، موصول منهم بالغضب ، وقولهم نعم، موصول منهم بالرضا ، وقد عزل الحـــق جانباً ، ومات ذكر الحلال والحرام ، ورفض ذكر القبيح والحسن » .

وعلل التخريف في الناس ، وفشو الجهل فيهم بقوله : « الناس لم يؤتوا في اعتقادهم الخطأ المكشوف من جهة النظر ، ولكن للنـــاس تأس وعادات ، وتقليد للآباء والكبراء ، ويعملون على الهوى ، وعلى ما يسبق إلى القلوب ، ويستثقلون التحصيل ، ويهملون النظر ، حتى يصيروا في حال متى عاودوه وأرادوه ، نظروا بأبصار كليلة ، وأذهان مدخولة[2] ، مع سوء عادة ، والنفس لا تجيب إذا كانت مستكرهة ، وكان يقال الطبع إذا كره عَمي ، ومتى عمي الطبع جسا[3] وغلظ وأُهمل ، حتى يألف الجهل ، ولم يكن يفهم ما عليه وله » . فهو من هذا النظر يربأُ بمن يحاول تعليمه عن تقليد من يرى تقليدهم ، ويريده أبداً على أن ينظر بعقله ، ويستثبت الأخبار ،

---

(١) الحكومة : القضاء .

(٢) المدخول : المهزول ومن في عقله دخل ، ونخلة مدخولة عفنة .

(٣) جسا كدعا جسواً صلب وجاساه عاداه .

ولا يستمع لنقلة الغرائب منها ، وأن يستند أبداً على التجربة والملاحظة ، وأن يرى الأمور مع عللها وبرهاناتها ، يريده على أن يلاحظ ويتدبر ويحس ، ويكون في حسه صادقاً حازماً ، لا يمتهن شيئاً في عالم الكون والفساد ، يهتم للذرة كما يهتم للدُّرة ويقول : « أُوصيك أيها القارئُ المتفهم ، وأيها المستمع المنصت المتصفح ، أن لا تحقر شيئاً أبداً لصغر جثته ، ولا تستصغر قدره لقلة ثمنه ، ثم اعلم أن الجبل ليس بأدل على الله من الحصاة ، ولا الفلك المشتمل على عالمنا هذا بأدل على الله من بدن الإنسان ، وأن صغير ذلك ودقيقه كعظيمه وجليله » .

فكأن الفيلسوف ديكارت في القرن السابع عشر — وكان يقول بعدم التسليم بشيء إلا بعد فحصه بنور العقل وتحقق وجوده ، وبرفض كل ما قام على الظن والتخمين ، وما ألفته العادة وأتى من العُرف — كأنه قرأ الجاحظ وعرف فلسفته في هذا الشأن ، ونغمتهما في هذا المعنى متشابهة ، كأن الواحدة متممة للأخرى ، أو الأخرى أخذت عن الأولى .

وكأن الجاحظ وهو يدعوك إلى الاستنباط لا إلى الحفظ والاستظهار يقول برأي أحدث علماء التربية من أهل الحضارة اليوم ، وعبارته : « وكرهت الحكماء الرؤساء أصحاب الاستنباط والتفكير جودةَ الحفظ لمكان الاتكال عليه ، وإغفال العقل من التمييز ، حتى قالوا الحفظ عذق الذهن لأن مستعمل الحفظ لا يكون إلا مقلداً ، والاستنباط هو الذي يفضي بصاحبه إلى بـرد اليقين ، وعز الثقة ، والقضية الصحيحة ، والحكم المحمود ، أنه متى أدام الحفظ أضر ذلك بالاستنباط ، ومتى أدام الاستنباط أضرَّ ذلك بالحفظ » .

الجاحظ يردم المنافذ التي تتسرب منها الجهالات ، وينحى على من يضلل الناس ، ويبيع منهم سلعاً فاسدة . وقد بلغ من حريته في البحث ، وغيرته على العلم ، وبعد نظره في المسائل ، أن ردَّ على شيخه النظام وقال إن عيبه الذي لا يفارقه سوء ظنه ، وجودة قياسه على العارض ، والخاطر السابق الذي لا يوثق بمثله ، وأنه كان يظن الظن ثم يقيس عليه ، وينسى أن بدءَ

أمره كان ظناً ، فإذا أتقن ذلك وأيقن جزم عليه ، وحكاه عن صاحبه حكاية المستبصر في صحة معناه. وقال مرة في شيخه الآخر أبي عبيدة : « ولولا أن أكون عياباً ثم للعلماء خاصة ، لصورت لك بعض ما سمعت من أبي عبيدة ومن هو أبعد في وهمك من أبي عبيدة » . ويلوم من ينقلون الأخبار بدون نقد ، وممن لامهم على ذلك ، أبو زيد الأنصاري ، وثقه من جهة وأنكر عليه من أخرى تساهله في التعليق على الروايات المدخولة . فهو يرى العلم وصحة النظر فوق كل اعتبار ، ولا كبير عنده أمام النقد ، وفي ميدان الجدال وإحقاق الحق ، قال في رجل نظر بعض النظر تصويب العلماء لبعض الشكاك حتى زعم أن الأمور كلها يعرف حقها وباطلها بالأغلب إنه « مات ولم يخلف عقباً ، ولا واحداً يدين بدينه ، فلو ذكرت اسمه مع هذه الحال لم أكن أسأت ، ولكني على حال أكره التنويـــه بذكر من تحرم بحرمة الكلام ، وشارك المتكلمين في أسماء الصناعة ، ولا سيما إن كان ممن ينتحل تقديم الاستطاعة » .

وقال مرة : « ورأينا أقواماً يدعون في كتبهم الغرائب الكثيرة والأمور البديعة ، ويخاطرون من أجل ذلك بمروءتهم ، ويعرضون بأقدارهم ، ويسلطون السفهاء على أعراضهم ، ويجرون سوء الظن إلى أخبارهم ، ويحكمون حساد النعم في كتبهم ، ويمكنون لهم من تقاليدهم ، وبعضهم ينظر على حسن الظن بهم ، أو على التسليم لهم والتقليد لدعواهم ، وأحسنهم حالاً من يحب أن يتفضل عليه ببسط العذر له ، ويتكلف الاحتجاج عنه ، ولا ينافي أن يمنّ بذلك على عقبه ، أو من دان بدينه ، أو اقتبس ذلك العلم من قبل كتبه » .

وناقش غير مرة أرسطو في كتاب الحيوان ورد عليه في بعض استقراءاته وقال فيه : « وزعم صاحب المنطق في كتاب الحيوان فيما سلف من الدهر أن ثوراً سَفِد وألقح من ساعته بعد أن خُصي » قال : فإذا أفرط المادح في المدح ، وخرج من المقدار ، وأفرط المتعجب في التعجب ، وخرج من المقدار ، احتاج صاحبه إلى أن يثبته بالعيان ، أو بالخبر الذي لم يكذب

مثله ، وإلا فقد تعرض للتكذيب ، ولو جعلوا بدل حركتهم خبراً وحكاية ، وتبرأوا عن عينه ما ضرَّهم ذلك ، ولكان أصون لأقدارهم وأتم لمروآت كتبهم » . ورد عليه دعواه في أن إناث العصافير أطول أعماراً ، وأن ذكورها لا تعيش إلا سنة . ورد عليه زعمه أن في بلدة طبقون[١] حية صغيرة شديدة اللذع ، إلا أن تعالج بحجر يخرج من بعض قبور قدماء الملوك ، فقال لم أفهم هذا ولم كان ؟ وردّ عليه زعمه أن الطير الكبير الذي يسمى باليونانية اعيتوليس يجلب الدار صيني[٢] من موضعه فيفرش به عشه فقال : « لست أدفع خبر صاحب المنطق عن خبر الدار صيني ، وإن كنت لا أعرف الوجه في أن طائراً ينهض من وكره في الجبال أو بفارس أو باليمن فيؤم ويعمد نحو بلاد الدار صيني وهو لم يجاوز موضعه ولا قرب منه ، وليس يخلو هذا الطائر أن يكون من الأوابد ، وإن كان من القواطع[٣] ، فكيف يقطع الصحصحان[٤] الأملس وبطون الأودية وهضاب[٥] الجبال ، بالتدويم في الجواء والمضيّ على السمت ، لطلب ما لم يزه ولم يشمه ولم يذقه ، وأخرى فإنه لا يجلب منه بمنقاره ورجليه ما يصير فراشاً له ومهاداً إلا بالاختلاف الطويل ، وليس بالوطيء الوثير ، ولا هو له بطعام . فأنا وإن كنت لا أعرف العلة ، فلست أنكر الأمور من هذه الجهة فأنكر هذا » . والجاحظ ينظر إلى

---

(١) لعلها طيسفون مدينة كسرى التي فيها الايوان على ثلاثة فراسخ من بغداد وطيسفون أيضاً قرية بمرو أما طيفون أو طيقون فلم نجد لها ذكراً .

(٢) الدارصيني : شجر هندي يكون بتخوم الصين كالرمان تعريب دار جيني أي شجرة الصين .

(٣) قال ابو زيد الأنصاري : إذا كان الشتاء قطعت الينا الطير والغربان (أي جاءت) من بلادها فهي قواطع وإذا كان الصيف رجعت فيه فهي رواجع ، والطير التي تقيم بأرضنا صيفاً وشتاء أوابد .

(٤) الصحصح والصحصاح والصحصحان ما استوى من الأرض .

(٥) الهضبة : الجبل المنبسط على الأرض أو جبل خلق من صخرة واحدة ج هضب وهضاب وأهاضيب .

الحيوان في تولده ونشأته وموطنه وخصائصه وتربية صغاره وزقها وإطعامها من لبن أو لعاب أو نبات أو غير ذلك ، ويعرف تأثره بالحر والبرد وبالشمس والظل ، وحَذَره من الآدميين إلى غير ذلك ، فكيف يجوز له عقله أن يقطع ذاك الطير ألوفاً من الأميال ليبني عشه بمادة ليست له طعاماً ولا هي مما يستلينه ، ما دام عقله رائده الذي لا يكذب ، وخليله بحثه ونظره .

وقال في رأي أرسطو وزعمه أن ولد الفيل يخرج من بطن أمه نابت الأسنان لطول مكثه في بطنها : « وهذا جائز في ولد الفيل غير منكر ، لأن جماعة نساء معروفات الآباء والأبناء قد ولدن أولادهن ، ولهم أسنان نابتة كالذي رووا في شأن مالك بن أنس ومحمد بن عجلان وغيرهما ، وقد زعم ناس من أهل البصرة أن خاقان بن عبد الله الأهتم استوفى في بطن أمه ثلاثة عشر شهراً ، وقد مُدح بذلك وهجي ، وليس ذلك بالمستنكر ، وإن كنت لم أرَ قط قابلة تقرُّ بشيء من هذا الباب ، وكذلك الأطباء ، وقد رووه كما علمت ، ولا أقر أن الولد يخرج رأسه من بطن أمه حتى يأكل شبعه ثم يدخل رأسه ، ولست أراه محالاً ولا ممتنعاً في القدرة ولا في الطبيعة ، وأرى جوازه موهوباً غير مستحيل ، إلا أن قلبي ليس يقلبه . وليس في كونه ظلم ولا عيب ولا خطأ ، ولا يقصر في شيء من الصفات المحمودة ، ولم نجد القرآن ينكره والإجماع يدفعه ، والله هو القادر دون خلقه ، ولست أبت بإنكاره ، وإن كان قلبي شديد الميل إلى رده ، وهذا مما لا يعلمه الناس بالقياس ، ولا يعرف إلا بالعيان الباهر ، والخبر المتظاهر » أي أنه في هذه المسألة سأل القابلات والأطباء فما صححوا له هذا الخبر ، ولذلك رده قلبه مع أن القدرة لا تدفعه ، والطبيعة لا تنكره ، والشريعة لا ترده ، وإن كان من الأمور التي لا تعرف بالقياس بل بالعيان .

مثال آخر من نقده العلمي : هزأ ببعض المفسرين في دعواهم أن السنور خُلق من عطسة الأسد ، وأن الخنزير خُلق من عطسة الفيل عندما زعموا « أن أهل سفينة نوح لما تأذوا من كثرة الفار وشكوا ، سأل ربه الفرج ، فأمره

أن يأمر الأسد فيعطس ، فلما عطس خرج من منخريه زوج سنانير من ذكر وأنثى ، خرج الذكر من المنخر الأيمن ، والأنثى من المنخر الأيسر ، فكفاهم مؤونة الجرذان ، ولما تأذوا برائحة نجوهم[1] شكوا ذلك إلى نوح ، فشكى إلى الله تبارك وتعالى ، فأمره أن يأمر الفيل فيسلح فسلح خنازير ، فكفوهم مؤونة رائحة ذلك النجو » قال : « وهذا الحديث نافق عند العوام ، وعند بعض القصاص » .

مثال غيره : وقد قال الناس في قوله تعالى (إنها شجرة تخرج في أصل الجحيم ، طلعها كأنه رؤوس الشياطين)، فزعم ناس أن رؤوس الشياطين ثمر شجرة تكون ببلاد اليمن ، لها منظر كريه ، والمتكلمون لا يعرفون هذا التفسير ، وقالوا ما عنى إلا شياطين معروفين بهـــذا الاسم من فسقة الجن ومَرَدَتهم ، فقال أهل الطعن والخلاف كيف يجوز أن يضرب المثل لشيء لم نره فنتوهمه؟ ولا وصف لنا صورته في كتاب ناطق أو خبر صادق ، ومخرج الكلام يدل على التخويف بتلك الصورة والتفزيع منها ، وعلى أنه لو كان شيء أبلغ في الزجر من ذلك لذكره ، فكيف يكون إنسان كذلك ، والناس لا يفزعون إلا من شيء هائل شنيع قد عاينوه ، أو صوره لهم واصف ، صادق اللسان ، بليغ في الوصف ، ونحن لم نعاينها ولا صورها لنا صادق .. « وكل قول يكذبه العيان ، فهو أفحش خطأ ، وأسخف مذهباً ، وأدل على معاندة شديدة ، أو غفلة مفرطة » .

وبعد فإنك ترى الجاحظ وهو يطلق العنان لقلمه في كتاب الحيوان ، يزيف الخرافات والترهات ، في عصره وقبل عصره ، ويورد عليك نقداته ومباحثاته ، فيقع في نفسك أنه لو جاء كثير مثله في عقلاء العلماء لخلت كتب الأقدمين من الإسرائيليات والسخافات ، مما تخيله من دخلوا في الإسلام

---

(١) النجو : ما يخرج من البطن من ريح أو غائط ، والسلاح كغراب النجو ، وسلح كمنع وأسلح .

حقائق أو رقائق ، وأنه لا يضر الدين إذا جعل على هامشه ، فوسعوا بما وضعوا دائرة الخيالات ، وبهرجوا ديناً ساذجاً ، وما كان ما أدخلوه فيه من أصله ولا من متنه .

ثم تأمل قوله: « رووا عن واثلة إياس بن معاوية ، أنه زعم أن من الدليل على أن الشبوط كالبغل ، أن الناس لم يجدوا في طول ما أكلوا الشبابيط في جوفها بَيْضاً قط . فإن كان هذا الخبر عن هذا الرجل المذكور بشدة العقل ، المنعوت بثقوب الفراسة ، ودقة الفطنة صحيحاً ، فما أعظم المصيبة علينا فيه ، وما أخلق الخبر أن يكون صحيحاً ... » ، ومثله قوله في رد قول العوام في الكركدن وضربهم المثل به في الشدة والقوة . قال : وتزعم أنه ربما نطح الفيل فرفعه بقرنه الواحد الذي في وسط جبهته ، فلا يشعر بمكانه ولا يحس حتى ينقطع على الأيام ، وهذا القول بالخرافة أشبه ، وأعجب من القول في ولد الكركدن ، ما يخبرنا به ناس من أهل النظر والأدب وقراءة الكتب ، وذلك أنهم يزعمون أن النمرة لا تضع ولدها أبداً إلا وهو متطوق بأفعى ، وأنها تعيش وتنهش ، إلا أنها لا تقتل » ، قال : « ولو كنت أجسر في كتبي على تكذيب العلماء ، ودرّاس الكتب لبدأت بصاحب هذا الخبر » .

ومما قال : « وفي السمندل لآية غريبة ، وصفة عجيبة ، وداعية إلى التفكر وسبب التعجب ، وذلك أنه يدخل أتون النار فلا تحترق له ريشه » . وقال في مكان آخر : « خبرت عن فأرة البيش[1] واغتذائها السموم ، وعن الطائر الذي يدعى السمندل وطيرانه في جاحم الأتون ، فلا السم المجهز يضر بتلك الفأرة ، ولا النار المضطرمة تحرق من ذلك الطائر زغبه » . وقال : هذا الطائر في طباعه وفي طباع ريشه مزاج من طلاء النفاطين ، وأظن هذا

---

(١) البيش بالكسر : نبات كالزنجبيل رطباً ويابساً ، وربما نبت فيه سم قتال لكل حيوان وترياقه فأرة البيش ، وهي فأرة تتغذى به والسماني تتغذى به أيضاً ولا تموت ، ودواء المسك يقاومه (القاموس) .

الطلاء من طَفَل وخِطمى ومَغْرَة. وقد كنت رأيت عوداً يؤتى به من ناحية كرمان لا يحترق ، وكان عندنا نصراني في عنقه صليب منه ، وكان يقول لضعفاء الناس : هذا العود من الخشبة التي كان المسيح صُلب عليها ، والنار لا تعمل فيه ، فكان يكتسب بذلك ، حتى فطن له وعورض بهذا العود . وزعم ثمامة أن الإنسان إن أخذ من هذا الطُحلب الذي يكون على وجه الماء في مناقع المياه فجففه في الظل وأحرقه فإنه لا يحترق .

ومما قال : « ومما لا أكتبه لك من الأجناس العجيبة التي لا يجسر عليها إلا كل وَقّاح أخبار بعض العلماء ، وبعض من يؤلف الكتب ليقرأها الناس ، ويدارس أهل البصرة ويحفظها ، زعموا أن الضبع يكون عاماً ذكراً وعاماً أنثى ، وسمعت هذا من جماعة منهم من لا أستجيز تسميته ... »

من جملة علوم الجاحظ الطب والكيمياء والظواهر الجوية والطبيعية والأخلاق وعلم النفس ، ألف في المعادن والأصباغ كما ألف في التجارة ، ونقل عن حُنين بن إسحق وبُختيشوع وسلمويه وغيرهم من علماء عصره . وكان يعرف النقص في كتب الأطباء والعلوم حتى قال : « وما كان أحوجنا وأحوج جميع المرضى أن يكون جميع الأطباء متكلمين ، وإلى أن يكون المتكلمون علماء . فإن الطب لو كان من نتائج حذاق المتكلمين ومن تلقيحهم له لم نجد في الأصول التي يبنون عليها من الخلل ما نجد » . وكان يتوفر على تربية بعض الأشجار والنبات توفره على تربية بعض الدواجن وغيرها من الحيوانات ، ليصدر إذا كتب عن خبرة . وقد ألف في الأشجار كتاباً قالوا إنه بإمتاعه ككتاب الحيوان . وكان شعاره : « إذا سمعت الرجل يقول ما ترك الأول للآخر شيئاً فاعلم أنه ما يريد أن يفلح » ، وقال : « وكلام كثير قد جرى على ألسنة الناس ، وله مضرة شديدة ، وثمرة مرة ، فمن أضرّ ذلك قولهم : لم يدع الأول للآخر شيئاً ، قال : فلو أن علماء كل عصر مذ جرت هذه الكلمة في أسماعهم ، تركوا الاستنباط لما لم ينته إليهم عمن قبلهم لرأيت العلم مختلا » .

من أجل هذا توسع الجاحظ في بحثه ، وكان على علمه الفياض يسأل جميع طبقات الناس عما يهمه ويريد أن يتفهمه ، فيصف الماديات والمحسوسات ، ويسترشد حتى بآراء الحراس ، ويتحدث حتى إلى الحُواة والجزارين وأرباب الصناعات ، ويسأل الحشوة وأرباب البطالة ، وقد يأخذ بآراء البحريين إذا رووا له غرائب قبلها عقله ، أو يردها ولا يقرها إذا كانت حديث خرافة . ويتحدث إلى كل من عنده « ظرائف من الكلام ، وعجائب من الأقسام » وقد روى أشياء كثيرة عن الأعراب في البادية وعن العامة في المدن ، فالحكمة ضالته يلتقطها حيث يجدها .

قال في رسالة « الحنين إلى الأوطان » : رأيت عبداً أسود حبشياً لبني أسد قدِم من شق اليمامة فصار ناطوراً ، وكان وحشاً مجنوناً لطول الغربة مع الإبل ، وكان لا يلقى إلا أكرة فلا يفهم عنهم ولا يستطيع إفهامهم ، فلما رآني سكن إليّ وسمعته يقول : لعن الله أرضاً ليس بها عرب ، قاتل الله الشاعر حيث يقول :

حر الثرى مستعرب التراب

أبا عثمان إن هذا العريب في جميع الناس كمقدار القرهة في جلد الفرس ، فلولا أن الله رقّ عليهم فجعلهم في حشاة لطمست هذه العجم آثارهم اه . فالجاحظ لم يحتقر هذا الحديث الذي بدر عن لسان عبد مستوحش وأورده مثالاً على موضوعه في الوحشة التي تعتري النازح عن وطنه . ونحن بهذا الحديث القصير أيضاً أدركنا أن العراق لم يكن تعرَّب كله في طرفي المائة الثانية والثالثة ، وأن أكرته وفلاحيه ظلوا على سريانيتهم ، وأن العرب كانوا إلى قلة على كل حال .

ولم نر أبا عثمان على كثرة ما خاض غماره من الأبحاث مسّ الموضوعات التاريخية بالمعنى الذي بدأ المؤرخون في عصره يخوضون فيه ، على طريقة الرواية وتصحيح السند . وربما لم يهمه ذكر الحروب ووصف الملوك في عدلهم وجورهم ومولدهم وتوليهم وموتهم ، ولا حديث أعدائهم وفتن

بلادهم ومشاغبهم ومتاعبهم ومؤامراتهم ودسائسهم ، ولا طبقات الرجال في موالدهم ووفياتهم ، وما صرفوا فيه عقولهم وأعمارهم وخلفوه من مآثرهم . بل كان التاريخ الذي شغل قلمه وقلبه وصفَ الناس وذكر أخبار من عاصرهم مما فيه تعليم وتثقيف . فهو المؤرخ الاجتماعي في عصره ، يورد لك من مشاهداته ومروياته ما يوسع أُفق نظرك ، ويدلك على مواطن الحسنات والسيئات في عامة من تألّف منهم مجتمعه .

رأى التاريخ السياسي وتاريخ الرجال ضيق المضطَرب ، وقد تسربت إليه أخطاء لا يقرها ، فأرّخ للأمة ، والكلام فيها واسع المجال ، وكما كان في التاريخ هو في الفلسفة . قرأ ما كُتب وتُرجم في عصره ، فما نقل آراء أرسطو مستحسناً لها كلها ، ولا شغف بأفلاطون ولا بغيره من فلاسفة اليونان ، بل طبق العلوم المادية وعلوم الحياة والأحياء وعلم الاجتماع على النظر الفلسفي . فأهمه من الفلسفة روحها ، وابتعد عما قد يكون فيها من خيال ومحال ، وبعبارة ثانية أنه كان من أصحاب النظر العملي ، وما تعدى في الإلهيات حيّز المنطق الصحيح ، والمصادر السليمة التي تدعمها الحجة ولا ينكرها إلا مكابر .

يقول لك حيناً : إن « غرائب الدنيا كثيرة عند كل من كان كَلِفاً بتَعرافها وكان له في العلم أصل ، وكان بينه وبين التبيين نصيب ، وأكثَر الناس لا تجدهم إلا في حالتين : إعراض عن التبيين ، وإهمال النفس ، وإما في حالة تكذيب وإنكار ، وتسرع إلى أصحاب الاعتبار ، وتتبع الغرائب ، والرغبة في الفوائد . ثم يرى بعضهم أن له بذلك التكذيب فوائد ، وأن ذلك من باب التوقي ، وجنس من استعظام الكذب ، وأنه لم يكن كذلك إلا من حاز الرغبة في الصدق ، أو تبين الشيء معاندة للإقرار وقهراً بالحق » .

ومن استقرائه العلمي في الذباب قوله : « وعندنا بالبصرة في الذباب أُعجوبة ، لو كانت بالشامات[1] أو بمصر لأدخلوها في باب الطّلسم . وذلك

---

(١) الشامات : بلاد الشام .

أن التمر يكون مصبوباً في بيادر التمر في شق البساتين ، فلا ترى على شيء منها ذبابة ، لا في الليل ولا في النهار ، ولا في البرد ولا في أنصاف النهار . نعم وقد تكون المعاصر ، ولأصحاب المعاصر ظلال ، ومن شأن الذباب الفرار من الشمس إلى الظل ، وإنما تلك المعاصر بين تمرة رطبة ودبس ، ثم لا تكاد ترى في تلك الظلال والمعاصر في انتصاف النهار ، وفي وقت طلب الذبان الكنّ ، إلا دون ما تراه في المنزل الموصوف بقلة الذبان . وهذا شيء يكون موجوداً في جميع الشق الذي فيه البساتين . فإن تحول شيء من تلك البادية إلى جميع ما يقابلها في نواحي البصرة غشيه من الذبان ما عشى أن لا يكون بأرض الهند أكثر منه . وليس بين جزيرة دُبَيْس وبين موضع الذبان إلا فيض البصرة ، ولا بين ما يكون من ذلك بنهر أذرب وبين موضع الذبان مما يقابله إلا فرسخان ، وهو ذلك التمر وتلك المعصرة ، ولا تكون تلك المسافة إلا مائة ذراع أو أزيد شيئاً أو أنقص شيئاً .

وأعجوبة أخرى ، وهي عندي أعجب من كل شيء صدّرناً به جملة القول في الذباب . فمن العجب أن يكون بعض الحيوان لا ينام كالعصافير والتنوط ، فإنهما إذا كان الليل فإن أحدهما يتدلى من غصن الشجرة ويضم عليه رجليه وينكس رأسه ، ثم لا يزال يصيح حتى يبرق النور ، والآخر لا يزال ينتقل في زوايا بيته ، ولا يأخذه القرار خوفاً على نفسه ، فلا يزال كذلك ، وقد نتف قبل ذلك مما على ظهور الأشجار ما يشبه بالليف ، فنفشه ثم فتل منه حبلاً ، ثم عمل منه كهيئة القفة ، ثم جعله مدلىً بذلك الحبل ، وعقده بطرف غصن من تلك الأغصان ، إلا أن ذلك بترصيع ونسج ومداخلة عجيبة ، ثم يتخذ عشه فيه ، ويأوي إليه مخافة على نفسه » .

* * *

كأن الجاحظ كان كالطائر يتنقل من شجرة إلى شجرة ، ومن حديقة

إلى حديقة ، يلتقط الزهرة والحبة ، ومن كان يظن أن الرجل الذي يؤّلف في علوم الدين والجدل والرد على المخالفين ، وهو في أصله إمام ديني وصاحب مذهب وعَلَم من أعلام الشريعة — من كان يظن أنه يؤلف في الحيوان وفي الزرع وفي الشجر والنخل ، وفي كل ما يعرض له من الموضوعات السياسية والاجتماعية والاقتصادية والأخلاقية والأدبية — من كان يظن أن للجاحظ كتاباً في الأمصار وعجائب البلدان أشبه بكتاب البلدان لابن الفقيه ، رآه المسعودي ووصفه بأنه في نهاية الحسن ، قال : « وإن كان الرجل لم يسلك البحار ، ولا أكثر الأسفار ولا تقرا[١] الممالك والأمصار » . نعم ما رحل الجاحظ رحلات المسعودي ، واقتصر على الرحلة في أرض العراق والشام والجزيرة وفارس والروم وبلاد العرب فقط ، وليس من الميسور لكل إنسان في دهره أن يطوف الأرض ، فإن هذا ما كان يتيسر إلا للفرد بعد الفرد ، وفي العصر بعد العصر .

وصف الجاحظ الأهواز وهواءها وتأثيرهـا في الطباع والأجسام ، ووصف تأثير الهواء في الإنسان والحيوان في حرّة بني سُلَيْم ، فقال بتأثير البيئة في الكائنات الحية . فإن كان وصفه الأمصار في جغرافيته كوصفه أهل الأهواز ، وهو ما نعتقده ، فإنه من أحسن ما كتب في الجغرافية الانسانية والطبيعية والوصفية . قال في الأهواز : « إنها قلبت كل من نزلها من بني هاشم إلى كثير من طباعهم وشمائلهم ، ولا بد للهاشمي قبيح الوجه كان أو حسناً ، أو دميماً كان أو بارعاً رائعاً ، من أن يكون لوجهه وشمائله طبائع يبين بها من جميع قريش وجميع العرب . فلقد كانت البلدة تنقل ذلك فتبدله . ولقد تحيفه وتدخل الضنى عليه ، وتبين أثرها فيه ، فما ظنك بصنيعها في

---

(١) يقال قرا الأمر واقتراه تتبعه وقروت البلاد قروا تتبعتها أرضاً وسرت فيها كاقتريتها واستقريتها وتقريتها . وقال اللحياني قروت الأرض سرت فيها ، وهو أن تمر بالمكان ثم تجوزه إلى غيره ثم إلى موضع آخر . وقال الأصمعي : قروت الأرض إذا تتبعت ناساً بعد ناس .

سائر الأجناس ، ولفساد عقولهم ، و لؤْم طبع بلادهم ، لا تراهم مع تلك الأموال الكثيرة ، والضياع الفاشية ، يحبون من البنين والبنات ما يحبه أوساط أهل الأمصار ، على الثروة واليسار ، والمال مَنْبَهة كما تعلمون ؛ وقد يكتسب الرجل من غيرهم المويل اليسير فلا يرضى لولده حتى يفرض له المؤدبين ، ولا يرضى للسانه بمثل الذي كان يرضاه قبل ذلك . وليس في الأرض صناعة مذكورة ، ولا أدب شريف ، ولا مذهب محمود لهم في شيء منه نصيب وإن حَسُن . ولم أرَ بها وجنة حمراء لصبي ولا صبية ، ولا دماً ظاهراً ولا قريباً من ذلك ، وهي قتالة للغرباء ، على أن حُمَّاها خاصة ليست للغريب بأسرع منها إلى القريب ، ووباها وحماها في وقت انكشاف الوباء ونزوع الحمى عن جميع البلدان ، وكل محموم في الأرض فإن حماه لا تنزع عنه ولا تفارقه ، وفي بدنه منها بقية . فإذا نزعت عنه فقد أخذ منها عند نفسه البراءة إلى أن يعود إلى الخلط ، وأن يجمع في جوفه الفساد ، وليست كذلك الأهواز لأنها تعاود من نزعت عنه من غير حدث ، كما تعاود أصحاب الحدث لأنهم ليسوا يُؤتون من قِبَل النَّهم ، ومن قبل الخلط والإكثار ، وإنما يؤتون من عين البلدة » . وقال أيضاً : رب بلد يستحيل فيه العطر وتذهب رائحته كقصبة الأهواز .

وقال في حَرَّة بني سُلَيْم في عالية نجد : « إنهم ليتخذون المماليك للرعي والسقي والمهنة والخدمة من الروميين والصقالبة مع نسائهم ، فما يتوالدون ثلاثة أبْطن حتى تقلبهم الحَرَّة إلى ألوان بني سُلَيم . ولقد بلغ من أمر هذه الحَرَّة أن ظباءها ونعامها وذئابها وثعالبها وحميرها وخيلها وإبلها كلها سود ، قال والسواد والبياض هما من قبل خلقة البلدة ، وما طبع الله عليه الماء والتربة . ومن قبل قرب الشمس وبعدها ، وشدة حرها ولينها ، وليس ذلك من قبل مسخ ولا عقوبة ، ولا تشويه ولا تقبيح ، على أن حَرَّة بني سُلَيم تجري مجرى بلاد الترك ، فإنك إذا رأيت الترك ، ورأيت إبلهم ودوابهم ، وكل شيء لهم حسبته شيئاً واحداً ، وكل شيء لهم تركي المنظر » .

وبهذا رأيناه يقول بتطور الأحياء بحسب البيئة وتعاقب الأيام ، ويعلل ذلك تعليلاً مقبولاً كما يعلل أشياء أخر مثل عذوبة المطر والثلج ، وملوحة مياه البحر . وكل ما وصفه من أنواع الحيوان وصفه وصفاً دقيقاً ، كأنه رآه المرة بعد المرة وأجرى تجاربه عليه ودقق فيه ، ونظر ما قاله فيه من قبله ، فما وافق الحس والعقل من أقوالهم قبله ، وما لم يوافق عليه ردّه مع إيراد الأسباب الداعية له إلى رده .

ومما قال : بالبصرة ثلاث أعجوبات ليست في غيرها من البلدان ، منها أن عدد المد والجزر في جميع الدهر شيء واحد ، فيقبل عنده حاجتهم إليه ، ويرتد عند استغنائهم عنه . ثم لا يبطيءُ عنها إلا بقدر هضمها واستمرائها وجَمامها واستراحتها ، لا يَقتلها عطشاً ولا غرقاً ، ولا يُغبها ظمأ ولا عطشاً ، يجيءُ على حساب معلوم ، وتدبير منظوم ، وحدود ثابتة ، وعادة قديمة ، يزيدها القمر في امتلائه ، كما يزيدها في نقصانه ، فلا يخفى على أهل الغلات متى يتخلفون ، ومتى يذهبون ويرجعون ، بعد أن يعرفوا موضع القمر ، وكم مضى من الشهر ، فهي آية وأُعجوبة ، ومفخرة وأُحدوثة ، لا يخافون المحل ، ولا يخشون الحَطْمة[1] » .

وقال أيضاً : « من شأن الملوك أن يطمسوا على آثار من قبلهم ، وأن يميتوا ذكر أعدائهم ، فقد هدموا بذلك السبب المدن وأكثر الحصون ، كذلك كانوا أيام العجم وأيام الجاهلية ، وعلى ذلك هم في أيام الإسلام ، كما هدم عثمان صومعة غُمْدان ، وكما هدم الآطام التي كانت بالمدينة ، وكما هدم زياد كل قصر ومصنع كان لابن عامر ، وكما هدم أصحابنا (العباسيون) بناء مدن الشامات لبني مروان » .

يكلمك الجاحظ تارة في رغبات الناس في العلوم ، ويذكّرك بأنه لم

---

(١) الحطمة ويضم والحاطوم السنة الشديدة .

تظهر له العلة فيها ، إلا أنه يعجب من الوسط في صناعته ، ومن كانت فطرته غير مؤاتية ، فيقول : « صار طلب الحساب أخفَّ على بعضهم ، وطلب الطب أحبَّ إلى بعضهم ، وكذلك النزاع إلى الهندسة ، وشغف أهل النجوم بالنجوم ، فتجد واحداً يلهج بطلب الغناء واللحون ، وآخر يلهج بشهوة القتال ، حتى يكتتب مع الجند ، وآخر يختار ورّاقاً ، وآخر يختار طلب الملك ، وتجد حرصهم على قدر العلل الباطنة المحركة لهم ، ثم لا تدري كيف عرض لهذا هذا السبب دون الآخر ، إلا بجملة من القول ، ولا تجد المختار لبعض هذه الصناعات على بعض ، يعلم لما اختار ذلك في جملة ولا تفصيل ، إذ كان لم يجرِ منه على عِرق[1] ، ولا اختاره على إرث ، وليس العجيب من رجل في طباعه سبب يصل بينه وبين بعض الأمور ، ويحركه في بعض الجهات ، ولكن العجب ممن يموت مغنياً ، وهو لا طبع له في معرفة الوزن ، وليس له جرم حسن ، فيكون إن فاته أن يكون معلماً ومغني خاصة ، أن يكون مطرباً ومغني عامة ... » .

واحتج للإماء : « قال بعض من احتج للعلة التي من أجلها صار أكثر الإماء أحظى عند الرجال من أكثر المَهيرات[2] ، أن الرجل قبل أن يملك الأمَةَ قد تأمل كل شيء منها وعرفه ، ما خلا حظوة الخلوة ، فأقدم على ابتياعها بعد وقوعها بالموافقة ، والحرة إنما يستشار في جمالها النساء ، والنساء لا يُبصرن من جمال النساء وحاجات الرجال وموافقتهن قليلاً ولا كثيراً ؛ والرجال بالنساء أبصر ، وإنما تعرف المرأة من المرأة ظاهر الصفة ، وأما الخصائص التي تقع بموافقة الرجال فإنها لا تعرف ذلك ؛ وقد تحسن المرأة تقول كأن أنفها السيف ، وكأن عينها عين غزال ، وكأن عنقها إبريق فضة ، وكأن ساقها جمّارة ، وكأن شعرها العناقيد ، وكأن أطرافها المداري ،

---

(١) العرق أصل كل شيء .

(٢) المهيرة الحرة الغالية المهر .

وما أشبه ذلك ، وهناك أسباب أُخر بها يكون الحب والبغض » .

وقال في رسالته في النساء : « ورأيت أكثر الناس من البصراء بجواهر النساء الذين هم جهابذة هذا الأمر يقدمون المجدولة ، والمجدولة من النساء تكون في منزلة بين السمينة والممشوقة ، ولا بد من جودة القد ، وحسن الخرط ، واعتدال المنكبين ، واستواء الظهر ، ولا بد من أن تكون كاسية العظام ، بين الممتلئة والقضيفة[١] ، وإنما يريدون بقولهم مجدولة[٢] ، جودة العصب وقلة الاسترخاء ، وأن تكون سليمة من الزوائد والفضول ، ولذلك قالوا خمصانة وشفانة[٣] ، وكأنها جان ، وكأنها جَدْل عنان ، وكأنها قضيب خيزران ، والتثني في مشيها أحسن ما فيها ، ولا يمكن ذلك للضخمة والسمينة ، وذات الفضول والزوائد ، على أن النحافة في المجدولة أعم ، وهي بهذا تحبب على السمان الضخام ، وعلى الممشوقات والقضاف ، كما يحبب هذه الأصناف على المجدولات ، ووصفوا المجدولة بالكلام المنثور ، فقالوا : أعلاها قضيب ، وأسفلها كثيب » . ونحن بعد كلامه هذا يحق لنا أن ندعي أن الجاحظ كان يعرف كل شيء .

ومما قاله : « قلَّ معنى سمعناه في باب معرفة الحيوان من الفلاسفة ، وقرأناه في كتب الأطباء والمتكلمين ، إلا ونحن قد وجدنا قريباً منه في أشعار العرب ، وفي معرفة أهل لغتنا وملتنا » .

ولذلك رأيناه يقرّب الفلسفة من الأذهان ويمزجها بالأدب وأشعار العرب ليخرجها عن جفافها ؛ ورأيناه مع وقوفه على العلوم اليونانية ينقد بعض ما لم يدخل في دائرة الحس والعقل ، ولا يأخذه قضايا مسلمة كفعله في

---

(١) القضافة والقضف محركة وكعنب النحافة وهو قضيف ج قضفان .

(٢) المجدول اللطيف القصب المحكم الفتل .

(٣) رجل خمصان بالضم وبالتحريك ، وخميص الحشى ضامر البطن ، وهي خمصانة وخميص من خمائص . وشفانة نحيلة .

إنكار أحاديث الجن وما روي من الشعر في رؤيتهم ، فقال إن للناس في هذا ضروباً من الدعاوى ، وعلماء السوء يظهرون تجويزها وتحقيقها ؛ ومن استقراءاته قوله : « إنهم أحصوا أصناف نخل البصرة ، دون نخل المدينة ، ودون مصر واليمامة والبحرين وعمان وفارس وكرمان ، ودون الكوفة وسوادها وخيبر وذواتها ، والأهواز وما بها ، أيامَ المعتصم ، وإذا ثلثمائة وستون ضرباً من مُغلّ معروف ، وخارجي موصوف ، وبديع غريب ، مع طيب عجيب » .

وقال في كتابه الأمصار : أكثر الدور غلة ثلاث : دار للبطيخ بسرّ من رأى ودار الزبير بالبصرة ، ودار القطن ببغداد . ومما قاله في وصف البصرة إنه لا يعرف مصرا جاهلي ولا إسلامي أفضل من البصرة وإنها قلب الدنيا وواسطة الأرض وفرضة البحر .

ومن ملاحظاته : واعلم أن الله تعالى إنما خالف بين طبائع الناس ليوفق بينهم ، ولم يحب أن يوفق بينهم فيما يخالف مصلحتهم ، لأن الناس لو لم يكونوا مسخرين بالأسباب المختلفة ، وكانوا مجبرين في الأمور المتفقة والمختلفة ، لجاز أن يختاروا بأجمعهم الملك والسياسة ، وفي هذا ذهاب العيش وبطلان المصلحة ، والبوار والتواء ، ولو لم يكونوا مسخرين بالأسباب مرتهنين بالعلل لرغبوا عن الحجامة أجمعين وعن البيطرة والقصابة والدباغة ، ولكن لكل صنف من الناس مزيّن عندهم ما هم فيه ، ومسهل ذلك عليهم ، فالحائك إذا رأى تقصيراً من صاحبه ، أو سوء حِذْق أو خرقاً قال له يا حجام ، والحجام إذا رأى تقصيراً من صاحبه قال له يا حائك ، ولذلك لم يُجمعوا على إسلام أبنائهم في غير الحياكة والحجامة والبيطرة والقصابة ؛ ولولا أن الله تعالى أراد أن يجعل الاختلاف سبباً للاتفاق والائتلاف ، لما جعل واحداً قصيراً وآخر طويلاً ، وواحداً حسناً وآخر قبيحاً ، وواحداً غنياً وآخر فقيراً ، وواحداً عاقلاً وآخر مجنوناً ، وواحداً ذكيّاً وآخر غبياً ، ولكن خالف بينهم ليختبرهم ، وبالاختبار يطيعون ، وبالطاعة يسعدون ،

ففرق بينهم ليجمعهم ، وأحب أن يجمعهم على الطاعة ليجمعهم على المثوبة ، فسبحانه وتعالى ما أحسن ما أبلى وأولى ، وأحكم ما صنع وأتقن ما دبر ، لأن الناس لو رغبوا كلهم عن عار الحياكة لبقينا عراة ، ولو رغبوا بأجمعهم عن كد البناء لبقينا بالعراء ، ولو رغبوا عن الفلاحة لذهبت الأقوات ، ولبطل أصل المعاش ، فسخرهم على غير إكراه ، ورغبهم من غير دعاء ، ولولا اختلاف طبائع الناس وعللهم لما اختاروا من الأشياء إلاّ أحسنها ، ومن البلاد إلا أعدلها ، ومن الأمصار إلا أوسطها ، ولو كان كذلك لتناجزوا على طلب الواسط ، وتشاجروا على البلاد العليا ، ولما وسعهم بلد ، ولما تم بينهم صلح فقد صار بهم التسخير إلى غاية ، وكيف لا يكون كذلك ، وأنت لو حولت ساكني الآجام إلى الفيافي ، وساكني السهول إلى الجبال ، وساكني الجبال إلى البحار ، وساكني الوبر إلى المدر ، لأذاب قلوبهم الهمُّ ، ولأتى عليهم فرط النزاع .

ومما استقراه قوله لما تولى خالد بن الوليد كسر الأصنام التي كانت قريش تعبدها ، ورمى عُزّى بالشرر حتى أحرقت عامة فخذه : « وما أشك في أنه قد كانت للسدنة[1] حيل وكمين ؛ ولو سمعت أو رأيت بعض ما أعد الهند من هذه المخاريق في بيوت عباداتهم لعلمت أن الله تعالى قد منَّ على جملة المسلمين بالمتكلمين الذين نشؤوا فيهم » ، قال : « وما زالت السدنة تحتال للناس من جهة النيران بأنواع الحيل ، كاحتيال رهبان كنيسة الرُّها لمصابيحها ، حتى أن زيت قناديلها ليستوقد لهم من غير نار في بعض ليالي أعيادهم ، وبمثل ذلك احتال السادن لخالد بن الوليد حين رماه بالشرر ليوهمه أن ذلك من الأوثان عقوبة على ترك عبادتها وإنكارها والتعرض لها حين قال : يا عزى كفرانك لا سبحانك ، إني رأيت الله قد أهانك » ، قال : « وجعلت قريش وقد أهوى خالد بسيفه إل العُزّى تصيح : يا عُزى خبّليه ، يا عزّى عزّريه ،

---

(١) سدن سدناً وسدانة خدم الكعبة أو بيت الصنم وعمل الحجابة ، فهو سادن ج سدنة .

وليس ينثني من تهاويلهم ، وعلاها بالسيف حتى كسرها » .

وقال في الرد على من زعم أن خالد بن سنان لم يكن من ولد إسماعيل نبي قبله : « المتكلمون لا يؤمنون بهذا ، ويزعمون أن خالداً كان أعرابيّاً وبَرِيّاً ، ولم يبعث الله قط نبياً من الأعراب ولا من أهل الوبر ، وإنما بعثهم من أهل القرى وسكان الجزر ، والله أعلم حيث يجعل رسالته » .

وذكر الشياطين في بعض كتبه ومما قال : « إنا وإن كنا لم نرَ شيطاناً قط ، ولا صوَّره لنا صادق ، ففي إجماع العرب والمسلمين وكل من لقيناه متفق على ضرب المثل بقبح الشيطان ، وهو دليل على أنه في الحقيقة أقبح من كل قبيح ، والكتاب إنما نزل على الذين ثبت هذا في طبائعهم غاية الثبات » ؛ وقال : « ليس من الناس من رأى شيطاناً قط على صورته ، لكن لما كان الله جعل في طبائع جميع الأمم استقباح صورة الشيطان واستسماجه وكراهته ، وأجرى هذا على ألسنة جميعهم ضرب المثل به في ذلك ، رجع بالإيحاش والتنفير بالإضافة والتفريع إلى ما جعله في طبائع الأولين والآخرين والشيوخ والصبيان والرجال والنساء ... »

وأنكر انشقاق القمر كما هو رأي كثير من أهل الذكر ، فقال إنه لم يتواتر الخبر به ، وإنه لو انشق حتى صار بعضه في جبل أبي قبيس لوجب أن تختلف التقويمات بالزيجات لأنه قد علم سيره في كل يوم وليلة ، فلو انشق القمر لكان وقت انشقاقه لا يسير ، فأما قوله تعالى : اقتربت الساعة وانشق القمر ، فإن معناه سينشق .

ومن ملاحظاته : « لا تليق ثلاثة أسماء بأعيانها إلا في الملوك والسادة ، ألا ترى أن بهرام بن بهرام بن بهرام في ملوك العجم ، والحارث بن الحارث بن الحارث في ملوك غسان ، والحسن بن الحسن بن الحسن في سادة الإسلام » . وقال : « ثلاثة بنو أعمام في زمان واحد ، يسمى كل واحد منهم علياً ، وكل واحد منهم فقيه عالم عابد يصلح للإمامة : علي بن عبد الله بن عباس بن عبد المطلب ،

وعلي بن الحسين بن علي بن أبي طالب بن عبد المطلب وعلي بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب ، ثم بنوهم ثلاثة بنو أعمام ويسمى كل واحد منهم محمداً ، وكل منهم فقيه عالم عابد يصلح للإمامة : محمد بن علي بن عبد الله بن عباس ابن عبد المطلب ، ومحمد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب بن عبد المطلب ، ومحمد بن علي بن عبد الله بن جعفر بن أبي طالب ، وهو من أغرب ما يتهيأ في العالم ، ويتفق في الأزمنة ، وهذه فضيلة لا يشركهم فيها أحد » . نقول وهذا من معرفته بالأنساب أيضاً فاهتدى من الغرائب فيها إلى ما لم يهتد إليه غيره ولا وقع في خاطره .

ومن استدلالاته أيضاً : « قد علمنا أن داعي استفاضة النجدة في جميع أصناف الخوارج وتقدمهم فيها إنما هو بسبب الديانة ، لأنا نجد عبيدهم ومواليهم ونساءهم يقاتلون مثل قتالهم ، ونجد السجستاني وهو عجمي ، واليمامي والنجراني والجزري وهم عرب ، ونجدُ تاهرت وهي بلاد عجم ، كلهم في القتال والنجدة سواء ، وفي ثبات العزيمة والقوة والشدة متكافئين ، فاستوت حالاتهم في النجدة مع اختلاف أنسابهم وبلدانهم ، أفما في هذا دليل على أن الذي سوّى بينهم هو التدين بالقتال ؟ » وهذا ضرب من كشف روح المتمذهبين بالمذاهب لا نعرفه لأحد ممن كتب في عصره في فلسفة الديانيين والأديـــان .

وقال في نار المجوس : « ما زال الناس كافة ، والأمم قاطبة ، حتى جاء الله بالحق ، مولعين بتعظيم النار ، حتى ظن كثير من الناس لإفراطهم أنهم يعبدونها . ويزعم أهل الكتاب أن الرب أوصاهم بها فقال : لا تطفئوا النار من بيوتي ، ولذلك لا تجد الكنائس والبيع وبيوت العبادات تخلو من نار أبداً ليلاً ونهاراً . فأما المجوس فأنها لم ترض بمصابيح أهل الكتاب حتى اتخذت البيوت للنيران ، وأقامت عليها السدنة ، ووقفت عليها الغلات الكثيرة ، وسجدت لها على جهة التعبد والمحبة ، وإيجاب الشكر على النعمة ، وقد ضرب المثل بنار المجوس من صحب قوماً فلم يرعوا حق صحبته بهم وخدمته

إياهم فقال :

عمري لقـــد جربتكم   فوجدتكم نار المجوس

وذلك أنها لا تفرق بين من يعبدها ويسجد لها ، وبين من يبزق فيها ويبول عليها ، بل تعم الجميع بالإحراق إذا أمكنها » .

وقال : « الأمم كلها تضرب مثلاً بالعنقاء في الشيء الذي يسمع به ولا يرى كما قال أبو نواس :

وما خبزه إلا كعَنْقَاء مُغْرب   يـصَوَّر في بسط الملوك لها مثلُ

يحدث عنها الناس من غير رؤية   سوى صورة ما إن تمر ولا تحلو

وما أكثر من ينكر أن يكون في الدنيا حيوان يسمى كركند وعنقاء مغرب ، وإن كانوا يرون في صورة العنقاء مصورة في بسط الملوك وحيطان قصورهم ، واسمها عندهم مسموع » ومن غريب تحقيقه في النمل قوله : « والنمل ربما أجلى أمة من الأمم عن بلادهم » ومن تحقيقاته : « ويزعم أهل الشرع أنهم لم يجدوا في ضروب الحيوان أشبه بالإنسان تركيباً وأعضاء وجوارح ، ولم يروا أقرب منه خلقة وصورة وأدنى إليه شبهاً ومشاكلة من القرد ، وأن من تقدم جالينوس من الأطباء لم يفصلوا قط إنسياً ، ولم يشرّحوا آدمياً ، وإنما عرفوا تلك الأمور الغامضة والسرائر الكامنة بما فصلوا مـــن أجسام القرود ، وبعض من وجد من القتلى على ندرة في بعض معارك الملوك » ، وقال في عجائب البحر : « وليس ذلك بأعجب من شيء عاينه جميع من يركب البحر وذلكَ أن الطائر من طَيْره يطير في الهواء ، فيعبث به طائر صغير ، فإذا أحرجه ذلك ذرق ، فتلقاه الطائر فابتلعه ، فلا هو يخطيء بذلك الذرق حلق الطائر الصغير ، ولا الطائر الصغير يجهل مكان ذرقه ، وما يعيّشه من ذلك الطائر الكبير ، والدُّخس من دواب البحر ومما يعايش السمك وليس بسمك ، وهو يعرف الغريق ويدنو منه حتى يضع الغريق يده على ظهره فيسبح به ، والغريق يذهب معه ، ويستعين بالاعتماد عليه والتعلق به ، حتى

ينجيه ، وهذا عند البحريين مشهور لا يتدافعونه » .

وقال في علة فشو الفاحشة في بعض الناس : ولو كانت هذه الشهوة شائعة في الأعراب لتعشقوا الغلمان ، ولو تعشقوهم لنسبوا بهم ، ولجاءهم فيه باب من النسيب ، ولتهاجوا به وتفاخروا ، ولتنافسوا في الغلمان ، ولجرى في ذلك ما لا يخفى ، ولحدثت فيه أشعار وأخبار ، والذي يدل على سلامتهم من ذلك عدم هذه المعاني ، وإن كان هناك شيء من هذا فليس هو إلا في بعض من ينزل قارعة الطريق أو يقرب الأسواق ، وهؤلاء ليس فيهم من خصال الأعرابية إلا الجوهرية ، فأما الأخلاق والفصاحة والأنفة والفروسية فهم على خلاف ذلك كله ...

كان يقال أربعة لم يُلحقوا ولم يسبقوا : أبو حنيفة في فقهه ، والخليل في أدبه ، والجاحظ في تأليفه ، وأبو تمام في شعره ؛ وحقيق على من تصفح تآليف الجاحظ واتساعه فيها ، ورأى ما حوت من آثار حفظه وتدوينه واستقرائه واستنتاجه أن يعذر الناس في كل عصر لإعجابهم بما كتب ، ولا يستنكرنَّ من الاستنباط بأن العالم كانوا يرقبون صدور كتبه كما يتوقع المدمنون اليوم صدور صحف الأخبار ، وورود الإذاعات في الأيام العصيبة ؛ وكان هو يعرف لنفسه هذه الشهرة الطائرة ويعرفها له الناس . قال بعضهم للجاحظ : مثلك في علمك ومقدارك من الأدب ينشد قوله :

منطق صائب وتلحن أحيا نًا وخير الحديث ما كان لحنا

ويفسره على أنه أراد اللحن في الإعراب ، وإنما وصفها بالظرف والفطنة ، وأنها تورّى في لفظها عن أشياء قال : قد فطنت لذلك بعدُ ، ولما أشار عليه ناقده أن يغيّر تفسيره قال : كيف لي بما سارت به الركبان ؟

ومن البراهين على اتساع شهرته في حياته ما قيل لأبي هفان وقد طال طال ذكر الجاحظ : لِمَ لا تهجو الجاحظ وقد ثلبك وأخذ بمخنَّقك ،

فقال : أمثلي يُخدع عن عقله ؟ والله لو وضع رسالة في أرنبة أنفي لما أمست إلا بالصين شهرة ، ولو قلت فيه ألف بيت لما طنّ منها بيت في ألف سنة .

كتبه ورسائله :

ليس في وسع الباحث تعيين حد لعلم الجاحظ ، ينتهي منه إلى معرفة ما غلب عليه ؛ وما أشبه تآليفه بمَعْلمة من معلمات العلم في عصره تبحث في جميع المطالب بحثاً ممتعاً ، فلا ترى في مقالاتها خللاً ، ولا في وضعها وتصنيفها غثاثة ؛ ولقد رأينا معلمات زماننا بلغات العلم الحديث يؤازر فيها عشرات وربما مئات من العلماء والباحثين ، حتى تكتب لها الإجادة ، وتقع من نفوس أرباب المدارك موقع الاستحسان ، ومعلمة الجاحظ كتبها بنفسه ، لم يشاركه مشارك في إعداد موادها ، ولا في وضع أبوابها ، وابتكار فصولها ، وكلها ابنة درسه وبحثه ، يصدرها في اتساق متقن ، وتحقيق بالغ ؛ وربما كان من أبحاثها ما اقترح عليه الخوض فيه ، فكتب ما أراد وما أُريد منه ؛ وكأنه المفتي الحجة يُستفتى في علوم الدنيا والآخرة ، فلا يلحق غباره أحد ، وهو أبداً الفارس المجليّ في كل حلبة ، لم يلحقه أحد في طريقته ، وحاول تقليده غير واحد في العصور التالية .

الإكثار من التأليف مع الإجادة فيه هو وجه الغرابة في الجاحظ ، ألف خمسين وثلاثمائة مؤلّف ، بين رسالة في بضع صفحات وكتاب في بضعة مجلدات ، رآها كلها سبط ابن الجوزي في أول القرن السابع في مشهد أبي حنيفة ببغداد . ألّف هذا وجوّده ، وطريقته كما قال عن نفسه أن لا يصل الصدق بالكذب ، ولا يدخل الباطل في تضاعيف الحق ، ولا يتكثّر بقول الزور ، ولا يلتمس تقوية ضعفه باللفظ الحسن ، وستر قبح كلامه بالتأليف المونق ، ولا يستعين على إيضاح الحق إلا بالحق ، وعلى إيضاح الحجة إلا بالحجة ، ولا يستميل إلى دراسة تآليفه واقتنائها ، ويستدعي إلى تفضيلها والإشادة بذكرها ، بالأشعار المولّدة ، والأحاديث الموضوعة ، والأسانيد

المدخولة ، وبما لا شاهد عليه إلا دعوى قائله ، ولا مصدق له إلا من لا يوثق بمعرفته . وقد نصح لمن يتكلفون قراءة الكتب ومدارسة العلم ، أن لا يقفوا على الكلمة الضعيفة ، واللفظة السخيفة ، وعلى مواضع من تآليفه قد عرض له شيء من استكراه ، ويقول لمن هذا حاله : « لو جعل بدل شغله بقليل ما يرمي من المذموم ، تنقله بكثير ما يرى من المحمود ، كان ذلك أشبه بالأدب المرضي ، والخيم[1] الصالح ، وأشد مشاكلة للحكمة، وأبعد من سلطان الطيش ، وأقرب إلى عادة السلف وسيرة الأولين ، وأجدر أن يهب الله تعالى له السلامة في كتبه ، والدفاع عن حجته ، يوم مناضلة خصومه ، ومقارعة أعدائه » .

وتعوذ بالله في كل موطن « من فتنة القول وخطله ، ومن الإسهاب وتقحم خطته » وأكد « أن فتنة اللسان والقلم ، أشد من فتنة النساء ، والحرص على المال » ، واستعاذ من التكلف لما لا يحسن ، كما استعاذ بالله من العجب بما يحسن ، والعجب بما يكون منه والثقة بما عنده ، ورجا أن يكون من المحسنين ، وتعوذ من رسالة ظاهرها زهد وباطنها رغبة وقال : « إن أسقط الكلام وأوغده ، وأبعده من السعادة وأنكده ، ما أظهر النزاهة وأضمر الحرص ، وتجلى للعيون بعين القناعة واستشنع ذلة الافتقار ، وأقبح منه وأفحش أن يظن صاحبه أن معناه خفي وهو ظاهر ، وتأويله بعيد الغور ، وهو قريب القعر » .

أخرج الجاحظ التأليف من طور الرواية ، إلى طور جمع فيه إلى الرواية الدراية ، ودعا إلى جميل الصدق ، وبرد اليقين ، مستمداً من العقل ، داعياً إلى التفكير الصحيح ، قائلاً : « إن من شكرِ النعمة في معرفة مغاوي الناس ومراشدهم ، ومضارّهم ومنافعهم ، ألا يحتمل ثقل مؤْنتهم في تقويمهم ،

(١) الخيم : بكسر الخاء : الطبيعة .

وأن يتوخى إرشادهم ، وإن جهلوا فضل ما يُسدى إليهم ، فلن يصان العلم بمثل بذله ، ولن تستبْقى النعمة فيه بمثل نشره » ؛ « ويعرف أن الحق مرّ والجد صعب ، ولا يصبر على مطالعة الكتب الطويلة إلا من تجرد للعلم وفهم معناه ، وذاق من ثمرته ، واستشعر قلبه من عزّه ، ونال سروره على حسب ما يورث الطول من الكدّ والكثرة من السآمة ، وما أكثر من يقاد إلى حظه بالسواجير[1] ، وبالسوق العنيف ، وبالإخافة الشديدة » .

وترى أبا عثمان في كتبه ينقل عن أرقى الطبقات وأدْناها ، ومن العلماء من نقل عنهم فستر أسماءهم ، وأشار إلى أنهم كانوا عظماء فقط ليعرّف قارئه مبلغ الرواية المنقولة من الضعف والقوة ، قال مرة : « حدثني بعض أهل العلم ممن طال ثُواؤه في أرض الجزيرة ، وكان صاحب أخبار وتجربة ، وكان كلفاً بحب التبيين ، معترضاً للأمور يحب أن يُفضي إلى حقائقها ، وتثبيت أعيانها بعللها ، وتمييز أجناسها ، وتعرّف مقادير قواها ، وتصرف أعمالها ، وتنقل حالاتها ، كان يعرف للعلم قدره ، وللبيان فضله » ، وروى عن إبراهيم بن السندي كثيراً ، ونوّه به ، وقال فيه : « إنه كان مولى أمير المؤمنين ، وكان عالماً بالدولة ، شديد الحب لأبناء الدعوة ، وكان يحوط مواليه ، ويحفظ أيامهم ، ويدعو الناس إلى طاعتهم ، ويدرّسهم مناقبهم ، وكان فخم المعاني ، فخم الألفاظ ، لو قلت إن لسانه كان أردّ[2] على هذا المُلك من عشرة آلاف سيف شهير وسنان طرير[3] لكان ذلك قولاً ومذهباً » ، ووصفه في البيان والتبيين بقوله : «كان رجلاً لا نظير له ، وكان خطيباً ، وكان ناسباً ، وكان فقيهاً ، وكان عروضياً وحافظ للحديث ، راوية للشعر شاعراً ، وكان فخم الألفاظ ، شريف المعاني ، وكان كاتب القلم ، كاتب

---

(١) الساجور خشبة تعلق في عنق الكلب وسجره شده به كسوجره .

(٢) يقال هذا أرد : أنفع ، ولا رادة فيه : لا فائدة فيه كلا مردة .

(٣) السنان الطرير هو الرمح المحدد ، والسيف الشهير المنتضى المرفوع على الناس .

العمل ، وكان يتكلم بكلام رؤبة ، ويعمل في الخراج بعمل زاذان فروخ الأعور ، وكان منجماً طبيباً ، وكان من رؤساء المتكلمين ، وعالماً بالدولة وبرجال الدعوة ، وكان أحفظ الناس لما سمع ، وأقلهم نوماً ، وأصبرهم على السهر » . انظر إليه كيف يكرر فعل «كان» مرات في بضعة أسطر ! ياما أُحَيْلاه في مكرراته وفي موجزاته .. وروى عن ثمامة بن أشرس أحد شيوخه في الحديث فقال : « إن الصفات التي وصف بها ثمامة بن أشرس جعفرَ بن يحي كأن ثمامة قد انتظمها لنفسه ، واستولى عليها دون جميع أهل عصره ؛ وما علمت أنه كان في زمانة قَروي ولا بلدي كان بلغ من حسن الإفهام مع قلة عدد الحروف ، ولا من سهولة المخرج مع السلامة من التكلف ما كان بلغه » .

والظاهرة المتجلية في كتب أبي عثمان أنه بينا ينقل إليك كلام العقلاء ومذاهب العلماء والحكماء ، يروي لك : « نوادر من كلام الصبيان والمجرمين من الأعراب ، ونوادر كثيرة من كلام المجانين وأهل المِرَّة من الموسوسين ، ومن كلام أهل الغفلة من النَوْكى ، وأصحاب التكلف من الحمقى » يجعل بعضها في باب الهزل والفكاهة ويقول : « ولكل جنس من هذا موضع يصلح له ، ولا بد لمن استكده الجد من الاستراحة إلى بعض الهزل » و « إن المزاح جد إذا اجتلب ليكون علة للجد ، وإن البطالة وقار ورزانة ، إذا تكلفت لتلك العاقبة » . فهو يكره النغمة الواحدة يرددها ، فيختار من الأصوات ما يفعل في النفوس ، فيسليها ويطربها وهو يعلمها ، ويلعب بالألباب ، في كل رسالة له وكتاب . تتجلى في أقواله ورواياته واستنباطاته وفرة المادة ، ووفرة البحث ، وكثرة ما تعلّم ، وهضم ما تعلم ، فكتبه أعيان متحركة غير جامدة جمود حروفها ، تأخذ من كل وجوه الإجادة بأوفر نصيب ، وتدور على « حسن الإفهام مع قلة عدد الحروف » .

ما كتب الجاحظ وألّف إلا عن باعث ، وكان في الأكثر يتقدم فيعرض

ما حمله على التأليف ؛ قال في وصف كتاب الحيوان : « وهذا كتاب تستوي فيه رغبة الأمم ، وتتشابه فيه العرب والعجم ، لأنه وإن كان عربيّاً أعرابيّاً ، وإسلاميّاً جماعيّاً ، فقد أخذ من طرف الفلسفة ، وجمع معرفة السماع وعلم التجربة ، وأشرك بين علم الكتاب والسنة ، وبين وجدان الحاسة ، وإحساس الغريزة . ويشتهيه الفتيان ، كما يشتهيه الشيوخ ، ويشتهيه الفاتك ، كما يشتهيه الناسك ، ويشتهيه اللاعب ذو اللهو ، كما يشتهيه المجدُّ ذو الحزم ، ويشتهيه الغفل ، كما يشتهيه الأريب ، ويشتهيه الغبيّ ، كما يشتهيه الفطن » ؛ ثم ذكر مزاعم الناس في تزييف الكتب ، والسبب الذي يدعوهم إلى إسقاطها ، فقال : « وليس هذا الكتاب يرحمكَ الله في إيجاب الوعد والوعيد ، فيعترض عليه المرجيء ، ولا في تفضيل عليّ فينتصب له العثماني ، ولا هو في تصويب الحكمين فيتسخطه الخارجي ، ولا هو في تقديم الاستطاعة فيعارضه من يخالف التقديم ، ولا هو في تثبيت الأعراض فيخالفه صاحب الأجسام ، ولا هو في تفضيل البصرة على الكوفة ، ومكة على المدينة ، والشام على الجزيرة ، ولا في تفضيل العجم على العرب ، وعدنان على قحطان ، وعمروا على واصل ، فيرد بذلك الهُذَلي على النَّظامي ، ولا هو في تفضيل مالك على أبي حنيفة ، ولا هو في تفضيل امرىء القيس على النابغة ، وعامر بن الطفيل على عمرو ابن مَعدي كَرِب ، وعَبَّاد بن الحصين على عبيد الله بن الحُرّ ، ولا في تفضيل ابن سُرَيْج على الغَرِيض ، ولا في تفضيل سيبويه على الكسائي ، ولا في تفضيل الجعفري على العَقيلي ، ولا في تفضيل حلم الأحنف على حلم معاوية ، وتفضيل قَتادة على الزُّهري ، فإن لكل صنف من هذه الأصناف شيعة ، ولكل رجل من هـؤلاء جنداً وعدداً من مخاصميهم وسفائهم ، والمتسرعون منهم كثير ، وعلماؤهم قليل ، وإنصاف علمائهم أقل » .

قال : « وقد صادف هذا الكتاب مني حالات تمنع من بلوغ الإرادة فيه ، أول ذلك العلة الشديدة ، الثانية قلة الأعوان ، الثالثة طول الكتاب ،

والرابعة أني لو تكلفت كتاباً في طوله وعدد ألفاظه ومعانيه ، ثم كان من كتاب العَرض والجوهر ، والصفرة والتوليد ، والمداخلة والغرائز والنحاس[١] ، لكان أسهل وأقصر أياماً ، وأسرع فراغاً ، لأني كنت لا أفزع فيه إلى تلقط الأشعار ، وتتبع الأمثال ، واستخراج الآي من القرآن ، والحجج من الرواية ، مع تفرق هذه الأمور في الكتب ، وتباعد ما بين الأشكال . فإن وجدت فيه خللاً من اضطراب لفظ ، ومن سوء تأليف ، ومن تقطيع نظام ، ومن وقوع الشيء في غير موضعه ، فلا تُنكر بعد أن صوَّرت عندكَ حالي التي ابتدأت عليها كتابي . ولولا ما أرجو من عون الله على إتمامه ، إذ كنت لم ألتمس به إلا إفهامك مواقع الحجج لله ، وتصاريف تدبيره ، والذي أودع أصناف خلقه من أصناف حكمته ، لما تعرضت لهذا المكروه ؛ فإن نظرت في هذا الكتاب ، فانظر فيه نظر من يلتمس لصاحبه المخارج ، ولا يذهب مذهب المتعنت[٢] ، ومذهب من إذا رأى خيراً كتمه ، وإذا رأى شراً أذاعه » .

ومما قال فيه : « وما عندي لك من الحيلة إلا أن أصوره لكَ في أحسن صورة ، وأقبلكَ منه في الفنون المختلفة » ؛ فإن وجدت الكتاب الذي كتبته لك يخالف ما وصفت ، فأنقصني من نشاطكَ له على قدر ما نقصتكَ مما ينشطكَ إليه لقراءته ؛ وإن وجدتني ، إذا صح عقلكَ وإنْصافكَ ، قد وفيتكَ ما ضمنت لك ، فوجدت نشاطك بعد ذلك مدخولاً ، وحدَّكَ مفلولاً ، فاعلم أنا لم نؤْت إلا من فسولتك وفساد طبعك ، ومن إيثاركَ لما أضرَّ بكَ » .

وقال في مقصده الذي يرمي إليه بطريقته في تأليفه هذا : « فرأيت أن جملة الكتاب وإن كثر عدد ورقه أن ذلك ليس مما يملُّ ، ويعتدُّ عليَّ فيه بالإطالة ، لأنه وإن كان كتاباً واحداً فإنه كتب كثيرة ، وكل مصحف منها

---

(١) النحاس مثلثة الطبيعة .

(٢) المتعنت طالب الزلة .

فهو أم على حدة ، فإن أراد أحد قراءة الجميع لم يطل عليه الباب الأول حتى يهجم على الثاني ، ولا الثاني حتى يهجم على الثالث ، فهو أبداً مستفيد ومستطرف ، وبعضه يكون جَماماً[١] لبعض ؛ ولا يزال نشاطه زائداً ، ومتى خرج من آي القرآن صار إلى الأثر ، ومتى خرج من أثر صار إلى خبر ، ثم يخرج من الخبر إلى شعر ، ومن الشعر إلى نوادر ، ومن النوادر إلى حكم عقلية ، ومقاييس شداد ، ثم لا يترك هذا الباب ، ولعله أن يكون أثقل ، والملال إليه أسرع ، حتى يُفضى به إلى مزح وفكاهة ، وإلى سخف وخرافة ، ولست أراه سخفاً ، إذ كنت إنما استعملت سيرة الحكماء ، وآداب العلماء ، ورأينا الله تبارك وتعالى إذا خاطب العرب والأعراب ، أخرج الكلام مخرج الإشارة والوحي[٢] والحذف ، وإذا خاطب بني إسرائيل أو حكى عنهم جعله مبسوطاً ، وزاد في الكلام ، فأصوب العمل اتباع آثار العلماء ، والاحتذاء على مثال القدماء ، والأخذ بما عليه الجماعة » . وقوله هذا في نسق تأليف القرآن من أبدع ما اهتدت إليه قوة مفكرة .

قال أبو علي الحسن بن داود : فخر البصرة بأربعة كتب : كتاب البيان والتبيين للجاحظ ، وكتاب الحيوان له ، وكتاب سيبويه ، وكتاب العين للخليل . وزعم بعض علماء الإفرنج أن كتاب الحيوان أقرب إلى أن يوسم بكتاب أدب منه إلى أن يعد كتاباً في طبائع الحيوان ، وجوابنا لمن ادعى هذه الدعوى أن ما حققه الجاحظ في صنوف الحيوان قبل غيره من العرب والعجم كافٍ بأن يعد السابق المبرز في هذا الفن ، والشعر الكثير الذي نقله لا يُزري بما كتب ، وهو يملي على الناس روح عصره . كتب الجاحظ كتابه أوائل القرن الثالث من الهجرة ، والعلم كما قال ريشه

---

(١) الجمام بفتح أواه : الراحة .

(٢) الوحي : الإشارة والكتابة والمكتوب والرسالة والإلهام والكلام الخفي وكل ما ألقيته إلى غيرك .

لم يتجاوز عمره من فرنكلين إلى أنشتين أكثر من مائة وخمسين سنة. وفي كتابه خلاصة من الشعر الجيد، وأجمل الحكايات والنوادر، ومنها ما كان من نوع الأدب الواقع، وهناك أمتع الفوائد الأدبية والمسائل الدينية، وأجمع من هذا كلامه على أجناس الحيوان. وما كتب ما كتب فيه إلا عن تجربة وعيان، وفيه كلام على الناس وبلادهم وهوائهم وأمزجتهم وعاداتهم إلى غير ذلك مما لا يظفر به باحث في كتاب واحد. فإتيان الغرائب والطرائف «ومعها شاهد من كتاب منزل، أو حديث مأثور، أو خبر مستفيض، أو شعر معروف، أو مثل مضروب، أو يكون ذلك مما يستشهد عليه الطبيب، أو من أكثر من قراءة الكتب، أو بعض من قد مارس الأسفار وركب البحار، وسكن الصحارى، واستذرى الهضاب، ودخل في الغياض، ومشى في بطون الأودية» — الإتيان بالغرائب باعث على عموم فائدته.

وأما كتابه البيان والتبيين فقد دخل فيه على موضوعه رأساً وبدأه بقوله «اللهم إنا نعوذ بك من فتنة القول، كما نعوذ بك من فتنة العمل، ونعوذ بك من التكلف لما لا نحسن، كما نعوذ بك من العجب بما نحسن. ونعوذ بك من السلاطة والهذر، كما نعوذ بك من العيّ والحصر، وقديماً تعوذوا بالله من شرهما، وتضرعوا إلى الله في السلامة منهما». يقول صاحب الصناعتين إن البيان والتبيين كثير الفوائد جم المنافع، لما اشتمل عليه من الفصول الشريفة والفقر اللطيفة، والخطب الرائعة والأخبار البارعة، وما حواه من أسماء الخطباء والبلغاء، وما نبه عليه من مقاديرهم في البلاغة والخطابة وغير ذلك من فنونه المختارة، ونعوته المستحسنة، إلا أن الإبانة عن حدود البلاغة، وأقسام البيان والفصاحة مبثوثة في تضاعيفه، ومنتشرة في أثنائه، فهي ضالة بين الأمثلة لا توجد إلا بالتأمل الطويل، والتصفح الكثير ...»

الجاحظ في البيان والتبيين يكثر من الشواهد، ويقلل من القواعد،

ويضمنه هزلاً وجداً ، وكأنه كان يشعر بأن كتابه غير منسق ، وكان الأمثل به أن يضع كل شيء في مكانه فاعتذر مرة بقوله : « وكان في الحق أن يكون هذا الباب في أول الكتاب ، ولكنا أخرناه لبعض التدبير » . ومما قال في مناسبة أخرى : « وهذا الباب يقع في كتاب الإنسان من كتاب الحيوان ، وفي فضل ما بين الذكر والأنثى تاماً ، وليس هذا الباب مما يدخل في باب البيان والتبيين ، ولكن قد يجري السبب فيجري معه بقدر ما يكون تنشيطاً لقارىء الكتاب ، لأن خروجه من الباب إذا طال لبعض العلم ، كان ذلك أروح على قلبه ، وأزيد في نشاطه » .

أراد الجاحظ في البيان والتبيين أن يعلم طالب البلاغة بالعمل كما تعلم هو البلاغة ، وكان البيان في عهده يُعَلّم على هذه الصورة ، وبعده قام العلماء بوضع قواعد قلما أفادت الكاتب والشاعر ، اللهم إلا الوقوف على ما عللوا له ، واستشهدوا به ، وسنوا له من القوانين . وكان معظم من كتبت لهم الإجادة في كل زمن في فني المنثور والمنظوم ممن لا يعبؤون كثيراً بما قاله علماء البيان . فالبيان يُعَلَّم بالذوق والعمل ، لا بالقواعد والقوانين . والجاحظ كان في كتابه هذا عملياً شأنه في كل ما كتب . وكذلك هو في النحو فقد قال في فصل رياضة الصبي : « وأما النحو فلا تشغل قلبه منه إلا بقدر ما يؤديه إلى السلامة من فاحش اللحن ، ومن مقدار جهل العوام في كتاب كتبه ، وشعرٍ إن أنشده ، وشيءٍ إن وضعه ، وما زاد على ذلك فهو مشغلة عما هو أولى به ، ومذهل عما هو أردُّ عليه منه ، من رواية المثل والشاهد ، والخبر الصادق ، والتعبير البارع » .

والغالب أن البيان والتبيين على كثرة إمتاعه لم ينظر فيه الجاحظ نظرة أخيرة ، فقد رأيناه ذكر قصيدة سلمة بن حُرْشب في قتال عبس وذبيان مرتين ، ونسبها في المرة الثانية لسلمة بن الحارث الإيادي . وهي القصيدة التي أنشدها الجاحظ لسهل بن هرون فقال : والله لكأنه سمع رسالة عمر بن الخطاب إلى أبي موسى الأشعري في سياسة القضاء وتدبير الحكم .

وقال في السبب الذي دعاه إلى تأليف كتابه « الدلائل والاعتبار » وفيه مباحث من شواهد آثار الصانع في صنعته ، وتنبيه على أسرار قد أودعها ما يشاهده المرءُ من فطرته ، تضطره إلى معرفته وتشهد بوحدانيته ، وتخبر عن جلال عظمته وكمال قدرته ، قال : إنه ألف مثل كتابه هذا جماعة من الحكماء المتقدمين فما وضحوا معانيه ، ولا بينوا المشكل منه ، فمنهم جبرائيل بن نوح الأنباري ، وقبله ألّف في معنـــاه تودرقوس أسقف طرسوس وسمى كتابه المتدبر ، ونقله من أخذه عنه من السريانية إلى العربية ، فأفسده بتأويل الألسنة وسوء العبارة ، ومنها كتاب نظمه ثاوريطوس أسقف قورس كتبه باليونانية ، ونقل بعده إلى السريانية ثم إلى العربية ، فجرى مجرى الأول المفسود بتداول النقل والعبارات ، ومنها كتاب أُلف في أيام بني أمية ، نظمه يسوعنجت مطران فارس ، وكتبه بالفارسية فأكسبه استغلاقاً اه . وجمع الجاحظ محاسن ما وجده في هذه الكتب وزاده بمقدار الطاقة ، وشرح ما نقل من غيره ، وبين القول فيما زاده ، ورتبه ترتيباً يونق السمع ، ويسر القلب ، ويبسط السامع ، ويوجب الحجة على المخالف .

وقال في مقدمة كتابه حجج النبوة : والذي دعانا إلى تأليف حجج الرسول ونظمها ، وجمع وجوهها وتدوينها ، أنها متى كانت مجموعة منظومة نشط لحفظها وتفهمها من كان عسى أن لا ينشط لجمعها ، ولا يقدر على نظمها وجمع متفرقها وعلى اللفظ المؤثر عنها ومن كان عسى أن لا يعرف وجه مطلبها والوقوع عليها ، ولعل بعض الناس يعرف بعضها ويجهل بعضها ؛ ولعل بعضهم ، وإن كان قد عرفها بحقها وصدقها ، فلم يعرفها من أسهل طرقها ، وأقرب وجوهها ، ولعل بعضهم أن يكون قد كان عرف فنسي ، أو تهاون بها فعمي ، بل لا نشك أنها إذا كانت مجموعة متخيرة مستقصاة مفصلة أنها ستزيد في بصيرة العالم ، ويجمع الكل كمن كان لا يعرف إلا البعض ، ويذكّر الناسي ويكون عدة على الطاعن .

ولعل بعض من ألحد في دينه ، وعمي عن رشده ، وأخطأ موضع حظه ، أن يدعوه العجب بنفسه ، والثقة بما عنده إلى أن يلتمس قراءتها ، ليتقدم في نقضها وإفسادها ، فإذا قرأها فهمها ، وإذا فهمها انتبه من رقدته ، وأفاق عن سكرته ، لعز الحق وذل الباطل ، ولإشراف الحجة على الشبهة ، ولأن من تفرد بكتاب فقرأه ليس كمن نازع صاحبه وجافاه ، لأن الإنسان لا يباهي نفسه ، والحق بعد قاهر له ، ومع التلاقي يحدث التباهي ، وفي المحافل يقل الخضوع ويشتد النزوع اه .

وقال في مقدمة رسالته التبصر بالتجارة : « سألت ، أكرمك الله ، عن أوصاف ما يستظرف في البلدان من الأمتعة الرفيعة والأعلاق النفيسة والجواهر الثمينة المرتفعة القيمة ، ليكون ذلك مادة لمن حنكته التجارب ، وعوناً لمن مارسته وجوه المكاسب والمطالب » . وقال في مقدمة رسالة « الحنين إلى الأوطان » : « إن لكل شيء من العلم ، ونوع من الحكمة ، وصنف من الأدب ، سبباً يدعو إلى تأليف ما كان فيه مشتتاً ، ومعنى يحدو على جمع ما كان متفرقاً ، ومتى أغفل حملة الأدب وأهل المعرفة ، تمييز الأخبار ، واستنباط الآثار ، وضم كل جوهر نفيس إلى شكله ، وتأليف كل نادر من الحكمة إلى مثله ، بطلت الحكمة وضاع العلم ، وأُميت الأدب ، ودرس مشهور كل نادرة ، ولولا تقييد العلماء خواطرهم على الدهر ، ونقرهم آثار الأوائل في الصخر ، لبطل أول العلم وضاع آخره . ولذلك قيل : لا يزال الناس بخير ما بقي الأول يتعلم من الآخر . »

وهكذا تراه يتفنن في مقدمات كتبه ورسائله تفننه في تأليفها ووضعها ، فقد قال في مقدمة كتابه البخلاء : « ذكرت حفظك الله أنك قرأت كتابي في تصنيف حيل لصوص النهار ، وفي تفصيل حيل سُرّاق الليل ، وأنك سددت به كل خلل ، وحصنت به كل عورة ، وتقدمت بما أفادك من لطائف الخدع ، ونبهك عليه من غرائب الحيل ، فيما عسى أن لا يبلغه كيد ، ولا يحوزه مكر ، وذلك أن موقع نفعه عظيم ، وأن التقدم في

درسه واجب ، وقلت اذكر لي نوادر البخلاء ، واحتجاج الأشحاء ، وما يجوز من ذلك في باب الهزل ، وما يجوز منه في باب الجد ، لأجعل الهزل مستراحاً ، والراحة جَماماً ، فإن للجد كداً يمنع من معاودته ، ولا بد لمن التمس نفعه من مراجعته » .

وبدأ كتابه المحاسن والأضداد بقوله : « كانت العجم تقيد مآثرها بالبنيان والمدن والحصون ، مثل بناء أردشير وبناء إصطخر ، وبناء المدائن والسَّديرِ ، ثم إن العرب شاركت العجم في البنيان ، وتفردت بالكتب والأخبار والشعر والآثار ، فلها من البنيان غمدان ، وكعبة نجران ، وقصر مأرب وقصر مارد ، وقصر شَعوب والأبلق الفرد وغير ذلك من البنيان . وتصنيف الكتب أشد تقييداً للمآثر على ممر الأيام والدهور من البنيان ، لأن البناء لا محالة يدرس ، وتعفى رسومه ، والكتاب باق يقع من قرن إلى قرن ، ومن أمة إلى أمة . فهو أبداً جديد ، والناظر فيه مستفيد وهو أبلغ في تحصيل المآثر من البنيان والتصاوير .

« وكانت العجم تجعل الكتاب في الصخور ، ونقشاً في الحجارة ، وخِلقة مركبة في البنيان ، فربما كان الكتاب هو الناتيءُ ، وربما كان هو المحفور ، إذا كان ذلك تاريخاً لأمر جسيم ، أو عهداً لأمر عظيم ، أو موعظة يرتجى نفعها ، أو إحياء شرف يريدون تخليد ذكره ، كما كتبوا على قبة غمدان ، وعلى باب القيروان ، وعلى باب سمرقند ، وعلى عمود مأرب ، وعلى ركن المشقَّر ، وعلى الأبلق الفرد ، وعلى باب الرُّها . يعمدون إلى المواضع المشهورة ، والأماكن المذكورة ، فيضعون الخط في أبعد المواضع من الدثور ، وأمنعها من الدروس ، وأجدر أن يراه من مرَّ به ، ولا يُنسى على وجه الدهور . ولولا الحكم المحفوظة ، والكتب المدونة ، لبطل أكثر العلم ، ولغلب سلطان النسيان سلطان الذكر ، ولما كان للناس مفزع إلى موضع استذكار . ولو لم يتم ذلك لحرمنا أكثر النفع . ولولا ما رسمت لنا الأوائل في كتبها ، وخلدت من عجيب حكمتها ، ودونت

من أنواع سيرها ، حتى شاهدنا بها ما غاب عنا ، وفتحنا بها كل مستغلق ، فجمعنا إلى قليلنا كثيرهم ، وأدركنا ما لم ندركه إلا بهم ، لقد بَخُس حظنا منه . وأهل العلم والنظر ، وأصحاب الفكر والعبر ، والعلماء بمخارج الملل وأرباب النحل ، وورثة الأنبياء ، وأعوان الخلفاء ، يكتبون كتب الظرفاء والصلحاء ، وكتب الملاهي ، وكتب أعوان الصلحاء ، وكتب أصحاب المراء والخصومات ، وكتب السخفاء وحمية الجاهلية . ومنهم من يفرّط في العلم أيام خموله ، وترك ذكره وحداثة سنه » . انظر إلى هذه الرشاقة مع الجزالة ، وإلى هذه الإحاطة بكل ما يجب أن يقال في هذا المجال . وهذه المقدمة تشعر بأن هذا الكتاب أو معظمه هو من قلم الجاحظ أو جمعه بعضهم من كلامه وكلام غيره .

أما بعد فليس أبدع من هذه المقالة يدلى بها « إلف تفكير وتنقير ، ودَرّاسة كتب ، وحلف تبيين » لإقناع من يزعم أن مثل هذه الموضوعات ليست مما يخلق بالتدوين ، ويرد بها على من شهدهم « أملياءَ بالخرافات ، أقوياء على رد الصحيح ، وتصحيح السقيم » . قال في سبب تأليفه « مناقب الترك وعامة جند الخلافة » : « إن ذهبنا ، حفظك الله ، بعقب هذه الاحتجاجات ، وعند منقطع هذه الاستدلالات نستعمل المفاوضة بمناقب الأتراك ، والموازنة بين خصالهم ، وخصال كل صنف من هذه الأصناف ، سلكنا في هذا الكتاب سبيل أصحاب الخصومات في كتبهم ، وطريق أصحاب الأهواء في الاختلاف الذي بينهم ، وكتابنا هذا إنما تكلفناه لنوفق بين قلوبهم ، إن كانت مختلفة ، ولنزيد في الألفة إن كانت مؤتلفة ، ولنخبر عن اتفاق أسبابهم لتجتمع كلمتهم ، ولتسلم صدورهم وليعرف من كان لا يعرف منهم موضع التفاوت في النسب ، وكم مقدار الخلاف في الحسب ، فلا يغيّر بعضهم مغير ، ولا يفسده عدو بأباطيل مموهة ، وشبهات مزورة ، فإن المنافق العليم ، والعدو ذا الكيد العظيم ، قد يصور لمن دونه الباطل في صورة الحق ، ويلبس الإضاعة ثياب الحزم » ؛ « وأنا

أقول إن كان لا يمكن ذكر مناقب الأتراك ، إلا بـذكر مثالب سائر الأجناد ، فترك ذكر الجميع أصوب ، والإضراب عن هذا الكتاب أحزم ، وذكر الكثير من هذه الأوصاف بالجميل ، لا يقوم بالقليل من ذكر بعضهم بالقبيح ، لأن ذكر الأكثر بالجميل نافلة ، وباب من التطوع ، وذكر الأقل بالقبيح معصية ، وباب من ترك الواجب ، وقليل الفريضة أجدى علينا من كثير التطوع ، ولكل الناس نصيب من النقص ومقدار من الذنوب ، وإنما تتفاضل بكثرة المحاسن وقلة المساوي . فأما الاشتمال على جميع المحاسن ، والسلامة من جميع المساوي دقيقها وجليلها ، وظاهرها وخفيها ، فهذا لا يُعرف » .

وعلى هذا المعنى يقدم بين يدي نجواه ، الدواعي والبواعث إلى التأليف ، خصوصاً وبعض ما يفرده بالتصنيف قد يكون مما تستغرب الكتابة فيه ، مثل رسالته في فخر السودان على البيضان ، وقوله في المقدمة إنه كتب في ذلك ما حضره من مفاخر السودان . ومثل رسالته في أخلاق الكتاب ، جواباً على من مدح أخلاقهم ووصف فضائلهم وأعيانهم ، فذكر رداءة مذاهبهم وأفعالهم ولؤم طباعهم وأخلاقهم مشفوعة بالحجة « إذ كان في ذلك من التبيان ما يبهرهم ، ومن القول ما يسكتهم » ؛ وقال في غرض تأليف رسالته في القيان : « فوضعنا في كتابنا هذا حججاً على من عابنا بملك القيان ، وسبنا بمنادمة الإخوان ، ونقم علينا إظهار النعم والحديث بها ، ورجونا النصر إذ قد بُدينا ، والبادي أظلم ، وكاتب الحق فصيح (ويروى : ولسان الحق فصيح) ، ونفس المجروح لا يقام لها ، وصولة الحليم المتأني لا بقاء بعدها . فبينا الحجة في اطراح الغيرة في غير محرم ولا ريبة » .

وذكر في رسالته تفضيل النطق على الصمت أنه وجد كلام من زعم أن الصمت أفضل من الكلام « كلام امريء قد أعجب برأيه ، وارتطم في هواه ، وظن أنه قد نسج فيها كلاماً ، وألف ألفاظاً ، ونسج له معاني

على نحو مأخذه ومقصده ، أنه كان مثَله في ذلك مثل من تخلص إلى الحاكم وحده ففلج بحجته ، وإني سأوضح لك ذلك ببرهان قاطع ، وبيان ساطع ، وأشرح فيه من الحجج ما يظهر ، ومن الحق ما يقهر ، بقدر ما أتت عليه معرفتي ، وبلغته قوتي ، وملكته طاقتي ، بما لا يستطيع أحد رده ، ولا يمكنه إنكاره وجحده » . وفي رسالته في « مدح التجار وذم عمل السلطان » : « وهذا الكلام لا يزال ينجم من حشوة أتباع السلطان ، فأما عليْتَهم ومصاصهم[1] وذوو البصائر والتمييز منهم ... فيعلمون أنهم (أي التجار) أروح الناس أبداناً وأهنؤهم عيشاً ، وآمنهم سِرباً ، لأنهم في أفنيتهم ، كالملوك على أسرتهم ، يرغب إليهم أهل الحاجات ، وينزع إليهم ملتمسو البياعات ، لا تلحقهم الذلة في مكاسبهم ، ولا يستعبدهم الضَّرَع لمعاملاتهم ، وليس هكذا من لابس السلطان بنفسه ، وقاربه بخدمته ؛ فإن أولئك لباسهم الذلة ، وشعارهم الملق ، وقلوبهم ممن هم لهم خوَل مملوءة ، قد لبسها الرعب ، وألفها الذل ، وصحبها ترقب الاحتياج ، فهم مع هذا في تكدير وتنغيص ، خوفاً من سطوة الرئيس ، وتنكيل الصاحب ، وتغير الدول ، وافتراض حلول المحن ، فإن هي حلت بهم ، وكثيراً ما تحل ، فناهيك بهم مرحومين ، يرق لهم الأعداء فضلاً عن الأولياء » .

ومما قال في رسالته في الوكلاء : « وأخلق بمن كان في صفتك ، وأحرى بمن جرى عن دربتك ، أن لا يكون سبب تسرعه ، وعلة تشحنه ، إلا من ضيق الصدر ، وجميع الخير راجع إلى سعة الصدر ، فقد صحّ الآن أن سعة الصدر أصل ، وما سوى ذلك من أصناف الخير فرع . وقد رأيتك حفظك الله تعالى خوّنت جميع الوكلاء وفجرتهم ، وشنعت على جميع الوراقين وظلمتهم ، وجمعت جميع المعلمين وهجوتهم ، وحفظت

---

(١) المصاص بضم الميم : خالص كل شي .

مساويهم ونسيت محاسنهم ، واقتصرت على ذكر مثالب الأعلام والجلة » .

وكانت رسالته في « الرد على النصارى » جواب كتاب جاءه من أحدهم ، يذكر فيه من مسائل النصارى قِبَله ، وما دخل على قلوب أَحداثهم وضعفائهم من اللبس ، وما خاف على جواباتهم من العجز ، وسأله إقرارهم بالمسائل ، وحسن معونتهم بالجواب قال : « وسنقول في جميع ما ورد علينا من مسائلكم ، وفيما لا يقع إليكم من مسائلهم ، بالشواهد الظاهرة ، والحجج القوية ، والأدلة الاضطرارية » ؛ وقال في الإبانة عن رسالته في البخلاء : « ولكَ في هذا الكتاب ثلاثة أشياء : تبيين حجة طريفة ، أو تعرف حيلة لطيفة ، أَو استفادة نادرة عجيبة ، وأَنت في ضَحِك منه إذا شئت ، وفي لهو إذا مللت الجد » .

وكتب في كتابه طبقات المغنين ما دعاه إلى تأليفه فقال : « إنه خُص زمانه بفتية أشراف انتظم لهم من آلات الفتوة وأسباب المروءة ما كان محجوباً عن غيرهم ، معدوماً من سواهم ، فحملني الكلف بهم ، والمودة لهم ، والسرور بتخليد فخرهم ، وتشييد ذكرهم ، والحرص على تقويم أود ذوي الأود منهم ، حتى يلحق بأهل الكمال في صناعته ، والفضل في معرفته ، وعلى تمييز طبقة طبقة منهم ، وتسمية أهل كل طبقة بأوصافهم وآلاتهم وأدواتهم والمذاهب التي نسبوا إليها أنفسهم ، واحتملهم إخوانهم عليها ، وخلطنا جداً بهزل ، ومزجنا تعريفاً بتعريض ، ولم نرد بأحد ممن سمينا سوءاً ، ولا تعمدنا نقداً ، ولا تجاوزنا حداً ، ولو استعملنا غير الصدق لفضلنا قوماً ، وحابينا آخرين ، ولم نفعل ذلك تحبباً للحيف ، بل قصداً للإنصاف ... ولم نقصد في وصف من وصفنا من الطبقات التي صنفنا منهم إلا لمن أدركنا من أهل زماننا ممن حصل بمدينة السلام ... وذلك في سنة خمس عشرة ومائتين ... وقد تركنا في كل باب من الأبواب التي صنفناها في كتابنا فرجاً لزيادة إن زادت ، أو لاحقة إن لحقت ، أو نابتة إن نبتت ، ومن عسى أن ينتقل به الحذق من مرتبته إلى ما هو

أعلى منها ، أو يعجز به القصور عما هو عليه منها إلى ما هو دونها إلى مكانه الذي إليه نقله ارتفاع درجته أو انحطاطها ، ومن لعلنا نصير إلى ذكره ممن عَزُب عنا ذكره ، وأُنسينا اسمه ، ولم يحط علمنا به ، فنصيره في موضعه ونلحقه بأصحابه ، وليس لأحد أن يثبت شيئاً من هذه الأصناف إلا بعلتها ، ولا يستبد بأمر فيه دوننا . ويورد ذلك علينا فيمتحنه ، ويعرفه بما عنده ويصير إلى ترتيبه في المرتبة التي يستحقها ، والطبقة التي يحتملها ، فلما استتب لنا الفراغ مما أردنا من ذلك ، خطر ببالنا كثرة العيابين من الجهال برب العالمين ، فلم نأمن أن يسرعوا بسفه رأيهم ، وخفة أحلامهم إلى نقض كتابنا وتبديله ، وتحريفه عن مواضعه ، وإزالته عن أماكنه ، التي عليها رسمنا ، وأن يقول كل امرىء منهم في ذلك على حاله ، وبقدر هواه ورأيه ، وموافقته ومخالفته ، والميل في ذلك إلى بعض ، والذم لطبقة والحمد لأخرى ، فيهجنوا كتابنا ، ويلحقوا بنا ما ليس من شأننا . وأحببنا أن نأخذ في ذلك بالحزم ، وأن نحتاط فيه لأنفسنا ومن ضمه كتابنا ، ونبادر إلى تفريق نسخة منها وتصييرها في أيدي الثقات والمستبصرين الذين كانوا في هذا الشأن ، ثم ختموا ذلك بالعزلة والتوبة منه كصالح بن أبي صالح وكأحمد بن سلام وصالح مولى رشيد ، ففعلنا ذلكَ وصيرناه أمانة في أعناقهم ، ونسخة باقية في أيديهم ، ووثقنا بهم أمناء ومستودعين ، وحفظة غير مضيعين ولا متهمين ، وعلمنا أنهم لا يدعون صيانة ما استودعوا ، وحفظ ما عليه ائتمنوا ، إذا شيب به شوب يخالفه ، وأُضيف إليه ما لا يلائمه اهـ » .

وبدأ كتابه صناعة القواد بقوله : « أرشدكَ الله للصواب ، وعرفك فضل أولى الألباب ، ووهب لك جميل الآداب ، وجعلك ممن يعرف عز الأدب ، كما يعرف زوائد الغنى ، قال أبوعثمان : دخلت على أمير المؤمنين المعتصم بالله ، فقلت له : يا أمير المؤمنين ، في اللسان عشر خصال : أداة يظهر بها البيان ، وشاهد يخبر عن الضمير ، وحاكم يفصل بين

الخطاب ، وناطق يرد به الجواب ، وشافع تدرك به الحاجة ، وواصف تعرف به الأشياء ، وواعظ يعرف به القبيح ، ومغرّد ترد به الأحزان ، وخاصة تزهى بالصنيعة ، وملهى يونق الأسماع » .

وقال في مقدمة كتابه الحجاب : « أطال الله بقاكَ ، وجعلني من كل سوء فداكَ ، وأسعدكَ بطاعته ، وتولاكَ بكرامته ، ووالى إليك مزيده ؛ اعلم أنه يقال « أكرمك الله » أن السعيد من وعظ بغيره ، وأن الحكيم من أحكمته تجاربه ؛ وقد قيل كفاكَ أدباً لنفسك ما كرهت من غيرك ، وقيل كفاك من سوءِ الفعل سماعه ، وقيل إن من يقظة الفهم للواعظ ما يدعو النفس إلى الحذر من الخطأ ، والعقل إلى تصفيته من القذى ، وكانت الملوك إذا أتت ما يجل عن المعاتبة عليه ضُربت لها الأمثال وعُرّض لها بالحديث » .

وبهذا الوصف عرفنا بعض طريقته في التأليف .

ومما كتب في صدر رسالة النساءِ راداً على من حاول الطعن على كتابه ، وسخف الرأي الذي دعا إلى تأليفه ، والإشادة بذكره : « إذ كانت الدنيا لا تنفك من حاسد باغ ، ومن قائل متكلف ، ومن سامع طاعن ، ومن منافس مقصر ، كما أنها لا تنفك من ذي سلامة مستسلم ، ومن عالم متعلم ، ومن عظيم الخطر ، حسن المحضر ، شديد المحاماة على حقوق الأدباء ، قليل التسرع إلى أعراض العلماء » .

والحاصل أن أبا عثمان أبدع في رسائله وكتبه وفي مقدماتها ، وقد طلب إليه أحد أصدقائه أن يكتب له صفات الشارب والمشروب ، وما فيهما من المدح والعيوب ، وأن يميز له بين الأنبذة والخمر ، وأن يقفه على حد السكر وأن يعرفه السبب الذي يرغب في شرب الأنبذة وما فيها من اجتلاب المنفعة وما يكره من نبيذ الأوعية — طلب منه هذا فكتبه ، فكأنه عاش حياته بين البواطي والجرار والقدور والخمارين والسكيرين

والمخمورين ؛ وهذا آية إبداعه وعنوان تناهيه في أدبه يحسُّ كل شيء ويحسن وصف كل شيء .

وقال في صدر كتابه في المعلمين : أعانكَ الله على سورة الغضب ، وعصمكَ من ثورة الهوى ، وصرف ما أعاركَ من القوة إلى حب الإنصاف ، ورجح في قلبك إيثار الأناة ، فقد استعملت في المعلمين نَوْك السفهاء ، وخطل الجهلاء ، ومفاحشة الأدنياء ، ومجانبة سبل الحكماء ، وتهكم المقتدرين ، وأمن المفترين ، ومن تعرض للعداوة وجدها حاضرة ، ولا حاجة بك إلى تكلف ما كفيت .

كتب أبو عثمان بعض كتبه عن طلب من أصدقائه ، ومنهم من ذكرت فيها أسماؤهم ومنهم من لم تعرف كما وقع له في كتاب حجج النبوة أن قال : قد أعجبني حفظك الله استهداؤك العلم وفهمك له ، وشغفك بالإنصاف وميلكَ إليه ، وتعظيمك الحق وموالاتك فيه ، ورغبتك عن التقليد ، وزرايتك عليه ، ومواترة كتبك على بعد دارك ، وتقطع أسبابك ، وصبرك إلى أوان الإمكان ، واتساعك عند تضايق العذر ، وفهمت حفظك الله كتابك الأول وما حثثت عليه من تبادل العلم والتعاون على البحث والتحاب في الدين والنصيحة لجميع المسلمين ، وقلت اكتب إليّ كتاباً تقصد فيه إلى حاجات النفوس ، وإلى اصلاح القلوب ، وإلى معتلجات الشكوك ، وخواطر الشبهات ، دون الذي عليه أكثر المتكلمين من التطويل ومن التعمق والتعقيد ، ومن تكلف ما لا يجب ، وإضاعة ما يجب ، وقلت كن كالمعلم الرفيق ، والمعالج الشفيق ، الذي يعرف الداء وسببه ، والدواء وموقعه ، ويصبر على طول العلاج ولا يسأم كثرة الترداد الخ .

* * *

أظننا الآن جلينا بعض ما خاض الجاحظ غماره ، وجلّى في مضاميره

من الأبحاث ، وما أشبهه بصحيفة عصره السيارة ينطق فيها بلسان حزب الوطن ، وحزب الدولة ، وحزب الدين ، ويدل الناس على مراشدهم ، ويكشف عن عورات الفاسدين ، ويعلمهم الفضائل ، ويلقنهم كل ما تستنير به عقولهم لاستصلاح جماعاتهم ، يعرفهم بالإسلام من طريقي العقل والنقل ، يأتيهم بما يقنعهم ، ويزيد إيمانهم وثوقاً ، ككتبه في إثبات النبوة ونظم القرآن وفصل ما بين النبي والمتنبي .

قال ابن الخياط : ومن قرأ كتاب عمرو الجاحظ في الرد على المشبهة ، وكتابه في الأخبار وإثبات النبوة ، وكتابه في نظم القرآن علم أن له في الإسلام غَناءً عظيماً ، لم يكن الله عز وجل ليضيعه له . ولا يعرف كتاب في الاحتجاج لنظم القرآن وعجيب تأليفه ، وأنه حجة لمحمد على نبوته غير كتاب الجاحظ ؛ وهذه كتبه في إثبات الرسالة وكتبه في تصحيح مجيء الأخبار مشهورة اهـ .

الجاحظ المعلم الأول يعلم الناس أن لا يؤمنوا بشيء إلا إذا صح في نظام العقل ، ويريدهم على أن تدق ملاحظتهم ، ويرهف حسهم ، يعلم حرية النظر والبحث ولسان حاله : إن الدين لا يصلح بغير الدنيا ، وأن الشريعة جاءت لإصلاح الأولى والأخرى ، فتراه يكتب دفاتر مشبعة في ذم الزنى وفي الشارب والمشروب وإثم المسكر ، وفي شرائع المروءة ، وفي العشق والنساء وفضل ما بين الرجال والنساء ، وفي الجواري والمعلمين والطفيليين والمغنين وفي العرجان والبرصان والقرعان ، وفي الأسماء والكنى والألقاب والأنباز ، وفي الأصنام ، وفي الانس والسلوة ، وفي حيل اللصوص وغش الصناعات وأخلاق الشطار ، ويكتب في المعادن والتجارة وفي الزرع والنخل والزيتون والأعناب ، وقلما ترى له تخليطاً يذكر إلى جانب تخليط غيره من المؤلفين .

ذكر الجاحظ بني مروان وبني أُمية في رسالة ما لهم وما عليهم ،

مع أنه لا يتولاهم ؛ يقول المسعودي وقوله يؤخذ أبداً بتحفظ : إن الجاحظ ألف كتاباً بإمامة ولد العباس يحتج فيه لهذا المذهب وأنه لم يصنف هذا الكتاب ، ولا استقصى فيه الحجج للراوندية ، وهم شيعة ولد العباس ، لأنه لم يكن مذهبه ولا كان يعتقده ، لكن فعل ذلك تماجناً وتطرباً ؛ وقد صنف كتاباً استقصى فيه الحجج ترجمة بكتاب العثمانية ، يحيل فيه عند نفسه فضائل علي ومناقبه ، ويحتج فيه لغيره ، ثم لم يرض بهذا الكتاب المترجم بالعثمانية حتى أعقبه بتصنيف كتاب آخر في إمامة المروانية وأقوال شيعتهم . قال رأيته مترجماً بكتاب إمارة أمير المؤمنين معاوية ابن أبي سفيان في الانتصار له من علي بن أبي طالب وشيعته الرافضة يذكر فيه رجال المروانية ويؤيد فيه إمامة بني أمية وغيرهم ، ثم صنف كتاباً آخر ترجمه بكتاب مسائل العثمانية يذكر فيه ما فاته ذكره ونقضه عند نفسه من فضائل أمير المؤمنين علي ومن تبعه اهـ . وهذه الكتب لم تصلنا في جملة عشرات من كتبه فقدت ، فما استوثقنا بما ادعاه عليه المسعودي .

وإليك ما قاله فيما عيب عليه من كتبه ، وكأنه جواب لمخالفيه ، والمسعودي داخل في زمرتهم : « وعبتني بكتاب الصرحاء والهجناء ، ومفاخر السودان والحمران ، وموازنة ما بين حق الخؤولة والعمومة . وعبتني بكتاب الزرع والنخل والزيتون والأعناب ، وأقسام فضول الصناعات ومراتب التجارات ، وبكتاب فضل ما بين الرجال والنساء ، وفرق ما بين الذكور والإناث ، وفي أي موضع يغلبن ويفضلن ، وفي أي موضع يكن المغلوبات والمفضولات ، ونصيب أيهما في الولد أوفر ، وفي أي موضع يكون حقهن أوجب ، وأي عمل هو بهن أليق ، وأي صناعة هن فيها أبلغ . وعبتني بكتاب القحطانية والعدنانية ، وفي الرد على القحطانية ، وزعمت أني جاوزت فيه حد الحمية إلى حد العصبية ، وأني لم أصل إلى تفضيل العدنانية إلا بتنقص القحطانية . وعبتني بكتاب العرب

والموالي ، وزعمت أني بخست الموالي حقوقهم ، كما أني أعطيت العرب ما ليس لهم . وعبتني بكتاب العرب والعجم ، وزعمت أن القول في فرق ما بين العرب والعجم ، هو القول في فرق ما بين الموالي والعرب . ونسبتني إلى التكرار والترداد وإلى التكثر والجهل بما في المُعَاد من الخطل ، وحمل الناس المؤن . وعبتني بكتاب الأصنام وبذكر اعتلالات الهند لها ، وسبب عبادة العرب إياها ، وكيف اختلفا في جهة العلة ، مع اتفاقهما على جملة الديانة ، وكيف صار عباد البددة ، والمتمسكون بعبادة الأوثان المنحوتة والأصنام المنجورة ، أشد الديانيين إلفاً لما دانوا به وشغفاً لما تعبدوا له ، وأظهرهم جداً ، وأشدهم على من خالفهم ضغناً .

وقال : « وعبتني بكتاب المعادن والقول في جواهر الأرض وفي اختلاف أجناس الفلز والإخبار عن ذائبها وجامدها ومخلوقها ومصنوعها ، وكيف يسرع الانقلاب إلى بعضها ويبطيء عن بعضها ، وكيف صار بعض الألوان يصبغ ولا ينصبغ ، وبعضها ينصبغ ولا يصبغ ، وبعضها يصبغ وينصبغ ، وما القول في الإكسير والتلطيف . وعبتني بكتاب فرق ما بين هاشم وعبدشمس ، وكتاب فرق ما بين الجن والإنس ، وفرق ما بين الملائكة والجن ، وكيف القول في استيلاء العفريت على سليمان وفي الهدهد ، وفي الذي كان عنده علم من الكتاب ، وما الذي هو ذلك العلم ، وما تأويل قولهم كان .

« وعبتني بكتاب الأوفاق والرياضات ، وما القول في الأرزاق والإنفاقات ، وكيف تجرد التجار الحرفاء ، وكيف الاحتيال للودائع ؛ وبكل ما كتبت إلى إخواني وخلطائي من مزح وجد ، ومن إفصاح وتعريض ، ومن تغافل وتوقيف ، ومن هجاء لا يزال ميسمه[1] باقياً ، ومديح لا يزال أثره نامياً ، ومن ملح تضحك ومواعظ تبكي . وعبتني برسائلي

---

(١) الميسم المكواة .

الهاشميات واحتجاجي فيها ، واستقصائي معانيها وتصويري لها في أحسن صورة ، وإظهاري لها في أتم حلية . وزعمت أني قد خرجت بذلك من حد المعتزلة إلى حد الزيدية ، ومن حد الاعتدال في التشيع والاقتصاد فيه ، إلى حد السرف والإفراط فيه ؛ وزعمت أن مقالة الزيدية خطيئة مقالة الرافضة ، وأن مقاله الرافضة خطيئة مقالة الغالية . وزعمت أن في أصل القضية والذي جرت عليه العادة أن كل كبير فأوله صغير ، وأن كل كثير فإنما هو قليل جمع إلى قليل ... »

وأنت ترى أن ذاك العائب لأبي عثمان لم يبق له كتاباً لم يعبه بتأليفه ، وإن كان بلغ من إحكامه شوطاً بعيداً ، ثم عاد فقال : « وعبت كتابي في خلق القرآن ، كما عبت كتابي في الرد على المشبهة ، وعبت القول في أصول الفتيا والأحكام ، كما عبت كتابي في الاحتجاج لنظم القرآن ، وغريب تأليفه وبديع تركيبه ، وعبت معارضتي للزيدية ، وتفضيل الاعتزال على كل نحلة ، كما عبت كتابي في الوعد والوعيد ، وكتابي على النصراني واليهودي ، ثم عبت جملة كتبي في المعرفة ، والتمست تهجينها بكل حيلة ، وصغرت من شأنها ، وحططت من قدرها ، واعترضت على ناسخيها والمنتفعين بها ، فعبت كتاب الجوابات ، وكتاب المسائل ، وكتاب أصحاب الإلهام ، وكتاب الحجة في تثبيت النبوة ، وكتاب الأخبار ، ثم عبت إنكاري بصيرة غنام المرتد ، وبصيرة كل جاحد وملحد ، وتفريقي بين اعتراض الغمر ، وبين استبصار الملحد ، وعبت كتاب الرد على الجهمية في الإدراك ، وفي قولهم في الجهات ، وكتاب فرق ما بين النبي والمتنبي ، والفرق ما بين الحيل والمخارق ، وبين الحقائق الظاهرة والأعلام الباصرة ، ثم قصدت إلى كتابي هذا بالتصغير ... »

لقي الجاحظ الألاقي من خصومه المشاغبين والمعارضين ، ولكن ذهبت أقوالهم في الريح ، وذهب هو بالإحسان ، ثبتت مصنفاته وانتشرت

وبقي الأنسب ، وانقرض الثرثارون وما ثرثروا به ، وأي عصر ، وأي مذهب ، وأي جنس خلا من أمثالهم ؟

سياسته ودهاؤه :

الجاحظ رجل سياسة أيضاً كما هو معن مفن[1] ، عرف سياسة الوقت معرفته سياسة العلم . ومع اعتياده عادة العلماء كما قال ابن خلدون « النظر الفكري والغوص على المعاني وانتزاعها من المحسوسات ، وتجريدها في الذهن أموراً كلية عامة ليحكم عليها بأمر العموم ، لا بخصوص مادة ولا شخص ، ولا جيل ولا أمة ، ولا صنف من الناس » مع اعتياده هذا اشترك في الدفاع عن كيان الدولة ، وقصر وُكْدَه على الأمور الكبرى ، وما دخل في تفاصيل السياسة العباسية . ولو شارك فيها لكثر غلطه عند إرادته إفراغ السياسة في قالب أنظاره ، ونوع استدلالاته ، من تعميم الأحكام وقياس الأمور بعضها على بعض .

وأقل نظرة في كتبه تنبئك بأنه آزر في خدمة دولته ، وأسفاره في الفرق ما بين « هاشم وعبد شمس » و « الرسائل الهاشميات » و « العباسية » و « العرب والموالي » و « العرب والعجم » و « وجوب الإمامة » و « الدلالة على أن الإمامة فرض » و « مناقب الترك » كلها شاهدة أنه ساهم السياسيين إلى الحد الذي استجازه لنفسه . وإنا إذا نظرنا إلى اتصاله بوزراء الدولة ، وإلى حرص كل واحد منهم على أن يختص به دون غيره ، ندرك أن من شغفوا بصحبته للانتفاع بفضله وعلمه والاستمتاع بحديثه ، لا بد أن يحاولوا حمله على معاونتهم فيما هم بسبيله من مشاكلهم ، علماً منهم بتأثير كلامه في الأفكار ؛ ومنهم من كل يعمل لدولته في حاضرها ، ويهتم

---

(١) رجل مفن كسن يأتي بالعجائب والمعن الخطيب ، ورجل معن مفن ذو فنون من الكلام .

لمستقبلها ، أمثال ابن خاقان وابن أبي دواد وابن الزيات .

ومن يؤلف كتاب الفرق ما بين هاشم وبني عبد شمس ، لا يُعقل إلا أن يسير إلى جنب بني هاشم ، وهم أصحاب الدولة القائمة ، والجاحظ خصوصاً بحكم مذهبه لا يتولى بني أمية . ومن يؤلف « الهاشميات » و « كتاب العباسية » لا يتوخى غير خدمة العباسيين ، ولا يكتب إلا ما ينفع الهاشميين . وشيء آخر وهو أن أبا عثمان لو لم يتخذ هذه الخطة السياسية ، يراعي الخلفاء ، وأبناء الدعوة ووزراءهم ، لاستضعفه أعداؤه ، وكان له أعداء في مذهبه ، وأعداء في علمه وفكره ، وحساد غلاظ شداد من طبقة العلماء ، وطواغيت أغبياء ، يكرهون برداءة فِطَرهم كل من ينبغ ويشتهر . هذا وفي أرض المملكة أُلوف من المعجبين به ، وأكثرهم من الخواص ، والعوام متسلطون عليهم في أغلب الأزمان والبلدان ؛ فلولا السياسة التي اتبعها الجاحظ ، ولولا ما أدرك المخالف والموالف ، أن له يداً عند السلطان ، وأنه يرعاه ويبسط عليه جناح رحمته ، لناله شيء من أذى العامة والخاصة ، بإيعاز أنصار السوء ؛ فأبو عثمان اتخذ بالطريقة التي سلكها في بعض تآليفه يداً عند الخلفاء ورجال الدولة فغدوا له قوة وسنداً .

انظر إلى قوله في جملة طبقات الناس : « وضرب آخر من الناس همج هامج وَرعاع منتشر ، لا نظام لهم ولا اختيار عندهم ، أعراب أجلاف ، وأشباه الأعراب ، لا تدفع صولتهم إذا هاجوا ، ولا يؤمن هيجانهم إذا سكنوا ، إن أخصبوا طغوا في البلاد ، وإن أجدبوا آثروا العناد ، ثم هم موكلون ببغض القادة ، وأهل الثراء والنعمة ، يتمنون النكبة ، ويشمتون بالعثرة ، ويسرون بالحلولة ، ويترقبون الدائرة ، وهم كما وصفوا الطغام والسفلة » .

وقال من رسالة في وصف العوام : « قد عرفت ما كان الناس فيه

من القول بالعامة وما لهم من الجماعات الكثيرة والقوة الظاهرة ، وليست للخاصة طاقة بالعامة ، ولا للعِلْيَة قوة على السفلة . وقد قالت الأوائل فيهم ، وفي الاستعاذة بالله تعالى منهم ، فقال علي رضي الله عنه : نعوذ بالله من قوم إذا اجتمعوا لم يملكوا وإذا تفرقوا لم يعرفوا . وقال واصل ابن عطاء : ما اجتمعوا إلا ضروا ولا تفرقوا إلا نفعوا . قيل له قد عرفنا مضرة الاجتماع ، فما منفعة الافتراق ؟ قال : يرجع الطيان إلى تطيينه ، والحائك إلى حياكته ، والفلاح إلى فلاحته ، وكل إنسان إلى صناعته ، وكل ذلك رفق للمسلمين ومعونة للمحتاجين . وكان عمر بن عبدالعزيز إذا نظر إلى الطغام والحشوة قال : قبح الله هذه الوجوه التي لا تعرف إلا عند الشر ... »

ذلك رأيه في العامة ، وإذا تدبرنا كلاماً له مثلاً ، يعتذر فيه عن السلطان ويعلل سبب نقمة بعضهم عليه ، لا نتحرج من أن نذهب إلى أن هذا الفصل ما كتبه إلا ليقلل من شأن الناقمين على السياسة يومئذ ، وجوابه المقدر أصح جواب يقوله سياسي ، وهذا هو :

« السلطان لا يخلو من متأول ناقم ، ومن محكوم عليه ساخط ، ومن معدول عن الحكم زارٍ ، ومن متعطل متصفح[1] ، ومن معجب برأيه ، ذي خطل ببيانه ، مولع بتهجين الصواب ، والاعتراض على التدبير ، حتى كأنه رائد لجميع الأمة ، ووكيل لسكان المملكة ، يضع نفسه في موضع الرقباء ، وفي موضع التصفح على الخلفاء والوزراء ، لا يعذر وإن كان مجازُ العذر واضحاً ، ولا يقف فيما يكون للشك محتملاً ، ولا يصدق بأن الشاهد يرى ما لا يرى الغائب ، وأنه لا يعرف مصادر الرأي من لم يشهد موارده ، ولا مستدبره من لم يعرف مستقبله ، ومن محروم

---

(١) الزاري العائب ، والمتصفح الذي ينظر في الأمر بإمعان ، وتهجين الأمر تقبيحه ، والطالب والرائد الذي يرسل في طلب الكلأ .

قد اضطغنه[١] الحرمان ، ومن لئيم قد أفسده الإحسان ، ومن مستبطىء قد أخذ أضعاف حقه ، وهو لجهله بقدره ، ولضيق ذرعه ، وقلة شكره ، يظن أن الذي بقي له أكثر ، وأن حقه أوجب ؛ ومن مستزيد لو ارتجع السلطان سالف أياديه البيض عنده ، ونعمه السالفة عليه ، لكان لذلك أهلاً وله مستحقاً ، قد غره الإملاء ، وأبطره دوام الكفاية ، وأفسده طول الفراغ ؛ وصاحب فتنة خامل في الجماعة ، رئيس في الفرقة ، نعاق في الهرج ، قد أقصاه عز السلطان ، وأقام صغوه ثقاف الأدب[٢] ، وأذله الحكم بالحق ، فهو مغيظ لا يجد غير التشنيع ، ولا يتشفى بغير الإرجاف ، ولا يستريح إلا إلى الأماني ، ولا يأنس إلا بكل مرجف كذاب ، ومفتون مرتاب ، وحارص لا خير فيه ، وخالف لا غناء عنده ، يريد أن يسوّى بالكفاة ، ويرفع فوق الحماة ، لأمر سلف له ، ولإحسان كان من غيره ، وليس ممن يرب[٣] قديماً بحديث ، ولا يحفل بدروس شرف ، ولا يفصل بين ثواب المحتسبين ، وبين الحفظ لأبناء المحسنين ، وكيف يعرف فرق ما بين حق الذمام ، وثواب الكفاية ، من لا يعرف طبقات الحق في مراتبه ، ولا يفصل بين طبقات الباطل في منازله » .

كتب هذا إلى الفتح بن خاقان وزير المتوكل في المشكلة التي كان يراها رجال الدولة من أهم ما يُعالج يومئذ ، وهي مسألة اللغط في الجيش من تسرب الأتراك إليه . ومن يقرأ رسالته في مدح الأتراك لا يصعب عليه أن يدرك أن الجاحظ على بلاغته ولطيف حيلته ، كان هنا يجمجم ولا يصرح ، هو بحكم دمه وتربيته ومنشئه يحب العرب ، ويعد سائر

---

(١) اضطغنه جعله مشتملا على الضغن وهو الحقد .

(٢) الصغو : الميل ، والثقاف كسحاب ؛ ما يسوى به الرماح أي يثقفها ، والنعيق صوت الراعي بغنمه ، والهرج الفتنة والاختلاط .

(٣) رب الأمر إذا ساسه وقام بتدبيره .

الأمم دونهم في المنزلة والجنس ، ويرى أن نساء العرب في الجملة أعقل من رجال العجم ، ويقول : « فما ظنك بالمرأة منهم إذا كانت مقدمة فيهم » ، ويقول : « لم يكن لعبدالمطلب في قريش نظير ، كما أنه ليس في العرب لقريش نظير ، وكما أنه ليس في العرب للناس نظير » . وأكثر أبناء دعوته من الترك في الجيش ؛ وصارت للأتراك في الدولة الكلمة المسموعة ، فصبا إلى أن يوفق بين المصلحتين ، مصلحة الدولة في القضاء على تحاسد العناصر في جيشها ، والخوف من هؤلاء الأتراك ، وقد بدت طلائع سلطانهم ، وتجلى بطشهم وفتكهم ، وكادت تعرف مراميهم . وعلى هذا كان الجاحظ على بعض صواب في كتابه هذا ، وإلى معذرة فيما موّه فيه ، فقد نفع نفسه بأن أرضى الأتراك ، ونفع دولته بأن أهدأ الأفكار الثائرة ، وبضع صفحات من كلام الجاحظ أفعل في الناس من عشرات من رسائل غيره وخطبهم ، وهذا سر تمسك رجال الدولة به والضن بصداقته .

عالج بما رأى مسألة تكاثر الأتراك في الجيش ، وربما أحنق لثنائه على الترك نفوس بعض العرب عليه ، وهكذا اقتضت سياسة دولته وأمته . وعالج أيضاً مسألة سياسية أخرى ، عنينا مسألة الشعوبية[1] من العجم أعداء العرب ، وقد رأى التناحر بين الفريقين يؤدي إلى انقسام المملكة على نفسها ، إذا فسد تركيب الجيش ، وإذا فسد تركيب الأمة ، فهبَّ بما أوتيه من حكمة يقاتل الشعوبيين ، ويصغر من شأنهم ، ويرفع من قدر العرب ، وما غايته من ذلك إلا خدمة الدعوة العباسية ، ويقول

(١) الشعوب هم الأعاجم ، وفي العقد أن العرب تسمى العجمي إذا أسلم المسلماني ، ومنه يقال مسلمة السواد ، والهجين عندهم الذي أبوه عربي وأمه أعجمية ، والمقرف الذي أمه عربية وأبوه أعجمي ، والعجمي النصراني ونحوه وإن كان فصيحاً ، والأعجمي الأخرس اللسان وإن كان مسلماً ، ومنه قيل زياد الأعجم ، وكان في لسانه لكنة ؛ ودعي الفرس بالموالي في الاسلام ؛ وكانوا يسمون أبناء الأحرار في الجاهلية . ومن قبائل العرب كعبد القيس من كانت تفخر بمواليها.

في الطعن عليهم : « واعلم أنك لم تر قوماً أشقى من هؤلاء الشعوبية ، ولا أعدى على دينه ، ولا أشد استهلاكاً لعرضه ، ولا أطول نَصَباً ، ولا أقل غُنماً من أهل هذه النحلة . وقد شفى الصدور منهم طول جثوم الحسد على أكبادهم ، وتوقد نار الشنآن في قلوبهم ، وغليان تلك المراجل الفائرة ، وتسعُّر تلك النيران المضطرمة » .

حاربهم في البيان والتبيين ، وحاربهم في كتاب الموالي والعرب ، وحاربهم في رسالة النابتة ، وربما في مواضع أخرى لم تنته إلينا من أقواله ، وحارب الموالي لكراهته « العصبية التي هلك بها عالم بعد عالم ، والحمية التي لا تبقي ديناً إلا أفسدته ، ولا دنيا إلا أهلكتها ، وهو ما صارت إليه العجم من مذهب الشعوبية ، وما قد صار إليه الموالي من الفخر على العجم والعرب » قال : « وليس أدعى إلى الفساد ، ولا أجلب للشر من المفاخرة . . . وأي شيء أغيظ من أن يكون عبدك يزعم أنه أشرف منك ، وهو مقر أنه صار شريفاً بعتقك إياه » .

فالجاحظ لم يتلكأ عن خدمة الدولة في مداواة هذين الجرحين النغَّارين في جسم المملكة ، ناقش من يتنازعون في صميم الجيش ، ويتنازعون في صميم الأمة ، وكال بالكيل الوافي لكل من يدعى هذه الدعوى من الخاصة والعامة ، خلافاً لابن قتيبة الذي ادعى أن الشعوبية الذين عادوا العرب كانوا من السفلة والحشوة وأوباش النبط وأبناء أَكَرَة القرى ؛ فأما أشراف العجم وذوو الأخطار منهم ، وأهل الديانة ، فيعرفون ما لهم وما عليهم ، ويرون الشرف نسباً ثابتاً .

أي أن هذه العداوة كان العامة يبطنونها ويظهرونها للعرب ، والخاصة من الفرس براء منها . أما الجاحظ فأعقل من أن يغتر بالظواهر ، ويدرك أن معظم النار من مستصغر الشرر . ويقول إن « الفرس أصحاب تنفج وتزيُّد ، ولاسيما في كل شيء مما في باب العصبية » .

يفترص الجاحظ كل فرصة ليخدم الدعوة الهاشمية وينوه برجالها ، فقد ذكر الكبر والمتكبرين في العرب ، وانتهى به الكلام إلى مدح هاشم في هذا الشأن ، على أسلوب تعتقد صحة كل ما روى لك ، تأمل كلامه في هذا المعنى ، ولعلك تشاطرنا الرأي في أن الجاحظ بالغ بالحط من خصوم العباسيين ، ليخرج من ذلك إلى مدح من يريد تجميل صورتهم قال :

« والمذكورون من الناس بالكبر ثم من قريش بنو مخزوم وبنو أمية ، ومن العرب بنو جعفر بن كلاب وبنو زُرارة بن عُدَس خاصة ، فأما الأكاسرة من الفرس فكانوا لا يعدون الناس إلا عبيداً ، وأنفسهم إلا أرباباً ، ولسنا نخبر إلا عن دهماء الناس وجمهورهم ، وكيف كانوا من ملوك وسوقة ، والكبر في الأجناس الذليلة من الناس ارسخ وأعم ، ولكن الذلة والقلة مانعتان من ظهور كبرهم ، فصار لا يعرف ذلك إلا أهل المعرفة كعبيدنا من السند وذمتنا من اليهود ؛ والجملة أن كل من قدر من السفلة والوضعاء والمحقرين أدنى قدرة ، ظهر من كبره على من تحت قدرته ، على مراتب القدرة ما لا خفاء به ، فإن كان ذمياً وأحس بما له في صدور الناس تزيد في ذلك ؛ واستظهرت[1] به طبيعته ، بما يظن أن فيه رقع ذلك الخرق ، وحياص ذلك الفتق ، وسد تلك الثلمة ، فتفقَّدْ ما أقول لك فإنك ستجده فاشياً . وعلى هذا الحساب من هذه الجهة صار المملوك أسوأ ملكاً من الحر . وشيء قتلته علماً ، وهو أني لم أر ذا كبر قط على من دونه إلا وهو يذل لمن فوقه بمقدار ذلك ووزنه ، فأما بنو مخزوم وبنو أُمية وجعفر بن كلاب وبنو زرارة بن عدس فأبطرهم ما وجدوا لأنفسهم من الفضيلة ، ولو كان في قوى عقولهم ودياناتهم فضل على قوى دواعي الحمية فيهم ، لكانوا كبني هاشم في تواضعهم وفي إنصافهم لمن دونهم » . وذكر في مكان آخر أن بني مخزوم ضرب بهم

---

(١) استظهر به : استعان .

المثل ، ووصفوا في كل غاية ، فقيل أتيه من مخزومي ، قال وكانت بنو مخزوم تسمى ريحانة قريش لحظوة نسائها عند الرجال ، وكانت الجارية تولد لأحد آل الحرث بن هشام (المخزومي) فتتباشر النساء بها ، ويرى أهلها أنهم أغنياء لرغبة الخطاب فيها . ولذلك قال ابن هـَرِمة من قصيدة :

ومن لم يرد مدحي فإن قصائدي   توافق عند الأكرمين سُوامى[١]
وتنفق عند المشتري الحمد بالندى   نفاق بنـــات الحـارث بن هشام

ونقل الثعالبي أن الجاحظ لم يترك مزيداً في وصف قريش ومدحه إياهم وتخصيصه بني هاشم ، فإنه رحمه الله ألقى جُـمَّة فصاحته واستنزف بحر بلاغته في فصل له وهو قوله : العرب كالبدن ، وقريش روحها ، وهاشم سرها ولبها ، وموضع غاية الدين والدنيا منها ، وهاشم ملح الأرض ، وزينة الدنيا ، وحلي العالم ، والسَّنام الأضخم ، والكاهل الأعظم ، ولباب كل جوهر كريم ، وسر كل عنصر شريف ، والطينة البيضاء ، والمغرس المبارك ، والنصاب الوثيق ، ومعدن الفهم ، وينبوع العلم ، ومناهل الظامىء إلى الحلم ، والسيف الحسام في العزم ، مع الأناة والحزم ، والصفح عن الجرم ، والإغضاء عن العثرة ، والعفو عند المقدرة ، وهم الأنف المقدم ، والسنام الأكوم[٢] ، والعز المشمخر ، والصيابة[٣] والسر ، وكالماء الذي لا ينجسه شيء ، وكالشمس لا تخفى بكل مكان ، وكالنجم للحيران ، والماء البارد للظمآن ، ومنهم العمران ، والطيبان ، والسبطان ، والشهيدان ، وأَسد الله ، وذو الجناحين ، وسيد الوادي ، وساقي الحجيج ، وحليم البطحاء ، والبحر والحبر ، والأنصار أنصارهم ، والمهاجر من

(١) السوم في المبايعة كالسوام .
(٢) الأكوم : المرتفع .
(٣) الصياب والصيابة ، بضمها ويخففان : الخالص والصميم والأصل والخيار من الشيء ، والصيابة السيد . واشمخر : طال . والمشمخر : الجبل العالي .

هاجر إليهم أو معهم ، والصديق من صدقهم ، والفاروق من فرّق بين الحق والباطل منهم ، والحواريُّ حواريهم ، وذو الشهادتين لأنه شهد لهم ، ولا خير إلا لهم أو فيهم أو معهم أو انضاف إليهم ، وكيف لا يكونون كذلك ومنهم رسول رب العالمين ، وإمام الأولين والآخرين ، وسيد المرسلين وخاتم النبيين ... »

مثال آخر يثبت أنه كان يغلو في مدح بني هاشم وهو قوله كانت الطواعين تقع كثيراً فتصير تواريخ كطاعون عمواس ، وطاعون العذارى ؛ وطاعون الأشراف وغيرها ؛ ولما ملك بنو العباس رفع الله ببركتهم الطواعين والموتان الجارف عن بني آدم ، فإنها كانت تحصد فيهم حصداً . وفي ذلك يقول العماني للرشيد :

قد أذهب الله رماح الجن وأذهب التعليق والتجني

يريد ما كان بنو مروان يفعلونه من مطالبة الناس بالأموال ، وتعذيب عمال الخراج بالتعليق والتجريد قد ذهب . وكلامه هذا منقوض بوثائق التاريخ ، فإن الأمويين كانوا أرحم في باب الجباية من العباسيين ، وفي رسالة الخراج التي كتبها أبو يوسف للرشيد وصف كثير لما كان يعذب به الناس في الخراج في دهر العباسيين ، على ما لم يعهد بعضه في زمن الأمويين .

وبعد فإنك لا ترى في كل ما سلم من كتابات الجاحظ إلا تناسياً منه لما يرتكب من المآثم في المجتمع ، والسلطان في العادة والعرف هو مسؤول عنه في الدرجة الأولى . فوجهة نظره في سياسته استصلاح أهل المجتمع ليصلح القائمون عليه بالضرورة ، ومن لطيف مأتاه أن لا ينبه الأذهان إلى عيوب الدولة لأنه يحاذر عليها أعداءها ، ومصلحته تقتضيه الدفاع عنها . ولعل الجاحظ كان يعرف من عيوب الخلفاء من بني هاشم ومن عيوب رجالهم وعمالهم مالا يعرفه كثير من كبراء الدولة في عصره ، وقصاراه الإغضاء

اضطراراً لا اختياراً ، فهو يوجه نقده إلى الكثْرة الغامرة من الأمة ، عسى أن يكون بصلاحها صلاح الدولة . ولا يؤخذ من هذا أن الجاحظ صانع رجال الدولة ، ولو كان يحاول ذلك ، ولا يحس مقدار قبح هذه الصفة لاعتذر عنهم في أكثر ما تم على أيديهم ، وأيدي أتباعهم من الشرور والمظالم ، ولأقام لهم الأعذار ، وهو لا يعدم حجة ، ولا يقصر في بلاغة ، بيد أنه رأى الإغضاء وإسدال الستر على ما هنالك ، وانطلق يضرب فيمن ينالون من السلطان بما اختار لقيام أمره من أجناس غيرعربية أغضبت العرب ، وبمن يكيدون من الشعوبيين أعداء العرب ، وهواه أبداً مع بني هاشم ، زيَّنهم في عينه كونهم أصحاب السلطان . وهو القائل : « وقضية واجبة أن الناس لا يصلحهم إلا رئيس واحد ، يجمع شملهم ويكفيهم ويحميهم من عدوهم ويمنع قويهم عن ضعيفهم ، وقليل له نظام أقوى من كثير لا نظام لهم ولا رئيس عليهم » . ثم إن قصوره قليل يوم يصح عزمه على ذكر خصومه لأنه يعد الكذب كبيرة ، ويكره التزيُّد في كل شيء . فإذا موّه موّه بعقل ، وإذا أحب قد يترك مجالاً لحفظ خط الرجعة كما يقول المعاصرون ، لا يعمى عما ظهر من السيئات ، وإن اضطرته الدواعي إلى إغماض الطرف عن تردادها .

تهكمه وتنادره :

قلّ في العارفين من الناس من تذوق الحياة بالمعنى الذي تذوقه الجاحظ . جدّ جداً لم يبلغه غير أفراد في الآباد ، وهزل هزلاً قوي به على معاودة الجد ، فروَّح عن نفسه وعمن حفَّ به وعاشره وقرأ كتبه . أدرك أن مرارة الحياة لا تحلو بعض الحلاوة بغير الدُّعابة والإحماض ، ووقف على أسرار نفس الإنسان فحاول أن يلطف من شرّة الدنيا وشقائها . تعمد ، وهو العليم بأن الضحك والإضحاك خُلقا مع البشر كالبكاء والإبكاء ، أن يهذب الناس في هذه الناحية . والمرء يتعلم بالضحك أكثر مما يتعلم بالعبوس . وهو يريد أن لا يكون المرء جامداً ولا سائلاً بل في حالة بين بين .

قال في تعليل استعمال الهزل وفي منافعه ومضاره وفي حكمته وغايته :

« إن الكلام قد يكون في لفظ الجدّ ومعناه معنى الهزل ، كما يكون في لفظ الهزل ومعناه معنى الجد ، ولو استعمل الناس الدعابة في كل حال ، والجد في كل مقال ، وتركوا التسميح والتسهيل ، وعقّدوا في كل دقيق وجليل ، لكان السفه صراحاً خيراً لهم ، والباطل محضاً أردّ عليهم ، ولكن لكل شيء قدر ، ولكل حال شكل ، فالضحك في موضعه ، كالبكاء في موضعه ، والتبسم في موضعه كالقطوب في موضعه ، وكذلك المنع والبذل ، والعقاب والعفو ، وجميع القبض والبسط ، فإن ذممنا المزاح ، ففيه لعمري ما يذمّ ، وإن حمدناه ، ففيه ما يحمد ، وفصل ما بينه وبين الجد أن الخطأ إلى المزاح أسرع ، وحاله بحال السخف أشبه ، فأما أن يذم حتى يكون كالظلم ، وينعى حتى يكون كالغدر فلا . لأن المزاح مما يكون مرة قبيحاً ومرة حسناً ، والظلم لا يكون مرة قبيحاً ومرة حسناً » .

« والمزاح باب ليس المخوف فيه التقصير ، ولا يكون الخطأ فيه من جهة النقصان . وهو باب متى فتحه فاتح ، وطرّق له مطرّق ، لم يملك من سده مثل الذي يملك من فتحه . ولا يخرج منه بقدر ما كان قدم من نفسه ، لأنه باب أصل بنائه على الخطأ ، ولا يخالطه من الأخلاق إلا ما سَخُف ، ومن شأنه التزيد ، وأن يكون صاحبه قليل التخفظ ، ولم نرَ شيئاً أبعد من شر ، ولا أطول له صحبة ولا أشد خلافاً ، ولا أكثر خلطاً ، من الجد والمزاح ، والمناظرة والمراء » .

هذا قوله في رسالته التربيع والتدوير ، وهي الرسالة التي عبث فيها بأحمد بن عبد الوهاب الكاتب ، وقد أبدع فيها ما شاء إبداعه ، وعاد بعد حين فقال : « وقد ذهب الناس في المزاح إلى معان متضادة ، وسلكوا منه في طرق مختلفة ، فزعم بعضهم أن جميع المزاح خير من جميع الجد ، وزعم آخرون أن الخير والشر عليهما مقسومان ، وأن الحمد والذم بينهما نصفان .

فأما المحامي على الهزل والمفضِّل للمزح ، فإنه قال : أَول ما أذكر من خصال الهزل ومن فضائل المزح أنه دليل على حسن الحال وفراغ البال ، وأن الجد لا يكون إلا من فضل حاجة ، والمزح لا يكون إلا من فضل غنى ، وأَن الجد غضب ، والمزح جَمام ، والجدّ مَبْغضة ، والمزح محبة . وصاحب الجد في بلاءٍ ما كان فيه ، وصاحب المزح في رخاءٍ إلى أن يخرج منه . والجد مؤلم ، وربما عَرَّضك لأشدّ منه ، والمزح ملذٌّ ، وربما عَرَّضك لألذّ منه . فقد شاركه في التعريض للخير والشر ، وباينه بتعجيل الخير دون الشر ، وإنما تشاغل الناس ليفرغوا ، وجَدُّوا ليهزلوا ، كما تذللوا ليعزّوا ، وكدّوا ليستريحوا ، وإن كان المزح إنما صار معيباً ، والهزل إنما صار مذموماً ، لأن صاحبه لا يكون إلاّ معرَّضاً لمجاوزة القدر ، ومخاطراً بمودة الصديق ، فالجد داعية إلى الإفراط ، كما أن المزاح داعية إلى مجاوزة القدر ، وتجاوز الحد قاطع بين القرينين في جميع النوعين ، فقد ساواه المزاح فيما هوله وبايَنه فيما ليس له ، وإن كان المزح قبيحاً لأنه يورث الجد ، فأقبح من المزح ما صَيَّر المزح قبيحاً وإذا صار المزح قبيحاً ، لأن الذي يكون بعده الجد ، ولم يصير الجد قبيحاً ، لأن الذي بعده المزح ، كان الجد في هذا الوزن أقبح من المزح ، وكان المزح على هذا التقدير أحسن من الجد ، لأن ما جعل الشيء قبيحاً أقبح من الشيء ، كما أن ما جعل الشيء حسناً أَحسن من الشيء » .

« وأما الذي عدل بينهما ، فإنه زعم أَن المزح في موضعه كالجد في موضعه ، كما أن المنع في حقه كالبذل في حقه » . قال : « ولكل شيء موضع ، وليس شيء يصلح في كل موضع . وقد قسم الله الخيرة على المعدلة ، وأَجرى جميع الأمور إلى غاية المصلحة ، وقسط أجزاء المثوبة على العزيمة والرخصة ، وعلى الإعلان والتقية ، فأمر بالمداراة ، كما أمر بالمباداة ، وجوّز المعاريض ، كما أمر بالإفصاح ، وسوَّغ في المباح ، كما شدد في المفروض ، وجعل المباح جَماماً للقلوب ، وراحة للأبدان ، وعوناً على معاودة الأعمال ، فصار

الإطلاق كالحظر ، والصبر كالشكر ، وليس للإنسان من الخيرة في الذكر شيء إلا وله في النسيان مثله ، ولا في الفطنة شيء إلا وله في الغفلة مثله ، ولا في السراء شيء إلا وله في الضرّاء مثله ، ولو لم يرزق الله العباد إلا بالصواب محضاً ، وبالصدق صرفاً ، وبمرّ الحق صفحاً ، لهلكَ العوام ، وانتقض أمر الخواص ، ولو ذكر الإنسان كل ما أُنسيه لَشَقي ، ولو جد في كل شيء لانتكث ، وقد يكون الذكر إلى الهلكة سلماً ، كما يكون النسيان للسلامة سبباً . وسبيل المزاح والجد كسبيل المنع والبذل ، وعلى ذلك مجرى جميع القبض والبسط . فهذا وما قبله جمل أَقاويل القوم » .

أبان أبو عثمان بهذه الصفحة عن رأيه في الهزل والجد ، وفي مواطن استعمالهما وذكر آراء غيره في ذلك ، وما ندري إن كانت حقيقة آراءهم أم هو تصور أنها آراؤهم فأوردها بهذه الصيغة ، ونسجها هذا النسج . اعتاد الإنسان المزاح والتنادر والمرح ، ولكن إدخال ذلك في هذا القالب العلمي وتدوينه بالتأليف مما لم يعرفه قبل الجاحظ غير أفراد ، إن لم تكن هذه الطريقة من مبتكراته مباشرة فهو منظم شؤونها ، ومطرز نصوصها ومتونها .

قال إن « أهل العلم والنظر ، وأصحاب الفكر والعبر ، وأرباب النحل ، والعلماء وأهل البصر بمخارج الملل ، وورثة الأنبياء ، وأعوان الخلفاء ، يكتبون كتب الظرفاء والملحاء ، وكتب الفراغ والخلعاء ، وكتب الملاهي والفكاهات ، وكتب أصحاب الخصومات ، وكتب أصحاب المراء ، وكتب أصحاب العصبية وحمية الجاهلية ، لأنهم لا يحاسبون أنفسهم ، ولا يوازنون بين ما عليهم ولهم ، ولا يخافون تصفح العلماء ، ولأئمة الأدباء » .

فهو إذاً يتعمد رفع الملل عن قارئه وعدم إضجاره بالدوام على الجد ، لأن « الأذن مجاجة وللنفس حمضة » كما روى ابن قتيبة وزاد هذا بأن « المزاح إذا كان حقّاً أو مقارباً ، ولأحايينه وأوقاته وأسباب أوجبته مشاكلاً ، ليس من القبيح ولا المنكر ، ولا من الكبائر ولا من الصغائر ، ورغبات الناس متفاوتة » وإنما الكتاب « مثل المائدة تختلف فيها مذاقات الطعوم لاختلاف

شهوات الآكلين » . ومعنى الأذن مجاجة وللنفس حمضة ، أن الأذن لا لا تعي كل ما تسمعه ، وهي مع ذلك ذات شهوة لما تستطرفه من غرائب الحديث ونوادر الكلام . هكذا شرحها الجاحظ وقال إنها كلمة للقدماء .

وقال في كتابه النساء : وليس ينبغي لكتب الآداب والرياضات أن يُحمل أصحابها على الجد الصرف ، وعلى العقل المحض ، وعلى الحق المر ، وعلى المعاني الصعبة التي تستكد النفوس ، وتستفرغ المجهود ، وللصبر غاية ، وللاحتمال نهاية ، ولا بأس بأن يكون الكتاب موشحاً ببعض الهزل ، على أن الكتاب إذا كثر هزله سخف ، كما أنه إذا كثر جده ثقل ، ولا بد للكتاب ، من أن يكون فيه بعض ما ينشط القارىء ، وينفي النعاس عن المستمع .

أدرك الجاحظ بحكمته نفسية البشر ، وما ينفعهم وما يضرهم ، وما يخملهم وما يحمسهم فقال : « وخير الناس السهل الطلق الوجه المتواضع ، وفراسة الرجل السوء أن يكون منقبضاً غير منشرح ، وأن يرى لونه إلى الصفرة والكمود من غير مرض ، وأن يكون طائش القلب ، وأن يكون للدعابة والمزاح كارهاً وله عائباً ، وأن تراه غليظ اللفظ عند المحاورة . ومن فراسة الرجل الصالح أن تراه سهلاً طلقاً ، ذا منظر بهي ، وكلام شهي ، سبط الجبين غير منقبض ، ولا نزق غلق[1] قلق ، وغير كاره للدعابة والمزاح ، يذكر من يذكر بخير ، لين المحاورة متواضعاً » . « ورجال الجد غير رجال الهزل ، وقد يحسن الشيء بالشباب ويقبح مثله من الشيوخ ، ولولا التحصيل والموازنة ، والإبقاء على الأدب والديانة ، لشدة المحاسبة ، لما قالوا لكل مقام مقال ، ولكل زمان رجال » .

* * *

---

(١) الغلق الضيق الخلق العسر الرضا ، والغلق الكثير الغضب أيضاً .

ربما لم ننس أن الجاحظ كان دميم الوجه ، قبيح التقاطيع ، مختل القَسَمات وكان الأخفش أحد مشايخه – والأخفش الصغير العينين مع سوء بصرهما – أجلعَ أيضاً – والأجلع الذي لا تنضم شفتاه على أسنانه – ولا شك أن الشيخ وتلميذه كانا إذا اجتمعا ، والجاحظ ناتيء العينين ، تألفت منهما صورتان غريبتان . ولعل أبا عثمان لم يرضَ كما قالوا أن يفارق شيخه بعد أن أخذ ما عنده ، وآثر أن يبقيا صديقين لبعض المشاكلة في الصورة والخلق ، ولعل الجاحظ ما تعفف كثيراً عن العبث بأستاذه ، وهو ابن النكتة الحارة لا الباردة ، وعنده أن « النادرة الباردة جداً قد تكون أطيب من النادرة الحارة جداً ، وإنما الكرب الذي يخيم على القلوب ، ويأخذ بالأنفاس ، النادرة الفاترة التي لا هي حارة ولا هي باردة ، وكذلك الشعر الوسط والغناء الوسط ، وإنما الشأن في الحارة جداً أو الباردة جداً » . ولذا تراه كان يحكي نوادر العوام بألفاظ العوام ، حتى لا تفقد النكتة حليتها الأولى ومؤثراتها الخاصة . وقال عن نفسه إنه وصف للخليفة المتوكل لتأديب أحد أولاده ، فلما رأى صورته استبشعها فصرفه . وقال عن نفسه إنه اشترى له جارية تركية جميلة رجاء أن يرزق منها ولداً يكون بحسنها وذكائه ، فولدت له ولداً جاء بقبحه وجهلها .

ومن نكاته قوله : ومن البخلاء المذكورين أبو الهُذَيل ، أهدى مرة إلى يونس بن عمران دجاجة ، وكانت دون ما يُتخذ ليونس ، إلا أنه لكرمه وحسن خلقه ، أظهر التعجب من سمنها وطيب لحمها ، فقال له : كيف رأيت يا أبا عمران تلك الدجاجة ؟ قال : كانت عجباً من العجاب ، قال : أوتدري ما حسنها ، وتدري ما سمنها ؟ فإن الدجاجة إنما تطيب بالسمن والحسن ، وتدري بأي شيء كنا نسمنها ، وفي أي مكان كنا نعلفها ؟ ولا يزال في هذا ، ويونس يضحك ضحكاً نعرفه نحن ، ولا يعرفه أبو الهذيل ؛ وصار بعد ذلك إن ذكروا دجاجة قال : أين كانت يا أبا عمران من تلك الدجاجة ، وإن ذكروا بطة أو عَناقاً أو جزوراً أو بقرة قال : فأين كانت هذه الجزور في الجزر من تلك الدجاجة في الدجاج ، وإن استسمنوا شيئاً

من الطير أو البهائم أو الدجاج قال : لا والله ، ولا تلك الدجاجة ؛ وان ذكروا عذوبة الشحم قال : عذوبة الشحم تُصاب في البقر والبط وبطون السمك والدجاج ، ولا سيما ذلك الجنس من الدجاج ، وإن ذكروا ميلاد شيء أو قدوم إنسان قال : كان ذلك قبل أن أهدي إليك تلك الدجاجة بشهر ، وكان بعد أن أهديتها لك بسنة ، وما كان بين فلان وبين البعث بتلك الدجاجة إلا يوم ، وكانت مثلاً في كل شيء ، وتاريخاً لكل شيء » . ويونس ابن عمران من أرباب البيوتات في البصرة كان ، وهو الذي رضخ للجاحظ بدنانير ابتاع بها ما يقتات به ، وأخرج أبا عثمان من تهكم أمه به وبدفاتره ، لأول أمره ، على ما مر بنا في الفصل الذي عقدناه لوصف نشأته ونعمته . وعلينا أن نتأمل في هذه القصة قوله : « ويونس يضحك ضحكاً نعرفه نحن ولا يعرفه أبو الهذيل » .

فالجاحظ كما رأيت يسلي نفسه بهذه المداعبات ، ويبسم ابتسام العظمة ، وإذا تبرم بأبناء الزمان عدد مساوىء الدهر فقال جاداً : « يصف استحالة الزمان ، وفساد الأيام ، ودولة الأنذال » :

« وقدماً كان من قدم الحياء على نفسه ، وحكم الصدق في قوله ، وآثر الحق في أموره ، ونبذ المشتبهات عليه من شؤونه ، تمت له السلامة ، وفاز بوفور حظ العافية ، وحمد مغبة مكروه العاقبة ، فنظرنا إذ حال عندنا حكمه ، وتحولت دولته ، فوجدنا الحياءَ متصلاً بالحرمان ، والصدق آفة على المال ، والقصد في الطلب بترك استعمال القحة ، وإخلاق العرض من طريق التوكل ، دليلاً على سخافة الرأي » . وبعد أن قال فيمن وجد فيه الفسولة الواضحة ، والمثالب الفاضحة ، إنه إن زل قيل حَكَمُ ، وإن أخطأ قيل أصاب ، وإن هذى في كلامه وهو يقظان ، قيل رؤيا صادقة من نسمة مباركة . قال : فهذا دليل أن الطلاح أجدى من الصلاح ، وأن الفضل قد مضى زمانه ، وعفت آثاره ، وصارت الدائرة عليه ، كما كانت الدائرة على ضده . ووجدنا العقل يشقى به قرينه ، كما أن الجهل والحمق يَحْظى به خدينه ، ووجدنا

الشعر ناطقاً على الزمان ومعرباً عن الأيام حيث يقول :

تحامق مع الحمقى إذا ما لقيتهم ولاقِهم بالجهل فعلَ أخي الجهل
وخلّط إذا لاقيت يوماً مخلطاً يخلط في قول صحيح وفي هزل
فإني رأيت المرء يشقى بعقله كما كان قبل اليوم يسعد بالعقل

قال : « فوالله ما عُذِّبت أمّة برجفة ولا ريح ولا سخطة ، عذاب عيني برؤية المغايظة المدمنة ، والأخبار المهلكة ، كأن الزمان يوكل بعذابي ، فما عيش من لا يسر بأخ شفيق ، ولا يصطبح في أول نهاره إلا برؤية من يكرهه ويَغُمُّه . »

وهذه هي الناحية العابسة في نفس الجاحظ المرحة ، رأيته هنا يذكر ما يحيط به من المكدرات والمضنيات حتى ليسيء ظنه بالصلاح ، ويفضل عليه الطلاح ، شأن المتشائمين والسوداويين . ونفس عُمِّرَت كثيراً ، واختلفت عليها الأحوال قبضاً وبسطاً ، وخفضاً ورفعاً ، من مثل نفس الجاحظ لا تكون على حالة واحدة من الاسترسال والانقباض طول العمر : رأى من الخلفاء أشكالاً ، ومن الأمراء والوزراء والعلماء طبقات بعد طبقات ، ومن أبناء المجتمع من لا يحصيهم غير خالقهم ، ومن ضروب الأخلاق ما لا تتسع لذكره الأوراق ، وليس من شأن الدهر أن يثبت على حالة واحدة حتى يفسح للجاحظ أن يعيش قرناً على وتيرة واحدة ؛ وهو القائل لما مسخ الإنسان قرداً أنزل فيه مَشابِه من الإنسان ، ولما مسخ زماننا لم ينزل فيه مشابه من الأزمان . وأنشد :

وكان لنا أصدقاء مضوا تفانوا جميعاً وما خلدوا
تساقوا جميعاً كؤوس المنو ن فمات الصديق ومات العدو

ولقد غلبت الدعابة على الجاحظ وتجلت خفة روحه وتهكمه حتى في بعض ما يكتب من أمور الجد ، وقد يفهم تهكمه من أسلوب الأداء في عبارته . أليس في قول الجاحظ لما تكلم على الخنزير فقال : « لو أن الكفر والإفلاس

والغدر والكذب تجسدت ثم تصورت لما زادت على قبح الخنزير ، وكان ذلك بعض الأسباب التي مسخ بها الإنسان خنزيراً ، فإن القرد قبيح الوجه قبيح في كل شيء ، وكفاك به جري المثل المضروب به ، ولكنه من وجه آخر مليح ، فملحه يعرض على قبحه فيمازجه ويصلح منه ، والخنزير أقبح منه إلا أن قبحه مُصْمَت بهيم فصار أسمج منه كثيراً » . أليس في قوله هذا شيء من التهكم وأُسلوب من أساليب الهزل في الجد ؟

وقال في وصف الإنسان وما أخذه من طبائع الحيوان : « أو ما علمت أن الإنسان الذي خلق له ما في السموات والأرض وما بينهما كما قال تعالى : وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعاً — إنما سموه العالم الصغير سليل العالم الكبير حين وجدوا فيه من جميع أشكال ما في العالم الكبير ، « ووجدوا له الحواس الخمس ، ووجدوه يأكل اللحم والحب ، ويجمع بين ما يقتاته السبع والبهيمة ، ووجدوا له صولة الجمل ، ووثوب الأسد ، وغدر الذئب ، وروغان الثعلب ، وجبن الصِّفْرِدِ . وجمع الذَّرة ، وصنعة الزَّرافة ، وجود الديك ، وإلف الكلب ، واهتداء الحمام ، وربما وجدوا فيه من كل نوع من البهائم والسباع خلتين أو ثلاثاً . ولا يبلغ أن يكون جملاً بأن يكون فيه اهتداؤه وغيرته وصوله وحقده ، وصبره على حمل الثقل . ولا يلزم شبه الذئب بقدر ما يتهيأ فيه من مثل مكره وغدره واستر واحه ، وتوحشه وشدة قلبه ، كما أن الرجل يصيب الرأي الغامض ، المرة والمرتين والثلاث ، ولا يبلغ بذلك المقدار أن يقال له داهية وذو مكر وصاحب خدعة ، كما يخطيء الرجل فيفحش خطؤه في المرة والمرتين والثلاث ، ولا يبلغ الأمر به أن يقال له غبي وأبله ومنقوص » وعلى ما في هذا الكلام من بحث نفسي لا نخليه من معاني التهكم والهزل ، وعنده « أن الكلام قد يكون في لفظ الجد ومعناه معنى الهزل ، كما يكون في لفظ الهزل ومعناه معنى الجد » .

ومن نوادره أنه سُمع يقول : « رأيت جارية في سوق النخاسين ببغداد ينادى عليها ، فدنوت منها وجعلت أقلبها ، فقلت لها ما اسمك ؟ : قالت :

مكة . قلت : الله أكبر قد قرب الحج ، أتأذنين أن أقبل الحجر الأسود . قالت : إليك عني ، ألم تسمع الله يقول : لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس ؟

ومنها : سمع أبو بكر محمد بن إسحق يقول : قال لي إبراهيم بن محمود ونحن ببغداد : ألا ندخل على عمرو بن بحر الجاحظ ؟ فقلت : مالي وله . قال : إذا انصرفت إلى خراسان سألوك عنه ، فلو دخلت عليه وسمعت كلامه . ثم لم يزل بي حتى دخلت عليه يوماً ، فقدم إلينا طبقاً عليه رطب ، فتناولت منه ثلاث رطبات وأمسكت ، ومر فيه إبراهيم ، فأشرت إليه أن يمسك ، فرمقني الجاحظ ، فقال لي : دعه يا فتى ، فقد كان عندي في هذه الأيام بعض إخواني ، فقدمت إليه الرطب فامتنع ، فحلفت عليه فأبى إلا أن يبر قسمي بثلاثمائة رطبة .

وحدث الجاحظ قال : وقفت أنا وأبو حرب على قاصّ ، فأردت الولع به . فقلت لمن حوله : إنه رجل صالح ، لا يحب الشهرة فتفرقوا عنه ، فتفرقوا ، فقال لي : حسيبك الله ! إذا لم يرَ الصياد طيراً كيف يمد شبكته ؟

وروى أن رجلاً من أهل السواد يتشيع ، وكان ظريفاً ، فقال ابن عم له : بلغني أنك تبغض علياً، والله لئن فعلت لتردن عليه الحوض يوم القيامة ولا يسقيك . فقال : والحوض في يده يوم القيامة ؟ فقال : نعم . فقال : وما لهذا الرجل الفاضل يقتل الناس في الدنيا بالسيف ، وفي الآخرة بالعطش ؟ فقيل له : أتقول هذا مع تشيعك ودينك ؟ فقال : والله لا تركت النادرة ، ولو قتلتني في الدنيا ، وأدخلتني النار في الآخرة .

ومنها : حكى بعض أبناء البرامكة قال : تقلدت السند وحصل لي ما شاء الله ثم صُرفت عنها ، وكنت قد اكتسبت بها ثلاثين ألف دينار فصغتها عشرة آلاف إهليجة[1] وجاء الصارف فركبت البحر وانحدرت إلى البصرة .

---

(١) الاهليلج وقد تكسر اللام الثانية والواحدة بهاء ، ثمر منه أصفر ومنه أسود وهو البالغ النضيج ومنه كابلى ينفع في الخوانيق ويحفظ العقل ويزيل الصداع . (القاموس)

فَخُبِّرت أن الجاحظ بها ، وأنه عليل بالفالج ، وأحببت أن أراه قبل وفاته ، فصرت إليه وقرعت الباب ، فخرجت إلي خادمة صغرى فقلت : رجل غريب أحب أن أنظر إلى الشيخ . فبلّغته ، فسمعته يقول : قولي له ما تصنع بشق مائل ولعاب سائل ، ولون حائل . فقلت للجارية : لا بد من النظر إليه . فقال : هذا رجل ورد البصرة ، وسمع بي ويريد أن يقول رأيت الجاحظ فأذن لي فدخلت وسلمت ، فرد رداً جميلاً وقال : من تكون أعزك الله ؟ فانتسبت له ، فقال : رحم الله أسلافك وآباءك السمحاء ، فلقد كانت أيامهم رياض الأزمنة ، ولقد رأى بهم الخلق خيراً كثيراً ، فسقياً لهم ورعياً . فدعوت له وقلت له : أنشدني شيئاً ، فقال :

لئن قُدّمت قبلي رجال فطالما   مشيت على رسلي فكنت المقدّما
ولكن هذا الدهر تأتي صروفه   فتُبرِمُ منقوضاً وتنقض مبرماً

ثم نهضت ، فلما قربت من الباب قال : يا فتى ، أرأيت مفلوجاً ينفعه الإهليج ؟ قلت لا . قال : الإهليج الذي معك ينفعني ، فابعث إليّ منه . فقلت نعم ، وعجبت من وقوعه على خبري مع كتمي له ، وبعثت له منه شيئاً .

قال الحصري بعد إيراد هذه القصة : وهذا يدل على كثرة بحثه وتنقيره ، إذ كان وهو في هذه السن العالية ، والفالج الشديد ، تنشر عنده الأخبار ، ولا تطوى عنه الأسرار ، فكيف كان قبل هذا ؟ ومن إحدى عجائبه أنه ألف كتاب الحيوان وهو على تلك الحال .

قال أبو عثمان ما أخجلني أحد مثل امرأتين رأيت إحداهما في العسكر ، وكانت طويلة القامة ، وكنت على طعام فأردت أن أمازحها ، فقلت : انزلي كلي معنا ، فقالت : اصعد أنت حتى ترى الدنيا . وأما الأخرى فإنها أتتني وأنا على باب داري فقالت : لي إليك حاجة وأريد أن تمشي معي ، فقمت معها إلى أن أتت بي إلى صائغ يهودي فقالت له : مثل هذا ، وانصرفت . فسألت الصائغ عن قولها فقال : إنها أتت إليّ بفصّ وأمرتني أن أنقش لها

عليه صورة شيطان ، فقلت : يا ستي ما رأيت الشيطان ، فأتت بك وقالت ما سمعت .

لما جيء به مقيداً من البصرة إلى بغداد عقبى مقتل صديقه محمد بن عبد الملك الزيات ، أمر أحمد بن أبي دواد أن يفك قيده ، فجيء بالحداد ، فقال الجاحظ : لتفكوا عني أو لتزيدوني ؟ فقيل له : بل ليفك عنك ، فغمز بعض أهل المجلس الحداد أن يعنف بساق الجاحظ ، ويطيل أمره قليلاً ، ففعل ، فلطمه الجاحظ وقال له : إعمل عمل سنة في يوم ، وعمل يوم في ساعة ، وعمل ساعة في لحظة ، فإن الضرر على ساقي ، وليس بجذع ولا ساجة . فضحك ابن أبي دواد وأهل المجلس منه .

صنف كتاباً من كتبه وبوّبه وبثه في الناس ، فأخذه بعض أهل عصره فحذف منه أشياء وجعله أشلاء ، فأحضره وقال له : يا هذا إن المصنف كالمصور ، وإني قد صورت في تصنيفي صورة كانت لها عينان فعورتهما ، أعمى الله عينيك ، وكان لها أذنان فصلمتهما ، صلم الله أذنيك ، وكان لها يدان فقطعتهما ، قطع الله يديك . حتى عد أعضاء الصورة .

وسأله شخص كتاباً إلى بعض أصحابه بالوصية فكتب له رقعة وختمها ، فلما خرج الرجل من عنده فضها فإذا فيها : «كتابي إليك مع من لا أعرف ولا أوجب حقه ، فإن قضيت حقه لم أحمدك ، وإن رددته لم أذمك» . فرجع إليه الرجل ، فقال الجاحظ : كأنك فضضت الورقة ؟ قال : نعم . قال : لا يضرك ما فيها فإنه علامة لي إذا أردت العناية بشخص ، فقال الرجل : قطع الله يديك ورجليك ولعنك . فقال : ما هذا ؟ قال : علامة لي إذا أردت أن أشكر شخصاً .

وحكى أبا طاهر قال : صرت إلى الجاحظ ومعي جماعة ، وقد أسنّ واعتلّ في آخر عمره وهو في منظرة له وعنده ابن حاقان جاره . فقرعنا الباب فلم يفتح لنا ، وأشرف من المنظرة فقال : ألا إني قد حوقلت وحملت رميح

أبي سعد وسقت الغنم[١] ، فما تصنعون بي ؟ سلموا سلام الوداع . فسلمنا وانصرفنا .

دخل أحدهم على الجاحظ فسأله عن حاله ، فقال له الجاحظ : سألتني عن الجملة فاسمعها مني واحداً واحداً : حالي أن الوزير يتكلم برأيي ، وينفذ أمري ، ويواتر الخليفة الصلات إليّ ، وآكل من لحم الطير أسمنها ، وألبس من الثياب ألينها ، وأجلس على اللين الطري ، وأتكيء على هذا الريش ، ثم أصبر على هذا حتى يأتي الله بالفرج . فقال له الرجل : الفرج ما أنت فيه ، قال : بل أحب أن تكون الخلافة لي ، ويعمل محمد بن عبد الملك بأمري ، ويختلف إليّ ، فهذا هو الفرج .

وقال : إن تهيأ لك في الشاعر أن تَبَرَّه وترضيه وإلا فاقتله .

حكى الجاحظ أنه ألف كتاباً في نوادر المعلمين وما هم عليه من التغفل ، ثم رجع عن ذلك وعزم على تقطيع ذلك الكتاب ، قال : دخلت يوماً مدينة فوجدت فيها معلماً في هيئة حسنة ، فسلمت عليه فرد علي أحسن رد ، ورحب بي فجلست عنده ، وباحثته في القرآن فإذا هو ماهر فيه ، ثم فاتحته في الفقه والنحو وعلم المعقول وأشعار العرب ، فإذا هو كامل الآداب ، فقلت : هذا والله مما يقوي عزمي على تقطيع الكتاب . قال فكنت أختلف إليه وأزوره ، فجئت يوماً لزيارته ، فإذا بالكتّاب مغلق ، ولم أجده ، فسألت عنه فقيل مات له ميت ، فحزن عليه وجلس في بيته للعزاء ، فذهبت إلى بيته وطرقت الباب ، ، فخرجت إليّ جارية وقالت : ما تريد ؟ قلت : سيدك ، فدخلت وخرجت وقالت : باسم الله ، فدخلت إليه وإذا به جالس

---

(١) قوله حوقلت أكثرت من قولي لا حول ولا قوة الا بالله لتتابع الأمراض ، وقوله رميح أبي سعد هو رجل من العرب أسن فاستعان بالعصا ، وهو أول من فعل ذلك فقيل لكل من شاخ أخذ رميح أبي سعد ، وقوله سقت الغنم هو عند العرب كناية عن الهرم ، لأن سائق الغنم يطامن رأسه .

فقلت : عظم الله أجرك لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة ، كل نفس ذائقة الموت ، فعليك بالصبر ، ثم قلت له : هذا الذي توفي ولدك ؟ قال : لا ، قلت فوالدك ؟ قال : لا . قلت : فأخوك ؟ قال : لا . قلت : فزوجتك ؟ قال : لا . فقلت وما هو منك ؟ قال : حبيبتي . فقلت في نفسي هذه أول المناحس . فقلت : سبحان الله النساء كثير وستجد غيرها . فقال أتظن أني رأيتها ؟ قلت : وهذه منحسة ثانية . ثم قلت : وكيف عشقت من لم تر ؟ فقال : إعلم أني كنت جالساً في هذا المكان وأنا أنظر من الطاق إذ رأيت رجلاً عليه بُرد وهو يقول :

يا أُمَّ عمرو جزاك الله مكرمة ردي عليَّ فؤادي أينما كانا
لا تأخذين فؤادي تلعبين به فكيف يلعب بالإنسان إنسانا

فقلت في نفسي : لولا أن أم عمرو هذه ما في الدنيا أحسن منها ما قيل هذا الشعر فعشقتها ، فلما كان منذ يومين مرّ ذلك الرجل بعينه وهو يقول :

إذا ذهب الحمار بأُمّ عمرو فلا رجعت ولا رجع الحمار

فعلمت أنها ماتت فحزنت عليها ، وأغلقت المكتب وجلست في الدار . فقلت : يا هذا إني كنت ألفت كتاباً في نوادركم معشر المعلمين ، وكنت حين صاحبتك عزمت على تقطيعه والآن قد قويت عزمي على إبقائه ، وأول ما أبدأ أبدأ بك إن شاء الله تعالى .

وكان الجماز البصري شاعراً ماجناً خبيث اللسان ، وكان له مع الجاحظ ملاحاة ومهاجاة قد يكون فيها إقذاع وإفحاش . وكان الجاحظ يعبث أيضاً بأبي هِفّان الشاعر وغيرهما من الشعراء والكتاب والمؤلفين والقصاصين وكل ذلك من غير تبذّل وإسفاف .

ومعاني الجاحظ في هذا الباب مذكورة في كلام له ، قال : ولم تر العيون ، ولا سمعت الآذان ، ولا توهمت العقول عملاً اجتباه ذو عقل ، أو اختاره ذو علم ، بأوبأ ولا أفسد لعرض ، ولا أوجب لسخط الله ، ولا

أدعى إلى مقت الناس ، ولا أبعد من الفلاح ، ولا أظهر نفوراً عن التوبة ، ولا أقل إدراكاً عند الحقيقة ، ولا أنقص للطبيعة ، ولا أمنع من العلم ، ولا أشد خلافاً على الحلم ، من التكبر في غير موضعه ، والتنبل في غير كنهه . وما ظنك بشيء العجب شقيقه ، والبذخ صديقه ، والتنفج أليفه ، والصلف قعيده . والبذّاخ متزيد ، والنفاج كذاب ، والمتكبر ظالم ، والمعجب صغير النفس ، وإذا اجتمعت هذه الخلال ، وانتظمت هذه الخصال في قلب طال خرابه ، واستغلق بابه ، وشر العيوب ما كان مضمناً بعيوب ، وشر الذنوب ما كان علة الذنوب .

نماذج من رقاعه وكلماته :

١ ـ كتب إلى ابن أبي دواد يستعطفه : « ليس عندي ، أعزك الله، سبب ، ولا أقدر على شفيع ، إلا ما طبعكَ الله عليه من الكرم والرحمة والتأميل الذي لا يكون إلا من نتاج حسن الظن ، وإثبات الفضل بحال المأمول ، وأرجو أن أكون من العتقاء الشاكرين فتكون خير معتب ، وأكون أفضل شاكر ، ولعل الله أن يجعل هذا الأمر سبباً لهذا الإنعام ، وهذا الإنعام سبيلاً للانقطاع إليكم ، والكوْن تحت أجنحتكم ، فيكون لا أعظم بركة ، ولا أنمى بقية ، من ذنب أصبحت فيه ، وبمثلك ، جعلت فداك ، عاد الذنب وسيلة ، والسيئة حسنة ، ومثلك من انقلب به الشر خيراً والغُرم غُنماً ، ومن عاقب أخذ حظه ، وإنما الأجر في الآخرة ، وطيب الذكر في الدنيا ، على قدر الاحتمال ، وتجرع المرائر[1] ، وأرجو ألا أَضيعَ وأهْلِكَ فيما بين عقلك وكرمك ؛ وما أكثر من يعفو عمن صغر ذنبه ، وعظم حقه ، وإنما الفضل والثناء العفو عن عظيم الجرم ، ضعيف الحرمة ، وإن كان العفو العظيم مستَطْرَفاً من غيركم ،

(١) المرارة الشيء المؤلم .

فهو تلاد فيكم ، حتى ربما دعا ذلك كثيراً من الناس إلى مخالفة أمركم ، فلا أنتم عن ذلك تنكلون ، ولا على سالف إحسانكم تندمون ، وما مثلكم إلا كمثل عيسى بن مريم ، حين كان لا يمر بملأ من بني إسرائيل إلا أسمعوه شراً وأسمعهم خيراً ، فقال له شمعون الصفا : ما رأيت كاليوم كلما أسمعوكَ شراً أَسمعتهم خيراً ، فقال : كل امرىء ينفق مما عنده ، وليس عندكم إلا الخير ، ولا في أوعيتكم إلا الرحمة ، وكل إناء بالذي فيه ينضح .

٢ — وكتب إلى محمد بن عبد الملك : « أَعاذك الله من سوء الغضب ، وعصمكَ من سرف الهوى ، وصرف ما أَعارك من القوة إلى حب الإنصاف ، ورجح في قلبكَ إيثار الأناة ، فقد خفت ، أَيدكَ الله ، أن أكون عندكَ من المنسوبين إلى نزق السفهاء ، ومجانبة سبل الحكماء ؛ وبعد فقد قال عبد الرحمن بن حسان بن ثابت :

وإن امرأً أَمسى وأَصبح سالماً ... من الناس إلا ما جنى لسعيد

وقال الآخر :

ومن دعا الناس إلى ذمه ... ذموه بالحق وبالباطــل

فإن كنت اجترأْت عليكَ ، أصلحكَ الله ، فلم أجترىء إلا لأن دوام تغافلك عني شبيه بالإهمال الذي يورث الإغفال ، والعفو المتتابع يؤمن من المكافأة ، ولذلك قال عيينة بن حصن بن حذيفة لعثمان رحمه الله : عُمَرُ كان خيراً لي منكَ ، رهبني فاتقاني ، وأعطاني فأغناني . فإن كنت لا تهب عقابي ، أيدك الله ، لخدمة فهبه لأياديك عندي ، فإن النعمة تشفع في النقمة ، وإلا تفعل ذلك لذلك فعد إلى حسن العادة ، وإلا فافعل ذلك لحسن الأحدوثة ، وإلا فأْت ما أنت أهله من العفو دون ما أنا أهله من استحقاق العقوبة ، فسبحان من جعلك تعفو عن المتعمد ، وتتجافى عن عقاب المصرّ ، حتى إذا صرت إلى من هفوته ذكر ، وذنبه نسيان ، ومن لا يعرف الشكر إلا لك ، والإنعام إلاّ منك ، هجمت عليه بالعقوبة . واعلم أيدكَ الله ، أن

شين غضبك عليّ كزين صفحك عني ، وأن موت ذكري مع انقطاعي سببي منك ، كحياة ذكرك مع اتصال سببي بك ، واعلم أن لك فطنة عليم ، وغفلة كريم والسلام » .

٣ ــ وكتب إلى أبي حاتم السجستاني وبلغه عنه أنه نال منه : « أما بعد فلو كففت عنا من غربك ، لكنا أهلاً لذلك منك » ؛ فلم يعد أبو حاتم إلى ذكره بقبيح .

٤ ــ وله فصل في استنجاز وعد : « أما بعد فقد رسفنا في قيود مواعيدك ، وطال مقامنا في سجون مطلك ، فأطلقنا ، أبقاك الله ، من ضيقها ، وشديد غمها ، بنَعَم منك مثمرة أو مريحة ، أما بعد فإن شجر مواعيدك قد أورقت ، فليكن ثمرها سالماً من جوائح المطل ، أما بعد ، فإن سحاب وعدك قد برقت ، فليكن وبلها سالماً من صواعق المطل والاعتلال » .

٥ ــ وله فصل في عتاب : « أما بعد فإن المكافأة بالإحسان فريضة ، والتفضل على ذوي الإحسان نافلة ، أما بعد فلها(؟) السكوت على لسانك ، إن كانت العافية من شأنك ، أما بعد فلا تزهد فيما رغب إليك ، فتكون لحظك معانداً ، وللنعمة جاحداً ، أما بعد فإن العقل والهوى ضدان ، فقرين العقل التوفيق ، وقرين الهوى الخذلان ، والنفس طالبة فبأيهما ظفرت كنت في حزبه ، أما بعد فإن الأشخاص كالأشجار ، والحركات كالأغصان ، والألفاظ كالثمار ، أما بعد فإن القلوب أوعية ، والعقول معادن ، فما في الوعاء ينفد ، إذا لم يمده المعدن ، أما بعد فكفى بالتجارب تأديباً ، وبتقلب الأيام عظة ، وبأخلاق من عاشرت معرفة ، وبذكرك الموت زاجراً ، أما بعد فإن احتمال الصبر على لذع الغضب ، أهون من إطفائه بالشتم والقذع ، أما بعد فإن أهل النظر في العواقب ، أُولو الاستعداد للنوائب ، وما عظمت نعمة امرىء إلا استغرقت الدنيا همته ، ومن فرّغ لطلب الآخرة شغله ، جعل الأيام مطايا عمله ، والآخرة مَقيل مرتحله ، أما بعدفإن الاهتمام بالدنيا

غير زائد في الرزق والأجل ، والاستغناء غير ناقص للمقادير ، أما بعد فإنه ليس كل من علم أمسك ، وقد يستجهل الحليم حين يستحق الهجران ، أما بعد فإن أحببت أن تتم لك المِقَة [1] في قلوب أخوانك فاستقلّ كثيراً مما توليهم ، أما بعد فإن أنظر الناس في العاقبة من لطف حين كف حرب عدوه بالصفح والتجاوز ، واستلّ حقده بالرفق والتحبب » .

٦ ــ وكتب إلى ابن الزيات : « نحن ، أعزك الله ، نسخر بالبيان ، ونموّه بالقول ، والناس ينظرون إلى الحال ، ويقضون بالعيان ، فأثّر في أمرنا أثراً ينطق إذا سكتنا ، فإن المدعي بغير بينة متعرض للتكذيب » .

٧ ــ وله في وَصاة : « أما بعد فإن أحق من أسعفته في حاجته ، وأجبته إلى طلبته ، من توسل إليك بالأمل ، ونزع نحوك بالرجاء ، أما بعد فما أقبح الأحدوثة ، من مستمنح حرَمْته ، وطالب حاجة رددته ، ومثابر حجبته ، ومنبسط إليك قبضته ، ومقبل إليك بعنانه لويت عنه ، فتثبت في ذلك ولا تطع كل حلّاف مهين [2] همّاز مشاء [3] بنميم ، أما بعد فإن فلاناً أسبابه متصلة بنا يلزمنا ذمامه ، وبلوغ موافقته من أياديك عندنا ، وأنت لنا موضع الثقة من مكافأته ، فأوْلنا فيه ما نعرف موقعنا من حسن رأْيك ، وتكون مكافأة لحقه علينا ، أما بعد فقد أتانا كتاب في فلان ، وله لدينا من الذمام ما يلزمنا مكافأته ، ورعاية حقه ، ونحن من المعتبة بأمره ، على ما كان في حرمته ، ويؤدي شكره » .

٨ ــ وله في الاعتذار : أما بعد فنعم البديل من الزلة الاعتذار ، وبئس العوض من التوبة الإصرار ، أما بعد فإن أحق ما عطفت عليه بحلمك ، من

---

(١) المقة : الحب .
(٢) المهين : الضعيف الحقير .
(٣) الهماز والهمزة الذي يخلف الناس من ورائهم ويأكل لحومهم أي الذي يهمز أخاه في قفاه ومن خلفه ، والمشاء الذي يمشي بين الناس بالنميمة .

لم يتشفع إليك بغيرك ؛ أما بعد فإنه لا عوض من إخائك ، ولا خلف من حسن رأْيك ، وقد انتقمت مني في زلتي بجفائك ، فأطلق أسير تشوقي إلى لقائك ؛ أما بعد فإني بمعرفتي ببلوغ حلمك ، وغاية عفوك ، ضمنت لنفسي العفو من زلتها عندك ؛ أما بعد فإن من جحد إحسانك بسوء مقالته فيك ، مكذب نفسه بما يبدو للناس منه ؛ أما بعد فقد مسني من الألم ما لم يشفه غير مواصلتك ، مع حبسك الاعتذار من هفوتك ، ولكن ذنبك تغتفره مودتك ، فامنن علينا بصلتك ، تكن بدلاً من مساءتك ، وعوضاً من هفوتك ؛ أما بعد فلا خير فيمن استغرقت موجدته عليك قدرَك عنده ، ولم يتسع لهنات الإخوان ؛ أما بعد فإن أولى الناس عندي بالصفح من أسلمه إلى ملكك التماس رضاك ، من غير قدرة منك عليه ؛ أما بعد فإن كنت ذممتني على الإساءة فلم رضيت لنفسك المكافأة ا هـ .

وتكرير « أما بعد » والعادة ذكرها مرة في أول الخطبة ، ومعناها « بعد دعائي لك » من أجمل مكرراته ؛ وكأن الجاحظ بخروجه على مألوف الكتاب في مثل هذا التكرار يبتدع أسلوباً أو أن ذلك من جملة مبتدعاته في الكتابة .

٩ — وله في التعازي : أما بعد فإن الماضي قبلك الباقي لك ، والباقي بعدك المأجور فيك ، وإنما يوفّى الصابرون أجرهم بغير حساب . أما بعد فإن في الله العزاء عن كل هالك . والخلف من كل مصاب ، وأنه من لم يتعز بعزاء الله تنقطع نفسه عن الدنيا حسرة . أما بعد فإن الصبر يعقبه الأجر ، والجزع يعقبه الهلع ، فتمسك بحظك من الصبر ، تنل به الذي تطلب ، وتدرك به الذي تأمل ، أما بعد فقد كفى بكتاب الله واعظاً ، ولذوي الألباب زاجراً ، فعليك بالتلاوة تنج مما أوعد الله أهل المعصية .

١٠ — ومن كلامه : زينك الله بالتقوى ، وكفاكَ ما أهمك من الآخرة والأولى . من عاقب أبقاك الله على الصغيرة عقوبة الكبيرة ، وعلى الهفوة

عقوبة الإصرار ، فقد تناهى في الظلم . ومن لم يفرق بين الأسافل والأعالي ، والأداني والأقاصي ، فقد قصر والله . لقد كنت أكره سرف الرضا ، مخافة أن يؤدي إلى سرف الهوى ، فما ظنك بسرف الغيظ ، وغلبة الغضب ، من طياش عجول فحاش ، ومعه من الحُرْق بقدر قسطه من التهاب المِرَّة الحمراء ، وأنت روح كما أنت جسم ، وكذلك جنسك ونوعك ، إلا أن التأثر في الرقاق أسرع ، وضده في الغلاظ الجفاة أكمل . ولذلك اشتد جزعي عليك من سلطان الغيظ وغلبته ، فإذا أردت أن تعرف مقدار الذنب إليك ، من مقدار عقابك عليه ، فانظر في علته ، وفي سبب إخراجه إلى معدنه الذي منه نجم ، وعشه الذي منه درج ، وإلى جهة صاحبه في التسرع والثبات ، وإلى حلمه عند التعريض ، وفطنته عند التوبة ، فكل ذلك ذنب كان سببه ضيق صدر من جهة الفيض في المقادير ، أو من طريق الأنفة ، وغلبة طباع الحمية من جهة الجفوة ، أو من جهة استحقاقه فيما زين له عمله أنه مقصر به في حقه ، مؤخر عن رتبته ، أو كان مبلغاً عنه مكذوباً عليه ، أو كان ذلك جائزاً فيه غير ممتنع منه ، فإذا كانت ذنوبه من هذا الشكل ، فليس يقف عليها كريم ، ولا ينظر فيها حليم ، ولست أُسميه بكثرة معروفه كريماً ، حتى يكون عقله غامراً لعلمه ، وعلمه غالباً على طباعه ، كما لا أُسميه بكف العقاب حكيماً ، حتى يكون عارفاً بمقدار ما أخذ وتركَ ، ومتى وجدت الذنب بعد ذلك لا سبب له إلا البغض المحض ، والنفار الغالب ، فلو لم ترض لصاحبه بعقاب دون قَعر جهنم لعذرك كثير من العقلاء ، وصوَّب رأيك عالم الأشراف.

والأناة أقرب من الحمد ، وأبعد من الذم ، وأنأى من خوف العجلة ، وقد قال الأول : عليك بالأناة ، فإنك على إيقاع ما تتوقعه أقدر منك على رد ما قد أوقعته . وليس يصارع الغضب أيام شبابه شيء إلا صرعه ، ولا ينازعه قبل انتهائه إلا قهره ، وإنما يحتال له قبل هيجه ، فمتى تمكن واستفحل ، وأذكى ناره وأشعل ، ثم لاقى من صاحبه قدرة ، ومن أعوانه سمعاً وطاعة ، فلو استبطنته بالتوراة ، وأوجرته بالإنجيل ، ولددته بالزبور ، وأفرغت على

رأسه القرآن إفراغاً ، وأتيته بآدم شفيعاً ، لما قصر دون أقصى قوته . ولن يسكن غضب العبد ، إلا ذكره غضب الرب . فلا تقف ، حفظك الله ، بعد مضيك في عتابي التماساً للعفو عني ، ولا تقصر عن إفراطك من طريق الرحمة بي ، ولكن قف وقفة من يتهم الغضب على عقله ، والشيطان على دينه ، ويعلم أن للكرم أعداء ، ويمسك إمساك من لا يبرىء نفسه من الهوى ، ولا يبرىء الهوى من الخطأ ، ولا تفكر لنفسك أن تزل ، ولعقلك أن يهفو . فقد زل آدم (ص) وقد خلقه بيده . ولست أسألك إلا ريثما تسكن نفسك ، ويرتد إليك ذهنك ، وترى الحلم وما يجلب من السلامة وطيب الأحدوثة . والله يعلم وكفى به عليماً . لقد أردت أن أفديك بنفسي في مكاتباتي ، وكنت عند نفسي في عداد الموتى وفي حيز الهلكى ، فرأيت من الخيانة لك ، ومن اللؤم في معاملتك ، أن أفديك بنفس ميتة ، وأن أريك أني قد جعلت لك أنفس ذخر والذخر معدوم . وأنا أقول كما قال أخو ثقيف : مودة الأخ التالد وإن أخلق خير من مودة الأخ الطارف ، وإن ظهرت مساعيه وراقت جدته . سلمك الله وسلم عليك ، وكان لك ومعك .

١١ ــ ومما كتب إلى ابن الزيات من كتاب : لا والله ما عالج الناس داءً قط أدوى من الغيظ ، ولا رأيت شيئاً هو أنفذ من شماتة الأعداء ، ولا أعلم باباً أجمع لخصال المكروه من الذل ، ولكن المظلوم ما دام يجد من يرجوه ، والمبتلى ما دام يجد من يرثي له ، فهو على سبب درك ، وإن تطاولت به الأيام . فكم من كربة فادحة ، وضيقة مصمتة قد فتحت أقفالها ، وفككت أغلالها ، ومهما قصرت فيه فلم أقصر في المعرفة بفضلك ، وفي حسن النية بيني وبينك ، لا مشتت الهوى ، ولا مقسم الأمل على تقصير قد احتملته ، وتفريط قد اغتفرته ، ولعل ذلك أن يكون من ديون الإدلال وجرائم الإغفال ، ومهما كان من ذلك فلن أجمع بين الإساءة والإنكار ، وإن كنت كما تصف من التقصير ، وكما تعرف من التفريط ، فإني من شاكري أهل هذا الزمان ،

وحَسَن الحال متوسط المذهب ، وأنا أحمد الله على أن كانت مرتبتك من المنْعمين ، فوق مرتبتي في الشاكرين . وقد كانت علي بك نعمة أذاقتني طعم العز ، وعودتني رَوْح الكفاية .

ومن كلماته ما قاله في كتاب الأدب : اعلم أن تثمير المال آلة المكارم ، وعون على الدين ، وتأليف للإخوان ، وأن من فقد المال قلت الرغبة إليه والرهبة منه ، ومن لم يكن بموضع رغبة أو رهبة استهان الناس به ، فاجهد جهدك كله في أن تكون القلوب معلقة منك برغبة أو رهبة في دين أو دنيا .

ومما قال للسدري مرة : إذا كانت المرأة عاقلة ظريفة كاملة كانت قحبة . فقال السدري وكيف ؟ قال : لأنها تأخذ الدراهم وتمتع بالناس والطيب ، وتختار على عينها من تريد ، والتوبة معروضة لها متى شاءت . فقال له السدري فكيف عقل العجوز ؟ قال : هي أحمق الناس وأقلهم عقلاً .

ومن كلماته : يجب للرجل أن يكون سخياً لا يبلغ التبذير ، شجاعاً لا يبلغ الهوج ، محترساً لا يبلغ الجبن ، ماضياً لا يبلغ القِحَة ، قوّالاً لا يبلغ الهذر ، صموتاً لا يبلغ العيّ ، حليماً لا يبلغ الذل ، منتصراً لا يبلغ الظلم ، وقوراً لا يبلغ البلادة ، نافذاً لا يبلغ الطيش .

ومن كلماته في الطيب : فأما الطيب فإني لم أشمم رائحة قط أحيا للنفس ، ولا أعصم للروح ، ولا أفتق ولا أغنج ، ولا أطيب خمرة من ريح عروس ، إذا أحكمت تلك الأخلاط ، وكان عرف رأسها وبدنها سليماً ، وإن كانت بمدينة الرسول ، فإنك ستجد ريحاً تعلم أنه ليس فوقها إلا ريح الجنة .

وقال في نفسية الأغنياء : وبعد فلا يخلو صاحب الثروة ، والصامت الكثير ، الخامل الذكر ، من أن يكون ممن يرغب في المركب الفاره ، والثوب اللين ، والجارية الحسنة ، والدار الجيدة ، والمطعم الطيب ، أو يكون ممن لا يرغب في شيء من ذلك ، فإن كان لا يرغب في هذا النوع كله ، ولا يعمل

في ماله للدار الآخرة ، ولا يعجب بالأحدوثة الحسنة ، ويكون ممن لا تعدو لذته أن يكون كثير الصامت ، فإن هذا حمار ، وأفسد طبعاً من الحمار ، وأجهل من الحمار ، وقد رضي أن يكون في حالة أسوأ حالاً من الوكيل ...

وقال : إن الذي تشتمل عليه دواوين أصحاب الحمام أكثر من كتب النسب التي تضاف إلى ابن الكلبي والشَرْقي بن القُطامي وابن أبي اليقظان وأبي عبيدة النحوي ، بل إلى دَغْفَل بن حنظلة وابن لسان الحُمَّرَة ، بل إلى صُحار العبدي وإلى أبي النطاح اللخمي ، بل إلى المختار العدوي وصبح الطائي ، بل إلى مشجور بن غيلان الضبي وإلى سطيح الديلي ، بل إلى ابن شَرْيَة الجُرْهُمي وإلى زيد بن الكيس النمري ، وإلى كل نسَّابة راوية وكل متفنن علامة . ووصف الهذيل المازني مثنى بن زهير وحفظه لأنساب الحمام فقال : والله لهو أنسب من سعيد بن المسيِّب وقَتادة بن دِعامة للناس ، بل هو أنسب من أبي بكر الصديق رضي الله عنه ...

وقال في نفسية المجتمع النصراني في عهده : ووقع بين فتى من النصارى وبين ابن فهريز كلام ، فقال له الفتى : ما ينبغي أن يكون في الأرض رجل واحد أجهل منك . وكان ابن فهريز في نفسه أكثر الناس علماً وأدباً ، وكان حريصاً على الجثلقة ، فقال للفتى : وكيف حلك عندك هذا المحل ؟ قال : لأنك تعلم أنا لا نتخذ الجاثليق إلا مديد القامة ، وأنت قصير القامة ، ولا نتخذه إلا جهير الصوت جيد الحَلق ، وأنت دقيق الصوت رديءُ الحَلق ، ولا نتخذه إلا وافر اللحية عظيمها ، وأنت خفيف اللحية صغيرها ، وأنت تعلم أنا لا نختار للجثلقة إلا رجلاً زاهداً في الرياسة ، وأنت أشد الناس عليها كلَباً ، وأظهرهم لها طلباً ، فكيف لا تكون أجهل الناس ، وخصالك هذه كلها تمنع من الجثلقة ، وأنت قد شغلت في طلبها بالك وأسهرت فيها ليلك .

وقال : رأيت أربعة أشياء لم أرَ مثلهن : رأيت سائلاً يسأل في الحمام ، ويأخذ مواعيد مَنْ فيه إلى أن يخرجوا ، ورأيت معلماً يعلّم الصبيان القرآن

والصبايا الغناء ، ورأيت حجاماً يحجم بنسيئة إلى الرجعة ، ورأيت حمّالينَ يحملون جنازة ، فكلما أَعيوا وضعوا عن رؤوسهم إلى أن بلغوا شفير القبر .

وقال : تسعة موجودة في تسعة : الخفة في الصم ، والهَوَج في الطوال ، والعجب في القصار ، والنبل في الربعة ، والملاحة في الحول ، والذكاء في الخرس ، والحفظ في العميان ، والثقل في العور ، و النشاط في العرج .

ومن كلامه أجمع الناس على أربع : أنه ليس في الدنيا أثقل من أعمى ، ولا أبغض من أعور ، ولا أخف روحاً من أحول ، ولا أَقود من أحدب .

خلوده ومجده :

ويسأل القارىء بعد أن رأى صورة الجاحظ في كثير من مظاهره ، ولمست يداه موضع العجب من نبوغه وافتنانه في علمه وأدبه ، وهل كان له من بعدُ حظ من الخلود ؟ وإلى أي مدى بلغت تأثيراته في ديار الإسلام ؟ ولا بدّ قبل بحث خلوده أن نتعرف معنى الخلود ، ثم ننظر إذا استحق الجاحظ هذه الصفة .

يقول اميرسون الفيلسوف الأميركي : « إن الكِتاب الصالح كالمجتمع الصالح ، وإنك إذا أدخلت رجلاً منحطّاً في حلقة جماعة راقين لا ترفعه لأنه ليس منهم ، ولن يصبح مساوياً لهم ؛ هكذا حال كل مجتمع يحمي نفسه ، وأهله واثقون أن هذا الدخيل فيهم ، والواغل عليهم ، وإن كاثرهم بجسمه ، فلن يشركهم بمكانتهم .

« يُقاس تأثير الكلام في الجماعات بما انطوى عليه من دقة في الفكر . وإن كتاباً ينبه ذهنك ويرهف حسك ، ويسمو بك بصوت فصاحته العالي ، ليكتب له في أفكار الناس أعظم الأثر . وليس تأثيره بالسريع ، إلا أنه مستديم ثابت . وأنت إذا لم تستفد شيئاً من صفحات هذا الكتاب ، ثق أنه سيفنى كما يفنى الذباب من ساعته . الكاتب هو الذي لا يتقيد بذوق العصر فقط ،

وإنما يملي ما يملي ورائده الإخلاص . والحجة التي لا تفعل في نفسي فعلاً عملياً قد لا تفعل فيك أيضاً » .

يقول سدني : « أُنظر في قلبك واكتب — و من يكتب لنفسه يكتب لجمهور يبقى . فعليك إن أنشأت شيئاً أن تُرضي هواك أولاً ، وليعلم الكاتب الذي اهتدى إلى موضوعه بعينيه وأُذننيه ، لا بقلبه ونفسه ، أنه ما استفاد ولا أفاد . ثم إن الكتاب لا يُحكم عليه بما يقدّر له من الرواج ، ولو أجمع نصف الناس على استحسانه ، فهو يفنى إذا خلا من حرارة ، والحرارة وحدها تهب الحياة . ونحن إذا انتفخنا حتى تمزقنا ، لا نتسامى إلى أكثر مما حصلناه من قدر .

« لا دخل للحظ في الشهرة الأدبية ، ولا يتوقف صدور الحكم النهائي على كتاب بما يقوله فيه أصحاب الأهواء من القراء ، المكثرين من الضجة حول أول نشره ، وتحكم على مبلغه من الإجادة محكمة ، لك أن تقول إنها مؤلفة من ملائكة ، أو من جمهرة لا تحابيك برشوة ، ولا تخافك لبأسك وسلطانك ، وهي تقضي وتمنح جِلاءَ[1] المجد وعلاقيته لمن هو خليق بهما . وأمثال هذه الأسفار فقط يحق لها أن تحيا . أما المذْهَبَة المُعْلمة المعمولة بالرُّقوق المزينة بالنقوش ، وإن وزعها صانعها على الورّاقين بأسرهم ، فإنها تبيد ، ولا تُصيب من الرواج أكثر مما لها الحق فيه .

« ليس في الأرض أزيد من اثني عشر شخصاً ، في آن واحد ، يقرؤون كتاب أفلاطون ويفهمونه . ويتعذر عليك أن تجمع من مجموع قرائه من النقود ما يصح الاعتماد عليه لإعادة طبع كتابه . ومع هذا ترى مُصَنَّفه يصل إلى كل جيل لينتفع به هؤلاء الأشخاص القلائل ، كأن الله أرسله إليهم مباشرة . »

---

(١) الجلاء : ما يخاطب به من الألقاب الحسنة ويمكن إطلاقها على الرتب في العهد الحديث ، والعلاقية والجمع العلاقي : الألقاب .

يقول بنتلي : « ما من كتاب سقط وباد إلا بما حوته دَفّتاه — ولا يحدد بقاء الكتاب بما نال من حب أو بغض ، ولا يخلد إلا بما فيه من قيمة ذاتية ، وبما يحمل من حاجات العقل على الدهر .

« لا يعرف الرجل العظيم أنه على شيء من العظمة ، والعظمة لا يحرزها إلا إذا أتى عليه قرن أو قرنان ، لتُكشف للملأ حقيقته . هذا وهو يعمل لأن من واجبه أن يعمل ، والدواعي والبواعث حاكمة عليه ، ويومئذ تراه يعظم في العيون ، وكل ما انبعث منه يغدو رمزاً عاماً ، ومثالاً يقتدى به ، حتى ما كان من حركة إصبعه الصغرى ، وما تناوله من طعام وإدام ، فيمسي بذلك صاحب السلطان الأكبر على العقول ، والدهماء تُعْجب بطريقته .

« قالوا إن الصورة لا تكذب ، والمرء إذا نطق بالحق ، بفكر حق ، كانت عينه أصفى من السماء ، ومتى خالف ذلك وأورد الزور والبهتان ، اختلجت عينه وربما أُصيبت بالحَوَل .

« وأنّى لك بمحام لم يقتنع ببراءة موكله أن يُقنع المحكمة لتقضي له بالبراءة هذا القانون يسري على أفكارنا ، فنحكم على كل أثر بالفكر الذي عرض للمؤلف ، يوم أنشأ ما أنشأ من بنات أفكاره . وهيهات أن نقول قولاً صحيحاً أبداً في الحكم على كل شيء ، ولو استظهرناه وتدارسناه ، ولن يتطاول المرء إلى مكانة لا يستحقها ، وباطل أن نحاول معرفة ما يقول الناس فينا ، وباطل كل الباطل تخوفنا من أن لا نُعرف . ومتى أيقن المرء أنه يحسن شيئاً ، وأنه يبذّ فيه غيره في باب الإحسان ، فليثق أن جميله معترَف به ، وإحسانه مقدور قدره ، في كل زمان ومكان . العالم مليء بالأحكام ، وإلى أي مجلس اختلف المرء ، وفي كل عمل حاوله ، لا يُكال إلا بقدره ، ولا يُعلَّم إلا بـميسَمه .

« قد تقوم للدعوى قائمة ، وهي تعجز عن الوفاء بعمل عظيم ، وما كانت الدعوى يوماً خليقة بإتمام أمر يُلابس عظمـــة حقيقية . فبالدعوى لم تكتب الإلياذة ، وبالدعوى لم يُكسر كسرى ، وبالدعوى لم يستجب

الناس لرسالة المسيح ، وبالدعوى لم يُلغ الرقيق . الفضائل تقدر بأثرها ، وعلى قدر الصلاح تكون الحرمة ، والناس سواء في احترام الفضيلة . وأساتذة الإنسانية هم أصحاب طبقة الكرماء المخلصين ، وأرباب الأفكار العالية ، يفرضون عليها ما يريدون بثه ، ويحاولون الدعوة إليه . وما ضاعت كلمة طيبة قط ، وما سقط مجد ولا كرم ، من دون أن يلتقطهما قلب ما كان له أن يتوقعهما ، فيبارك عليهما ويقدسهما . وقيمة المرء ما يحسن ، وما يحسنه منقوش على سيماه وينمّ عليه ظاهره ، وما رُزق من سعادة ، ولن يفيده التواري ، كما لا ينفعه التبجح والتنفّج[1] » .

هل انطبقت هذه الصفحة في شروط الخلود على الجاحظ ؟ وهل له بعد هذا أن يعد في الخالدين بما ألّف وصنف ؟ نعم انطبقت عليه لاشتهاره يوم بدا للأبصار نبوغه ، وكَمُلت له العظمة قبل أن يأتي عليه قرن أو قرنان . وهذا مستغرب في عصر ليس فيه مطابع ولا جرائد ولا مجلات ، ولا قطارات ولا بواخر ولا طيارات ، ولا برق ولا هاتف ولا مذياع .

خاض الجاحظ عباب أبحاثه بقلبه ونفسه ، لا بعينيه وأذنيه فقط . فاستفاض صيته ووصل صوته إلى أبعد مدى ، لأنه قام أحسن قيام بما يجب عليه لأمته ، ووجب عليه معاناته في دهره ، وتداول قومه مصنفاته وهو في الكهولة ، وعرفت القاصية والدانية تفوقه على غيره من المؤلفين ، وأدرك ذووا البصائر أن كتبه تحمل علماً كثيراً . ذلك لأنه أرضى نفسه بما كتب ، فأرضى أُمته وأخذ بمجامع قلبها ، والسلطان يومئذ سلطان العلم والأدب ، لا سلطان الثرثرة والدعوى .

تضمنت كتب الجاحظ حاجات العقل على وجه الدهر ، لأنها ابنة العقل الناضج ، وربيبة الرويّة والتفكير الصحيح ، قصد بها التعليم والإرشاد ، لا

---

(١) النفاج المتكبر كالمتنفج ، والتبجح الافتخار والمباهاة .

الفساد والافساد ، وقدّر له بها من الإعجاب ، ما لم يكتب لمليّ ولا لذميّ من العلماءِ مثله ، ففي المليين مئات ، وفي الذميين عشرات ، كانت لهم الحُظوة عند العامة والخاصة ، تحفهم رعاية الأمراء والخلفاء ، فتقدمهم الجاحظ في السبق ، وهو الزاهد حق الزهد فيما تواطأ الناس على إعظامه من المظاهر الخلابة . كان ، والحق يقال ، إنساناً كاملاً أخذ من المادة بقدر ما ضمن له عيشه ، وما أسفَّ إلى ما يسفُّ له أكثر طبقته من العلماء ؛ ولو كان للدنيا هوى كبير من نفسه لمتّع في قصور الخلفاء بكل ما تطمع فيه ، ولكن هدفه كان أسمى من كل هذا ؛ كان صاحب فكر ، همّهُ نشره لنفع العالمين ؛ في دور كان حملة الرأي والرواية من عصرييه بين عالم دين ، يُصِمُّ أذنه عن علوم الدنيا ، أو عالم مادة لا يحسن شيئاً كثيراً من علم الدين ، فجمع الجاحظ بين المطلبين ، حتى كثر المعجبون به من كل صنف ، وما استطاع حساد فضله أن يطفئوا نوره ، ولا أن يُعموا على الناس أمره ، لما أدركَ المنصفون أنه على صفات قلّ أن يدانيه فيها أحد . وعلى ما كان عليه أرباب المذاهب في أشد أعصار حماستهم ، وتصلبهم في آرائهم ، جادلهم فأحسن جدالهم بأدب لا غرور فيه ، وتفنن ما شاءت له الإجادة ، في ضروب من القول ، وما كان يضيره سخف السخفاء ممن تعذرت عليهم مداناته ؛ فوضع صفحته للحق ، وحاورهم قائماً بالواجب عليه نحو دعوته وملته ، فتم له ما أراد لما نفذ قوله إلى أعماق القلوب والعقول ، بما خص به من نَفَس طويل ، وإبداع جزيل ؛ نعم نفذ الجاحظ بما كتب إلى القلوب والعقول ، لأنه لم يكتب كأفلاطون ألغازاً ومعميات يتعذر حلها ، فبقي كلام الحكيم اليوناني — على ما قال أميرسون — مقصور الفهم على اثني عشر شخصاً في كل جيـــل ، وكَتَبَ الحكيم العربي السهل الممتنع الذي يفهمه كل من يقرؤوه ، فأسرع كل ذلك في خلوده .

الجاحظ موهوب ، رزق القبول من القلوب ، وشاع ما كتب في كل صقع وكل قرن ، وكلما كرر كلامه حلا ، وهل أعظم في باب الخلود من بنات

أفكار تتناقل خلفاً عن سلف أحد عشر قرناً ، ثم لا نرى الجميع إلا معجبين مستفيدين ، بما أثر عن علَم الأعلام وأفضل المخلدين .

وإنا إذا استقرينا ما قاله أولياء الجاحظ وخصماؤه فيه ، لا يتعذر علينا أن نضعه في الدرجة التي بلغها . قيل لأبي العيناء الراوية الأخباري : ليت شعري أي شيء كان الجاحظ يحسن ؟ فقال : ليت شعري أي شيء كان الجاحظ لا يحسن ؟ ويقول المسعودي : « لا يعلم أحد من الرواة وأهل العلم أكثر كتباً من الجاحظ ، وقد كان أبو الحسن المدائني كثير الكتب ، إلا أن أبا الحسن المدائني ، كان يؤدي ما سمع ، وكتب الجاحظ تجلو صدأ الأذهان ، وتكشف واضح البرهان ، لأنه نظمها أحسن نظم ، ورصفها أحسن رصف ، وكساها من كلامه أجزل لفظ . وكان إذا تخوف ملل القارىء وسآمة السامع ، خرج من جد إلى هزل ، ومن حكمة بليغة ، إلى نادرة طريفة ، ولا يعلم ممن سلف وخلف من المعتزلة أفصح منه » .

وقال ثابت بن قرة الصابي وهو من المعاصرين للجاحظ ومن أكبر فلاسفة العباسيين وأكثرهم إجادة في تأليفاتهم : ما أحسد هذه الأمة العربية إلا على ثلاثة أنفس : أولهم عمر بن الخطاب ، والثاني الحسن البصري ، والثالث الجاحظ ، وقال فيه : « إنه خطيب المسلمين ، وشيخ المتكلمين ، ومِدْره[١] المتقدمين والمتأخرين ، إن تكلم حكى سحبان وائل ، وإن ناظر ضارع النظّام في الجدال ، وإن جد خرج من مَسك[٢] عامر بن عبد قَيْس ، وإن هزل زاد على مَزْيَد : حبيب القلوب ، ومَراح الأرواح ، وشيخ الأدب ولسان العرب ، كتبه رياض زاهرة ، ورسائله أفنان مثمرة ، ما نازعه منازع إلا رشاه آنفاً ، ولا تعرض له منقوص إلا قدم له التواضع استبقاء ، الخلفاء تعرفه ، والأمراء تصفه وتنادمه ، والعلماء تأخذ عنه ، والخاصة تسلم له ،

(١) المدرة : كمنبر السيد الشريف والمقدم في اللسان واليد عند الخصومة والقتال .
(٢) المسك : الجلد .

والعامة تحبه ، جمع بين اللسان والقلم ، وبين الفطنة والعلم ، وبين الرأي والأدب ، وبين النثر والنظم ، وبين الذكاء والفهم ، طال عمره ، وفشت حكمته ، وظهرت خلّته ، ووطىء الرجال[1] عقبــه ، وتهادوا أدبه ، وافتخروا بالانتساب اليه ، ونجحوا بالاقتداء به ، لقد أُوتي الحكمة وفصل الخطاب » .

هذه ثلاث شهادات في الجاحظ ، الأولى لرجل عاصره وعرفه عن امم ، والثانية لعالم جاء بعده وشهد فيه هذه الشهادة ، شهادة شيعي في معتزلي ، والثالثة لصابي النحلة وشهادته شهادة بريء من الغرض ؛ وإذا حدثت نفسك بأن هذه الشهادات قليلة نورد لك غيرها ، الأولى للمرزُباني من أئمة الأدب جاء فيها : إن الجاحظ كان واسع العلم بالكلام ، كثير التبحر فيه ، شديد الضبط لحدوده ، ومن أعلم الناس به وبغيره من علوم الدين والدنيا ، وإن له كتباً كثيرة مشهورة جليلة في نصرة الدين ، وفي حكاية مذهب المخالفين ، والآداب والأخلاق ، وفي ضروب من الجد والهزل ، وقد تداولها الناس وقرؤوها ، وعرفوا فضلها . قال : وإذا تدبر العاقل المميز أمر كتبه علم أنه ليس في تلقيح العقول ، وشحذ الأذهان ، ومعرفة أُصول الكلام وجواهره ، وإيصال خلاف الإسلام ، ومذاهب الاعتزال إلى القلوب كتب تشبهها ؛ والجاحظ عظيم القدر في المعتزلة وغير المعتزلة من العلماء الذين يعرفون الرجال ويميزون الأمور » . والشهادة الثانية لأبي حيان التوحيدي ، وقد ألف فيه كتاباً سماه « تقريظ الجاحظ » ومما قاله فيه : اتفق أهل صناعة الكلام أن متكلمي العالم ثلاثة صاالجاحظ ، وعلي بن عبيدة[2] وأبو زيد البلخي ، فمنهم

---

(١) يقال فلان موطأ العقب أي له سلطان يتبع وتوطأ عقبه، والخلة: الخصلة ، والخلة أيضاً الطريق والسبيل وهو أولى هنا .

(٢) علي بن عبيدة الريحاني المتكلم صاحب التصانيف قال ياقوت : من الناس من يفضله على الجاحظ في البلاغة وحسن التصنيف .

من يزيد لفظه على معناه وهو الجاحظ ، ومنهم من يزيد معناه على لفظه ، وهو علي بن عبيدة ، ومنهم من توافق لفظه ومعناه وهو أبو زيد ؛ قال : قلت لأبي محمد الأندلسي ، وكان من عدد أصحاب السيرافي ، قد اختلف أصحابنا في مجلس أبي سعيد السيرافي في بلاغة الجاحظ ، وأبي حنيفة صاحب النبات ، ووقع الرضى بحكمك فما قولك ؟ فقال : أنا أحقر نفسي عن الحكم لهما أو عليهما ، فقال : لا بد من قول ، قال : أبو حنيفة أكثر ندارة ، وأبو عثمان أكثر حلاوة ، ومعاني أبي عثمان لائطة (١) بالنفس ، سهلة على السمع ، ولفظ أبي حنيفة أعذب وأعرب ، وأدخل في أساليب العرب . قال أبو حيان والذي أقوله وأعتقده ، وآخذ به وأستهم عليه ، أني لم أجد في جميع من تقدم وتأخر ثلاثة لو اجتمع الثقلان على تقريظهم ومدحهم ونشر فضائلهم في أخلاقهم وعلمهم ومصنفاتهم ورسائلهم ، مدى الدنيا إلى أن يأذن الله بزوالها ، لما بلغوا آخر ما يستحقه كل واحد منهم . أحدهم هذا الشيخ الذي أنشأنا له هذه الرسالة ، وبسببه جُشمنا هذه الكلفة .أعني أبا عثمان عمرو بن بحر والثاني أبو حنيفة الدينوري والثالث أبو زيد أحمد بن سهل البلخي .

والشهادة الثالثة شهادة أمير المؤمنين المأمون ، قالوا لما نظر المأمون في كتاب الجاحظ في العباسية ، وكان اليزيدي أدخله عليه ، دعا بالجاحظ فقال : يا عمرو قد كان من يرتضي عقله ، ويصدق خبره ، ألقى إليّ صفة هـذا الكتاب ، فكنت أرى الصفة عياناً ، فلما حضر العيان اربى على الصفة ، ولما فُلي أربى الفلي على العيان ، كإرباء العيان على الصفة . وهو كتاب ينوب عن حضور الصاحب ، ويجل عن الحاجة إلى المحتجين له ، جامع لاستقصاء المعاني واستيفاء الحقوق ، بلفظ جزل ، ومخرج سهل ، سوقي ملوكي ، خاصي عامي . قال الجاحظ : فوالله لما أفدته من تعلم صفة هذا الكتاب آثر

---

(١) لاط الشيء بقلبي يلوط ويليط لوطاً وليطاً حبب اليه وألصق .

عندي من الكتاب .

وعلى الجملة فالشهادات كثيرة على نبوغ الجاحظ وأنه كان « نسيج وحده في جميع العلوم » قال الصفدي : من وقف على كتاب الحيوان وغالب تصانيفه ، ورأى فيها الاستطرادات التي استطردها والانتقالات التي ينتقل إليهـا ، والجهات التي يعرض بها في غضون كلامه بأدنى ملابسة ، علم ما يلزم الأديب وما يتعين عليه من مشاركة المعارف .

ولما ذكر الذهبي في النبلاء تجويد الجاحظ في كتب النبوات ترحم عليه ، وقال : فكذلك فليكن المسلم ، مع أنه من خصومه في المذهب . وقال ابن سنان الخفاجي : « فكأنه في كل علم يخوض فيه لا يعرف سواه ولا يحسن غيره » .

حدث أبو القاسم السيرافي قال : حضرنا مجلس الأستاذ الرئيس أبي الفضل ابن العميد فقصر[١] رجل بالجاحظ وأزرى عليه ، وحَلُم الأستاذ عنه . فلما خرج قلت له : سكت أيها الأستاذ عن هذا الجاهل في قوله ، مع عادتك بالرد على أمثاله ، فقال : لم أجد في مقابلته أبلغ من تركه على جهله ، ولو واقفته وبينت له ، لنظر في كتبه وصار إنساناً ؛ يا أبا القاسم «كتب الجاحظ تعلم العقل أولاً والأدب ثانياً » . وكان ابن العميد يقول ثلاثة علوم الناس كلهم عيال فيها على ثلاثة أنفس : أما الفقه فعلى أبي حنيفة لأنه دوّن وخلد ما جعل من يتكلم فيه بعده مشيراً إليه ومخبراً عنه ، وأما الكلام فعلى أبي الهذيل ، وأما البلاغة والفصاحة واللسن والعارضة فعلى أبي عثمان الجاحظ اهـ . وهذا في نظرنا داعية خلوده .

---

(١) قصر به أزرى به وحقره .

أبو حيّان التوحيدي

عصره :

القرن الذي أولد التوحيدي ، وشبَّ فيه واكتهل وشاب ، هو العصر العباسي الثالث ، فسدت فيه عصبية بني العباس ، فلم تبق لهم كلمة مسموعة ، ولا رأي جميع[1] ، ولا قوة نافذة ، ولا كيان يُرتجى معه البقاء . تغلغلت الأعاجم في جسم الدولة ، وتسلطت على الأمور ، وما دخل القرن الرابع حتى رأيت الأمور تلتوي ، ودولة الخلافة تضؤُل وتتراجع ، وقد شمل الضعف معظم أوضاعها ، وعاث سوس الفساد في ذاك الجسم العظيم ، وتناثر عقد البلاد الإسلامية ، وانتقصت من أطرافها ، والأهواءُ مشتة ، والنفوس شعاع[2] .

لم يكد ينسلخ[3] الربع الأول من هذا القرن حتى استولى ابن رائق على البصرة وواسط ، واستأثر البريديُّ بالأهواز وأعمالها ، وذهب أبناء بُويْه الديلم بفارس والرَّيّ وأصفهان وطبرستان وجرجان وكرمان والجبل ، وغدت

---

(١) الجميع : ضد المتفرق .
(٢) الشعاع : كسحاب التفريق ، والرأي المتفرق .
(٣) سلخ : (كنصر ومنع) الشهر مضى كانسلخ ، وفلان شهره أمضاه وصار في آخره

خُراسان وما وراء النهر بيد السامانية ، والموصل وديار بكر ومضر وربيعة في أيدي بني حمدان ، وانتقلت مصر والشام إلى الإخشيدية ، والبحرين واليمامة إلى القرمطي ، والمغرب وإفريقية إلى القائم العلوي ، والأندلس للناصر عبد الرحمن الأموي .

ولم يبقَ للخليفة العباسي غير بغداد وأعمالها ، والحكم فيها لابن رائق ، وليس للخليفة وزير ، وإنما كان له كاتب يدبر إقطاعاته وإخراجاته القليلة . وكلما امتدت كلمة ملك أو أمير سطا على من يجاوره واستصفى مملكة صاحبه ، فابن رائق بعد البصرة استولى على دمشق ، والبريدي بعد خوزستان استولى على بغداد ، وبنو بويه بعد بلاد الشرق استولوا على بغداد (٣٦٧) وخُطب لهم فيها مع الخليفة ، وهكذا كانت مملكة بني العباس نهبَ أيدي الأتراك والديلم — والأتراك جيل من التتر معروف ، والديلم سكان الجبال في فارس — وكلهم كانوا شاركوا العرب في سلطانهم ؛ بل حالوا نزع تراث العباسيين من أيديهم .

وكثُر قتل الخلفاء وخلعهم ، فقتل المقتدر ، وبويع للقاهر ثم خلع ، وخلفه الراضي ، واستخلف المتقي ، ثم بويع للمستكفي وهو كأكثر من سلفه مغلوب على أمره . وهناك دول تقوم في الشام كدولة بني حمدان بعد الإخشيديين ، ودولة الفاطميين تستولي على مصر ، ويخطب للفاطميين في مكة والمدينة بدل الخليفة العباسي ، وتقتطع من تلك الدولة العظمى دول وممالك . وأصبح خليفة بني العباس أشبه بصاحب منصب ديني له القول ولغيره العمل ، يملك الاسم ، والجسم يستغله المستغلون من المتغلبين والمتوثبين ، والبلاد تخرب والنفوس تهلك ، حتى لقد خربت بغداد عند استيلاء البويهيين عليها وأخذوا بتجديدها ورمّها لأول أمرهم ، وكانت في القرنين الثاني والثالث

أعمر مدينة في الأرض ، وكان القرامطة[١] خلال ذلك القرن يعيثون في العراق ثم تعدوا إلى الشام ، بعد أن عبثوا بمقدسات الأمة في الحجاز ، وكذلك كان شأن غيرهم من الخوارج والنزّاع إلى الفتنة . أما الروم فكانوا يغادون الشام القتال ويراوحونها ، ودولة بني حمدان كفت البلاد عاديتهم ، وغزاهم منصور بن نوح الساماني عام النفير[٢] في ألوف من أهل خراسان وما وراء النهر . وفي خلال هذا القرن انقرضت دول ، ولا سيما السامانية والإخشيدية ، وقام محمود بن سبكتكين رجل ذاك القرن فاستولى على خراسان ، وامتدت فتوحه حتى فتح جزءاً مهما من بلاد الهند والشرق .

وفي هذه المملكة ، بل الممالك التي كانت تتخبط في أقدارها ، وتختلط أمورها بأيدي أخيارها وأشرارها ، نشأت زمرة صالحة من العلماء والأدباء ، بقوة التسلسل المنبعثة من عمل القرن الثالث . وقد تضعف السياسة في أمة ، وتبقى قوتها المفكرة سائرة سيرها ، وعلومها آخذة بالنظام الذي كان لها ، كما قيل « يفنى القميص وفيه ريح المندل »[٣] ، ولقد ساعد على هذه النهضة بعض أصحاب السلطان من هؤلاء الملوك ، ممن أرادوا أن يكون في جملتهم الأجلاءُ والفضلاءُ ، يستأثرون بهم دون جيرانهم ، ويزينون بهم ملكهم ، أو يستخدمونهم ليعينوهم على قيام أمرهم ، أو يختارون طبقة من الأدباء والشعراء ، ينادمونهم ويمدحونهم ، ويخلدون مآثرهم ، ويعظمون مفاخرهم ، فيعتزون بهم عند القريب والغريب ، والبغيض والحبيب . فكانت في هذه السبيل تجاري بغدادَ كل من أصفهان وشيراز ونيسابور وهمذان والريّ وسمرقند وبلخ وحلب والقاهرة وقرطبة .

---

(١) القرامطة : نسبة لحمد بن قرمط ، لقب بذلك لقرمطته أي تقريبه في خطه أو خطوه وهو صاحب الدعوة الباطنية .

(٢) النفير والنفر : القوم ينفرون معك ويتنافرون في القتال ، وتنافروا : ذهبوا .

(٣) المندل : العود أو أجوده كالمندلى ، ومندل بلد في الهند ، ولعل هذا العود نسب إليها .

وتنوعت المذاهب التي غلبت على البلاد ، فكان أهل البصرة قدرية وشيعة وحنابلة ، وبغداد تؤوي جميع النحل وفيها غالبة يحبون معاوية ، ومشبهة وهم أصناف كثيرة ، ويهود إقليم الجبال أكثر من نصاراها ، ومجوسها كثير ، والمجوس أصحاب زرادشت ، المعظمون للنار وسائر الأنوار ، بقيت منهم بقية مهمة إلى هذا القرن في العراق والأهواز وفارس وأصبهان وخراسان وغيرها من مملكة الفرس قبل الإسلام . ولكل بلد من بلاد العجم طرز يخالف الطرز الآخر ، فمنها ما تجد فيه الغلبة للحنفيين ، ومنها ما كانت حنابلته كثيرة ، ومنها ما كانت شيعته غالبة ، ومنها ما تغلب فيه أصحاب الحديث ، وأكثر إقليم خوزستان معتزلة ، وفي الأقاليم الأخرى شيعة وحنابلة وشوافع . والفتن كثيراً ما تقع بين الحنابلة والشافعية وفي بغداد ، أو بين السنة والشيعة في دار السلام ، وبعض أصقاع فارس والجبال وما إليها ، فيفني بعضهم بعضاً .

ولهذا اعتصم بعض العلماء والحكماء بأهداب التقية[١] خشية العامة وجهلة السلاطين ، فكان ما كان من تأليف المجالس السرية من الفلاسفة وأرباب العقول الكبيرة ، وكان التوحيديّ أحد أساطين تلك الحلبة حقبة من الزمن ، والحركة الدائمة في الإفادة والاستفادة ، والعقل الكبير والعامل الجبار ، ملئت أيام حياته بغرائب ، فكان عجباً في نفسه ودرسه .

---

(١) التقية : مشتقة من اتقاه أي خافه وهي ضد العلانية ، وكان المسلمون لأول عهدهم وهم ضعاف يتقون من عدوهم فيدارونه إذا كان قوياً ، من غير أن يستحلوا دماً حراماً أو مالا حراماً أو غير ذلك من المحرمات او يظهروا الكفار على عورات المسلمين . واختلفت الفرق الاسلامية في التقية ومنها التي تجوزت فيها كثيراً ، وبعضهم حدد لها شروطاً ، ولا سيما عندما يخشى المرء على نفسه فيدفع الضرر عنها بالمداراة والمداهنة والمباطنة . ويقضي الشرع والعقل أن يستعمل في دار التقية ما لا يستعمل في دار العلانية .

نشأته وأعماله :

هو علي بن محمد بن العباس التوحيدي (بفتح التاء وسكون الواو وكسر الحاء المهملة وسكون الياء المثناة من تحتها) نسبةً فيما قيل للتوحيد ، وهو نوع من التمر كان يبيعه أبوه بالعراق ، وعليه حمل بعض شراح ديوان المتنبي قوله :

يترشفن من فمي رشفات   هنَّ فيه أحلى من التوحيد

وقيل إن التوحيدي نسبة للمعتزلة ، لأنهم يسمون أنفسهم أهل العدل والتوحيد ، وهو الأرجح . ذكروا في أصله أنه شيرازي وقيل نيسابوري وقيل واسطي ، وهو عربي ، وما كان يعرف الفارسية ، ولو ولد في فارس لكان يتكلم بها ، وكنيته أبو حيان ، ولد على الغالب في أواخر العقد الثاني من القرن الرابع أو في أوائل العقد الثالث ، ونشأ في بغداد وعُمّر لأنه مات على رأس الخمسمائة أو بعدها بقليل ، وقيل مات بشيراز سنة ٤١٤ .

نزل التوحيدي بغداد صغيراً على ما يظهر ، وتخرج في النحو بأبي سعيد السيرافي وعلي بن عيسى الرُّمَّاني ، وبالفقه الشافعي بأبي حامد المَرْوُرُذي وأبي بكر الشافعي ، وحضر في أوقات مختلفة بين سنتي ٣٦١ — ٣٩١ هـ دروس يحيى بن عديّ وأبي سليمان المنطقيّ وغيرهما من الفلاسفة مثل أبي الحسن العامري ، وقد اجتمع به أبو حيان وقال إنه تكلم في الفقه بألفاظ الفلاسفة ، ومثل أبي النفيس الرياضي الفيلسوف ، فجاء مفنناً في العلوم من النحو واللغة والشعر والأدب والفقه والكلام على رأي المعتزلة ، وبأخذه الفلسفة عن ورثة علوم الأقدمين في عصره عد حكيماً عظيماً ، وصفا ذهنه ، وزاد تسامحه ، وأصبح يُحكّم عقله فيما يرى ويسمع ، لا يأخذ الأشياء على ظواهرها ، بل يواصل الدرس والنظر ، غير متحيز لفئة ، ولا متعصب لرأي جماعة .

وصفه ياقوت بأنه كان جاحظياً ، يسلك في تصانيفه مسلك الجاحظ ، ويشتهي أن ينتظم في سلكه ، فهو شيخ في الصوفية ، وفيلسوف الأدباء ، وأديب الفلاسفة ، ومحقق أهل الكلام ، ومتكلم المحققين ، وإمام البلغاء فرد الدنيا الذي لا نظير له ذكاءً وفطنة ، وفصاحة ومكنةً ، كثير التحصيل للعلوم في كل فن ، حُفَظَةٌ واسع الرواية والدراية . قال : ولم أر واحداً من أهل العلم ذكره في كتاب ، ولا أدمجه في ضمن خطاب ، وهذا من العجب العجاب . وقال فيه إنه صوفيّ السمت والهيئة ، وإنه كان فقيراً صابراً ، وعده السبكيّ في فقهاء الشافعية ، وقال إنه من المؤرخين وروى الحديث وأرواه ، وآخر ما أُخذ عنه بشيراز سنة أربعمائة . وقال النووي في تهذيب الأسماء إنه من أصحابه المصنفين ، وأن من غرائبه أنه قال في بعض رسائله لا رِبا في الزعفران ، ووافقه على قوله القاضي أبو حامد المروروذيّ .

ولأبي حيان تصانيف كثيرة منها كتاب الصديق والصداقة ، وكتاب المقابسات أو المقابسة ، وكتاب الإشارات الإلهية ، والرد على ابن جنيّ في شعر المتنبي ، وكتاب الإمتاع والمؤانسة ، وكتاب الزلفة ، وكتاب رياض العارفين ، وكتاب تقريظ الجاحظ ، وكتاب مثالب الوزيرين[1] ، وكتاب

---

(١) اطلع ياقوت الحموي على بعض كتب التوحيدي أوائل القرن السابع ، ونقل منها كثيراً في كتابه معجم الأدباء ، ومنها ما اطلع عليه ، ومنها ما كان بخط المؤلف مثل كتاب « تقريظ عمرو بن بحر الجاحظ » و « مثالب الوزيرين » و « الإمتاع والمؤانسة » و « كتاب المحاضرات أو محاضرات العلماء » وفي إحدى مكاتب الآستانة نسخة من مثالب الوزيرين وأخرى تامة من الامتاع وفي دار الكتب بدمشق الجزء الأول من الإشارات الإلهية وله مختصر محفوظ في دار كتب الأمة ببرلين ، وفي دار الكتب الامبروزيانية في ميلانو الجزء الثاني من الامتاع والمؤانسة ، ونسخة من كتاب البصائر له ، وفي مكتبة الفاتح في الآستانة خمس نسخ مخطوطة من البصائر والذخائر ، وفي دار الكتب في لينغراد نسخة من الحجيج للتوحيدي . ليس لأبي حيان من المطبوع سوى رسالة الصديق والصداقة وكتاب المقابسات ورسالة ثمرات العلوم . (كتب المؤلف رحمه الله هذا التعليق عام ١٩٣٧ في الطبعة الثانية لهذا الكتاب ، أما اليوم فقد طبع المزيد من كتب أبي حيان – الناشر) .

الحج العقلي إذا ضاق القضاء عن الحج الشرعي ، ورسالة في صلات الفقهاء في المناظرة : الرسالة البغدادية ، الرسالة في أخبار الصوفية ، الرسالة الصوفية أيضاً ، الرسالة في الحنين إلى الأوطان ، كتاب المحاضرات والمناظرات ، كتاب البصائر والذخائر في عشرة مجلدات كل مجلد له فاتحة وخاتمة . وقد ساق الصفدي في الوافي بالوفيات ثبتاً طويلاً في مصنفاته ، ومنها كثير من كتب فتوح البلدان يستدل بها على تضلعه من التاريخ أيضاً . وأثبت في أكثر من أربع صفحات كلها أسماء كتبه . وكتبُ أبي حيان أسئلة وأجوبة وروايات ومساجلات ومحاضرات ومحاضر جلسات ، وتقريع وتقريظ ، ونقد ولمز ، ووعظ وإرشاد ، وكل صفحة منها تدل على علو كعبه في العلوم ، وبلوغه درجة عالية في الفهم ، أنزلته منازل أعاظم المنشئين والمؤلفين ، صوّر فيها العلم والأدب في أيامه أحسن صورة . وتنكرت النفوس لمشربه وأنكره كثيرون حسداً ولؤماً ، وما مثله بالذي يكون نكرة . ذلك لأنه قال الحقّ ولم يزل قائله من الممقوتين كما قال المعرّي .

كان التوحيدي على ما يظهر من كلامه ، من أهل الباطن أي الصوفية ، ومن أهل الظاهر أي الدينيين الحكماء ، جمع بين مذهب الصوفية أمثال المحاسبي والتُّستُري والجنيد والسَّريّ السَّقطي وإبراهيم بن أدهم وغيرهم من النساك أو الصوفية ، وبين مذهب السجستاني والزَّنجاني والمِهرجاني والصَيْمَري والمقدسي والمجتبى وابن زُرعة وابن سوار وابن رِفاعة في الحكمة . وقد شهدت له كتبه بأنه متصوف ، وشهدت له بأنه فيلسوف ، وأنه جمع بين العلوم المادية والعلوم المَعادية ، ووفّى كل علم قسطه من النظر . وليست له طريقة خاصة في التصوف ، ولا مذهب معروف في الفلسفة ، بل إنه أحاط بجميع الطرق ، وحنَى عليها ، وطابت نفسه بعشرة أهل ثقتها والأخذ عنهم . وقد تجلت شخصيته العلمية بما نقله من المباحثات والمناقشات المدونة بعامل الجرأة على كسر القيود التي قيدت أهل كل مذهب من مذاهب العلم الديني أو الفلسفي ، وبدا كل ذلك في مظهر غريب بأسلوب إنشائه . وما غفلة المؤرخين

أو تغافلهم عن الترجمة للتوحيدي ، مع هذه البسطة في العلم الواسع ، والبيان الرائع ، إلا بسبب أخلاقه على ما يظهر ، فغمطوه بذلك حقه ، لكن الفضل لا يستر بحجاب ، والعقل لا يخفى على ذوي الألباب .

وظهر أن أبا حيان كان مقتراً عليه في الرزق ، وأنه ربما كان يعيش بالوراقة أو النسخ في بغداد مدة طويلة — وكانت الوراقة في القديم خير معوان لإخراج العلماء والأدباء — ولم يل التوحيدي أمراً من أمور الدولة ، ويستحيل على من كان في مثل علمه واستغراقه في دفاتره ، أن يتقلد الأعمال ، فإذا لم تكن له إدرارات من السلطان أو الخليفة يعيش بها يبرّح به العَوَز والإملاق . وهكذا كان شأن بعض عصريّيه مثل أبي بكر القومَسي الفيلسوف الذي وصفه أبو حيان بأنه كان بحراً عجّاجاً ، وسراجاً وهّاجاً ، وكان قرين التوحيدي في الضرّ والفاقة ومقاساة الشدة ، ومن الإضافة بمنزلة عظيمة ، وهو الذي قال للتوحيدي ذات يوم : ما ظننت أن الدنيا ونكَدَها تبلغ من إنسان ما بلغ مني : إن قصدت دجلة لأغتسل منها نضب ماؤها ، وإن خرجت إلى القفار لأتيمم بالصعيد عاد صلداً أملس .

التوحيدي لم توظف له وظيفة ولا أُجري عليه رزق ، فمن أين كان يرتزق ؟ لما ترامى إلى بغداد نبأ مكارم ابن العميد والصاحب بن عباد من وزراء آل بويه في الشرق ، وكانا يُفضلان على أعلام العلم في مدينة دار السلام ويبرّانهم بهباتهما الحين بعد الآخر ، ووصلت عطاياهما إلى شيخي التوحيدي أبي سليمان المنطقي وأبي سعيد السيرافي — سمت نفس أبي حيان إلى أن يقصد ذينك الوزيرين وانقطع إليهما ، وقدم بين يدي نجواه مدحهما أولاً ، إلا إنه لم ينل منهما رغيبته ، وانقلب بعد مقام ثلاث سنين في دار الصاحب لم ينله منه درهم ، ولا أعطاه راحلة ولا زاداً . أخفق في قصر الصاحبين مع أنهما كانا مع الوزير المهلبي من أكبر حماة الأدب ، كما كان سيف الدولة بن حمدان في حلب ، وربما كان التوحيدي استطال عليهما ، وفيهما عزة السلطان وأُبهة الفرس ، فازدرياه فشق عليه الأمر ، وهجاهما

في كتاب أسماه « مثالب الوزيرين » أورد فيه حكايات في ثلبهما ؛ ومنها ما عزاه إلى بعض من روى عنهم ، وذكر وقائعه معهما ، قال إنه فارق باب الصاحب سنة ٣٧٠ وقد نال منه هذا الحرمان الذي قصده به ، وأحفظه عليه ، وجعله من جميع غاشيته فرداً . ومن جملة ما نفّره من الصاحب أن هذا قدم إليه رسالة في ثلاثين مجلدة على أن ينسخها له فقال : نسخ مثله يأتي على العمر والبصر ، والوراقة كانت موجودة ببغداد ! فأخذ الصاحب في نفسه عليه .

وقد عرفنا شيئاً من أخلاق التوحيدي في هذا الكتاب ، وربما أثار ما قاله فيه ثائرة التعصب للوزيرين ، وأحبابهما كثار في الأمصار ، فأعرض الناس عنه وأوقعوا فيه ، وأسقطوه من دواوينهم . وعجيب أن يغضب الناس لهضم حق المهجوّين ، ولا يغتاظون لحق الهاجين ، وقلما يحفلون بالسبب الذي يلجىء هؤلاء إلى الهجاء أحياناً . وقيل إن الصاحب بن عباد اتهم التوحيدي بالزندقة ففر منه ، وطلبه الوزير المهلبي ليقتله ففر إلى ديار بكر ، وفي رواية أنه مات في الاستتار ؛ ولكن التوحيدي إذا فاتته أفضال الوزيرين الصاحبين ، فقد لقي إكراماً من الوزير صمصام الدولة بن سعدان وعبد الله بن عارض الشيرازي ، ولابن سعدان ألّف كتاب الصديق والصداقة ، وكتاب الإمتاع والمؤانسة ، وللدُّلَجي بشيراز ألّف كتاب المحاضرات . ولم نعلم السبب الذي عاق التوحيديّ عن إهداء كتبه كلها إلى بعض عظماء عصره ، وكانت طريقة إهداء المؤلفين مصنفاتهم لأمير أو عظيم من الشائع المعروف ، وكثير من المؤلفين كان من أهم موارد عيشهم التصنيف بأسماء عظماء عصرهم ، والارتزاق بعطاياهم وهداياهم .

قضت الفاقة على التوحيدي أن يتكفف بعض الأمراء ، وكتابه إلى ابن العميد نموذج من هذا التنزل ، ولكن العجز غالب لأنه مبذور في الطينة كما قال عن نفسه . وقال إنه تصفح الناس فوجدهم أحد رجلين : رجل إن

نطق نطق عن غيظ ودمنة[١] وإن سكت سكت عن ضِغن وإحنة ، ورجل إن بذل كدَّر بامتنانه بذله ، وإن منع حسن بإقباله بخله . ولقد دعا ، وقد ترقرقت عيناه بالدموع لما أخفق عند بعض من قصدهم ، وبان له نبوُّ الدهر به ، وضياع سعيه ، وخيبة أمله ، في كل ما ارتجاه لملمّ أو مهمّ ، أو حادثة أو نائبة ، دعا بما دعا به بعض النساك فقال : « اللهم صُنْ وجوهنا باليسار ، ولا تذلها بالإقتار ، فنسترزق أهل رزقك ، ونسأل شر خلقك ، ونبتلى بحمد من أعطى ، وذم من منع ، وأنت من دونهم وليُّ الإعطاء ، وبيدك خزائن الأرض والسماء » .

وإذا أنصفنا أبا حيان فلمناه على ما بدر منه في حق عظيمين غمط حسناتهما وجسم سيئاتهما ، مما ساقه إليه خيبة في أمله ، أو مساس في عاطفته ، أو اعتداد برأيه ، فلا نذهب مع القائلين بالحكم عليه بالزندقة ، اللهم إذا وقفنا في الحكم عليه عند حدود أقواله ، وفيها شاهد على توحيده ، وبعده عن الإلحاد الذي قُرف به . على أن معظم من ذكروه ومنهم صاحب تاريخ بغداد ومؤلف معجم الأدباء ، قالوا إنه كان يتألّه أي يتنسك ويتعبّد ، والناس على ثقة من دينه وصحة عقيدته . ودعوى ابن الجوزي أن زنادقة الإسلام ثلاثة : ابن الراوندي وأبو حيان وأبو العلاء المعري ، وأنه كان أشدهما ، صرَّحا وهو جمجم ، من الكلام الذي يلقى على عواهنه ، أخذه على ما يظهر بدون روية ، وتابعه عليه بعض الناقلين من دون تمحيص ، وكذلك ما قيل من أن الصاحب بن عباد وقف على قدح التوحيدي في الشريعة وقوله في التعطيل وما كان يخفيه من ذلك ، فطلبه ليقتله ففرَّ ، كلام فيه نظر أيضاً[٢] ،

---

(١) الدمنة : الحقد القديم .

(٢) في معلمة الاسلام ترجمة للتوحيدي بقلم الأستاذ مرجليوث ، جاء فيها ان الوزير المهلبي نفى أبا حيان لما صرح به من الإلحاد في كتبه التي ضاعت وذكر له كتاب التذكرة التوحيدية وكتاب أخبار القدماء وذخائر الحكماء وقال إنه ليس من الثابت أن هذين التأليفين دخلا في شيء من فهرس كتب التوحيد التي ذكرها ياقوت .

على أن كثيرين من المتصوفة شطحوا أكثر من شطحات ابن الراونــدي والتوحيدي والمعري ، فلم يُتهموا بشيء ولا قدح الناس في دينهم ، وذهبوا من هذا العالم بسلام ، لم يمسسهم أحد بسوء ، ولا طعن طاعن في عقيدتهم . ولطالما وجهت تهمة الزندقة إلى كثير ممن توسعوا في علــم الكلام أو العلم الإلهي ، أو علوم الأوائل من الفلسفة والطبيعي والرياضي ، وكان نمط تفكيرهم جديداً يخالف من بعض نواحيه نمط التفكير الذي اصطنعه رجل مات أو رجال ماتوا ، فوقّروا في الصدور ، وعلت منزلتهم بين الناس . والميت أفضل عندهم من الحيّ ، وقد يكون بينهما بون بعيد ، وفروق ظاهرة . والأرجح أنه كان للحسد والجهل مدخل كبير في الطعن على التوحيدي ، والطاعنون إما حسدة ساقهم لؤم الغريزة إلى النيل من عظيم بَذَّهم وأربى عليهم ، فما استطاعوا مشاركته ومنافسته ، أو أنهم جهلوا حقيقته وتأولوا كلامه ، وباب التأويل متسع لمن يحاول أن يسقط مؤلفاً مثله ، خاض أصعب المسائل الإلهية والاجتماعية .

وقال فيه بعض واصفيه إنه قليل الرضى عند الإساءة إليه والإحسان ، الذم شأنه ، والثلب دكانه ، يشتكي صرف زمانه ، ويبكي في تضاعيفه على حرمانه . وقد لامه أُستاذه السيرافيّ يوماً وهو ينقل ذم أعرابي بقوله : « تأبى إلا الاشتغال بالقدح والذم وثلب الناس » فأجاب : « أدام الله الأستاذ ، شغل كل إنسان بما هو مبتلى به مدفوع إليه » وهذا الخلق في النيل من الناس لا سبيل إلى تبرية أبي حيان منه ، لأنه مما أجمعت الآراءُ على أنه كان فيــه متأصلاً بادياً ، وهو مزاج خاص من جملة أمزجة بني آدم . ويوشك صاحب هذا المشرب أن يعاديَ أكثر أهل زمانه ، هذا وهم دونه في صوب العقل وذوب الفضل .

إن الرجل الذي يخوض غمار المباحث التي خاض التوحيدي بحرها ، وخرج منها ناصع الجبين والحجة ، ناجح المسعى والمرمى ، وهو من أفراد الدنيا بذكائه ونبوغه ؛ يستحيل أن يتقيد بقيود أفكار غيره : يصدر إذا

صدروا ، ويرد إذا وردوا ، يقلدهم في كل ما قرّروا أو قُرّر لهم ، ويتابعهم عموا وضلوا ، أم أبصروا واهتدوا . وفي البشر عدد ليس بقليل كان نصيبهم نصيب أبي حيان من الناس والمجتمع ، قضوا أيامهم في ضيق من معاشهم ، وضيق من عقول أهل جيلهم ، وضيق من عبث المناظرين والمتعالمين ، وسيطرة المستبدين والجائرين .

تشاؤمه وتفننه :

تُرى هل كان التوحيدي يسمع الموسيقى والغناء ، ويجلس إلى أرباب الدعابة والهزل ، ويخلع ثوب الجد والوقار ، ساعة من ليل أو نهار ؟ وبغداد في أيامه علقت الطرب ، ورفعت أقدار المسمعين والمسمعات إلى أسمى الرتب ، وخرج الأدب فيها عن حد الخيال ، وأصبح أطرب الشعر ما صدر عن قلب ملتهب ، وفؤاد مضطرب ، ووصف واقعة حال . وأكبر الظن أن التوحيدي لم يكن على شيء من هذا ، اللهم إلا إذا كان في صباه ، وقد عرف بنسكه وزهده ، أجمع على ذلك العارفون به ، لو لم تناقضه القطعة الوحيدة التي انتهت إلينا من شعره وهي في غزل رقيق ، صدر عمن ابتسم للحياة والأيام ، فأخذ ينظر إليها نظر المتفائل ، على حين كانت أكثر نظرات التوحيدي متشائمة ، هذا إذا لم يؤول له مؤول بأن هذا اللسان كان على لسان أهل الباطن ، كما يفسر بعض المتصوفة كثيراً من الغزل ، فيدعون أنه في العزة الإلهيـة أو في المقامات المطهرة . أما أبيات التوحيدي فهذه :

يا صاحبيَّ دعا الملامة واقصرا ... ترك الهوى يا صاحبي خساره
كم لمت قلبي كي يُفيق فقال لي ... لجَّت[1] يمين مالها كفاره
أنا لا أُفيق ولا أُفتر لحظة ... إن أنت لم تعشق فأنت حجاره

---

(١) لج في اليمين لم يكفرها مدعياً صدقه فيها .

الحب أول ما يكون بنظرة   وكذا الحريق بداؤه بشراره
يا من أُحب ولا أُسمي باسمها   إياك أعني فاسمعي يا جـاره

ولقد أحرق أبو حيان كتبه في آخر عمره لقلة جدواها ، وضناً بها بزعمه على من لا يعرف قدرها بعد موته . وكتب إليه القاضي أبو سهل علي بن محمد يعذله على صنيعه ، فكتب إليه أبو حيان يعتذر من ذلك . ومما قال له في الاعتذار : « إن كان ، أيدك الله ، قد أنقب خفك[١] ما سمعت ، فقد أدمى أظَلي ما فعلت ، فليهن عليك ذلك ، فما انبريت له ، ولا اجترأت عليــه ، حتى استخرت الله عز وجل فيه أياماً وليالي ، وحتى أوحى إلي في المنام بما بعث راقد العزم ، وأجدّ فاتر النية ، وأحيا ميت الرأي ، وحث على تنفيذ ما وقع في الرُّوع ، وتربع في الخاطر ، وأنا أجود عليك الآن بالحجة في ذلك إن طالبت ، أو العذر إن استوضحت ، لتثق بي فيما كان مني ، وتعرف صنع الله تعالى في ثنيه لي . إن العلم ، حاطك الله ، يراد للعمل ، كما أن العمل يراد للنجاة ، فإذا كان العمل قاصراً على العلم ، كان العلم كلاّ على العالِم ، وأنا أعوذ بالله من علم عاد كلاًّ ، وأورث ذلاًّ ، وصار في رقبة صاحبه غُلاًّ .

« ثم اعلم ، علّمك الله الخير ، أن هذه الكتب حوت من أصناف العلم سره وعلانيته ، فأما ما كان سراً فلم أجد له من يتحلى بحقيقته راغباً ، وأما ما كان علانية فلم أُصب من يحرص عليه طالباً ، على أني جمعت أكثرها للناس ، ولطلب المَثالة[٢] منهم ، ولعقد الرياسة بينهم ، ولمدِّ الجاه عندهم ، فحرمت ذلك كله ، ولا شك في حسن ما اختاره الله لي ، وناطه بناصيتي ، وربطه بأمري ، وكرهت مع هذا وغيره ، أن تكون حجة عليّ لا لي .

---

(١) أصل المثل إن يدم أظلك فقد نقب خفي . الأظل ما تحت منسم البعير ، والخف واحد الأخفاف وهي قوائمه . يضرب به المشكو إليه للشاكي أي انا منه في مثل ما تشكوه (أمثال الميداني) والمنسم كمجلس طرف خف البعير وهما كالظفرين في مقدمته .

(٢) الفضل ؛ يقال هو من ذوي مثالتهم .

« ومما شحذ العزم على ذلك ، ورفع الحجاب عنه ، أني فقدت ولداً نجيباً ، وصديقاً حبيباً ، وصاحباً قريباً ، وتابعاً أديباً ، ورئيساً منيباً ، فشقّ عليّ أن أدعها لقوم يتلاعبون بها ، ويدنسون عرضي إذا نظروا فيهـا ، ويشمتون بسهوي وغلطي إذا تصفحوها ، ويتراءون نقصي وعيبي من أجلها ، فإن قلتَ ولم تَسِمهم بسوء الظن ، وتقرّع جماعتهم بهذا العيب ، فجوابي لك أن عياني منهم في الحياة ، هو الذي حقق ظني بهم بعد الممات ، وكيف أتركها لأناس جاورتهم عشرين سنة فما صحَّ لي من أحدهم وداد ، ولا ظهر لي من إنسان منهم حِفاظ ؛ ولقد اضطررت بينهم بعد الشهرة والمعرفة في أوقات كثيرة إلى أكل الخَضِر[1] في الصحراء ، وإلى التكفف الفاضح عند الخاصة والعامة ، وإلى بيع الدّين والمروءة ، وإلى تعاطي الرياء بالسمعة والنفاق ، وإلى ما لا يحسن بالحر أن يرسمه بالقلم ، ويطرح في قلب صاحبه الألم ، وأحوال الزمان بادية لعينك ، بارزة بين مسائك وصباحك ، وليس ما قلته بخاف عليك ، مع معرفتك وفطنتك ، وشدة تتبعك وتفرغك ، وما كان يجب أن ترتاب في صوب ما فعلته وأتيته ، بما قدمته ووصفته ، وبما أمسكت عنه وطويته ، إما هرباً من التطويل ، وإما خوفاً من القال والقيل .

« وبعد فقد أصبحت هامة[2] اليوم أو غد ، فإني في عشر التسعين ، وهل لي بعد الكَبْرة والعجز أمل في حياة لذيذة ، أو رجاء لحال جديدة ، ألست من زمرة من قال القائل فيهم :

نروح ونغدو كلَّ يوم وليلة　　وعما قليل لا نروح ولا نغدو

وكما قال الآخر :

تفوقت درّاتِ الصّبا في ظلاله　　إلى أن أتاني بالفطام مشيب

---

(١) الخضر ككتف البقلة الخضراء كالخضرة كفرحة وهي بقلة خضراء خشناء ورقها مثل ورق الدخن وكذلك ثمرتها وترتفع ذراعاً وهي تملأ فم البعير (التاج) .

(٢) يقال هو هامة اليوم أو غد أي مشف على الموت .

وهذا البيت للورد الجعدي وتمامه يضيق عنه هذا المكان .

« والله يا سيدي لو لم أتعظ إلا بمن فقدته من الإخوان والأخدان ، في هذا الصقع من الغرباءِ والأدباءِ والأحباء لكفى ، فكيف بمن كانت العين تَقَرُّ بهم ، والنفس تستنير بقربهم ، فقدتّهم بالعراق والحجاز والجبل والريّ وما وإلى هذه المواضع ، وتواتر إليّ نعيّهم ، واشتدت الواعية[1] بهم ، فهل أنا إلا من عنصرهم ، وهل لي محيد عن مصيرهم ، أسأل الله تعالى رب العالمين ، أن يجعل اعترافي بما أعرفه ، موصولاً بنزوعي عما أقترفه ، إنه قريب مجيب .

« وبعد فلي في إحراق هذه الكتب أُسوة بأئمة يقتدى بهم ، ويؤخذ بهديهم ، ويُعْشى إلى نارهم ، منهم أبو عمرو بن العلاء ، وكان من كبار العلماء مع زهد ظاهر ، وورع معروف ، دفن كتبه في بطن الأرض فلم يوجد لها أثر ؛ وهذا داود الطائي وكان من خيار عباد الله ، زهداً وفقهاً وعبادةً ، ويقال له تاج الأمة ، طرح كتبه في البحر وقال يناجيها : نعم الدليل كنتِ ، والوقوفُ مع الدليل بعد الوصول ، عناء وذهول ، وبلاء وخمول ؛ وهذا يوسف بن أسباط حمل كتبه إلى غار في جبل ، وطرحها فيه وسدّ بابه ، فلما عوتب على ذلك قال : دلنا العلم في الأول ، ثم كاد يُضلنا في الثاني ، فهجرناه لوجه من وصلناه ، وكرهناه من أجل من أردناه ؛ وهذا أبو سليمان الداراني جمع كتبه في تنور وسجرها[2] بالنار ثم قال : والله ما أحرقتكِ حتى كدت أَحترق بك ؛ وهذا سفيان الثوري مزّق ألف جزء وطرحها في الريح وقال : ليت يدي قطعت من هاهنا بل من هاهنا ولم أكتب حرفاً ؛ وهذا شيخنا أبو سعيد السيرافي سيد العلماء قال لولده محمد : قد تركت لك هذه الكتب تكتسب بها خير الآجل ، فإذا رأيتها تخونك فاجعلها طعمة للنار .

---

(١) الصراخ .
(٢) سجر التنور أوقده .

« وماذا أقول ، وسامعي يصدق ، إن زماناً أحوج مثلي إلى ما بلغك ، لزمان تدمع له العين حزناً وأسى ، ويتقطع عليه القلب غيظاً وجوىً ، وضنىً وشجى ، وما يصنع بما كان ، وحدث وبان ، إن احتجت إلى العلم في خاصة نفسي فقليل ، والله تعالى شاف كاف ، وإن احتجت إليه للناس ، ففي الصدر منه ما يملأ القرطاس بعد القرطاس ، إلى أن تفنى الأنفاس بعد الأنفاس ، وذلك من فضل الله علينا ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون ، فلمَ تُعَنِّي[١] عيني ، أيدك الله، بعد هذا بالحبر والورق والجلد ، والقراءة والمقابلة والتصحيح ، وبالسواد والبياض ، وهل أدرك السلف في الدين الدرجات العلى إلا بالعمل الصالح ، وإخلاص المعتقد والزهد الغالب ، في كل ما راق من الدنيا وخدع بالزِّبْرَج[٢] ، وهوى بصاحبه إلى الهبوط ، وهل وصل الحكماءُ والقدماءُ إلى السعادة العظمى إلا بالاقتصاد في السعي ، وإلا الرضى بالميسور ، وإلا ببذل ما فضل عن الحاجة للسائل والمحروم ، فأين يُذهب بنا ؟ وعلى أي باب نحط رحالنا ؟ وهل جامع الكتب إلا كجامع الفضة والذهب ، وهل المنهوم بها إلا كالحريص الجشع عليها ، وهل المغرم بحبها إلا كمكاثرها ؟ هيهات ، الرحيل والله قريب ، والثواء قليل ، والمضجع مقضٌ ، والمُقام ممض[٣] ، والطريق مخوف ، والمعين ضعيف ، والاغترار غالب ، والله من وراء هذا كله طالب . نسأل الله تعالى رحمة يظلنا جناحها ، ويسهل علينا في هذه العاجلة غدوها ورواحها ، فالويل كل الويل لمن بعد عن رحمته ، بعد أن حصل تحت قدرته » .

وختم كتابه بقوله : « على أني لو علمت في أي حال غلب على ما فعلته ، وعند أي مرض ، وعلى أية عسرة وفاقة ، لعرفت من عذري أضعاف ما

---

(١) تعني تتعب وأعناه وعناه .

(٢) الزبرج بالكسر الزينة بالوشى أو الجوهر .

(٣) مضه الشيء مضاً ومضيضاً بلغ من قلبه الحزن كأمضه .

أبديته ، واحتججت لي بأكثر ما نشرته وطويته ، وإذا أنعمت النظر تيقنت أن لله جل وعز في خلقه أحكاماً ، لا يغارُّ عليها ولا يغالب فيها ، لأنه لا يبلغ كنهها ، ولا ينال غيهبها[١] ولا يعرف قَلْبها[٢] ، ولا يقرع بابها ، وهو تعالى أملك لنواصينا ، وأطلع على أدانينا وأقاصينا ، له الخلق والأمر ، وبيده الكسر والجبر ، وعلينا الصمت والصبر ، إلى أن يوارينا اللحد والقبر والسلام » .

كتب هذا الكتاب في شهر رمضان سنة أربعمائة ، وكشف به الغطاء عن محيا حقائق عصره ، وألمّ فيه أي إلمامٍ بما حداه على تعفية أثره ، لما لقي من الإنكار ، وناله من أهل جيله ، فهُجِّن[٣] بما هُجِّن ، وأُزعج بما أُزعج ، ولولا أن السويداءَ غلبت عليه بإقراره ، واليأس من الحياة وبنيها سد عليه مسالكه ، وزين له إتيان ما أتى — وبنات الأفكار ، أغلى من كل عقار ونضار — لما أُقيمت له معذرة ، ولا أُسبل على ذنبه ستر المغفرة ؛ وبالسويداءِ قد يهلك المرءُ أعزّ حبيب على قلبه ، حتى إذا ثاب إليه عقله ندم على فعلته ، وبالمِرّة الصفراء قد يقتل نفسه ، والنفس أعزُّ الأعلاق على الإطلاق . والتوحيدي مع هذا لم يأت بدعاً فرياً[٤] ، ولعمله أشباه ونظائر ، بيد أن الزمن الذي قلبه كل مقلب ، وغيره في أعطاف النعم يتقلب ، وأخرجه من جلده ، ونبا به عن طوره ، بما رآه من خُبث وخبَث ، وعَنَت وعبَث ، لم يرض أن يستلب جميع جواهره وعقوده ، ليتمتع بذَرْوٍ[٥] من درره أهل الأجيال المقبلة ، على نحو ما استمتع بها أبناء الأعصر الغابرة ، فقضى له من قبل المأتم

---

(١) ظلمتها .

(٢) محض كل شيء .

(٣) التهجين : التقبيح .

(٤) الفري كغني الأمر المختلق المصنوع أو العظيم .

(٥) يسير .

الذي عقده لإحراق كتبه ، أن يتناقل الوارقون والطالبون أسفاره ، ويتنافسوا في نسخها واقتنائها ، فبقيت بصنيعهم هذه البقية الصالحة من أفكاره التي حفظت ذكراه على كرور الأعصار ، وطارت كل مطـار في الأقطار والأمصار .

وإن أعظم ما ينتقد عليه في هذه الرسالة قوله إنه جمع أكثر كتبه للناس ، ولطلب الفضل منهم ، وعقد الرياسة بينهم ونشدان الجاه عندهم . وقوله هذا ينافي هَدْي العلماء ، فإن العلم يراد لذاته ، وتأليف الكتب يُقصد به نفع الناس ، ونشر فكر وبث حقيقة ، وقد يتوقع منها مأرب آخر ، هذا إذا كان يريد بعبارته ما فهمناه منها ، فإن هذا التصريح مما يعاب عليه ، وما نرى هذه الأفكار تلتئم مع الفلسفة والتصوف . على أننا رأينا أبا حيان في بعض أحواله ومواقفه يقول غير هذا ، رأيناه يقول وقد رأى في جامع الرصافة المعافا بن زكريا ينام مستدبر الشمس في يوم شاتٍ ، وبه من أثر الفقر والبؤس والضر أمر عظيم ، مع غزارة علمه ، واتساع أدبه ، وفضله المشهور ، ومعرفته بصنوف العلم ، سيما علم الأثر والأخبار وسير العرب وأيامها فقال له : مهلاً أيها الشيخ وصبراً ، فإنك بعين الله ومرأى منه ومسمع ، وما جمع الله لأحد شرف العلم وعزّ المال فقال : مالا بد منه من الدنيا فليس منه بد ، ثم قال :

يا محنة الدهر كفي ... إن لم تكفي فخفي
قد آن أن ترحمينا ... من طول هذا التشفي
طلبت جداً لنفسي ... فقيل لي قـد توفي
فلا علومي تجدي ... ولا صناعـة كفـي
ثور ينـال الثريـا ... وعالم متخفـي

نموذجات من كتبه :

نقلت كتب أبي حيان أفكاراً منوعة ، وفلسفة أُناس كانت تنسى أخبارهم ، لو لم يتصد لتدوينها ، وفي اقتباس صفحات قليلة منها تتجلى ألوان أدبه وسهولة بيانه . قال في كتاب المحاضرات :

ذكرت للوزير مناظرة جرت في مجلس الوزير أبي الفتح الفضل بن جعفر بن الفرات ، بين أبي سعيد السيرافي وأبي بشر متى واختصرتها فقال لي : اكتب هذه المناظرة على التمام ، فإن شيئاً يجري في ذلك المجلس النبيه ، وبين هذين الشيخين بحضرة أُولئك الأعلام ، ينبغي أن يغتنم سماعه ، وتوعى فوائده ، ولا يتهاون بشيء منه . وكان في جملة من حضر ذاك المجلس الذي انعقد سنة عشرين وثلاثمائة : الخالدي وابن الإخشيد والكِندي وابن أبي بشر وابن رباح وابن كعب وقدامة بن جعفر والزهري وعلي بن عيسى بن الجراح وأبو فراس وابن رشيد وابن عبد العزيز الهاشمي وابن يحي العلوي ورسول ابن طُغج من مصر والمرزباني صاحب بني سامان . قال التوحيدي فقال لي الوزير : أين أبو سعيد من أبي علي ، وأين علي بن عيسى منهما ، وأين ابن المراغي أيضاً من الجماعة ، وكذلك المرزباني وابن شاذان وابن الوراق وابن حيويه ؟ فكان مني الجواب : أبو سعيد أجمع لشمل العلم ، وأنظم لمذاهب العرب ، وأدخل في كل باب ، وأخرج عن كل طريق ، وألزم للجادة الوسطى في الدين والخلق ، وأروى للحديث ، وأقضى في الأحكام ، وأفقه في الفتوى ، وأحضر بركة على المختلفين ، وأظهر أثراً في المقتبسة .

ومما جاء في هذه المناظرة في اللغات والترجمة : إن لغة من اللغات لا تطابق لغة أخرى من جميع جهاتها بحدود صفاتها في أسمائها وأفعالها وحروفها وتأليفها وتقديمها وتأخيرها واستعارتها وتحقيقها وتشديدها وتخفيفها وسعتها وضيقها ونظمها ونثرها وسجعها ووزنها وميلها وغير ذلك ... فمن أين يجب أن نثق بشيءٍ ترجم لك على هذا الوصف ؟ بل أنت إلى أن تعرف اللغة العربية

أحوج منك إلى تعرف المعاني اليونانية ، على أن المعاني لا تكون يونانية ولا هندية ، كما أن اللغات لا تكون فارسية ولا عربية ولا تركية ... ومن فِقَرِها قال أبو سعيد : فأنت (أي متّى) إذاً لست تدعونا إلى علم المنطق بل إلى تعلم اللغة اليونانية ، وأنت لا تعرف لغة يونان ، فكيف صرت تدعونا إلى لغة لا تفي بها وقد عفَت منذ زمان طويل ، وباد أهلها ، وانقرض القوم الذين كانوا يتفاوضون بها ، ويتفاهمون أغراضهم بتصرفها ؟ على أنك تنقل من السريانية ، فما تقول في معان متحولة بالنقل من لغة يونان إلى لغة أخرى سريانية ، ثم من هذه إلى لغة أخرى عربية ؟ قال متّى : يونان وإن بادت مع لغتها فإن الترجمة قد حفظت الأغراض ، وأدت المعاني ، وأخلصت الحقائق . قال أبو سعيد : إذا سلمنا لك أن الترجمة شدقت وما كذبت ، وقوّمت وما حرفت ، ووزنت وما جزفت ، وأنها ما التاثت ، ولا حافت[1] ، ولا نقصت ولا زادت ، ولا قدمت ولا أخرت ، ولا أخلت بمعنى الخاص والعام ، ولا بأخص الخاص ، ولا بأعم العام ، وإن كان هذا لا يكون ، وليس في طبائع اللغات ، ولا في مقادير المعاني ؛ فكأنك تقول بعد هذا لا حجة إلا عقول يونان ، ولا برهان إلا ما وضعوه ، ولا حقيقة إلا ما أبرزوه . قال متّى : لا ولكنهم من بين الأمم أصحاب عناية بالحكمة ، والبحث عن ظاهر هذا العالم وباطنه ، وعن كل ما يتصل به وينفصل عنه ؛ وبفضل عنايتهم ظهر ما ظهر ، وانتشر ما انتشر ، ونشأ ما نشأ ، من أنواع العلم وأصناف الصناعة ، ولم نجد هذا لغيرهم . قال أبو سعيد : أخطأت وتعصبت ، وملت مع الهوى ، فإن العلم مبثوث في العالم . ولهذا قال القائل :

العلم في العالم مبثوث ونحوه العاقل محثوث

وكذلك الصناعات مفضوضة على جميع من على جديد الأرض ، ولهذا غلب علم في مكان دون مكان ، وكثرت صناعة في بقعة دون صناعة ،

---

(١) حاف يحاف حيفاً جار وظلم ، والتاث اختلط .

وهذا واضح والزيادة عليه مشغلة . ومع هذا فإنما كان يصح قولك وتسلم دعواك ، لو كانت يونان معروفة بين جميع الأمم بالعصمة الغالبة ، والفطرة الظاهرة ، والبنية المخالفة ، وأنهم لو أرادوا أن يخطئوا ما قدروا ، ولو قصدوا أن يكذبوا ما استطاعوا ، وأن السكينة نزلت عليهم ، والحق تكفل بهم ، والخطأ تبرأ منهم ، والفضائل لصقت بأصولهم وفروعهم ، والرذائل بعدت عن جواهرهم وعروقهم ، وهذا جهل ممن يظنه بهم ، وعناد ممن يدعيه عليهم ، بل كانوا كغيرهم من الأمم يصيبون في أشياء ، ويخطئون في أشياء ، ويصدقون في أمور ، ويكذبون في أمور ، ويحسنون في أحوال ، ويسيئون في أحوال ...

قال أبو حيان : هذا آخر ما كتبت عن علي بن عيسى الشيخ الصالح باملائه ، وكان أبو سعيد روى لمعاً من هذه القصة ، وكان يقول لم أحفظ على نفسي كل ما قلت ، ولكن كتب ذلك القوم الذين حضروا في ألواح كانت معهم ومحابر أيضاً ، وقد اختل كثير منه . قال علي بن عيسى : وتقوض المجلس وأهله يتعجبون من جأش أبي سعيد ، ولسانه المتصرف ، ووجهه المتهلل ، وفوائده المتتابعة . وقال له الوزير ابن الفرات : عين الله عليك أيها الشيخ فقد نديت أكباداً ، وأقررت عيوناً ، وبيضت وجوهاً ، وحكت طرازاً لا تبليه الأيام ، ولا يتطرقه الحدثان ، قال قلت لعلي بن عيسى : وكم كانت سن أبي سعيد يومئذ ، قال مولده سنة ثمانين ومائتين ، وكان له يوم المناظرة أربعون سنة وقد عبث الشيب بلهازمه[1] .

* * *

نقل القفطي أن السبب في تأليف التوحيدي كتاب الإمتاع والمؤانسة أن

(١) لهازم جمع لهزمة وهما عظمان ناتئان في اللحيين تحت الأذنين .

أبا سليمان المنطقي أستاذ التوحيدي في الفلسفة – وكان منزله في دار السلام مقيل[١] أصحاب العلوم القديمة – كان لانقطاعه عن الناس ، ولزومه مجلسه ، يشتهي الاطلاع على أخبار الدولة ، وعلم ما يحدث فيها ، بمكان من يغشاه من الأجلاء ، ينقل إليه بعض أخبارها ، وكان أبو حيان من بعض المعتصمين به ، وكان يغشى مجالس الرؤساء ويطلع على الأخبار ، ومهما علمه من ذلك نقله إليه وحاضره به ، ولأجله صنف كتاب الإمتاع والمؤانسة ، نقل له فيه ما كان يدور في مجلس أبي الفضل عبد الله بن العارض الشيرازي عندما تولى الوزارة . قال : وهو كتاب ممتع على التحقيق ، لمن له مشاركة في فنون العلم ، فإنه خاض كل بحر ، وغاص كل لجة . قال القِفطي : وما أحسن ما رأيته على ظهر نسخة من كتاب الإمتاع بخط بعض أهل جزيرة صقلية وهو : ابتدأ أبو حيان كتابه صوفياً ، وتوسطه محدثاً ، وختمه سائلاً ملحفاً اهـ . وفي الكلام الأخير صورة صغيرة مما كان يعاب على أخلاق أبي حيان ، وقد لا يجد المدافع معذرة يعتذر بها عنه . ومنزع التوحيدي واحد وهو ما قاله في آخر كتاب أخلاق الوزيرين « ولكن النقص ممن يدعي التمام أشنع ، والحرمان من السعيد المأمول فاقرة[٢] ، والجهل من العالم منكر ، والكبيرة ممن يدعي العصمة جائحة[٣] ، والبخل ممن يتبرأ منه بدعواه عجيب » . ومن الإنصاف أن نقول إن التوحيدي أجاد كل الإجادة في التعريف بالرجال ، ووقفنا على نفسياتهم ونزائعهم ، وليس هذا بالأمر السهل .

ومن كتاب الإمتاع : « سأل الوزير صمصام الدولة أبا حيان التوحيدي في حدود سنة ٣٧٢ عن إخوان الصفاء بقوله : إني لا أزال أسمع من زيد ابن رِفاعة قولاً يريبني ، ومذهباً لا عهد لي به ، وكناية عما لا أحققه ، وإشارة

---

(١) المقيل : الموضع .
(٢) الفاقرة : الداهية .
(٣) الجائحة : الشدة والنازلة .

إلى ما لا يتوضح شيء منه ، يذكر الحروف ويذكر النقط ، ويزعم أن الباءَ لم تنقط من تحت واحدة إلا لسبب ، والتاء لم تنقط من فوق اثنتين إلا لعلة ، والألف لم تُعجم إلا لغرض وأشباه هذا ؛ وأشهد منـــه في عُرض ذلك دعوى يتعاظم بها ، وينتفخ بذكرها ، فما حديثه وما شأْنه وما دخلته[1] ؟ فقد بلغني يا أبا حيان أنك تغشاه وتجلس إليه ، وتكثر عنده ، ولك معه نوادر معجبة ؛ ومن طالت عشرته لإنسان صدقت خبرته ، وأمكن اطلاعه على مستكنّ رأيه ، وخافي مذهبه . فقلت : أيها الوزير ، أنت الذي تعرفه قبلي قديماً وحديثاً بالاختبار والاستخدام ، وله منك الإمرة القديمة ، والنسبة المعروفة . فقال : دع هذا وصِفه لي . فقلت : هناك ذكاء غالب ، وذهنٌ وقاد ، ومتسع في قول النظم والنثر ، مع الكتابة البارعة في الحساب والبلاغة ، وحفظ أيام الناس ، وسماع المقالات ، وتبصر في الآراء والديانات ، وتصرُّف في كل فن ، إما بالشدو[2] الموهم ، وإما بالتوسط المفهم ، وإما بالتناهي المفحم . قال : فعلى هذا ما مذهبه ؟ قلت : لا ينسب إلى شيء ، ولا يعرف برهط ، لجيشانه بكل شيء ، وغليانه بكل باب ، ولاختلاف ما يبدو من بسطته ببيانه ، وسطوته بلسانه ، وقد أقام بالبصرة زمناً طويلاً ، وصادف بها جماعة لأصناف العلم وأنواع الصناعة ، منهم أبو سليمان محمد بن معشر البستي ، ويعرف بالمقدسي وأبو الحسن علي بن هرون الزنجاني وأبو أحمد المِهْرَجاني والعوفي وغيرهم فصحبهم وخدمهم .

« وكانت هـــذه العصابة قد تألفت بالعشرة ، وتصافت بالصداقة ، واجتمعت على القُدْس والطهارة والنصيحة ، فوضعوا بينهم مذهباً زعموا أنهم قربوا به الطريق إلى الفوز برضوان الله ، وذلك أنهم قالوا : إن الشريعة قد دُنّست بالجهالات ، واختلطت بالضلالات ، ولا سبيل إلى غسلهـــا

---

(١) مذهبه ونيته .

(٢) الشدو : القليل من كل كثير .

وتطهيرها إلا بالفلسفة ، لأنها حاوية للحكمة الاعتقادية ، والمصلحة الاجتهادية ، وزعموا أنه متى انتظمت الفلسفة اليونانية والشريعة العربية ؛ فقد حصل الكمال ، وصنفوا خمسين رسالة في جميع أجزاء الفلسفة علميها وعمليها ، وأفردوا لها فهرساً وسموها : « رسائل إخوان الصفاء » وكتموا فيها أسماءهم ، وبثوها في الوراقين ، ووهبوها للناس ، وحشوا هذه الرسائل بالكلمات الدينية ، والأمثال الشرعية ، والحروف المحتملة ، والطرق المموهة .

قال الوزير : فهل رأيت هذه الرسائل ؟ قلت : قد رأيت جملة منها وهي مبثوثة من كل فن بلا إشباع ولا كفاية ، وفيها خرافات وكنايات ، وتلفيقات وتلزيقات ، وحملت عدة منها إلى شيخنا أبي سليمان المنطقي السجستاني محمد بن بهرام وعرضتها عليه فنظر فيها أياماً ، وتبحرها طويلاً ، ثم ردها عَلَيَّ وقال : تعبوا وما أغنوا ، ونَصِبوا وما أجدوا ، وحاموا وما وردوا ، وغَنَّوا وما أطربوا ، ونسجوا فهلهلوا ، ومشطوا ففلفلوا[1] ، ظنوا ما لا يكون ولا يمكن ولا يستطاع ، ظنوا أنه يمكنهم أن يدسوا الفلسفة التي هي علم النجوم والأفلاك والمقادير والمجسطي وآثار الطبيعة ، والموسيقى الذي هو معرفة النغم والإيقاعات والنقرات والأوزان ، والمنطق الذي هو اعتبار الأقوال بالإضافات والكميات والكيفيات في الشريعة ، وأن يربطوا الشريعة في الفلسفة ، وهذا مرام دونه حَدَد[2] . وقد تورد[3] على هذا قبل قوم كانوا أحدّ أنياباً ، وأحصر أسباباً ، وأعظم أقداراً ، وأرفع أخطاراً ، وأوسع قوى ، وأوثق عرى ، فلم يتم لهم ما أرادوه ، ولا بلغوا منه ما أمّلوه ، وحصلوا على لوثات[4] قبيحة ، ولطخات واضحة موحشة ، وعواقب مخزية ، فقال

---

(١) ثوب مفلفل موشى ، وهلهلوا : نسجوا نسجاً سخيفاً .

(٢) ممتنع باطل .

(٣) ورد : أشرف على الماء وغيره دخله أو لم يدخله كالتورد .

(٤) اللوثة بالضم : الحمق والهيج ومس الجنون .

له البخاري ابن العباس : ولم ذلك أيها الشيخ ؟ فقال : إن الشريعة مأخوذة عن الله عزّ وجلّ ، بوساطة السفير بينه وبين الخلق ، من طريق الوحي وباب المناجاة ، وشهادة الآيات ، وظهور المعجزات ، وفي أثنائها ما لا سبيل إلى البحث عنه والغوص فيه ، ولا بد من التسليم المدعو إليه ، والمنبه عليه ، وهناك يسقط « لِمَ » ويبطل « كيف » ويزول « هلا » ويذهب « لو وليت » في الريح الخ (عن تراجم الحكماء) . هذه حقيقة جمعية إخوان الصفاء ، وصفها التوحيدي أجمل وصف . وما أحلى قوله في ابن رفاعة إنه تصرف في كل فن إما بالشدو الموهم ، وإما بالتوسط المفهم ، وإما بالتناهي المفحم .

من كتاب تقريظ الجاحظ : هذا الكتاب ينقل عنه ياقوت أحياناً ونقل عنه الجرجاني في كنايات الأدباء كما نقل أيضاً عن كتاب الذخائر والبصائر قال : قرأت بخط أبي حيان التوحيدي في كتابه الذي ألفه في تقريظ الجاحظ ، وقد ذكر العلماء الذين كانوا يفضلون الجاحظ فقال ومنهم علي بن عيسى الرماني فإنه لم يرّ مثله قط بلا تقية ولا تحاش ، ولا اشمئزاز ولا استيحاش ، علماً بالنحو ، وغزارة في الكلام ، وبصراً بالمقالات ، واستخراجاً للعويص ، وإيضاحاً للمشكل مع تأله وتنزه ، ودين ويقين ، وفصاحة وفقاهة ، وعفافة ونظافة .

ونقل ياقوت أيضاً جملة من هذا الكتاب فقال : ومنهم (أي من الذين قدمهم التوحيدي على الجاحظ وفضلهم) أبو سعيد السيرافي شيخ الشيوخ وإمام الأئمة معرفة بالنحو ، والفقه ، واللغة ، والشعر ، والعروض ، والقوافي ، والقرآن ، والفرائض ، والحديث ، والكلام ، والحساب ، والهندسة . أفتى في جامع الرصافة خمسين سنة على مذهب أبي حنيفة فما وجد له خطأ ، ولا عثر منه على زلة ، وقضى ببغداد ، وشرح كتاب سيبويه في ثلاثة آلاف ورقة بخطه في السليماني ، فما جاراه فيه أحد ، ولا سبقه إلى إتمامه إنسان . هذا مع الثقة والديانة والأمانة والرواية ، صام أربعين سنة وأكثر الدهر كله . وهذا الكتاب من عجائب التوحيدي أيضاً فإنه على ما ظهر من هذين النموذجين

فيما نرى في وصف السيرافي والرماني أنه فضلهما على الجاحظ في هذا الاختصاص وهذا موضع نظر أيضاً .

مثال من كتابه الصداقة والصديق قال في مقدمته : « اللهم خذ بأيدينا فقد عثرنا ، واستر علينا فقد أعورنا ، وارزقنا الألفة التي بها تصلح القلوب ، وتنقى الجيوب ، حتى نعيش في هذه الدار مصطلحين على خير ، مؤثرين للتقوى ، عاملين بشرائط الدين ؛ آخذين بأطراف المروءة ، آنفين من ملابسة ما يقدح في ذات البين ، متزودين للعاقبة التي لا بد من الشخوص إليها ، ولا محيد عن الاطلاع عليها ، إنك تؤتي من تشاءُ ما تشاءُ .

« سُمع مني في وقت بمدينة السلام ، كلام في الصداقة والعشرة ، والمؤاخاة والألفة ، وما يلحق بها من الرعاية والحفاظ ، والوفاء والمساعدة ، والنصيحة والبذل ، والمؤاساة والجود والتكرم ، مما قد ارتفع رسمه بين الناس ، وعُفي أثره عند العام والخاص ، وسئلت إثباته ففعلت ، ووصلت ذلك بجملة مما قال أهل الفضل والحكمة ، وأصحاب الديانة والمروءة ، ليكون ذلك كله رسالة تامة يمكن أن يستفاد منها ، وينتفع بها في المعاش والمعاد . وسمعت الخُوارزمي أبا بكر محمد بن العباس الشاعر البليغ يقول : اللهم نفّق سوق الوفاء فقد كسدت ، وأصلح قلوب الناس فقد فسدت ، ولا تمتني حتى يبور الجهل ، كما بار العقل ، ويموت النقص ، كما مات الفهم . وأقول : اللهم اسمع واستجب ، فقد برح الخفاء ، وغلب الجفاء ، وطال الانتظار ، ووقع اليأس ، ومرض الأمل ، وأشفى الرجاء ، والفرج معدوم ، وأظن أن الداء في هذا الباب قديم ، والبلوى فيه مشهورة ، والعجيج منه معتاد .

« فأول ذلك أني قلت لأبي سليمان محمد بن طاهر السجستاني إني أرى بينك وبين ابن سيار القاضي ممازجة نفسية ، وصداقة عقلية ، ومساعدة طبيعية ، ومؤاتاة خُلُقية . فمن أين هذا وكيف هو ؟ فقال : يا بني اختلطت ثقتي به بثقته بي ، فاستفدنا طُمأنينة وسكوناً لا يرثان على الدهر ، ولا يحولان بالقهر ، ومع ذلك فبيننا بالطالع ، ومواقع الكواكب ، مشاكلة عجيبة ، ومظاهرة

غريبة حتى إنا نلتقي كثيراً في الإرادات والاختيارات ، والشهوات والطلبات ، وربما تزاورنا فيحدثني بأشياء جرت له بعد افتراقنا من قبل ، فأجدها شبيهة بأمور حدثت لي في ذلك الأوان ، حتى كأنها قسائم بيني وبينه ، أو كأني هو فيها أو هو أنا ، وربما حدثته برؤيا فيحدثني بأُختها ، فنراها في ذلك الوقت أو قبله بقليل أو بعده بقليل ؛ قال : ورأيته قد ملكه التعجب من هذا وشبهه ، فحدثته بما نتقاسمه من قوى الفلك ، وأن سهامنا واحدة ، وأنصابنا منهـا متساوية ، أو قريبة من التساوي ، فعجب وازداد بصيرة في إخلاص الصداقة ، وتوكيد العلاقة . فقلت لأبي سليمان كيف يصح هذا ، وأنت مطالبك في الفلسفة ، وصورة مأخوذة من الحكمة ، وقُتَيْبَتُكَ[1] مجموعة من الحقائق ، وخوضك في الغوامض والدقائق ، وذاك رجل في عداد القضاة ، وجلة الحكام ، وأصحاب القلانس ، ومخاضه[2] الظاهر الذي عليه الجمهور ، ومأخذه مما عليه السواد الأعظم ؟ فقال : هذا هو الذي انفردنا عنه ، بعد أن ازدوجنا عليه . والأصل أبداً مخالف للفرع ، لا خلاف الضد للضد ، ولكن خلاف الشكل للشكل ، وكان مشتّريه خالياً من قوة زحل ، فبرّز في حلبة القضاة ، وكان المشتّري لي مقتبساً من زحل فظهرت بما ترى ، فجمعتنا المشاكلة على العلم ، وفرقنا الاختلاف بالفن .

قلت : هذا والله طريف ، ومما يزيد في طرافته أنك من سجستان وهو من الصَيْمَرة ، فقال : الأمكنة في الفلك أشد تضاماً من الخاتم في إصبعك ، وليس لها هناك هـذا البعد الذي تجده بالمسافة الأرضية ، من بلد إلى بلد ، بفراسخ تقطع ، وجبال تعلى ، وبحار تُخرق ، فقلت : هل تجد عليه في شيء أو يجد عليك في شيء ؟ فقال : وجدي به في الأول ، قد حجبني عن موجدتي عليه في الثاني ، على أنه يكتفي مني فيما خالف هواي باللمحة الضئيلة ، وأكتفي

---

(١) القتيبة : تصغير القتبة ، وهي الأمعاء .

(٢) المخاضة : ما جاز الناس فيه مشاة وركباناً ، وخاض الغمرات اقتحمها .

أنا أيضاً منه في مثل ذلك بالإشارة القليلة ، وربما تعاتبنا على حال تعرض على طريق الكناية عن غيرنا ، كأننا نتحدث عن قوم آخرين ، ويكون لنا في ذاك مقنع ، وإليه مفزع ؛ وقلما نجتمع إلا ويحدثني عني بأسرار ما سافرت عن ضميري إلى شفتي ، ولا ندّت عن صدري إلى لفظي ، وذاك للصفاء الذي نتساهمه ، والوفاء الذي نتقاسمه ، والباطن الذي نتفق عليه ، والظاهر الذي نرجع إليه ، والأصل الذي رسوخنا فيه ، والفرع الذي تشبثنا به ، والله ما يسرني بصداقته حمرُ النّعم ولا أجد بها حياتي ما أجد بحياتي لي ، وإذا كنت أعشق الحياة لأني بها أحيا ، كذلك أعشق كل ما وصل الحياة بالحياة، وجنى لي ثمرتها ، وجلب لي روحها ، وخلط بي طيبها وحلاوتها .

وكان أبو سليمان يحدثني عن ابن سيار بعجائب ، وأما أنا فما عرفته إلا قاضياً جليلاً صاحب جَدّ وتفخيم ، وتوقير وتعظيم ، وكان مع ذلك بسيط اللسان ، شريف اللفظ ، واسع التصرف ، لطيف المعاني ، بعيد المرامي ، يذهب مذهب أبي حنيفة .

« ثم قال أبو سليمان : الصداقة التي تدور بين الرغبة والرهبة ، شديدة الاستحالة ، وصاحبها من صاحبه في غرور ، والزلة فيها غير مأمونة ، وكسرها غير مجبور . قال : فأما الملوك فقد جلّوا عن الصداقة ، ولذلك لا تصح لهم أحكامها ، ولا توفي بعهودها ، وإنما أمورهم جارية على القدرة والقهر والهوى ، والشائق والاستحلاء والاستخفاف ، وأما خدمهم وأولياؤهم فعلى غاية الشبه بهم ، ونهاية المشاكلة لهم لانتشابهم[1] بهم ، وانتسابهم إليهم ، وولوع طورهم بما يصدر عنهم ، ويرد عليهم . وأما التُنّاء[2] وأصحاب الضياع فليسوا من هذا الحديث في عير ولا نفير . وأما التجار فكسب الدوانيق سدّ بينهم وبين كل مروءة ، وحاجز لهم عن كل ما يتعلق بالفتوة .

---

(١) انتشب به : اعتلق .
(٢) التانىء : الساكن ، وتنأ : أقام .

وأما أصحاب الدين والورع ، فعلى قلتهم ، ربما خلصت لهم الصداقة لبنائهم إياها على التقوى ، وتأسيسها على أحكام الحرج ، وطلب سلامة العقبى . وأما الكتاب وأهل العلم فإنهم إذا خلوا من التنافس والتحاسد ، والتماري والتماحك ، فربما صحت لهم الصداقة ، وظهر منهم الوفاء ، وذلك قليل ، وهذا القليل من الأصل القليل . وأما أصحاب المذاب والتطفيف(١) فإنها رِجْرِجة(٢) بين الناس . لا محاسن لهم فتذكر ، ولا مساعي فتنشر ، ولذلك قيل لهم همج ورَعَاع ، وأوباش وأوتاش(٣) ولغيف(٤) وزعانف وداصّة(٥) وسُقّاط وأنذال وغوغاء ، لأنهم من دقة الهمم ، وخساسة النفوس ، ولؤم الطباع ، على حال لا يجوز أن يكونوا في حومة المذكورين ، وعصابة المشهورين فلهذه الأمور الحائلة عن مقارّها ، الزائغة إلى غير جهاتها ، علل وأسباب ، لو نفّس الزمان قليلاً لكنا ننشط لشرحها ، وذكر ما قد أتى النسيان عليه ، وعفى أثره الإهمال ، وشغل عنه طلب القوت ، ومن أين يظفر بالغذاء ، من كان عاجزاً عن الحاجة ، وبالعشاء من كان قاصراً عن الكفاية ، وكيف يحتال في حصول طِمْرين(٦) للستر لا للتجمل ، وكيف يهرب من الشر المقبل ، وكيف يهرول وراء الخير المدبر ، وكيف يستعان بمن لا يعين ، ويشتكي إلى غير رحيم ، ولكن حال الجريض دون القريض(٧) .

---

(١) التطفيف نقص يخون به صاحبه في كيل أو وزن ، والمطففون الذين ينقصون المكيال والميزان ، والمذاب جمع مذبة بكسر الميم : ما يذب به الذباب ، وهي هنة تسوى من هلب الفرس ، ويقال أذنابها مذابها ، وهو مجاز .

(٢) الرجرجة : بقية ماء مختلط بطين في أسفل الحوض، ويطلق على الحمقى والمهازيل .

(٣) الوتش : القليل من كل شيء ورذال الناس ، ولعلها الأوقاش وهم الأوباش أيضاً .

(٤) اللغيف : من يأكل مع اللصوص ويحرس ثيابهم ولا يسرق معهم .

(٥) جمع دائص وهو اللص أو من يتتبع الولاة .

(٦) الطمر بكسر الطاء : الثوب الخلق .

(٧) الجريض : الغصة من الجرض وهو الريق والقريض الشعر ، وأصل المثل أن رجلا كان له ابن نبغ في الشعر فنهاه أبوه عن ذلك فجاش به صدره ومرض حتى أشرف على الهلاك فأذن له أبوه في قول الشعر ، فقال هذا القول .

« ومن العجب والبديع أنا كتبنا هذه الحروف على ما في النفس من الحرق والأسف والحسرة والغيظ ، والكمد والومد[١] ، وكأني بغيرك إذا قرأها تقبضت نفسه عنها ، وأمرَّ نقده عليها ، وأنكر عليَّ التطويل والتهويل بها . وإنما أشرت بهذا إلى غيرك ، لأنك تبسط من العذر ما لا يجود به سواك ، وذاك لعلمك بحالي ، واطلاعك على دخلتي ، واستمراري على هذا الإنفاض والعوز اللذين قد نقضا قوتي ، ونكثا مِرَّتي[٢] ، وأفسدا حياتي ، وقرناني بالأسى ، وحجباني عن الأسى[٣] ، لأني فقدت كل مؤنس وصاحب ، ومرافق مشفق ، والله لربما صليت في الجامع فلا أرى إلى جنبي من يصلي معي ، فإن اتفق فبقال أو عصار ، أو نداف أو قصاب ، ومن إذا وقف إلى جانبي أسدرني[٤] بصُنانه ، وأسكرني بنتنه . فقد أمسيت غريب الحال ، غريب اللفظ ، غريب النحلة ، غريب الخُلُق ، مستأنساً بالوحشة ، قانعاً بالوَحدة ، معتاداً للصمت ، ملازماً للحيرة ، محتملاً للأذى ، يائساً من جميع من ترى ، متوقعاً لما لا بدَّ من حلوله ، فشمس العمر على شفا ، وماء الحياة إلى نضوب ، ونجم العيش إلى أفول ، وظل التلبث إلى قلوص » .

قال التوحيدي بعد ذكر هذه المقدمة إن سبب إنشائه هذه الرسالة في الصداقة والصديق أنه ذكر « شيئاً منها لزيد بن رفاعة أبي الخير فنماه إلى ابن سعدان الوزير أبي عبد الله سنة إحدى وسبعين وثلثمائة ، قبل تحمله أعباء الدولة وتدبيره أمر الوزارة ، حين كانت الأشغال خفيفة ، والأحوال على أذلالها[٥] جارية » ، فأشار عليه ابن سعدان أن يدونه ، فجمع هذه الرسالة ،

---

(١) الغضب .
(٢) المرة بكسر الميم : قوة الخلق وشدته .
(٣) الأسى بالفتح الحزن ، والأسى بالفتح والضم واحدها إسوة : ما يأتسي به الحزين .
(٤) أسدرني : حيرني . والصنان ذفر الابط .
(٥) في المثل : أجر الأمور على أذلالها أي على وجوهها التي تصلح وتسهل وتتيسر ، وواحد الأذلال بالكسر .

وأبطأ عن تحريرها ، فلما مرّ على ذلك بعض سنين عثر على المسودة وبيضها .

وقال في مكان آخر : « قد أتت هـــذه الرسالة على حديث الصداقة والصديق ، وما يتصل بالوفاق والخلاف ، والهجر والصلة ، والعتب والرضا ، والمذق(١) والإخلاص ، والرياء والنفاق ، والحيلة والخداع ، والاستقامة والالتواء ، والاستكانة والاحتجاج والاعتذار . ولو أمكن لكان تأليف ذلك كله أتم مما هو عليه ، وأجرى إلى الغاية في ضم الشيء إلى شكله ، وحبسه في قالبه ، فكان رونقه أبين ، ورفقه أحسن ، ولكن العذر قد تقدم . ولو أردنا أيضاً أن نجمع ما قاله كل ناظم في شعره ، وكل ناثر من لفظه ، لكان ذلك عسراً بل متعذراً ، فان أنفاس الناس في هذا الباب طويلة ، وما من أحد إلا وله في هذا الفن حصة ، لأنه لا يخلو أحد من جار أو معامل أو حميم أو صاحب ، أو رفيق أو سكن أو حبيب أو صديق أو أليف ، أو قريب أو بعيد أو ولي أو خليط ، كما لا يخلو أيضاً من عدو أو كاشح أو مداجٍ أو مكاشف ، أو حاسد أو شامت ، أو منافق أو مؤذٍ ، أو منابذ أو معاند ، أو مزل أو مضل أو مغل . وقد قال الأوائل الإنسان مدني بالطبع ، وبيان هذا أنه لا بد له من الإعانة والإستعانة ، لأنه لا يكمل وحده لجميع مصالحه ، ولا يستقل بجميع حوائجه ، وهذا ظاهر ، وإذا كان مدنياً بالطبع كما قيل ، فبالواجب ما يعرض في أضعاف ذلك من الأخذ والعطاء ، والمجاورة والمحاورة ، والمخالطة والمعاشرة ، ما يكون سبباً لنظام الحال ، أو يكون سبباً لانتشار الأمر ، ولا محالة أن هذه وأشباهها مفضية بالناس إلى جملة ما نعته هؤلاء الذين روينا نظمهم ونثرهم ، وكتبنا جورهم وإنصافهم ، وذلك أعلى فنون ما قالوه ونظروه ، وعيون ما ذكروه ونشروه ، ونروي في هذا الموضع بقية أبيات وإن عنّ شيء حكيناه ، ونغلق الرسالة فإنها إذا طالت أُبغضت ، وإذا أُبغضت هجرت اهـ .

---

(١) مذق الود : لم يخلصه .

وهذا النموذج الذي أوردناه من الصداقة والصديق كافٍ في الحكم على أُسلوبه والروح الذي ينزع في تأليفه. وملاحظة التوحيدي على ائتلاف المتضادين في العلم، والتمثيل بصداقة أُستاذه أبي سليمان المنطقي وصديقه ابن سيار القاضي، ووصف أبي سليمان وصفاً دقيقاً للصلات التي عقدت بين قلبهما، ثم إبداعه في وصف طبقات الأصدقاء، كل ذلك من جميل الوصف، وإلى اليوم ما اختل هذا التقسيم، وإن رأيت الوفاء والصداقة ففي النادر الشاذ. ومن أبدع الصفحات وصف غُربته في أُمته، غربة الفكر والاجتماع والنحلة والخُلُق والعادة. ولا بدع فهو من جيد الوصف في نفسية أهل عصره، ومنزلة العالم بين جمهور الغاغة[1]. ومن أجمل الأعذار اعتذاره عن طول هذه الرسالة علماً منه أن مكانة الكتاب بمادته لا بسعته، ولكن إذا قضت الحال بالتطويل، اضطر المؤلف إلى إطلاق عنان بيانه.

* * *

وفي كتاب الصداقة والصديق مثال من مجالسهم وهو قوله: رأيت ابن سعدان ينشد يوماً وقد أنكر شيئاً من بعض الندماء:

عدوٌ راح في ثوب الصديق ... شريك في الصّبوح وفي الغَبوق[2]
له وجهان ظاهره ابن عم ... وباطنه ابن زانية عتيق
يسرك ظاهراً ويسوءُ سراً ... كذاك تكون أبناءُ الطريق

وأنا أُسمي لك ندماءه، وأروي كلاماً له وصفهم به. منهم أبو علي عيسى بن زرعة النصراني المتفلسف، وابن عبيد الكاتب، وابن الحجاج الشاعر، وأبو الوفاء المهندس وابن بكر، ومسكويه، وأبو القاسم الأهوازي،

---

(١) أصل معنى الغوغاء الجراد بعد ان ينبت جناحه أو اذا انسلخ من الألوان وصار إلى الحمرة وشيء يشبه البعوض ولا يعض لضعفه وبه سمي الغوغاء من الناس وهم الكثير المختلط منهم كالغاغة.

(٢) الصبوح ما يشرب في الصباح والغبوق ما يشرب بالعشي.

وأبو سعد بهرام بن أزدشير . وكان أوزنهم عنده ، وألصقهم بقلبه ابن شاهويه . هؤلاء أهل المجلس سوى الطارئين من أهل الدولة لا فائدة في ذكرهم . قال زيد بن رفاعة وكان قريباً له من جهة الخوف له (؟) : رأيت الوزير اليوم يصف ندماءه بكلام يصلح أن يكتب على الأحداق ، ويعرض على أهل الآفاق ، ليستفيده الصغير والكبير . قال : أصحـــابي طرائق قدد [١] ، كما قال عبد الحميد الكاتب : الناس أخياف مختلفون ، وأصناف متباينون ، فمنهم عِلق[٢] مضنة لا يباع ، ومنهم غُل[٣] مظنة لا يبتاع . وكما قال الآخر :

الناس أخياف وشتى في الشيم ... وكلهم يجمعهم بيت الأدم

فأما ابن زرعة فكبره بالحكمة ، وخيلاؤه بالثروة ، قد قدحا في حاق[٤] عقله ، وهو لا يحس بذلك القدح ، فليس لنا منه إذا جالسنا إلا النفخ والتعظيم ، والتهويل بأرسطاطاليس وأفلاطون وسقراط وبقراط وفلان وفلان ، ومجالس الشراب تتجافى عن هؤلاء ، وهؤلاء يجلون عن مجالس الشراب . يا نائم يا غافل يا ساهي ، وأين أنت من هؤلاء الحكماء القدماء ، أسيرتك سيرتهم ، أحالك حالهم ؟ إنما تدعي عقائدهم باللسان ، وتنتحل أسماءهم باللفظ ، فإذا جاءت الحقيقة كنت على الشط تلعب بالرمل ، ولولا أنه يكدر هزل جدنا بجد هزله ، لكان محمولاً مقبولاً ، ولكنه يأبى إلا ما ألفه ، وأفاد المران عليه .

وأما ابن عبيد فكلفه بالخطابة والبلاغة والرسائل والفصاحة قد طرحه في عمق لجّ لا مطمع في انتفاذه منه ، ولا طريق إلى صرفه عنه ، هذا مع حركات غير متناسبة ، وشمائل غير دمثة ، ومناظرة مخلوطة بذلة أهل الذمة ، ودالة أصحاب الحجة .

---

(١) طرائق قدد : فرق مختلفة أهواؤها .

(٢) النفيس من كل شيء ج اعلاق وعلوق .

(٣) سير من جلد أو حديد يجعل في عنق الأسير ومنه قيل للمرأة السيئة الخلق : غل قمل .

(٤) وسط عقله .

وأما ابن الحجاج فقد جمع بين حد القاضي أبي عمر في جلسته وحديثه وقيامه وتخطئته ، مع حياءٍ كأنه مستعار من الغانية الشريفة ، وبين سخف شعره الذي لا يجوز أن يكون لراويه مروءة به فكيف لقائله ، فنحن إذا نظرنا إليه تخيلنا صورة سخف شوهاءَ ، في صورة عقل حسناءَ ، ولا تَـخلُص هذه من هذه ، ولا جرم اجتماعنا به ، قاصر عن مرادنا منه ، ودنوه منا نابٍ عن مراده له . أما الوفاء فهو والله ما يقعد به عن المؤانسة الطيبة ، والمساعدة المطرِبة ، والمفاكهة اللذيذة ، والمواتاة الشهية ، إلا أن لفظه خراساني ، وإشارته ناقصة ، هذا مع ما استفاده بمقامه الطويل ببغداد ، والبغدادي إذا « تخرسن » كان أحلى وأظرف من الخراساني إذا « تبغدد » . وإن شئت فضع الاعتبار على من أردت فإنك تجد هذا القول حقاً ، وهذه الدعوى مسموعة .

وأما مِسكويه فإنه يسترد بدمامة خَلقه ما يتكلفه من تهذيب خُلقه ، وأكره له المشاغبة في كل ما يجري ، لا يجد في نفسه من المكانة والقرار ما يعلم معه أن مضاءه في فن هو فيه طويل الذيل ، مديد السيل ، لا يأذن له في تعاطي فن آخر هو فيه قصير الباع ، بليد الطباع ، وصاحب هذا الرأي ممكور به ، مصاب بجيد رأيه وقد أفسده : قال المهلبي ، قال ابن العميد ، وفعل ابن العميد ، وما ذكره لهذين إلا استطالة على الحاضرين ، والتشيع بذكر الرجال ، واضع من قدر الرجال .

وأما ابن بكر فهو تميمة المجلس ، ولا بد للدار وإن كانت قوراء[1] من مخرج ، وهو بجهله ، مع خفة روحه وقبح وجهه ، أدخل في العين ، وألصق بالقلب من غيره ، مع علمه وثقل روحه ، وحسن ظاهره .

وأما الأهوازي أبو القاسم فلا حلاوة ولا مرارة ، ولا حموضة ولا ملوحة ، وإنما هو كالبصل في القِـدر ، وكالإصبع الزائد في اليد ، على أنا نرعى فيه حقاً قديماً ، ونرحمه الآن رحمة حديثة .

---

(١) القوراء : الواسعة .

وأما سيدي أبو سعد فوالله إني لأجد به وجداً أتهم فيه نفسي ، وما وجدت ألم سهر معه قط ، وإني أرى حديثه آنق من المنى إذا أُدركت ، ومن الدنيا إذا مُلكت . وإنَّ تمازُجنا بالعقل والروح ، والرأي والتدبير ، والنظر والإرادة ، والاختيار والعادة ، ليزيد على حال توأمين تراكضا في رحم ، وتراضعا من ثدي ، ونوغيا في مهد ، وما أخوفني أن يؤتى من جهتي ، أو أُوتى من جهته ، وإن عاقبته موصولة بعاقبتي ، لأني مأمنه وهو مأمني ، وما أكثر ما يؤتى الإنسان من مأمنه ، والله المستعان .

وأما ابن شاهويه فشيخ ليس لنا فيه فائدة إلا ما يلقى إلينا من تجاربه ومشاهداته ، ولولا زيادته التي تصنع بها من نفسه ، وبعض من خطراته ، لكان هَدّك[1] من رجل، ولكن من لك بالمهذب، ألم يقل الأول : أي الرجال المهذب .

قال زيد بن رفاعة : قلت أيها الوزير إن طلوعك في خبايا ضمائرهم ، وعلمك بخفايا سرائرهم ، يطالبانك بالإفراج عنهم ، وقلة الاكتراث بهم ، قال : لا نفعل والله ما لهذه الجماعة بالعراق شكل ولا نظير ، وإنهم لأعيان أهل الفضل ، وسادة ذوي العقل ، وإذا خلا العراق منهم فرقّن[2] على الحكمة المروية ، والأدب المتهادَى ، أتظن أن جميع ندماء المهلبي يفون بواحد من هؤلاء ، أو لا تقدر أن جميع أصحاب ابن العميد يشتهون أقل من فيهم ؟ قال : قلت هذا ابن عباد بالري وهو من يعرف ويسمع . قال : ويحك ! وهل عند ابن عباد إلا أصحاب الجدل الذين يشغبون ويحمقون ويتصايحون ، وهو فيما بينهم يصيح ويقول قال شيخانا أبو علي وأبو هاشم ، دعنا من حديثه وغثاثته وشعبذته ، فما أحب أن أزيد في وصفه على ما أشرت إليه ، والله لو تصدى إنسان متوسط في العلم والأدب والحنكة والإنصاف

---

(١) هدك : حسبك .

(٢) الترقين : تسويد مواضع في الحسابات لئلا يتوهم أنها بيضت كي لا يقع فيها حساب .

لذكر شأنه وسيرته ، ووصف حاله وطريقته ، لحكى كل غريبة ، وأتى بكل أعجوبة : الرجل مجدود ، وفي زمرة أهل الفضل معدود .

قال : رويت هذا الخبر على ما اتفق وكنت أطلب له مكاناً منذ زمان فلم أجد إلا هذه الرسالة الآتية على حديث الصداقة والصديق اهـ » .

عرفنا بهذا الضرب من التدوين طبقة راقية من العلماء في عصر التوحيدي وما يغمزهم به الغامزون ، وأنى يغتابهم المغتابون ، ولو كتب لنا الاطلاع على جميع ما كتبه أبو حيان في كتبه لجاءت السلسلة تامة من كل وجه في الحكم على أهل القرن الرابع في بغداد ، ولتبدل الحكم عليهم وناقضت أحكامه أحكام بعض من نقلوا تراجمهم ، كأنها حكم مُسمّط[1] لا ينقض .

في مقدمة كتابه ثمرات العلوم : « أطال الله بقاءكم ، وأدام كرامتكم ، وحرس نعمه عليكم ، وحفظ مواهبه لديكم ، ولا أخلاكم من عوائده الجسيمة ، وفوائده الكريمة ، وجعل حظ الغريب السلامة بينكم ، إذا فاتته الغنيمة منكم ، وقد كان يقال من لم يغضب لنفسه ناصراً ، لم يغضب لبني جنسه منتصراً ، ومن لم يقف عند العظيمة منتصفاً ، لم يرج عند النوائب مسعفاً ، ومن لم يأنف من القذع في عرضه آبياً ، لم يبت على الخسف إلا راضياً ، والغضب وإن كان مذموماً عند بعض الخلال ، فإنه محمود في بعض الأحوال ، وكما أن استمرار الغضب في جميع الأحوال ، نوع من فساد الأخلاق ، كذلك أيضاً الرضا في جميع الأمور ، ضرب من ضروب النفاق ، ولا بد من التقلب بين الرضا والغضب ، كما أنه لا بد من التردد بين الراحة والتعب .

« وقد كنت أحب لصديقي وجليسي ، ومن يأنس بمكاني ، أن لا يجعل اللّجاج مطيته ، والمَحْل[2] والمكر طويته ، فإن ذلك أحسن له عند الله ،

---

(١) حكمك مسمطاً أي متمماً أي لك حكمك مسمطاً .

(٢) المحل : المكر والكيد .

وأزين له عند الناس ، ومن بعد ذلك فإني لم أرد بلادكم من العراق مباهياً لكم ، ولا حضرت مجالسكم طاعناً فيكـــم ، ولا تأخرت عنكم متطاولاً عليكم ، ولا تتبعت مساويكم شامتاً بكم ، بل وردت مستفيداً ومفيداً ، ومباحثاً ومستزيداً ، فما هذا الذي بلغني عن بعضكم ، على حسن توفري على صغيركم وكبيركم ، أما إنه لو أنصف لعلم أني إلى تسمحه ، أحوج مني إلى تصفحه ، وهو بمجاملته أسعد مني بمجادلته ، وأنا لإحسانه ، أشكر مني لامتحانه ، وهذا باب باطنه ظاهر ، وشاهده حاضر ، وخفيه جلي ، ولكن ما أصنع والشاعر يقول : « إنما للعبد ما رزقا » .

« ولعمري ما زال الناس يعتادون التقاذف والتقارف ، ولكن كانوا يرون التساعف والتناصف ، ولا يتناسون بينهم التعاون والتوازر ، والترادف والتناصر ، والذي هاجني لهذه الشكوى ، وأحوجني إلى هذه العدوى ، قول قائل منكم ، ليس للمنطق مدخل في الفقه ، ولا للفلسفة اتصال بالدين ، ولا للحكمة تأثير في الأحكام ، وهذا كلام من لو أنعم النظر ، واستقصى الحال ، اوقف على ما عليه فيه ، وعرف ماله منه . فكان يستبدل بالخلاف وفاقاً ، وبالمنازعة خلاقاً[1] ، عاب هذا الرجل المنطق وهَجَّن طريقة الأوائـــل ، وزرى على الحكمة ، وفَيَّـل[2] رأي الناظر فيها ، وقبح اختيار الباحث عنها ، وهذا كله إن لم يكن قِلْتُه سوء تحصيل ، فإنه يوشك أن يكون ضيق عَطَن ، وحرج صدر ، ومجازفة في القول ، وانحرافاً عن الصواب ، وأمناً من الاعتقاب الخ ، وربما نيل من عرض صاحبها ، وأنحى باللائمة عليه من أجلها ، وهو قلم لا يقصد إلا الخير ، ولا أراد إلا الرشاد ، وقد يؤتي الإنسان من حيث لا يعلم ، ويرمى من حيث لا يتقي ، كما يؤتى من حيث لا يحتسب ، وينجو

(١) الخلاق : كسحاب النصيب ، الوافر من الخير .
(٢) فيل رأيه : قبحه وخطأه .

وقد أشفى ، ويدرك وقد غلب الناس » .

وعاد في آخر الرسالة يعتذر عن طولها : « قد تكرر اعتذاري من طول هذه الرسالة ، وكان ظني في أولها أنها تكون لطيفة خفيفة ، يسهل انتساخها وقراءتها ، فماجت بشجون الحديث، وروادف من الطيب والخبيث، فاقبل، حاطك الله ، هذا العذر الذي قد بدأته وأعدته ، ونشرته وطويته ، على أنك لو علمت ، في أي وقت ارتفعت هذه الرسالة ، وعلى أي حال تمت لتعجبت ، وما كان يقل في عينك منها يكثر في نفسك ، وما يصغر منها بنقدك يكبر بعقلك » اهـ ...

* * *

وفي الحق أن رسالته في الصداقة والصديق قد حملت من آراء الناس إلى عصره كل ما رق وراق من المنظوم والمنثور في موضوعه ، ولم يقتصر في الرواية على حكماء الإسلاميين ؛ بل تعدى إلى إيراد أقوال فلاسفة يونان. وفي الرسالة من رسائل الكتاب في هذا الباب ، ما هو مفيد على غابر الأحقاب ، وقد ذكر أبا سليمان المنطقي وأبا سعيد السيرافي غير مرة وروى عنهما ما دلّ على إعظامه لهما شأنه في مقابساته . ولا مراء في أن رسالة الصداقة والصديق ، مرآة صادقة تمثلت فيها أفكار أربعة قرون في هذا النوع الصغير من الأدب، ولغة حوت مثل هذه الأفكار وهذه المعاني هي ولا شك أغنى اللغات بأدبها ووفرة مادتها وأداتها . وهذه الرسالة على ما رأيناها كتبهـا بباعث لقوم لم يفهموا مقصده من العلم ، وتأولوا كلامه فجبههم بما كتب وأجاد . وجميع كتبه على ما ظهر مما دعا إلى وضعه دواع حافزة ، وأمور جاش بها صدره ، فهي معمولة بالمناسبات لا متعملة ، ولذلك جاءت عليها هذه الطلاوة التي نحسها ونلمسها .

من جملة كتب أبي حيان كتاب المقابسات ، واسمه صيغة تفاعل من قبسته أو أقبسته علماً وخبراً أي أن كلا أقبس صاحبه علماً ، وصاحبه أقبسه من علمه . ذكر فيه أبو حيان ، وأكثره من محفوظه ، بعض ما وقع

إليه من مفاوضات علماء مشهورين ، كانوا في بغداد يختلفون إلى مجلس صديقه وأُستاذه أبي سليمان المنطقي محمد بن طاهر بن بهرام السجستاني ، وعنه أكثر مروياته ، فيتذاكرون في موضوعات شتى في الفلسفة أو ما وراء الطبيعة والأدب وأكثرها على طريقة السؤال والجواب ، لرجال جمعت بينهم كلمة العلم والحكمة ، وهذبت نفوسهم الآداب العالية ، يتناجون بالأفكار الصحيحة والشاذة ، ولم يفرق بينهم اختلاف نحلهم ومذاهبهم . وكان فيهم المجوسي والصابي واليعقوبي والنسطوري والملحد والمعتزلي والشافعي والشيعي أمثال أبي زكريا يحي بن عدي وأبي الفتح البوشجاني وأبي محمد المقدسي العروضي وأبي بكر القومسي وعيسى بن ثقيف الرومي وابن مقداد وأبي القاسم الأنطاكي ، وكان يعرف بالمجتبي ، وأبي محمد الأندلسي النحوي وأبي إسحق الصابي والخوارزمي الكاتب ووهب بن يعيش الرقي وابن سوار وماني المجوسي وأبي الحسن محمد بن يوسف العامري وعبيد الكاتب والبديهي وأبي إسحق النصيبي وأبي علي عيسى بن زرعة المنطقي ومظهر الكاتب وأبي الخطاب الكاتب وغيرهم « من كل من هو واحد في شأنه وفرد في صناعته » ، وكان مذهبهم في الفلسفة على الأرجح مذهب أرسطاطاليس شأن معظم فلاسفة الإسلام ، أمثال ثابت بن قرة وحنين بن إسحق ويعقوب بن إسحق وأحمد ابن سهل البلخي ومسكويه والقُمي والسرخسي والنيسابوري . يطلقون في جلساتهم الخاصة عنان أفكارهم ، ويخرجون عن القيود الكسبية قاصدين إلى هدف واحد ، وهو معرفة حقائق الأشياء مجردة لا تشوبها المؤثرات شأن علماء العصور الأخيرة . وإذا أحببت تعريف كتاب المقابسات بمصطلح أهل هذا العصر فقل هو محضر جلسات المجمع العلمي البغدادي في القرن الرابع ، وكان لا يحضرها إلا من يدعى إليها ، ويوافق من أكثر الوجوه على ما يلقى فيها .

وهذه المجامع مثال ناطق بأفصح بيان بأن النصرانية لم تكن مضطهدة في العهد العباسي كما زعم بعضهم ، بل إن الإسلام كان دين الدولة ، والبلاد

لأهلها ، فكانت بحكم الطبيعة كلمة المسلمين هي العليا ، وقد ساووا عامة أهل المذاهب بأنفسهم ، مساواة لم تصل إليها أكثر دول الحضارة الحديثة اليوم . وعلى ذكر هذه المجالس لا بأس بأن نقول إن علماء العرب ما برحوا منذ الأعصر المتطاولة يتألفون ويتعاشرون في أندية لهم خاصة ، تجمعهم جامعة الأعمال العقلية ، فيتقاربون وإن اختلفوا في مظاهرهم ، وقد لا يخليهم الزمن من موسع عليه من بينهم ، يفتح صدر مجلسه لهم ، يستطلع طلع أفكارهم ، ويأنس بهم ويأنسون به ، ويعطف عليهم ويعطفون عليه . وقد تكون مجالسهم ذات صبغة لها من أهل الدولة من يحميها ، أو تكون للسمر واللعب واللهو وتعاطي اللذائذ . ومعظم ما تناهى إلينا من أخبارها مفيد .

سئل أبو سليمان المنطقي لِمَ لم يصفُ التوحيد في الشريعة من شوائب الظنون وأمثلة الألفاظ ، كما صفا ذلك في الفلسفة فقال : إنا لا نظن أن كل من كان في زمان الفلاسفة بلغ غاية أفاضلهم . وعرف حقيقة أقوال متقدميهم ، بل كان في القوم من رأى رأي العامة ، وحط إلى ما حطت إليه ، ولم يبن منهم كثير شيء مع قدم الزمان ، ولقاء المحققين الفاضلين ، وهذا إذا حل لا يكون قادحاً فيما نصصناه من القول في حقائق التوحيد الذي ظفر به خلصان الحكمة ، وفرسان الصناعة . على أن الترجمة من لغة يونان إلى العبرانية ، ومن العبرانية إلى السريانية ، ومن السريانية إلى العربية قد أخلت بخواص المعاني في أبدان الحقائق إخلالاً لا يخفى على أحد . ولو كانت معاني يونان تهجس[1] في أنفس العرب ، مع بيانها الرائع ، وتصرفها الواسع ، وافتنانها المعجز ، وسعتها المشهورة ، لكانت الحكمة تصل إلينا صافية بلا شوب[2] ، وكاملة بلا نقص ، ولو كنا نفقه عن الأوائل أغراضهم بلغتهم ، كان ذلك أيضاً ناقعاً للغليل ، وناهجاً للسبيل ، ومبلغاً إلى الحد المطلوب ، ولكن لا بد

(١) هجس الشيء في صدره : خطر بباله .
(٢) الشوب : الخلط .

في كل علم وعمل من بقايا لا يقدر الإنسان عليها ، وخفايا لا يهتدي أحد من البشر إليها ، وذلك للعجز الموروث عن الهيولى ، والضعف الثابت في الطينة الأولى ، وهذا لكي يكون الله تعالى ملاذاً للخلق ، ومعاذاً للعالم .

قال أبو حيان لأبي سليمان : ما الفرق بين طريقة المتكلمين وبين طريقة الفلاسفة ؟ فقال : ما هو ظاهر لكل ذي تمييز وعقل وفهم ، وطريقتهم مؤسسة على مكايلة اللفظ باللفظ ، وموازنة الشيء بالشيء ، إما بشهادة من العقل مدخولة ، وإما بغير شهادة منه البتة ، والاعتماد على الجدل ، وعلى ما يسبق إلى الحس ، أو يحكم به العيان ، أو على ما يسنح به الخاطر المركب من الحس والوهم والتخيل مع الإلف والعادة والمنشإ ، وسائر الأعراض التي يطول إحصاؤها ، ويشق الإتيان عليها ، وكل ذلك يتعلق بالمغالطة والتدافع ، واسكات الخصم بما اتفق ، وإتمام القول الذي لا محصول فيه ، ولا مرجوع له ، مع بوادر لا تليق بالعلم ، ومع سوءِ أدب كثير ، نعم ومع قلة تأله ، وسوء ديانة ، وفساد دخلة ، ورفض الورع بتحمله . والفلسفة أدام الله توفيقك محدود بحدود ستة ، كلها تدلك على أنها بحث عن جميعها في العالم : من ظاهر للعين ، وباطن للعقل ، ومركب بينهما ، ومائل إلى حد طرفيهما ، على ما هو عليه ، واستفادة اعتبار الحق من جملته وتفصيله ، ومسموعه ومرئيه ، وموجوده ومعدومه ، من غير هوى يمال به على العقل ، ولا إلف تغتفر معه جناية التقليد ، مع إحكام العقل الاختياري ، وترتيب العقل الطبيعي ، وتحصيل ما ند وانقلب ، من غير أن يكون أوائل ذلك موجودة حساً وعياناً ، وكانت محققة عقلاً وبياناً ، ومع إخلاق الهيئة واختيارات علوية ، وسياسات عقلية ، ومع أشياء كثيرة يطول ذكرها وتعدادها ، ولا تبلغ أقصى مالها من حقها في شرفها .

ثم قال : وكان شيخنا يحي بن عدي يقول : إني لأعجب كثيراً من قول أصحابنا إذا ضمنا وإياهم مجلس نحن المتكلمون ونحن أرباب الكلام ، و الكلام لنا بنا كثر وانتشر ، وصح وظهر ، كأن سائر الناس لا يتكلمون ، أو ليسوا

أهل كلام ، لعلهم عند المتكلمين خرس وسكوت . أما يتكلم يا قوم الفقيه والنحوي والطبيب والمهندس والمنطقي والمنجم والطبيعي والإلهي والحديثي والصوفي قال : وكان يلهج بهذا وكان يعلم أن القوم قد أحدثوا لأنفسهم أُصولاً وجعلوا ما يدعونه مجمولاً عليها ومسؤولاً عن عرفها ، وإن كانت المغالطات تجري عليهم ، ومن جهتهم ، بقصدهم مرة ، وبغير قصدهم أُخرى .

قال أبو حيان : رويت لأبي سليمان كلاماً لبعض المتصوفة فلم يفكه ولم يهش عنده وقال : لو قلت أنا في هذه الطريقة شيئاً لقلت : الحواس مهالك ، والأوهام مسالك ، والعقول ممالك ، فمن خلص نفسه من المهالك ، قوي على المسالك ، ومن قوي على المسالك ، أشرف على المهالك ، شرفاً يوصله إلى الممالك . قال أبو الخطاب الكاتب : أيها الشيخ هذا والله أحسن من كل ما سمع منهم ، فلو زدتنا منه ، فقال : الحواس مضلة ، والأوهام مزلة ، والعقل مذلة . فمن اهتدى في الأول وثبت في الثاني أدرك في الثالث ، ومن أدرك في الثالث فقد أفلح ، ومن ضل في الأول وزل في الثاني خاف ، ومن خاف في الثالث فهو من الهمج . واستزاده مظهر الكاتب البغدادي فاستعفى قال : هذا حديث قوم أباعد منا على بعض المشاكسة ... إلى أن قال : فسبحان من له القدرة وهذه الخليقة ، وهذه الأسرار في هذه الطريقة اهـ .

على هذا النحو كانوا يمضون في أحاديثهم ، فقد صرح أحدهم بما يراه في التصوف فلم يحط منه ولا من المنصرفين إليه ، وتناول آخر المتكلمين في غير ما تدليس وتأدب معهم ، والمتكلم غير مسلم ، لكن العلم مشاع لأهل كل مذهب ، ولم يحمل كلامه على غير محمله . وقـــال آخر في الفلسفة ، وامتدح من معاني اليونان ، وقال : لو كتبت بالبيان العربي لكانت غيرها ، وهذه هي الحرية المطلقة ، ولولاها ما عاش علم صالح ، ولا انبعث عقل راجح ، ولا كانت حضارة هذه الأمة مما ترتفع به الرؤوس ، ويقال فيها على الدهر لا عطر بعد عروس .

قال في مقدمة كتابه الإشارات الإلهية مخاطباً النفس : اللهم إنا نسألك ما

يسأل ، لا عن ثقة ببياض وجوهنا عندك ، وأفعالنا معك ، وسوالف إحساننا قِبَلك ، ولكن عن ثقة بكرمك الفائض ، وطمعاً في رحمتك الواسعة ، نعم وعن توحيد لا يشوبه إشراك ، ومعرفة لا يخالطها إنكار ، وإن كانت أعمار قاصرة عن غايات حقائق التوحيد والمعرفة ؛ نسألك أن لا ترد علينا هذه الثقة بك ، فتشمت بنا من لم يكن له هذه الوسيلة إليك ، يا حافظ الأسرار ، ويا مسبل الأستار ، ويا واهب الأعمار ، ويا منشيء الأخبار ، ويا مولج الليل في النهار ، ويا مصافي الأخيار ، ويا مداري الأشرار ، ويا منقذ الأبرار ، من النار والعار ، عد علينا بصفحك عن زلاتنا ؛ وانعشنا عند تتابع صرعاتنا ، وحطة حالنا معك في اختلاف سكراتنا وصحواتنا ، وكن لنا وإن لم نكن لأنفسنا ، لأنك أولى بنا ، وإذا خفنا منك فأبرح[1] خوفنا منك برجائنا فيك ، وإذا غلب علينا بأسنا منك فتلقه بالأمل فيك ...

ومن فصوله فيه : أيها المحاور ، والصديق المجاور ، كيف أتكلم ، والفؤاد هائم في كل واد ، والخاطر خال من كل جاد وهاد ، أم كيف أشكو والسر ظاهر باد ، أم بأي شيء أتعلل وكل ما أجده مردد ومعاد ، أم على من أعتمد ، وكل أحد أراه فهو لي ضد ومعاد ؛ أنفاسي محترقة بالحسرات ، ودموعي مترقرقة بين النغمات والزفرات ، وكبدي مشتعلة على المناظر والهيئات ، ويقظتي جارية على الرسوم والعادات ، وأحلامي عارية من كل ما له حاصل وثبات ، ونفسي رهينة بالسيئات ، مفتونة بالحسنات ، بالسوانح والخطرات ، مغبونة عن الحسنات والصالحات ، الجهات دوني منسدة ، والوجوه أمامي مسودة ؛ إن قلت قيل هذا زور وبهتان ، وإن أشرت قيل هذا غرور وعدوان ، وإن سكت قيل هذا سهو ونسيان ، فليت من ابتلاني بما لا طاقة لي به ، رحمني مما لا غنى لي عنه ، أوليت من طردني عن بابه ، أهلني لعتابه ، أوليت من جرعني مرّ فراقه ، أخطر على بالي حلاوة لقائه ،

---

(١) أبرحه : أزاله .

أوليت من غمسني في بحر البلوى ، طرحني إلى ساحل المنى ، أو ليت من حطني عن درجة المخدومين ، رقاني إلى مقامات الخدم ...

وقال من رسالة أيضاً : حرام على قلب استنار بنور الله ، أن يفكر في غير عظمة الله ، حرام على لسان تعود ذكر الله ، أن يذكر غير الله ، حرام على نفس طهرت من أدناس الدنيا لله ، أن تدنس بشيءٍ من مخالفة الله ، حرام على عين نظرت إلى مملكة الله ، أن تحدق إلى غير الله ، حرام على كبد ابتلّت بالثقة بالله ، أن تطمئن إلى غير الله ، حرام على من لم ير الخير إلا من الله ، أن يجد طمعاً في غير الله ، حرام على من شرف بخدمة الله ، أن يتضع بخدمة غير الله ، حرام على من ألف فِناء الله ، أن يعرج إلى غير الله ، حرام على من تلذذ بمناجاة الله ، أن يناجي غير الله ، حرام على من رتع في فقه الله ، أن يعبد غير الله ...

وعجيب أن يُرمى من يقول هذا القول في العزة الإلهية بالزندقة ، ويتهم بالمروق . كأن كل هذا الإحسان لا يكفر سيئة لإنسان ، وكل هذا التقديس والتوحيد ، لا ينجي صاحبه عن الوعد والوعيد ! قال شمس الدين إنه كان سيء الاعتقاد نفاه الوزير المهلبي ، وقال غيره مات في الاستتار ؛ وساق ابن أبي الحديد فصولاً من كلام أبي حيان وعنن[1] لها بقوله : « ومن الدعوات الفصيحة المستحسنة » وهي برهان آخر على توحيده ، وأن نفسه كانت تتجرد من الكثافة . وهذا هو وجه الغرابة في حياة التوحيدي جمع كل صفات العلماء ولم يفته شيء من فضائل النفس والدرس . قال : « اللهم إني أبرأُ من الثقة إلا بك ، ومن الأمل إلا فيك ، ومن التسليم إلا لك ، ومن التفويض إلا إليك ، ومن التوكل إلا عليك ، ومن الطلب إلا منك ، ومن الرضا إلا عنك ، ومن الذل إلا في طاعتك ، ومن الصبر إلا على بلائك ، وأسألك أن تجعل الإخلاص قرين عقيدتي ، والشكر على نعمك شعاري ودثاري ،

---

(١) جعل له عنواناً .

والنظر إلى ملكوتك دأبي وديدني ، والانقياد لك شأني وشغلي ، والخوف منك أمني وإيماني ، واللياذ بذكرك بهجتي وسروري ؛ اللهم تتابع برك ، واتصل خيرك ، وعظم رفدك ، وتناهى إحسانك ، وصدق وعدك ، وبرّ قسمك ، وعمت فواضلك ، وتمت نوافلك ، ولم تبق حاجة إلا وقد قضيتها أو تكفلت بقضائها ، فاختم ذلك كله بالرضا والمغفرة ، إنك أهل ذلك ، والقادر عليه ، والمليّ به » .

ومنها : اللهم إني أسألك جَدّاً مقروناً بالتوفيق ، وعلماً بريئاً من الجهل ، وعملاً عريّاً من الرياء ، وقولاً موشحاً بالصواب ، وحالاً دائرة مع الحق ، وفطنة عقل مضروبة في سلامة صدر ، وراحة جسم راجعة إلى روح بال ، وسكون نفس موصولاً بثبات يقين ، وصحة حجة بعيدة عن مرض شبهة ، حتى تكون غايتي في هذه الدنيا موصولة بالأمثل فالأمثل ، وعاقبتي عندك محمودة بالأفضل فالأفضل ، من حياة طيبة أنت الواعد بها ، ونعيم دائم أنت المبلغ إليه ، اللهم لا تخيب رجاء هو منوط بك ، ولا تصفر[1] كفاً هي ممدودة إليك ، ولا تعذب عيناً فتحتها بنعمتك ، ولا تذل نفساً هي عزيزة بمعرفتك ، ولا تسلب عقلاً هو مستضيء بنور هدايتك ، ولا تخرس لساناً عودته الثناء عليك ، فكما كنت أولاً بالتفضل ، فكن آخراً بالإحسان ، الناصية بيدك ، والوجه عانٍ لك ، والخير متوقع منك ، والمصير على كل حال إليك ، ألبسني في هذه الحياة البائدة ثوب العصمة ، وحلّني في تلك الدار الباقية بزينة الأمن ، وافطم نفسي على طلب العاجلة الزائلة ، وأجْرِني على العادة الفاضلة ، ولا تجعلني ممن سها عن باطن مالك عليه ، بظاهر مالك عنده ، فالشقي من لم تأخذه بيده ، ولم تؤمنه من غده ، والسعيد من آويته إلى كنف نعمتك ، ونقلته حميداً إلى منازل رحمتك ، غير مناقش في الحساب ، ولا سائق له إلى العذاب ، فإنك على ذلك قدير .

* * *

(١) اصفر : افتقر ، والبيت أخلاه كصفره .

وهذه النبذة من مقدمة كتاب البصائر والذخائر : قال إنه أودع كتابه جميع ما في ديوان السماع ورتب ما أحاطت الرواية به ، واشتملت الروية عليه ، منذ عام خمسين وثلثمائة إلى سنة خمس وستين وثلثمائة مع توخي قصار ذاك دون طواله ، وسمينه دون غثه ، ونادره دون فاشيه ، وبديعه دون معتاده ، ورفيعه دون سفسافه . قال : إن القاريء سيشرف منه على رياض الأدب وقرائح العقول ، من لفظ مصون ، وكلام شريف ، ونثر مقبول ، ونظم لطيف ، ومثل سائر ، وبلاغة مختارة ، وخطب محبرة الخ ، وجمعه من كتب أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ وابن الأعرابي والمبرد والصولي وابن عبدوس وقدامة وغيرهم .

من أهم ما حواه كتاب البصائر ، مناظرة أبي بكر الصديق مع علي ومبايعته إياه ، وقد اقتبس العلماء هذه الرسالة ، ومنهم من غمز التوحيدي واتّهمه بأنه هو واضعها ، مثل ابن أبي الحديد في شرح نهج البلاغة ، ومنهم من اكتفى بروايتها مثل محي الدين بن عربي في المسامرات . وبعيد عن العقل أن يضع التوحيدي هذه الرسالة وهي بعيدة عن أسلوب كلامه ، وإن أحب ابن أبي الحديد أن يشبهها به . أما التوحيدي فرواها عن رجل معروف كان يحفظها فقال : سمرنا ليلة عند القاضي أبي حامد أحمد بن بشر المروروذي ببغداد بدار أبي حبشان في شارع المازيان ، فتصرف الحديث بنا كل متصرَّف ، وكان أبو حامد معناً مفناً مخلطاً مزيلاً[1] غزير الرواية ، لطيف الدراية ، له في كل جو متنفس ، وفي كل نار مقتبس ، فجرى حديث السقيفة وشأن الخلافة ، فركب كل منا مركباً ، وقال قولاً ، وعرض بشيء ، ونزع إلى فن ، فقال أبو حامد : هل فيكم من يحفظ رسالة أبي بكر الصديق إلى علي

(١) المعن الذي يتصرف في المعاني ، والمفن الذي يتصرف في كل فن ، والمزيل بكسر الميم الرجل الكيس اللطيف ، يقال هو مخلط مزيل كما يقال هو راتق فاتق ، والمراد به أنه كثير المخالطة للناس والمزايلة لهم .

وجواب عليّ له ومبايعته إياه عقيب تلك المناظرة ، فقالت الجماعة التي بين يديه : لا والله ، فقال : هي من درر الحقاق[1] المصونة ، ومخبآت الصناديق في الخزائن المحوطة ، ومنذ حفظتها ما رويتها إلا للمهلبي أبي محمد في وزارته ، وكتبها عني في خلوة بيده وقال : لا أعرف على وجه الأرض رسالة أعقل منها ولا أبين ، وإنها لتدل على علم وحكم ، وفصاحة وفقاهة ، ودهـــاء ودين ، وبعد غور ، وشدة غوص . فقال له أبو بكر العباداني : أيها القاضي فلو أتممت المنة علينا بروايتها ، وسمعناها ورويناها عنك ، فنحن أوعى لها من المهلبي ، وأوجب ذماماً عليك الخ .

وبعد أن أورد التوحيدي هذه الرسالة العجيبة قال : روى لنا هذا كله أبو حامد ، ثم أخرج لنا أصله فقابلنا به ، فما كان غادر منه إلا ما لا بال له ، فأما ما رواه لنا أبو منصور الكاتب فإنه خالف في أحرف في حواشي الكتاب ، كل حرف بإزاء نظيره الذي هو مبدل منه ، وقد كان أبو منصور بلغة العرب أبصر ، وفي غرائبها أنقد ، وإنما قدمت رواية أبي حامد لأنه بشأن الشريعة أعلم ، ولاعاجيبها أحفظ ، وفيما أشكل منها أفقه . قلنا وبالجملة فالدلائل كلها قائلة بأن الرسالة ليست مع صنع أبي حيان ، وأنها كانت معروفة قبله ، وإذا أبى بعضهم إلا أن يقول إنها موضوعة كلها أو بعضها فيكون ذلك قبل عصر التوحيدي بكثير ، وهو على كل حال لا تخلو من أصل ربما زيد عليه بأيدي من أحبوا أن يقابلوا القوة بمثلها من أهل السنة ، فأرادوا نكاية الشيعة في كثير مما صنعوه ، فزادوا أموراً في هذه الرسالة وقعت بين الصحابة أو تمثلوا وقوعها .

والرسالة من جملة ما يجب على الأديب أن يستظهره ويعيه ، لأنها حوت من أساليب البلاغة كل جميل ، وفيها من الأمثال والحكم وضروب الدهاء والخلابة ما يعجب منه ، ولا تزال عليها مسحة من الحلاوة والطلاوة مهما طال بها العهد .

---

(١) الحقاق : جمع حقة ، وعاء يحبس فيه الطيب والجوهر .

وهاك جملة قليلة من الرسالة قال أبو بكر لأبي عبيدة : امض إلى عليّ واخفض له جناحك ، واغضض عنده صوتك ، واعلم أنه سلالة أبي طالب ، ومكانه ممن فقدنا بالأمس مكانه ، وقل له : البحر مغرقة ، والبر مفرقة ، والجو أكلف ، والليل أغدف ، والسماء جلواء ، والأرض صلعاء ، والصعود متعذر ، والهبوط متعسر ، والحق عطوف رؤوف ، والباطل نسوف عصوف ، والعجب مقدحة الشر ، والضِّغن رائد البوار ، والتعريض شجار الفتنة ، والقحة ثقوب العداوة ، وهذا الشيطان متكيء على شماله ، متحيل بيمينه ، نافج[1] حضنيه لأهله ، ينتظر الشتات والفرقة ، ويدب بين الأمة بالشحناء والعداوة ، عناداً لله ولرسوله ولدينه ، يوسوس بالفجور ، ويدلي بالغرور ، ويمنّي أهل الشرور ، ويوحي إلى أوليائه زخرف القول بالباطل ، دأباً له منذ كان على عهد أبينا آدم ، وعادة له منذ أهانه الله عزّ وجلّ في سالف الدهر ...

ولقد أرشدك من أفاء ضالتك ، وصافاك من أحيا مودته بعتابك ، وأراد لك الخير من آثر البقاء معك ، ما هذا الذي تسوّل لك نفسك ، ويدوي قلبك ، ويلتوي عليه رأيك ، ويتخاوص دونه طرفك ، ويستشري به ضغنك ، ويتّراد معه نفسك ، وتكثّر معه صعداؤك ، ولا يفيض به لسانك ، أعجمة بعد إفصاح ، أتلبيس بعد إيضاح ، أدين غير دين الله ، أخُلق غير خلق القرآن ، أهدي غير هدي النبي صلى الله عليه وسلم ، أمثلي يمشي له الضراء ويدب له الخَمَر ، أم مثلك يغص عليه الفضاء ، أو يكسف في عينه القمر ، ما هذه القعقعة بالشنان[2] ، وما هذه الوعوعة باللسان ...

---

(١) الأرض الصلعاء : التي لا نبات فيها ، والجلواء المصحية ، وأغدف الليل أظلم ، والأكلف الأغبر ، والمفرقة من الفرق وهو الفزع ، والمغرقة يغرق فيه ، والعصوف الريح الشديدة ، والنسوف الطويل الشاق الذي ينسف صاحبه ، ومن المجاز بيني وبينه عقبة نسوف طويلة شاقة ، والشجار ككتاب خشبة توضع خلف الباب ، الضغن العداوة ، والثقوب ما تشعل به النار من دقاق العيدان ونحوها ، والنافج الرافع .

(٢) أفاء أرجع ، وتراد مثل تردد ، والتخاوص غؤور البصر مع الإحداق كأنه يقوم =

والآن قد بلغ الله بك وأرهص الخير لك ، وجعل مرادك بين يديك ، وعن علم أقول ما تسمع ، فارتقب زمانك ، وقلص أردانك ، ودع التجسس والتعسس ، لمن لا يظلع إذا خطا ، ولا يتزحزح عنك إذا عطا ، فالأمر غض ، والنفوس فيها مض ، وإنك أديم هذه الأمة فلا تحلم لجاجا ، وسيفها العضب فلا تنب اعوجاجا ، وماؤها العذب فلا تحل أجاجا ، والله لقد سألت رسول الله عن هذا الأمر فقال لي : يا أبا بكر هو لمن يرغب عنه ، لا لمن يرغب فيه ويجاحش عليه ، ولمن يتضاءل عنه ، لا لمن يشمخ إليه ، ولمن يقال هو لك ، لا لمن يقول هو لي ، والله لقد شاورني رسول الله في الصهر فذكر فتياناً من قريش ، فقلت له : أين أنت من علي ، فقال : إني لأكره لفاطمة ميعة شبابه ، وحدة سنه . فقلت : متى كنفته يدك ورعته عينك ، حفت بهما البركة ، وأسبغت عليهما النعمة ، مع كلام كثير خاطبته به رغبة فيك ، وما كنت عرفت منك في ذلك حوجاء ولا لوجاء ، فقلت ما قلت ، وأنا أرى مكان غيرك ، وأجد رائحة سواك ، وكنت لك إذ ذاك خيراً منك الآن لي ، ولئن كان عرض بك رسول الله فقد كنى عن غيرك ، وإن كان قال فيك فما سكت عن سواك ، وإن يختلج[1] في نفسك شيء فهلم فالحكم مرضي ، والصواب مسموع ، والحق مطاع ...

= سهماً ، ويدوي به قلبك أي يفسد من داء ، والصعداء النفس العالي في الغضب والهم ، والضراء الشجر الملتف في الوادي ، والخمر الشجر الملتف أيضاً ، يقال للرجل إذا ختل بصاحبه هو يدب له الضراء ويمشي له الخمر ، والقعقعة حكاية أصوات السلاح والجلود اليابسة وغيرها ، والشنان جمع بالكسر وهو الجلد اليابس يحرك للبعير ليفزع ، وفي المثل ما يقعقع له بالشنان يضرب لمن لا يخدع ولا يروع .

(١) يقال رهصني في الأمر استعجلني فيه ، ومن المجاز أرهص الله فلاناً جعله الله معدناً للخير . يقال فلان يعتس الآثار أي يقتصها ويعتس الفجور يتبعه . وقلص أرادنك شمر أكمامك ، والمض الألم ، والغض الجديد ، وظلع عرج ، وحلم الأديم والجلد اذا فسد في العمل ووقع فيه دود فتثقب ، وفي المثل كدابغة وقد حلم الأديم ، يضرب لمن يسعى في اصلاح أمر بعد أن أوصله الفساد إلى حيث لا يرجى إصلاحه ، جاحش حامى ودافع يقال جاحش عن خيط رقبته أي نفسه وهو مثل قال الميداني أصله من الجحش الذي هو سجح الجلد ، يقال أصابه شيء فجحش وجهه أي قشره فجحش شقه الأيمن ، ميعة الشباب أوله ، والحوجاء الحاجة ومنه ما كان في نفسه حوجاء ولا لوجاء ولا حويجاء ولا لويجاء أي حاجة ، واختلج تلجلج .

فذلكة في حياة التوحيدي :

أظننا بلغنا حاجة النفس في نقل صورة التوحيدي نقلاً إن لم يكن طابق الأصل فهو قريب منه ، بعد اقتباسنا درراً من كتبه ورسائله ، استنتجنا منها ما انطوت عليه نفسه من الخوالج ، وقلبه من النزوات ؛ وما تقلب فيه من البأساء والضراء ، وكيف لم تقعد به الهمة عن الاختلاف إلى العظماء ، والأخذ عن العلماء ، وعرف مكنونات الصدور . وتمثلنا في كلامه سلامة الفكر والإبداع فيه ، وسلاسة الإنشاء وتجويده . أرأيتم هذا الإيجاد الذي تقف عنده العقول حائرة ، يكتب صاحبه في العلوم المختلفة فلا تخونه لفظة ، وتتناسق الجمل في تركيبها تناسق العقد النفيس ، ويوائم بين ألفاظه ومعانيه أي مواءمة ، ويؤثر في قلب السامع فيستميله بما يمليه من مقوّله على مسمعه ؟ أرأيتم كيف أضت اللغة في يد التوحيدي كالعجين يرسمه الرسم الذي يشاء ، أو كالقرطاس في يد المصور الحاذق ، وعنده جماع الأصباغ يصوره بما تهفو إليه نفسه من صور الأرض والسماء ؟

اللغة في نظر التوحيدي واسطة تعبير وتصوير ، لا أداة لطافة وظرافة ؛ كانت على أسلة قلمه ، غزيرة المائية نضيرة الديباجة ، وكان بيانه الصافي البراق ، يسيل مطواعاً لبنانه ، يتصرف به تصرفاً غريباً ، ويصرفه في ضروب الموضوعات العالية ؛ وكأن اللغة في عصره ، وقد أصبحت لغة حضارة باهرة ، أخذت الزبدة النافعة من الأمم القديمة وزادت عليها تجارب قرنين ، فمرنت ألفاظها على التعبير عن كل معنى ، وصفاً رصفها ونسجها ، فكانت من أجمل صيغ الإفهام والانسجام ، ولطفت مادتها فخرج منها الحوشي بقاعدة بقاء الأنسب ، ودرجت بعد ذلك نقية لا شوب فيها ولا تعقيد ، كأنها خلقت ، منذ عرفت ، لغة فلسفة وطبيعة وإلهيات ، كما كانت لغة شعر وخطب ، منذ أقدم عصور الجاهلية .

عمد التوحيدي إلى استخدام طوائف من الألفاظ تبهرك في رصفها إلى جانب أخواتها ، ويتعذر عليك أن تخلي المكان من لفظة لتضع غيرها محلها ، وقد قال العتابي : الألفاظ أجساد والمعاني أرواح ، وإنما تراها بعيون القلوب ، فإذا قدمت منها مؤخراً ، أو أخرت منها مقدماً ، أفسدت الصورة وغيرت المعنى كما لو حول رأس إلى موضع يد ، أو يد إلى موضع رجل لتحولت الخلقة وتغيرت الحلية ، وهذا ما تراه متجلياً في كلام أبي حيان : « والكلام إذا خرج في غير تكلف وكد وشدة تفكر وتعمل كان سلساً سهلاً ، وكان له ماء ورواء ورقراق ، وعليه فرند لا يكون على غيره مما عسر بروزه واستكره خروجه » .

ذاكر التوحيدي في العلوم المختلفة طبقة عالية من أذكياء العلماء ، وكانوا في العلم جميعاً ، وفي مذاهبهم شتى ، فلم يجمد على نقل كلام أهل فن واحد ، ولا صمت أذنه عن سماع من خالفوه في معتقده ، فكان شأنه شأن عالم في عصرنا فتح بحثاً في مجلة أو كتاب يؤلفه ، وأنشأ يجمع في كناشه وجزازاته أفكار المتضادين ومراميهم في العلم والتفكر ، وهذا ما كان على حصة موفورة في كتب التوحيدي على ما رأينا ، لخص لمعاصريه آراء المتقدمين ، وخلف لمن بعده مُصَوَّراً صحيحاً من آراء من عاشرهم وعاصرهم وتقدمهم في الميلاد ، فأدركنا بما أسمعناه بعض حقيقة عصره في أساليب التفكير ومبلغه من الحكمة .

ويحمد قصد التوحيدي في نقل كل مجلس كما وقع ، وإن كان بعضهم لم يرقه التعرض لتدوين ما يخالف معتقدهم ، أما هو فما كان له أن ينقل كل كلام يرتضيه كل إنسان ، لأنه لا يحيط بأهواء جميع الناس ، وتعدد الأهواء كتعدد الأناسي ، وهو مخالف في طريقته طريقة كثير من المؤلفين ، فكيف ينطق بلسان من لا يعتقده على صواب فيما يذهب إليه ، وإذا رأى بعض المتحذلقين (١) في كلامه بعض العهدة ، فيجابون وأي كلام خلا مما يُتعلّق عليه بشيء . إن

(١) حذلق أظهر الحذق أو ادعى أكثر مما عنده كتحذلق .

التوحيدي لقي شيوخ العلم والحكمة فحمل عنهم ، وجوّد وصفهم وأجمل طرازهم ، وكلما نقل شيئاً لا يوافق نحلةً ومذهباً ، قال خصوم فكره إنـــه يصطنع نقله ، ويزوّر على رواته فيزوّرون[1] له . كان التوحيدي راوية المجالس العالية ، والرواية كما قيل العلم المستطيل ، ومخالفوه يسوؤهم هذا وينوؤهم ، حتى سرت أحكامهم الجائرة عليه إلى من عُرفوا باعتدالهم من المؤرخين فأقروها ، وتابعوا على العمياء قائليها . خالف التوحيدي في طريقته العلمية مألوف كثير من العلماء ، فبينه وبينهم بعد باعد ، وليس من الإنصاف أن نأخذ عليه خروجه عن مألوفهم .

الحق أبلج لا يُخيل سبيله والحق يعرفه ذووا الأحـــلام

لا جرم أن التوحيدي حار في أمره مع من وسموا بالعلم في زمنه ، وهم محافظون متشددون في تقاليدهم ومصطلحاتهم ، لا يبالون أن يرموا كل من أبدع طريقة ، وكشف عن حقيقة ، بالتفسيق والتبديع والتكفير ، ومن أسهل الأعمال عليهم أن يتقربوا من ذوي السلطان بضرب عنق من لا يدركون مغازيه ومعانيه ممن بذهم وأربى عليهم . ويا لبؤس عالم لم يتخذ له بداً عند صاحب صولة في مثل ذاك المجتمع ، فإن مجرد إتهام بعض المعتقدين له بانحلال العقيدة ، كاف في بتر حبل حياته ، ولا من يرحمه أو يتشفع به . أراد المأمون « رضي الله عنه وأرضاه » أول المئة الثالثة أن يُخرج الأمة من ربقة التقليد الأعمى إلى ساحة العقل السليم ، فرأى أن يسيطر على الدين واللغة والآداب والعلوم ، بتسامح وتعقل ، ولكن معظم ما بناه تهدم بأُفول نجمه ويا للأسف ، فلم ينشأْ بعد للأمة خليفة في وزنه وعياره ، يحمي العقل ودعاته ، ويفسح للباحثين مجال النقد والنظر .

ومن أعظم المصائب أن أقدار البلاد معلقة أبداً على الرأس الذي يدبر

---

(١) تزاور عنه عدل وانحرف كازور ، وزور زين الكذب والشيء حسنه وقومه .

أمرها خليفة كان أو سلطاناً أو أميراً ، متى زال تزول معه أوضاعه وتراتيبه أو أكثرها ، وقلّ أن بنى الخلف على أساس السلف ، أو سار المتأخر على قدم المتقدم ، خصوصاً في المسائل الذهنية ، والمطالب الاجتماعية والمدنية ، ولذلك كانت حضارتنا في كل عصر وقطر كالأرض البقعة نباتها متقطع ، أو كالواحات المتفرقة في المهمة القفر ، يختلف شكلها باختلاف البقعة التي نشأت فيها ، وتلبس ثوباً فُصل على عقل صاحب السلطان الأكبر ، وكثرة بلائه وغنائه . وقلما عهد أن سار الابن بسير أبيه وجده إلا على عهد أوائل العباسيين ، وفي بعض دور الأمويين في الشرق ، والأمويين في الأندلس ، وما عدا ذلك فأفراد من أصحاب السلطان زانوا عصورهم بهممهم فأحالوا القفار جناناً ، وجعلوا من العلم لسلطانهم سلطاناً ، حتى إذا مضوا لسبيلهم عادت الأمة سيرتها الأولى ، تثبت أن الامية أعلق بشغاف قلبها ، لا سيما وأكثر الزعماء يعتقدون أن الراحة في ترك العقول جامدة خامدة ، حتى لا يرتفع عقل عن عقل ، ولا يمتاز فاضل بعموم الفضل .

فالرجل الذي لم يأبه لما اعترضه من العقبات ، ومزّق حجب الوهم وحكّم سلطان العقل ، واستعرض ما جادت به قرائح أعاظم الملة في القرون الثلاثة قبله ، وكتَبَ العلوم الحكمية بهذا البيان الرائق ، تسيغه وتستطيبه على كدورة في شرعته أحياناً — الرجل الذي كان كذلك حاله يعد النابغة المجتهد حقاً وصدقاً ، ويعد جديداً مجدداً في فكره وبيانه .

كتب التوحيدي فأكثر الكتابة ، ومع هذا فإنشاؤه طبقة واحدة لم يتعمل فيما يكتب ، ولا عُني بالتنميق والتحبير ، والصقل والتطرية . وكان هدفه إبلاغ العقول ، ما يجول في الخواطر ، من أقصر الطرق ، وأسهل المسالك تارة ، ومن أطولها تارة أُخرى . اختص بوصف آراء المفكرين والنظار ، على وجه لم يؤثر عن غيره ، حاشا الجاحظ واضع هذه الطريقة ، فكأنه تلقى باليمين ذاك الأسلوب الذي كاد يموت بموت الجاحظ ، وأتمه بما حدث

بعد أبي عثمان من فنون القول ، وضروب المعارف . ولو كان روح التوحيدي غير معذَّب بالإخفاق والإملاق ، كروح الجاحظ الشفاف البراق ، وسلم مما يكدر صفوه وصفاءه ، واطمأن بما تطمئن به روح من تهنأ العيش ، لجاء التوحيدي كالجاحظ إلا قليلاً .

بيد أن اضطراب عصره ، كان منه اضطراب فكره ، وغفلة العظماء عن تعهده وحمايته ، أدَّت إلى اشتغال قلبه برزقه وجرايته ، فكان في ذل الفقر ، وخوف القهر ، طول العمر . وإذا قيل إن الجاحظ كان على دهاءٍ لا ينكر محله ، فاتقى بجربزته لذعات حساده ، ومؤلمات مناظريه ، وأن التوحيدي لم يعرف سياسة العلم ، ولم يستكمل تعاطي الأسباب إلى الرزق ، وإحراز خِصَل السبق ، فلا تنس أن الجاحظ كان الخلفاءُ يَرعونه ويُحبُونه ، والوزراءُ يخادنونه ويَحْبُونه ، والناس يعجبون به ويمجدونه . والتوحيدي ، للجهل الطارىء على الخلفاء والأمراء في عهده ، يضطرب في حياته اضطراب الأرشية في الطوى البعيد ، كما التفت يَمنة جاءت الصدمة يَسرة ، وكلما قال يسراً ، قالت الأيام عسراً ، عاش في شظف من العيش ، وعجف من المال ، وكلب من الزمان ؛ فكان الموتور المفلوك ، الموجع القلب ، المعذب الفؤاد . والمرء مهما أُوتي من عقل سليم وأخلاق فاضلة ، لا يخرج عن كونه محصولَ مسكنه وهوائه ومدرسته وأساتيذه وأقرانه ، وعنوان ما تأثر به روحه منذ وعى على نفسه ، وهو زبدة ما أخذه بالفطرة من دم أبويه ، واكتنهه من اتصاله بأجداد قدماء قد لا يعرف أخبارهم ، على حين أورثوه من حيث لا يشعر أخلاقهم وأطوارهم .

ابـــن العـــميد

عصره :

يُعدّ القرن الرابع عصر الكمال العلمي والأدبي في الإسلام : استقرت فيه القواعد ، وتعينت المعالم والمناهج ، ودُوّن ما تيسر تدوينه في اللغـة والأدب والشريعة ، ونُقل ما اهتمت له العرب من علوم الأوائل ، وخف الصراع بين حملة الدين ، ورجال الحكمة والعقل ، ونشأت الفرق الباطنية ، وكلها تريد إقامة مُلك ، واتخذ دعاتها من آل البيت تكأة وصبغوا نِحلهم بصبغة دينية .

وكان الأدب في مقدمة الفنون التي بلغت في هذا العصر إناها ، بنبوغ أعظم شعراء الحضارة العربية ، تقدمهم رعيل جميل في القرنين السابقين . أدخلوا على الشعر معاني جديدة ، وما غيروا موازينه وأوضاعه . وأنشأ الكتّاب يتفننون في الإنشاء المصنّع ، فضيقوا المنافذ في أداء المعاني ، وغلوا في التطويل والتهويل ، فأصبح النثر بالإكثار من السجع بمعنى وبلا معنى أشبه بشعر لا أوزان له .

وسكن ثائر الشعوبيين أعداء العرب ، وكان دأبهم إلقاء بذور التفرقة بين الشعوب التي وحّد الإسلام بينها ، وألغى من بينها نظام الإقطاعات ، وساوى بين الكبير والصغير في الحقوق والواجبات . واغتبط الشعوبيون من الفرس بقيام دولتين شيعيتين في العالم : دولة بني بُوَيْه الديلم في الشرق ،

استولت على فارس والعراق ، وجعلت الخليفة العباسي شبحاً بلا روح ؛ ودولة بني عُبَيْد الفاطميين في إفريقية . وعمل القرامطة أفاعيلهم في العراق والشام والحجاز وما انتظمت لهم دولة ، وقرض محمود بن سبكتكين الدولة السامانية الشيعية من خراسان وما وراء النهر ، وفتح القسم الشمالي من بلاد الهند وأضافه إلى مملكته ، وخدم الآداب والعلوم ، وضرب المعتّزلة ضربة قاضية في بلاده .

كان الفرس أهم العناصر الإسلامية التي عُنيت بنشر العربية منذ رفرف علَم الإسلام على بلادهم ، وقد أحرزوا في العلم والسياسة أفضل منزلة ، لما خصوا به من الاستعداد لقبول الحضارة ، أعانهم على ذلك إلفهم الحكم والنظام ، وتفانيهم في طاعة العظماء والملوك . وكانوا في القرون الأولى من خير الشعوب التي قامت بحق الإسلام .

وبينا كان خاصة فارس يتوفرون على خـــدمة الإسلام والعربية ، لا يتخذون عن لغة الدين والدولة والعلم بديلاً ، كان أناس من عشاق القومية الفارسية يسرون حسواً في ارتغاء[١] ، ويلوبون على من يقيم لهم دولة ، ذات وزن وصولة . وقد آلمهم تراجع لغتهم أمام العربية ، ومنازعة العربية الفارسيةَ في عقر[٢] دارها ، حتى أصبحت لسان المدن ؛ ووجدت الفارسية معتصماً لها في الأرياف والجبال بين الأكارين والسوقة . والفارسية هذه كان يتكلم بها جميع أهل فارس ، وكانت الفهلوية لسان قدماء الفرس ، كتبوا بها تاريخهم وآثارهم . وبالعربية تكتب مكاتبات السلطان والدواوين وعامة الناس . ولما اجتاز أبو الطيب المتنبي بشعب بوّان وأرّجان والنوبندجان انقبض صدره لقلة من يتفاهم وإياهم فوصف الحال بقوله :

---

(١) هذا مثل يضرب لمن يظهر أمراً ويريد غيره .

(٢) العقر بضم العين وسط الدار وأصلها ويفتح .

مغاني الشعب طيبا في المغاني بمنزلة الربيع من الزمان
ولكن الفتى العربي فيها غريبُ الوجه واليد واللسان
ملاعب جِنّة لو سار فيها سليمان لسار بترجمان

كان يرمض دعاة القومية الفارسية ، أو مَن يريدون تحريك عرقها الحساس ، أن يشهدوا العربيّة تُعرّب كل يوم جماعة من أبناء فارس ، فلم يروا لوضع حدّ أمام ذاك التيار الجارف إلا إثارة النُّعَرة الدينية ، تدعمها دعوى الغيرة على ضياع حقوق العترة العلوية ، ليخرجوا من ذلك بتأسيس دولة ، وينزعوا الحكم من العرب آخر الدهر .

كان يُرمضهم أن يروا نيسابور وشيراز والري ومرو وأصفهان وهمدان تتنافس في بث العلوم والآداب ، وأن يؤلف المؤلفون ، ويعظ الواعظون ، ويدرس المدرسون من أبناء فارس باللغة العربية ، وأن يمسي أدب آبائهم عبارة عن شعر ما رُزق من يصفق له ، وأن تغتني العربية بالعلوم الكثيرة . فحاولوا إشرابَ نفوس قومهم حب آدابها القديمة ، ولم يكن الشعر الفارسي بهذه اللهجة المعروفة مما يعهد قبل القرن الثالث ؛ وقد نشأ مع شاعرهم الروذكي السمرقندي (٣٢٩) « الذي كان مقدماً في الشعر بالفارسية في زمانه على أقرانه » .

وعلى قدر رسوخ الحضارة العربية ببلاد الأعاجم في ذاك العصر ، وعلى مقدار تراجع السياسة العباسية ، كان العلم العربي يزيد انتشاراً ورسوخاً ، وتتعدد مواطنه ، وتقوم أسواقه ، وما كانت مراكز الآداب في القرن الرابع في قرطبة والقيروان والفسطاط وحلب وغزنة والري وسمرقند تقل كثيراً عن مكانة بغداد ، ومن قبل البصرة والكوفة في هذا المعنى . كان الناس يحملون إلى بغداد علمهم وأدبهم أيام عظماء خلفائها ، فخلف من بعدهم خلف من الضعفاء غدت بهم بغداد تنقل أدبها إلى العواصم المستحدثة . ولما قامت دولة بني بويه واتخذت من الريّ قصبة بلاد الجبال عاصمة لها ، أصبحت بعد حين

دار علم ، ومثابة أدب ، على مثل ما كانت عاصمة الأمويين في الأندلس ، وعاصمة بني الأغلب في إفريقية ، وعاصمة الطولونيين في مصر ، وعاصمة الغزنويين في خراسان .

وكانت الريّ وما إليها من أرض فارس في هذا العصر مجموعة من المذاهب الإسلامية فيها الشيعة الإمامية والغالية ، والأحناف والشوافع والمعتزلة والخوارج وغيرهم . وظلّ أهل الريّ على مذهب أهل السنة والجماعة حتى تغلب عليهم متغلب من الشيعة ، وأظهر التشيع وأكرم أهله ، فتقرب الناس إليه بتصنيف الكتب ، فأصبحت جمهرة أهل الري شيعة غالية ، وكان ذلك في أواخر الربع الثالث من القرن الثالث . ومن أهل هذا المذهب كان بنو بويه أصحاب الدولة . وكان أهل قُمّ بلد ابن العميد شيعة إمامية غالية ، ومعظم العلماء في أرض فارس من أهل السنة ، والملوك يخطبون ودّ أرباب المعرفة من جميع الطبقات والمذاهب .

أوليته وسيرته :

في هذه البيئة نشأ أبو الفضل محمد بن الحسين الملقب بابن العميد ، من بيت فضل وصدارة . وكان أبوه أبو عبد الله الحسين بن محمد المعروف بكلة كاتباً مذكوراً في خراسان ، وله باع في السياسة « تقلد ديوان الرسائل للملك نوح بن نصر ، ولقب الشيخ كالعادة فيمن يلي ذلك الديوان » ، « والعميد لقب والده ولقب بذلك ، على عادة أهل خراسان في إجرائه مجرى التعظيم » .

والغالب أن ابن العميد وُلد في آخر سنة من القرن الثالث ، لأنه عُمّر ستين سنة ، ومات سنة ستين بعد الثلاثمائة ، « وكان يعتاده القولنج تارة ، والنقرس أخرى ، تُسلمه هذه إلى هذه » ، وقيل إنه أخذ العلم في بغداد ورحل إليها مرة أو مرتين وهو وزير ، ولذلك كان يحبها ويعجب برجالها وحضارتها ، « ولم يزل أبو الفضل في حياة أبيه وبعد وفاته بالريّ وكُوَر

الجبل وفارس يتدرج إلى المعالي ، ويزداد على الأيام فضلاً وبراعة ، حتى بلغ ما بلغ ، واستقر في الذروة العليا من وزارة ركن الدولة ورياسة الجبل » ، وذلك سنة ثمان وعشرين وثلثمائة . ولما تقلدها ، وكان دون للثلاثين ، أتته السعادة في صباه ، وتمت أدوات علمه وأدبه ، وهو يتولى أعمال الدولة ، وطالت أيام وزارته حتى أربت سنوها على زمن صباه ودراسته ، ودعي ابن العميد بالأستاذ الرئيس لجمعه بين الإمارة والأدب ، وذهب له هذا اللقب عن جدارة ، ولقب أيضاً بلسان المشرق .

أجمع من ترجموا لابن العميد أنه فارسي من أهل قُم ، ولا يفهم من كونه فارسياً أنه من صميم الفرس ، فقد يسكن العربي قم وقزوين وشيراز ونيسابور والري وهو عربي بأُصوله فينسب إلى البلد الذي نزله أو ولد فيه . وما هو فارسي بالمعنى الذي نفهم به اليوم معنى هذه النسبة[1] ، ولا يبعد أن يكون ابن العميد أو أجداده عرباً أقحاحاً ، نشؤوا في تلك الأرض فنسبوا إليها ، وقد حدثنا التاريخ بأن مئات من علماء المسلمين وأبناء الأنصار والمهاجرين هاجروا إلى البلاد التي فتحت على أيدي العرب في الشرق والغرب فنسبوا إلى أوطانهم لا إلى آبائهم كما كانوا من قبل فضاعت بذلك أصولهم .

---

(١) تعلم أصول من اشتهروا في فارس من العلماء بالقاء نظرة على كتب الأنساب والوفيات وتراجم المحدثين وغيرهم . فقد نسبوا صاحب الأغاني إلى أصفهان وهو أموي عربي ، ونسبوا صاحب القاموس إلى فيروزاباد وهو بكري عربي ، ونسبوا القزويني صاحب آثار البلاد إلى قزوين وهو عربي من سلالة مالك بن أنس ، ونسبوا ابن حبان البستي صاحب التآليف العظيمة ومن طبقة البخاري إلى بست وهو تميمي ، ونسبوا أبو حيان التوحيدي إلى شيراز وهو من صميم العرب ، وكان أبو داود السجستاني صاحب السنن من الأزد ، وأبو العباس النسوي مصنف المسند من بني شيبان ، وأبو الحسن مسلم بن الحجاج النيسابوري صاحب المسند من بني قشير ، والهروي المفسر من ولد أبي أيوب الأنصاري ، وأبو الوليد النيسابوري فقيه خراسان أموي من ذرية سعيد بن العاص الأكبر ، والفخر الرازي المفسر عربي ، وقال ابن قتيبة إن خارجة بن مصعب هو من بني شجنة من صبيعة ، وكان من أفقه أهل خراسان وأرضاهم عندهم وعقبه بخراسان ، وكان أبوه مصعب بن خارجة مع علي بن أبي طالب .

وليس من المستحيل أن يكون غرام ابن العميد بالعرب والعربية موروثاً وتأصل فيه بالدرس ، وكم من غريب عن هذا اللسان خدمه خدمة أبنائه الأصليين . وقد قال أبو الريحان البيروني ، وهو من خُوَارَزْم ومن أعظم علماء الاسلام : « الهجو بالعربية أحب إليّ من المدح بالفارسية ، وسيعرف مصداق قولي من تأمل كتاب علم نقل إلى الفارسي كيف ذهب رونقه ، وكسف باله ، واسود وجهه ، وزال الانتفاع به ، إذ لا تصلح هذه اللغة إلا للأخبار الكسروية والأسمار الليلية » .

لم نعرف من أساتذة ابن العميد غير محمد بن علي بن سعيد[1] المعروف بسمكة أو بابن سمكة القمي ، وكان يعلم علم الأوائل وهو « صاحب الأدب والحكمة والنجوم والترسل والإملاء » ، ولعله كان يذهب مذهب الاعتزال فلقن تلميذه مذهبه فأصبح مثله على مذهب أهل العدل والتوحيد ، في إقليم يغلب التشيع على السواد الأعظم من أهله ، وما منع ذلك ابن العميد أن يخدم ركن الدولة بن بويه ، وكان شيعياً غالياً ، ولا أن يتخرج به عضد الدولة بن بويه في إدارة الملك والدولة .

غلبت الحكمة على ابن العميد ، وتخللت شغاف قلبه ، وكان أدبه غير أدب عصرييه ، كان أدباً ممزوجاً بعلوم عقلية ، فيه شفوف نادر ، وطبيعة مؤاتية ، ونفس حساسة ، تزن كل شيء بميزان النقد ، حتى الألفاظ والقوافي والأوزان والأسجاع وحتى الكلام العادي . ونشأ ابن العميد نشأة أدبية

---

(١) هكذا ورد اسمه في فهرست ابن النديم وفي رجال النجاشي : أنه أحمد بن اسماعيل بن عبد الله ابو علي بجلي عربي من أهل قم يلقب سمكة ، كان من أهل الفضل والأدب ويقال ان عليه قرأ أبو الفضل محمد بن الحسين بن العميد وله عدة كتب لم يصنف مثلها ، وكان إسماعيل بن عبد الله من غلمان أحمد بن عبد الله البرقي وممن تأدب عليه ، ومن كتبه كتاب العباسي وهو كتاب عظيم نحو عشرة آلاف ورقة في أخبار الخلفاء والدولة العباسية رأيت منه أخبار الأمين وهو كتاب حسن ، وله كتاب الأمثال كتاب حسن مستوفي ، ورسالة إلى أبي الفضل بن العميد ورسالة في معان أخر الخ .

وسياسية ، عرف البلاد وأمزجة أهلها ، وعرف ما يصلحهم ويرضيهم ويرعاهم . ذكر مسكويه أنه سمعه في كثير من خلواته يشرح لابنه أبي الفتح « صورة الديلم في الحسد والجشع ، وأنه ما ملكهم أحد قط إلا بترك الزينة ، وبذل ما لا يبطرهم ولا يخرجهم إلى التحاسد ولا يتكبر عليهم ، ولا يكون إلا في مرتبة أوسطهم حالاً ، وأن من قد دعاهم واحتشد لهم ، وحمل على حالة فوق طاقته ، لم يمنعهم ذلك من حسده على نعمته ، والسعي على إزالتها ، وترقب أوقات الغرة ، في آمن ما يكون الإنسان على نفسه منهم ، فيفتكون به ذلك الوقت » .

قال : « وكان لوفور عقله يداري أمره مع صاحبه ومع عسكره ، ثم يسوس رعيته والممالك التي يراعيها ، ويدبر الجميع تدبيراً ملائماً لوقته ، موافقاً لزمانه ، فلا يظهر من الزينة وأبهة الوزارة ، إلا بمقدار ما يقيم به مرتبته ، ولا يجاوز ذلك إلى ما يحسد عليه وينافس ، ثم يتواضع تواضعاً لا يخرج به إلى غضاضة تلحقه في جاهه ، أو تحطه عن المنزلة العالية التي يرقى إليها ، وكانت سلامته طول مدته على أصناف الناس وطبقاتهم وقيام هيبته وتمام سياسته متصلة تزيد على الأيام ثناءً وثباتاً » .

ومن سياسة ابن العميد وهو الصدر المقدم في الآداب والسياسة أنه كان يصون مجلسه عن الخوض في مسائل الخلاف في الدين ، وقد يقاطع من يحاول المناقشة فيه ، وهو جدُّ عارف بأهل الأثر وأهل الري من فقهاء الأمصار ، بصير بالمحكم والمتشابه من آي القرآن ، إلى معارف جمة في النحو والتصريف واللغة وأشعار العرب ، يدرك ما يجر الخلاف من تبعات على دولة اختلفت مذاهب سكانها وأجناسهم ، وتباينت أهواؤهم ودرجات ثقافتهم ، خصوصاً ومذهبه غير مذهب سلطانه ، وهو فوق ذلك متشبع بالحكمة حتى ليتهمه بعضهم في دينه ، شأن الناس منذ العهد القديم مع من يشتغل بهذا العلم البغيض إلى الفقهاء وأتباعهم . والناس في كل زمن أسرع إلى تكفير أهل التفكير من الماء إلى المنحدرات .

كان خلطاء ابن العميد ومنادموه من مذاهب مختلفة . فيهم مسكوية قيّم خزانته وهو فيلسوف مؤرخ ، وفيهم أستاذه ابن سمكة وأبو محمد هندو وكلاهما فيلسوف إلهي ، وفيهم أبو الحسين بن فارس أديب ، وابن خلاد القاضي أديب وفقيه ، وأبو الحسن العلوي ، وأبو العلاء السروي شاعر وكاتب . وكان يحاضرهم ويجالسهم ويهاديهم ويكاتبهم إذا غابوا ويجاوبهم نظماً ونثراً ؛ حتى لقد قيل إن أحسن ما كتب ابن العميد رسائله في الإخوانيات . وكان لا ينظر في التراسل مع إخوانه إلى ما بينه وبينهم من التفاوت في المصطلح عليه من درجات المجتمع ، أي أنه وزيز وهم رعية ، يسحب ذيله على ما يكون منهم ؛ وما عُدّت عليه هفوة مع صديق ، وما كان ممن يخرج على حقوق الصداقة ، وفي نظره أن لا اعتبار في الصداقات لاختلاف الدرجات ، والمشاكلة في الفكر والعواطف أثمن صداقة . قالوا وكان يفتخر بالحسن بن إسحق بن محارب القمي ويقول : لو لم يخرج من بلدنا سواه لكان كافياً .

كانت معاني الحب متأصلة في ابن العميد ، وروحه تحب ، وإذا أحبت تخلص في حبها ، وربما برّح به ، ثم إن نفسه عظيمة لا تكره ولا تبغض ، والكراهة والبغض على الأكثر أثر من آثار الضّعة ، ولؤم الطباع ، والتواء المقاصد ، وكل أولئك كان الأستاذ الرئيس غنياً عنه ، لأنه يعطي ولا يتوقع من غيره العطاء ، ويمنع ولا يخشى الناس أن يمنعوه ، وليس له بعد هذا إلا أن يتحبب إلى الناس ، ولا سيما أهل الذكر والفكر .

أَلِف ابن العميد ، على ما بلغه من رتب المجد في دنياه ، المذاكرة في فنون العلم على سنة علماء السلف وأدبائهم ، واعتاد أن يفضل على خاصته وقاصديه ، خصوصاً إذا لم يَدِلّوا عليه بأدبهم في مجلسه . كان يكره من يريد أن يُنفق عليه بأوه[1] ودعواه ، وكثيراً ما يستهدف لغضب أهل هذه

---

(١) البأو : الفخر بالنفس .

الطبقة ، فيقدمون على هجوه ، وينصرفون عنه لاعنين طاعنين ، كما وقع لابن نباتة السعدي ولأبي حيان التوحيدي ، فإنهما تَجَهَّما له ، لأنهما لم ينالا ما كانا يؤملان منه ، فجسرا هلى هجوه ، وألّف التوحيدي كتاباً سماه مثالب الوزيرين ، أي ابن العميد وصديقه الصاحب بن عَبَّاد .

جعل ابن العميد لكل شيء نظاماً في وزارته ، يعمل للمصلحة العامة ما استلزمت من الأوقات ، فإذا فرغ انصرف إلى العلم والأدب ، فهو على هذا يحمل شخصيتين ؛ شخصية سياسية إدارية ، وأخرى أدبية فلسفية ، وكثيراً ما تكون مجالسه مجالس العالم لا مجالس السياسي ، يقرأ عليه من يقصده من العلماء والأدباء ما يحبون التوسع فيه من صنوف الآداب ، على نحو ما جرى له مع أبي الحسن العامري الفيلسوف النيسابوري ، قيل إنه شرح له كتب أرسطو و « برك بين يديه ، واستأنف القراءة عليه ، وكان يعد نفسه في منزلة من يصلح أن يُتعلم منه ، فقرأ عليه عدة كتب مستغلقة ففتحها عليه ، ودرسه إياها » . وهو بالطبع يستفيد من القراءة والإقراء . « وضبط أعماله ونظم أموره ، ورتب أسباب خدمته ، حتى كان أكثر نهاره مشغولاً بالعلم وأهله » مما كان سبباً أعظم في عظمته وشهرته . ورب وزير كان قبل الوزارة شيئاً مذكوراً في العلم فأصبح لا شيء بعدها ، لاستغراق أوقاته كلها بمصالح الناس ، ورد عادية الأحزاب والأعداء عنه وعن سلطانه . أما ابن العميد فكان قبل وزارته معروفاً بالفضل ، وفي الوزارة أخذ بحظ وافر من حسن السمعة .

واعتذر مسكويه عن قصور صاحبه في عمار الملك ، وبسط العدل في ربوعه — وكان مسكويه على ما يظهر مأخوذاً بحبه عاش في نعمته أيام صباه سبع سنين — قال : « فأما اضطلاعه بتدبير الممالك ، وعمارة البلاد ، واستغزار الأموال ، فقد دلت عليه رسائله ، ولا سيما رسالته إلى أبي محمد بن هندو التي يخبر فيها باضطراب أمر فارس ، وسوء سياسة من تقدمه لها ، وما يجب أن يتلافى به ، حتى تعود إلى أحسن أحوالها ، فإن هذه الرسالة يتعلم منها

صناعة الوزراء ، وكيف تُتلافى الممالك بعد تناهي فسادها . وما منعه من بسط العدل في ممالكه ، وعمارة ما يدبره منها إلا أن صاحبه ركن الدولة ، مع فضله على أقرانه من الديلم ، كان على طريقة الجند المتغلبين ، يتغنّم ما يتعجل له ، ولا يرى النظر في عواقب أمره ، وعواقب أمور رعيته ، وكان يفسح لجنده وعسكره على طريق مداراتهم ما لا يمكن أحداً تلافيه وردهم عنـــه » .

أتى مسكويه بوصف مخدومه في معرض المدح ، والمعقول أن من يقتدر على إزالة الأذى ويسكت عن رفعه مؤاخذ في الشرائع . رأى ابن العميد السير على طريقة لينة ، فيها التغاضي والتعامي ، حتى لا يغضب الجند ولا يغضب سيده الملك ، ولا يناله مكروه بسببهم ، ولو أحس بتخريبهم البلاد وظلمهم أهلها ، فترك العائثين والعابثين وشأنهم ، يمني نفسه أن يأتيه الوقت الملائم فيحكم فيهم حكمه ، وينقذ بلاده من أوصابها وأوبئتها الاجتماعية والإدارية ، وسياسته هذه لا تنجو من اللوم في نظر أرباب الحزم من مدبري الممالك .

أدبه وعلمه :

عرفنا بما تقدم نوع الدراسة التي تعلقت بها همة ابن العميد ، ووقفنا على صورة من نفسيته ، والآن نعمد إلى تحليل هذا الضرب من الأدب الذي عرفه الناس به ، وبه خلد ذكره في العالمين ؛ قالوا إنه واضع طريقة الشعر المنثور ، وإنه كان يلتزم السجع تارة ويطرحُه أخرى ، وهذا رأي ابن سنان فيه . قال إنه كان يترك السجع ويتجنبه ، وطريقته استعماله مرة ورفضه أخرى ، بحسب ما يوجد من السهولة والتيسير ، أو الإكراه والتكلف . أما نحن فإن ما وصلنا من كتاباته يضطرنا إلى أن نحكم عليه حكماً يخالف حكم ابن سنان . ذلك لأنا رأيناه كان إلى التسجيع والمزاوجة أقرب . وما ندري أيضاً إن كان وصفه بخاتمة الكتاب ينطبق على الواقع ، أم فيه شيء من المصانعة لابن العميد

في قولهم : « بدئت الكتابة بعبد الحميد وانتهت بابن العميد » أم هي السجعة التي أصدرت هذا الحكم ، كما كانت سجعة الصاحب بن عباد في قاضي قم هي التي نحته عن منصبه ، يوم كتب إليه : « أيها القاضي بقم ، قد عزلناك فقم . فقال القاضي : والله ما عزلتني إلا السجعة » .

عاصر ابن العميد عشرات من الكتاب ، وجاء بعده كثيرون كانوا أطول منه باعاً في هذا الفن ، وفي مقدمتهم الهمداني وأبو حيان التوحيدي فنسي الناس أو تناسوا من لم يَحْظُهم الحظ حتى يشتهروا من كل وجه ، ولهج الناس بنثر ابن العميد وشعر ابن العميد فتأفقت شهرته .

وحكمنا هذا على ابن العميد مستند إلى رسائله الباقية في كتب الأدب والأخبار ، وفيها شهدناه يكثر كأهل قرنه من السجع ، ولم نَرَ شحن كتابنا بما أثر عنه منه ، فاقتصرنا على كلامه المرسل ، وحكمنا عليه بالأسلوبين .

عصر ابن العميد عصر نشوء الكلام المسجوع ، وفيه ظهر أعظم السجاعين ، فما وسعه أن ينحل من قيوده ؛ بل أخذ بمجاراة الناس طوعاً أو كرهاً ، فهو ابن عصره تأثر به ، إلا أنه كان أقل من غيره على ما يظهر تأثراً بالأفكار الفارسية ، وهذا داعية العجب ، كان أقرب إلى العروبة في أكثر مناحيه ، وفارسيته مقصورة على مصطلحاته وعاداته . كان تأثره بكلام الأقدمين — وهو الحافظ المكثر من شعر العرب الجاهليين والإسلاميين — أوفى من تأثره ببيئته ، هو عربي الأفكار ، في ثوب فارسي رقيق ، أخذ من المدنيتين ما راقه ، ومزجهما مزجاً جميلاً ، فكان آية بَهرت أو كما قال أبو الطيب المتنبي في مدحه :

عربي لسانه فلسفي رأيه فارسية أعياده
خلق الله أفصح الناس طراً في بلاد أعرابه أكراده

لم تتناول ثقافة ابن العميد الشعر والنثر ، أي الأدب فقط ؛ بل كانت ثقافة العالم الحكيم ، يعرف تأويل القرآن والفقه والحديث والفلسفة وعلم

الحيل وجر الأثقال والتصوير والهندسة والطبيعة ، إلى معرفته الواسعة بالسياسة والحرب . وكان على الكاتب المثقف في ذاك العصر إتقان الفلك والطبيعيات والرياضيات فضلاً عما يحتاج إليه من لغة ونحو وتصريف وتاريخ وشريعة . وكانت العجم تقول : من لم يكن عالماً بإجراء المياه ، وبحفر فُرض الماء والمسارب ، وردم المهاوي ومجاري الأنهار في الزيادة والنقصان ، واستهلال القمر وأفعاله ، ووزن الموازين وذرع المثلث والمربع والمختلف الزوايا ، ونصب القناطر والجسور والدوالي والنواعير على المياه ، وحال أدوات الصناع ، ودقائق الحساب — كان ناقصاً في حال كتابته .

وما روي من مجالس ابن العميد وتنوقل من آرائه يؤْذن بأنه لم يكن نُتفة في هذه العلوم ، بل كان مشاركاً أعظم مشاركة . قالوا كان إذا طرأ عليه أحد من منتحلي العلم ، فأراد امتحان عقله سأله عن بغداد ، فإن فطن لخواصها ، وتنبه على محاسنها ، وأثنى خيراً عليها ، جعل ذلك مقدمة فضله ، وعنوان عقله ، ثم يسأله عن الجاحظ فإن وجد عنده أثراً لمطالعة كتبه ، والاقتباس من ألفاظه ، وبعض القيام بمسائله ، قضى له بأنه غرَّة شادخة[1] في أهل العلم ، وإن وجده ذاماً لبغداد ، غفلاً عما يجب أن يكون موسوماً به من الانتساب إلى المعارف التي يختص بها الجاحظ ، لم ينفعه بعد ذلك شيء من المحاسن .

هذا تصوير لبعض مناحي الأستاذ الرئيس ، ولم نجارِ من توسعوا في تصوير سيرته وبالغوا في أدبه وأكثروا ومنهم الثعالبي في يتيمة الدهر ومسكويه في تجارب الأمم . لا جرم أن ابن العميد عظيم بأدبه ، ولكن ألا يذهب الفكر إلى أنه كان له بحكم منصبه السامي — ومفاتيح خزائن الدولة في يده يفضل على العلماء والشعراء من قاصديه وغير قاصديه — ما زاد في شهرته ، وعظّم في النفوس أدبه ؟ وربما كان من حبٍّ بعضهم له أن جملوا صورته على غير قصد .

---

(١) غرة شادخة : غشت الوجه من الناصية إلى الأنف .

وبعد الذي رأينا من مبالغات الشعراء في كل عصر ، ملنا إلى التوقف في الحكم على الرجال بالمدح أو بالقدح الذي قيل فيهم . شهدنا شعراء مدحوا رجالاً وهجوهم في آن واحد ، فأي أقوالهم نصدق ؟ هذا سيف الدولة بن حمدان قد خلع عليه المتنبي من الأماديح ثياباً فضفاضة ، فخلد ذكره في العالمين . ولو بحثنا في سيرة سيف الدولة ما زدنا في تعريفه على ما نصف به ملكاً جائراً مستبداً ، يستحل أكل أموال الناس بالباطل ، ويخربُ البلاد لينفق ما يسلب في أبهته ، ويفرط في الإفضال على مادحيه وبذخه[1] . وإنا إذا تأملنا هجوه كافور الاخشيدي ، بعد أن مدحه ورفعه ، نسجل أنه ظلمه كثيراً ، فإن سيرته كانت أزكى من سيرة سيف الدولة ، والملك به يصلح أكثر مما يصلح بابن حمدان وأمثال ابن حمدان من ظلمة الملوك والأمراء . وهكذا يقال في أكثر ما نسجه الشعراء من أماديح العظماء والأمراء ، فلما قصروا في العطاء تراجع الشعر وذهبت بهجته .

ولو هممنا بأخذ صورة للملوك والعظماء مما مدحهم به الشعراء لبعدنا عن حقيقتهم وسيرتهم بعداً كثيراً . وكذلك لو صدقنا كل ما هجا به الهاجون ، لما رسمنا لمهجو صورة صحيحة . لأن الشعر قام في الأكثر على المديح والهجاء ، وعلى المبالغة في كل منهما ، وهناك الأهواء السياسية والعداوات المذهبية والطوائل الجنسية . وكم من عالم وصمه خصومه بالكفر ، وهو أقرب إلى جوهر الشرع من أكثر حاسديه ومخالفيه . وكم من إنسان عظيم ألبسه أهل مجتمعه ثوباً بالياً من حكمهم عليه ، وما كان أولاهم أن يكسوه الخز والديباج .

---

(١) قال الأزدي في الدول المنقطعة في سنة أربع وخمسين وثلثمائة صاهر سيف الدولة أخاه ناصر الدولة ، فزوج ابنته أبا المكارم وأبا المعالي بابنة ناصر الدولة ، وزوج ابا تغلب بابنته ست الناس ، فضرب دنانير في كل دينار ثلاثين ديناراً وعشرين وعشرة عليها مكتوب : لا إله إلا الله محمد رسول الله أمير المؤمنين علي بن أبي طالب فاطمة الزهراء الحسين جبريل عليهم السلام ؛ وعلى الجانب الآخر : أمير المؤمنين المطيع لله الخ . ويقال جاد بما لم يجد به أحد . يقال إن مبلغ ما جاد به تسعمائة ألف دينار ، فتأمل .

والغرض مرض وقل أن خلت منه نفس بشرية . هذا والشعر العربي علـى الغلو في نسيبه وتشبيبه وغزله ومديحه وهجائه يؤخذ على علاته ، وقلما يسقط فيه على حقيقة إلا في الحكم والعبر ، ومتى جعلناه عمدتنا في الترجمة للرجال نضل ضلالاً بعيداً .

وبعد فإن من سعادة ابن العميد أن يطول عهده في الوزارة ، ومن سعادته أن يكون على أخلاق فاضلة وسياسة ناجحة يستميل بها قلوب الدهماء والأدباء ، ومن سعادته أن يرزق عقلاً ناقداً ، وبصيرة نافذة ، وثقافة كاملة ، ومن سعادته أن يظل وهو رأس الدولة على تنمية معارفه ومواهبه إلى الزمن الذي استأثر الله به في همدان ، وهو في طريق القضاء على الناشزين على الملك . كل أولئك زاد في وزنه . وهو في حقيقته أديب عظيم مجدود ، لم تبطره النعمة ، ولا أسكره تيه الإمارة وإقبال الدنيا ، وكان له من تليد مجده وطريفه ما وقره في الصدور ، ومن الفضائل ومكارم الأخلاق ما أمتعه بالصيت البعيد ، فتمتع بما يتمتع به الملوك في سلطانهم ، وشارك الأدباء في مجدهم الأدبي . ولو رحمت الأيام ثروة أدبية خلفها عظيم طالما رحم الناس ؛ لكان الحكم عليه أفصح من هذا .

نموذجات من كتابته :

كتب ابن العميد إلى أبي عبد الله الطبري لما استحضره عضد الدولة للمنادمة وفيه راموز من بُعد نظره في سياسة الملوك قال : « وقفت على ما وصفته من برّ الأمير بك ، وتوفّره عليك ، وليس العجب أن يتناهى مثله في الكرم إلى أبعد غاياته ، وإنما العجب أن يقصر في شيء من مساعيه عن نيل المجد كله ، وحيازة الفضل بأجمعه ، وقد رجوت أن يكون ما يغرسه أجدر غرس بالزكاء ، وأضمنه للرّيع والنماء ، فارع ذلك واركب في الخدمة طريقة تبعدك من الملال ، وتوسطك في الحضور بين الإكثار والإقلال ، ولا تسترسل

إلى حسن القبول كل الاسترسال . فلأن تدعى من بعيد مرات ، خير من أن تُقصى من قريب مرة . وليكن كلامك جواباً تتحرز فيه من الخطل ومن الإسهاب ، ولا تعجبنك تأتي كلمة محمودة فيلجَّ بك الإطناب توقعاً لمثلها ، فربما هدمت ما بنته الأولى . وبضاعتك في الشرب مزجاة وبالعقل يزمّ اللسان ويلزم السداد . فلا يستفزنك طرب الكلام على ما يفسد تمييزك ، والشفاعة لا تعرض لها فإنها مخلقة للجاه ، فإن اضطررت إليها فلا تهجم عليها حتى تعرف موقعها وتطالع موضعها ، فإن وجدت النفس بالإجابة سمحة ، وإلى الإسعاف هشة ،فأظهر ما في نفسك غير محقق ، ولا توهم أن في الرد عليك ما يوحشك ، ولا في المنع ما يغيظك ، وليكن انطلاق وجهك إذا دفعت عن حاجتك ، أكثر منه عند نجاحها على يدك ، ليخفَّ كلامك ولا يثقل على سامعه منك . أقول ما أقول غير واعظ ولا مرشد ، فقد كمل الله خصالك وفضلك في ذلك كله ، لكن أنبه تنبيه المشارك ، وأعلم أن للذكرى موقعاً منك لطيفاً » .

وكتب اليه أيضاً :

« كتابي وأنا بحال لو لم ينغّص منها الشوق إليك ، ولم يُرَنّق[1] صفوها النزاع نحوك ، لعددتها من الأحوال الجميلة ، وأعددت حظي منها في النعم الجليلة ، فقد جمعتُ فيها بين سلامة عامة ، ونعمة تامة ، وحظيت منها في جسمي بصلاح ، وفي سعيي بنجاح ، لكن ما بقي أن يصفو لي عيش مع بُعدي عنك ، ويخلو ذرعي[2] مع خلوّي منك ، ويسوغ لي مطعم ومشرب مع انفرادي دونك ، وكيف أطمع في ذلك وأنت جزء من نفسي ، وناظم

(١) يرنق : يكدر .

(٢) رجل واسع الذراع والذرع أي الخلق والذرع النفس وضاق بالأمر ذرعه وذراعه وضاق به ذرعاً ضعفت طاقته .

لشمل أنسي ، وقد حُرمت رؤيتك ، وعدمت مشاهدتك ، وهل تسكن نفس متشعبة ذات انقسام ، وينفع أنس بيت بلا نظام ، وقد قرأت كتابك – جعلني الله فداءك – فامتلأت سروراً بملاحظة خطك ، وتأمّل تصرفك في لفظك ، وما أُقرظهما ، فكل خصالك مقرَّظ عندي ، وما أمدحهما ، فكل أمرك ممدوح في ضميري وعقدي[1] ، وأرجو أن تكون حقيقة أمرك موافقة لتقديري فيك ، فإن كان كذلك وإلا فقد غطى هواك وما ألقي على بصري اه » . قلنا وهذا من مسجوعاته وفيه من المبالغات الفارسية ما كاد يذهب ببهجته وجميل عاطفته . ولو صدر هذا الكتاب عن كاتب ممن سبقه كعمرو بن مسعدة ، وسهل بن هرون ، وأحمد بن يوسف الكاتب ، وابن الزيات ، والصولي ، لجاء موضوعه في سطرين سهلين على السمع والطبع ، مقبولين في العرف والعادة ، لا غلو فيهما ولا إغراق .

وكتب إليه فصلاً أوله سجع كله لم تفلت منه جملة بدونه إلى أن قال وقد ذكر دعواه في العلم : وهبك أفلاطون نفسه فأين ما سننته من السياسة ؟ فقد قرأناه فلم نجد فيه إرشاداً إلى قطيعة صديق ، فأحسبك أرسطاطاليس بعينه ، أين ما رسمته من الأخلاق ؟ فقد رأيناه فلم نرَ فيه هداية إلى شيء من العقوق ، وأما الهندسة فإنها باحثة عن المقادير ، ولن يعرفها من يجهل مقدار نفسه ، وقدر الحق عليه أوله ، بل لك في رؤساء العربية منا ريح ومضطرب ، ولسنا نشاحّك ، لكن أتحب أن تتحقق بالغريب من القول دون الغريب من الفعل ، وقد اغتّربت في الذهاب بنفسك إلى حيث لا تهتدي للرجوع عنه ؟ وأما النحو فلن تدفع عن حذق فيه وبصر به ، وقد اختصرته أوجز اختصار ، وسهلت سبيل تعليمه على من يجعلك قدوة ، ويرضى بك أُسوة ؛ فقلت الغدر والباطل وما جرى مجراهما مرفوع ، والصدق والوفاء وما صاحَبَهما مخفوض ، وقد نصب الصديق عندك ، ولكن غرضاً يرشق بسهام الغيبة ، وعلماً يقصد

---

(١) العقد : الضمان والعهد .

بالوقيعة ، ولست بالعروضي ذي اللهجة فأعرف قدر حذقك فيه ، إلا أني لا أراك تتعرض لكامل ولا وافر ، وليتك سبحت في بحر المجتث حتى تخرج منه إلى شط المتقارب .

وكتب إلى بعض إخوانه : أنا أشكو إليك ، جعلني الله فداك ، دهراً خؤوناً غدوراً ، وزمناً خدوعاً غروراً ، لا يمنح ما يمنح إلا ريثما ينتزع ، ولا يبقي فيما يهب إلا ريثما يرتجع ، يبدو خيره لمعاً ثم ينقطع ، ويحلو ماؤه جُرَعاً ثم يمتنع ، وكانت منه شيمة مألوفة ، وسجية معروفة ، أن يشفع ما يبرمه بقرب انتقاض ، ويهدي لما يبسطه وشك انقباض . وكنا نلبسه على ما شرط ، وإن خاف منه وقسط ، ونرضى على الرغم بحكمه ، ونستنيم لقصده وظلمه ، ونعتد من أسباب المسرة أن لا يجيء محذوره مصمتاً بلا انفراج ، ولا يأتي مكروهه صرفاً بلا مزاج ، ونتعلل بما نختلسه من غفلاته ، ونسترقه من ساعاته ، وقد استحدث غير ما عرفناه ، سنة مبتدعة ، وشريعة متبعة ، وأعد لكل صالحة من الفساد حالاً ، وقرن لكل خلة من المكروه خلالا ، وبيان ذلك ، جعلني الله فداك ، أنه كان يقنع من معارضته الإلفين ، بتفرق ذات البين ، فقد انثنى ممنوناً فيك بجميع ما أُوغره ، وما أطويه من البلوى منك أكثر مما أنشره ، وأحسبني قد ظلمت الدهر بسوء الثناء عليه ، وألزمته جُرماً لم يكن قدره بما يحيط به وقدرته ترتقي إليه ، ولو أنك أعنته وظاهرته ، وقصدت صرفه وآزرته ، وبعتني بيع الخَلَق ، وليس فيمن زاد ، ولكن فيمن نقص ، ثم أعرضت عني إعراض غير مراجع ، واطرحتني إطراح غير مجامل ، فهلا وجدت نفسك أهلاً للجميل حين لم تجدني هناك ، وأتعذب من جل ما عقدت من غير جريمة ، ونكثت ما عهدت من غير جريرة ، فأجبني عن واحدة منهما ، ما هذا التغالي بنفسك ، والتعالي على صديقك ، ولم نبذتني نبذ النواة ، وطرحتني طرح القذاة ، ولم تلفظني من فيك ، وتمجني من حلقك ؟ وأنا الحلال الحلو البارد العذب ، وكيف لا تخطرني ببالك خطرة ، وتصيرني من أشغالك مرة ، فترسل سلاماً إن لم تتجشم مكاتبة ،

وتذكرني فيمن تذكر إن لم تكن مخاطبة ، وأحسب كتابي سيرد عليك فتنكره حتى تتثبت ، ولا تجمع بين اسم كاتبه وتصور شخصه حتى تتذكر ، فقد صرت عندك ممن محا النسيان صورته من صدرك ، واسمه من صحيفة حفظك ، ولعلك أيضاً تتعجب من طمعي فيك وقد وليت ، واستمالتي لك وقد أبيت ، ولا عجب فقد ينفجر الصخر بالماء الزلال ، ويلين من هو أقسى منك قلباً فيعود إلى الوصال ، وآخر ما أقوله أن ودي وقف عليك ، وحبْسٌ في سبيلك ، ومتى عدت إليه وجدته غضاً طرياً ، فجربه في المعاودة فإنه في العود أحمد .

وهذه الرسالة كما ترى من رسائله المسجوعة والمرسلة معاً ، وبأدنى تأمل يدرك المتمعن فيها أن ابن العميد لما اطرح في آخرها السجع جوّد وأبدع ، وكان في أولها لا يعدو أسلوب الصاحب بن عباد وأبي بكر الخوارزمي والصابي من أهل جيله عشاق السجع ، وكان الهمداني أقلهم به تشبثاً في رسائله لا في مقاماته .

وفي اليتيمة : ويقال إن أحسن رسائله الإخوانيات ، ما كاتب به أبا العلاء (السروي) لصدوره عن صدر مائل إليه ، محب له ، مناسب بالأدب إياه ؛ فصل من رسالة له إليه في شهر رمضان وهو مما لم يسبق إليه : كتابي جعلني الله فداك وأنا في كد وتعب ، منذ فارقت شعبان ، وفي جهد ونَصَب ، من شهر رمضان ، وفي العذاب الأدنى دون العذاب الأكبر من ألم الجوع ووقع الصوم ، ومرتهن بتضاعف حرور ، لو أن اللحم يصلى ببعضها غريضاً أتى أصحابه وهو منضج ، وممتحن بهواجر يكاد أُوارها يذيب دماغ الضب ، ويصرف وجه الحرباء عن التحديق ، ويزويه عن التبصر ، يقبض يده عن إمساك ساق وإرسال ساق .. وأحمد الله على كل حال وأسأله أن يعرفني فضل بركته ، ويلقيني الخير في باقي أيامه وخاتمته ، وأرغب إليه في أن يقرب على القمر دوره ، ويقصر سيره ، ويخفف حركته ، ويعجل نهضته ، وينقص مسافة فلكه ودائرته ، ويزيل بركة الطول من ساعاته ، ويرد عليّ غرة شوال

فهي أسر الغرر عندي وأقرها لعيني ، ويسمعني النعرة في قفا شهر رمضان ، ويعرض عليّ هلاله أخفى من السر ، وأظلم من الكفر ، وأنحف من مجنون بني عامر ، وأضنى من قيس بن ذريح ، وأبلى من أسير الهجر ؛ ويسلط عليه الحَوْر بعد الكور[1] ، ويرسل على رقاقته[2] التي يغشى العيون ضوؤها ، ويحط من الأجسام نوؤها ، كلفاً يغمرها ، وكسوفاً يسترها ، ويرينيه مغمور النور ، مقمور الظهور ، قد جمعه والشمس برج واحد ، ودرجة مشتركة ، وينقص من أطرافه كما تنقص النيران من طرف الزند ، ويبعث عليه الأرَضة ، ويهدي إليه السوس ، ويغري به الدود ، ويبليه بالفار ، ويخترمه بالجراد ، ويبيده بالنمل ، ويجتحفه بالذّر ، ويجعله من نجوم الرجم ، ويرمي به مسترق السمع ، ويخلصنا من معاودته ، ويريحنا من دوره ، ويعذبه كما عذب عباده وخلقه ، ويفعل به فعله بالكتان ، ويصنع به صنعه بالألوان ، ويقابله بما تقتضيه دعوة السارق إذا افتضح بضوئه وتهتك بطلوعه ، ويرحم الله عبداً قال آميناً . وأستغفر الله جل وجهه مما قلته إن كرهه ، وأستعفيه من توفيقي لما يذمه ، وأسأله صفحاً يفيضه ، وعفواً يسيغه ، وحالي بعدما شكوته صالحة ، وعلى ما تحب وتهوى جارية ؛ والله الحمد تقدست أسماؤه والشكر اهـ .

وهذه الرسالة أيضاً لو خلت من السجع والتطويل لكانت فريدة في بابها قال الثعالبي : وقد أجمع أهل البصيرة في الترسل على أن رسالته التي كتبها إلى ابن بلكا ونداد خورشيد عند استعصائه على ركن الدولة غرة كلامه وواسطة عقده ؛ وما ظنك بأجود كلام لأبلغ إمام ؟ قال فصل من أولها : كتابي وأنا مترجح بين طمع فيك ، ويأس منك ، وإقبال عليك ، وإعراض عنك ؛ فإنك تدل بسابق حرمة ، وتمت بسالف خدمة ، أيسرهما يوجب رعاية ،

---

(١) في الحديث نعوذ بالله من الحور بعد الكور معناه النقصان بعد الزيادة وقيل معناه من فساد أمورنا بعد صلاحها . (رواه مسلم – الناشر)

(٢) الرقاق كغراب الخبز الرقيق ، الواحدة رقاقة .

ويقتضي محافظة وعناية ، ثم تشفعهما بحادث غلول[١] وخيانة ، وتتبعهما بآنف خلاف ومعصية ، وأدنى ذلك يحبط أعمالك ، ويمحق كل ما يرعى لك ؛ لا جرم أني وقفت بين ميل إليك ، وميل عليك ، أُقدم رجلاً لصدك ، وأُؤخر أُخرى عن قصدك ، وأبسط يداً لاصطلامك واجتياحك[٢] ، وأثني ثانية لاستبقائك واستصلاحك ، وأتوقف عن امتثال بعض المأمور فيك ضناً بالنعمة عندك ، ومنافسة في الصنيعة لديك ، وتأميلاً لفيئتك[٣] وانصرافك ، ورجاء لمراجعتك وانعطافك ، فقد يغرب العقل ثم يؤوب ، ويعزب اللب ثم يثوب ، ويذهب الحزم ثم يعود ، ويفسد العزم ثم يصلح ، ويضاع الرأي ثم يستدرك ، ويسكر المرء ثم يصحو ، ويكدر الماء ثم يصفو ، وكل ضيقة إلى رخاء ، وكل غمرة فإلى انجلاء ، وكما أنك أتيت من إساءتك بما لم تحتسبه أولياؤك ، فلا بدع أن تأتي من إحسانك بما لا ترتقبه أعداؤك ، وكما استمرت بك الغفلة حتّى ركبت ما ركبت ، واخترت ما اخترت ، فلا عجب أن تنتبه انتباهة تبصر فيها قبح ما صنعت وسوء ما آثرت ، وسأقيم على رسمي في الإبقاء والمماطلة ما صلح ، وعلى الاستبطاء والمطاولة ما أمكن طمعاً في إنابتك ، وتحكيماً لحسن الظن بك . فلست أعدم فيما أُظاهره من إعذار ، وأرادفه من إنذار ، احتجاجاً عليك ، واستدراجاً لك ، فإن يشإ الله يرشدْك ، ويأخذ بك إلى حظك ويسدّدك .

ثم نقل الثعالبي فصلاً آخر من الكتاب وختمه بقطعة منها جاء فيها : « تأمل حالك ، وقد بلغت هذا الفصل من كتابي فستنكرها ، والمس جسدك ، وانظر هل يحس ، واجسس عِرْقك هل ينبض ، وفتش ما حنا عليك هل تجد في عرضها قلبك ، وهل حلي بصدرك أن تظفر بفوت سريح[٤] ، أو موت

---

(١) الغلول : الخيانة في المغنم خاصة . وآنف : جمع أنف .
(٢) الاجتياح ، كالاصطلام : الاستئصال .
(٣) الفيئة : الرجعة .
(٤) سهل .

مريح . ثم قس غائب أمرك بشاهده ، وآخر شأنك باوله » قال الثعالبي : بلغني عن ابن بلكا ، وكان آدب أمثاله ، أنه كان يقول : والله ما كانت لي حال عند قراءة هذا الفصل إلا كما أشار اليه الأستاذ الرئيس ، ولقد ناب كتابه عن الكتائب في عرك أديمي ، واستصلاحي وردي إلى طاعة صاحبه .

وقال الثعالبي في المضاف والمنسوب : وقرأت في رسالة لابن العميد إلى ابن سمكة : « جرّب ، جعلت فداءك ، ما قلته ، واختبرني فيما ادعيته ، فإن لم أفعل فدمي حلال لك ، فاقتلني بسيف الفرزدق ، وكلني بخل وخردل » . وسيف الفرزدق يضرب مثلاً للسيف الكليل بيد الجبان .

وقال صاحب اليتيمة أيضاً : وأقرأني أبو الحسين محمد بن الحسين الفارسي النحوي ، وقد اجتمعنا باسفرايين عند زعيمها أبي العباس الفضل بن علي ، فصلاً من كتاب لابن العميد إلى عضد الدولة كنت مررت عليه وأنا عنه غافل ، فنبهني على شرفه في جنسه ، وحرّك مني ساكناً معجباً بحسنه ، متعجباً من نفاسة معناه وبراعة لفظه ، وهو : وقد يعد أهل التحصيل في أسباب انقراض العلوم وانقباض مددها ، وانتقاض مِرَرها [1] ، والأحوال الداعية إلى ارتفاع جل الموجود منها ، وعدم الزيادة فيها الطوفان بالنار والماء ، والموتان العارض من عموم الوباء ، وتسلط المخالفين في المذاهب والآراء ، فإن كل ذلك يخترم العلوم اختراماً ، وينتهكها انتهاكاً ، ويجتث [2] أصولها اجتثاثاً ، وليس — عندي — الخطب في جميع ذلك يقارب ما يولّده تسلط ملك جاهل تطول مدته ، وتتسع قدرته ، فإن البلاء به لا يعدله بلاء ، وبحسب عظم المحنة بمن هذه صفته ، والبلوى بمن هذه صورته ، تعظم النعمة في تملك سلطان عالم عادل ، كالأمير الجليل الذي أحله الله من الفضائل بملتقى طرقها ، ومجتمع فرقها ، وهي نواز نوافر [3] ممن لاقت حتّى تصير

(١) المرة : قوة الخلق وشدته ج مرر وأمرار .
(٢) الجث : القطع .
(٣) نزا : وثب .

إليه ، وشرّد نوازع حيث حلت حتى تقع عليــه ، تتلفت إليه تلفُت الوامق ، وتتشوف نحوه تشوف الصب العاشق ، قد ملكتها وحشة المُضاع ، وحيرة المرتاع .

فإن تغش قوماً بعده أو تزورهم   فكالوحش يدنيها من الآنس المحل

ولابن العميد حكم وأمثال استخرجها العارفون من رسائله ، ومنها : الرتب لا تبلغ إلا بتدرج وتدرب ، ولا تدرك إلا بتجشم كلُفة ونَصَب . رأس المال خير من الربح ، والأصل أولى بالعناية من الفرع . المرء أشبه شيء بزمانه ، وصفة كل زمان منتسخة من سجايا سلطانه . قد يبذل المرء ماله في إصلاح أعدائه ، فكيف يذهل العاقل عن حفظ أوليائه . هل السيد إلا من تهابه إذا حضر ، وتغتابه إذا أدبر . الإبقاء على خدم السلطان عِدْل [١] الإبقاء على ماله ، والإشفاق على حاشيته وحشمه ، مثل الإشفاق على ديناره ودرهمه . المزح والهزل بابان إذا فتحا لم يغلقا إلا بعد العسر ، وفحلان إذا أُلقحا لم ينتجا غير الشر . من أسرّ داءه ، وكتّم ظمأه ، بعد عليه أن يُبل من علله ، ويبل من غُلله . خير القول ما أغناك جده ، وألهاك هزله.

وقال ينبغي للملك أن يستظهر على أعدائه بسبعة أجناس من الناس ، فيتخذ الأحرار عُدَد ملكه ، والأعراب أمناء جيشه ، والديلم أركان جنده ، والخُتّل [٢] جمرات عسكره ، والأتراك خواص أصحابه ، والهند حراس قلاعه ، والأكراد غلفاً [٣] لسيوف أعدائه .

ومن كلامه : قد تتسمح الأيام بما تمنع ، وتتساهل ثم تقطع ، وتصل الغبطة بالرزية ، والمحنة بالمنحة ، ولها ثمرات تبتدر ، وغفلات تنتُهز . القلوب أوعية يشرحها الرفق ، ويبسطها اللطف ، ويفسحها التمرين ،

---

(١) العدل بكسر العين وإسكان الدال المثل .

(٢) الختل كسكر كورة بما وراء النهر .

(٣) عيش أغلف واسع وسيف أغلف بين الغلف قوس في غلاف .

وإذا تجوز بها هذه الخلال إلى الاستكراه والإملال ، خرجت عن احتواء علم ، وضاقت عن ضبط فهم ، وفاضت بما تستودع . قدّم من خيرك ما لا ينفعك تأخيره ، واحصد الشر قبل استفحاله ، وقدم الميل ما دام الغصن غضاً يقبل التقويم ، ورطباً يطيع التثقيف ، ولا تنتظر به العُسُوّ(١) والامتناع ، وداوِ فتقاً تُنهره الأيام خرقاً إن تركته ، وارأب شعْباً(٢) يزيده الدهرُ وهياً إن أغفلته .

ولابن العميد شعر فيه كثير من شعوره ، ودليل على علو كعبه في الأدب ، وقد ذكر الثعالبي في كتابه خاص الخاص أن من أظرف شعره قوله في غلام قام على رأسه يظلله من الشمس :

قامت تظللني من الشمس   نفسٌ أعزّ عليّ من نفسي
قامت تظللني ومن عجب   شمس تظللني من الشمس

وقوله في مداد أهداه له صديق :

يا سيدي وعمـادي   أمددتني بمـدادِ
كمسكنَيْك جميعاً   من ناظري وفؤادي
أو كالليالي اللواتي   رميننا بالبُعـاد

ومن قوله :

متى علِقت نفسي حبيباً تعلقت   بهِ غِـيَر الأيام تسلُبنيه

وقال :

وسألتك العتبى فلم ترني لها   أهلاً وجئت بِعذرة شوهاءِ
وردت مموّهة فلم يرفع لهـا   طرف ولم ترزق من الإصغاء
فأعار مُنطقها النديم شكية   فتراجعت تمشي على استحياء

---

(١) العسو : الغلظ واليبس .
(٢) أصلح الصدع .

لم تشف من كمد ولم تبرد على كبد ولم تمسح جوانب داءِ
داوت جوىً بجوىً وليس بحازم من يستكف النارَ بالحلفاء

وقال :

فلو أن ما أبقيت من جسمي قذى في العين لم يمنع من الإغفاء

وقوله في الأقارب :

آخ الرجال من الأبا عد والأقارب لا تقارب
إن الأقارب كالعقا رب بل أضر من العقارب

ولأبي الفضل على رواية ابن النديم من الكتب كتاب ديوان رسائله ، وكتاب المذهب في البلاغات ؛ وذكره ابن حاجب النعمان في الشعراء الكتاب وقال إن له خمسين ورقة .

المستدركات

الاستدراك الأول : ص ٨٩

معنى « قاطيغورياس » المقولات أو القياس على ما في الفهرست لابن النديم ، ومعنى « باري ارمانياس » العبارة و « أنالوطيقا » تحليل القياس . ولهم مصطلحات أخرى كانت العرب تستعملها بلفظها اليوناني مثل « أبودقطيقا » وهو « أنالوطيقا » الثاني ومعناه البرهان و « طوبيقا » ومعناه الجدل و « سوفسطيقا » معناه المغالطة أو الحكمة المموهة و « ريطوريقا » معناه الخطابة و « أبوطيقا » ويقال « بوطيقا » معناه الشعر ، والثالوجيا معناه الربوبية .

الاستدراك الثاني : ص ٩٠

مما يدل على أن ابن المقفع كتب كليلة ودمنة مباشرة ، ولم ينقله عن الفهلوية بل اقتبس بعض الحكايات وألبسها ثوباً عربياً ، وزاد فيها ونقص حتى ما تكاد تعرف أنك تقرأ حكماً في كليلة ودمنة أوردها بلفظها أو بمعناها في بعض رسائله . ويستدل أيضاً على صحة ذلك أن في كتابه عشرات من ألفاظ إسلامية ، ومصطلحات إسلامية ، ومنازع إسلامية ، مثل قوله بالقضاء والقدر ، وإحالته على الأقدار في مواضع كثيرة . وقد يضمن معنى الآية أو الحديث أو الحكمة أو البيت من الشعر في كلامه ، وقد يأخذها برمتها .

يقول صاحب الفهرست إن لكتاب كليلة ودمنة جوامع وانتزاعات عملها جماعة منهم عبدالله بن المقفع وسهل بن هارون وسلم صاحب بيت الحكمة والمريد الأسود الذي استدعاه المتوكل في أيامه من فارس. ولعله يقصد بقوله جوامع وانتزاعات أنهم اختصروه.

الاستدراك الثالث : ص ١٠٠

عزا ياقوت في معجم الأدباء وابن عساكر في تاريخ دمشق الحكم التي وردت في الدرة اليتيمة في باب الصديق لخالد بن صفوان. وهي بهذا النص في الترجمتين : « ابذل لصديقك مالك ، ولمعرفتك بشرك وتحيتك ، وللعامة رفدك وحسن محضرك ، ولعدوك عدلك ، واضنن بدينك وعرضك عن كل أحد . » وخالد بن صفوان متقدم على ابن المقفع. وذكر هذه الحكم ابن حِبان البستي في كتابه « روضة العقلاء » وأوردها كأنها من كلامه ، والمأمول أن تتجه همة بعض الباحثين فيردوا مثل هذه الحكم إلى قائلها الأول.

الاستدراك الرابع : ص ١١٣

كتب ابن المقفع إلى بعض إخوانه : أما بعد فتعلم العلم ممن هو أعلم به منك ، وعلمه من أنت أعلم به منه ، فإنك إذا فعلت ذلك علمت ما جهلت ، وحفظت ما علمت.

وقال : لا تحدّث من تخاف تكذيبه ، ولا تسأل من تخاف منعه ، ولا تعِد ما لا تريد إنجازه ، ولا تضمن ما لا تثق بالقدرة عليه ، ولا ترج ما تعنف برجائه ، ولا تقدم على ما تخاف العجز عنه.

وقال لبعض إخوانه : إذا صاحبت ملكاً فاعلم أنهم ينسبونك إلى قلة الوفاء فلا تشعرن قلبك استبطاءه ، فإنه لم يشعر أحد قلبه (شيئاً) إلا ظهر على لسانه إن كان سخيفاً ، وعلى وجهه إن كان حليماً.

الاستدراك الخامس : ص ١٢٤

من أروع الكلام ما ختم به ابن المقفع « الدرة اليتيمة » في وصف الرجل الكامل في قوله : « إني مخبرك عن صاحب كان أعظم الناس في عيني ... » . وفي رواية « مفتاح الأفكار » زيادة على روايتنا جاءت بعد : « ولا يستخف له رأياً ولا بدناً ، وكان لا يتأثر عند نعمة ، ولا يستكين عند مصيبة ، وكان خارجاً من سلطان الجهالة ، فلا يقدم إلا على ثقة بمنفعة الخ » . وروايته في آخر الجملة « ولا يخص نفسه دون إخوانه بشيء من اهتمامه وحيلته وقوته » وروايتنا « بشيء من اهتمامه بحيلته وقوته » والرواية الأولى أصرح .

وقد أورد الرضي في نهج البلاغة هذا الوصف ، ونسبه إلى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب بتحريف وزيادة ، والزيادة قوله : « وكان يفعل ما يقول ولا يقول ما لا يفعل ، وكان إن غلب على الكلام لم يغلب على السكوت ، وكان على أن يسمع أحرص منه على أن يتكلم ؛ وكان إذا بدهه أمران نظر أيهما أقرب إلى الهوى فخالفه » . وهذه المعاني ، وردت في مكان آخر من كلام ابن المقفع . وأورد ابن قتيبة في « عيون الأخبار » وصف الرجل الكامل مقتضباً من كلام ابن المقفع ، ونسبه للحسن بن علي مع تحريف ، ولكن بألفاظ ابن المقفع ، وأضاف إلى قوله : « وكان إذا غلب على الكلام لم يغلب على السكوت ... وكان إذا عرض له أمران لا يدري أيهما أقرب إلى الحق نظر أقربهما من هواه فخالفه » وهذه الجملة وردت في اليتيمة بحسب روايتنا هكذا « إذا بدهك أمران لا تدري أيهما أصوب فانظر أيهما أقرب إلى هواك فخالفه ، فان أكثر الصواب في خلاف الهوى » .

ونرجح أن عزو هذا الكلام إلى علي بن أبي طالب أو إلى الحسن بن علي هو من فعل من أضافوا على كلام أمير المؤمنين ما ليس منه سامحهم الله . فان نص عبارة ابن المقفع معلنة عن نفسها بأنه عرف رجلاً هذه صفاته الحسنة فوصفه ، ولا يعقل أن يأخذ كلاماً لغيره ويستحل نسبته إليه خصوصاً إذا كان

من الكلام المأثور المعروف صاحبه ، ثم إن يتيمته اشتهرت قبل أن يؤلف نهج البلاغة بنحو قرنين ونصف . ويؤيد قولنا هذا ظهوِر التصنع ماثلاً للعيان ، ومن التصنع إدماج سجعات في هذه الجملة الجميلة حاشا أمير المؤمنين أن يسف في كلامه إلى مثلها وهو من اكبر الفصحاء بعد صاحب الرسالة عليه السلام .

لا جرم أن نهج البلاغة زيدت فيه زيادات كثيرة بعد عهد الرضى أيضاً ، وهو الذي قال إنه جمعه من كلام علي ؛ والحال أن أكثره من كلام فصحاء الشيعة وغيرهم بدليل الاختلاف العظيم في نسخه ، وقد اعترف ابن أبي الحديد شارح نهج البلاغة بأن ما عزي إلى أمير المؤمنين هو من كلام غيره من الحكماء ، لكنه « كالنظير لكلامه والمضارع لحكمته ! » قال : « وإن الغرض بالكتاب الأدب والحكمة ، فاذا وجد ما يناسب كلامه ذكره على قاعدته في ذكر النظير . ! » وأن الرضي قال : « إن روايات كلامه تختلف اختلافاً شديداً » .

إذا عرفنا هذا ساغ لنا أن نقول إن صفة الرجل الكامل الذي عرفه ابن المقفع قد استحسنها بعض المتأخرين فأدمجوها في الكتاب الذي كسروه على كلام الخليفة الرابع ، وقد وقعت لصاحب النهج بعض حكم جوز ضمها إلى كلام أمير المؤمنين ، وهي أشبه بأن تكون لغيره ، ومن ذلك ما نسبه لعلي وهو لابن المقفع « للمؤمن ثلاث ساعات فساعة يناجي فيها ربه ، وساعة يرم فيها معايشه ، وساعة يخلي بين نفسه وبين لذتها مما يحل ويجمل ، وليس للعاقل أن يكون شاخصاً إلا في ثلاث : مرمة لمعاش ، أو خطوة في معاد ، أو لذة في غير محرم » فإن هذه الحكمة وردت في الأدب الصغير لابن المقفع (ص ١٠٢ من أمراءِ البيان) وعلى صورة أجمع وأمتع .

الاستدراك السادس : ص ٢١٦

كتب أحمد بن يوسف : لولا حسن الظن بك ، أعزك الله ، لكان في إغضائك عني ما يقبضني عن الطلبة إليك ، ولكن أمسك برمق من الرجاء

علمي برأيك في رعاية الحق ، وبسط يدك إلى الذي لو قبضتها عنه ، لم يكن له إلا كرمك مذكراً وسؤددك شافعاً .

وكتب : الكريم أوسع ما تكون مغفرته ، إذا ضاقت بالمذنب معذرته .

الاستدراك السابع : ص ٢٤٥

كتب إبراهيم بن العباس : المودة تجمعنا محبتها ، والصناعة تؤلفنا أسبابها ، وما بين ذلك من تراخ في لقاء ، أو تخلف في مكاتبة ، موضوع بيننا يوجب العذر فيه .

الاستدراك الثامن : ص ٢٥٩

لما وثب إبراهيم بن المهدي على الخلافة ، اقترض من مياسير التجار مالاً فأخذ من عبد الملك الزيات أبي محمد بن عبدالملك عشرة آلاف دينار ، وقال : أردها إذا جاءني مال ، ولم يتم أمره واستخفى ثم ظهر ، فطولب بالأموال فقال : إني أخذتها للمسلمين ، وأردت أن أقضيها من أموالهم ، والأمر إلى غيري ، فعمل محمد بن عبد الملك قصيدة يخاطب بها المأمون ، ومضى إلى إبراهيم بن المهدي فأقرأه إياها وقال : والله لئن لم تعطني المال الذي اقترضته من أبي لأوصلن هذه القصيدة للمأمون . فهاب إبراهيم أن يقرأ المأمون مثلها وقال : خذ مني بعض المال ونَجّم بعضه ففعل ، وأحلفه أن لا يظهر القصيدة في حياة المأمون ، ووفى له بباقي المال. ولذلك كان إبراهيم بن المهدي يشنأ محمد بن عبدالملك ، فلما ولي وزارة المعتصم قال إبراهيم :

يا بؤس يوم كاسف إن لم يُغَيِّر في غده
لأمــــة وزيرهــا عاصر زيت بيده
يظهر نصحــاً وجهه وغشه في كبــده

الاستدراك التاسع : ص ٣٢٧

يقول ابن أبي الحديد اتفق شيوخنا (أي المعتزلة) كافة رحمهم الله ، المتقدمون منهم والمتأخرون ، والبصريون والبغداديون ، على أن بيعة أبي بكر الصديق بيعة صحيحة شرعية ، وأنها لم تكن عن نص ، وإنما كانت بالاختيار الذي ثبت بالإجماع وبغير الإجماع كونه طريقاً إلى الإمامة ، واختلفوا في التفضيل فقال قدماء البصريين كأبي عثمان عمرو بن عبيد ، وأبي إسحق إبراهيم ابن سيار النظام وأبي عثمان عمرو بن الجاحظ ، وأبي معن ثمامة بن أشرس ، وأبي محمد هشام ابن عمر الفوطي ، وأبي يعقوب يوسف بن عبدالله الشحام ، وجماعة غيرهم أن أبا بكر أفضل من علي عليه السلام . وهؤلاء يجعلون ترتيب الأربعة في الفضل كترتيبهم في الخلافة .

الاستدراك العاشر : ص ٤٣٦

قال الجاحظ : إن العرب تمدح الشيء وتذمه ، لكنهم لا يمدحون الشيء من الوجه الذي يذمونه به من جنس فصاحتهم .

قال المأمون ما هجي إبراهيم بن المهدي ، فيما ادعاه ، على كثرة هجائه بأشد من قول الجاحظ فيه : « هو خليفة إذا خطب رأى آخر عمله » أي أن مملكته من الصغر بحيث لا تتجاوز رقعتها مدى صوت الخطيب ونظره .

أتى أبو العيناء الجاحظ يسأله في رجل أن يكتب له كتاب عناية إلى صاحب البصرة ، فقال : نعم ، لا تنصرف إلا به ، وكتب له الجاحظ الكتاب وختمه ، ودفعه إليه ، فأتى إلى أبي العيناء بالكتاب فقال : أفضضه وأقرأه عليّ لأرى ما كتب وأُعيده إليه ليختمه ، ففتحه فإذا فيه : « كتابي إليك سألني فيه من أخافه لمن لا أعرفه ، فافعل في أمره ما تراه والسلام » . فغضب ونهض إلى الجاحظ ، فقال : أُعرفك باعتنائي بهذا الرجل فتكتب له مثل هذا . فقال :

لا تنكر ذلك فإنها أمارة بيني وبينه ، إذا عنيت برجل . فقال : بل أنت ولد زنا لم تكن قط لرشْدة . قال : أتشتمني . قال : لأنها أمارة لي عند الثناء على إنسان .

قال الجاحظ : في الخصي عشرة أحوال متضادة ، لم يخرج من ظهره مؤمن ، ولا خرج من ظهر مؤمن ، وهو أكثر الناس غيرة ، وأشدهم قيادة ، وهو أضعف الناس معدة ، وأشرههم على طعام ، وهو أسوأُ الناس أدباً ، وهو يعلم الأدب ، وهو أغزر الناس دمعة ، وأقساهم قلباً ، وما خلا قط مع امرأة إلا حدثته نفسه أنه رجل ، ولا خلا مع رجل إلا حدثته نفسه أنه امرأة .

مصادر الكتاب

من كتب الرجال

تاريخ الكتاب والوزراء ، للجهشياري (المتوفي ٣٣١ – طبع ليبسيك) ، تاريخ الوزراء لأبي هلال الصابي (٤٤٨ – بيروت) ، يتيمة الدهر للثعالبي (٤٣٠ – دمشق) ، طبقات الأدباء لياقوت (٦٢٦ – القاهرة) نزهة الألباء في طبقات الأدباء للأنباري (٥٧٧ – القاهرة) الأنساب للسمعاني (٥٦٢ – لندن) ، حكماء الإسلام للبيهقي (٥٧٠ – مخطوط في دار الكتب الظاهرية بدمشق) ، أخبار الحكماء للقفطي (٦٢٤ – ليبسيك) ، طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة (٦٨٨ – القاهرة) ، وفيات الأعيان لابن خلكان (٦٨١ – القاهرة) ، فوات الوفيات للصلاح الكتبي (٧٦٤ – القاهرة) ، عيون التواريخ له (مخطوط في دار الكتب الظاهرية) ، تاريخ بغداد لابن الخطيب (٤٦٣ – القاهرة)، تاريخ دمشق لابن عساكر (٥٧١ – مطبوع ومخطوط دمشق ودار الكتب الظاهرية) ، تهذيب الأسماء للنووي (٦٧٧ – أوروبا) ، الأوراق للصولي (٣٣٥ – القاهرة) ، ذكر المعتزلة لأحمد ابن يحيى المرتضى (٨٤٠ – حيدرآباد الدكن) ، لسان الميزان لابن حجر (٨٥٢ – حيدرآباد الدكن) طبقات الشافعية للسبكي (٧٣١ – القاهرة)، بغية الوعاة للسيوطي (٩١١ – القاهرة) ، الوافي بالوفيات للصفدى (٧٦٤ – مخطوط في دار الكتب المصرية) ، نكت الهميان له (القاهرة) ، ميزان الإعتدال للذهبي (٧٤٨ – القاهرة) ، الطبقات الكبرى لابن سعد (٢٣٠ – ليدن) ، رجال النجاشي (بمباي) ، طبقات الشعراء للجمحي (٢٣٢ – ليدن)

من كتب التاريخ

تاريخ الرسل والملوك للطبري (٣١٠ ـ ليدن) ، صلة تاريخ الطبري لعريب بن سعيد القرطبي (ليدن) ، مروج الذهب للمسعودي (٣٤٦ ـ باريس) ، التنبيه والإشراف له (ليدن) ، تاريخ اليعقوبي (٢٧٨ ـ ليدن) ، تاريخ سني ملوك الأرض والأنبياء لحمزة الأصفهاني (في نحو سنة ٣٥٠ ـ ليبسيك) ، تجارب الأمم لمكسويه (٤٢١ ـ ليدن والقاهرة) ، مرآة الزمان لسبط ابن الجوزي (٦٥٤ ـ شيكاغو) ، الأخبار الطوال لأبي حنيفة الدينوري (٢٨٢ ـ ليدن) ، كامل التواريخ لابن الأثير (٦٣٠ ـ القاهرة) ، تاريخ ابن خلدون (٨٠٨ ـ القاهرة) ، السلوك في دول الملوك للمقريزي (٨٤٥ ـ القاهرة) ، النزاع والتخاصم فيما بين بني أمية وبني هاشم ؛ له (ليدن) ، البداية والنهاية لابن كثير (٧٧٤ ـ القاهرة) ، دول الاسلام للذهبي (حيدر آباد الدكن) ، الفخري لابن الطقطقى (٧٠٩ ـ القاهرة) ، المختصر في تاريخ البشر لأبي الفداء (٧٣٢ ـ القاهرة) ، شذرات الذهب لابن العماد (١٠٨٩ ـ القاهرة) ، الإمامة والسياسة المنسوب لابن قتيبة (القاهرة) ، تاريخ الدول المنقطعة للأزدي (مخطوط في دار الكتب المصرية) أنساب الأشراف للبلاذري (٢٧٩ ـ القدس) ، المنتظم لابن الجوزي ، وجامع العبر لابن أيبك (مخطوطان في دار الكتب المصرية) .

من كتب البلدان والرحلات والخطط

معجم البلدان لياقوت (ليبسيك) ، مناقب بغداد لابن الجوزي (٥٩٧ ـ بغداد) ، فتوح البلدان للبلاذري (ليدن) ، أحسن التقاسيم للمقدسي (بعد سنة ٣٧٥ ـ ليدن) ، الأعلاق النفيسة لابن رسته (القرن الثالث ـ ليدن) ، كتاب البلدان لابن الفقيه (أواخر القرن الثالث ـ ليدن) ، مسالك الممالك للاصطخري (القرن الرابع ـ ليدن) ، محاسن اصفهان للمافروخي (القرن الخامس ـ طهران) ، مسالك الابصار لابن فضل الله العمري (٧٤٩ ـ القاهرة) ، التعريف بالمصطلح الشريف ؛ له (القاهرة) ، رحلة ابن جبير (٦١٤ ـ ليدن) ، خطط مصر للمقريزي (القاهرة) ، خطط الشام للمؤلف (دمشق) .

من كتب الأدب

الكامل للمبرد (٢٨٥ ـ ليبسيك) ، العقد الفريد لابن عبد ربه (٣٢٨ ـ القاهرة) ، الموشح للمرزباني (٣٨٤ ـ القاهرة) ، إختيار المنظوم والمنثور لطيفور (٢٨٠ ـ مخطوط في دار الكتب

المصرية) ، كتاب بغداد؛ له (ليبسيك)، إعجاز القرآن للباقلاني (٤٠٣ — القاهرة) ، كتاب الصناعتين لأبي هلال العسكري (في حدود الأربعمائة — استنبول) ، دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني (٤٧١ — القاهرة) ، عيون الأخبار لابن قتيبة (٢٧٠ — القاهرة وستراسبورغ)، زهر الآداب للحصري (٤٥٣ — القاهرة) ، جمع الجواهر في الملح والنوادر؛ له (القاهرة) ، نهاية الأرب للنويري (٧٣٣ — القاهرة) ، نشوار المحاضرة للتنوخي (٣٨٤ — القاهرة) ، الفرج بعد الشدة؛ له (القاهرة) ، شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد (٦٥٦ — القاهرة)، صبح الأعشى للقلقشندي (٨٢١ — القاهرة)، خزانة الأدب للبغدادي (١٠٩٣ — القاهرة) ، أمالي السيد المرتضى (٤٣٦ — القاهرة) ، أمالي ابن الشجري (٥٤٢ — القاهرة) ، سر الفصاحة لابن سنان الخفاجي (٤٦٦— القاهرة) ، قانون البلاغة لابن حيدر البغدادي (٥١٧ — مطبوع ومخطوط في دار الكتب الظاهرية)، العمدة لابن رشيق (٤٦٣ —القاهرة)، المثل السائر لابن الأثير (٦٣٧ — القاهرة)، الفلك الدائر على المثل السائر لابن أبي الحديد (طهران) ، المحاسن والمساوي للبيهقي (٣٢٠—جيسين)، نقد النثر المنسوب لقدامة (٣٢٠—القاهرة)، نقد الشعر لقدامة (استنبول)، البيان والتبيين للجاحظ (٢٥٥ — القاهرة) ، رسائل الجاحظ ومنها البخلاء والمحاسن والأضداد ، وفصول مختارة منه لعبيد الله ابن حسان وغيرها تربو على عشرين رسالة (طبع ليدن والقاهرة وحلب وبغداد ودمشق) ، ومنها كتاب التاج المنسوب للجاحظ (القاهرة) ، كليلة ودمنة لابن المقفع (١٤٣—بيروت)، الدرة اليتيمة؛ له (بيروت) ، لباب الآداب لابن منقذ (٥٨٤ — القاهرة) ، الظرف والظرفاء للوشاء (٣٢٥ — ليدن)، طراز المجالس للخفاجي (١٠٦٩ — القاهرة) ، بدائع البدائه لابن ظافر (٦٢٣ — القاهرة) ، ديوان محمد بن عبدالملك الزيات (مخطوط في دار الكتب المصرية) ، ديوان الحماسة لأبي تمام (٢٢٨ — القاهرة) ، ديوان أبي تمام (بيروت) ، ديوان المتنبي (٣٥٤ — القاهرة) ، ديوان البحتري (٢٨٤ — استنبول) ، حماسة الخالديين (القرن الرابع — مخطوط في دار الكتب المصرية) ، نفح الطيب للمقري (١٠٤١ — القاهرة) ، المضاف والمنسوب للثعالبي وكذلك من غاب عنه المطرب وخاص الخاص والمعارف ولطائف المعارف ونثر النظم وحل العقد والكناية والتعريض والمنتحل وسحر البلاغة وثلاث رسائل وأربع رسائل وخمس رسائل (طبع ليدن والاسكندرية والقاهرة ودمشق واستانبول) ، الفوائد والقلائد ومرآة المروءات والشكوى والعتاب للثعالبي (وهي مخطوطة في دار الكتب المصرية) ، الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني (٣٥٦ — القاهرة)، المختار من شعر بشار للخالديين (القاهرة) ، المؤتلف والمختلف للآمدي (٣٧٠ — القاهرة)؛ الصديق والصداقة لأبي حيان التوحيدي (بعد الأربعمائة — استانبول)، البصائر والذخائر؛

له (مخطوطة في دار الكتب المصرية) ، التصحيف والتحريف لأبي أحمد العسكري (٣٨٢ ـ القاهرة) ، ديوان المعاني لأبي هلال العسكري (القاهرة)، رسائل الخوارزمي (٣٨٣ ـ استانبول) ، رسائل الهمذاني (٣٩٨ ـ بيروت) ، رسائل البلغاء للمؤلف (القاهرة) ، سرح العيون شرح رسالة ابن زيدون لابن نباتة (٧٦٨ ـ القاهرة) ، شرح قصيدة ابن عبدون لابن بدرون (القرن السادس ـ ليدن) ، شرح ديون خطب ابن نباتة لطاهر الجزائري (١٣٣٨ ـ بيروت) ، شرح مقامات الحريري للشريشي (٦١٩ ـ القاهرة) ، طوق الحمامة لابن حزم (٤٥٦ ـ ليدن) ، محاضرات الراغب (٥٠٢ ـ القاهرة) ، رسالة الغفران للمعري (٤٤٩ ـ القاهرة) ، رسالة ابن القارح (في رسائل البلغاء ـ القاهرة) ، رسائل المعري (أكسفورد ـ بيروت) .

من كتب العلوم المختلفة

تقييد العلم للخطيب البغدادي (مخطوط في دار الكتب الظاهرية) ، إحصاء العلوم للفارابي (٣٣٩ ـ القاهرة) ، مفاتيح العلوم للخوارزمي (٣٨٧ ـ ليدن) ، طبقات الأمم لصاعد (٤٦٢ ـ بيروت) ، المزهر للسيوطي (القاهرة) ، المشتبه في أسماء الرجال للذهبي (ليدن) ، الإشارات الإلهية لأبي حيان التوحيدي (مخطوط في دار الكتب الظاهرية) ، المقابسات؛ له (القاهرة) ، الوساطة بين المتنبي وخصومه لعلي بن عبدالعزيز (٣٦٦ ـ صيدا) ، هبة الأيام للبديعي (القاهرة) ، تذكرة ابن حمدون (٥٤٦ ـ القاهرة) ، التذكرة الحمدونية (مخطوطة في استانبول) ، الدين والدولة لعلي بن ربن (٢٤٧ ـ القاهرة) ، جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر (٤٦٣ ـ القاهرة)، الانتصار للخياط (القاهرة) ، مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين لأبي الحسن الأشعري (٣٢٤ ـ استانبول) ، الملل والنحل للشهرستاني (٥٤٨ ـ القاهرة) ، الفصل في الملل والنحل لابن حزم (القاهرة) ، الفرق بين الفرق لعبد القاهر البغدادي (٤٢٩ ـ القاهرة) ، الآثار الباقية للبيروني (٤٤٠ ـ ألمانيا) ، الفهرست لابن النديم (٣٨٥ ـ ليبسيك) ، كشف الظنون لكاتب جلبي (١٠٦٧ ـ القاهرة)، معجم المطبوعات العربية والمعربة لسركيس (القاهرة)، كتاب الأموال للقاسم بن سلام (٢٢٤ ـ القاهرة) ، المعارف لابن قتيبة وأدب الكاتب؛ له (ليدن) ، معالم الكتابة لابن شيث القرشي (القرن السادس ـ بيروت) أساس البلاغة للزمخشري (٥٣٨ ـ القاهرة) ، لسان العرب لابن منظور (٧١١ ـ القاهرة) ، القاموس المحيط للفيروزابادي (٨١٧ ـ القاهرة) ، تاج العروس للزبيدي (١٢٠٥ ـ القاهرة)، معجم ما استعجم للبكري (٤٨٧ ـ غوتنغن)،

الإسلام والحضارة العربية للمؤلف (القاهرة) ، القديم والحديث للمؤلف أيضاً (القاهرة) ، الأزمنة والأمكنة للمرزوقي (القرن الخامس – حيدر آباد الدكن)، أدب الكتاب للصولي (القاهرة) ، الملاحن لابن دريد (٣٢١ – القاهرة) ، تلبيس إبليس لابن الجوزي (٥٩٧ – القاهرة) ، مقدمة ابن الصلاح (٦٤٣ – حلب) ، الحيوان للجاحظ (القاهرة) ، التيسير والاعتبار للأسدي (القرن العاشر – مخطوط في دار الكتب الظاهرية) ، مجلة المقتبس (القاهرة ودمشق) ، مجلة المجمع العلمي العربي (دمشق) .

الكتب الفرنسية

Encyclopédie de L'Islam — معلمة الإســلام

G. Lanson : L'art de la prose — فن النثر للانسون

تاريخ اللغة الفرنسية وآدابها لبتي دي جولفيل

Petit de Juleville : Histoire de la langue et de la littérature française.

Emerson : Sept essais . — سبع باكورات لاميرسون

فهرست الكتاب

كتاب « أمراء البيان » للأستاذ المرحوم محمد كرد علي من الكتب الخالدة ، نقرؤه اليوم ، كما كان الأدباء يقرؤونه قبل ثلاثين عاماً . فقد استكمل له صاحبه عدة التأليف وحشد له ما يحشد الغربيون لأعلامهم الأدباء من جهد ودقة واستيعاب ، فاستعرض قبل تأليفه كتب الرجال في التراجم ، وقرأ كتب التاريخ ، ونظر في كتب البلدان ، ودقق في كتب الأدب والعلوم المختلفة ، فلم يغادر منها ما ينفع في دراسة هؤلاء « العشرة المبشرة بالبلاغة في عصر العرب الزاهر » .

وهذه الأسماء الخيرة التي نفعت الكتابة العربية ونفحتها بأجمل ما تنفح العقول العبقرية ؛ قد اختارهـا المؤلف من عيون الكتابة في البيان العربي ، على ذوق رفيع وعلم عميق ، وتجربة مثالية ، فتناول بالدراسة عبد الحميد الكاتب ، وابن المقفع ، وسهل بن هرون ، وعمرو بن مسعدة ، وابراهيم الصولي ، وأحمد بن يوسف الكاتب ، ومحمد بن عبد الملك الزيات ، والجاحظ ، والتوحيدي ، وابن العميد .

الثمن : ١٠ ل. ل.
او ما يعادلها

مطابع دار الكتب
بيروت ص. ب ٣٥٥٩